

ميليسا را كوستا

مكتبة

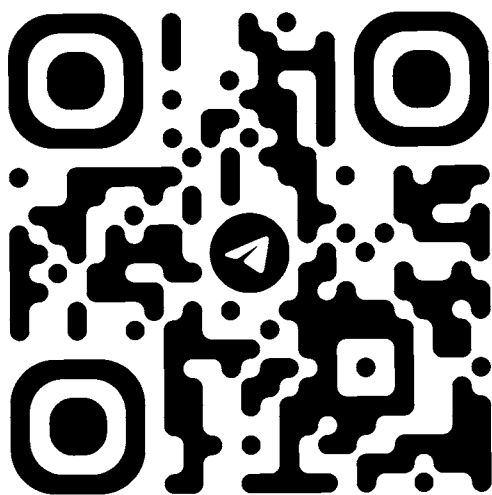
كلُّ أزرق السماء

رواية



منشورات وسم

ترجمة
روز مخلوف



سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

كل أزرق السماء

الكاتب: ميليسا دا كوستا
عنوان الكتاب: كل أزرق السماء

الطبعة الأولى الخاصة بمصر 2025

رقم الإيداع: 2025/14061

الترقيم الدولي: 7-13-8281-633-978



ملشورات وسم

الكويت - العاصمة - القبلة - شارع فهد السالم
عمارة أسامة - الدور الأول س- مكتب رقم 26
إيميل wasm_publishing@hotmail.com
تصميم الغلاف: محمد إسلام Medislamm@

التنسيق الداخلي: ضياء فريد

© Éditions Albin Michel - Paris 2021

First edition © Carnets Nord - 2019

Tout le bleu du ciel by Mélissa Da Costa

مكتبة

t.me/soramnqraa

میلیسا دا کوستا

كل أزرق السماء



ملشورات وسم

رواية

مكتبة

t.me/soramnqraa

ترجمة

روز مخلوف

إلى إميلي (ي) ذي العينين الساحرتين

مكتبة

t.me/soramnqraa

إعلانات مبوبة.

الموضوع: بحث عن شريك لرحلة نهائية.

المعلن: إميل 26

التاريخ: 29 يونيو 02:01

الرسالة: شاب عمره 26 عامًا، محكوم بالزهايمر مبكر، يريد السفر في رحلة أخيرة. يبحث عن رفيق لمشاركة هذه الرحلة الأخيرة.

خط سير الرحلة يتم الاتفاق عليه معًا. جبال الألب، الألب العليا، البيرنييه. السفر في عربة تخييم، تتخلله مقاطع مسير (مع حمل حقيبة ظهر وخيمة). من المناسب التحلي بشروط جسدية مناسبة.

الانطلاق: في أسرع وقت ممكن. مدة الرحلة: سنتان كحد أقصى (حسب تقديرات الأطباء). مع إمكانية تقصير المدة.

الملف الشخصي لرفيق السفر: غير مطلوب كفاءة طبية خاصة: لا أتلقى أي رعاية خاصة أو علاج، وأتمتع بكل قدراتي الجسدية. أن تكون حالته العقلية جيدة (هناك احتمال أن أتعرض لحالات متفاقمة من فقدان الذاكرة).

أن يحب الطبيعة.

ألا تخيفه ظروف الحياة البدائية قليلًا.

أن تتوفر لديه رغبة المشاركة في مغامرة إنسانية.

التواصل معي فقط عن طريق البريد الإلكتروني. يمكن التواصل هاتفيًا بعد ذلك.

فرك إميل ذقنه، وهي عادة اكتسبها منذ الطفولة عندما يفكر في أمرٍ ما أو يكون متردداً. لم يكن متأكدًا بشأن إعلانه، وكان يجده باردًا بلا خصوصية، وجنونيًا إلى حدٍّ ما. لقد كتبه دفعة واحدة وبلا تفكير في الساعة الواحدة صباحًا، وهو لم ينم منذ أسبوع، إلا قليلًا؛ الأمر الذي لا يساعد على الكتابة.

أعاد قراءة الإعلان. ووجد أنه يترك طعامًا غريبًا في الفم، مائلًا إلى المرارة. لكنه قال لنفسه إنه مناسب على هذه الصيغة، فهو قاتم بما يكفي لإبعاد ضعاف القلوب، وجنوني بما يكفي لإبعاد التقليديين. لن يتمكن سوى شخصٍ ذي سماتٍ خاصة من كشف الطابع غير التقليدي لهذا الإعلان.

منذ أن تم إبلاغه بالتشخيص الطبي، وهو يرى أمه تبكي وأباه يُطبق فكَّيه بقوة، وأخته تذوي ويمتلئ وجهها بهالاتٍ سوداء من الحزن. أما هو، فقد تلقى النبأ بيقين تام بأن الحياة ستنتضي يومًا ما مهما طالت. قيل له إنه ألزهايمر مبكر، وهو مرض تنكس عصبي، يؤدي إلى فقدان تدريجيٍّ للذاكرة، ولا يمكن شفاؤه. سيدك المرض في النهاية حصون الدماغ إلى أن يدمره. وسيهاجم جذع الدماغ المسؤول عن الوظائف الحيوية: ضربات القلب، وضغط الدم والتنفس.. والخبر الجيد؛ أن موته سيكون سريعًا، خلال عامين على أبعد تقدير. هذا (مُرضي)... لا يريد أن يصبح عبثًا، ولا أن يمضي بقية حياته، عشرات أخرى من السنين، في حالة عجزٍ ناجم عن شيخوخةٍ مبكرة. يفضل أن يعرف أنه سيموت عما قريب. ستان مدة مناسبة، يمكنه الاستفادة منها قليلًا.

وفي نهاية المطاف، إن رحيل لورا قبل سنة، ليس أكثر سوءًا. كانت الأمور ستتعقد كثيرًا، كما يكرر لنفسه منذ صدور الحكم الطبي قبل أسبوع. رحلت لورا وانقطعت أخبارها منذ سنة، وانقطعت حتى اتصالاتها الهاتفية. لا يعرف أين تعيش، وهذا أفضل. فبهذا الشكل لم يعد لديه ارتباطات. وبإمكانه أن يسافر، أن يقوم بتلك الرحلة الأخيرة بنفسٍ صافية. ليس لأنه لم يعد لديه أحد... فهناك والداه، وهناك أخته مارجوري وزوجها باستيان، وتوأمهما. هناك رينو، صديق طفولته، الذي أصبح لتوه أبًا، ويبحث عن منزلٍ يكون فيه عائلته. رينو أب ومتزوج... إنه انتقام الحياة! ما كان أحدهما ليراهن على ذلك قط. كان رينو هو الصبي القصير والسمين الجالس في آخر الصف. كان مريضًا بالربو، لديه حساسية

من الفستق، ويثير السخرية في أي ميدان رياضي. أما هو، فقد كان ذلك الصبي المشاغب والمتمرد، سريع البديهة. وكل من يرى السمين القصير والمتمرد، معًا، كان يتساءل عما يجمع بينهما. بقي رينو دائمًا في ظله. ثم تغيرت الأمور بمرور السنين. كان ذلك أفضل لرينو الذي بدأ بخسارة عشرة كيلوجرامات من وزنه، ثم وجد طريقه: أصبح معالج نطق. طرأ عليه تحول منذ ذلك الحين. ولما التقى رينو ليتيسيا، أصبحا يشكلان اليوم عائلة. في حين أنه هو، الصبي المشاغب، وجد نفسه مُلقى على قارعة الطريق. ستة وعشرون عامًا، لم تعد تتصف بتلك الحيوية. لقد ترك لورا تغادر..

هز إميل رأسه وهو يسند ظهره إلى مقعد مكتبه. لم يعد من المناسب أن يكون عاطفيًا ويمجّر الماضي. يتعين عليه الآن التركيز على الرحلة. لقد خطرت له فكرة هذه الرحلة فور إبلاغه بالحكم. استغرق منه الأمر ساعة أو ساعتين كي ينهار، ثم بزغت في رأسه فكرة الرحلة. لم يكلم أحدًا عنها. كان يعلم أنهم سيمنعونه من القيام بها. سارع والداه وأخته لتسجيله في مركز الاختبار السريري، رغم أن الطبيب أوضح أن المقصود بالاختبار، ليس الشفاء أو المعالجة، بل التعرف أكثر قليلًا إلى مرضه النادر. لم تكن له أي مصلحة في أن يمضي عاميه الأخيرين في غرفة مشفى بوصفه موضوعًا تجري عليه دراسات طبية. لكن والديه وأخته قد أصروا، وهو يعرف السبب. إنهم يرفضون قبول موته، يتمسكون بالأمل الضئيل بأن تساعد الدراسات الطبية وملاحظاتها السريرية، على إبطاء المرض. وما الغاية من إبطاء المرض؟

هل لإطالة حياته؟ إطالة شيخوخته؟

لقد رأى كل شيء: سوف يقوم برحلته. سيسوي التفاصيل بأكبر قدرٍ من السرية دون أن يقول لهم كلمة، ويمضي.

وجد عربة تخميم، وأرسل النقود. سيأتي بها في نهاية الأسبوع، ويركنها في موقف سيارات بالمدينة في انتظار تسوية كل شيء، حتى لا يثير شكوك أبويه وأخته. لا يزال مترددًا بشأن رينو، هل يكلمه في الأمر؟ هل يطلب رأيه؟

لا يعرف. لو كان رينو أعزب، وليس لديه طفل، لتغير الأمر. كان ممكناً أن يرحل معاً، لا شك في هذا. لكن الأمور تغيرت، ولدى رينو حياته ومسؤولياته. ولا يريد إميل أخذه في تجواله الأخير. رغم أن كليهما حلما بالمغامرات، وكانا يقولان: «عندما ننهي الدراسة، سننطلق وكل منا يحمل حقيبة ظهر وخيمة إلى الألب.»

ثم التقى إميل لورا، والتقى رينو ليتيسيا. تخليا عن رغبتهما في الهروب. اليوم، بعد أن بات بلا ارتباطات، يستطيع أخيراً أن يسافر. ولم يتبق أمامه سوى سنتين يعيشهما، وأهل يستعدون لفقدانه. الآن أو بعد سنتين، ليس هناك فرق كبير. أعاد قراءة الإعلان مرة أخيرة. نعم إنه غريب ومجرد من الخصوصية الفردية. نعم، من المحتمل ألا يستجيب له أحد. لا بأس. سوف يرحل في كل الأحوال. ولكنه يخشى أن يموت وحيداً، إذا سافر بمفرده. هذا يقلقه. ولكن إذا كان لا بد من ذلك، إذا لم يستجب أحد لإعلانه، فلا بأس، سيمضي، لأن حلمه الأخير أقوى من خوفه. ضغط على زر (إرسال) وظهرت رسالة على شاشته تشير بأن الإعلان قد نُشر للتو. استرخى في مقعده متنهّداً. إنها الواحدة والربع صباحاً. إذا استجاب أحداً ما، إذا توفر لدى أحد الجنون أو الشجاعة (لا يعرف بالضبط كيف يحدد ذلك)، واستجاب، فهو مقتنع بأنه قد وجد أفضل رفيق سفرٍ على الإطلاق.

«صديقي إميل، أنا آسف لأنني لم أستطع ترك الصغير مع ليتيسيا، فهي تعمل، وهي أساساً ستنضم إلينا فور انتهاء عملها.»

بدا رينو محرجاً لأنه دخل غرفة المستشفى وهو يحمل طفله. ربت إميل فوق كتفه.

«كفى، أنت تعرف جيداً أنني أحب رؤية صغيرك.»

«كان يفترض أن ينام، فهو لم ينام طوال الليل. كان يفترض أن ينهار الآن.»

بدا رينو متعباً. راقبه إميل كيف يلف الصغير بذراعه وهو يصارع لفتح عربة الأطفال. بالكاد يبلغ الصغير ستة أشهر من العمر، ولم يعتد إميل قط رؤية رينو مع طفل. لا يزال الأمر يبدو له منافياً للصواب، لذلك فإن رؤيته له هناك، محاولاً فتح عربة أطفال بهذه الهيئة شديدة التركيز، أمر يفوق كل شيء.

«لماذا تضحك؟»

«أشعر أنني أمام سراب.»

«ماذا؟ ما السبب؟»

«أنت والصغير، وعربة الأطفال القابلة للطي.»

«اسخر كما تشاء. يومًا ما سي...»

لم يمهله جملته وفهم إميل السبب على الفور. كان رينو سيقول كعادته: «يومًا ما سيحدث لك ذلك أيضًا.»

لكنه توقف فجأة، وقد احمرَّ خجلًا من هفوته.

«آسف... لقد...»

هز إميل رأسه، وأجاب بابتسامة عريضة:

«لا، لن يحدث لي هذا. سأنجو من ذلك في الأقل! من قال إن الحياة ليست محكمة الصنع؟!»

حاول أن يجعل رينو يبتسم ولكن بلا فائدة. أفلت رينو عربة الأطفال واستدار نحوه بوجه متألم.

«كيف تفعل؟ أعني... أنا لم أعد أستطيع النوم بسبب ما جرى لك، أنت كيف تستطيع التعامل مع الأمر بدعابة؟»

حاول إميل تفادي نظراته متظاهراً بفحص أظافره. ارتسمت على وجهه هيئة عدم اكتراث.

«لا بأس. أعني... خلال بضعة شهور، لن أعرف حتى من أكون، وعندها... لن يعود هناك أهمية لشيء. لا داعٍ للقلق!»

«إميل... أنا لا أمزح.»

«ولا أنا.»

اغرورقت عينا رينو بالدموع وأوشك أن يرخي لها العنان. انتابت إميل، لثانية، رغبة في أن يخبره بكل شيء كاشفًا عن كل خطته: سيسير كل شيء على ما يرام يا صديقي، سأسافر، سأذهب في مغامرة بحفية ظهري، في عربة تخييم، كما كنا نحلم. سأعيش ستين سنة في سنة واحدة. أعدك بأنني لن أندم على شيء.

لكنه لم يستطع. لا لأن رينو سيحاول تثبيط عزيمته، بالعكس تمامًا. المشكلة في مكان آخر. رينو أكثر من صديق، إنه أخ، وإذا علم بأنه راحل، ستدمره فكرة تركه يذهب بمفرده، وعدم مرافقته. ومن غير الوارد أن يرضى إميل أن يُشعره بالذنب. فمن شأنه، على حد معرفته به، أن يقرر مرافقته مهما كان الثمن، لبضعة شهور أو بضعة أسابيع في الأقل، وهذا سيجعل الأمر أصعب على الاحتمال. لا يريد أن يكون ذلك الذي يُبعد رينو عن أسرته ولو لفترة قصيرة.

«لست مضطراً أن تتخذ أمامي مظهر الشخص القوي.»

أصرّ رينو وعيناه تترقرقان أكثر بالدمع.

«ابنك على وشك السقوط.»

كان الطفل يتزلق بالفعل من بين ذراعي رينو الذي يوجّه كل تركيزه نحو إميل.
«أوه. اللعنة.»

التقط رينو الطفل ووضعه فوق سرير المشفى بالقرب من إميل الذي أمسكه ووضعه في حجره.

«إميل...»

«ستسير الأمور يا صديقي. الحياة لعبة حظ. هذا هو حظي منها، وعليّ أن أتعامل مع الوضع.»

«لا يمكنك أن تقول هذا.»

استخدم حيلة أبويه وأخته: إخفاء الحقيقة المرعبة خلف أملٍ لا عقلائي. حاول أن يبدو بمظهر ذي مصداقية: «هناك ذلك الاختبار السريري... لا أحد يعرف.» يبدو أن الأمر قد نجح لأن رينو تخلى عن اكتسابه وعاد للصراع مع عربة الأطفال.

«هل تريد مساعدتي؟»

«لا، الأمور بخير.»

«إذًا، كيف حالك أيها الشقي الصغير الأثير لدي؟»

من فوق ركبتَي إميل، أطلق الطفل صرخةً ابتهاج. أطلق عليه رينو وليتيسيا اسم تيفان، وهو اسم اخترعاه. ويشبه إميل في وقوع رينو ضحية لـ ليتيسيا في هذا،

لأنه لا يستطيع أن يرفض لها أمرًا. تيفان... يا له من اسم! إنه يفضّل أن يسميه (شقي)... حتى هذه التسمية أفضل. تمكن رينو في النهاية من فتح عربة الأطفال. نهض وحمل ابنه ووضعه داخلها كمن يضع شيئًا ثمينًا. بعد تأمين الطفل، جلس رينو على السرير قرب إميل، وراح يراقبه على نحوٍ غريب.

«حسنًا... كيف... كيف الحال؟»

«لا بأس. وأنت وليتيسيا؟ هل زرتما بيوتًا جديدة؟»

لم تنفع حيلة الهروب. تابع رينو:

«صادفتُ أمك في بهو المشفى.»

«متى؟ الآن؟»

«نعم. إنها...»

لم يجرؤ أن يواصل. أنهى إميل الجملة بدلًا منه:

«إنها منهارّة، أعلم ذلك.»

«لحسن الحظ أن هناك ذلك الاختبار السريري...»

«نعم... لحسن الحظ...»

«اللعنة...»

مرّ رينو بيده فوق وجهه. يبدو كأنه تقدّم في السن. لقد سبب له إعلان مرض إميل صدمة كبيرة.

«كيف التقطتَ هذا المرض؟»

«لم ألتقط شيئًا على الإطلاق. إنه مرض جيني نادر، هذا كل ما في الأمر.»

«نعم، ولكن لماذا أنت؟»

«لماذا أنا؟ لماذا لا يكون أنا؟ إنه اليانصيب الكوني العظيم، هذا كل شيء.»

«كيف تستطيع الحفاظ على معنوياتك؟ كيف تستطيع منع نفسك من تحطيم

كل شيء؟»

«ومن النحيب؟ والتحسر على مصيري؟»

لم يعد رينو يعرف بما يجيب.

«كل ما في الأمر، أنني قبلتُ بمصايب.»

«لطالما كنت هكذا.»

«هكذا، كيف؟»

«جريء، قوي... بينما أنا كنت المتشائم، الخائف. كنتَ تسحبني دومًا نحو الأعلى.»

«أنت في الأعلى رينو. لقد نجحتَ بمفردك، ولم تكن في حاجةٍ إلي.»
ابتسم رينو. لم يعد باستطاعته ضبط مشاعره. أفلتت دمة من زاوية عينه، وتقطع صوته:

«سأفتقدك بشدة يا صديقي.»

ولم يعد إميل يستطيع الصمود أكثر. في حلقه غصة ينكرها. لكن دموع رينو شيء فوق الاحتمال، جعلته يتخلى عن تحفظه. المرات التي تبادلا فيها العناق لم تكن كثيرة، أما في تلك اللحظة، فقد بدا لهما الأمر بديهيًا.

«كفى. لم نصل إلى هناك بعد.»

«آسف... إنني أبكي مثل فتاة.»

«وأمام صغيرك الشقي. ألا تحجل؟!»

ابتسم رينو وسط الدموع، وأخذ شهيقًا. أما إميل، فقد تمالك نفسه. الغصة في حلقه تحرقه لكنه لن يبكي. لقد اتخذ قرارًا بذلك. أصاب رينو. لقد اتصف دومًا بالجرأة والقوة. سيبقى كذلك حتى النهاية.

«متى تأتي ليتيسيا؟ عليك أن تحفف دموعك قبل أن تصل وتراك على هذه الحال. ربما تتخلى عنك.»

«لن تجرؤ على حرمان الصغير من الأب.»

«أرجو ذلك من أجلك.»

راح رينو ينظر إليه نظرة غريبة، بعينين مبللتين.

«هل تؤمن حقًا بالاختبار السريري؟»

لم يكن لدى إميل رغبة في الكذب عليه.

«لا.»

وتدلى كتفا رينو أكثر.

«لماذا إذا قلت...»

«لأنه لا بد من قول شيء ما.»

«ماذا ستفعل؟»

«ماذا سأفعل؟ ما الذي تقصده؟»

علت صرخة من عربة تيفان، لكن لم يتحرك أحدهما. راح كلُّ منهما يعاين الآخر، مترقبًا رد فعلٍ ما في نظرتيه.

«لن تبقى هنا في انتظار الخضوع لذلك الاختبار السريري.»

لم يكن ذلك سؤالًا من جانب رينو، بل كان تأكيدًا واضحًا وصريحًا. أضاف:

«أعرفك يا صديقي، لست أنت من يفعل ذلك.»

نظر إميل بمودة إلى صديقه، بعينيه المحمّرتين من الدموع. صديقه الأقدم. صديقه السمين القصير والمصاب بالربو، أحد أعمدة حياته، قد فهم الأمر. فهمه بالطبع. كلُّ منهما يعرف الآخر عن ظهر قلب.

«صديقي...»

«كنت متأكدًا من ذلك!»

«لم أقل شيئًا بعد...»

«كنت أعرف أنك تُعدّ لشيء ما!»

«صحيح. لن أبقى هنا.»

«كنت واثقًا بذلك!»

لم تعد هيئة رينو محطمة، بل بدا شبه مبتسم، وقد اعترته إثارة لا يزال يخالطها ألم.

«أخبرني!»

«لن تقول شيئًا لأحد، اتفقنا؟»

«أجنتت؟ لن أقول أبدًا!»

«سأسافر.»

«تسافر؟ إلى أين؟»

«لا أعرف بعد إلى أين...»

قاطعتهما طرقات على الباب. جفل رينو، مسح على عجلٍ عينيه المبللتين.
أجاب إميل:
«مَن؟»

انفتح الباب عن امرأة شابة بشعرٍ أشقرٍ مجعد، بزِيٍّ ضيقٍ من قطعتين.
«ليتيسيا!»

بدت مبهورة الأنفاس. نزعت نظارتها الشمسية، وضعت حقيبة يدها على الأرض، وألقت نظرة سريعة على عربة تيفان.
«لم ينم؟»

التقط إميل في الحال كيف تغيرت وقفة رينو الذي انتصب ونفخ صدره. اتخذ هيئة الرجل المهم، هيئة الأب المسؤول. ما إن تحضر ليتيسيا حتى يقوم بتلك النقلة السلوكية الصغيرة. لا شك أن لخصور ليتيسيا تأثيرًا لافتًا. إنها امرأة حقيقية ذات عقلٍ راجح، ولديها فكرة واضحة عما يجب أن تكون عليه الحياة. إنها تعرف ماذا تريد وإلى أين تذهب. تعمل بجِد، وتقف على كل الجبهات.
«كان على وشك النوم.»

لقد كذب، خشية أن تعده ليتيسيا أبًا سيئًا، ما دعا إميل للابتسام. اقتربت ليتيسيا من السرير وقبلت رينو على عجلٍ قبل أن تقف أمام إميل.
«هل أنت بخير؟»
«بخير.»

عانقته. لم يكن معتادًا المبادرات العاطفية تلك من جانبها. كانا دومًا متفاهمين ولكن مع الاحتفاظ بمسافةٍ من التهذيب والتقدير. بالمقابل لم ينشأ أدنى تفاهم بين لورا وبينها. كانت لورا نقيضًا لها. لورا سمراء، بينما ليتيسيا شقراء، لورا لامبالية وطلقة بينما ليتيسيا جدية وتحسب للأمور. أهمته الأولى حبًّا لا حد له بينما أوحث له الثانية بإعجابٍ ممزوج بالخشية. لطالما فضَّلَ لامبالاة لورا وتلقائيتها، وجانبها الطفولي. كانت حرة مثل الهواء. لقد رخلت.

أنهت ليتيسيا عناقها لإميل. منذ الإعلان عن مرضه، أصبح الناس من حوله فجأةً مثل ليتيسيا منفتححي القلب يعبرون عن مشاعرهم بلا تحفظ. عناقات،

نظرات طويلة، جمل هامسة، كما لو أن الضجيج قد يقتله. كان هذا يشعره بعدم الارتياح. إنه لا يجب هذا.

«ما زلت غارقة في العمل؟» سأل إميل.

«لا تكلمني عن العمل...»

«والبيت؟»

«لم يعد لدينا وقت لرؤية بيوت. بين تيفان والعمل... يصيبنا الإنهاك.»

ساد الصمت ثانية في غرفة المشفى. جلست ليتيسيا أمام النافذة بالقرب من عربة تيفان. وبإحدى يديها راحت تمسح على رأسه متفكرةً. بدا أنها تمالكت نفسها:

«متى ستبدأ خوض الاختبار السريري؟»

«الأسبوع المقبل.»

«لماذا يبقونك هنا؟»

«يجرون لي فحوصات قبل بدء التجربة.»

«فحوصات؟»

«تحاليل دم، فحص الـ DNA، صور سكاثر، اختبارات ذاكرة...»

«يا إلهي.»

ردّت خصلة شعرٍ منفوشة على رأس تيفان، ثم استأنفت:

«هل ستخرج من هنا نهاية هذا الأسبوع؟»

«طبعًا، لستُ سجينًا كما تعلمين.»

حاول إضحакها لكنه فشل. لطالما كانت ليتيسيا جدية. فكّر إميل في أنها تبث الطمأنينة في نفس رينو، وأن هذا هو سبب حبه الشديد لها. لقد كان رعيدًا دائمًا، ووجد فيها سندًا قويًا.

«ستأتي إذا لتناول العشاء عندنا في نهاية هذا الأسبوع.»

«يبدو لي ذلك رائعًا.»

«مساء الجمعة. تعال مساء الجمعة، وسأعدُّ اللزانيا.»

«برنامج جميل!»

شعر إميل بأن رينو يتفحصه بريبة، يترقب دليلاً في نظرتة. كان رينو يعلم أنه يريد السفر، ويتساءل حتماً عما إن كان سيحضر في نهاية الأسبوع، إن كان يكذب أم لا. كان إميل يريد أن يطمئنه لكن ليتيسيا حاضرة وهو يرفض كشف خطته أمامها، لأنها ستعترض ولن تفهم.

على أي حال، سيكون هناك في نهاية هذا الأسبوع. سيأتي بعربة التخيم صباح السبت، ويركنها في الساحة أمام السينما، حيث تُركن عادةً البيوت المتنقلة والشاحنات الصغيرة المحاطة بإشكالات. وبعد ذلك ينظر في الأمر. إنه لا يعرف بعد متى سينطلق بالضبط. تمت مشاهدة الإعلان 107 مرات منذ نشره قبل يومين، ولم يستجب له أحد. لم يكن لديه أمل كبير، ولكنه راح يقول في سره إنه لا يعرف أحد ما قد يحدث. إنه ينوي الاستفادة من يوم الأحد لوضع خط سير الرحلة. كان يرغب في الذهاب إلى الطبيعة، إلى الغابات، إلى رائحة الصنوبر، إلى الحجارة المتدحرجة تحت القدمين.

«وماذا بشأن عملك؟»

جفل عند سماع صوت ليتيسيا. راقبته من مكانها قرب نافذة الغرفة، ويدها لا تزال فوق رأس تيفان.

«ماذا؟»

«لن تعود إليه كما اعتقد...»

«أوه... لا.»

«هل وضعوك في إجازة مرضية؟»

«نعم. لأجل غير مسمى.»

خيم على الغرفة صمت ثقيل. كان رينو يتلوى في ضيق.

«هذا ما لن أشتاق إليه.» أضاف إميل.

كان عمله يقوم على الربط بين الفنادق ومواقع الحجز، ثم يتقاضى عمولة مقابل كل عقد يتم توقيعه. كانت الشركة الناشئة التي يعمل لها صغيرة جداً، تأسست قبل ثلاث سنوات بالكاد. وتتكون إضافة إليه، من المدير، وهو صديق صديقة لورا. وهي التي ربطت بينهما قبل ثلاث سنين. كان المدير في الثامنة والعشرين من العمر، ويريد غزو العالم. لكنه لن يمضي بعيداً جداً، نتيجة افتقاره إلى الوسائل الكافية

لتحقيق طموحاته. إضافة إليهما، كان هناك متدرب يدعى جيروم - أنطوان، وهو ولد مدلل، غير كفء وكسول. لا لن يشتاق إلى هذا العمل. وقد قبله آنذاك من أجل الحصول على راتب، لكن العمل لم يثر حماسه قط، بل مارسه مثل إنسان آلي، لتمضية الوقت. ولهذا وجد صعوبة في إدراك التدهور الذي تتعرض له ذاكرته. وأرجع ذلك إلى الملل وانعدام الحافز: رسائل بريد إلكتروني ضائعة، يعيد كتابتها وإرسالها، ومواعيد وتذكيرات منسية مرة بعد مرة، وفي منتصف النهار، حالة الضياع أمام ورقة فارغة، كأنه أمام ثقب أسود (ما الذي كنت أريد فعله في الواقع؟)... كان عمله مملاً، بلا مفاجآت، وظن أن المسألة ببساطة هي أنه سئم منه. لكنها لم تكن كذلك. أو أنها لم تكن كذلك وحسب. كانت ذاكرته تتضرر، وبعد ذلك بدأت حالات الدوخة وفقدان التوازن. هذا بسبب التعب، فكّر من تداعيات رحيل لورا... بعد عام. والدته هي التي أصرت أن يستشير طبيباً. وأعلن الحكم.

كانت ليتيسيا عند النافذة، تكافح بالمقبض كي تفتحها.

«الحرارة جهنمية.»

تسلل إلى الغرفة هواء نهاية النهار، المنعش. بدأ شهر يوليو وراحت الطيور تغرد بقوة في الخارج.

«ألا يوجد جهاز تكييف هنا؟»

«لقد احتفظوا بأجهزة التكييف لجناح أمراض الشيخوخة.»

«لم أعد أستطيع الاحتمال. سأذهب لإحضار كأس ليمونادا باردة من الموزع الآلي. هل تريدان أن أحضر لكما شيئاً؟»

هز إميل رأسه بالنفي، وكذلك فعل رينو. جفت ليتيسيا جبينها الذي التصقت عليه بضغ خصلات جعداء.

غادرت الغرفة وأغلقت الباب في هدوء شديد. استدار رينو حالاً نحو إميل، يريد أن يعرف الآن.

«حسناً... ما الذي تُعدّ له؟»

«لا أعرف جيداً بعد.»

مد إميل ذراعه إلى منضدة السرير البيضاء، وتناول هاتفه، فتح صفحة إنترنت ونصفحتها، ثم نقر عليها.
«هذا ما أنا فيه حاليًا.»
مد هاتفه إلى رينو ليريه الإعلان.
«اقرأ.»

تسمر إميل خلف مقود عربة التخميم، محتارًا، مشتت الأفكار. ذهب هذا الصباح لتسلم العربة التي بدت في وضع ممتاز، حتى أن بداخلها أدوات مائدة وبياضات تبدو غير مستعملة. يمكنه الرحيل اليوم إذا أراد...
السيارة مركونة في موقف سيارات مقابل السينما، وإميل الغارق في الهم، متردد في النزول منها. لم يعد يعرف حقًا بماذا يفكر. في ذلك اليوم كان رد فعل رينو مذهولًا عندما اكتشف الإعلان.
«أن تفكر في الرحيل، أفهم ذلك... ولكن أن يكون ذلك برفقة شخص مجهول...»

ظهرت منه حركة ضيق كأنه يعتذر عن عدم تمكنه من أن يكون ذلك الشخص الذي سيرافقه في رحلته.

«لن يستجيب أحد للإعلان هذا أكيد... أو سيستجيب له شخص مخبول، أو مريض نفسي، أو مضطرب جنسيًا. ما الذي تقحم نفسك فيه؟»

صدم إميل من رد فعله. عادةً ما يكون هو ورينو متفقين، ولكن ليس هذه المرة، ما أثار في نفسه أسئلة. هل يتصرف رينو هكذا لأنه يعرف أنني سأموت قريبًا؟ لأنه يعرف أنني سأموت بعيدًا عن بيتي، بعيدًا عن أهلي؟ أم أن فكرتي تدعو للرثاء فعلًا؟
كاد أن يحذف الإعلان. إلا أن شخصًا ما استجاب له هذا الصباح، ولمفاجأته التامة، لم يكن الشخص رجلًا كما اعتقد في قرارة نفسه في حال استجاب أحدًا ما. لا، إنها امرأة، شابة. قالت إن عمرها تسعة وعشرون عامًا. كان يفترض أن يخيفها الإعلان، أو في الأقل، يشعرها بالقلق. أن تسافر بمفردها برفقة رجل لا تعرفه، يدعي أنه في آخر حياته، ولا تعرف شيئًا عن خط الرحلة أو هدفها العميق...

لكنها لم تقلق كما يبدو. نُشِرت رسالة قصيرة، ولم تطرح أسئلة تقريبًا. هل هي مضطربة نفسيًا؟

الموضوع: جواب: بحث عن شريك في رحلة أخيرة.

المرسل: جو.

التاريخ: 5 يوليو 29:08

الرسالة:

نهارك سعيد إميل 26،

أثار إعلانك اهتمامي.

أدعى جوانا، عمري 29 عامًا.

أنا نباتية ولا تهمني كثيرًا مسائل النظافة والرفاهية. بالكاد يبلغ طولي مترًا و57 سنتيمترًا، لكنني قادرة على حمل حقيبة ظهر تنزن 20 كيلوجرامًا لكيلومترات عديدة. أتمتع بحالة بدنية جيدة رغم تحسسي من بعض الأشياء (من لسعات الدبابير، من الفستق، ومن المحاربات).

لا أشعر.

لا أتكلم كثيرًا، أحب التأمل، خصوصًا عندما أكون في حضن الطبيعة.

أنا جاهزة للسفر في أقرب وقت ممكن.

في انتظار خبر منك.

جوانا.

لم يفعل شيئًا منذ هذا الصباح، سوى قراءة رسالتها، ثم إعادة قراءتها. لم يفهم كثيرًا. من هي؟ لماذا تفعل ذلك؟

هو الآن الذي تساوره الشكوك... لم تستفسر عن شيء. وهي مستعدة للانضمام إليه هكذا، بلا خشية. أي نوع من الفتيات هي؟

لديه رغبة شديدة في أن يري الرسالة فجأة لرينو لمعرفة رأيه. أنا نباتية ولا أدقق كثيراً في مسائل النظافة والرفاهية. من جهة الغرابة، هي غريبة! لم تتكلم حتى عن مرضه، عن حكم الموت الذي سيخيم فوق رأسيهما طوال الرحلة... هل هذا لا يعنيتها؟

لا أشخر. لا أتكلم كثيراً، أحب التأمل، خصوصاً عندما أكون في حضن الطبيعة.

فرك إميل ذقنه، ومر بيده فوق وجهه، فوق اللحية التي يواظب منذ عام على إبقائها. والشيء الذي يجد صعوبة في الاعتراف به؛ هو أن إعلانه يستدعي بالضبط هذا النوع من الاستجابة. لقد أعدّه لجذب هذا النوع تحديداً من الأشخاص. ما المشكلة إذا؟ لماذا هو الآن متشكك ومرتاب إلى هذه الدرجة؟

راح ينظر إلى نفسه في المرآة الارتدادية، ينظر إلى لحيته البنية، غمازتيه اللتين يمكن رؤيتهما تحت الشعر، عينيه الكستنائيتين لوزيتي الشكل. بدأت للتو تظهر تجاعيد في زاويتي عينيه. خطوط خفيفة جداً، كان واثقاً أن أحداً غيره لم يلاحظها. راقب هيئة القلق على وجهه، والتجعية على جبينه.

الواقع أنه لم يؤمن قط، ولم يتخيل أن أحداً سيستجيب لإعلانه. ليس فتاة على أي حال. هذا هو ما يحيره إلى هذا الحد. كانت لورا تمتلك ذلك الجنون، ذلك الجانب العفوي وغير التقليدي، لكنها لم تكن قط لتستجيب لهذه الرسالة، لم تكن قط لتنخرط في مغامرة مماثلة. مع ذلك، فقد كانت لورا أكثر فتاة عرفها تحرراً وتلقائية. لورا تلك التي كانت عليها في البداية على أي حال، والتي أحبها بجنون. أخرجه رنين الهاتف من أفكاره. راح اسمُ (أمي) يومض على الشاشة. انتظر ثلاث ثوانٍ طويلة قبل أن يجيب.

«إميل؟ أين أنت؟»

«كل أموري بخير يا أمي. أقوم ببعض التسوق. ماذا هناك؟»

«مررتُ بشقتك وطرقت الباب دون جواب...»

«انتظريني إذاً. سأكون هناك خلال عشر دقائق.»

«أردت فقط أن أعرف إذا كانت الأمور بخير أم لا. أختك هنا... مع التوأم.»

كبح التنهيدة التي أراد أن يطلقها، وأرغم نفسه على الرد في لطف:

«سأعود بأسرع ما يمكن.»

منذ أن صدر الحكم، لم يعد أحدهم يترك له لحظة واحدة من الراحة. أصبحوا يخنقونه. وأصبح يتعجل المغادرة والانتهاه من كل هذه السينما. حتى هم في الحقيقة سيراتحون. هم لا يعرفون ذلك بعد. هم حالياً ممتلئون بالألم والنوايا الحسنة، لكن كل ذلك سيثقل كاهلهم في النهاية. يجب أن يبدأوا بالعيش مجدداً. لا أحد يستطيع مساعدته بعد الآن. أما هم، فيجب أن يعيشوا.

الموضوع: جواب: رد على الجواب: بحث عن شريك في رحلة أخيرة.

المرسل: إميل 26

التاريخ: 5 يوليو 20: 11

الرسالة:

تشرفت بك يا جوانا.

علي الاعتراف بأنني لم أتوقع أي استجابة لهذا الإعلان.

أنت مفاجأة حقيقية.

في أي مدينة تعيشين بالضبط؟

إذا كان أحدنا لا يبعد كثيراً عن الآخر، يمكن أن نلتقي قبل السفر لكي نتداول

معاً بشأن خط الرحلة؟

أعيش بالقرب من روان.

إميل

ملاحظة: أدعوك لمخاطبتي دون تكلف.

حلت الحماسة محل الشك. تخلى إميل عن القلق والتخوف. أمضى نهاره مع أمه وأخته. واعتنت به كأنه يحتضر. أوشك أن ينفجر. رأهما تتبادلان نظرات الألم وتحبسان دموعهما. شعر بوطأة حكم الموت الذي يحوم فوق الرؤوس في الشقة. حتى التوأمين، ابني مارجوري، كانا يشعران بذلك. لم ييكيا، بل بقيا صامتتين أكثر

مما يتوقع من طفلين في الثالثة من العمر. سيصبح الوضع جحيمًا إذا بقي، وسيأخذ الموت مساحة أكبر فأكبر، ويخفق كل ما تبقى، ولن يبقى بينهم سوى تلك الرائحة النفاذة وهذا الطعم المرير لاقتراب الموت.

يجب أن يرحل وبسرعة بينما لا يزال كل شيء فيه على حاله تقريبًا.

الموضوع: رد على: رد على: جواب: بحث عن شريك في رحلة أخيرة.

المرسل: جو.

التاريخ: 5 يوليو 20: 21

الرسالة:

نهارك سعيد إميل،

أنا أعيش في سان مالو وأنت في روان. يفصلنا 700 كم. أخشى ألا نستطيع تناول قهوة معًا قبل الرحيل الكبير... بالمقابل أستطيع أن أكون في روان بعد غد. ستجدني في مخرج الطريق السريع رقم 3. سأرتدي قبة سوداء واسعة الحواف، وصندلاً مذهباً وحقيبة ظهر حمراء. ماذا تقول؟
جوانا.

الموضوع: رد على: رد على: جواب: بحث عن شريك في رحلة أخيرة.

المرسل: إميل 26

التاريخ: 5 يوليو 20: 29

الرسالة:

أقول يبدو أنك متلهفة بقدر ما أنا متلهف على الرحيل... هل أنا مخطئ؟
إميل.

لم ترد جوانا. الوقت منتصف الليل، وإميل مستلق في سريره، النوافذ مشرعة. إنه بمفرده في شقته. من الواضح أنها لا تريد الخوض في هذا الموضوع، وأخذ يتساءل عن السبب. يتساءل؛ من أي شيء تهرب هي؟

هو قالها بصراحة، أما هي، فلم تفعل. ربما لا تهرب من شيء، ربما تكون غبولة فقط. أو شبة. لا يعنيه، فهو سيموت ولم يعد هناك أهمية لأي شيء. كتب لها مجدداً، ليتأكد أنها لم تغير رأيها.

الموضوع: رد على؛ رد على؛ رد على؛ جواب؛ بحث عن شريك
في رحلة أخيرة.

المرسل: إميل 26

التاريخ: 6 يوليو 14:00

الرسالة:

هل يناسبك وقت الظهيرة؟

ليس لدي رقم هاتف. ماذا سنفعل لكي نجد أحداً الآخر؟
إميل.

الموضوع: رد على؛ رد على؛ رد على؛ رد على؛ جواب؛ بحث عن
شريك في رحلة أخيرة.

المرسل: جو.

التاريخ: 6 يوليو 49:00

الرسالة:

وقت الظهيرة مناسب لي. ستجدني من خلال القبعة السوداء والصندل المذهب
وحقيبة الظهر الحمراء.
جوانا.

أخذ قلب إميل يدق بقوة غريبة، وكان حلقه مشدوداً، ولا يعرف حقاً ما يفعل. وجد مشقة في قيادة عربة التخميم هذه، فلم يسبق له أن قاد مثلها. عند الإشارة الحمراء، نظر خلساً إلى نفسه في مرآة الرؤية الخلفية. بدا كما في الأيام السيئة، بهالاتٍ تحت عينيه، ولحية شعناء. رفع صوت الموسيقى إلى مستوى أعلى. إنه لا يريد التفكير مجدداً فيما فعله لتوه، وما تركه لتوه، أو بالأحرى، في أولئك الذين تحلى عنهم لتوه. لقد فعل ذلك بسرعة، بسرعةٍ شديدة، قبل أن يغير رأيه. أمس كان متردداً، وها هو يغادر هذا الصباح.

تحولت الإشارة إلى الأخضر. اتبع اللافتة التي تشير إلى الطريق السريع، واجتاز الدوار. المخرج رقم 3 في الأفق. من هنا، كان كل صيف، ولستة وعشرين عاماً تقريباً، يسلك الطريق السريع مع والديه وأخته، للسفر إلى الجنوب. طرد الذكريات، لم يعد يريدّها الآن. عليه التركيز على ما سيحدث.

خفّض صوت الموسيقى لدى دخوله ساحة التوقف الصغيرة عند مدخل الطريق السريع. هذا الثلاثاء ليس هناك اكتظاظ وقت الغداء. تحقق من التوقيت على لوحة القيادة. لقد وصل قبل عشر دقائق من الموعد، لا بد أنها لم تصل. لم يبق أحد في موقف السيارات. من سيأتي بها؟

أحد أصدقائها؟ أحد أقربائها؟ ماذا ستقول لهم؟

أوقف السيارة وأطفأ المحرك في اللحظة التي لمح فيها حركة في نهاية موقف السيارات. يوجد هناك في الطرف، شجرة. شجرة وحيدة نمت في بقعة صغيرة معشبة عند مدخل الطريق السريع. كانت الشابة هناك، تجلس عند جذع الشجرة. ليس هناك شك بأنها هي. إنها تجلس القرفصاء وعلى رأسها قبعة سوداء عريضة الحواف، وإلى جانبها حقيبة ظهر حمراء كبيرة مستندة إلى الشجرة. كانت تراقبه في تردد، رافعة يدها أمام وجهها لاتقاء الشمس. فصل إميل مفتاح التشغيل وفتح الباب، فنهضت الشابة في آخر الساحة. كانت ترتدي فستاناً أسود اللون

طويلاً، يصل حتى كاحليها ويخفي تضاريسها، دون أن يكون متأكداً تماماً من ذلك، كونها لا تزال بعيدة، لكنها تبدو له نحيلة، أقرب إلى الهشاشة، ضائعة داخل فستانها الفضفاض. أخذ يتقدم، وهي كذلك الأمر. شعر بنفسه أكثر غباءً وخرقاً مما لو كان ذاهباً إلى موعدٍ غراميٍّ أول. ها هي أمامه. إنها ضعيفة، ضئيلة الحجم، وكتفاها صغيران. تساءل؛ كيف لها أن تحمل حقبة ظهر بهذا الكبر؟!

تحت قبعتها السوداء يختبئ وجه دقيق الملامح، وعينان صغيرتان بنيتان بلا بريق، وشعر كستنائي فاتح متشابك، ليس أملس ولا متموجاً حقاً. لا بد أنها تصبح جميلة إذا أرادت، عندما تمشط شعرها، وترسم خطأ أسود اللون فوق عينيها، وعندما لا تغرق نفسها في ثياب فضفاضة ولا تختبئ في ظل قبعتها. لكنها حالياً تبدو صغيرة فقط، صغيرة وباهتة. مهملة بعض الشيء.

«مرحباً.» قال بحلقٍ مشدود قليلاً.

رفعت رأسها كي تجيبه، ولها الحق في ذلك لأن طولها بالكاد يصل إلى متر وسبعة وخمسين سنتيمتراً.

«مرحباً.»

لم تضيف شيئاً خاصاً. وجد نفسه وقد أخذ على حين غرة. لقد تخيلها بطريقة أخرى. رسالتها الأولى أعطت الانطباع بأنها فتاة تنصرف على راحتها، فتاة طليقة، غير تقليدية مع شيءٍ من الجنون، وليس هذا النوع الخجول جداً والمقتضب من النساء، الذي تلتهمه قبعته. شعر بأن عليه أن يواصل المحادثة لأنه يعرف أنها لن تفعل:

«حسناً، هذا أنا... إميل.»

هزت رأسها، وشرعت فيما يشبه ابتسامة.

«أنا جوانا.»

«هل أنتِ هنا منذ وقتٍ طويل؟»

«منذ ساعتين.»

«أوه! لم أكن أعرف... أنا آسف!»

«لا بأس، لقد أوصلوني قبل الوقت.»

كان صوتها ضعيفاً جداً. من الواضح أنها لا تمت بصلة إلى فتاة الرسالة الأولى.

«هل أوصلوك بالسيارة؟»

«بالأوتوستوب.»

«آه.»

لم يجد ما يضيفه. إنها هنا، واقفة أمامه بحقيبة ظهرها الحمراء الهائلة، لذلك أضاف:

«هل... هل أنت جاهزة؟ هل نذهب؟»

أومات برأسها، فتوجّها نحو عربة التخميم. كانت مشيتها ثقيلة وخفيفة في وقت واحد. ثقيلة لأنها تبدو كأنها تحمل عبئًا ثقيلًا، وخفيفة لأنها تبدو كأنها تطفو فوق الأرض. فتح لها الباب. بالكاد ألقت نظرة على داخل السيارة، عندها قال لها:

«هذه هي عربة التخميم. هذا هو المكان الذي سنعيش فيه.»

بدا له النطق بهذه الكلمات غريبًا. هذا هو المكان الذي سنعيش فيه. لم يعيش إلا مع لورا. واليوم سيتشارك هذه السيارة الضئيلة مع فتاة مجهولة تمامًا. ألقت نظرة مسحت بها مؤخرة السيارة.

«أوه. ممتاز.»

لم يلتقط في صوتها أي انفعالٍ خاص، ولا أي بريقٍ في عينيها. بدت في حالة عدم مبالاة تامة بكل ما يحدث لها. جلس إميل في مقعد السائق. ربطت حزامها، ولم تكن قد نزعَت قبعتها بعد. شعر أنها لن تفعل. راح يتهزّز وقد انتابه الضيق في مقعده، وأفلتت منه ضحكة عصبية.

«بخصوص خط الرحلة... نحن لم...»

انتهت الضحكة العصبية بسعالٍ خفيف.

«لم تنفق. لا نعرف إلى أين سنذهب...»

فجأة، بدا له الموقف عبثًا تمامًا. أن يصبح هنا، في مقدم هذا البيت المتنقل، مع هذه الفتاة الغائبة تمامًا عن نفسها، دون أن يعرف إلى أين يذهبان. ارتفع الصوت الضعيف:

«ليس للأمر أهمية بالنسبة لي.»

من هي؟ وماذا تفعل هنا؟

عجبا، ما الذي تهرب منه كي تلقي بنفسها في سيارة أول رجل تراه، دون خوفٍ على مصيرها؟

قررا التوجه تجاه البيرنيه. لم ينطقا بكلمة في أثناء الطريق. حاول إميل اختلاس نظرات خفية إليها، لكنه كان واثقا بأنها كانت مكشوفة. مع ذلك، لم يستطع منع نفسه من القيام بذلك. لقد جاءت الجملة هكذا بلا استئناف، بلا انحراف، بلا ادعاء: ليس للأمر أهمية بالنسبة لي.

وكان يعرف أنها صادقة تماما. لا يعنينا المكان الذي يذهبان إليه، ولا مَنْ يكون هو، ولا السبب الذي دفعه للقيام بهذه الرحلة، ولا ما يمكن أن يحدث لها... ليس لهذا كله أي أهمية بالنسبة لها. إنها لا تسعى إلا إلى الهرب. ممن؟ من أي شيء؟ هذا يدفعه للجنون.

لقد أدرك الآن أنه أخطأ الفهم. لقد اعتقد أن النبرة غير المتوقعة لرسالتها، نوع من التحدي، من المشاكسة. اعتقد أنه يتعامل مع شخصية خارج المعايير، مختلة قليلا، مجنونة قليلا، منفتحة قليلا. كان مخطئا. صحيح أن النبرة لم تكن متوقعة، ولكن لسبب بسيط... هذه الفتاة بعيدة عن الواقع، حاملة، بعيدة عن حياتها. إنها فتاة ضائعة، غائبة. لا بد أنها بالكاد تدرك أنها على قيد الحياة.

سارت بهما العربة، وكان صوت الموسيقى ضعيفا، يكاد يكون غير مسموع. كانت عينا الفتاة مثبتتين على الطريق. إنها ساكنة تماما... «أخبريني إذا أردت فتح النافذة...»

«نعم.»

«وإذا أردت أن تتوقف...»

«حسنا.»

تقاطرت كيلومترات الطريق تباعا، وبدأ يعتاد عربة التخيم وقيادتها وصمت الفتاة أيضا. قال لنفسه إنه أمر مناسب، فليس لديه مزاج أو رغبة في الكلام حقًا. في حلقة غصة وفي عينيه دموع، لكنه يتمالك نفسه. كان بالأمس عند والديه كي يخبرهما بموعد أول جلسة اختبارٍ سريريٍّ له.

«أمي، سجلي التاريخ في دفتر مواعيدك... فيها لو أحببت أن ترافقيني.»

شاهد مع والده بضع لحظات من برنامج (سؤال بألف يورو) فيما كانت والدته تسقي أزهار الأوركيد بالقرّب منهما. ثم ذهب إلى منزل مارجوري لمساعدتها على تبديل مصباح الثريا في الصالون.

«ولكن يا إميل... ما كان عليك أن تزعج نفسك لأجل هذا... منذ ثلاثة أشهر وأنا أعيش دونها...»

لقد بدت متفاجئة. كان زوجها باستيان يعمل كثيرًا، لأن الأمور لم تكن سهلة مع قدوم التوأمين، فكانا يكافحان لأجل تغطية احتياجاتهما. لم يتوفر لدى باستيان وقت للإصلاحات المنزلية الصغيرة، وعندما انطفأ مصباح الثريا قبل ثلاثة أشهر، سألت مارجوري إميل في ذلك الوقت عما إذا كان بوسعه المرور لتبديله. لم يفعل بالطبع. ليس لعدم توفر الوقت لديه... لقد أجّل تلك المهمة التي لم تكن بتلك الأهمية، ثلاثة أشهر. لكنه ذهب أمس للقيام بها. مر على (السوبر ماركت) لشراء مصباح ثم ذهب إلى مارجوري. كان باستيان في العمل. والشقيقان التوأمين يتناولان وجبة خفيفة بعد المدرسة. ومارجوري تنظف منضدة العمل.

«جئت من أجل المصباح.» أعلن.

وضعت له مارجوري سلمًا نقالًا في الصالون. وقف التوأمين أسفل السلم للمراقبة، وقد ثار فضولهما. بعدها قدمت له مارجوري القهوة، وأصرّت عليه أن يبقى لتناول الطعام معهم مساءً. لكنه أجاب بأنه لا يستطيع، وأن عليه أن يذهب إلى رينو. مع ذلك، انتظر عودة باستيان من العمل كي يتناول معه فنجانًا آخر من القهوة ويتبادل معه أحاديث عادية. انصرف بعد ذلك. قال: «إلى اللقاء.»

خرج بسرعة، بسرعة شديدة، متجهًا إلى بيت رينو. لم يكن ذلك الوقت للبكاء أو الاستسلام. كان أمامه وداع سري آخر، وجهه يطبعه في ذهنه قبل الرحيل في الغد. لذلك ذهب إلى بيت رينو وقرع جرس بابه حاملاً معه صندوق بيض.

«لقد أحضرت لي أمي صندوقًا منه أيضًا! صندوقان خلال أسبوع! سيتعرض البيض للفساد. سأخذه إلى بيتكم كي تستهلكوه بسرعة.»

أراد رينو الذي شحب لونه بشكلٍ غريب، أن يقول شيئًا. لكن ليتيسيا كانت هناك وقالت:

«أوه، هذا لطف منك! ألا تتناول كأسًا قبل ذهابك؟»

لقد تعمّد المجيء في تلك الساعة لأنه يعرف أن ليتيسيا ستكون هناك ولن يتمكن رينو من استجوابه، أو الانفراد به أو الانهيار على كتفه. لم يكن من العدل مباغتته على هذا النحو، لكنه لم يكن يريد أي وداع، فهو لم يستسغ يومًا القيام بذلك. قدمت له ليتيسيا مشروب المارتيني الذي شربوه معًا في الصالون. حمل إميل تيفان بين ذراعيه لجعله يصرخ قليلًا.

«ما زال صغيرك الشقي لا يحبني كثيرًا!»

كان رينو شاحبًا وصامتًا. كان يشتبه بأن هناك شيئًا ما غير عادي، وبأن هذه الزيارة ربما تكون الأخيرة. وفي لحظة مغادرته، حاول رينو استبقاءه عند عتبة الباب.

«إميل، انتظر...»

كانت ليتيسيا قد عادت إلى الصالون بعد أن ودعته.

«ما قصة البيض هذه؟ أنا لستُ أحمق!»

نظر إليه رينو بآلم عميق في عينيه. أجاب إميل:

«عليّ الانصراف حقًا يا صديقي.»

عانقه وأخذ يركض بأقصى سرعته وهو ينزل الدرج. صرخ رينو بكل قواه من أعلى:

«معتوه!»

لأنه فهم جيدًا. كان يعرف أن إميل يهرب مثل لصٍّ دون أن يودعه. سمع إميل صوت ليتيسيا تخرج إلى عتبة الباب وتسال رينو:

«ماذا دهاك؟»

انغلق باب شقتها من جديد. لم يعد إميل يسمع شيئًا. ذهب إلى شقته لأخذ حقيبة الظهر، أغلق الشقة بالمفتاح. أمضى تلك الليلة في عربة التخميم المركونة في موقف السيارات وسط المدينة، كي يضمن أنه لن يزعجه أحد، وأن رينو لن يظهر ويقتحم بابه. أمضى ليلة بيضاء، لم يستطع خلالها إغماض عينيه طوال الليل.

حاول إزاحة هذا كله، لكن الأمر لا يزال موجدًا جدًا. لم يسبق له أن قام بشيء مماثل. وتساءل عما إذا كان موجدًا بالقدر نفسه بالنسبة لجوانا، وإذا كان هذا هو سبب كونها لا تقول كلمة، وكونها ضائعة. ربما. ليس ذلك بالأمر السيس جدًا في نهاية المطاف، أن يلزم كل منهما الصمت، وأن يقدر كل منهما تلك اللحظة الشاقة.

توقفا في منطقة استراحة على الطريق السريع لتحريك أرجلها. بقيت جوانا قرب العربية. مشى إميل بضع خطوات تجاه الدكان. لقد فهم أشياء كثيرة خلال ساعات قليلة. أشياء كان يجملها. لم يكن يعرف كم هو أمر جميل وثمان أن يقوم بتبديل مصباح، وأن يرى أخته تبتسم، ويشاهد (سؤالاً بـ 1000 يورو) برفقة والده، ويشعر بأمة منشغلة بأزهار الأوركيد، ويسمع بكاء الشقي الصغير في أثناء قيام ليتيسيا بصب المارتيني في كأسه، بينما ينظر رينو من النافذة. لم يكن يعرف أن هذه أمور عظيمة القيمة. اعتقد عند رحيل لورا، أنه لم يبق له سوى الفراغ وأشياء عديمة القيمة. لم يرَ ما بقي له من الأشياء الصغيرة التي تجعلك تشعر بأنك محبوب، وأنت لا تزال حيًا.

ابتلع دموعه وهو يمر عبر الأبواب الزجاجية لمتجر استراحة الطريق السريع. لم يكن جائعًا لكن فترة بعد الظهر في آخرها ويجب شراء شيء ما تحسبًا لهذه الليلة. فلا بد أن يجوع. اختار شطيرة من الواجهة المبردة، ثم تجول بين الأقسام. لا يعلم إن كان لدى جوانا ما تأكله. قرر احتياطًا أن يشتري كيسًا من رقائق البطاطا، وعبوتين من كومبوت الفاكهة، كما أخذ علبتين من البازلاء وواحدة من العدس. سيشكل هذا نوعًا من المخزون الاحتياطي. عند وصوله إلى الصندوق، أضاف إلى مشترياته زجاجة ماء، وسلّم بطاقته الانتباهية.

«سته عشر يورو، من فضلك.»

الحرارة خانقة في موقف السيارات، وشمس يوليو حارقة. جلست جوانا في ركن صغير معشب قرب العربية، ومدت ساقها أمامها كاشفة بضعة سنتيمترات منهما. إنها شاحبتان. يبدو أنها لم تتعرض للشمس كثيرًا مؤخرًا. انضم إليها إميل ويده كيس المشتريات.

«هل تريد أن تأكلي؟ جئتُ ببعض المؤن.»

رفعت رأسها نحوه وهزته من اليسار إلى اليمين.

«أشكرك. ليس الآن.»

بدا أنها استعادت بعض الحياة، وأصبحت مجلها أطول. جلس بجانبها فوق رقعة العشب، وسأل كما لو أن أحدهما يعرف الآخر جيدًا:

«هل أنت بخير؟»

«بخير.»

ترددت ثم أضافت:

«هل تعرف أين سنمضي هذه الليلة؟»

هز إميل كتفيه.

«لا. كنت أنوي التوقف عشوائيًا، حين أشعر بالنعاس. لكن إذا كانت لديك

رغبة محددة...

«لا! كنت أسأل فقط...»

خيم الصمت من جديد. هناك سؤال يثير فضول إميل، لم يستطع منع نفسه

من طرحه:

«كيف عثرتِ على إعلاني؟»

اختفى وجه جوانا تحت قبعتها عندما خفضت رأسها فجأة. أخفت شعورها

بالحرج بنزع بعض أوراق العشب.

«كنت قد قررتُ الرحيل، وكنت في حاجةٍ إلى سيارة، وبحثت في الإعلانات

المبوبة كي أجد واحدة.»

انتظر إميل التهمة التي لم تأت.

«وعثرتِ هكذا على إعلاني؟»

«كان على الصفحة الرئيسية. أظن أنه حظي بمشاهداتٍ كثيرة لأنه ظهر بين

الإعلانات الأكثر قراءةً في الأربع والعشرين ساعة الأخيرة.»

«حقًا؟»

ارتسمت على وجهه ابتسامة نصف مبتهجة ونصف حزينة:

«يجب القول إن هذا الإعلان كان مفاجئًا بعض الشيء، أليس كذلك؟!»

هزت جوانا كتفيها.

«نعم، بلا شك.»

من الواضح أنها لم تجده مفاجئًا. أو أن انفصالها عن الواقع جعلها لا تدرك ذلك.

«كنت أعتقد أن من شأن إعلان مماثل أن يخيف امرأة.»

أصرَّ قليلًا كي يستدرج رد فعلها.

«أوه لا... لم يخفني أنا.»

فهم أنه لن يحصل على جوابٍ أكثر تحديدًا. نهض في بطءٍ وسألها:

«هل تريدان الذهاب إلى الحمام؟ تحريك ساقيك أكثر أيضًا؟»

هزت رأسها.

«لا، أموري على ما يرام.»

«هل ننطلق من جديد إذا؟»

«نعم.»

الطقس في الخارج أكثر برودة. مالت الشمس في الأفق. سارا عدة ساعات أخرى، ثم رأى إميل أنه سيغفو خلف المقود، فقرر التوقف. ركن السيارة إلى جانب أحد الطرق الرئيسية، قريبًا من بريف لا غايارد. كانت الساعة السادسة مساءً بالكاد، لكنه شعر الآن بجوعٍ شديد. أخرج طاولة قابلة للطي وكريسيين من خزانة حائطٍ بالداخل، ووضعها على طرف الطريق، وبهذه الطريقة ارتجلا بقعةً بمشابهة شرفة.

«ماذا تريدان أن تأكلي؟»

نظرت جوانا إلى الرفائق، والشطيرة وكومبوت الفاكهة. اختارت الكومبوت.

«هذا كل شيء؟»

«لست جائعة جدًّا.»

أكلت الفاكهة وهي واقفة، دون أن تجلس معه إلى الطاولة. ثم سألت عما إذا كان بإمكانها أن تستحم، وإذا كان خزان الماء ممتلئًا.

«طبعًا. لقد تحققتُ هذا الصباح، لا يزال لدينا خمسون لترًا. سنملأه غدًا. سنحاول العثور على منطقة لخدمة عربات التخيم...»
أومأت برأسها واختفت بالداخل. إنه الآن هناك جالس إلى الطاولة القابلة للطوي، بجانب طريق رئيسي، يأكل شطيرته المحفوظة بتفريغ الهواء. هاتفه المطفأ بجانبه، ولن يعيد تشغيله ثانية أبدًا. أو ليس قبل انقضاء وقتٍ طويل. لم يترك كلمة لأحد. سيفعل ذلك لاحقًا. سيكتب رسالة ويرسلها بالبريد إلى أبويه اللذين سيُطلعان رينو وأخته عليها.

من وقتٍ لآخر كانت تمر سيارة، وعند ابتعادها يعود صمت لا يُسمع فيه سوى صوت جريان الماء في الحمام. لاحظ أيضًا عبثية الموقف. هو يتناول الطعام على قارعة طريق رئيسي، وجوانا تستحم على بعد أمتار، وسوف يستلقيان هذه الليلة جنبًا إلى جنب فوق الفراش المزدوج تحت سقف عربة التخيم القابل للرفع. يرجو ألا يكون لديها رهاب الأماكن المغلقة. فالمكان ضيق... وربما ترفض النوم بجانبه... ربما تفضل الاستلقاء على المقعد الطويل أمام الطاولة في الأسفل.
سيقول كلُّ منهما للآخر: «طابت ليلتك.»

ولا شيء غير ذلك، لأنها بالكاد يتكلمان. يمكن تشبيههما بزوجين من المسنين يسافران معًا.

توقف صوت الماء في الحمام. ابتلع إميل اللقيمات الأخيرة من شطيرته ومال إلى الخلف مستندًا إلى كرسيه القابل للطوي. لن يطيل الأمر حتى يذهب للاستلقاء على الفراش، فهو يشعر أنه مرهق وثقيل للغاية. سمع أصواتًا على الحصى. كانت جوانا تقترب ملفوفة برداء الحمام، شعرها مبلل تتساقط منه قطرات على وجهها. بالكاد تعرف إليها بهذه الصورة. بدت منزوعة.

«إميل...»

انتابه شعور غريب وهو يسمعها تلفظ اسمه. إنها المرة الأولى. سيكون عليه أن يعتاد ذلك.

«أفرغتُ خزان المياه... إنني آسفة... لم أتخيل أن الأمر سيحدث بهذه السرعة...»

عبر بيده عن عدم أهمية الأمر.

«ليست مشكلة.»

«أجل... ماذا إذا أردت الاستحمام...»

«سنرى غداً.»

لم يشعرها هذا بقدر أكبر من الارتياح، وبقيت منزعة، ورأسها منكمش بين كتفيها.

«هل يمكنني استعارة خزانة الحائط... كي أرتب أغراضي؟»

ابتسم لها ابتسامة تطمين.

«نعم، بالطبع. بإمكانك أيضًا وضع بعض الأغراض تحت الحوض...»

«وماذا عن أغراضك؟»

«توجد أماكن أخرى تحت المقعد الطويل، ستكون قسم التخزين الخاص بي.»

«حسنًا. شكرًا.»

عادت تجاه عربة التخميم. تمطى إميل ونهض.

«هل أترك الطاولة والكرسيين في الخارج؟»

سأل بصوت مرتفع كي تسمعه في الداخل.

ظهر رأس جوانا في إطار الباب.

«لماذا؟»

«أريد الذهاب للنوم. أحتاج إلى تعويض ساعات من النوم.»

«آه... نعم، اتركها. سأطويها وأدخلها قبل أن أنام.»

استعاد الكيس الذي كانت الشطيرة بداخله، ودعكه بيده، تناول هاتفه المطفأ وعاد إلى داخل العربة. كانت جوانا تستند إلى ركبتيها فوق حقيبتها، وتقوم في بطء بإخراج أكوام من الثياب. نهضت وفتحت باب الخزانة التي أخرجت منها الطاولة القابلة للطوي والكرسيان. هناك فسحة تكفي لترتيب أغراض كثيرة. لن يشكو ضيق المساحة.

«هل هذا لك؟» سألت.

اكتشفت لتوها صندوقًا من الكرتون، أسفل الخزانة. كانت تهمّ بتناوله عندما أوقفها إميل فجأة:

«هذا لي، اتركه!»

توقفت دفعة واحدة. لا يعرف إن كان قد جرحها قليلًا أم لا. إنها لا تُظهر شيئًا. استأنفت ترتيب أغراضها. إنها الصور التي جمعها في الصندوق. صور تعود لسنين وسنين. قال إميل بنبذة أكثر لطفًا:

«سأرفع السقف. ستنام هناك في الأعلى.»

أشار لها إلى السلم الصغير المصنوع من الخبال، في طرف العربة، الذي يؤدي إلى فسحة النوم تحت السقف.

«حسنًا.»

لم يقيم من قبل قط برفع سقف عربة تخميم. راح يصارع مع ذراع التحريك عشر دقائق بطولها. عندما مدت جوانا رأسها لتسأل:

«هل تدبرت الأمر؟»

كان قد انتهى لتوه.

«كل شيء على ما يرام.»

نظر إلى ساعته. إنها السابعة مساءً.

«حسنًا، أنا ذاهب للنوم... إذا أردتِ البقاء أكثر في الخارج، توجد شموع تحت حوض الغسيل. وهناك قذاحة.»

«حسنًا. شكرًا.»

«إذا احتجتِ أي شيء ولم تجديه، أيقظيني بلا تردد، أو ابحثي بنفسك. تصر في كأنك في بيتك.»

«حسنًا.» كررت.

«طابت ليلتك.»

اختفى في أعلى السلم، في فسحة تحت السقف. الفراش مريح لكنه ليس عريضًا جدًا. سيحتاج الأمر إلى تقييد الحركة قليلًا. نزع ثيابه بأفضل ما يستطيع وهو في وضعية الاستلقاء. فالارتفاع القليل هنا لا يكفي للجلوس. احتفظ فقط بقميص

وسروالٍ داخلي، ووضع ثيابه المتسخة عند قدميه. ارتقى فوق الوسادة في ارتياح. هذه الليلة، لن يستغرق وقتًا طويلًا كي يغفو.

لا بد أن الساعة هي الثالثة صباحًا، وربما أكثر. احتاج إلى دقيقةٍ طويلة كي يدرك أين هو. ربما لأنه لم يتعرف إلى المكان، وربما لأن ذاكرته تتراجع. لا يعلم كم من الوقت سيبقى قادرًا على تذكر من يكون، من كان في الماضي، ولماذا هو هناك. الأطباء لا يعلمون بالضبط.

«قد تمضي شهور قبل أن تتدهور الذاكرة حقًا. أو ربما يحدث ذلك بسرعة شديدة. لا أحد يعرف بالضبط.»

إنه الحالة الثانية في أوروبا. ولا توجد معطيات كافية لتشكيل وجهة نظرٍ دقيقة. سبحت عربة التخيم في ضوء أبيض. القمر. كان كل شيء صامتًا من حولها. وعلى خلفية هذا الضوء الأبيض الخافت، ظهرت كتلة جوانا، الساكنة، قريبة جدًا منه. كانت نائمة على جانبها، تدير له ظهرها، وبالفعل لا تشخر. لم يكن يرى سوى ظهرها وشعرها المبعثر على الوسادة. من الصعب في هذا الضوء الخافت تمييز الألوان، ولم يعد شعرها يبدو فاتحًا جدًا. يمكن الظن بأنه بني وأملس. يمكن الظن بأنها لورا.

يعاني إميل من تشنج في وجهه، تكشيرة تشبه ابتسامة. يعرف أن الأمر سخيف، وأنه بلا معنى، لكنه أراد أن يراقبها لبضع دقائق وهي نائمة متخيلًا أنها لورا. اقترب بشكل غير محسوس حتى أصبح أنفه في شعرها. لم تفح منه رائحة شعر لورا، ولم يكن له طابعه، لكن تخيلته ستتكفل بالمطلوب. راح يصغي بلا حركة، إلى تنفسها، وتخيل لورا، بساقيها العضليتين، وشعرها الذي يغطي كتفيها، وعنقها المصقول، وكتفيها المستديرتين... أغمض عينيه وحاول تهدئة الغليان في صدره. كتفا جوانا رقيقتان جدًا. لورا لم تكن مثل جوانا، كان لها شكل، تضاريس ومنحنيات، كانت ممتلئة لكنها مشدودة، لم تكن مثل هذا الشيء الصغير الهش. لا، لقد كانت ممتلئة وتضج بالحياة.

أطلقت جوانا تنهيدة وهي نائمة. استعد إميل لإغماض عينيه للتظاهر بالنوم، في حال استدارت نحوه. لكنها لم تتحرك. استمرت في النوم دون أن تستدير. ركز

على الشعر، فقط الشعر. تخيّل أنه شعر لورا، ونجح الأمر. لورا هنا، نائمة بجانبه. لقد رافقته في رحلته الأخيرة. إنها معاً بمفردهما، ولا أحد سواهما، في عربة التخميم هذه. ستبقى هنا ولن ترحل. لقد التقيا من جديد. إنه متأكد أنها تبتسم ابتسامتها اللعوب، متظاهرةً بالنوم فقط لإغاظته، فقط لجعله يرغب في وضع يده فوق يدها والأخرى فوق رقبتها. ثم لا يعود بإمكانها التظاهر بالنوم. ستطلق تنهيدة صغيرة وسيمسح على شعرها.

مرت سيارة مسرعة قرب عربة التخميم، وخرج إميل من أحلام يقظته بشكلٍ فظ وعنيف، كأنه تلقى رشقة ماء بارد. شد الغطاء نحوه فجأةً، واستدار مقطب الحاجبين وفي حلقه غصة. لقد أخطأ. هذه جوانا، إنها هنا، تنام بجانبه وشعرها مبعثر على الوسادة... بأي حقّ تفعل ذلك؟!!

لم يتبادلا أكثر من جملتين هذا الصباح، وذلك حتماً بسبب الحالة التي مر بها تلك الليلة. ما زال إميل معكر المزاج. إنه يعلم أن موقفه غبي وأنها لا ذنب لها، لكنه لا يستطيع منع نفسه من ذلك الشعور. ثم إنه وجدها هذا الصباح تأكل العدس من اللعبة مباشرةً مما أثار غضبه. لا يعلم لماذا لا يتوقف عن التفكير في أنه كان عليه ألا يحضرها، وأنه سيكون أفضل حالاً لو جاء بمفرده. لكن قضي الأمر، وها هي هنا... لا يعرف إن كان سيستطيع التخلص منها أم لا، وما الطريقة؟

«انعطف من هنا.» أشارت جوانا.

إنهما يسيران منذ تسع ساعات، بحثاً عن منطقة تقدم خدمات لعربات التخميم، بهدف ملء خزان المياه. سيحتاجان إليه من أجل الاستحمام وغسل أطباق الطعام. كما أنهما في حاجةٍ إلى إفراغ المراض ومواده الكيميائية.

«هل أنت متأكدة؟» سأل بمزاجٍ سيئ.

لم تسمح جوانا لمزاجه بأن يؤثر عليها.

«توجد إشارة إلى منطقة الخدمة.»

انعطف نحو الطريق الذي أشارت إليه. كانت على حق. منطقة الخدمات هناك بالفعل. خرجا من العربة. كانت شمس الصباح حارقة. جثا إميل أسفل السيارة وأطلق تنهيدة إحباط.

«لم يسبق أن قمت بهذا قط...»

بقيت جوانا قريبة منه متدلية الذراعين، بقبعتها العريضة التي تحفي وجهها.
«ولا أنا.»

نهض معكر المزاج، نظر حوله. هناك زوجان في الخمسينيات قد توقفا للتو على بعد أمتار، بعربة تخييم من الطراز نفسه.

«اذهي لمناداة هذا الرجل. لا بد أنه يعرف كيف يتم ذلك.»

نظر إلى جوانا وهي تمثل لطلبة وتبتعد بفستانها الأسود الذي يصل إلى قدميها. يقول لنفسه إنها لطيفة أكثر مما يجب. كان من شأن لورا أن تقول له بأن يغرب عن وجهها. ستنظر إليه بابتسامتها الرقوة وتحيب: «اذهب أنت وتحدث إلى الرجل. أنا لذي يومي كله.»

ستستلقي فوق العشب، وترفض النهوض قبل أن يعتذر لأنه كلمها على ذلك النحو. ثم ستقبل أن تساعدته لكن مع احتفاظها بذلك العبوس.
«نهارك سعيد.»

حضر الزوجان الخمسينيان مع جوانا.

«يبدو أنك في حاجة إلى مساعدة!»

اختبأت جوانا في ظل قبعتها. صافح إميل الرجل وأوما للسيدة بالتحية.

«أهلاً. نعم... لنقل إنني اشتريتها لتوي، ولا أعرف بعد آلية التعامل.»

«ما الذي تريده؟ ملء خزان الماء؟»

«نعم...»

«وبشأن المراحيض، هل تعرف كيف تتصرف؟»

تردد إميل.

«إلى حد ما...»

ارتسمت على وجه الرجل ابتسامة تقول إنه لم ينخدع.

«إنه أمر بسيط. على الإنسان أن يبدأ يوماً ما.»

شمر كميته واستند إلى ركبتيه.

«تعال وانظر، ليس هناك أي سحر.»

نظر إميل إلى الزوجين الخمسينيين المغادرين، بامتنان. لقد أنقذا حياته للتو. أن يسافر بسيارة تخيير دون أن يعرف كيف يفرغ المراحيض! إنه يتصف أحيانًا بالحمق حقًا. فاجأته جوانا. رفعت فستانها إلى أعلى ركبتيها وشرعت في العمل. ذراعاها ضئيلان - إنه واثق أن باستطاعته مسحها بإصبعين - لكنها حملت معه خزان المياه، ثم ذهبت لإفراغ المرحاض الكيميائي، ثم أعادته إلى مكانه. إنها لا تتذمر من العمل، ما ذكره بجملة من رسالتها الإلكترونية: بالكاد يبلغ طولي مترًا و57 سنتيمترًا، لكنني قادرة على حمل حقيبة ظهر تنزن 20 كيلوجرامًا لمسافة كيلومترات عديدة.

حمله ذلك على الابتسام وجعل مزاجه أكثر لطفًا. لم يكن منصفًا معها هذا الصباح. لا يمكنه لومها على غرقه في ذكرى لورا هذه الليلة...

«هل نُجري استراحة قبل استئناف الطريق؟»

اقترح إميل وهي تتأهب لصعود السيارة.

عادت تجاهه، مع إيحاء عدم ممانعة.

«كما تشاء..»

«هناك جدول صغير وراء منطقة الخدمة.» أضاف.

سارا تجاه الجدول الصغير. الوقت يقترب من الظهيرة، والشمس تلسع بقوة. جلسا تحت الأشجار. نزع إميل حذاءه وجورييه. اقترب من الماء وغمس فيه قدميه وهو يتنفس الصعداء.

«عليك أن تأتي، إنه شعور رائع!» قال لـ جوانا.

جلست متربعة تحت شجرة. توقع منها أن ترفض بأدب، لكنه أخطأ. نهضت في بطء وانضمت إليه عند حافة الماء. راح إميل ينظر إلى شراغيف الضفادع وهي تنزلق من بين أصابع قدميه. اتخذت جوانا وضعية القرفصاء لنزع صندلها المذهب. «قليل من الماء البارد والظل، ويصبح الأمر مثاليًا.» أعلن.

كان يرغب في التعويض عن مزاجه السيئ لهذا الصباح، ولا يعلم أنه نجح في ذلك أم لا، لأن جوانا لا تزال ممتنعة عن التعبير. نظر إليها وهي تضع قدمًا في الماء، ثم القدم الثانية. أغمضت عينيها، من المتعة حتمًا.

«هل نذهب بعد هذا للتسوق؟» سأل.

«نعم..»

خيم الصمت من جديد وبقي هناك واقفين وأقدامهما في ماء الجدول، مستفيدين من ظل الأشجار المنعش.

راقبَ ظهرَ جوانا الساكن. فكَّرَ في أنه ليس هناك فرق كبير بين وجودها هنا أو عدمه. إنها قليلة الكلام، لا تأخذ حيزًا كبيرًا، وبالكاد تنفّس. لكنها هنا، تغمض عينيها عند ملامسة الماء البارد، وتحرك أصابعها عندما يداعبها شعاع شمس، وهذا يشكل حضورًا، حضورًا لطيفًا.

أخذت الشمس تغرب في هدوء. ركنا عربة التخيم فوق ميدانٍ صغير قدمته البلدية، وكان فيه مسافرون آخرون. لَوَّحَ إميل وجوانا لهم بالتحية من بعيد. توقفا في الظل فوق العشب. وضعا الطاولة القابلة للطّي والكرسيين تحت الأشجار، وعرضت جوانا بصوتها الضعيف أن تعد سلطة، وجلست إلى الطاولة لتقطع الطماطم والفلفل. جلس إميل مقابلها وأخرج دليل السفر.

بعد ظهر هذا اليوم، عند قيامهما بالتسوق، قاما بشراء دليل سفرٍ إلى البيرنيه، يضم خارطة عملاقة وصورًا لأجمل المناظر ودروب الزهات، مع إشاراتٍ واضحة إلى مناطق خدمة البيوت المتنقلة. انحنى إميل فوق الخارطة العملاقة التي بسطها. راح يفرك ذقنه، واضعًا دائرة من وقتٍ لآخر حول اسم مدينة. واصلت جوانا تقطيع الخضروات غير مكترثة. على بعد بضعة أمتار، كان هناك أطفال يلهون بالكرة وهم يصرخون، وسيدة تأخذ حمام شمس أمام بيتها المتنقل. وهناك كلب ينبج. أما هما، فيلزمان الصمت.

أعاد إميل إغلاق الخارطة متمطيًا. يبدو شبه متفاجئ لرؤية جوانا تجلس مقابله خلف الطاولة. ولم يستطع منع نفسه من الابتسام لها عندما رفعت نحوه وجهها الذي غيبت القبعة الواسعة نصفه. لم ترد له ابتسامته لأنها خفضت رأسها بسرعة واستأنفت تقطيع الطماطم. نهض إميل.

«سأذهب لأستحم.»

حلمَ بحمام ماءٍ بارد، لكن ماء الخزان تعرض للحرارة وغدا فاترًا. حرص على الاقتصاد في استهلاك الماء، فليس لديها سوى خزان بمائة لتر، وهي كمية ليست كبيرة. كانت مرآة الحمام ضئيلة الحجم، وفكَّرَ في أنه سيجد صعوبة في حلاقة

ذقته. ربما يتركها تنمو بحرية. كان هناك، يفكر متأملاً نفسه في مرآة الحمام المغطاة
بالبخار، ويقول في سره إن هذا اليوم الثاني كان أقل غرابة من اليوم السابق، وإن
حضور جوانا بصحبته في عربة التخييم هذه، يبدو له أقل عبثية. ربما سينتهي بهما
الأمر إلى التأقلم...

عندما خرج إميل من العربة، عاري الصدر، كانت الحرارة لا تزال خانقة،
وجوانا منهمكة في تحضير المائدة. رتبت أدوات الطعام بجانب الصحون. السلطة
جاهزة. لا بد أنها أعدت نوعاً من صلصة الخل، لأن هناك وسط الطاولة، زبدية
صغيرة فيها ملعقة.

«أوه!» قال متفاجئاً...

«شكراً لأنك أعددت كل هذا...»

لم يبدُ أنها فهمت سبب شكره لها. هزت كتفيها وجلست في بطيء، وراحت
تنتظر بصبر أن ينتهي من تخفيف شعره بمنشفته.

«هل تحبين إعداد الطعام؟» سأل وهو يجلس إلى الطاولة.

لم تجب على الفور. قامت أولاً بملء صحنيهما.

«نعم... أشياء بسيطة... سلطات ومخبوزات والخضروات بالجبن...»

التقطت بطرف شوكتها قطعتي طماطم صغيرتين وراحت تنقرهما. إنها تأكل
مثل عصفور. شعر إميل بالابتهاج. سأها:

«ماذا كنت تفعلين قبل؟»

بدا عليها الحذر:

«قبل؟ قبل ماذا؟»

«قبل سفرنا. كنت تعملين، أليس كذلك؟!»

«لا، لم أكن أعمل.»

هز كتفيه متفاجئاً.

«ألم تمارسي في حياتك أي عمل؟»

«بلى. بالطبع.»

لم يبدُ أنها عازمة على قول المزيد، لذا قال كي يشجعها:

«أنا كنت أعمل صلة وصل بين الفنادق ومواقع الحجز. وأحصل على عمولة فور إبرام العقد. عمل عديم الأهمية. كان يجب باستمرار ملاحقة أصحاب الفنادق... وكان هؤلاء مرهقين دومًا، لذلك لم يكونوا يترددون في صدي للتخلص من ملاحقتي لهم. كما ترين... أنا مسرور لهروبي.»

لم تبتسم. عادت إلى نقر الطعام. فوجئ عندما سمعها تحجب:

«أنا كنت حارسة في مدرسة ابتدائية.»

توقف عن المضغ.

«حارسة؟ هذا... هذا غريب.»

«لماذا؟»

«ليست لديك بنية حارسة...» أضاف لتسويغ استغرابه.

أنهت ابتلاع لقمتها قبل أن تحجب.

«لم يكن عملي أمينًا...»

«حقًا؟»

«لا. كنت أفتح بوابة المدرسة صباحًا، وأبواب قاعات الدروس وصالة الألعاب وغرفة الدراجات الهوائية... ثم أعيد إغلاق كل شيء مساءً. كنت أقوم ببعض أعمال التنظيف، و... أكنس أوراق الشجر الميتة أو القمامة من الفناء، أساعد في إعادة طلاء فصل دراسي أو تعليق لوحة... كنت أتأكد من عدم دخول أحد إلى المدرسة مساءً أو في عطلات نهاية الأسبوع، وإذا حدث ذلك، أتصل بشرطة البلدية. لم يحدث ذلك قط. كنت أسقي النباتات أيضًا... أرسم على البلاط مربعات لعبة (الحجلة)... لم يكن ذلك بالكثير، لكنه كان لطيفًا.»

أخذ إميل يبتسم وهو يسمعها تتكلم. إنها المرة الأولى التي تتكلم فيها بهذا القدر. خيل له حتى أنه لمح تعبيرًا في عينيها، لكنه غير متأكد لأنها تضع قبعتها الهائلة.

«كنت تسكنين في المدرسة؟»

«نعم.»

«حقًا؟»

«نعم. كان لدي بيت وظيفي صغير في فناء المدرسة.»

تخيلها بفستانها الطويل وقبعتها السوداء العريضة، وسط باحة مدرسة. تخيلها تمسك بمجرقة طويلة وتقوم بكس أوراق الشجر الميتة، ثم تخيلها وهي تمسك بمرشّة سقاية وترعى نبتة جيرانيوم. تخيلها وهي تسير في اطمئنان ويدها حزمة مفاتيح، متجهة نحو بوابة معدنية ثقيلة... هذا يناسبها حقاً في النهاية... حارسه مدرسة ابتدائية.

«هل مارست هذا العمل طويلاً؟»

«ثمانى سنوات تقريباً.»

«هل قدمت استقالتك؟»

أومات بطريقة جعلته غير متأكد أنه فهمها. فلم تكن إيباءتها توحى بالنفي أو الإيجاب. قرر عدم الإلحاح. إنه لا يريد أن تهرب بسبب أسئلته.

«هذا لذيذ جداً على أي حال.» أضاف.

أنهيا الوجبة في صمت. كانا يسمعان أصوات جيرانها في التخيم. صراخ الأطفال ونباح الكلب، وفي البعيد، أصوات أجهزة التلفزيون أو الراديو التي شغلها الكبار. من وقتٍ لآخر كانت تُسمع موسيقى تشبه أصوات دعايات. هبط الليل في هدوء. قام إميل بتنظيف الطاولة وأخرج شمعتين.

«هل تريدان قطعة شام؟» سأل جونا.

«لا، أموري جيدة هكذا.»

لم تأكل شيئاً تقريباً. بضع قطع من الطماطم والفلفل، لكنها تركت الشيء الأساسي. شبع إميل أيضاً، ولكن لأنه ابتلع ثلاثة أرباع السلطة. عاد إلى الجلوس وأشعل الشمعتين ثم مدّ ساقيه.

شعر في ذلك المساء أنه على ما يرام. نهار أمس وصباح اليوم لم يكونا سهلين، لكنه شعر بالسلام هذا المساء. تساءل عما يمكن أن يشغله ليلتهما الطويلة، هو وجونا طوال هذه الشهور... حكّت جونا حلقها، ونهضت في بطة. كانت كأنها تعيش على البطيء. حركاتها دقيقة ولكنها هادئة، مطمئنة، كأنها ليس هناك شيء، لا شيء إطلاقاً، يمكن أن يكدرها.

«سوف أتمشى قليلاً.»

ابتسم لها.

«حسنًا»

شاهدها تبتعد فوق العشب، بمشيئة ثقيلة وخفيفة. خلف سيارة التخميم، هناك حقل شَوْتُهُ الشمسُ تمامًا، ويمتد عدة مئات من الأمتار. يبدو أنها تسير على غير هدى. رآها تلتف وراء كومة من التبن، وتواصل سيرها تجاه بستان من الأشجار، تتوقف لثوانٍ ثم تمضي.

تمطى إميل ونهض. كانا عصر اليوم قد اشتريا غلاية ماء، ورغب في تناول الشاي. لم يمنعه الحر قط من إعداد كأس شاي. أخرج ظروف الشاي وملاً الغلاية بالماء. سمع صفيرها وهو يستند إلى منضدة العمل. نظر إلى هاتفه المحمول فوق الطاولة، وفكر أنه أصبح بالتأكيد يحتوي على عشرات من رسائل صوتية يعترضها القلق. مع ذلك، كان إميل في أحسن حال هذا المساء. خرج من جديد حاملاً فنجاناه الذي يتصاعد منه البخار، وعاد للجلوس في مكانه خلف الطاولة الصغيرة القابلة للطي. خيم الليل حقاً هذه المرة. كانت الشموع تنشر ضوءاً ضعيفاً مرتعشاً. بعض عربات التخميم في الجوار، أطفأت أنوارها، فيما لم يكن قمرُ الليلة أكثر من هلالٍ رفيع، يضيء الحقل وحزم التبن بإضاءة خفيفة. ضيق عينيه، ورأى جوانا هناك وسط الحقل، تجلس متربعة بلا حراك. رأى قبعته السوداء عريضة الحافة، تظهر في العتمة الخفيفة، ووجهها الموجه نحو السماء كأنه يكلم النجوم. لا أتكلم كثيراً، أحب التأمل، خصوصاً عندما أكون في حضن الطبيعة.

أفلتت من شفتيه ابتسامة. لم تكن رسالتها شديدة الغرابة في نهاية المطاف... لقد عبرت عن الجوهر، ولا شيء سوى ذلك.

أيقظته جلبةٌ في أثناء الليل. تلك كانت جوانا تتسلق سلم الجبال. لكن هناك بعض الأصوات الأخرى، أصوات قرع فوق سطح سيارة التخميم، وومضات ضوء تلتمع أيضاً. رفع جذعه مستنداً إلى أحد مرفقيه.

«ما الذي يحدث؟»

لكنه فهم قبل أن تفتح فمها، لأنها وصلت إلى مستواه زاحفةً فوق الفراش، واستطاع أن يرى أنها مبللة، يقطر الماء من شعرها فوق كتفيها، وترتجف.

«هناك عاصفة حرارية.»

«اللعنة... وباغثتك؟»

«نعم.»

اندست تحت الغطاء، وأخذت تتلوى هناك كي تنزع فستانها دون أن يراها. هوى إميل بثقله من جديد فوق الوسادة، فهو لا يزال يشعر بالنعاس الشديد. لا بد أن الوقت هو منتصف الليل...

«كم الساعة؟»

«الثانية أو الثالثة.»

رفع حاجبه متفاجئًا.

«وكنت لا تزالين في الخارج؟»

«لقد أخذني النوم.»

«في الحقل؟»

«نعم.»

«هل يحدث لك هذا كثيرًا؟»

«أحيانًا.»

بقيت هادئة لا يزعزعها شيء. تمكنت أخيرًا من نزع فستانها الأسود المبلل تحت الغطاء. قدّم لها إميل قميصًا له بقي فوق الحشية.

«خذني، جففي شعرك به.»

هزت رأسها بالإيجاب. شقّ السماء وميض برق آخر: جلست مبقية الغطاء فوق صدرها، جمعت شعرها في أعلى جمجمتها، ولّفت حوله القميص مثل عمامة. لا يبدو حتى أنها كانت متنبهة إلى أنه يراقبها. استلقت من جديد بشكل جانبي، ورفعت الغطاء إلى أسفل ذقنها.

«تصبح بخير.» همست.

«تصبحين بخير.»

راقب لبضع ثوانٍ البرق وهو يضيء سطح العربة والحشية وملابسها المتكومة إلى جانبيها. تضاعفت شدة المطر. سمعها ترتعد إلى جانبه، وأسنانها تصطك. بقي مددًا على هذا النحو يستمع إلى أصوات العاصفة لدقائق طويلة، دون أن يأتي

النوم، وجوانا مضطربة أيضًا. لم تعد ترتجف لكنها تستدير من وقتٍ لآخر، ما جعله يدرك أنها أيضًا لا تجد النوم. تردد ثم تنحنح:

«لم تتمكني من النوم؟»

توقفت عن الحركة، وصمتت ثانية، ثانيتين، ثم أجابت.

«لا.»

«هل تخافين من العاصفة؟» سأها على سبيل المزاح.

فوجئ بجوابها:

«نعم.»

بقي إميل بضع ثوانٍ مصدومًا، لم يجر جوابًا.

«هل تريد أن أحضر شمعة إلى هنا؟»

«لا، سينقضي الأمر.»

لم يصادف أحدًا مثل هذه الفتاة قط. تحمل خزان مياه، وتسلق عربة تخييم مع أول شخصٍ تراه، لكنها تخاف من العاصفة. لم يستطع منع نفسه من الابتسام.

«تصبحين بخير، جوانا.»

انتابه شعور غريب وهو يسمع نفسه ينطق باسمها هكذا، في عتمة حجرة النوم. سترتب عليه أن يعتاد الأمر.

«تصبح بخير.» همست.

استدار هو أيضًا إلى جانبه، فأصبح ظهر كلٍّ منهما للآخر. أغمض عينيه، واستسلم بضع دقائق لهذه صوت قطرات المطر، وقصف الرعد، ثم غرق في النوم دون أن يلاحظ ذلك.

توقفا أمس على تلك البقعة المخصصة لعربات التخيم في قرية تسمى بوزاك في مقاطعة البيرينيه العليا. ووفقاً للدليل الذي اشترياه، كانت تفصلهما حوالي عشرين كيلو متراً عن أحد أجمل المناظر البانورامية لسلسلة البيرينيه: بيك دو ميدي. بسط إميل خارطته فوق طاولة الفطور. كانت جوانا لا تزال نائمة. أخرج الطاولة مع كرسي، وأعد لنفسه كأس شاي، وشطيرة من مربى المشمش وراح يأكل في شرويد متفحصاً الخارطة بعينه، غير مصدق بأنهما قريبان بهذا الشكل من جبل بيك دو ميدي الذي يصل ارتفاعه إلى 2877 متراً. ليس في قرية بوزاك شيء من القرى الجبلية. إنها أقرب إلى أن تكون مسطحة، ولا نجد فيها سوى الحقول وبعض أشجار الدلب. البيوت عادية، تشبه تلك الموجودة حول بيت إميل في روان. إنه لا يطبق الانتظار حتى يرى تلك البيوت الخشبية، والأكواخ الحجرية القديمة، وأشجار تنوب..

ألقي نظرة على داخل عربة التخيم. ليس هناك صوت ولا حركة، لكنه ظن أنه سمع شيئاً، صوتاً خفياً يشبه رجفة. استأنف المضغ، ومرّ بظاهريده فوق الخارطة. من جديد عاد الصوت الشبيه باهتزاز جهاز تليفون، رغم تأكده من أنه لم يُشغل جهازه. شعر أن دقائق قلبه تتسارع. هل قام بتشغيل هاتفه؟

لقد صُدم مؤخراً مرات، بأشياء فعلها دون أن يتذكر، ففسي أنه أجرى لتوه اتصالاً، وأنه أوقف تشغيل جهاز حاسبه، أو أنه أدخل الطاولة من أطباق الطعام. لقد سبب له إحساساً غريباً أن يجد نفسه هناك غير مدرك أن ثقباً في الذاكرة قد أصابه للتو.

نهض بسرعة شديدة حتى كاد يطيح بكرسيه. كان يرجو، بل يدعو ألا يكون قد أعاد تشغيل هاتفه. وماذا فعل أيضاً؟ هل اتصل بأبويه؟

اندفع إلى داخل العربة، لكنه توقف فجأة وقد غمره الارتياح. لم يكن الصوت من هاتفه المطفأ فوق منضدة العمل، بل من خزانة الحائط التي ضمت أغراض جوانا. أصغى جيداً. إنه صوت اهتزاز هاتف بالفعل. هل تحمل جهاز هاتف؟ شيء غريب... منذ أن دخلت عربة التخميم، في منطقة الخدمات هذه على الطريق السريع، لم يرها قط تمسك هاتفاً. ظن أنها لا تملك واحداً، أو أنها تخلصت منه. اقترب في هدوء، تردد، فتح الخزانة محاولاً ألا يصدر صوتاً. لم ير الجهاز، لكن الصوت أصبح هنا أقوى. ثمة شيء يهتز وسط كومة ثياب. تسمّر فجأة حين سمع ضجة في الأعلى فوق حشية النوم. لقد تملكت جوانا لتوها. أغلق الخزانة على عجل وعاد إلى طاولة الفطور في الخارج. أرغم نفسه على الجلوس من جديد لتناول فنجان الشاي الذي يتصاعد منه البخار. سمع سلم الحبال يطرق الحائط. كانت جوانا تنزل. عاد لتأمل الخارطة.

«صباح الخير.»

أخرجت جوانا رأسها في خجل، ولا يزال قميص إميل يلتف مثل عمامة حول شعرها.

«صباح الخير.»

لم يضيف شيئاً، ولم يقل إنه سمع رنين هاتفها في الخزانة. أغلقت على نفسها الحمام، وهو يحاول إعادة التركيز على الخارطة، دون نجاح.

هناك شخص يتصل بجوانا... خبأت هاتفها في كومة من الثياب كيلا تسمع رنينه، لكنها تركته غير مطفأ وهناك من يتصل بها... هناك شخص ما على هذه الأرض يهتم بها، يريد أن يعرف أين هي، وكيف أحوالها. هناك شخص ما على هذه الأرض، ربما يكنّ مشاعر الحب لهذه الشابة الطريفة ذات القبعة السوداء والصندل المذهب، وهذا الأمر يثير فضوله بشدة.

لم يتبّه إميل في الحال إلى أنها تهمس. لقد سمع صوتها الهامس في الحمام، عندما نهض كي يغسل فنجانه. لا بد أنها التقطت هاتفها من خزانة الحائط قبل أن تغلق على نفسها هناك. وجد صعوبة في تمييز الكلمات. التقط كلمة (لا) مكررة عدة

مرات، وكلمة (كفى) ثم بدا أن المكالمة قد انتهت. ثم سمع صوتًا غريبًا يشبه استنكارًا، ثم لم يسمع شيئًا. لم يجرؤ على سؤالها من خلال الباب إن كان كل شيء على ما يرام أم لا. وخرج بسرعة كيلا يجد نفسه مقابلهما عندما تغادر الحمام. ربما لن يروق لها ذلك. ولن يعرف ماذا عليه أن يقول لها.

هل هو رجل؟ هل لها صديق مقرب؟

بداله ذلك جنونيًا تمامًا وبعيد الاحتمال. هل هو أحد أفراد عائلتها؟

أعادًا طي الطاولة والكرسيين، ارتديا ثيابهما واستأنفا الرحلة. في هذا الصباح، ارتدت جوانا قميصًا أسود اللون بلا كمين و(شورت برمودا أسود). تساءل عما إذا كانت ترتدي الأسود على الدوام أم لا. كان البرمودا ضخماً ويمنحها مظهر صبيّ مقدم في ملعب مدرسة. قبعتها بقيت فوق رأسها.

أشعل إميل الراديو، وخيل إليه أنها تدندن بصوتٍ منخفض جدًا، لكنه غير متأكد من ذلك. كان رأسها المستند إلى زجاج النافذة، يهتز. فوجئ عند سماعها، بعد نحو عشر دقائق من الانطلاق، وهي تسأل: «إلى أين نذهب؟»

كأنها قد لاحظت لتوها أنها استأنفا طريق السفر. لم يكلف إميل نفسه عناء أخذ موافقتها على الوجهة القادمة، كونه يشعر أن آخر همتها المكان الذي تقبع فيه، ما دام بإمكانها الجلوس متربعةً مستندة إلى جذع شجرة، أو في حقل. وضع المؤشر الضوئي وانعطف إلى الشارع اليميني قبل أن يجيب:

«أعتقد أننا سنتوقف بضعة أيام في قرية تدعى أرتيغ.»

أومات برأسها دون كلمة ثم أسندته مجددًا إلى الزجاج. اكتشف إميل بلدية أرتيغ على الحارطة الكبيرة، هذا الصباح. إنها قرية جبلية ضئيلة يبلغ سكانها حوالي ثلاثين نسمة. ستكون ملاذًا آمنًا مثاليًا في أول توقف، من أجل التمتع بوصولها إلى البيرينيه والاستعداد لبدء المغامرة. سيمنحان نفسيهما يومًا أو يومين للراحة والتزود بالاحتياجات، ثم سيحمل كل منهما حقيبة ظهره ويواصلان الرحلة سيرًا على الأقدام. بالقرب من أرتيغ هناك قمة بيك دو ميدي وجسر إسبانيا، وسيرك غافارني، وجدول ماء، وشلالات... عجائب كثيرة يجب اكتشافها. سيأخذان خيمة وحقيقتي نوم ويقومان بدور المتنزهين، مفترضًا أن جوانا ستوافق. «سنصل سريعًا.» أضاف.

لكنه شعر أنها غفت.

لا يعرف حقاً إلى أين يذهب. إنه يقود في بطءٍ في أزقة أرتيغ بينما تنام جوانا مسندةً رأسها إلى زجاج النافذة. راح يبحث عن موقفٍ يمكنهما ركن السيارة فيه، لكنه كان قبل كل شيء مستمتعاً بالمنظر الطبيعي، ويغمره السرور. ذاك هو بالضبط ما يبحث عنه. دروب ضيقة، بيوت من حجر، حافظت على أسطح أكواخ خشبية. اعتقد أن عدم رؤية جوانا لشيءٍ من هذا، خسارة. وتساءل عما إن كانت رؤية القمم والمساحات الخضراء الممتدة في الأسفل وسحر الأزقة، سيتزع اهتمامها أم لا. في الوقت الحالي، لم يرها قط تفارق هيتها البليدة قليلاً.

راح ينظر في كل مكان، خوفاً من أن يفوته جزءٌ من المنظر. تجاوز مجموعة من السيارات التي توقفت لالتقاط الصور والتمتع بالمشهد البانورامي. اضطر وهو يدخل إلى أحد الأزقة بعد مسافة، أن يناور مرتين لتجنب الاحتكاك بالجدران. لاح له موقفُ سيارات في الأفق. وفيه بضع سيارات مركونة. لا بد أن يكون هذا المكان هو منطلق لرحلات سير لمسافاتٍ طويلة، لأن زوجين قد خرجا للتو من إحدى السيارات، وكل منهما يمسك بعضا ويحمل حقيبة ظهر.

واصل إميل التقدم لإيقاف السيارة في آخر الساحة، بعيداً عن بقية السيارات، خلف الأشجار. كان هناك صوت خرير ماء، حيث يمر جدول ماءٍ بجانب الموقف. سيكون النوم هنا ممتعاً. ألقي نظرة نحو جوانا التي لا تزال نائمة. خرج من السيارة واتجه مباشرةً نحو الماء، يقوده الخرير. ما عليك سوى عبور موقف السيارات والمرور عبر شريطٍ من العشب. جدول الماء هناك، خلف الأشجار. يتدفق ماؤه في هدوءٍ ويقفز فوق الحصى ملتقاً حولها، جارفاً هنا وهناك أغصان شجر... يوجد طريقٍ ترابي على طول النهر، ومن هناك يمر مسار لنزهات المسير. تساءل إميل عن المكان الذي يؤدي إليه. سوف يتحقق من ذلك على الخارطة بعد حين. لكنه في الوقت الحالي يجلس فوق صخرة كبيرة، ويمد ساقيه مغمضاً عينيه لبضع ثوانٍ. شعر أن روحه تتخبط، تتجول فوق جدول الماء. فكر من جديد في هاتف جوانا، في المكالمات التي تلقتها. هذا الأمر يشوشه. ليس فقط بسبب ما يفترضه ذلك: أحدٌ ما ينتظرها في مكانٍ ما، ويرجوها أن تعود. لا، بل بسبب شيءٍ آخر، هو المكالمات التي تصله حتماً هو أيضاً والتي تنتهي في علبة بريد صوتي. وبسبب

الرسالة التي سيتعين عليه كتابتها لأبويه، وأخته، ورينو، كي يشرح لهم... ماذا سيشرح لهم؟

لا يعرف. كان كل شيء سريعًا وجرى على عجل. هو نفسه يجد صعوبة في تفسير رحيله، لنفسه. هل يحدث الأمر هكذا دومًا عندما تغادر أهلنا؟ هل نستصعب فهم الأسباب التي تدفعنا إلى القيام بذلك؟

بدت لورا واثقة تمامًا بنفسها عند رحيلها. ما زال يتخيلها عندما جاءت في ذلك اليوم لجمع آخر أشياءها من الشقة. كانت ترافقها أمها التي انتظرت في أسفل المبنى، تاركةً لهما بعض الخصوصية في تلك اللحظة الأخيرة. نادرًا ما شعر بذلك القدر من الوضاعة والبؤس. كانت هناك بينطالها الجينز الضيق، وحذاءها الرياضي الصغير من القماش الأبيض، وقميصها الأصفر الذي يبرز صدرها، مع الماساة تلتصق في عنقها. كانت تحب المجوهرات، وترتدي دومًا خاتمًا، أو سوارًا رقيقًا، أو أقراطًا حلقيّة... في ذلك اليوم، كانت تحمل حقيبة يدها على طول ذراعها، وينسدل شعرها الأملس والبني، على كتفيها. لقد شعر أنه غير جدير، شعر أنه بشع وقذر وغير جذاب. كانا قد ناقشا مسألة إنهاء العلاقة، ثلاث مرات. أعلنت لورا أنها جاءت فقط لأخذ حاجياتها الأخيرة، وعدم وجود ما يُقال. هي لم تشأ أن تتكلم، وهو لم يعرف كيف يتصرف. كانت الشقة فارغة. استعادت لورا الأريكة وطاولة القهوة ومفرش السرير، والعائدة لوالديها. بات منذ أسبوعين يعيش في صمتٍ وفراغ. لكن قوارير عطر لورا بقيت في الحمام، وملابسها الشتوية في الخزانة، ورواياتها النسائية في الصالون... لقد منحه ذلك وهما بأن العلاقة لم تنته تمامًا. إلا أنها جاءت اليوم لاستعادة كل ما بقي لها. وتلك كانت آخر مرة يراها فيها. لقد بدت في عجلةٍ من أمرها.

«أمي تنتظر في الأسفل. لدينا موعد مع مصفف الشعر خلال ساعة، وعلينا ألا نتباطأ.»

راح ينظر إليها وهي تنتقل من حجرة إلى أخرى، تطوي وتكدّس. بدا منسحق الفؤاد، بذراعين متدليتين.

«هل تحتاجين إلى مساعدة؟» سأل بصوتٍ محطم.

«لا، لا تشغل بالك. تصرف كأنني غير موجودة، سيستغرق الأمر مني دقائق معدودة. سأندبر الأمر بمفردي. وسأعلمك عندما أنصرف.»

لكنه لم يتحرك. لم يستطع انتزاع نفسه بعيداً عن مرأى لورا غير المبالية والتي باتت من الآن غريبة كلياً، وهي تحزم أغراضها باللهفة نفسها التي ستحزمها بها لأجل عطلة نهاية أسبوع مرتجلة. كانت تلك آخر مرة يراها فيها، وآخر مرة تلتقيه في شقتهم. لم يستطع أن ينتزع نفسه منها. بقي في باب الصالون، يتابعها بعينه. ليس هناك ما يقال، جئت فقط لأخذ بعض الحاجيات، وسأنتهي بسرعة. لم يجرؤ أن يكلمها. لقد كانت حازمةً حول هذا. ما الذي كان يستطيع أن يقوله كي يجعلها تغير رأيها، ويقنعها بالبقاء؟

لقد شعر من جانبه أن كل شيء كان مقرراً منذ زمنٍ طويل، قبل أن تكلمه عن إنهاء العلاقة. لقد صبرت، وبذلت من جانبها جهوداً، لكن الوقت قد فات وانتهى الأمر. لم تعد تستطيع الاحتمال. لقد عادت ذلك الطير الحر كما كانت عندما التقاها قبل أربع سنين.

استقلت المصعد للنزول بأكياسها الثلاثة الممتلئة، وصندوق كرتون.

«هل تحتاجين إلى مساعدة؟» سأها مرة أخرى.

«لا. سأصعد من جديد لأخذ حقيبة يدي، وينتهي الأمر.»

اختفت في المصعد، وبقي في عمر الشقة قانطاً يشعر بالاختناق. رفق حقيبة يدها في المدخل، بنظرة جانبية. جاهد ضد نفسه متمنياً أن يبحث في هاتفها كي يتحقق من صحة شكوكه بأنها التقت شخصاً ما. انتهى به الأمر بفتح الحقيبة، أدخل يده فيها وعثر على الهاتف. كان الهاتف مغلقاً برمز. لقد آله الأمر. لم يسبق لها في حياتها المشتركة التي دامت عامين أن جعلت الدخول إلى هاتفها عبر رقم سري. فما سبب وجود هذا الكود اليوم؟

سمع صوت وصول المصعد وأعاد الهاتف إلى الحقيبة. دخلت الشقة وهي تلهث قليلاً، ويرتفع صدرها تحت القميص الأصفر، وقد تورّد خذاها. رتمه بابتسامة باردة إلى درجة مرعبة، ابتسامة ودية وبالكاد أليفة، كأن إميل لا يمثل سوى أحد المعارف الذين كانت تلتقيهم.

«حسنًا، أظن أنه وقت الوداع.»

لم يجب بشيء، لأن صوته سيخرج مهشماً. ترقَّب علامة ألم على وجه لورا الجميل. أو نفحة صغيرة من الكآبة... لكنه لم يقرأ سوى الاستعجال ونوع من الارتياح. دعا أن ينهار من الألم بعد ذهابها، ولا يستيقظ ثانية أبداً. التقطت حقيبة يدها، وضعت يداً خفيفة فوق كتفه، وقفت على رؤوس أصابع قدميها كي تتمكن من تقبيله. فرقت القبلة في الشقة الفارغة. أضافت على عجل وهي تراجع: «أنا مسرورة لما عشناه معاً. أتمنى لك الأفضل، حقاً... أتمنى لك الأفضل في المستقبل.»

ثم انسحبت بسرعة، بينما بقي صامتاً، ينهشه الألم. ذهبت إلى موعد عند مصفف الشعر، وكان الحياة مستمرة.

بالكاد لاحظ إميل الغصة في حلقة وشعر بها يشبه الاختناق كما في ذلك المساء من شهر يونيو قبل عام. لكنه مع ذلك هناك على ضفة الجدول، يداعبه تيار خفيف من الهواء، ولم يتلاش شيء، مشاعره لا تزال حاضرة، بالكاد أخذتها الشهور الطويلة المنصرمة. استغرق بضع ثوانٍ كي يتمالك نفسه، ويتخلص من الضيق الشديد في صدره وحلقه. ألقي بعض الحصى في الجدول للتنفيس عن غضبه. حتى الآن لم يفهم. كانا سعيدين معاً. كانا أسعد ثنائي. كيف حدث ذلك؟! لم يكونا ثنائياً عادياً من ذلك النوع الذي يسمح للروتين أن يفسد علاقتهما. كانا مختلفين عن الآخرين. لكنها رحلت مع ذلك...

حين وصل إلى عربة التخميم، فوجئ إميل بأن جوانا قد أخرجت الطاولة والكرسيين، وأعدت المائدة.

«جوانا؟»

كانت أمام منضدة العمل، منحنية فوق خشبة التقطيع.

«أسف، كنت نائمة و... ذهبتُ لأتمشى قليلاً.»

هزت كتفيها موحية بعدم وجود مشكلة.

«قدَّرتُ ذلك.»

«ماذا تعدَّين؟»

«سلطة خضروات.»

أشارت له إلى غصن إكليل جبل بجانبها.

«وجدتُ هذا خلف العربة.»

«نبات بري؟»

«نعم.»

لم يضيف شيئاً آخر. راقبها وهي تقطع الطماطم بحركاتٍ بطيئة ودقيقة. تساءل عن الوقت الذي أمضاه على ضفة الجدول. ساعة في الأقل. حكّ حلقة.

«هل تحتاجين إلى مساعدة؟ هل يمكنني فعل شيء؟»

«لا ضرورة لذلك.»

«يمكنني تقطيع الخبز.»

«حسنًا إذا شئت.»

جلسا لتناول الطعام محاطين بالصمت، يهددهما خريرُ الماء.

«هناك جدول ماءٍ في الخلف.»

«حقًا؟»

«نعم. يجب أن تذهبي لرؤيته. هناك أيضًا درب للمسير الطويل.»

أومات برأسها وهي تواصل النقر. تكوّن لديه انطباع بأنها لا تأكل سوى الفاكهة والخضروات، وأن هذا ما يجعلها ضعيفة بهذا الشكل. هذا المساء سوف يعد المعكرونة مع طبقةٍ سميقة من الجبن المذاب، وسيجبرها أن تأكل قليلًا منه.

«فكرتُ أن نرتاح قليلًا هنا، يومًا أو يومين، ثم نترك عربة التخميم خلفنا لبعض الوقت. هناك الكثير من الأشياء التي تجدر مشاهدتها. يمكننا أخذ حقيتي الظهر والمغادرة لأسبوعٍ أو اثنين.»

أومات برأسها من جديد. تابع إميل:

«لدي خيمة، وسخّان، وكيس نوم.»

«أنا أيضًا لدي كيس نوم.»

«هل لديك ملابس دافئة؟ في الأعلى ستنخفض الحرارة كثيرًا. وتحتاجين إلى

حذاءٍ يناسب المسير، وليس هذا الصندل.»

بدت مترددة للحظات. أضاف:

«قبل أن نغادر سنذهب لشراء حذاء لك، إذا شئت.»
«حسنًا.»

فكر أنها سيحتاجان أيضًا إلى عبوات مياه كبيرة، وأدوات إسعاف أولية، وأكياس طعام مجفف...

بعد أن تناولوا الطعام في صمتٍ وهما يستمعان إلى خرير المياه وتغريد الطيور، غسلا الأطباق. اجتاز عدد من المنتزهين موقف السيارات تجاه الدرب المحاذي للجدول، المخصص للمسير. وصلت سيارات وغادرت أخرى، وهما في بقعة هادئة تحفيها الأشجار.

«سأبقى عصر اليوم في السيارة.» أعلن إميل وهو يرتب الصحنون تحت حوض الغسيل.

«لدي رسالة يتعين أن أرسلها.»

قرر أن يكتب رسالته. من الأفضل إزاحة هذه المهمة عن كاهله الآن قبل التوجه إلى الجبال مع حقيبة ظهره. إذا حدث له شيء... من الأفضل القيام بذلك الآن، كي يبدأ مغامرته هادئ البال، دون أن يفكر في كل ما تركه خلفه. سيذهب ويجلس إلى الطاولة مع فنجان شاي. سيكون لديه فترة بعد الظهر بالكامل كي يجد ما يكتبه.

هزت جوانا رأسها.

«حسنًا. سأكون عند الجدول.»

بقيا لفترة من الوقت يفركان ويجففان ويرتبان، وفي النهاية، ترك إميل منشفة المطبخ جانبًا. لقد تم تنظيف أدوات المائدة.

«يجدر بك القيام بجولة في القرية. المنظر ساحر.»
«حقًا؟»

«نعم. سنذهب معًا إذا شئت.»

«موافقة.»

بعد انتهاء الوجبة، ذهبت جوانا حاملةً منشفة ونظارات شمسية وكتابًا، كأنها ذاهبة إلى الشاطئ. قام إميل بتسخين بعض الشاي، أخرج دفتره وقلماً، وجلس خلف الطاولة القابلة للطي، في الخارج. كان ذلك قبل ثلاث ساعات. لم يكتب سطرًا. أخذ يشرب الشاي، ثم شعر برغبة ملحة في الذهاب إلى الحمام، بدأ بكتابة التاريخ على ورقة الرسالة، ثم تاه في أفكاره. شعر بالنعاس وذهب للاستلقاء على الحشية أسفل السقف القابل للرفع. ثم أعد بعض الشاي من جديد، وقرر البدء برسائله بالفعل هذه المرة. لكنه عاد للتفكير في درب المسير المحاذي لمجرى الماء، وذهب للتحقق من ذلك في دليل البيرينيه. اكتشف أن الدرب يؤدي إلى شلالات أريز، وتستغرق الرحلة ساعتين ونصف ذهابًا وإيابًا. ثم لم يعد يتذكر ما فعله حتى الآن، إلى أن أيقظه صوت أنثوي من أحلام يقظته. صوت مختلف تمامًا عن صوت جوانا.

«طاب يومك!»

جعله الحضور المباغت يسكب بعض الشاي على الطاولة. لم يجب على الفور. اقتربت المرأة من خلف الأشجار. إنها مجهزة بملابس المسير الطويل وتحمل عددًا من العصي. وتبدو في الثلاثين من عمرها، لا أكثر. شعرها أشقر معقوص إلى الخلف، وقسماتها قاسية بعض الشيء لكنها متناسقة. إنها رياضية. ربلتا ساقها مشدودتان وكتفاها عريضتان.

«طاب يومك.» أجاب أخيرًا، حين استعاد القدرة على الكلام.

لاحظ الآن فقط أن المرأة ليست بمفردها، وأن زوجين ينتظرانها بعيدًا في الجانب الآخر من الأشجار.

«لم أشأ إزعاجك. لقد أثارت عربة التخيم فضولي. هل ستمضي في الـ GR أنت أيضًا؟»

لم يفهم عن أي شيء يتحدث. قطب حاجبيه. لا بد أنه كان يبدو بمظهر أحق.
«الـ GR؟»

«الـ GR10.»

«أوه!»

لقد قرأ هذا الرمز في دليله. مسار الـ GR10 يسمح باجتياز كل جبال البيرينيه. وأرتيغ موجودة على المسار نفسه.

«لا. أنا... لقد وصلتُ هذا الصباح.»

«لن تذهب في مسار ال GR10 إذا؟»

«لا... أنوي الذهاب لبعض الوقت مع حقبة الظهر والخيمة لاكتشاف المناطق المحيطة، لكن لا أظن أنني سأتابع مسارًا محددًا.»

«ستبقى بضعة أيام هنا؟»

«نعم. الوقت اللازم لإعداد مسار رحلتي والمعدات الضرورية...»

«هل ستذهب إلى قمة دو ميدي؟»

«بقيت مبتسمة طوال الوقت، ما شكّل اختلافًا جوهريًا عن جوانا!»

«نعم، من بين وجهاتٍ أخرى.»

«لدي إذا بعض النصائح. نحن عائدون من هناك. أنصحك بشدة أن تسلك طريق مولتييه. إنه أطول بكثير لكنه ممتلئ بالإنارة... تخيل أن رجالًا كانوا يسلكون هذا الدرب في الشتاء القارس، في الثلج، حاملين ما يصل وزنه إلى أربعين كيلوجرامًا!»

كانت حماسها معدية. أوما إميل موافقًا وهو يبتسم بدوره.

«نحن ذاهبون اليوم إلى الشلالات.» تابعت المرأة كلامها...

«قررنا التوقف هنا لبضعة أيام قبل استئناف الطريق. وسنغتنم الفرصة لاكتشاف المناطق المحيطة.»

أعادت خصلة شعرٍ أفلتت من ربطة شعرها، إلى خلف أذنها، وبللت شفيتها بلسانها.

«تبدو مشغولًا، لن أزعجك أكثر. هل تؤلف كتابًا؟»

هز رأسه، وابتسم.

«لا. أكتب رسالة.»

«أوه! يبدو أن لديك استعصاء في الإلهام.» قالت بعد أن سرقت لفتة سريعة

إلى الورقة البيضاء.

أجاب ضاحكًا:

«نعم، بعض الشيء.»

«يجدر بك الانضمام إلينا هذا المساء. من سينطلقون في مسار الـ GR10 هنا ليسوا قلائل. سنكون جميعًا في التزل الجماعي. أمس أشعلنا نارًا، والليلة قد نعيد الكرة. الزوجان الألمانيان سيغادران عند الفجر، وستقيم حفل وداع لهما. أحضر بعض النبيذ إذا استطعت.»

كانت لها ابتسامة متقدة تتباين مع قسماها المائلة إلى القسوة. أجاب:
«نعم، سوف أرى.»

يبدو أن الزوجين المنتظرين خلف المرأة، أخذًا يتململان. استعجلها الرجل بإشارة خفية. استعادت عصوي المسير اللذين كانت قد غرزتها في الأرض.
«إذا أتيت، أسأل عن كلويه... إذا كنت في المطبخ سيأخذونك إلي.»
أوما إميل برأسه، وابتسم أيضًا.

«لا بأس. شكرًا.»

«أرجوك. إلى اللقاء إذا... ريبا!»

«نعم. إلى اللقاء!»

اختفت بخطى سريعة وتلاشت صورتها خلف الأشجار. هذه المرة لم يعد بإمكانه العودة إلى رسالته. استرخى على مسند الكرسي ومدّ ساقيه. تساءل عما إن كان سيذهب هذا المساء أم لا. إنه يرغب في ذلك. حضور جوانا لطيف لكنه صامت أكثر مما يجب. إنه يحتاج حقًا إلى سهرة مع نبيذ وأناس ونقاشات وابتسامات... توجد زجاجة نبيذ أحمر أسفل الحوض، حملها معه لحظة هروبه. يمكنه أخذها إلى السهرة. لكن هناك جوانا... هل يمكنه تركها هنا بمفردها؟

اقترب النهار من نهايته ولم تعد جوانا. قام إميل بالاستحمام سريعًا وسخن الماء للمعكرونة. ألقى السباغيتي في القدر الصغير وهو يراقب الوقت. ما الذي تفعله؟

قرر أن يذهب إلى ضفة الجدول ليرى إذا كانت هناك. كان درب المسير مقفرًا ولا أثر لجوانا في الأفق. قرر أن يخطو بضع خطوات في اتجاه، ثم في الاتجاه الآخر، كي يرى إن كان سيلمحها أم لا. بلا فائدة. أغضبه ذلك قليلًا. إنه جائع وهناك

أمر آخر يزعجه، تلك السهرة في التزل الجماعي... إذا لم تعد جوانا، لن يستطيع الذهاب.

انتظرها بعضًا آخر من الوقت ثم تذكر فجأة أنه نسي المعكرونة والماء الذي يغلي. لقد فات الأوان. كان الدخان يملأ سيارة التخييم، والقدر الصغير قد اسودَّ، ولم يعد في قعره ماء، والمعكرونة قد تفحمت. يجد مشقة في كبح غيظه ويبدأ بكيّل الشنائم وهو يصفق أبواب الخزائن. احتاج إلى عشر دقائق كاملة لتنظيف القدر، وعشر أخرى لسلق كمية أخرى من المعكرونة. كان الوقت قد أصبح ليلاً تقريبًا عندما جلس إلى الطاولة في الخارج.

لا يزال غاضبًا. لقد أفسدت جوانا سهرته. ماذا تفعل؟

لا يعرف إذا كان عليه أن يقلق لغيابها أم فقط يبقى غاضبًا. في تلك الليلة، غفت بالفعل في أحد الحقول... هذا ما حدث بلا شك. ستعود في الليل، منذهلة، ويكون هو قد خسر سهرته.

أنهى طبق معكرونة، وسكب لنفسه طبقًا آخر نثر فوقه الجبن. بدأ يقلق حقًا. ماذا لو أمطرت؟

ماذا لو بدأ الماء يرتفع؟

ماذا لو لم تجد طريقها في الليل؟

ترك إميل طبقه، وتناول مصباحًا يدويًا من خزانة الحائط أسفل الحوض، وذهب لملاقاتها تجاه الجدول. إنها هناك. ها هي في طريق العودة بينظاها البرمودا الضخم، ويدها كتابها ومنشفتها. كانت تسير بخطى هادئة، وهذا قد أخرجه عن طوره.

«ماذا تفعلين؟» صرخ تجاهها وهي تقترب.

لم يبدُ أنها حتى أسرع الخطى عند سماعه.

«كنت قد بدأتُ أشعر بالقلق! سيحل الليل!»

وصلت أمامه وبدت متفاجئة، كأنها لا تفهم سبب غضبه.

«كان يجب أن تخبريني!»

«آسفة، لم أعرف أن الوقت تأخر كثيرًا...»

«لكن صوتها الضعيف الأسف لم يهدئه.»

«إنه الليل!»

«كنت مستغرقة في كتابي...» قالت بنبرة اعتذار.

«ألم تري أن الليل قد خيم؟!»

توقف فجأة لأنه لاحظ أن وجهه أصبح قاسيًا، ولأنها لا تدين له بأي كشف حساب. هي راشدة وقادرة تمامًا على الاعتناء بنفسها بمفردها. لكن تلك هي المشكلة... هل هي قادرة على ذلك؟

إنها في مكان آخر، بشكل مستمر.

«اعذريني، أنا فقط... بدأت أشعر بالقلق.»

هزت كتفيها تعبيرًا عن عدم المبالاة.

«باعتبارك نمت الليلة الماضية وسط حقول، خشيتُ أن...»

قاطعته بشكل مباغت:

«من الآن فصاعدًا سأعود قبل حلول الليل.»

ولم يجد ما يضيفه سوى «أعددتُ لك بعض المعكرونة.»

مغمغمًا بعض الشيء.

عادا إلى العربة. لم يعد لديه أي رغبة في الذهاب إلى تلك السهرة. أشعل شموعًا فوق الطاولة الصغيرة واستغرق مجددًا في دليل البيريني، بينما تتناول جوانا طعامها. لقد لفحتها الشمس اليوم، فقد تلون أنفها بحمرة شديدة. هل نزعت عنها قبعتها؟ «هل أعجبك الطبق، هل لا يزال ساخناً؟» سأل وهو يرفع أنفه عن الدليل.

«نعم.»

«الوقت متأخر قليلًا للقيام بدورة في القرية الآن... سنذهب غدًا...»

«حسنًا.»

كانت ساحة التوقف مقفرة في تلك الساعة. لم يعد هناك قطرة واحدة. انتفض عند سماع ضجة وراءه بين أوراق الشجر. ضيق عينيه وخيل له أنه لمح قامة. بعد لحظة ظهر شخص ما، وفي شعره غصن شجر. تنهد إميل في ارتياح وهو يتعرف إلى المرأة الشابة التي التقاها عصر هذا اليوم، كلوييه.

«آه، هذا أنت! كنت أتساءل عمن يحوم خلصةً في هذه النواحي!»
رفعت جوانا الجالسة بجانبه إلى الطاولة، رأسها عندما سمعته يتكلم،
لتكتشف كلويه مزروعةً أمامهما. لم يبد عليها أدنى اندهاش. أما كلويه، فقد ظهر
عليها الانزعاج فجأةً، وتوقفت برهة.

«آسفة، كنت أريد... كنت أعتقد... كان هناك سهرة...»

بدت مضطربة وكأنها تتمنى أن تبتلعها الأرض. نهض إميل ودعاها للحاق به
تجاه جدول الماء. ترددت كلويه لحظة ثم لحقت به بعد أن وجهت إلى جوانا تحية
«مساء سعيد» خاطفة. تقدما خطوات قليلة ثم توقف إميل.

«كنت أريد القدوم، لكن جوانا لم تكن قد عادت من جوار الجدول، والليل
يقرب. أردت أن أنتظرها، لأؤكد أنها عادت بسلام وأمان. وبعد ذلك كان الوقت
قد تأخر حقاً.»

يبدو أن كلويه لم تستمع إليه، كان نظرها مثبتاً على عربة التخيم وجوانا التي
تناول وجبتها محاطةً بالشموع، وقبعتها السوداء على رأسها.

«هل هذه حييتك؟ لم أكن أعلم أنك هنا مع حييتك...»

تابع نظرة كلويه المتجهة إلى جوانا وهز رأسه ضاحكاً: «لا... لا، هذه ليست
حييتي!»

كانت جوانا قد وضعت للتو شوكتها جانباً. ورفعت رأسها الآن نحو السماء،
ولبثت بلا حراك. لا نعرف ما تفعله، هل تنظر إلى النجوم، أم تصلي. همست كلويه:

«تبدو غريبة الأطوار.»

أثار ذلك ضحك إميل.

«إنها مجنونة تماماً، صحيح!»

«ما الذي تفعله هنا إذا؟! لماذا تسافر معك؟»

لم يشأ أن يروي لها كل شيء. المرض والحكم والإعلان...

«لقد التقطتها على الطريق.»

فتحت كلويه عينيها على اتساعهما.

«ماذا؟!»

سارع إلى العثور على شيءٍ يختلفه.

«كانت تبحث عن يقلها مجانا، أخذتها من منطقة استراحة على الطريق السريع. هي ضائعة نوعاً ما... أخبرتها أنني أسافر إلى البيريني، وأرادت القدوم.»
فغرت كلويه فمها من المفاجأة.

«أنت لا تعرفها؟»

«لا.»

«متى رافقتك؟»

«قبل ثلاثة أيام.»

«دون أن تعرفها؟»

«دون أن أعرفها.»

«ربما تكون مجنونة... أعني مجنونة حرفياً، مريضة نفسياً أو... قد تكون هاربة.
ربما تكون مطلوبة!»
هز كتفيه.

«لا تبدو خطيرة.»

الذهول الظاهر في عيني كلويه جعله يدرك أنه ربما يكون مجنوناً مثل جوانا،
وأن اللقاء بينهما كان مناسباً.
«أنت مخبول تماماً إذا!»

أخذت تضحك وحذا حذوها، سعيداً بأنها تخلت عن تلك الهيئة المذعورة.
«تلك هي المغامرة، أليس كذلك؟!»
«... لا أدري.» أجابت كلويه.

«مع من ذهبت في مسار الـ GR10؟»

«أنا برفقة صديقتي المفضلتين وصديقيهما، أو يجدر أن أقول زوجيهما، لكنني
لستُ مهياة بعد للامر. هذا يُشعري أنني عجوز.»
تبادلا ابتسامة.

«أظن أنني أفهمك... صديقي المقرب أصبح أباً ويبحث عن بيت.»
ارتسمت على وجهها تكشيرةٌ أضحكته.

«أي محنة! كان الأجدد به أن يرافقتك إلى هنا!»

«أظن أن ذلك سيروق له.»

«هل السيدة الزوجة هي التي اشترطت عليه بيتًا وطفلًا؟»
فكَّر لحظة.

«أظن ذلك، إلا أن الأمر يسعده جدًا.»

«إذًا هذا هو المهم.»

حل الصمت مجددًا. لاحظ إميل أن كلويه تركت شعرها منسدلاً هذا المساء، وكان يلامس كتفها. واستبدلت ثياب المسير بفستانٍ صيفيٍّ بلونٍ أخضر تفاحي وصندل عالي الكعب. إنها تعادله في الطول، ويستيمتر آخر تصبُّح أطول منه.

«هل ستأتي إلى تلك السهرة إذًا؟ يمكننا أن نطلب من رفيقتك المجنونة القدوم.»

ابتسمت ابتسامة مأكرة. راح كلاهما يراقبان جوانا وهي تنهض، تتناول صحنها وأدوات الطعام وتذهب إلى داخل غرفة التخميم.

«أظن أنها ذاهبة للنوم.» أعلن إميل.

«نعم... هل نتركها هنا؟»

«يمكننا ذلك.»

«أو نجلس هنا، على ضفة الجدول. لكنني لم أحضر نبيذًا...»
وجَّه إميل لها ابتسامة.

«لدي نبيذ في الداخل. ولدي نار. يمكننا إقامة السهرة هنا.»
ربت كلويه على كتفه في سعادة:

«موافقة!»

وجد جوانا تنظف الصحن داخل السيارة. وقف بجانبها، مُحَرِّجًا بعض الشيء.

«التقيت هذه الشابة عصر اليوم. كانت ذاهبة في مسير مع أصدقائها.»
لم تُظهر جوانا أي رد فعل، وتابعت فرك صحنها.

«ستقيم سهرة على ضفة الجدول، أتريدين المجيء؟»

هزت رأسها.

«لا، أنا على ما يرام.»

«ستذهين للنوم؟»

«نعم.»

«حسنًا... إلى وقتٍ لاحق.»

فتح خزانة الحائط أسفل حوض الغسيل، وتناول زجاجة النبيذ الأحمر، وفتاحة
القناني والقداحة. شعر أن عيني جوانا تنظران إليه وهو يخرج من العربة، وتساءل
عما إذا كانت نظرتها لا تزال مذهولة وتائهة أم لا.

«هنا سنكون مرتاحين تمامًا.»

ارتمت كلويـه فوق حجرٍ كبيرٍ بعد أن جمعت بعض الأغصان الجافة التي جعلها إميل في باقة وأحاط كومةً الحطب الصغيرة بالحجارة. اشتعلت النار بلا صعوبة كبيرة. ذهب إميل لجمع قطع أخشابٍ إضافية بينما تفتح كلويـه زجاجة النبيذ. «لم أحضر كؤوسًا.» قال معتذرًا.

«سنشرب من القنينة مباشرةً.»

هذه المرة أصبح كل شيء جاهزًا. وضع إميل الأغصان قرب النار. كان لديهما مخزون يُيقِيها عدة ساعات مشتعلة. جلس إلى جانب كلويـه. مدت ساقها الطويلتين مفتولتي العضلات، أمامها. كانت أضواء برتقالية ضعيفة تتراقص فوق بشرتها. رفعت الزجاجـة، شربت منها وناولته إياها. انتابه شعور جيد إلى أقصى درجة لوجوده هنا على ضفة الجدول، بجانب نار تحميم، برفقة شابة تبسم له، وتوحي له بأنه يروق لها، فتاة تفيض بالطاقة. بعد تلك الأيام الأولى الصامتة التي أمضاها وهو يجتر الماضي، هذه السهرة هي نفحة حقيقية من الأكسجين. بدأت بسؤاله.

«أخبرني إذًا... عن فكرة السفر إلى البيرينيـه هذه؟ كيف انتهى بك الأمر إلى هنا؟»

لكنه فضّل أن يتركها هي تبدأ، كونه لا يعرف حقًا ما سيرويه لها. هل سيقدم لها نسخة مخففة من الحقيقة، نسخة حقيقية إلى هذا الحد أو ذاك؟

«لا، أنتِ أولاً.»

«ولماذا؟»

«لأنك تكثرين من الأسئلة.»

ضحكت ضحكة صامتة وأرجعت رأسها إلى الخلف.

«أقر بذلك. كثيرًا ما يُقال لي ذلك.»

«أخبرني إذًا. ماذا عن مسار الـ GR10؟»

«حسنًا، لنبدأ من البداية... لقد تخلّيتُ لتوي عن عملي كساعية بريد.»

باغته وهو يتسم ابتسامة استغراب.

«نعم... ساعية بريد. هذا يفسر هاتين الساقين الجميلتين النحيلتين، وهذه البشرة المسمرة، أليس كذلك؟»

ضحك الاثنان بلا تحفظ.

«هل كنتِ تتقلين على الدراجة الهوائية؟»

«بالطبع. لطالما رفضتُ السيارة.»

«تجيبين الرياضة كما أتخيل.»

«لم أكن أفعل شيئًا سواها في عطلات نهاية الأسبوع.»

«رياضة ركوب الدراجة الهوائية أيضًا؟»

«لا. رياضة السباحة والجري، والكثير من رحلات المسير. لطالما تمنيت الذهاب في مسير إلى قلب الطبيعة.»

«ألهذا تركتِ عملك؟»

«المسألة أكثر تعقيدًا من ذلك قليلًا...»

استعادت منه الزجاجة وابتلعت جرعة.

«هذا النبيذ ليس سيئًا في الواقع.»

ألقت عليه تلك النظرة المركزة التي توحى بأشياء كثيرة. لقد جاءت كي تأخذه من سيارته هذه الليلة...

«لم تكلمي قصة مغادرتك.» قال كي يوارى اضطرابه.

«نعم... كانت فكرة الرحيل تلك تدور إذًا في رأسي. لطالما أردت القيام بمسیر الـ GR10. كان يفترض أن أقوم به برفقة صديقي الحميم آنذاك. ثم افترقنا قبل ثلاث سنين. كان شخصًا مغفلًا لكننا قررنا الزواج.»

ارتسم على وجهها تعبير الإقرار بالذنب.

«نعم، كدتُ أقع في الفخ. ولكن النهاية الجيدة تجعل الأمر جيدًا لأن السيد قد رحل مع فتاة أخرى...»

صمتت هنيهة ثم استأنفت.

«... للقيام بمسير الـ GR10.»

كتم إميل ضحكةً في أثناء شربه من الزجاج، وكاد يخنق. لم تشعر كلويه بالإهانة إطلاقًا، وأخذت بدورها تضحك.

«نعم أعرف... إنه دائمًا مسير الـ GR10، اللعين. حياتي تمثل مهزلة.»

«أرى أنك تتعاملين بشكل جيد مع الأمر.»

من جديد ساد صمت لا يعكره سوى طقطقة الخشب في النار.

«هكذا صرفتُ النظر عن فكرة المسير تلك. لقد... لقد أهدرتُ نوعًا ما السنوات الثلاث التالية من حياتي على العيش بلا هموم. عمل، رياضة، تسكع مع الصديقات. كن يحاولن تغيير رأيي. كنت العزباء الوحيدة في المجموعة، ولا أزال. لذلك فإنهن يحاولن دومًا الإيقاع بي. هذا شيء لا يُحتمل.»

«أظن أنني أفهم الحالة.»

لقد عاش حالة شبيهة عند رحيل لورا. كان رينو مع ليتيسيا، وكان أصدقاؤهما القلائل الذين استمرت العلاقة بهم، يدخلون شيئًا فشيئًا في الحياة الزوجية، وأصبح هو الرجل الذي يجب الإيقاع به. ولم يفهم أحدهم أنه لم يعد يريد أن يسمع كلامًا بشأن الموضوع، وأن المسألة محسومة بالنسبة له. تابعت كلويه:

«ثم توفيت أُمِّي منذ شهرين، من سرطان مبيض. عرض أبي منزل العائلة للبيع. أدركتُ أنها نهاية دورة حياة، وأن الوقت قد حان للرحيل. هذه أشياء نشعر بها دومًا، ينقطع الرابط الأخير، ونعلم أننا نستطيع المغادرة. لم أرغب في أخذ إجازة بلا راتب. قدمت استقالتني. أنا شابة وساعثر على عملٍ آخر، في هذا البلد أو غيره.»

ألقت حصاة صغيرة في الماء. أعطاهما إميل الزجاج.

«إلى أين ستذهبين بعد البيرينيه؟»

«ربما إلى إسبانيا. ثم إلى صقلية. وبعد ذلك، لا أعرف بعد.»

«وصديقتاك ستذهبان معك؟»

هزت كلويه رأسها. كانت النار تعكس على شعرها الأشقر السنةً متراقصة.

«لا. سترافقاني فقط مسافة من مسار الـ GR10.»

طوت ساقها إلى صدرها. تعجبه طريقته في النظر إليه، وهي تميل رأسها إلى الجانب، فيرغب في تمرير يده في شعرها.

«وماذا عنك؟» سألت.

«لماذا أنت بمفردك؟ أعني دون أخذ تلك المجنونة التي التقطتها على الطريق،

بالاعتبار...»

لم يتح له وقت لإعداد كذبه الصغيرة. لقد أخذ على حين غرة.

«أنا... أنا أيضًا...»

ابتلع ريقه. نظرت إليه كلويه في اهتمام وهدوء. لم يرغب في إخبارها عن مرضه. أراد أن يكون شابًا وممتلئًا بالحياة، هذا المساء، مثلها. أراد أن يكون شابًا موعودًا بكل شيء.

«أنا تركتني أيضًا.» قال أخيرًا.

«مَن؟»

«حييتك؟»

«نعم. رحلت منذ عام. وعكسك، لم أعرف قط إذا كان هناك رجل آخر في حياتها أم لا. لم... لم نكن ننوي الزواج... ولكن فكرة الإنجاب كانت تدور في رأسها، وكانت أكثر استعدادًا مني لذلك بكثير. لم أكن... لم أكن سوى صبي صغير.»

فوجئ بالطريقة التي خرج بها الأمر، لأن هذا ليس كذبة بحالٍ من الأحوال. أرادت لورا طفلًا بالفعل. حلمت لورا أن تنجب طفلًا منه. انتهى به الأمر بالاستسلام لكن بعد فوات الوقت، الشيء الذي لم يلاحظه إلا لاحقًا. لم يصدق أنه أخبر كلويه بذلك لتوه، لأن رينو ذاته لا يعرف الأمر. لم يستطع أن يخوض فيه قط، ولم يفهم رحيل لورا، أو يقبل به. لكنه عرف دومًا أن عقدة المشكلة تكمن هنا.

«ما الذي حدث؟ ألم تحاول؟» سألت كلويه.

«بالكاد. لنقل إنه... عندما عزمْتُ على ذلك في النهاية، كان الوقت قد فات..»
«خسارة.»

«نعم. رحلت. أظن أنه كان هناك شخص آخر لكنتي لم أتيقن قط..»
«لم يكن هذا ليغير من حقيقة أنها تركتك...»
«صحيح.»

«وربما سيجعلك تُحلي مسؤولياتك. وهذه هي الفائدة الوحيدة من الأمر.»
«كيف ذلك؟»

أخذت كلويه تدحرج بعض الحصيات بين أصابعها.
«... اتهام الغريم بأنه سبب الانفصال، أسهل دائمًا. إنه أسهل بكثير من رؤية ما فاتنا أن نراه.»

عرف أنها على حق. لكنه لم يشأ الاستماع. كان كل شيء يكمن في تلك الرغبة في وجود طفل، في انعدام نضجه ذاك... لم يعد يريد التفكير في الأمر الآن. سعى لتغيير الموضوع.

«حدثت القطيعة... ووجدت نفسي أنا أيضًا، العازب الوحيد في المجموعة. الجميع من حولي كانوا يتزوجون، وكان عملي يضجرني، وأفضل صديق لي يصبح أبا. كان ذلك كثيرًا جدًّا. حان وقت الرحيل، كما قلت.»
«خطر لك الأمر هكذا؟»

«نعم. دفعة واحدة. اشتريت سيارة التخميم هذه ومضيت. كان ذلك... لا أعرف... كأنني أستيقظ بعد أن غفوت شهرًا طويلة في حياة بلا طعم.»
لم يكذب في هذا أيضًا. كان يسمع نفسه وهو يتكلم كأنه غريب عن نفسه، وراح يتساءل عما إذا كان الحكم الذي أنزله به مرضه، هو السبب الوحيد لرحيله أم لا... رفعت كلويه الزجاجاة إلى فمها. تلذذت لبضع ثوانٍ بمذاق النبيذ قبل أن تجيّب:

«انتابني الشعور نفسه بالضبط. يجب أن نَحذَر.»
«مم؟»

«من أن نغفو في حياتنا. جميعنا نميل إلى القيام بذلك. سأحاول أخذ حذري. ويجدر بك أن تفعل الشيء نفسه.»
أوما برأسه. لن يقول لها إن الوقت لن يسعفه كي يغفو في حياته.
«ماذا كنت تعمل؟» سألت كلويه وهي تمرر له الزجاجاة.

أنهيا النييد. تكلم كلٌ منهما عن عمله ثم عن أسرته، وعن رؤيته للحياة. إنه شعور رائع. تمددت كلويه فوق الحصى. اقترب منها لكنه لم يجرؤ على ملاستها، ليس بعد. راح يراقب أخيلة النار المتراقصة في شعرها وفوق ساقها وفي أعماق عينيها. أصبح صوت كلويه دافئًا وخافتًا عندما استندت إلى مرفقها وأعلنت:
«ماذا لو ذهبنا إلى عربتك؟»

التمعت عيناها ببريق الإصرار.
«هناك جوانا.»

«هي نائمة في الأعلى، أليس كذلك؟!»
«نعم...»

«سنلزم الصمت. أعدك أن ألزم الصمت.»

رسمت على وجهها ابتسامة لعوب. نهضت مستندةً إلى ركبتَي إميل، وأزال هذا الاتصال آخر مقاومةٍ لديه.
«صمت تام إذًا!» قال منذرًا إياها.
«سمعاً وطاعة...»

تردد كلاهما عند مدخل السيارة وانتاب إميل شبه يقين أنها قد أيقظا جوانا، لكنه لم يتمكن من فتح فمه لأن كلويه اقتربت منه حد الالتصاق. تشوب رائحة النييد أنفاسها. انتابه شعور غريب. لم تكن لورا مشدودة العضلات بهذا القدر، كما لم تكن تتمتع بهذه الحيوية. وكانت أقصر أيضًا. لم يعرف قط فتاة بحوية كلويه. أمسكت به بقوة بحركاتٍ واثقة وفعالة. أسقطا قدرًا صغيرًا حين استندا إلى منضدة العمل، فانفجرت كلويه ضاحكة. شحب لون إميل وهو ينظر إلى السقف حيث لا بد أن جوانا قد استيقظت.

«هيا، استرخِ» همست كلويه في أذنه.

«لن نشكل صدمة لها.»

أشار لها إميل في صمتٍ إلى المقعد الطويل أمام الطاولة، الذي لا يبعد عنهما سوى متر لكنهما استغرقا وقتاً طويلاً للوصول إليه. بدت هيبتها متوحشة، وعيناها لامعتين. تولد لديه شعور بأن هذا لم يحدث له منذ سنين طويلة. بعد لورا لم يكن هناك سوى امرأة واحدة. ولمرة واحدة. امرأة متزوجة التقاها عبر أحد المواقع الإلكترونية. حتى أنه لا يتذكر لماذا فعل ذلك. ربما كي يشعر بأنه انتقم من لورا، وأنه خطف تلك المرأة من أحدهما، مثلما خطف أحدهم لورا. جرى الأمر سريعاً وبلا متعة. بعد ذلك قرر أن الأمر انتهى، وأنه من الآن فصاعداً سيكون مخيباً. لكنه نجح هذا المساء، ولم يكن مخيباً إطلاقاً. كان أشبه بولادة جديدة إلى حدٍّ ما. علا صرير مخيف من المقعد الطويل. عاد الصمت داخل عربة التخميم، ولم يعد لدى إميل سوى هاجس: ترقّب أدنى إشارة تدل على استيقاظ جوانا. دعا راجياً ألا يكون ذلك هو الحال. شعر بالخزي لأنه فرض عليها ذلك. لقد تصرّفا على نحوٍ مقبّط.

«هل نجلس في الخارج؟ أترغبين في تناول الشاي مع..؟»

لم ينه جملته، أو مات كلويه بالموافقة ونهضت في فظاظة.

خشى أن يكون قد جرحها. لم يكن يريد طردها.

«بكل سرور. وليكن شايًا أخضر إذا!» عادت لها ابتسامتها.

عندما انضم إلى كلويه في الخارج، كانت بصدد تصفح دليل البيرنيه الذي تركه على الطاولة.

«لدي الكثير من النصائح لأقدمها لك.» أعلنت وهو يرمي على الكرسي

المقابل.

«حقاً؟»

«نعم. ولكن هذا سيستغرق منا أمسية كاملة. إذا ظللت هنا غداً مساءً، يمكننا

أن نمضي بعض الوقت؟»

«متى ستغادرين؟»

«بعد غدٍ.»

«يمكننا إذا القيام بذلك مساء الغد، نعم.»

شربا الشاي في صمتٍ خلال بضع لحظات. أصبح الهواء باردًا جدًا. إنه الليل. كان إميل هو مَنْ كَسَرَ الصمت.

«لا أدري إذا كنتُ مهياً بشكلٍ صحيح لاستخدام المعدات أم لا... أقصد من أجل المسير لمسافاتٍ طويلة.»

«لستُ محترفة ولكن... مشينا عشرة أيام وتناوب بين المبيت في النزول أو تحت الخيام. يفترض أنني أستطيع مساعدتك.»

«هذا لطف منك.»

نظرت كلويه إليه نظرة ضاحكة.

«لا. أمسينا هذه هي التي كانت لطيفة.»

بادلها الابتسام.

«صحيح. إن...»

تردد حول الطريقة التي سيصوغ بها جملة، فهو لا يريد أن يبدو غيبًا.

«مصادفة أشخاصٍ مثلك، شيء لطيف.»

«أعيد لك المجاملة.»

نظرت في عينيه مباشرةً وهمست:

«كنت تستطيع الحصول على صحبةٍ أفضل من صحبة المجنونة بقبعتها السوداء.»

حاول ألا يُظهر الاستياء الذي أثارته جملة كلويه في نفسه. فهي تبدو ظالمة وسطحية. حاول الدفاع عن جوانا:

«هي مشتتة فقط... لكنها لطيفة جدًا.»

«نعم.» ردت كلويه متبرمة... «الطيفة.»

ارتسمت ضحكة ساخرة على وجهها. لم يجب بشيء. فضل أن يشرب فنجان الشاي في صمت.

غادرت كلويه بعد دقائق. طبعت قبلة بين شفته وخده ثم اختفت بين الأشجار. لم يجرؤ إميل على الصعود إلى حجرة النوم، حيث تستلقي جوانا، وربما لا تزال مستيقظة بسبب ضجيج مطارحتهما. بعد كل ما جرى للتو، سيكتفي هذا المساء بالمقعد الطويل، كونه يدين لها حقاً بعلامة التقدير هذه.

استيقظ في اليوم التالي وهو يعاني من ألم شديد في الرأس. قال لنفسه إنه يستحق ذلك، وإن الرب العادل هو الذي عاقبه. كانت الشمس قد ارتفعت في السماء، ولا بد أن الوقت قريب من منتصف النهار. يفترض أن جوانا قد نهضت. كان يشعر بالخلج بسبب مساء البارحة، وازداد هذا الشعور الآن وهو في وضوح النهار. نام على المقعد الطويل واستخدم سترة بمثابة غطاء. أرغم نفسه على النهوض ليخطو خطوة نحو الخارج. لا أثر لجوانا. شعر بالارتياح بمعنى ما، ثم انتابه قلق لفكرة أن تكون قد غادرت وتركته. لكن أغراضها هنا. قال لنفسه إنه سيستحم ثم يعد وجبة جيدة على سبيل الاعتذار. سيختار لها الخضروات النيئة فقط وستكون مسرورة.

قبل ذلك أرغم نفسه على السير خطوات في الخارج، محتمياً بالأشجار لتهدئة ألم رأسه. اتجه إلى جدول الماء. سيفيده غمر قدميه بالماء البارد. توقف فجأة على بعد خطوات قليلة من الجدول، لأن جوانا كانت هناك، جالسة فوق صخرة كبيرة. تحمل هاتفاً قرب أذنها وتتكلم، ليس همساً كما في ذلك اليوم، بل تتكلم بصوت واثق لم يألفه منها. لم يكن صوتاً قوياً، بل واضحاً.

«لا. يجب ألا تتصل ثانية...»

صمتت هنيهة. رغم ضجيج الجدول، التقط إميل صوت رجلٍ يدوي عبر الهاتف. صوت شخصٍ شاب.

«أنت... لا... كفاك بكاء... كنتَ تقول إنك ستقدر خيارى... أنا... لا أعرف. قلت لك ذلك من قبل... شهر، ستة أشهر، سنة... أحتاج إلى وقت... لا... توقّف...»

صمتت برهة كأنها كانت في حاجةٍ إلى تمالك نفسها أو التقاط أنفاسها.

«كنا متفقين... سأعود عندما أكون جاهزة. سبق أن قلت لك ذلك... لا يمكنك مواصلة الاتصال بي هكذا... أحتاج إلى الهدوء. أحتاج إلى مساحة.»

أحاطت رأسها بيديها. مرت بضع ثوانٍ. عندما استأنفت الكلام، كان صوتها مستاءً.

«نعم كان بيننا حب، لكن هذا لا يغير شيئاً... لا، لم أعد أعرف الآن. أحتاج إلى وقت كي أعرف إذا كان هذا هو الحال أم لا... توقف عن البكاء. هذا هو الوضع.»

بقي إميل جامداً بضع لحظات ثم انتبه أنه يجب ألا يكون هناك. تراجع في صمت، محاولاً ألا يهرس الأغصان الميتة لأن ذلك سيصدر ضجة رهيبية. رتب أغصانه جواراً، فتعرف أنه يعرف. ولن يدري أحدهما كيف سيتعامل مع الموقف. عاد بأسرع ما يستطيع إلى طريق عربة التخميم. الآن أصبح على يقين. هناك رجل يتصل بها. رجل يبكي رحيلاً، رجل أحبته يوماً لكنها لم تعد متأكدة من حبها له.

باتت المائدة جاهزة. وضع عليها أدوات الطعام. أعدّ عجة بالفطر راجياً أن يكون البيض من الأطعمة التي تأكلها، وسلطة خضراء، وقليلًا من الأرز الذي طهاه مع غصنٍ من إكليل الجبل. وفي أثناء انتظاره لها، أخرج ورقته البيضاء وقلمه، لكن من الواضح أنه لم يكن يوماً مناسباً لكتابة رسالته. كان ألم الشقيقة حاضراً، يطرق جمجمته، وصور الليل لا تزال حاضرة. الكلمات التي قالها عند ضفة الجدول. كانت فكرة الإنجاب تدور في رأسها، وكانت أكثر استعداداً مني لذلك بكثير. لا يعرف ما الذي جعله يوح بذلك. ولماذا لتلك الفتاة؟

هل من الأسهل الاعتراف بالأخطاء لأشخاص لا نعرفهم؟

كان إميل قد صادف لورا في الجامعة. كان يشعر بالملل في مدرسة التجارة، حيث لم يكن يفعل الكثير، فقط الحد الأدنى. كانت لورا في الصف الأعلى منه. جاءت لتعريفهم إلى الدورة التدريبية التي أجرتها مع وكالة عقارية، بغرض تشجيع طلاب آخرين على التسجيل فيها. وجدها جميلة ووقحة. تصادفاً في سهرة طلابية في المساء نفسه. أمسك كتفها بين الحشد، وأعلن اهتمامه الشديد بالمؤسسة التي كانت تُجري تدريبها فيها. لم تنخدع وانفجرت ضاحكة. عشق ضحكتها. في تلك اللحظة، أصبح نصف واقع في حبها. أمضيا الأمسية في النقاش مستندين إلى منصة البار. وتبادلا القبلات عند المغادرة. تواعدا في اليوم التالي لتناول وجبة

خفيفة وسط المدينة. هكذا بدأت العلاقة بينهما، بسرعة كبيرة. لم يفترقا بعد ذلك. كانت تأتي للنوم في شقته الطلابية الصغيرة، ويذهب للعشاء في سكنها المشترك، ويبقى هناك للنوم أحيانًا. كان يمكن أن تطرق بابه في منتصف الليل، فقط كي تشم رائحته قبل أن تنام. أو تأتي لأخذه من أمام قاعة المحاضرات، معلنة: «تعال، سنذهب إلى السينما»

فترك المحاضرات ويلحق بها. كانت مندفعة، تنبض بالحياة، ولا تحب البقاء طويلاً في المكان نفسه كونها سريعة الملل. كان يمكنها مغادرة سهرة بعد ساعة معلنة أنها سهرة عفنة. كانت تقرر مساء الثلاثاء أنها ستذهب في نهاية الأسبوع إلى البحر، فلا يكون أمامه سوى أن يتبعها إذا أراد، لأنها ذاهبة حتمًا. وكان يتبعها لأنه يعرف أنها تعني ما تقول: ستذهب من دونه. ستأخذ سيارتها القديمة، وثياب السباحة، وفرشاة أسنان، وشمع. هكذا كانت بداية علاقتها مطبوعة بالتقلبات والشغف. كان يعرف أنها حرة، ومعرفة بأنها قد ترحل في أي لحظة، زادت من حبه لها.

بعد ذلك هدأ، وتابع محاضرات الكلية باجتهاد (نتيجة تدمير الأب والأم في كلا الطرفين). استقرا معًا بعد سنتين من التنقل المستمر بين مكان سكن كل منهما. أنهت لورا دراستها ووجدت عملًا، توقفت عن ارتجال طرق عشوائية لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وأصبحت تقلق إذا لم يعد في الوقت المرتقب. شعر أنها باتت أقل حرية وتوقف عن اعتبارها طائرًا مجنونًا. اعتقد أنها تحولت إلى قطعة عجوز صالحة، وأنها ستبقى هناك دومًا.

لذلك، تعذر عليه بالفعل الاعتراف لرينو بإخفاقه، وأنه أراد أن يجعل لورا توجّل الموضوع، وأنه اعتقد أن رغبتها في الإنجاب، نزوة. فمن المفترض أنه الأكثر موهبة من صديقه، وأنه النموذج، الشخص العارف الذي يفهم النساء، والذي لم يكن أخرق أو رعيذًا. مع ذلك، فإن رينو هو الذي نجح وعرف كيف يُرضي ليتيسيا، وهو الذي أنجب طفلًا اليوم.

اتهم الطرف الآخر بأنه سبب الانفصال، أسهل دائمًا. إنه أسهل بكثير من رؤية ما فاتنا رؤيته.

لا شك أن هذا ما فعله وهو يقنع نفسه بأن لورا رحلت من أجل شخصي آخر.
قد لا يكون هناك شخص آخر. بل رحلت لورا بحثًا عن حلمها، عن حريتها.
يسمع خطوات جوانا فوق حصى ساحة التوقف، قبل أن يراها، فيتصب واقفًا
بسرعة كبيرة.

«نهارك سعيد.»

«نهارك سعيد.»

لم تبد حاقدة عليه بسبب ليلة أمس، كانت فقط تبدو في مكان آخر، كالعادة.
غاصت في كرسيها دون أن تكلف نفسها عناء إخفاء هاتفها المحمول. وهل ترغب
حقًا في إخفائه؟

«أعددتُ الطعام. يفضل أن نأكل كيلا يبرد الأرز.»

كانت ترتدي قبعتها السوداء الأبدية وطاقمًا يتكون من سروالٍ وقميصٍ
أسودين. إنها لا تلبس إداً غير الأسود، أصبح الأمر الآن أكيدًا. ملأ لها صحنها
بينما كان نظرها سارحًا في الفراغ. يبدو أن مكالمتها الهاتفية مع الرجل قد زعزعتها.
«كنت... كنت عند الجدول؟»

تظاهر بأنه لا يعرف كي يجعلها تتكلم، كي يخرجها من الوهن الذي هي فيه.
«نعم.»

لم يجد ما يضيفه. سلمها صحنها لكنها لم تقترب من أدوات طعامها.
«ألا تأكلين؟»

«لا أشعر بالجوع.»

بدت مهزوزة، ضائعة. سأل نفسه عن سبب تركها للرجل الذي كلمها في
الهاتف. كنا متفقين... سأعود عندما أكون جاهزة. لا يوحى هذا بقطيعة واضحة.
بل يشبه ابتعادًا مؤقتًا. ما الذي تسعى إليه من خلال الحرب، من خلال الرحيل مع
أول رجل تصادفه، من خلال الابتعاد بأي ثمن عن صديقها؟

هل تريد أن تثبت لنفسها شيئًا ما؟

وماذا عنه هو؟

ما الذي يسعى إليه؟

لا تزال صفحة رسالته هناك، قرب صحنه، بيضاء على حالها بكل إصرار، وهو عاجز عن العثور على شيء يكتبه. عند مغادرته، اعتقد أن لديه تفسيرًا بسيطًا. اليوم يدرك إميل أن الأمر أكثر تعقيدًا. فهناك تلك الأجزاء من الماضي التي تعود إلى الظهور، وتسلط الضوء من جديد على كل شيء. ربما يكون هناك أكثر من سبب واحد واضح لرحيله...

حملت جوانا إلى فمها لقمة طماطم، مجبرة نفسها على الأكل، الأمر الذي بدا له علامة جيدة، قال في سره إنه ربما يستطيع الكلام معها، وأنها قد تستطيع تنويره. فقد رحلت هي أيضًا بعد كل شيء... حك حلقه.

«أحاول كتابة هذه الرسالة منذ أمس...»

خرج صوته مترددًا. رفعت رأسها عن صحنها. أشار لها إلى الورقة البيضاء.

«رسالة، لماذا؟»

لم تسأل: «لمن؟» بل «لماذا؟»

وهي على حق تمامًا. هذه الرسالة غير موجهة إلى أحد بشكل خاص. وليست لأبويه ولا لرينو أو لنفسه. إنها رسالة للإيضاح، أو ربما ببساطة للفهم. ولا شك أن هذا ما يجعله غير قادر على كتابتها.

«رسالة وداع... للقريين مني. كي أعلن عن رحيلي.»

وضعت جوانا شوكتها جانبًا وهزت رأسها في هيئة تنم عن ألم طفيف.

«ألا يعرفون بعد أنك رحلت؟»

«لا. لقد... لقد رحلت هكذا، مثل لص تقريبًا. لا بد أنهم باتوا يشتبهون برحيلي، بعد أن اكتشفوا أن شقتي مغلقة بالمفتاح، وحاولوا الاتصال بي. رينو وحده يعلم... إنه صديقي المفضل... ربما يكون الآن قد أذاع السر... لقد مضت أربعة أيام...»

عادت لتناول لقيحات صغيرة، دون استعجال.

«لماذا لم تقل لهم أنك راحل؟»

«ما كانوا ليتفهموا. الأمر مختلف مع رينو، أما أبواي وأختي، فما كانوا ليتفهموا... كان هناك ذلك الاختبار السريري. وهو بروتوكول لدراسة المرض، وإجراء اختبارات عليه، ومحاولة إبطائه. أرادوا مني الخضوع له.»

انتهت جوانا من ابتلاع لقمتها قبل أن تسأل بنبرتها المهذبة:

«هل كان محكومًا بالفشل؟»

«الاختبار السريري؟»

«نعم.»

«ما كان ليشفيني. ولم يكن ذلك هو الهدف منه.»

كانت جوانا تأخذ وقتها لصياغة أسئلتها، وتختار كل كلمة بعناية:

«هل تخيلوا أنه سيسيفيك؟»

«أعتقد أنهم رتبوا أمورهم لمواجهة الحقيقة.»

خيم صمت آخر. راحت جوانا تُعدّ كلماتها.

«كان باستطاعتك ببساطة أن ترفض تلك التجربة السريرية.»

«ماذا تقصدين؟»

«لم تكن في حاجة إلى الرحيل بعيدًا بهذا الشكل. كان يكفي أن ترفض

الاختبار.»

«أنا... الأمر أكثر تعقيدًا.»

أخذت تنتظر في هدوء. توقفت عن الأكل، وضعت شوكتها جانبًا وراحت تنظر إليه. وللمرة الأولى، راحت تنظر إليه مباشرة. كان شيئًا نادر الحدوث، جعله يجد صعوبة في العثور على كلماته.

«كنت سأصاب بالخرف... أقصد، سوف أصاب بالخرف. وأنا... أنا... لم يكن

لدي أدنى رغبة في أن يروني على تلك الشاكلة. أردت... أردت أن أبقى في ذاكرتهم

كما... كما أنا، أنا الحقيقي... لا كمجوز خرف.»

«هل تعتقد أنهم سيعدونك عجزًا آخرًا؟»

«كان ذلك قد بدأ بالفعل. لقد تغيرت نظرتهم. وسلوكهم أيضًا.»

خفضت جوانا بصرها نحو صحنها، هزت رأسها على نحو غير محسوس.

«فهمتُ إذًا.»

مرت بضغ ثوانٍ. صب إميل لنفسه في النهاية كأس ماء، وعادت جوانا تنقر في بطنه. لم يعد يسمع سوى صوت الجدول في البعيد، وزقزقة العصافير، وجلبة أدوات الطعام.

«لطالما رغبتُ في السفر.» أضاف إميل بفم نصف ممتلئ.
ظهر وجه جوانا من جديد عندما رفعت رأسها عن صحنها.
«حقاً؟»

«نعم. أنا ورينو أردنا الرحيل بعد الكلية. أردنا أن يحمل كلُّ منا حقيبة ظهره،
للذهاب إلى الجبال.»

«ولم تقوموا بذلك؟»

«لا. التقى كلُّ منا صديقه ثم لم نعد نريد المغادرة.»

ارتسم ظل ابتسامة في زاوية فم جوانا. إنها المرة الأولى التي يراها فيها تُظهر ما يشبه التأثر. هل أخرجتها المكالمات التلفونية من عدم اكتراثها؟
«أين هي؟» سألت جوانا.

«من؟»

«صديقتك.»

«آه! لقد غادرت قبل عام. لا بد أنها حالياً صديقة شخصٍ آخر.»
كانت لها إيحاءة بذقنها تشبه موافقة خفية. إنها من أولى المرات التي جرى فيها نقاش حقيقي بينهما، لذلك أراد اغتنام الفرصة كي يضيف على عجل:

«أساساً، إن ما جرى ليلة أمس، كان... كان حماقة... أنا لا أقدم كثيراً على هذا النوع من الأفعال. لم أشأ أن يحدث الأمر على هذا النحو...»

شرعت في حركة يد كأنها تريد أن تقاطعه، أن تمنعه من المتابعة، أو أن تقول له إن هذا ليس له أي أهمية، وأنها لا تريد الكلام عنه.

«إنها تشارك في مسير الـ GR10 مع أصدقائها، ولديها بعض النصائح لتقدمها لنا... بشأن المسار والتجهيزات...»

تابع بسرعة شديدة، كي يتخلص من هذا الموضوع الذي يشعره بالضيق:

«من المفترض أساسًا أن تأتي ثانيةً هذا المساء لمساعدتنا على إعداد رحلتنا.
يفترض أن تأتي إلى عربة التخميم. هل ستكونين هنا؟»
«أظن ذلك.»

«حسنًا.»

لم ير شيئًا آخر يضيفه. الآن وقد مرت المعلومة، شعر أنه أكثر تحفظًا. أمسك بشوكته وبدأ بتناول الطعام بشهية. لم يكن الطعام سيئًا. لقد برد الأرز لكنه يحمل نكهة إكليل جبل طفيفة.

«لم أكن متأكدًا أنك تأكلين البيض... باعتبارك نباتية.» قال بفمٍ ممتلئ، وهو يراها تأكل من العجة.

«أجل. أكل البيض.»

«منذ متى توقفتِ عن تناول اللحوم؟»

«منذ طفولتي.»

«حقًا؟»

أومات برأسها، غرفت من كومة الأرز وتوقفت.

«عثرتَ على نبتة إكليل الجبل؟» سألت.

رفع رأسه نحوها. توقفتِ عن المضغ، وظهرت على وجهها علامات اندهاشٍ طفيف.

«نعم. لقد... لقد وضعت منها في الأرز... هل أعجبك؟»

«نعم.»

لكنها لم تستأنف المضغ. بقيت واجمةً.

«عثرتَ إذًا على نبتة إكليل الجبل؟»

سأل نفسه عما إن كان قد ارتكب خطأ أم لا. لكنه رأى عندئذٍ ابتسامةً فوق وجهها. ابتسامة حقيقية. الأولى خلال أربعة أيام. مثل شعاع شمس. غير متوقعة. ابتسمت بسبب إكليل الجبل... لبث عاجزًا عن الكلام وهو يمسك شوكته بيده. حاول تقييم ما حدث للتو ولم يستطع. اللعنة، إنها تبتسم بسبب إكليل الجبل... وتبدو جميلة جدًا هكذا!

«أحضرتُ عبوة ماءٍ لشخصين.»
«حسنًا.»

أنهيا الوجبة في صمت. لم يتوقف إميل عن اختلاس نظراتٍ إليها كي يباغت بابتسامةٍ أخرى على وجهها، لكنها لم تكررهما. لم يفهم كيف جعلها تبتسم تلك المرة الأولى، لكن ابتسامتها تلك أضاءت يومه، واختفى ألم رأسه. عرض عليها في أثناء قيامها بتنظيف الطاولة:

«هل نقوم بجولةٍ في القرية؟ وبعدها يمكننا الذهاب إلى الشلالات.»
أقرت بوجهها الجامد. كان هو جاهزًا، ارتدى حذاء المسير وحمل حقيبة الظهر. التقط زجاجة ماءٍ وبضع تفاحات في حال شعرا بالجوع. نظر إلى جوانا وهي تربط صندلها المذهب.
«يجب أن نجد لك حذاءً مناسبًا.» أوامات موافقةً. إنها لا تقول (لا) أبدًا.
طواعيتها محيرة.

أخذًا يتجولان في بطءٍ في القرية دون أي استعجال. كان إميل في المقدمة، يشير إلى القمم، ويبحث عن أسماؤها في الدليل، محاولًا تحديد موقعه منها.
«انتظري، هل هذا هو الجنوب؟ يقول الدليل...»

ضيقَ عينيه لفك رموز دليله وتحديد مواقع القمم: قمة سوفغارد، قمة سيسيري، قمة ليزا... أخذ يسميها بصوتٍ مرتفع في أثناء سيره. أما جوانا، فبقيت صامته تستمتع فقط بالمنظر. اجتازا الأزقة، توقفًا أمام كوخٍ حجريٍّ قديم اتخذته قطعة بيتًا لها، وتمددت بكامل طولها فوق مساحة مدخله وهي تتشاءب وتنظر إليهما.

عادا الآن أدراجهما تجاه ساحة عربات التخميم. لقد قاما بجولة كاملة في القرية كونها صغيرة الحجم، ليس فيها تجارة، ويسودها هدوء مطلق.
«شيء جميل، أليس كذلك؟» سأل إميل وهو يحيط المنظر بنظرته.
«شيء خلّاب.»
«أولاً ابتسامة، والآن شيء خلّاب». لديه إحساس بأن جوانا تستيقظ رويدًا رويدًا.

في ساحة التوقف، ذهبا مباشرة إلى الجدول وسلكا درب المسير تجاه الشلالات.
«ما حال قدميك؟»
لم تكن جوانا تستكي، لكنه رأى أن شريط صندلها قد سبّب لها بعض الدمايل.
«لا بأس.»
«إذا كانتا تؤلمانك...»
«لا تؤلمانني.»

كان الدرب ظليلاً وهادئاً تماماً. سارا بمحاذاة الجدول. كانا من وقتٍ لآخر يصادفان بعض المتزهين ويتبادلان معهم التحيات، ثم يعود الصمت. وأحياناً أخرى يتوقفان لتناول مشروبٍ ما أو لترطيب أيديهما بالماء وتبريد مؤخر عنقيهما.
«كيف تبدو سان مالو؟»
توقف في الطريق إلى أن قضت جوانا حاجة مخبئة خلف الشجيرات، ثم عادت نحوه بمشيتها البطيئة.
«أوه إنها...»

عندما أصبحت بمحاذاة، أعادت ارتداء قبعتها.
«إنها ذات جوّ عاصف، وفي الصيف تكتظ بالزوار.»
«هذا كل شيء؟»
«نعم، هذا كل شيء. إنها لا تمتلك سحر الصمت.»
«بسبب اكتظاظها؟»

- «نعم. لقد فقدت جَوْها البدائي.»
- «هل سبق لك أن قررت الرحيل؟»
- «لا. أنا كنت أعيش في بلدة صغيرة تدعى سان سولياك، على بعد كيلومترات معدودة من سان مالو. كانت الحياة جميلة هناك.»
- «كانت أكثر بدائية؟»
- «نعم، كانت هادئة.»
- «عاودا المسير في بطن.»
- «هل عشتِ هناك دائِماً؟»
- «نعم.»
- «وولدتِ هناك أيضًا؟»
- «نعم. ولدتُ في المدرسة.»
- «المدرسة التي عملتِ فيها؟»
- «نعم.»
- «ابتسم إميل مندهشًا.
- «حقاً؟»
- «نعم.»
- «هذا ليس بالأمر الشائع.»
- «أبي كان حارس المدرسة.»
- «غير صحيح!»
- «بلى.»
- لم ترتسم على وجهها ابتسامةُ هذا الصباح، بل بدت جدية. رأى أن من المؤسف ألا تبسم.
- «لقد أخذتِ مكان أهلك بطريقةٍ ما إذًا؟»
- «نعم. عندما أُحيل إلى التقاعد.»
- «كم كان عمرك؟»
- «كنت قد بلغت العشرين لتوي.»

«كنتِ صغيرة! وتلك مسؤولية حقيقية!»

هزت كتفها.

«كنت أحفظ المدرسة عن ظهر قلب. فقد عشتُ فيها دومًا. كانت مثل بيتي.»

«بدا لك الأمر منطقيًا إذا...»

«نعم. هو كذلك.»

ابتسم وفكر في أنه عاش حياةً مختلفة تمامًا عن حياتها. في العشرين من عمره، كان معتوًا يتعاطى المشروبات الكحولية مع أصدقائه الطلاب، في حين أن جوانا، في العمر نفسه، كانت تدير مدرسة.

«وأملك، ما الذي كانت تفعله؟»

راح يرجو ألا يكون قد اقترف خطأ لأنها لم تجب على الفور.

«لم أعرفها.»

عبس وقد تبين له أنه قد اقترف لتوه خطأ. إلا أن جوانا حافظت مع ذلك على هدوئها، ولم تبدُ مرتبكة.

«كان أبي في سنٍّ متقدمة قليلًا عندما أتيتُ إلى الدنيا. كان عمره أربعين عامًا.»

هز رأسه لأنه لم يجد شيئًا للرد.

«كان فتىً عجوزًا. عجوز البلدة إلى حدٍّ ما. أتفهمني؟»

«نعم.»

«هناك شائعات تروي... تروي أشياء كثيرة. قيل إنه ضاجع عاهرة وأنها حملت، وأرادت إسقاط الجنين، لكنه رجاها أن تحتفظ به، ووعداها بالمال، الكثير من المال كي تبقى ويتمكن من تربيته.»

راحت تروي ذلك دون انفعال، بلهجةً هادئةً ولطيفة.

«هل تأكدتِ إذا كان ذلك صحيحًا أم لا؟»

«صحيح على الأرجح.»

هزت كتفها بما يعني أن ذلك لا يعنيا كثيرًا. نظر إليها في تشككٍ مزوج بالإعجاب.

«وهو، بمَ كان يخبرك؟»

«روايته أجهل. كان يقول إنه التقى امرأة في متهى الرقة والجمال وحملت منه، وأنها مع الأسف لم تستطع البقاء، لأن حياتها لا تتوافق مع الحياة الأسرية، وهكذا عهدت بي إليه.»

لم يدر إميل بما يجيب. هزته هذه القصة قليلاً، ولم يعرف إن كان يجدها مخيفة فقط، أم حزينة ولطيفة معاً. في حين أن جوانا لا يبدو أنها تجدها رهيبة.

«لا بد أن هذا... أظن أن المرور بهذه التجربة ليس سهلاً.»

هزت كتفها.

«لا. على العكس.»

قطب حاجبيه غير متأكد أنه فهم حقاً.

«كنت الشيء الذي ظن أنه لن يحصل عليه أبداً. كان سعيداً وممتناً كل يوم من حياته.»

«وأنت، ألم تشعري...»

لم يعرف كيف يصوغ سؤاله.

«ألم تشعري بحاجة إلى ما هو أكثر؟»

«ماذا تعني؟»

«حاجة إلى معرفة المزيد... معرفة من تكون أملك...»

هزت رأسها بنفي حازم.

«لقد أخبرني بكل شيء. كان حنوناً، وكنت أحبه. كنت سعيدة.»

كان وجهها غير مرئي في ظل قبعتها. هل كانت تبسّم كما فعلت هذا الصباح؟

ربما علّمها أبوها كيف تتعرف إلى نبات إكليل الجبل البري.

واصل طريقهما في صمت.

«هل... هل لا يزال على قيد الحياة؟»

لم يستطع منع نفسه من هذا السؤال.

«لا. لقد توفي في أثناء نومه قبل ثلاث سنين.»

رفعت رأسها كي تلتقط شعاع شمس. كان وجهها راضيًا ومطمئنًا، ولم يستطع إميل إبعاد ناظره عنها.
«لقد عاش حياة سعيدة.» أضافت.

عاد غناء الطيور وخرير المياه للء الفضاء من جديد. أغمض إميل عينيه برهة كي يلتقط على نحو أفضل تلك اللحظة المعلقة خارج الزمن. إنها فترة بعد ظهرية لطيفة، وقد أسعده فتح هذا النقاش مع جوانا. أصبح بإمكانه الآن أن يتخيلها أصغر سنًا في باحة المدرسة، ويرسمها أقصر قامَةً ببضعة ستيمرتات، مرتدية بنطال جينز بحمالات، وشعرها معقود في جديلة. بإمكانه أن يتخيلها حيةً وتسير خلف رجل كبير. يراهن أن الرجل الكبير كان يتأمل أحد الحقول، ناظرًا إلى النجوم. وأنه كان يرتدي قبعة... قبعة سوداء واسعة الخواف.

لدى عودتهما من الشلالات، وجدا ملاحظة فوق الطاولة. كان النهار قد أخذ ينحسر. توقفا طويلاً قرب الماء، وجلسا فوق صخرة. شاهدا العائلات تسبح، تناولا التفاحات، وغمرا أقدامهما في الجدول. التقط إميل ضفادع صغيرة كي يتنزع ابتسامة من جوانا، لكنها قالت:

«أوه لا! إنك تخيفها...»

فقام بإطلاق سراحها، وعادا أدراجهما. ساحة الوقوف خالية إلا من عربتهما. لقد تركا الطاولة والكرسيين في الخارج، وفكر إميل بأنه فعلٌ أحمق لأنه كان يمكن أن تُسرق. لكنها في مكانها، وهناك ملاحظة فوق الطاولة.
نحية أيها الكاتب،

لا تلمني على استخدام ورقتك التي لا تزال بيضاء على نحوٍ ميؤوس منه!
جئت أخبرك: سنحبي سهرة في التزل هذه الليلة بمناسبة مغادرتنا. منعشتي صديقتي من تفويتها. هل تنضم إليّ هناك؟
سنتكلم بشأن رحلتك الاستكشافية.

إلى هذا المساء!

كلويه

التقط الورقة قبل أن تقرأها جوانا.

«نحن مدعوان إلى سهرة... من قبل كلويه... فتاة ليلة أمس... تقام السهرة في
النزل الذي مررنا أمامه في أثناء جولتنا في البلدة.»

لم تكن تلك هي الحقيقة، ولم تتم دعوة جوانا، لكن يفترض أنها لا تعلم ذلك.
«آه...»

لم تبدُ سعيدة.

«هل ستأتين معي؟»

«لا أعرف...»

«ستزودنا بنصائح من أجل رحلتنا... ألا تذكرين؟»

«أظن أنني أصبت بضربة شمس.»

تشير إلى صدغيها.

«هناك طرق. سأستلقي قليلاً.»

فهم أنها لا تريد الحضور برفقته مع كلويه، ولم يشأ أن يرغمها.

«حسنًا. ارتاحي إذا. وسأخذ المعلومات بدلاً منك.»

«اتفقنا.»

«هل تريدین بعض الشاي؟ هل تريدین أن نأكل شيئًا قبل ذهابي؟»

هزت رأسها بالنفي.

«لا. سأستلقي فقط.»

تسلقت سلم الحبال. تنقل إميل بضع ثوانٍ في العربة. أخرج زجاجة ماءٍ من

الثلاجة، صب لنفسه كأسًا، وتناول بعض رقائق البطاطا من كيس شيبسي مفتوح.

كان عليه أن ينطلق، فلا بد أن السهرة قد بدأت. المسألة هي أنه خائف من ترك

جوانا بمفردها.

«هل أترك الباب مفتوحًا أم أغلق عليك؟»

«يمكنك أن تغلق.»

«هل أنت متأكدة أنك ستكونين بخير؟»

«متأكدة.»

«حسنًا...»

دار بضع ثوانٍ أخرى، وضع الزجاجاة في الشلاجة.

«أراك لاحقًا إذا.»

«أراك لاحقًا.»

النزل كوخ حجري مع سطح خشبي متقدم ومائل، وأمامه فسحة عشبية وطاولة للمتترهين في الهواء الطلق. في الداخل، يوجد قاعة مشتركة مع طاولة طويلة من خشب البلوط. كانت القاعة ممتلئة، تضم حتمًا حوالي عشرة أشخاص، معظمهم ثنائيات. بعضهم يبلغ الخمسين وبعضهم الآخر بالكاد يتجاوز الثلاثين. مَيَز إميل الثنائي الذي كان ينتظر كلويه خلف الأشجار، عندما جاءت لتتكلم معه أمس. فجأةً اقتحمت كلويه المكان، بينما كان يقف خجلًا عند المدخل وييده زجاجة نبيذ أبيض.

«مرحبًا إميل!»

وصلت مثل إعصار، وضعت يداً فوق كتفه، وقبلته قبله ابتهاج.

«من الرائع أن أراك من جديد!»

أخذت زجاجة النبيذ منه، أمسكت معصم يده.

«تعال، سأقدمك للآخرين.»

نظر إلى ساقها الطويلتين تندفعان إلى وسط القاعة. كانت ترتدي بنطالاً قصيرًا باللون الأخضر الكاكي وبلوزة سوداء بلا كمين، وقد عُصص شعرها في أعلى رأسها، وتورّد خذاها والتمعت عيناها.

«تحية للجميع! أقدم لكم إميل!»

استدارت العيون نحوه، مع تحياتٍ وابتسامات، امتدت إليه أيادٍ لتصافحه، واقترب منه البعض ليقبله. تعاقبت الأسماء. مارتا... كيفين... روماريك... هيرفيه وروزالين... كانت كلويه لا تزال ممسكة بيده، تأخذه من شخصٍ إلى آخر.

«سيمضي السهرة معنا. تعال يا إميل، سأسكب لك كأسًا.»

لحق بها بعيدًا عن المجموعة، تجاه حجرة يفترض أنها مطبخ التزل. هناك إلى اليسار باب نصف مفتوح يكشف له مكانًا للنوم بخمسة أسرة مزدوجة. حقائب ظهر منتشرة على الأرض. دخلًا إلى الحجرة الخلفية وتبين أنها المطبخ بالفعل. رفعت كلويه نفسها على رؤوس أصابع قدميها لتُخرج من خزانة الحائط كأسًا يصلح للنييذ. جاهدت مع مفتاح القناني لفتح الزجاجاة التي أحضرها. رسمت على وجهها تعبيرات مسلية ولم يسارع إميل لمساعدتها.

«ذهبنا اليوم إلى جبل أوسويه.» قالت عندما تمكنت أخيرًا من فتح الزجاجاة.

«هل كان الطريق طويلًا؟»

«حوالي خمسة عشر كيلو مترًا.»

ملأت كأسيهما، استندت إلى منضدة العمل.

«وأنت؟ كيف كان نهارك؟»

تناول إميل الكأس الذي مدته إليه وشرب جرعة.

«قمنا بجولة في البلدة وذهبنا إلى الشلالات.»

وجهت إليه كلويه ابتسامة ساخرة.

«برفقة المجنونة؟»

«برفقة جوانا، نعم.»

بللت شفثيها في كأسها، وبقيت ترمقه بتلك النظرة الساخرة نفسها.

«أنت تعرف أنك تستطيع تغيير خططك، أليس كذلك؟!»

قطب إميل حاجبيه دون أن يفهم. إنه لا يعرف حقًا عن أي شيء تتكلم.

قاطعها صوت ينادي كلويه من القاعة المشتركة. نفخت وأجابت صارخة:

«نحن قادمان! ابدأوا بإشعال النار!»

التفتت إليه من جديد.

«ستكلم بعد قليل.»

«عم؟»

لبث حائرًا، وكأسه في يده.

«عن خططك، وخططي.»

«من أجل ماذا؟»

عرف أنه يبدو مغفلًا، لكنه أراد أن يعرف ما يدور في رأسها.

«لا شيء. لكنك تستطيع أن تذهب معنا وتنسى أمر المجنونة.»

في تلك اللحظة، أدارت له ظهرها لتعود إلى القاعة المشتركة، وكان سعيدًا أنها لم تَر هيئته المذهولة.

«أأنت قادم؟»

ترك كلويه تقوده. جلس الجميع في الخارج حول الطاولة الخشبية. تكفل أحد الرجال بإشعال النار وراح ينفخ في الجمر. قامت إحدى النساء بوضع أطباق سلطة مختلطة على الطاولة، ما دفع كلويه للصراخ:

«كفي يا سيليا عن التصرف كخادمة، واطلبي من فرانك أن يساعدك قليلًا!»
رفعت المدعوة سيليا عينيها نحو السماء.

«ولماذا لا تساعديني أنت؟!»

كان الجو ودودًا، والنار تفرقع، والناس يسألون إميل، يريدون جميعًا تقديم نصائحهم من أجل رحلته، وآرائهم حول هذا المسار أو ذاك. قاموا بملء أطباق الكرتون بالسلطات، وتم تمرير رغيف خبز وقالب من جبن الكامبير حول الطاولة. توالى زجاجات النبيذ. أخرجت كلويه دفترًا صغيرًا، حاولت فيه وضع لائحة بالمواد الضرورية التي على إميل أن يحضرها في المسير. قسمت الورقة إلى أعمدة: عمود للثياب، وعمود لأدوات النظافة والصحة، وعمود للوازم الجلوس والنوم، وعمود لأدوات المطبخ (سخان، قدر، أدوات طعام...). كانت من وقتٍ لآخر تقرأ ما سجلته، ويكملة الأشخاص الموجودون حول الطاولة. كان هذا يثير الجدل أحيانًا.

«يكفي طقمان من الثياب! تغسل ملابس اليوم عند المساء، وتترك طوال اليوم

التالي لتجف.»

«ثلاثة أطقم في الأقل!»

«يجب تخفيف الأحمال! طقم واحد يكفي!»

«لا تبالغ يا فرانك، ليس هذا ما يشكل الثقل الأكبر...»

كان الجميع حول الطاولة، في استراحة على مسار الـ GR10، مشائين متمرسين، يقارنون قيم السرعات الحرارية لألواح الحبوب المجففة التي يحملونها معهم، يتحققون من تركيب أكياس النوم، ويجادلون في أصغر المسائل. تساءل إميل عما إن كان قد فُكّر جيدًا قبل أن يعرض رحلة استكشافٍ مماثلة على جوانا أم لا... إنها حتى لا تملك حذاءً للمسير...

«بخصوص مستلزمات النظافة، أنصحك بالصابون الحليبي الذي ستغتسل به وتغسل شعرك وأسنانك وملابسك، وتطهر به الجروح.»

جاءت النصيحة من المرأة الخمسينية، ذات الذراعين القويتين والملامح البارزة. «منشفة اليدين يجب قطعًا أن تكون من الألياف الدقيقة! من أجل توفير مساحة! الطعام... بسيط ومنطقي. وفي الحد الأدنى. خبز، أرز، معكرونة، ألواح حبوب، أجبان ونقانق من أجل البروتينات.»

بعد لائحة مستلزمات المسير الطويل، توجه النقاش في هدوءٍ نحو مهنة كل شخص، وسياق رحلته. أسقطت كلويه دفترها. أفرغت للتو زجاجة النيذ السادسة. وضعت يداً فوق فخذ إميل وراحت تهمس في أذنه من وقتٍ لآخر. «شيء لطيف، أليس كذلك؟! أعتقد أن هذا ما أفضله. اللقاءات، والسهرات...»

وافقها إميل. تشوش ذهنه قليلاً بسبب النيذ لكن شعر أنه مسترخٍ إلى أقصى حد. كانت كلويه على حق، فالسهرة لطيفة وودية. تمنى أن تكون مغامرته هكذا كل يوم، لكنه شك بأن الأمر سيكون كذلك. «هل ستغادرون باكراً صباح الغد؟» سأل وهو ينحني تجاهها.

«في الخامسة.»

«في الخامسة؟ لماذا باكراً إلى هذا الحد؟»

ارتسمت على وجهها ابتسامة استغراب.

«أغلب المسير يتم في الصباح... قبل أن يصبح الجو حارًا جدًا.»
قرصت أنفه بحركة تحبب.

«أنت مستجد حقيقي، أليس كذلك؟»

أمسك يدها لمنعها من العبث بأنفه.

«قليلاً، نعم...»

اتسعت ابتسامتها أكثر.

«لا تخف. المعلومات التي زودناك بها للتو، هي كل ما يلزمك!»

اقتربت من وجهه ووضعت شفيتها قرب أذنه.

«إلا إذا قررت أن تأتي معنا.»

ابتسمت بمكر منتظرة رد فعله. تظاهرَ بالبلاهة من جديد.

«وكيف ذلك؟»

«حسنًا، تريد اكتشاف البيريني، يمكنك الانضمام إلينا. لدينا خط سير،

ومعدات... وأنا لذي خيمة أرغب في تقاسمها...»

شعر بيدها تصبح ثقيلة فوق فخذه، كأنها تسعى للضغط عليه. راحت تراقبه

والابتسامة تملأ وجهها.

«ستترك عربتك هنا تحت الحراسة.»

«لست... لست متأكدًا تمامًا.»

«عندما تكتفي من المناظر التي سترها، يمكنك ببساطة أن تدبر ظهرك عائداً،

ملوحًا لنا بالوداع!»

حاول أن يرد لها ابتسامتها. كان يفكر في جوانا التي تنتظره في عربة التخيم.

«لا أستطيع. هناك جوانا.»

لم تستطع كلويه أن تخفي خيبتها.

«لن يعينها الأمر، أليس كذلك؟ كل ما سيكون أمامها هو العثور على مركبة

أخرى لتقفز فيها. معك أنت أو مع غيرك، هذا لن يغير حياتها!»

وبحركة من يدها أهملت المسألة كما لو أن حالة جوانا لا تستحق التوقف

عندها أكثر.

«كفى... لن أتركها...»

أبعدت كلويه يدها عن فخذه. أصبح إخفاء غيظها أكثر صعوبة.

«أنت لست زوجها، أليس كذلك؟!»

«لا...»

«إذًا...»

«هذا ليس سببًا.»

بدت على وجهها ارتكاسةً تشنجية من الانزعاج، وصبت لنفسها كأسًا أخرى من النبيذ.

«كما تشاء، لكن انظر...»

أشارت إلى المائدة، والنقاش، والضحكات، وزجاجات الشراب التي تدور.

«هكذا يكون الاستكشاف معنا. هذه هي طريقتنا في السفر.»

هز كتفيه. لا شك أن هذا يثير شهيته، ولا شك أنه يتمنى أن يشارك في وجبات مشابهة كل مساء، ويلتقي مع أشخاص جدد، ويتمكن من احتضان كلويه من وقتٍ إلى آخر. لكن هناك جوانا. لقد تمكن من جعلها تبسم اليوم... هي ليست فتاة تائهة صعدت إلى مركبته، وحسب. هي الشخص الوحيد الذي استجاب لإعلانه، وعرض نفسه لمرافقته في هذه الرحلة الأخيرة إلى الموت. إنها مرتبطان بطريقة ما.

«ما قولك؟»

«أود... حقًا... ولكن...»

لم تدعه يكمل.

«حسنًا، حسنًا، لقد فهمت.»

وجهت له ابتسامة قسرية.

«ولكن لا تعتمد عليّ هذه الليلة كي أهبك!»

عجز عن أي رد، عجز حتى عن قول لم يكن في نيته ذلك. نظر إليها وهي تنهض متجهة إلى المطبخ. هذه الفتاة متصلبة وعنيدة، لا تحتل أن يعارضها أحد. ما كان ليسافر معها أبدًا، والآن تبين له ذلك. نظر إلى الساعة. إنها منتصف الليل. سوف ينهي كأسه ويعود إلى عربته بأسرع ما يمكن. سيستظر فقط عودتها من المطبخ كي يعلن لها أنه سينصرف، ثم يغادر.

انزلق في صميت داخل عربة التخميم. لم تعلق كلويه بشيء حين قال إنه ذاهب كي ينام. سلّمت الورقة الصغيرة المنتزعة من دفترها، والتي سجلت فيها تفاصيل مسارات عبور البيرينيه ومستلزمات المسير، ثم طبعت فوق خده قبلة سريعة.

«حظاً سعيداً لبقية الرحلة.»

«لك أنت أيضًا.»

شعر بالارتياح لابتعاده. بدت خائبة وحزينة، لكنه لم يهتم.

يبدو أن جوانا كانت تنام نومًا مضطربًا، لأنه سمعها تتقلب فوق الفراش في الأعلى، في أثناء تنظيف أسنانه. هل هي مصابة فعلاً بضربة شمس؟ لقد اتخذ من ذلك ذريعة مختلفة كي يتجنب السهرة، لكن ربما لا يكون ذلك هو الحال. ربما يكون لديها حمى؟

بعد دقائق، صعد إلى حجرة النوم. رغم العتمة ميز وجهها الذي يلمع. لقد تأكد له الآن أنها محمومة. كانت تتقلب على الفراش وتطلق تنهيدات قصيرة متقطعة.

«جوانا؟»

راح يهمس كيلا يوقظها بطريقة فظة. لا يبدو أنها سمعته. انحنى فوق وجهها وكرر:

«جوانا؟»

توقفت عن الحركة ولكنها لم تستيقظ. رأى عينيها تتحركان بسرعة تحت جفنيها المغلقين.

«جوانا، هل أنت بخير؟»

تنهدت، ثم استدارت في بطء نحوه كي تواجهه وهي لا تزال نائمة، عيناها مغمضتان وتنفسها متقطع. مدت ذراعها وأحاطت بها عنقه. اقتربت والتصقت به كي تحتضنه. لم يعد إميل يجرؤ على الحركة. إنها هنا، مشتعلة من الحمى، تلتصق به وتدفن رأسها في عنقه. حاول إيقاظها وإبعادها في لطف، مكرراً: «جوانا!»

لكنها تبدأ بالغمغمة في نومها بصوت واهن.

«ليون، قلت إنك ستوقف عن الاتصال.»

أطلقت تنهيدة تَراخ، وبحركة حانية مررت يدها في شعره، همست متنهدة:
«لماذا تركته يذهب؟... كنتَ تعرف كيف كان... توقف عن البكاء، أرجوك...»
جعلتها الحمى تهلوس، وتعامل معه بوصفه الرجل الذي يتصل بها هاتفياً،
والذي تقول له مراراً وبلا كلل: «لا. توقف. توقف عن البكاء.»
كان يدعى ليون كما هو واضح. أبعد إميل بضع شعيرات التصقت بجبينها
المبلل من الحرارة، وهمس:
«جوانا؟»

توقفت عن التملل وأطلقت دمدمة.
«جوانا!»

عندما رفع صوته هذه المرة، فتحت عينيها. استغرقت برهة لفهم ما يجري.
رأت إميل متيبساً على الفراش، لا يجرؤ على الحركة، ورأت ذراعيها وقد طوقناه،
ورأسها الذي دفتته فوق رقبته. ارتسم على وجهها الجزع. حاول أن يقول شيئاً كي
يجعل الموقف أقل حرجاً. مكتبة سُر من قرأ
«لديكِ حمى...»

لكن هذا لم يهدئها. أطبقت يدها فوق فمها.
«أوه! أنا... أنا آسفة!»
«لا بأس. حرارتك مرتفعة... كان يجب... كان عليّ أن أعطيك دواءً.»
هزت رأسها، واتخذت وضعية الجلوس. لا يبدو أنها هنا تماماً، بل لا تزال
تقريباً بين ذراعي ليون في سان مالو.

«ماذا تفعلين؟» همس إميل.
نظر إليها وهي تجمع وسادتها وكيس نومها.
«سأنزل للنوم في الأسفل.»
«لا!»

حاول إيقافها ممسكاً بذراعها.
«لا بأس يا جوانا. هذا يحدث...»
تخلصت من قبضته، وتكلمت بسرعة دون أن تنظر في عينيه.

«سأنام في الأسفل الآن.»

كرر دون أن يفهم:

«الآن؟»

«اعتبارًا من الآن.»

«طوال الوقت؟»

«نعم، طوال الوقت.»

«جوانا، هذا شيءٌ سخيف!»

لكنها كانت تنزل على سلم الجبال، حاملةً وسادتها وكيس نومها تحت إبطها. تبدو في عجلةٍ من أمرها. أجابت في همسٍ سريع:

«لا يزعجني الأمر. المقعد في الأسفل واسع بما يكفي. هكذا يكون لكلُّ منا حجرة نومه.»

«ابقي في الأعلى إذا. سأخذ المقعد.»

سمعها تحيب من الأسفل:

«لا تقلق. أنا على ما يرام هنا. الجو أقل حرارة.»

«هل أنت متأكدة؟»

«نعم.»

«خذني دواءً. تجدينه بين أغراضي... تحت المقعد.»

«لأجل ماذا؟»

«لوقف الحمى.»

«إنها عملية طبيعية، ومن الغباء أن نرغب في منعها.»

لم يستطع منع نفسه من الابتسام. جوانا وأجوبتها...

«ماذا ستفعلين إذا؟ هل ستنتظرين أن تزول الحمى؟»

«نعم. إلا إذا كان لديك بابونج.»

العناق والهلوسة أولاً، ثم الاستيقاظ الفجائي والانتقال الليلي، والآن هذا النقاش الخارج عن المنطق.

«لا. ولماذا يكون لدي بابونج؟»

«كي تحصل على شراب نقيع البابونج.»

«هل هذا يخفّض الحرارة؟»

«نعم.»

«ليس لدي منه. آسف.»

عاد الصمت ليخيم في عربة التخيم. سمع جوانا تنشط في الأسفل. لا بد أنها تهيج المقعد للنوم.

«جوانا، عودي إلى هنا... ما تفعلينه غباء...»

لكن الصوت الضعيف أجاب بشكلٍ قطعي:

«أنا هنا مرتاحة أكثر. تصبح بخير.»

ابتسم مرة أخرى حين أجاب:

«حسنًا... تصبحين بخير إذا.»

لم يستيقظ تمامًا، لكنه ليس نائمًا أيضًا. كان يسمع ضجيج الخارج: زقزقة العصافير، وخطى المتزهين فوق حصي ساحة التوقف، وبقبة الماء في الغلاية. لا بد أن جوانا قد نهضت، وهو لا يزال نصف نائم. استغرقت هذا الصباح ذكرى تتعلق بلورا، وراح يسبح فيها. ذكرى تعود للعام الثاني من حياتها المشتركة، حول المرة الأولى التي عبّرت فيها عن رغبتها في إنجاب طفلٍ منه، وظن الأمر دعابة فقط.

ذهب لتناول كأس بيرة بصحبة رينو. لم يكن هو وليتيسيا قد فكرا بعد في موضوع الطفل. تشاركاً بضع كؤوس من البيرة في حانة أيرلندية باعتبار أن ليتيسيا ذهبت لزيارة والدتها لبضعة أيام، وكان رينو دومًا يغتنم فرصة ذهابها للخروج. كان إميل قد عرض على لورا الانضمام إليهما، لكنها هي أيضًا كانت متفقة مع صديقاتها. كان لديهن موعد أسبوعي، مساء كل يوم جمعة، يشربن فيه النبيذ الأحمر مع المقبلات في مقهى لوكا تشيكا. في البداية، لم تكن لورا تفوّت الموعد قط. وعندما عاشا معًا، بدأ إميلها لهذه اللقاءات مع الصديقات، يتزايد، وأصبحت تقول إنها تُفضل البقاء معه ولو لم يفعل شيئًا، ولو ناما فقط على الأريكة. إلا أنها كانت تعود إليها من وقتٍ لآخر كي تبقى مواكبة لآخر المستجدات. مساء تلك الجمعة، كانت قد قررت الذهاب إلى الموعد. وحين عاد من سهرته مع رينو، كان يعاني من بعض الدوار بسبب إكثاره من البيرة. وجدها على الأريكة ببيجامتها البيضاء الصغيرة: شورت قصير وقميص من الدانتيل بلاكمين، شديد الإثارة. رغب بشدة أن يقلبها على الأريكة، لكنها أظهرت وجهًا عابسًا. لذلك سألها ببساطة:

«هل عدتِ باكراً؟»

زادت عبوسًا.

«نعم.»

«أكان اللقاء شيئًا؟»

«نعم. سيء جدًا.»

جلس بجانبها على الأريكة وأمسك خصرها.

«ما الذي كان سيئًا؟ احكي لي.»

استرخت في حضنه.

«كل شيء. لم يأت أحد. كنا اثنتين فقط.»

«اثنتان فقط؟»

«نعم، إيناس وأنا.»

«وكيف ذلك؟»

أطلقت تنهيدة عميقة.

«أشياء كثيرة فاتتني! لم أكن أعلم أن ليزا تنتظر مولودًا!»

«ليزا الشقراء التي كانت معك في الكلية؟»

«نعم. إنها حامل في شهرها الرابع. لم أكن أعلم! كانت تتكلم في الأمر لكنني لم

أعتقد أن الموضوع جدي. والآن ناديا أيضًا!»

«ناديا...»

«تلك التي لديها صالون تصفيف شعر.»

«آه.»

«إنها ضربة قاصمة!»

«ولهذا السبب تغيبنا؟»

«نعم، لهذا السبب.»

قطب حاجبيه دون أن يفهم سبب حزنها.

«لا عليك يا لورا. ستحضران في المرة القادمة.»

نظرت إليه لورا دون أن تفهم.

«ماذا؟»

«ألا تستطيعان تناول المقبلات؟ الحمل لا يمنع ذلك.»

«لا.»

«سترينهما إذاً يوم الجمعة القادمة... لن تبقيا حبيستين طوال فترة الحمل.»

«لا بالطبع.»

رفع لها ذقنها كي يقبلها لكنها بقيت عابسة وحزينة.

«ماذا هناك يا لور⁽¹⁾؟»

«لا شيء. قد يحدث ذلك فوضى عارمة.»

«بسبب الطفلين اللذين سيولدان؟»

«طبعًا... لن يعود الحال على ما هو عليه الآن.»

هز كتفيه غير مكترث بالثقل الذي تشعر به. قال لنفسه إنها تبالغ قليلًا.

«ربما لن ترافقانكما في كل مرة، لا أكثر.»

«أنت تمزح! ستصبح حياتنا متعارضة مع حياتها!»

«إلى هذا الحد؟»

«إنها تدخلان في بُعد آخر!»

سخر في لطف.

«فقط؟»

«أنت تسخر، ولكن هذا صحيح! لن يعود هناك ما تقولانه لنا! ونحن كذلك

بالمقابل!»

هز كتفيه مجددًا، وضحك من هيئتها الممتلئة بخيبة الأمل، وهو لا يزال مشوش

الذهن بسبب البيرة.

«إذًا بقيت لك إيناس. هل تنتظر مولودًا هي الأخرى؟»

أرغمها على الابتسام.

«إنها بعيدة عن ذلك...»

«هل لا تزال تضاجع شخصًا جديدًا كل أسبوع؟»

لم تجب لورا عن سؤاله. ثنت ركبتيها إلى صدرها، في هيئة متفكرة. شد ذراعه

حول خصرها.

«ها يا لورا، صديقتاك غيبتان. لا أعرف بأي شيء كانتا تفكران. ألا تريدين

الذهاب معي إلى غرفة النوم؟ سأخفف عنك كما ينبغي.»

(1) اختصار لاسم لورا

ردّته في خمول. كانت تبدو في مكانٍ آخر.

«سأعيرك أصدقائي إذا شئت. هؤلاء لن يجبلوا. سأخذ منهم وعدًا بذلك!»
شرعت في نصف ابتسامة.

«سنذهب معك لتناول النيذ الأحمر والمقبلات. ولن نتخلى عنك مثلما فعلت
صديقتك الحمقاوان!»

«هل تعتقد أن البطن سيلاثمني؟ بطن صغير، صغير جدًا؟»
ظهرت في المرأة ابتسامة باهتة على وجهها. هبّ واقفًا، يريد الهرب بأي ثمن
من هذا الحديث الذي يصيبه بالذعر.
«إلى أين؟» سألته وهي تراه يغادر السرير.
«إلى الحمام.»

بدت عليها الخيبة، لكنها أصرت، قبل اجتيازه باب الغرفة:
«ما رأيك إذا؟ هل سيناسبني؟»
وصدرت عنه حركة تشي بعدم مبالاة تامة، لإخفاء الذعر الذي انتابه.
«نعم، بالتأكيد.»
«فهمت...» قالت في برود.
«ماذا فهمت؟»

ثارت أعصابه من إصرارها على الخوض في هذا الحديث بأي ثمن، وعدم تركه
يذهب إلى الحمام بسلام.
«يبدو أن الفكرة تسعدك.»

تكلم بقسوة كي ينهي الموضوع بأسرع ما يمكن:
«صديقتك قد حملت، لذلك تريدتنا أن نصنع طفلًا الآن وفي الحال؟»
لقد شعر أنه وضع وكريه حين رآها تحمر خجلًا وتلعثم.
«ولكن لا... أنت تعرف ذلك جيدًا وتتفوه بالثرهات!»
قال متبرمًا:
«حسنًا إذا.»

عادت إلى الموضوع، في محاولة بائسة:

«لم أقل الآن... من السخف قول ذلك... بل في يوم ما...»

طبع قبلةً على خدها، الأمر الذي أسكتها.

«في يوم ما، ولكننا لم نصل إليه، لذلك دعيني الآن أذهب إلى الحمام!»

لم تستطع الإجابة بشيء. توارى في ارتياح. ظن أنه تصرف بذكاء وتخلص من المسألة. شعر تقريبًا بالفخر وهو يغلق باب الحمام خلفه.

لقد تصرف مثل أكبر الحمقى لكنه لم يفهم ذلك إلا متأخرًا. متأخرًا جدًا. كانت قد تكلمت في الموضوع مرات أكثر، وبجدية متزايدة. وعندما وضعت ليزا طفلها، تفاقم الوضع.

«عندما أراها تحمل طفلها بين ذراعيها، أنت تعرف... شيءٌ سخيف...»

ستسخر مني...

«هيا قولي..»

«حسنًا... لا أدري، ولكنني... أقول لنفسي إنني أيضًا أرغب في إنجاب

طفل... أظن أن... أظن أنني جاهزة لهذا الأمر.»

في كل مرة، كان يتهرب من الموضوع بدعابات أكثر تفاهة من سابقتها، لكن أكثرها مدعاةً للراء كانت بلا شك دعابة متعلقة بصدرها الذي سيتضاعف حجمه، والتي انتهت بأكثر صمتٍ متوتر سمعه على الإطلاق.

بعد بضعة أشهر، عادت للخروج إلى لوكا تشيكا، في أيام الجمعة فقط أول الأمر، ثم أصبحت تخرج بشكلٍ متزايد. مع ذلك، فإن العكس هو الذي حدث عندما انتقلا للعيش معًا. انقطعت لورا عن العالم إلى حدٍّ ما. أنت تكفيني تمامًا.

بأقبي العالم يزعجني، أعلنت بهيئتها الوقحة. كان فخورًا بذلك. كان يحبها ويعتقد أن علاقتهما على أحسن ما يرام، وأنه لا يمكن لشيء أن يفرق بينهما. هكذا لم يأخذ تلك النزوات المتعلقة بإنجاب طفل، على محمل الجد. لكن لورا عادت تخرج من جديد، عدة مرات في الأسبوع. فما إن تعود من عملها حتى تعاود الخروج.

«مع من تخرجين؟ ظننتُ أن صديقتيك لم تعودا تخرجان بعد أن أنجبنا

طفليهما...»

«مع إيناس.»

«فقط؟»

«لا، مع آخرين أيضًا.»

كانت تبقي الغموض يلف كلامها. كانت تتزين، تشتري ثيابًا جديدة، وتكثر من التعطر.

«وهل تتجملين لرؤية إيناس مع آخرين...»

أحيانًا كانت تعود بأنفاسٍ مشبعة بالكحول.

«مع من كنتِ؟»

بدأ يصبح توجيهيًا أكثر فأكثر.

«لقد أخبرتك.»

«لا.»

«مع إيناس... وأصدقاء لها.»

«شبان؟»

«شبان، فتيات... ما الأمر؟ هل تغار؟»

لم يكن في حياته غيورًا، بل أصبح كذلك. كان يرصد وقت مغادرتها، ويسرق النظر إلى هاتفها حين تتلقى رسالة.

«لم نعد نبقي معًا في الشقة.» كان يشتكي بصوتٍ ضعيف حين يرى أنها تستعد للخروج.

«لا.»

«لا، هي كل ما لديك لتقوله؟»

«لا. نحن في مستقبل العمر، وليس علينا الجلوس على الأريكة والقيام بدور والد ووالدة، أليس كذلك؟ أنت أيضًا يجدر بك أن تخرج.»

بدأ يصاب بالجنون. عندما يبقى مستيقظًا في انتظارها حتى الثانية صباحًا، كان يستشيط غضبًا.

«كنت تشربين! لماذا ترغمين نفسك على السكر هكذا؟»

كانت تفقد صبرها وتكلمه بشيءٍ من الاشمئزاز:

«ماذا دهالك؟ لم أعد أعرفك.»

كان يضيف:

«أنا الذي لم أعد أعرفك!»

«حقاً؟ ألم أكن هكذا عندما التقينا؟!»

«ماذا تقصدين؟»

«كنتُ أخرج. كان لدي حياة اجتماعية. وأنت كذلك! يجدر بك أن تستعيدها!

إنه أمر ممتع، سترى!»

عندما يصبح سلوكه ارتيابياً، تشعر نحوه بالازدراء.

بدأ يشعر أنه يفقدها، ويتخيل أن هناك شخصاً آخر. في إحدى المرات انتظرها

حتى الثالثة صباحاً. ألقت بحذائها ذي الكعب العالي في المدخل. بالكاد نظرت

إليه وهي تعبر غرفة المعيشة نحو غرفة النوم. أوقفها صارخاً:

«لورا!»

أمسك بقبضتها. ظهر في عينيها شعاع خوف، كما لو أنها خشيت أن يعتدي

عليها جسدياً. أراد أن يحضنها، فدفعته بعيداً عنها.

«ماذا تفعل؟ ألا يفترض أنك نائم؟!»

«لورا، أريد أن نصنع طفلاً. أريد أن يكون لي طفل منك.»

فغرت فمها مذهولة دون استجابة. ثم أخذت تبكي وذهبت لتغلق على نفسها

في الحمام.

«ماذا هناك يا لورا؟»

بقي خلف الباب يقتله القلق، وهو يسمعها تبكي وتنشج.

«لماذا تبكين؟»

فتحت الباب، محمرة العينين. كانت قد ارتدت بيجامة، وأزالت المكياج عن

وجهها.

«لا شيء. إنه التأثير.»

قادها إلى غرفة النوم في هدوء، وهو يمسك يدها.

«أنت بخير؟ هل أنت متأكدة أنه التأثير؟»

«نعم... لم أكن أتوقع ذلك.»

جعلها تستلقي في السرير واستلقي بجانبها ووضع يده فوق بطنها.

«أنا واثق أنك ستكونين جميلة ببطني متفخ.»

ارتسمت على وجهها ابتسامة ضعيفة.

«لقد قلت أشياء حمقاء عن هذا الموضوع...»

«نعم.»

«المسألة فقط هي أنني خفتُ. لم أكن أشعر أنني مستعد لذلك...»

«والآن تشعر بذلك؟»

نظرت إليه في تمنعٍ متشكك، كأنها لا تصدقه.

«نعم. طبعًا.»

بقيا دقائق طويلة لم يقولا فيها أي كلمةٍ أخرى. طلبت منه أن يطفىء الضوء،

ففعل. انتظر في صمتٍ ولم تقل شيئًا. همس:

«هل ستوقفين حبوب منع الحمل إذا؟»

سمعها تبتلع لعابها وتومئ برأسها.

«نعم.»

«متى؟»

أخذ ينتظر وعيناه معلقتان على شفيتها في انتظار ردّها. لم يكن يريد أن يفقدها.

كان من شأنه أن يفعل أي شيء كيلا يفقدها.

«غدا...»

أضافت بصوتٍ خافت قليل الثقة:

«إذا... إذا كنت موافقًا؟»

قال: «نعم.» بصوتٍ أجش.

لم ينطقا بعدها بكلمة، بسبب وطأة التأثير حتمًا. ترك يده فوق بطنها طوال

الليل. لم ينم وهو يتخيلها في فستانٍ قصير وبطنها ممتد أمامها، وخداها متوردان.

وتخيل نفسه يسهر عليها وعلى الطفل. لم يعد خائفًا إطلاقًا.

«هل ستخرجين أيضًا؟»

استمرت لورا في الخروج.

«نعم. لن أتأخر.»

لم يجرؤ أن يقول شيئًا لأنها قللت من خروجها، وباتت تُكثِّر البقاء في البيت، فيارسان الحب كل يوم تقريبًا من أجل الطفل. إلا أنها كانت تخرج في نهايات الأسبوع دونه، ودائمًا برفقة إيناس وأصدقائها، وتعود متأخرة، ويتظاهر بعدم الاكتراث لعلمه بأنها حين تعود، سيارسان الحب من أجل الطفل. كان ذلك هو الحل الوسط الصحيح الذي يجعله أكثر هدوءًا.

استمر الأمر على ذلك النحو ثلاثة أشهر كاملة. كان يهتم بها، يعد لها وجباتها، يملأ لها الحوض لتستحم، ويتنظر انتهاءها في صبر، ويسألها دومًا، وفي قلق:

«هل أتت الدورة؟»

وتتجههم، ما يعني أن نعم، وأن الطفل ليس قادمًا بعد. لكن كان لديها وقت. وفي مساء أحد الأيام، عادت ثملة تفوح رائحة الكحول من أنفاسها، ولم يستطع السيطرة على نفسه، فصرخ تقريبًا:

«هل تسخرين مني؟»

بدا عليها الخوف أول الأمر.

«تشرين حتى السكر؟ كيف تجرئين على ذلك؟»

تراجعت نحو الحائط. كان في حالة من فقدان السيطرة على النفس.

«ما الذي يدور ببالك؟ من الحمقاء التي تفعل ذلك؟»

كان الخوف قد زال عن وجه لورا. استقامت كتفها، وملأ الازدراء وجهها.

«اذهب إلى الجحيم يا إميل! أنت لم تعد تتحكم بحياتي! أنا أشرب حين أريد!»
صرخ بكل قواه غاضبًا:

«وماذا عن الطفل، أيتها الحمقاء البائسة؟!»

عندها، انفجرت لورا في ضحكة جنونية جمدت الدم في عروقه، ثم سألت في

بطء:

«عن أي طفلي تتحدث؟»

فتح فمه عدة مرات دون أن يتمكن من النطق بجملته.
«ال... ال...»

نظر إليها، وقد أصبح فجأة لا يفهم شيئاً.
«ال... الطفل؟ الذي... الذي قررنا أن...»

لم يتنه جملته لأن لورا كانت سكرانة حتى أنها لم تعد هي نفسها، ولأن عينيها كانتا تبصقان الازدراء في وجهه. عندها قالت في بطء شديد مفصلة كل كلمة:
«ليس هناك طفل، يا إميل.»

«لا أفهم!»

«لم أتوقف قط عن تناول حبوب منع الحمل.»
انتابته فجأة رغبة في التقيؤ. تمسك بالأريكة حتى لا يسقط.
«ماذا؟!»

انجذبت إلى الحمام وهي تترنح، وأغلقت على نفسها فيه.
«ماذا؟ ولكن... لماذا؟!»

سمعها تنقياً أحشاءها. هو الذي كان يشعر بالغثيان وهي التي تنقياً. دعا أن تكون قد كذبت، ألا يكون الأمر صحيحاً. ولم يستكذب عليه كل هذا الوقت؟
عند خروجها من الحمام، كانت في حالة سيئة إلى درجة لم تتذكر معها أين هي وما الذي تفعله هناك. مددها على السرير وجلب لها كأس ماء ودواء لألم الرأس.
«أصحيح ما قلته قبل قليل؟»

أومأت بالإيجاب، وغفت في الثانية التي تلت.
في اليوم التالي، هي التي بدأت بالكلام عندما استيقظت.
«أنا آسفة، كان يجب أن أخبرك... لم أتمكن من ذلك.»
كانت قد جهزت حقيبة أسيائها وأعلنت:

«سأذهب إلى منزل أمي لبضعة أيام.»

حين عادت من عند أمها، لم تكن آسفة بل ممتلئة بالاستياء.
«اقترح إنجاب طفل لا يكون من أجل منع الشريك من المغادرة. هذا أكثر الأشياء التي سمعتها أناية.»

كانت قد أعلنت أنها سترحل. أضافت أنها منذ شهور وهي تفكر في الأمر، وأنه كان عليها أن تخبره بذلك من قبل، كما هو الحال بشأن حبوب منع الحمل... ولكن ذلك ما كان ليغيّر شيئاً.

كان كل شيء قد تسارع. رحلت لورا، وسار في منحدرٍ طويل إلى الجحيم. مات الطفل، ومات كل شيء، لورا، علاقته معها، مستقبله، وحياته. ولم يعد يرى إلا هذا في كوابيسه كل ليلة: لورا وبطنها المشدود الذي يتقيأ الازدراء في وجهه.

«هل لدينا برنامج خاص هذا الصباح؟»

تردد صوت جوانا الخافت وراء ظهره وهو يحاول شرب الشاي. كان مزاجه سيئاً هذا الصباح، وأفكاره سوداء بسبب ذكرى لورا وأوقاتها الأخيرة معاً في الشقة. عليه ألا يجتر ذكرياته هكذا، لكن الأمر أقوى منه.

«لا، لا، أنا... يجب أن أنهي هذه الرسالة اللعينة.»

كانت جوانا لا تزال شاحبة هذا الصباح. لم تختفِ آثارُ ضربة الشمس تماماً، فوجهها يكاد يكون شفافاً خلف قبعتها. أضاف:

«يجدر بك أن ترتاحي اليوم.»

«ألن نتحرك؟»

«لا.»

كان يعلم أن هناك مشتريات يجب إتمامها من أجل رحلة الاستكشاف. وسيتعين عليهما التوجه إلى بلدة كبيرة في الجوار للعثور على متجرٍ متخصص في الملابس الرياضية. هذه المهمة تحبّطه مقدّماً. سيقومان بها غداً، أما اليوم، فإن على جوانا أن ترتاح، وعليه هو أن يكتب رسالته.

سُمع صوت جوانا الخافت مجدداً.

«إميل... لم يعد لدينا ماء.»

«ماذا؟»

«خزان العربة فارغ.»

لم يستطع حتى أن يغضب من هذا الخبر لشدة السأم الذي اجتاحه بالكامل.

«يوجد منهل مياه في نهاية ساحة التوقف.»

أضافت جوانا: «أعتقد أننا نستطيع استعماله.»

«سأذهب وأرى بعد حين. هل تحتاجين الآن إلى الماء؟»

«لا. سأستحم في جدول الماء، يجب أن أغسل بعض الثياب أيضًا. إذا أردت...

يمكنني أن أغسل لك ثيابك...»

أرغم نفسه أن يعود إلى طبيعته ويتغلب على السأم الذي اجتاحه.

«نعم، هذا لطف منك. انتظري، سأتحقق من الأمر.»

حملت جوانا كل ثيابها المتسخة تحت ذراعها، وتبأت للخروج من عربة

التخميم تجاه جدول الماء.

«ألا يجدر بك أن ترتاحي؟ يبدو أنك شاحبة.»

«لا، لا بأس. الماء البارد سيفيدني.»

انطلقت بسرعة. لا بد أنها كانت تهرب من الكآبة التي تنضح من كل مسامات

جلده. وكانت على حق. عاد للجلوس خلف الطاولة الصغيرة القابلة للطي، أمام

ورقة بيضاء جديدة.

يجب أن يطرد لورا من ذهنه إذا أراد أن يتمكن من كتابة شيء. كان ذلك

مستحيلًا، فقد كانت حاضرة في كل ركن، وصوتها يرن في رأسه وهي تقول: «ماذا

أشرح؟»

بصوتها الغاضب، ووجهها المتزعج فوق فنجان قهوتها.

«سبب رغبتك في الرحيل.»

كانت قد عقصت شعرها عاليًا ووضعت لؤلؤتين في أذنيها، وصبغت شفيتها

بأحمر شفاف وردي فاتح، جعل فمها يبدو شهيقًا. مع ذلك، لم يعد يستطيع لمسها

لأنها سترحل.

«لم نعد على وفاق.»

في ذلك اليوم، راحت تعبث باستمرار بالخاتم الصغير في إصبعها، خاتم كانت ترتديه دومًا حتى وهي نائمة ليلاً.

«لم نعد على وفاقٍ لأنك لا تفكرين إلا في الخروج!»

«لا تقلب الأمور يا إميل!»

«كيف كنت تريد أن نكون على وفاقٍ؟ لم تكوني تفكرين إلا في الخروج من

هنا لحضور احتفالات! كنا نلتقي بالمصادفة فقط!»

«أنت تقلب الأمور!»

«ولكن ما الذي ألقبه؟»

لم يستطع منع نفسه من الصراخ. كانت هناك، قريبة جدًا، أمامه، في شفتيها،

ومع ذلك بات الوصول إليها متعذرًا إلى الأبد.

«بدأت أخرج لأننا لم نكن على وفاقٍ! كان الهرب بواسطة الإكثار من الخروج

إلى سهرات، أهون عليّ من أن أرى أن الأمر قد انتهى بيننا، وأنه لم يعد هناك ما

نفعله معًا.»

«لا، كنا في أحسن حالٍ معًا! لقد أفسدت كل شيء برغبتك في أداء دور المرأة

المثيرة في السهرات!»

نهضت عندئذٍ عن الطاولة، تناولت حقيبة يدها وانجذبت نحو المدخل. صرخ:

«لا، انتظري يا لورا.»

شعر أنه تحول إلى لا شيء، وتحطّم صوته.. كان مستعدًا للزحف عند قدميها إذا

لزم الأمر. ثارت أعصابها:

«جنّت من أجلك فقط. لأنك أردت أن تتكلم، ولم آتِ لسماع إهاناتك لي!»

أراد أن يمسك ذراعها لكنها ردّته.

«اعذريني يا لورا، اعذريني.»

تخلت لبضع لحظاتٍ عن قناع الغضب، فرأى الحزن على وجهها. فهم أنها

تعاني أيضًا، بطريقةٍ مختلفة، ولكنها تعاني.

«أريد أن تجربيني. إذا كان هناك شخص آخر في حياتك... أريد أن أعرف...»

«لا يوجد أحد. سبق أن قلت لك ذلك وأعدته...»

«ولم تخونيني؟»

«لم أخنك..»

«وإن حدث ذلك، هل ستخبريني؟»

«سأخبرك.»

«هل راودتكِ رغبة في خيائتي؟»

تهربت من السؤال وقالت:

«ألا تريد أن نعود للجلوس في المطبخ؟»

لم يشأ أن يطرح السؤال مجدداً لأنه عرف الجواب. عادا إلى مكانيهما في المطبخ. سند رأسه بيديه مع إحساسٍ أليم بالتحلل من الداخل.

«لماذا لم نعد...»

شجعتُه حينما لم ينه جملة:

«لم نعد ماذا؟»

«لماذا لم نعد على وفاق؟»

«أظن... أظن أنني كنت مستعدة لبناء شيء ما، لأصبح راشدة. أما أنت، فلا. لم تكن مستعداً بعد.»

كان رد فعله سريعاً، ورفع صوته:

«أنت تكذبين! لقد قبلتُ بموضوع الطفل!»

ارتسمت على وجهها ابتسامة حزينة.

«صحيح أنك قبلتَ ولكن بعد فوات الوقت... ولسبب خطأ.»

أمي، أبي، باستيان، رينو، ليتيسيا، وأفراد ذريتكم،

هذه رسالة تصل متأخرة جداً بالنسبة لكم (اليوم مضت خمسة أيام على رحيلي)، ولكنها بالنسبة لي مبكرة جداً.

كنت أتمنى لو أتيج لي مزيد من الوقت لكتابتها. لم يتضح لي تمامًا ما يدور في رأسي، ولكنني لا أستطيع أن أجعلكم تنتظرون إلى الأبد...

أجبر نفسي على البدء بكتابة الرسالة كي يطرد الأفكار التي تعيده إلى لورا. شرب رشقة من الشاي وتناول قلمه من جديد كيلا ينقطع حبل الأفكار.

يمكنني أن أقدم لكم لائحة بالأسباب التي دفعتني للرحيل. وربما يساعدكم هذا على فهمي ومسامحتي. قد يجد كل منكم سبباً صالحاً واحداً في الأقل. السبب الأول والأكثر بداهة، هو أنني لا أريد خوض تلك التجربة السريرية، ولا أريد أن أموت وأنا موصول إلى أقطاب كهربائية. لا أريد أن أكون فأر تجارب. إذا كان لا بد أن يأخذني المرض إلى هلاكِي، فليأخذني، ولكن فليدعني أولئك الأطباء وشأني بحق الآلهة! السبب الثاني، الذي يفسر هروبي، هو أنني لا أريد أن أصبح عباً عليكم. وهو ما سيحدث لو أنني بقيت. لديكم جميعاً أشياء أفضل تفعلونها.

السبب الثالث له علاقة بالكبرياء والأنا. هل هو سبب أقل جدارة بالشأن؟ لا أعلم. ولكنني لا أريد أن أشوه صورتِي لديكم. أفضل الرحيل (بأنانية حتماً) تاركاً لكم صورةً عني كما أتخيلها: شاب، وسيم، مفتول العضلات، ممتلئ بالمستقبل، ديناميكي، فاتن... (اضحكوا، نعم...)

لا أريد أن أصاب بالخرف والذهيان، لا أريد أن يساعدني أحد على تذكر اسمي، وأن يضطر أحد إلى تعليمي كيف أربط حذائي، أو كيف أقلي بيضة. لا أريد أن تكون آخر صورة لديكم عني هي صورة رجل ضعيف وسريع العطب (خصوصاً الصفة الأخيرة). لدي كبريائي مثل الجميع. أفضل أن أعيش شهوري الأخيرة بعيداً عن نظراتكم.

سبب آخر، جميل هذه المرة. هو أنني لطالما أردت القيام بهذه الرحلة الشهيرة في قلب الطبيعة!!! لقد أقسمنا، أنا وأنت يا رينو، على القيام بها! ربما ستمكن من القيام بها لاحقاً مع ليتيسيا والشقي. بالنسبة لي، الآن هو الوقت المناسب، وإلا فلن يأتي الوقت أبداً. شيء جميل أن نساfer ونحقق حلمًا.

لم أشأ أن أودعك. أنا جبان. وهذه إحدى خصالي.

الأمر هو كما بالنسبة لهذه الرسالة: إنها أسهل من الاتصال الهاتفي. لا أعلم إذا كنت سأتصل بكم يوماً، ولكنني سأكتب لكم، هذا أكيد. سأكتب لكم طالما لا أزال أتذكركم على أي حال.

سأحاول جهدي في المستقبل أن أكتب لكم رسائل فردية قصيرة. ولكن عليكم أن تتحملوني، لأن إخراج الكلمات يحتاج إلى وقت. سيحدث ذلك.

الآن هي اللحظة الدامعة التي يجب أن أقول لكم فيها إنني أحبكم، وأنه لا داعٍ للقلق بشأنني، وأنني سعيد. كونوا صبورين، الرسالة القادمة ستصل سريعاً.
أقبلكم.
إميل

شعر أنه يهرب من جديد، يتجنب الوداع. لا بأس. في غضون أشهر قليلة لن يعود على قيد الحياة، وسيتدبر الباقيون أمرهم، عبر ذكرياتهم، لاختراع حالات وداع مناسبة وأسباب صالحة.

كانت جوانا تجلس متربعة في الماء الذي يصل إلى منتصف بطنها. نشرت الملابس المغسولة حديثاً، في كل مكان حولها على الصخور. أدارت رأسها نحوه حين سمعت خطواته فوق الحصى.

«هل أنهيت رسالتك؟»

هز كتفيه في هيئة لا تزال كئيبة.

«نعم.»

«ستودعها البريد اليوم؟»

«أو غداً. عندما نذهب للتسوق من أجل المسير.»

خيم الصمت. لبث واقفاً على الضفة، ينقل ثقله من قدم إلى أخرى. كان متيسباً. راحت جوانا تداعب سطح الماء بيديها مصدرة أصوات اصطفاق.

«هل تشعر بالخيبة؟» سأله.

قطب حاجبيه.

«ماذا؟»

«هل تشعر بالخيبة مما كتبته؟»

«نعم... قليلاً.»

شرع فيما يشبه الابتسامة.

«هل هذا واضح من هيتي؟»

أَبَقْتُ وجهها خاليًا من التعبير وهي تخبب.

«نعم. ولكن لا مشكلة في ذلك. ستكتب غيرها.»

لم يجب على الفور. راح ينظر إليها وهي تسرح يديها فوق صفحة الماء، وقام بحك حلقه.

«نعم ولكنني ليس لدي كل الوقت لذلك.»

استدارت جوانا بكاملها نحوه. ثنت ركبتيها نحو صدرها، ونظرت إليه بوجهها الشاحب.

«لأنك ستموت؟»

لديها تلك الطريقة في السؤال بصوتٍ ناعم ولكنه صريح، دون حرجٍ من شيء. هذا يعجبه حقًا. أخذ وقته للجلوس فوق صخرة كبيرة، وخلع حذاءه وجورييه، ثم قام بإنزال قدميه في الماء البارد.

«لا. لا يزال أمامي وقت قبل وقوع ذلك... هذا ما أظنه في النهاية...»

راح يلهو بالماء، بضع ثوانٍ، بأطراف أصابعه.

«ستان.» قالت.

«تقديرًا.»

«ستان مدة تكفي لكتابة رسالة حقيقية، أليس كذلك؟»

نظرت إليه في جدية وبهينة شخصٍ راشد حقيقي، لا بهيئة فتاة صغيرة ضائعة، كما ظنّها في الأيام الأولى.

«ليست هذه هي المشكلة.»

«أليست المشكلة هي الوقت المتبقي لك...»

«لا.»

«ما هي؟»

«هي أنني سأنسى كل شيء. ربما خلال ستة أشهر، وربما غدًا. لذلك لا أعرف

حقًا إن كانت ستوفر لي فرصة أخرى لكتابة تلك الرسالة أم لا.»

ارتسمت على وجه جوانا هيئة التفكير.

«نعم. في هذه الحالة...»

استمرت في التفكير وهي ترسم بيديها دوائر فوق صفحة الماء.
«في هذه الحالة، يجدر بك أن تكتب قليلاً كل يوم. حالما تخطر لك فكرة... أو شيء ما تحب أن تقوله.»

راح يزن المسألة وهو يدحرج الحصى تحت قدميه في قاع الماء.
«ثم أرسل قِطْعَ الرسائل هذه أولاً بأول؟»
أومات جوانا برأسها.

«لست مضطراً لإرسالها. وليس إلزامياً أن تكون شبيهة برسائل.»
قطب حاجبيه دون أن يفهم. تابعت:

«قد تلجأ إلى دفتر صغير، ستملاه بالكلمات طوال رحلتك.»
«كلمات لن تصل إليهم أبداً؟»

«الدفتر سيصل إليهم.»

«وكيف؟ بعد أن أنسى كل ما يتعلق بحياتي، وأنسى الدفتر، ولمن كان موجهًا.»

«أنا أستطيع إرساله إليهم.»

«أنت؟»

«نعم. ستعطيني عنواناً وسأتكفل بإرسال الدفتر عندما تموت.»

يتجههم بطريقة يتعذر السيطرة عليها. يجد صعوبة في سماعها تقول بوضوح إنه سيموت.

«يمكنك أن تكتب في الدفتر لأجلك.» أضافت.

«وكيف ذلك؟»

«أنت تخشى من نسيان كل شيء.»

«نعم.»

«ولكن سيكون معك كل ما كتبته، كل تلك الذكريات المسجلة في الدفتر. سيساعدك هذا على التذكُّر عندما... عندما لا تتذكر من أنت، وما الذي تفعله هنا...»

جعله هذا الحديث يشعر بكتلة خائفة في حلقه، ووضعه في حالٍ أسوأ من ذي قبل عند استغراقه في ذكرياته مع لورا.

«لا أرغب في الكلام عن ذلك الآن...»

«حسنًا.»

عادت لتغمر يديها في الماء، حتى اختفى ساعدها في التيار. أضافت بصوتها الخافت:

«زودني فقط بتعليياتك...»

«من أجل ماذا؟»

«في حال كان عليّ إرسال شيء إلى أحد ما.»

«آه... نعم.»

ساد الصمت من جديد. شعر إميل بالكتلة تكبر في حلقه. يعجبه أن تتكلم جوانا بحرية وبلا حرج عما سيحدث. إلا أنه مذهول من السهولة التي تفعل بها ذلك. وكأن الموت، موته، أمر عادي، إجراء شكلي فقط في هذا العالم. هذا جيد ويبحث على الاضطراب في وقت واحد.

لقد هرب من أحيائه لهذا السبب، كي يتحرر من الروابط، من التعلُّق، من ألم الرحيل. من الأسهل أن يموت في حضور إنسانة غريبة تنظر إليه بلا مبالاة. من الأسهل ألا يبقى لديه شيء يتمسك به عندما يحين الوقت. لكن الأمر مربك. تنحنح.

«بالحديث عن التعليلات...»

بدت جوانا متفاجئة بسماع صوته. لا بد أنها استغرقت مجددًا في أفكارها، بعيدًا جدًا عن جدول الماء، وبعيدًا عن فقدان ذاكرته وموته القريب.

«ستأتي بالتأكيد لحظة أنفصل فيها حقًا عن الواقع، وأطالب فيها بالعودة إلى البيت.»

هزت رأسها في هدوء واتزان.

«أريد أن... لا أريد أن تأخذيني إلى هناك، مهما فعلت... حتى إذا توسلتُ. لا

أريد أن يروني هكذا.»

لم تطلب تفسيرات أو أسبابًا لذلك، لم تعبر عن المفاجأة أو الاندهاش، لم تُطلق أي حُكم. اكتفت بهز رأسها. كانت هناك لتلقّي التعليلات، والحرص على التقيد بها. لا أكثر. هذا هو العقد الضمني بينهما.

«حسنًا».

ابتلع لعابه بصعوبة. كانت تلك نقطة من الجيد أنها تمت تسويتها. غداً سيضع رسالته في البريد. ربما يشتري ذلك الدفتر. سيري.

أخذت جوانا قيلولة طوال فترة ما بعد الظهر. لا تزال شاحبة لكنها تقول إن ألم رأسها قد زال. عند نهوضها رآته يجلس بلا حراك أمام رسالته.

«هل تعيد قراءتها؟»

أوما برأسه نافيًا.

«لا. كنت أفكر في موضوع الدفتر.»

لم تسأله عما إن كان قد قرر شراءه أم لا. بل طرحت سؤالاً مختلفاً تمامًا باغته:

«كيف سيردون على رسالتك؟»

لبث مصدومًا يفتح فمه ويغلقه دون صوت.

«ليس لديهم عنوان للكتابة إليك...» أضافت جوانا.

«نعم ولكن...»

«ولكن؟»

«سأتدبر الأمر.»

لم يكن هذا يعني شيئًا سوى أنه لم يضع في حسبانها قط تلقي ردٍّ منهم. هز رأسه لطرده هيئة الخبل الذي اعتراه.

«ألم يكن علينا أن نملاً خزان الماء؟!»

«بلى.»

«تعالى إذًا، ستقوم بذلك.»

ذهبت جوانا للنوم باكراً. لم تفارق الكأبة إميل، بل تفاقمت حالته الآن مع حلول الليل ونوم جوانا. كانت ساحة السيارات خالية، وكأن لا وجود لأحد غيرهما هناك. ذهب إلى خزانة الحائط لإحضار الصندوق الذي يضم كل الصور. منذ عصر هذا اليوم وهو يفكر في ملاحظة جوانا بخصوص رسالته. كيف سيردون على رسالتك؟

سأل نفسه: لماذا لم تراوده فكرة تلقي ردود من طرفهم؟

هل كان يرفض أن يتلقى منهم ردودًا؟

هل يخشى أن يتخلل عن مشروعه ويعود إلى روان إذا تلقى ردًا ما؟

هل يشعر أنه بات بالفعل أكثر بعدًا عنهم، وعن الحياة، من أن يبقى على

تواصلٍ معهم؟

فتح أحد الألبومات الموجودة في الصندوق. خط أمه يغطي كل الصفحات.

وتظهر في اللقطة الأولى، وهي حامل بشكلٍ واضح للعيان. وجاء في التعليق:

في انتظار المولود. رُسمت زهرة بجانب الصورة، ولا شك أن مارجوري هي

من رسمتها. كان هو المولود المنتظر إذاً في هذه الصورة. هناك بضع كلماتٍ أسفل

الصفحة. 13 مارس: اختيرت الأسماء. إميلي إذا كان المولود بنتًا، وإميل إذا كان

صبيًا. الوالد أصبح متوترًا. مارجوري نافذة الصبر. الوالدة وحدها بقيت هادئة.

جال بإصبعه فوق الصفحة. تساءل: كيف سيبدو ردُّ فعله لو أن لورا حملت

بطفل؟

هل سيتوتر بنفاد صبر؟

هل سيبدو عصبياً أم أنه لم يضع هذا الأمر في الحسبان قط؟

كل ما أراده، أن تبقى لورا وأن يتمكن من إسعادها. لم يكن الطفل سوى خطوة،

أداة مبتذلة. قلب الصفحة وفي فمه مذاق مر. كانت على حق بأنه أناني سيئ. كل

ما أراده، منعها من الرحيل.

أولى صوره في شهوره الأولى، يظهر في حضانة أطفال، ويظهر والداه مشرقين،

ومارجوري التي لا تزال ضئيلة تنحني فوقه في فضول. كانت في عامها الرابع عند

ولادته.

أسرع في تصفح الألبوم وتناول ألبومًا آخر. ألبوم ولادته ليس الأكثر إمتاعًا.

يظهر في الصور أحرر وسميماً وبكل الأوضاع الممكنة. الألبوم التالي قفز به إلى

الأمم ست سنين، وهو تلميذ، بشعر بني غامق، وهو يلعب كرة السلة، أو يتزلج،

أو يلتقط طيرًا من الأدغال. لم يعد هناك القدر نفسه من التعليقات حول الصور.

مارجوري في العاشرة من عمرها في الصور. تظهر بشعر بني طويل و متموج،

والنمش على بشرتها. إنها حاضرة دومًا تمسك بيده وتريد حمل حقيبته. يتذكر أن

هذا أضجره عندما كبر. كانت تلاحقه دومًا، ويجدها ملتصقة به أكثر مما يجب. لكنه، وخلال سنوات طويلة، لم يشتك من ذلك. كانت له أم ثانية في البيت، تعامله كأنه طفلها الصغير. لكن الأمر كان ممتعًا. كانت تمرر له كل شيء وتجاربه في أهوائه، كانت غطاءه. في عامه العاشر أو ربما الحادي عشر، لم يعد يحتمل. تذكر تعليقات فتية الحي. مارجوري وإميل عاشقان، تذكر صرخاتهم الساخرة التي كانت تدوي كلما أمسكت بيده. لم يكن رينو يقول شيئًا لكن الآخرين كانوا يسخرون. تارة يعيرونها بأنها (عشيقتها) وتارة بأنه (الطفل الصغير للها ما مارجوري). لم تكن مارجوري تلقي بالآلل الأمر، بل كانت تقدمه في فخر أمام صديقاتها: «هذا أخي الصغير».

وتجلسه فوق ركبتها، وهو يذوب من الخجل لأنه لا يعرف كيف يتصرف مع كل تلك النظرات المصوبة إليه. قرر التخلص من التصاقها الشديد به وقد ضاق ذرعًا بالسخرية الغبية.

تذكر أنه بات يدفعها في عنفٍ وبلا مراعاة، ويمضي دونها عند الخروج من المدرسة. لم تكن تفهم، وتحاول التقرب منه من جديد، فيصبح أكثر عدائية. قال لها أمام كل صديقاتها إنها بشعة وسمينة. لقد أبكاها في ذلك المساء. سمعها مساءً في المطبخ.

«أمي... أعتقد أن إميل لم يعد يحبني».

يذكر جيدًا بما أجابت أمه.

«ولكن لا. إنه يتحول إلى صبي حقيقي، ويحتاج إلى الاستقلالية... لكن لماذا؟»

«عليه أن يتعلم كيف يتدبر أموره بمفرده. وهذا لا يعني أنه لم يعد يحبك».

«حقًا؟»

«نعم. بعد سنين قليلة سيعود إليك من تلقاء نفسه. سوف ترين».

كان يعرف أنه جعل مارجوري تتألم كثيرًا، ويتذكر أنها مرا بعد ذلك، بمرحلة طويلة أصبحت فيها غريبين، أحدهما عن الآخر. كانت مارجو في الرابعة عشرة ثم الخامسة عشرة ثم السادسة عشرة. كانت تخرج مع أصدقاء لها، وشاهدها يومًا تتبادل القبل مع صبي، وأصابه غثيان. احتاجت هي أيضًا إلى الاستقلالية. أخذ عالمه الصغير يدور حولها، حول صديقاتها والشبان الممثلين بالبشور، الذين يحومون

حولهن. يتذكر أنها كانت كثيرة الشجار مع الأهل. كان والده يرفع صوته وتقوم هي بصفق الأبواب. كان يراقبها كأنها نموذج غريب من البشر. لم يعد يرى فيها الأخت الكبرى شديدة الرقة والرعاية، التي عرفها. كان هناك بثور على وجهها وأشياء غريبة تنمو على صدرها، ويسخر من ذلك مع أصدقائه. كانوا يقولون: «بثور دهنية مقززة».

كانوا يعرفون جيدًا ما يحدث لـ مارجوري لكنهم يفضلون إظهار الجهل. ابتسم وهو يتذكر ذلك.

تابع تقليب الصفحات. هنا، تمسك مارجوري بشهادة دبلومها في فخر. إنها في العشرين من عمرها وحصلت لتوها على شهادة التأهيل المهني المتقدم في القطاع المصرفي. أجبر إميل على الوقوف بجانبها لأخذ صورة معها. كان في السادسة عشرة من عمره ويرتدي قميصًا أسود اللون عريضًا جدًا. تلك هي الفترة التي بدأ فيها ينظر إلى مارجوري من جديد بطريقة مختلفة. كانت قد تجاوزت مرحلتها السيئة، غادرت البيت للدراسة، وعادت الشقيقة الأكبر سنًا، الهادئة والرفيعة التي عرفها في الماضي. مرت السنوات بسرعة شديدة، وتزوجت مارجوري وحملت بتوأمين... واصل إميل تقليب الصفحات. مارجوري بفستان أبيض، بجانب باستيان بربطة عنق على شكل فراشة. مارجوري حبل. وهذه صورة له مع التوأمين. عند رحيل لورا وسقوطه في قاع الهاوية، استعادت مارجوري دورها كأم. عادت إلى تدليله ولكن مع إبقاء مسافة، ودون براءة سنواتها الأولى. هي اليوم أم، ولم تعد تحبه حبًا غير مشروط، لأن ولديها هما اللذان يملآن اليوم حياتها، ولا يعرف إن كان هذا يؤلمه أم لا. إنه يفكر في أنه أمر عادي، وضمن طبيعة الأشياء. لم يلحظ مرور كل تلك السنين. أصبح في السادسة والعشرين من عمره، وستنتهي حياته خلال ستين. كيف يمكن للمرء أن يفقد السيطرة على الأحداث في حياته بهذه السرعة؟! أغلق الألبوم. هذا يكفي لهذا المساء. شعر بالإرهاك. نهض، وكتبَ تافويًا لدى مروره أمام المقعد الطويل الذي اتخذته جواتا منامةً، ثم تسلق سلم الحبال وهو يفكر قليلًا في مارجوري. سيكتب لها رسالة. غدًا أو خلال أسبوعين أو ستة أشهر، لكنه سيفعل.

«ماتان وثمانون يورو، من فضلك.»

يقدمان بطاقتي اثمنهما في وقت واحد. يقوم إميل بمنع جوانا من استخدام بطاقتها، قائلاً:

«أنا سأدفع ثمن هذا.»

تجولا بعربة التخميم طوال فترة الصباح للعثور على متجر متخصص في الرياضة ومعدات المسير الطويل. عندما ركنوا العربة أخيراً، كانت الشمس قد أصبحت حارقة. قادهما بائع في جديّة وحماسة، عبر الأقسام. وكرر عدة مرات أن رحلتها الاستكشافية ستكون ممتلئة بالإثارة. بلغا الآن بوابة الخروج مزودين بثروة صغيرة من المعدات.

«لدي قدر من المال ليس بالقليل.» قالت جوانا وهما يخرجان من المتجر وأذرعهما محملة بالأكياس.

«لا تشغلي بالك.»

«كان لدي ذلك السكن الوظيفي... ولدي مدخرات.»

«أما أنا، فيجدر بي أن أفرغ حسابي المصرفي وحساب التوفير قبل أن أموت...»

لم يتوقع أن يراها تبتسم. إلا أن هذا ما فعلته. بل لقد أعلنت:

«حسنًا. ولكن دعني أدفع في المرة القادمة.»

توجها نحو عربة التخميم. توقفت جوانا فجأة:

«هل يمكنك انتظاري؟ أحتاج إلى دقيقتين لا أكثر.»

أشارت إلى المركز التجاري المتاخم لمتجر الرياضة.

«تريدون التسوق؟» سألها متفاجئًا.

لقد اشترى من المتجر الرياضي طعامًا مجففًا، وقضبان البروتين، ولا ينقصهما

شيء كما يفترض.

«نعم، غرض واحد أو اثنان. سأعود بسرعة.»

فكر في أن الأمر يتعلق حتمًا بأغراضٍ خاصة بالفتيات. لقد نسي تقريبًا كيف تكون عليه الحياة اليومية مع فتاة.

«يوجد صندوق يريد عند المدخل، هل تريد أن أودع لك الرسالة؟»
أوماً بالموافقة. المغلف جاهز. لقد دون العنوان هذا الصباح وألصق الطابع.
تناول الرسالة من حقيبة ظهره وسلمها إياها.
«أعود بعد قليل.»

تسلق عربة التخميم وفتح خارطة البيرنيه الضخمة. وحسب نصيحة كلويه، سيسلكان طريق مولتييه الذي يبدأ في أرتيغ. سيركنان العربة مجددًا في ساحة التوقف القريبة من الجدول. إنه مكان هادئ، يفترض ألا تقع فيه مشاكل سرقة. لاحقًا برؤوس أصابعه الطريق الذي يفترض أن يسلكانه سيرًا على الأقدام. من الأفضل أن يحدده بقلم تلوين تحسبًا لاحتمال تعرضه لثقب في الذاكرة... فكَّر في أن عليه أن يُخبر جوانا في انتظام بالمسالك التي ينوي السير فيها من الآن فصاعدًا... سيشكل له هذا نقطة أمانٍ أخرى في حال حدوث خلل في ذاكرته.
طوى الخارطة وشبك حزام الأمان مع عودة جوانا حاملةً كيسًا صغيرًا شفافًا، خيل إليه أنه لمح فيه كتابًا. لم يجروا على سؤالها عما اشترته، لكنها رأت أنه يلقي نظرات فضول نحو الكيس، لذلك أخرجت محتوياته.
«ما هذا...؟»

لكنه فهم قبل أن تحجب. إنها دفتران صغيران بغلافٍ أسود.
«أنا أيضًا سأكتب في دفتر.» قالت.

أخرجت من حقيبتها قلَمي حبرٍ أسود جاف، كلٌّ منهما مزود بطرفٍ فضي.
«أوه.»

لم يعرف ماذا يقول غير ذلك. أعادت جوانا الدفترين وقلَمي الحبر إلى الكيس البلاستيكي الذي وضعت عند قدميها ثم شبكت حزام الأمان.
«هل سنحمل هذا في المسير؟»

هزت كتفيها. تنحنَّج وأضاف في لهجةٍ أكثر ودًا:

«شكرًا على ال... دفتر».

لكنها كانت قد ألصقت أنفها بزجاج النافذة وسرحت بنظرها بعيدًا. مضت ساعتان تقريبًا وهما يتقدمان بالعربة. لقد فقدَ الإحساس بالوقت، وتساءل عما إن كانت ذاكرته قد غابت برهة أم لا، لأنه يتذكر العودة بالعربة إلى موقف عربات التخميم، قرب الجدول، وإعداد حقيبتَي المسير (كانتا ثقيلتين جدًّا وتساءل، كيف ستحمل جوانا حقيبتها؟) ثم الوجبة التي كانت تتمثل في طبق من المعكرونة والتي تناولاها بسرعة. انجها بعد ذلك سيرًا على الأقدام إلى المنعطف المشار إليه في الدليل، والذي يشكل نقطة انطلاق المسير. كانت هناك لافتة صفراء كتب عليها (قمة دو ميدي عبرَ طريق مولتييه، 2872 م. 4 ساعات و30 دقيقة). سلكا الطريق الصاعد، على طول شلال أريز. بعد ربع ساعة، وصلا إلى أكواخ ترامزيغ، الحجرية القديمة. كانت قمة دو ميدي دو بيجور تُشاهد من هناك، وانبهرت جوانا. بعد ذلك لا يدري ما الذي حدث. اتبعا الطريق واللافتات الإرشادية. كان يسير في المقدمة رافعًا يده أمام وجهه وقاية له من الشمس الضاربة. وبقيت هي في الخلف. سألها عما إذا كان السبب هو ثقل حقيبتها أم لا، وأجابت بالنفي، وأنها تحب السير بمفردها. كانت ترتدي قبعتها السوداء ويديها عَصَا المسير، اللذان أفلح البائع في بيعه إياهما، لأن إميل لم يكن يريد هما. بعد أكواخ ترامزيغ، ضيَّع المسار. كل ما يعرفه، أنهما كانا يسيران منذ ساعتين، وأن الحرَّ فظيع، وأن هناك الأبقار التي تتراح في العشب من حولها. جلس فوق صخرة منتظرًا جوانا.

«هل نأخذ استراحة؟»

«أكاد أموت من العطش».

أخرجوا عبوتي المياه. كان جبين جوانا مبللًا بالعرق، وترتدي أيضًا بنطال برمودا أسود وأحد قمصانها السوداء الأبدية. قبل قليل كان يوشك أن يقول لها إن ارتداء الأسود ليس فكرة جيدة، لكنه عدلَ عن ذلك. كانت تتعل حذاءها الجديد الخاص بالمسير. لبثا مطولًا يشربان جرعات صغيرة، ويمسحان جبهتيهما. التقطا أنفاسهما في ببطء.

«ما هذا الشيء هناك؟» سألت جوانا.

أشارت إلى أنقاض كوخٍ حجري. هز إميل كتفيه. لم يُكتب شيءٌ في دليله عن هذا.

«هذا جميل.» أعلنت.

بلغت الساعة الخامسة ولا يزال أمامهما أكثر من ساعتين من المسير. فكر أنها لم ينطلقا باكراً بما يكفي. كانت جوانا اليوم كثيرة الكلام. طرحت سؤالاً جديداً وهي تدحرج الحصى بطرف حذائها:

«لماذا يسمى هذا طريق المولتية؟»

أعاد عبوة الماء إلى حقيبة ظهره قبل أن يجيب.

«يوجد مرصد فلكي في أعلى قمة دو ميدي. عند بنائه، كان المؤسسون ينقلون اللون ومواد البناء عبر هذا المسار الذي نسلكه اليوم. كانت أجور الحمالين تُدفع حسب وزن أحمالهم، التي وصلت إلى أربعين كيلوجراماً فوق ظهورهم.»
كان وجه جوانا خالياً إلا من طيفٍ من الدهشة، ورعشة طفيفة في حاجبها الأيسر.

«كانوا يسIRON في الشتاء القارس في الثلج، مسافةً قد تستغرق اثنتي عشرة ساعة. مات عدد غير قليل منهم في الانهيارات الثلجية.»

نهض بحركاتٍ بطيئة وتكشيرة ألم، فقد بدأ ظهور الدمامل في قدميه.

«هل نعود؟»

«نعم.»

كان لديه إحساس بأنها يصادفان أناساً في صعودهما، لكنه ليس متأكداً من ذلك لأنه غارق في أفكاره. اعتقد أنه فهم ما قصدته جوانا عندما أعلنت أنها تفضل السير بمفردها، وحتى عندما ابتعدت منفردة بنفسها في أحد الحقول للتأمل. لأننا عندها نجد أنفسنا مستغرقين داخل أنفسنا، ولا ندرك ما يجري حولنا. يسترخي عقلنا في الجهد الجسدي، وتتوالى أفكارنا في زوبعة، لكنها زوبعة هادئة ورائقة. وفي لحظاتٍ معينة بالكاد ندرك أننا نفكر. هناك ذكريات تعود في هدوءٍ إلى السطح، تفرض نفسها دون إثارة مشاعر مؤلمة. ننظر إليها نظرة عطف، متخذين مسافةً منها.

تلك المكالمات الهاتفية التي تعود إلى الذاكرة. المكالمات الليلية مع لورا التي كانت آنذاك قد عادت لتوها لتقيم مع والدتها، قبل أخذ أغراضها من شقتها. كانت الساعة هي الثانية صباحًا عندما اتصل بها. بدت مغتاضة لكنها بذلك جهدها كي تبقى مهذبة.

«ماذا هناك؟»

تحلت بما يكفي من اللطف لعدم إضافة (أيضًا). لماذا اتصل بها؟

لماذا لا يدعها في سلام؟

كان يريد تفسيرات، ورفض تفسيراتها التي لم تقنعه قط. وصفها بالكاذبة، بل بالكاذبة القذرة، بسبب حبوب منع الحمل. انتهى بها الأمر بالانفجار:

«الطفل، الطفل، ولكنك تربط كل شيء بالطفل! أنا أردت طفلًا، هذا صحيح، وأنت لا. صحيح أننا لم نتزامن في التوقيت. ولكن هذا ليس كل شيء يا إميل!» أجاب وهو يكظم غيظه:

«هذا ليس كل شيء؟ هناك إذاً سبب آخر. ها قد وصلنا! كان هناك شخص آخر! هناك شخص آخر، أنا متأكد من ذلك!»

تلا ذلك صمت طويل، لكنها تكلمت بصوت واضح ومفصل، وكأن شيئًا من هذا لم يعد يؤثر فيها:

«ليس مشروع الطفل بمفرده هو الذي فشل. بل أنت بكاملك كشخص.»

«آه، إنه الوقت المناسب كي تظهرني وقاحتك؟»

«لا، ولكن ألم تر نفسك يا إميل؟ أنت في مكانك دومًا. أنت لا تتقدم. ما زلت كما كنت في الكلية، تأخذ كل شيء باستخفاف. لم تتحرك ميليمترًا واحدًا. تنتظر أن تحدث الأشياء. أنت لا تريد أن تكبر، أن تتطور. تكفي بلا شيء، بحياتك المحدودة، بأصدقائك...»

صرخ في سماعة الهاتف:

«وانتِ، هل أنت أفضل؟ سهراتك الوضيعة مع صديقاتك الحمقاوات!»

تابعت دون أن تسمعه حتى:

«لو لم أجد لك ذلك العمل عند صديقي، لأصبحت حتى الآن تنتظر أن ينزل عليك عمل من السماء!»

«يا لها من فكرة غنية! أليس كذلك؟! عمل سخيف في شركة سخيفة!»
«صحيح! هو هذا بالضبط! عمل سخيف في شركة سخيفة! لشخصٍ سخيف، لا يتزحزح عن حياته السخيفة!»
ظن أنه يَخْتَنقُ وصرخ بكل قوته:
«اذهبي إلى الجحيم!»

«أنت على حق! فهذا أنت! هذا العمل يضجرك لكنك تبقى فيه... لا تفعل شيئاً لتغيير الأمور. تكفي بحياتك الضيقة دون أن ترى أبعد من أنفك!»
أغلق الخط في وجهها كيلا يشتمها. أعلنت بعد ذلك أنه لم يعد هناك حاجة إلى التفسيرات. لقد قُدِّمَ الكثير منها. التقاها ثانية مرة واحدة، عندما جاءت لأخذ أغراضها قبل التوجه إلى مصفف الشعر. بدت مرتاحة لتركه وراءها.

«هذا هو المرصد؟»

«ماذا؟»

ردد صوتُ جوانا اللاهث:

«هذا هو المرصد؟»

أشارت بإصبعها إلى البنى التحتية المصنوعة من الحديد، التي تُرى في الأعلى.

«نعم، لا بد أنه المرصد.»

تمهّل كي تلحق به، ثم وصلت منقطعة الأنفاس ولكنها صامدة، بحقيبتها الضخمة على ظهرها.

«أنتِ على حق، شيءٌ لطيف أن نسير بمفردنا.» اعترف لها عندما أصبحت بجانبه.

«نعم.»

«هذا يجعلنا نستعيد أشياء كثيرة.»

تساءل عما إن كانت هي أيضًا في أثناء سيرها بمفردها تسمع صوت ليون أم لا.
رأها تهز رأسها وتنظر إليه، ثم تنطق بصوت غريب بهذه الجملة الغريبة:
«رحلة الاستكشاف الحقيقية ليست في أن تبحث عن مناظر طبيعية جديدة، بل
في أن تنظر بعين جديدة.»

قطب حاجبيه وهو يشعر ببعض الغباء.
«عفوًا؟»

رفعت قبعتها التي تغطي جبينها.

«إنها جملة من بروسست.»

شعر أنه غبي. لا بد أنها تقرأ أكثر منه بكثير.

«هل تريد أن أعيدها عليك؟»

ارتسم على شفتيها ما يشبه الابتسامة. أو ما برأسه.

«نعم... هيا...»

«رحلة الاستكشاف الحقيقية ليست في أن تبحث عن مناظر طبيعية جديدة، بل
في أن تنظر بعين جديدة.»

«ما يقصد قوله هو أن...؟»

تردد خوفًا من أن يبدو أحمق مرة أخرى.

«ما يقصد قوله، أن هذه الرحلة التي نقوم بها، أنت وأنا، هي قبل كل شيء،
رحلة إلى الداخل... سبر أغوار للداخل.»

أخذت الآن تسير بخفة، وهي تنظر إلى الأمام.

«صحيح.» بادر.

شعر أن فمه قد جفّ قليلًا.

«كي نرى الأشياء بعين جديدة؟»

انتظر إقرارها، لكن وجهها بقي بلا تعبير عند الكلام:

«كما قلت، هناك كل تلك الأشياء التي تعود في الذاكرة، لكننا هنا نراها بطريقة
مختلفة، بعيون جديدة.»

لقد أسرت له لتوها باعتراف. هي تعرف لماذا يمشي، وهي تمشي للسبب نفسه. لقد جاءت بحثًا عن إجابات وتفسيرات، متعلقة بليون بالتأكيد. إنها ترجو العودة إليه بمنظور جديد. هذا ما أسرت به لتوها بشكل غير مباشر... هذا ما يظنه على أي حال...

استدارت نحوه ثانية وهي تتنفس بشكل متقطع بسبب الجهد. من جديد، نزلت قبعتها فوق جبينها، فلم ير سوى أسفل وجهها.

«هناك جملة أخرى أحبها كثيرًا.»

هز رأسه لتشجيعها على الاستمرار.

«أعظم مسافر هو مَنْ نجح لمرة واحدة في الإبحار داخل نفسه. إنها لكونفوشيوس.»

شاهد فمها يشرع في ابتسامة. يا إله السماء. لا بد أنها الثالثة خلال ثلاثة أيام! لأول مرة يظن أنه فهم سبب اقتان ليون التام بهذه الفتاة العجيبة، وأنه استشفه، لمسّه بطرف أصابعه، ولكنه لا يزال هشًا وسريع التطاير، لا يزال ضبايئًا. عدلت وضع قبعتها، وأضافت بها عده مكرًا:

«الاقتباس الأول يمكنك أن تجعله أول جملة في دفترك.»

لم يستطع منع نفسه من أن يتسهم لها بشيء من الحنان.

«أنت على حق. ستكون جملة أولى جميلة.»

كان المنظر الطبيعي مذهلًا، أخرج كلاً منهما من تأملاته. أشار إميل، وهو يمسك الدليل، إلى جوانا، نحو قمة جبل دو نيوفيل التي تُرى في البعيد، وممر سنكور، الذي سارا فيه قبل دقائق، وبحيرة أونسيه، إلى الأسفل، ذات اللون الأزرق الداكن. سرعان ما وصلوا إلى كوخ حجري كبير، مصاريع نوافذه بلون أحمر كستنائي، وسطحه غريب مقوس الحواف. تشير لافتة إلى (فندق دي لاكميه). توقف زوجان غير بعيد عنهما، وراح الرجل يشرح لشريكته:

«هذا كان ملجأً للعمال الذين ينقلون المواد ذهابًا وإيابًا، لبناء المرصد.»

«لكنه مهجور، أليس كذلك؟»

«بلى. منذ عام 2000. تم بناء التليفريك وهجر الناس هذا الطريق، وأُغلق

الملجأ. لكن هناك مشروعًا لإعادة تأهيله. يريدون ترميمه.»

«أوه!»

غادر الزوجان في هدوءٍ على وقع عصيّ المسير، التي تطرق الأرض. ضيقت جوانا عينيهما.

«هل نعود؟» سأل إميل.

«القمة الآن على بعد أربعمئة متر. سنكون هناك قريبًا.»

لكن جوانا لم تتحرك. تقدمت بضع خطواتٍ تجاه المبنى المهجور.

«كأن الباب مفتوح.»

لقد أثارت فضوله فتبعها، مضيقًا عينيه بدوره. كان الباب بالفعل قد فُتح قليلًا، ما سمح لأغصانٍ صغيرة حملها الهواء، بالدخول عبره.

«هل تعتقدن أنهم...»

لم يتح له أن ينهي جملة، فقد دفعت جوانا الباب الذي فُتح بسهولة. مدت رأسها من الفتحة، دخلت ولحق بها إميل. ما لاحظته أولًا، برودة المكان ورائحة العفونة الطفيفة والغبار. بعد ذلك بدأ يميز ما حوله في المحيط شبه المعتم. أمامهما طاولة المشروبات لا تزال فوقها قائمة بأسعار المثلجات. الجدران متداعية والأرض مغطاة بالركام. مع ذلك، لا بد أن المكان لا يزال يُشغل من وقتٍ لآخر من قبل متزهي مسير المسافات الطويلة، لأن هناك آثار أقدامٍ تقود إلى الحجرات الأخرى.

«هل نذهب ونرى؟» سألت جوانا هامة.

وافق. لطالما حلم بأن يجد نفسه في مبنى مهجور. يكاد يشعر في معدته، بالإثارة ممزوجة بالخشية، كما في طفولته. كان الركाम يُحدث صريرًا تحت أقدامهما. وضعت جوانا قدمًا على السلم الخشبي في آخر المكان الذي شكل في السابق مكتب استقبال.

«هل نبدأ بزيارة الأعلى؟»

صعدت درجة، ثم درجة أخرى. الخشب يثن ولكن ذلك لا يشكل تهديدًا كبيرًا.

«تلك هي حتمًا غرف النوم.»

تبعها على السلم، ووجدوا نفسيهما في ممرٍ طويل مظلم وخيف قليلًا. تصطف أبواب مغلقة على جانبي الممر. دفعت جوانا أحدها. هنا أيضًا تفوح رائحة العفن

والرطوبة. إنه مرقد مشترك سابق. لا تزال الهياكل الحديدية للأسرة موجودة وقد صدئت قليلاً. أحدها لا يزال فوقه فراش مصفر اللون. وعلى حافة إحدى النوافذ هناك وسادة نوم متروكة مع زجاجة نبيذ أحمر.

«أظن أنه لا يزال هناك من يأتي إلى هنا بين وقت وآخر...»

«صحيح.»

«يمكننا قضاء الليل هنا.»

لم تُبدِ جوانا حماسة للفكرة.

«عم، لا أدري.»

مرا بالحجرات الأخرى التي كانت جميعاً مهاجع متداعية. في أحدها حذاء رياضي قديم. الحشيات المتبقية تفوح بعفن الرطوبة. نزلاً من الطابق. في الأسفل، في الحجرة التي كانت سابقاً مطبخاً، هناك موقد غازٍ باقٍ على قيد الحياة، وكوة الفرن مفتوحة. هناك سخان على الغاز متروك على الصفائح. وطاولة لا تزال تحمل قِدرًا عتيقًا ومجموعة من شوّك الطعام. سرعان ما وجدا نفسيهما في البهو إلى جانب طاولة المشروبات. ظهرت على وجه جوانا تكشيرة أنفٍ.

«أفضل النوم في الهواء الطلق، تحت الخيمة.»

لا بد أن تكشيرة الأنف هذه هي العلامة التي تُظهرها عندما لا تكون متحمسة لأمر ما.

«لا مشكلة.»

في الخارج هاجمتها حرارة الشمس.

«هيا، وصلنا تقريبًا.»

استأنفا السير. القمة قريبة إلا أنه لا يبدو أنهما يقتربان منها. يوفر لهما مسار لاكمه إطلالة رائعة على السهل ومدينة تارب. توقف الدرب هنا. عليهما مواصلة الطريق بين الأحجار. من هذا الجانب، أصبح المرصد لا يُشاهد إلا بين حينٍ وآخر. تقاطع طريقهما مع سكة مصعد الشحن الذي كان يُستعمل في ذلك الوقت. وتعين عليهما العبور أحيانًا من فوقها. كان المنحدر قاسيًا حتى اضطرت جوانا للتوقف عدة مرات لالتقاط أنفاسها، ولكنها لم تشتك، ولم تقل شيئًا.

أخيرًا وطأت أقدامهما الساحة الخرسانية. بات المرصد بقبابه أمامهما. لم يكونا بمفردهما إطلاقًا، فقد كان المكان مزدحمًا. مئات المتنزهين، الجالسين على شرفات المطاعم أو الواقفين حول لوحات التوجيه مقابل السور، يصورون القمم. ولا يزال يأتي آخرون في جماعات، ينزلون من التلفريك. هناك لوحات تشير إلى المرصد الفلكي، والقباب، والمتحف، والفندق، ومحطة البث الإذاعي. شعر إميل ببعض الدوار من كل هذه الحركة، وكل هذا الحشد.

«أتريدين زيارة هذه الأشياء؟» سأل جوانا.

ارتاح لرؤيتها تهز رأسها بالنفي.

«لا. يمكننا الاستفادة من المنظر فقط.»

اقتربا من السور. أخرج إميل دليله كي يستطيع التعرف إلى مختلف القمم التي تمتد أمامهما. كانت تصل إلى أسماعهما من هنا وهناك، أجزاء من جملة:

«... المرصد الأكثر ارتفاعًا في أوروبا.»

«نحن على ارتفاع 2877 مترًا...»

«هناك... جبل بيردي.»

شردا في تأملاتهما. دارا حول المرصد للتمتع بكل جزء من هذا المشهد البانورامي. وعندما تعبوا جلسا على الأرض مباشرة في شرفة بأيو، مقابل قمة جبل نيوفيل.

«سيتعين علينا النزول... لا يمكننا قضاء الليل هنا... سوف يغلقون الشرفة.» مضى ما يقرب من الساعة على وصولهما إلى هناك. مالت الشمس إلى المغيب، وبدأ صراخ السياح يتشر أكثر فأكثر. سيتعين عليهما نصب خيمتهما لقضاء الليل. إلا أن كليهما لا يقوى على الوقوف.

«أتريدين أن أحمل حقبتك؟»

هزت جوانا رأسها بالنفي. استجمع إميل قواه ونهض بحركات بطيئة وتكشيرة ألم. كان كل جسده يتوجع.

«ألا ننزل إلى الأسفل قليلاً لأجل النوم؟» سألت جوانا وهي تراه يقف على قدميه.

«نعم... سنجد مكاناً مستويًا لنصب الخيمة.»
مد لها يده لمساعدتها على النهوض. تنهدت وأذعنت.
«مررنا بحطام ذلك الكوخ الحجري... هل تتذكر؟»
«نعم. عندما توقعنا كي نشرب؟»
أومأت بالإيجاب.

«سيكون ذلك مكاناً مناسباً للنوم ونصب الخيمة.»
«وسط الحطام؟»

«نعم... الموقع محمي من الرياح...»
فكَّر وحاول أن يتذكر المسافة التي قطعها بدءاً من تلك الأنقاض.
«إنها تبعد عن هنا أكثر من ساعة، بل ساعتين تقريباً.»
«آه.»

«يمكننا المحاولة إذا بقي لديك بعض القوة...»
ترددت. لقد كانت تلك الآثار الضائعة وسط الجبل، جميلة بالفعل...
«أتعرفين؟» قال بقدر مبالغت من الطاقة.

«سنقوم بذلك. سنتوقف لملء عبوات المياه في الفندق المهجور. سنأكل بعض المشمش المجفف الذي سيمدنا بالطاقة للوصول إلى أنقاض الكوخ.»
بدت سعيدة حتى لو لم تبتسم. كان ذلك يُرى من طريقة هز رأسها وخطاها الحثيثة.

وصلا بسرعة إلى فندق دي لاكميه. شاء الحظ أن شبكة المياه لا تزال تعمل، وسيتمكنان من ملء عبوات المياه. تناولا حبات المشمش المجفف على درجات الملجأ، دون جلوس، خوفاً من عدم التمكن من الوقوف ثانية.
ومع اقتراب النهار من نهايته، أخذوا يسرعان أكثر في السير. لم يعودا يصادفان أعداداً كبيرة من الناس. كان الوقت متأخراً حتى للمشائين المخضرمين. ثقلت الأطراف وسرحت النفوس بعيداً.

«ما الذي قالته لك؟»

كان وجه رينو قلقاً. اتصل به إميل في منتصف النهار، في أثناء العمل، كي يقول له:

«لورا ستركني.»

كان قد غادر عيادته الخاصة بمعالجة مشاكل النطق، بأسرع ما يستطيع، ليذهب إلى شقة إميل ولورا. فتح له إميل، بعينيه المحمرتين وهيئته الزائفة المرعوبة. سأله رينو:

«هل هي هنا؟»

هز إميل رأسه بالنفي.

«لا، ذهبت إلى بيت أمها.»

ما لم يكن رينو يعلمه، أن لورا قد رحلت منذ أسبوع، لكن إميل لم يمتلك الجرأة على إخبار أحد بذلك. اكتفى بالتكتم، في انتظار حدوث شيء ما.

«ما الذي قالته لك؟» أعاد رينو سؤاله عدة مرات قبل أن يتمكن إميل من الإجابة.

جلس كلاهما على مقعد غرفة المعيشة. لم يستطع إميل أن يجيب فوراً لأنه لم يشأ أن يذكر مسألة الطفل، تلك. لم يشأ الاعتراف لـ رينو بأنه تعامل بخفة مع المسألة، وأنه أفسد كل شيء بتجاهله لـ لورا ومطالباتها، وأنه تنبّه متأخراً، بعد أن شعر أنه بدأ يخسرهما. لم يشأ الاعتراف بأنه كان أسوأ الأوغاد.

«لا أفهم... كانت الأمور بينكما على ما يرام...»

كان رينو يحاول استخدام كلمات لطيفة. حاول إميل أن يصوغ جملة.

«قالت إن... إننا لم نعد على وفاق.»

وقطب رينو حاجبيه.

«لم تعودا على وفاق؟»

«نعم.»

«شعرت بوجود فجوة بينكما؟»

«أظن ذلك. قالت شيئاً حول أنني لم أطور خلال كل تلك السنين.»

ساد الصمت مجددًا. بدا رينو مرهقًا وكأنه يفكر ويبحث عن كلماته. تكلم في ببطء كأنه يخاطب طفلًا صغيرًا.

«هذا... هذا رهيب، ولكن... ولكنه يحدث كما تعلم... لقد تعارفتم في سن مبكرة. كنتم طالبين لا أكثر...»

«مثلك أنت وليتيسيا...»

تجاهل رينو جملة الأخيرة.

«في الثنائيات التي تتشكل في عمر مبكر، من الشائع أن يتطور كل طرف بطريقة مختلفة عن الآخر.»

قال إميل في إصرار:

«أنت وليتيسيا أيضًا، كنتم في مقبل العمر حين عرف أحدكما الآخر... مع ذلك لا تزال ليتيسيا معك، وتعيشان في سعادة.»

قال رينو في حزن:

«الأمر مختلف...»

انزعج إميل قليلًا:

«بماذا هو مختلف؟»

«إنه...»

عانى رينو بشدة كي يصوغ جملة:

«ليتيسيا... كيف أقولها لك... أكثر سهولة في الإرضاء... بمعنى أنها لا تحتاج إلى الكثير كي تكون سعيدة. هي مفعمة بالاستقرار والبساطة.»

قطب إميل حاجبيه.

«لا أفهم.»

«لطالما كانت لورا ذات طبع ناري، لا تستقر في مكان، ولديها هذا الجانب النزق. هي تحتاج دومًا إلى المزيد، تحتاج إلى التغيير، والتجديد.»

«و...؟»

«وما كانت لتكتفي بعلاقة هادئة ومستقرة مثل ليتيسيا.»

كان النقاش مؤلماً. بذل إميل جهده ليمحو عن وجهه علامات التأثر والضعف. كان رينو يبدو خائباً بالقدر نفسه.

«ما الذي تقصده؟ هل تقصد أنني ما كنت لأتمكن من إسعادها أبداً؟»
«لا... لست أنت المشكلة يا صاحبي. أنا متأكد أنك كنت كاملاً. سواء كانت معك أنت أو مع غيرك، أعتقد أن هذا سيحدث... إنها فتاة سريعة الملل، لا تحمل الثبات...»

ساد صمت ثقيل. ثم تكلم إميل بصوتٍ مرتجف، تظاهر رينو أنه لم يلاحظه:
«في فترة معينة أحببت الهدوء، وراقت لها حياتنا البسيطة في الشقة. كان ذلك مواتياً لها.»

«صحيح... في فترة معينة.»
أخذوا يحدقان إلى الصور التي يعرضها التلفزيون الذي تم كتمُ صوته. دعاية للحم خنزير.

«أتظن أنه لم يكن هناك مفر؟ أنها كانت سترحل حتماً في النهاية؟»
«لا أعرف...»

التفت رينو نحوه بتلك النظرة الممتلئة بالصدق والإعجاب.
«ما كان ممكناً لي أن أواعد هذا النوع من الفتيات. أما ليتيسيا، فأنا أشعر بالاطمئنان معها. في حين أن أمثال لورا مخيفات أكثر مما يجب. وما كنت أشعر بالقدرة على التعامل معهن.»
ابتلع إميل لعابه.

«صحيح...»
لم يجد ردّاً سوى ذلك.

أصبحت أنقاض الكوخ الحجري في متناول النظر. حثت جوانا خطاها حتى كادت تركض. ألقت بحقيبة ظهرها أمام الأحجار، وانحنى إلى الأمام وهي تسند يديها فوق ركبتيها كي تلتقط أنفاسها.

خيل إليه أنها لن يصلأ أبداً. كانت الشمس تغيب أمامهما في بطاء. لن يحل الليل قبل ساعة، لكن السماء بدأت تزدان بالبرتقالي والوردي، وتلونت أحجار حطام الكوخ بصبغة ذهبية. منظر جميل. بل يبهر الأنفاس. في البعيد، التمت الأبقار لقضاء الليل. كاد بعضها يستلقي تقريباً فوق الآخر، في مجموعات صغيرة متكومة فوق العشب.

جالت جوانا بين الأنقاض المتبقية من الكوخ. لم يعد هناك سطح. الجدران صامدة، ولكنها في بعض الأماكن متهاكة تماماً. الباب والنوافذ فتحات فائرة فقط. الأرضية المبنية بالباطون، والمستوية تماماً، ممتازة لوضع خيمتهما. اجتماعاً، بين الأنقاض، وسط ذلك الكوخ العتيق، تحت سقف السماء. يبدو وجه كل منها ممتلئاً بالافتتان.

«المكان جيد لنا، أليس كذلك؟»

أومات جوانا موافقةً. مرت بضع ثوانٍ. بقيا ينظران حولهما في صمتٍ مذهول، بلا سأم.

«يجدر بنا أن نُخرج الموقد...»

«نعم. سأهتم بإشعال النار.»

شعر إميل بأنه منهك ومتسخ، وبنهشه الجوع. مع ذلك لم يتبّه من قبل هذا الشعور بالامتلاء. كان الصمت تاماً. جمع بعض الأغصان الجافة، بعض الحصى الملساء، لإشعال نار المخيم. في البعيد رأى جوانا منهمكة فوق الموقد، الذي استقر فوقه استقراراً هشاً، قدّرهما الجديد تماماً. كانت قد نرعت قبعتهما، فتلّون شعرها البني بأشعة الشمس الأخيرة. بدا من هنا أصهب تقريباً. أصهب وردي.

كدّس الحصى والأغصان في قميصه الذي رفعه من طرفه، ثم عاد نحو الأنقاض بخطى بطيئة كيلا يسقط شيئاً.

النار تشتعل بسهولة أكبر من ذلك المساء بجانب جدول الماء بصحبة كلويه.

«ماذا تعدين لنا؟» سأل جوانا.

«معكرونة.»

وضع حجرين كبيرين مسطحين قرب النار، بمثابة مقعدين. جلست جوانا على أحدهما. وضعت رغيف الخبز على ركبتها وأخذت تقطعه، وقام هو بتقطيع الجبن.

بدأ بتناول الخبز والجبن دون أن ينتظرا نضج المعكرونة. راحا يأكلان في ببطء، دون كلام، وأنظارهما سارحة في المنظر. جفل إميل تقريباً عند سماع صوت القدر وهو يوضع أرضاً.

«المعكرونة جاهزة.»

تناولا الطعام في قصعتيهما البلاستيكيتين. غابت الشمس تمامًا، والتمعت النجوم في السماء. تركت جوانا قصعتها ونهضت لإحضار كيس نومها لتضعه أرضاً. حملت معها دفترها وأحد القلمين. جلست متربعةً وأدارت له ظهرها لأنها تفضل مواجهة الجبل. بدت شاردة في أفكارها، لكنها من وقتٍ لآخر كانت تميل برأسها إلى الأمام وتدوّن بضع كلماتٍ في دفترها.

نهض إميل بدوره لجلب كيس نومه من حقيبة ظهره الضخمة.

«ألا... ألا ننصب الخيمة؟»

التفتت جوانا وهزت كتفها.

«يمكننا النوم في العراء تحت النجوم. لا غيوم في السماء.»

«نعم.»

استلقى على كيس نومه مقاطعاً ذراعيه خلف رأسه، وناظرًا إلى النجوم. كانت النار تفرقع ويتتابه شعور بالنعاس. راح يستعيد أحداث هذا النهار الذي كأنها بدأ قبل آلاف السنين. متجر الأدوات الرياضية، الدفتران، إعداد حقيبتَي الظهر، صعود الجبل، المبنى الذي كان مأوى في السابق، قباب المرصد.

راح يفكر من جديد في الذكريات التي صعدت اليوم إلى سطح ذاكرته، بالجمل التي اقتبستها جوانا. فكر مجددًا في آخر ذكرى استعادها من نقاشه مع رينو وهما جالسان على المقعد، والتلفزيون يمرر الصور دون صوت. لا يعلم ما الذي جعل الصديق المقرب يحاول مواساة صديقه الذي تعرّض للهجران. كلمات لطيفة نردها جميعًا في لحظاتٍ من هذا النوع، مثل: هذا يحدث... أو لست أنت المشكلة يا صاحبي. أنا متأكد أنك كنت كاملاً.

استمع ذلك المساء إلى رينو، ولكن بنصف أذن، دون أن يفهم حقاً كل ما تنطوي عليه كلماته. لطالما كانت لورا هكذا، ذات طبع ناري، لا تستقر في مكان لقد اعتقد أن هذا كلام لطيف فقط، محاولة من رينو لتحريره من مسؤوليته الجزئية عن الانفصال، للتخفيف قليلاً من معاناته. ليتيسيا... كيف أقولها لك... أكثر سهولة في الإرضاء... بمعنى أنها لا تحتاج إلى الكثير كي تكون سعيدة.

كان رينو محقاً بالطبع. كانت لورا نزقة، تملّ سريعاً ومن كل شيء. كانت إعصاراً على الدوام. في أثناء دراستها كانت تخرج كثيراً، تبتلع أفكاراً لمغامرات. وبعد إنهاء دراستها، كرست نفسها جسداً وروحاً لعملها الذي فتنت به لبضعة أشهر لا أكثر. ثم فكرت أن عليها الانتقال للعيش معاً، وسبقته في فكرة البحث عن شقة واختيار ديكوراتها، وترتيبها. عندها بدأت تلك المرحلة التي توقفت فيها عن الخروج، متخليّة عن حياتها الاجتماعية، كي تركز نفسها بالكامل لحياتها كثنائي. تلك الفترة هي التي ظن خلالها أنه حصل عليها نهائياً. كانت تقلق إذا تأخر في العودة، وتتجهّم عند خروجه مع أصدقائه، وتطالب دومًا باحتضانها. ثم... ثم خفّ ذلك قليلاً. حملت صديقتها وبدأت تكلمه عن الأطفال. هي تحتاج دومًا إلى المزيد، تحتاج إلى التغيير، والتجديد.

هل كان رينو على حق فوق ما يتخيل؟

كان يجهل كل شيء عن الطفل، تلك الفكرة الثابتة والمفاجئة التي استحوذت على جسد لورا وروحها، وظنها إميل نزوة. ثم رحلت وألقى اللوم على نفسه. اتهم نفسه بموت قصتهما... لكنه لم يفهم أن لورا هي هكذا، نزقة، مثلها وصفها رينو. تحتاج دومًا إلى التغيير. وماذا لو كان مخطئاً؟

ماذا لو أن ما رآه في البداية، كان صحيحاً؟

ماذا لو لم يكن الطفل في الواقع أكثر من نزوة؟

موضة عابرة لإحداث تغيير في حياتها. سواء كانت معك أنت أو مع غيرك، أعتقد أن هذا سيحدث... إنها فتاة سريعة الملل، لا تحتل الثبات... في أحد الأيام، خلال أمسية تناولا فيها وجبات خفيفة، طرح الموضوع، وتهرب هو منه. لقد كان غيباً وغير ناضج، لم يكن مستعداً على الفور للخوض فيه بجدية، ولكنها هي

أيضًا أخطأت. لم يكن يكتفي بلا شيء. لم يكن يشعر أن حياتهما المشتركة، لحظاتها وأصدقاهما، لا شيء... هي من اعتقدت أنها لا شيء.

كان لا يزال مستلقيًا على كيس نومه، موجهًا نظريه إلى النجوم، وشعر أن شيئًا ما قد تحرر بداخله، أن كتفيه أقل ثقلًا وأن قلبه ينبض بشكلٍ أسرع، وكأنه تخفف لتوه من حملٍ كان يضيق عليه منذ عام.

كانت جوانا على حق منذ قليل. هناك كل تلك الأشياء التي تعود في الذاكرة، لكننا هنا نراها بطريقةٍ مختلفة، بعيونٍ جديدة.

هو ليس مسؤولًا عن كل الشرور. لم يكن بمفرده سببًا للانفصال، حين أجل تلك الرغبة في الإنجاب بضعة أشهر. لقد فعل ما في وسعه. حاول إرضاءها، ونجح ذلك لبعض الوقت، لكن ليس إلى الأبد. كانت لورا متعذرة الإرضاء. ولم يعرف ما الهدف الذي تسعى إليه، وهل وجدته اليوم بين ذراعي شخصٍ آخر، أم في أعماق نفسها. يعتقد أن عليها أن تبحث في أعماق نفسها.

أخذ نفسًا عميقًا. راح صدره يعلو وينخفض في انتظام، مستنشقا الهواء بسرعة كما لو أنه حُرِم منه منذ زمنٍ طويل. كم هو شعور جيد أن نتنفس أخيرًا.

لقد حالفه الحظ أخيرًا. أخذت لورا قرارًا حكيماً في استمرارها بتناول حبوب منع الحمل، عندما أدركت أن عليها أن ترحل وتتركه، بدلًا من أن تنتظر منه شيئًا كان يجدر بها أن تنتظره من نفسها. حالفهما الحظ. حالفه الحظ لوجوده هنا هذا المساء، وسط أنقاض كوخٍ حجري. وحالفه الحظ لقيامه بهذه الرحلة. حالفه الحظ بطريقةٍ ما لمعرفة أنه سيموت قريبًا جدًا. لأنه دون ذلك ما كان ليأخذ وقتًا للرحيل، للسفر إلى أعماق نفسه، ورؤية الأشياء بعينٍ جديدة.

لم يسبق أن شعر بذلك، بهذا الامتلاء وهذا الامتنان إزاء الكون. نعم سيموت ولكنه هنا هذا المساء، وقد فهم أمورًا كثيرة. ليس متأكدًا حقًا من ذلك، لكن لديه إحساسًا بأنه سامح نفسه للتو.

«جوانا...»

همس. كان صوته بالكاد أعلى من فرقعة النار، لأنه خشي أن يجعلها تجفل، فقد كانت تبدو مستغرقة جدًا في دفترها، حتى أنها لم تسمعه وهو ينهض ويتجه نحو حقيبة ظهره.

«جوانا.»

تكلم بصوت أعلى. التفتت في هدوء.

«ماذا هناك؟»

كانت النار تتراقص على وجهها وفي شعرها، ما جعلها تبدو مجنونة قليلًا. «سأبدأ بكتابة تأملاتي أنا أيضًا.»

أخذت وقتها في النظر إليه وهو يجلس متربعا والدفتري فوق ركبتيه. عبر وجهها ظل ابتسامة. بدت مختلفة بلا قبعتها التي كانت تلقي ظلها عليها. بدت أكثر إشراقًا.

«أوه... خبر جيد.»

تنحى، وقد انتابه إحساس بأنه عندما يفتح فمه، يتكلم مثل طفل:

«لم أعد أتذكر الجملة التي اقتبستها... عن السفر... وعن النظر بعيون جديدة.»
«تريد وضعها في أول دفترك؟»

بدت غير مصدقة، ما جعلها، هي أيضًا، تبدو مثل طفلة صغيرة.

«سأضعها على الغلاف، بمثابة عنوان.»

هزت رأسها.

«فكرة جيدة.»

نهضت في ببطء، أغلقت دفترها وأتت للجلوس بجانبه.

«أي عبارة تريد؟»

«هل يمكنك أن تسمعيني كلاً منهما مجددًا؟»

«طبعًا.»

لم يعد يذكر على أيهما وقع تفضيله بعد ظهيرة ذلك اليوم، لكنه، هذا المساء، بالقرب من النار، وأسفل كومة الأنقاض، كانت العبارة الثانية هي التي تلامسه

أكثر. راحت جوانا تعيدها في بطء كي يدونها بكاملها. كان يحاول الكتابة بحروف جميلة.

«أعظم مسافر هو مَنْ نجح لمرة واحدة في الإبحار داخل نفسه.»

رفع قلمه عن الدفتر وابتعدت جوانا.

«شكراً.»

عادت للجلوس على حدة. لكنها هذه المرة بدلاً من أن تكتب، رفعت وجهها نحو السماء ولاذت بالصمت. تساءل عما تفعله، ولماذا تنظر كل هذا الوقت إلى السماء؟

هل تحاول تمييز النجوم؟

هل تتكلم معها؟

12 تموز (يوليو)، الساعة 10 ليلاً

على طريق مولتييه (قمة جبل دو ميدي)، قرب أنقاض كوخ حجري.

ليلة صافية، سماء مرصعة بالنجوم.

أنا في الصفحة الأولى من دفتر اليوميات هذا (جوانا هي صاحبة الفكرة...). لست متحمساً جداً بالضرورة للفكرة، ولكنني سأجربها مع ذلك، وإن بدت لي موضحة خاصة بالفتيات. لماذا يملن دوماً إلى كتابة يومياتهن؟

حسناً، عليّ الاعتراف بأنها، في حالتي، فكرة بارعة. أداة مساعدة للذاكرة، وستكون أيضاً بمثابة دفتر رسائل. المكان الذي سنذهب إليه لن تتوفر فيه دوماً إمكانية إيداع الرسائل في البريد. لذلك سأبدأ.

اليوم مضى على رحيلي خمسة أيام. أسبوع بالكاد. إلا أنني أشعر أنه دهر. الأيام الأربعة الماضية تبدو لي فارغة، كأنها فترة اهتزاز في انتظار البداية الحقيقية للرحلة. لكننا اليوم وصلنا إلى تلك البداية. أوقفنا عربة التخميم، حملنا حقيبتي الظهر وانطلقنا. بدأنا بشكلٍ جدي.

اليوم كان صعبًا. ليس لأننا مشينا كثيرًا فقط. بل بالدرجة الأولى لأنني فكرت كثيرًا. حدث معي شيء جنوني هذا المساء، شيء لم يحدث لي من قبل: غفرتُ لنفسي بخصوص لورا. كان ذلك أشبه بخلاص صغير. تبين لي أننا نادرًا ما نتسامح مع أنفسنا. فقدتُ عادةً القيام بذلك. لقد نسيتُ في الحقيقة أنه يمكنني أن أحب نفسي. جعلني هذا أفكر في لائحة الأسباب التي ذكرتها في الرسالة الموجهة إلى أحبائي، بخصوص رحيلي. وفيها ثلاثة تسوغ هذا السفر. أستطيع اليوم إضافة سبب رابع، لم أكن مدركًا له بالضرورة، لكنه سبب بذاته. تقييم الوضع. تقييم الوضع المتعلق بحياتي كي أستعد بشكل أفضل للرحيل.

يقال أحيانًا إن المحتضرين يرون حياتهم تمر تباغًا أمام أعينهم في لحظة الرحيل الأكبر، وأنهم يحيون مجددًا أكثر لحظاتها وقعًا. لا أعرف إن كان هذا صحيحًا أم لا، ولكنني أعتقد أننا جميعًا في حاجة إلى أن نلقي نظرة أخرى على الصورة قبل الرحيل، أن نرى الأحداث بعيون جديدة وأكثر حكمة، بعد فوات الأوان، في حاجة إلى أن نفهم، أن نسامح الآخرين، ونسامح أنفسنا. ما زلت في بداية المشوار والطريق طويل. أتمنى أن أنجح في ذلك، وأجد خلاصة حياتي، وأرحل في سلام. أنا واثق بأن جوانا ستعشق هذه العبارة (أجد خلاصة حياتي)، فهي تحب الاقتباسات جدًّا. أساسًا، العبارة المقتبسة المدونة على غلاف الدفتر، هي منها.

نحن في اليوم الخامس إذًا، في اليوم الخامس وأشعر منذ الآن أنني تغيرت، وأنني أرى الأشياء بطريقة مختلفة. تتأبني أحاسيس جديدة: الامتلاء، الامتنان، نوع من السلام الداخلي. ربما يثير وجود جوانا أعصابي. وربما يساعدني أن أتغير. ربما أسير في هذا الطريق بمفردي. في الأحوال كافة، أنا سعيد هذا المساء. السماء سوداء وزرقاء جميلة، النجوم تلمع، النار تتألق، وأشعر أنني في أحسن حال.

لم يكن إميل يسمع نفسه وهو يصدر إشارات اختناق. كان خوفه أكبر من أن يمكنه من سماع شيء. فتح عينيه لتوه، وقد أخرجته ضوء النهار من النوم. رأى العشب والأحجار وكيس نوم على الأرض، وبقايا نار المخيم. إنه بكامل ثيابه، ولا يفهم ما الذي يفعله هنا، وكيف وصل إلى هذا المكان. حاول أن يتحرى رأسه لتقييم إذا ما شرب ليلة أمس حتى أنه خرج إلى مكان لا يعرفه في الطبيعة... لكنه لا يعاني من صداع نصفي، ولا يشعر بالغثيان. ما الذي يفعله هنا بحق الجحيم؟ لا شيء في جيوبه، لا حافظة، لا هاتف. حاول أن يبقى هادئاً، أن يتنفس. لكن من المرعب وجوده هناك، وحيداً، في مكان مجهول، ودون هاتف للاتصال بأي شخص. ماذا فعل؟

هل جرى تخديره؟

لماذا هو بمفرده؟

لماذا رينو ليس في الأنحاء؟

إذا فعل شيئاً جنونياً، يجب أن يكون رينو هنا بالضرورة. يجب أن يظهر بشعره الأشعث وعينه المتفتحتين، وهيئته المذهولة. يجب أن يقول: «ما الذي فعلناه يا صاحبي؟»

ما الذي جعلتني أتناوله؟

جلس، وحاول أن يبقى هادئاً. كانت ساقاه وقدماه تؤلمه. يا إلهي! ما الذي فعله؟

ازداد رعبه عندما لمح قامة مستلقية قرب النار، على بعد خطوات منه. إنها فتاة نائمة لا يرى وجهها، بل يرى فقط شعرها البني الفاتح المتشابك والمتناثر حولها. من تكون هذه الفتاة؟

تحقق من أنه يرتدي ثيابه. ومع ذلك... هل ضاعبها؟

من أين أنت؟

لماذا ضائع هذه الفتاة ثم سمح بأن يؤخذ إلى الجبل؟
كبرت الغصة في حلقه، وشعر أنه يحتنق. وماذا عن لورا؟
ماذا فعل؟

أين لورا؟

هل رآته يغادر مع هذه الفتاة؟

كيف سيشرح لها ذلك؟

في تلك اللحظة، بدأ يشعر بالاختناق، دون أن يسمع شهقاته. لن تغفر له
أبدًا. ثم شعر وكأن دلوًا من الماء المثلج قد انسكب فوق رأسه لأنه اكتشف اكتشافًا
فاقعًا: لقد انفصل عن لورا. رحلت لورا. لم نعد على وفاق. الطفل يارب السماء،
لقد جنَّ تمامًا! كيف نسي ذلك؟

هل الحبوب هي التي جعلته يهلوس هكذا؟

رفعت الفتاة المستلقية على بعد خطواتٍ منه، رأسها، مستندةً إلى مرفقها.
أيقظتها شهقاته، وبدأت قلقة. إنه لا يعرف وجهها، أو أنه يعرفه معرفة ضبابية.
حاول الإمساك بخيط ذكرياته. لقد رآها سابقًا.

«إميل... هل أنت بخير؟»

كان صوتها خافتًا ومتوترًا. حاول الإجابة لكنه كان فقط يعب الهواء بفمه
المفتوح.

«إميل.»

نهضت.

«إميل...»

جوانا. إنها جوانا! اقتربت، وجثت بقربه. حاول إعادة تجميع الصورة. وبدأت
تكتمل على شكل ومضاتٍ قاسية. المرض، الحكم النهائي، الإعلان الصغير،
الرحيل. عاد إليه كل شيء حتى ضاقت أنفاسه. تلاشى إحساس أمس بالامتلاء.
واعتراه القلق بكامله.

«هل أنت بخير؟ هل تعاني من نوبة ربو؟»

لقد لاحظ الآن فقط أنه يتنفس بصعوبة شديدة، وأنه لم يعد قادرًا على ابتلاع الهواء، وأن لديه خفقانًا في صدره، وارتعاشًا في يديه. بدا كأنه يختنق. إلا أن ذلك لم يكن نوبة ربو. كانت فقط نوبة قلق. هز رأسه نافيًا. حاول أن يتكلم، بشكلٍ متقطع:

«لا بأس... لم يحدث شيء ذو أهمية...»

كانت جوانا قلقة. وضعت يدها فوق كتفه، ولم تبعد عينها عنه.

«هل... هل يؤلمك شيء؟»

انتظر أن يصبح تنفسه أكثر انتظامًا قبل أن يجيب في نفسٍ واحد:

«لا... لم أعرف أين أنا، فقط...»

مرت غلالة أقوى من القلق فوق وجه جوانا. وكان يتألم لرؤيتها هكذا.

«هل هي الذاكرة؟»

«نعم.»

«هل هذا بسبب... المرض؟»

«نعم.»

حاول استعادة أنفاسه. تباطأت سرعة نبض قلبه، وبدت له الأمور أقل إثارة للخوف. عاد كل شيء إلى حاله، واكتملت الصورة. تذكر مسير أمس، والسهرة، والدفتر.

«هل حدث لك ذلك سابقًا؟»

«ليس بهذا الشكل.»

لم تفارقها هيئة القلق، بقي حاجباها مقطبين، وشفثاها مشدودتين.

«سابقًا... كنت أنسى أشياء يومية صغيرة، ولكن لم يكن هناك ما يدعو للقلق.»

«والآن... كيف... ما الذي حدث؟»

«انفصال تام.»

حاولت طمأنته.

«ولكنها لحظة الاستيقاظ. حين ننام في أماكن مختلفة، نجد صعوبة في تذكر

أين نحن.»

هز رأسه في حزم.
«لا. كان الأمر مختلفًا. لم يكن... لم يكن خلطًا فقط. ولم يكن لشواني فقط.»
«أوه؟»

انتظمت أنفاسه في بطء، واستعاد إيقاع نبض قلبه العادي.
«لا... ظننت نفسي قبل عام أو عامين. ولم تكن المسألة خلطًا فقط، بل كنت مقتنعًا بأنني أعيش قبل عام...»

هزت جوانا رأسها.
«ربما يكون الارتفاع.» أعلنت في نعومة.
«لا.» قال في حزم.

نظرت جوانا إلى الأسفل.
«لا، أنت على حق.»

هي أيضًا ليس من عاداتها أن تخفي الحقيقة. حتى أنها أضافت:
«هذا ما يُحسَى من وقوعه بشكلٍ متزايد، ومن وقوعه كل يومٍ في وقتٍ لاحق.»
أوما برأسه.

«أنا آسف. قد يخيفك ذلك...»

نظر إليها متحرّيًا، لكنها اتخذت فجأةً هيئة غير مبالية. اختفت هيئة القلق التي ظهرت قبل قليل.

«كنت أعرف ما يمكن توقعه عندما استجبتُ لإعلانك.»
«ممتاز.»

هذه الكلمات الأخيرة أعادت وضع مسافةٍ بينهما، جدار تمكّنا من تفتيته قليلًا في اليومين الأخيرين. استقامت جوانا، وأضافت:
«المسألة هي... إذا كان هناك شيء أستطيع فعله عندما... عندما يحدث لك ذلك...»

هز كتفيه. لم يتبه إلى أنه هو أيضًا يُظهر الآن لا مبالاة تامة.
«لا أعرف...»
«فكّر في الأمر.»

«حسنًا.»

«هذا ربما يساعد.»

«سأفكر في ذلك.»

نهض بدوره واتجه نحو الموقد بخطى بطيئة. لقد طلع النهار. لا بد أن الساعة هي السادسة أو السابعة.

«سوف... سوف أعد الشاي. هل تريد فنجانًا منه؟»

«نعم. بكل سرور. شكرًا.»

هذا الصباح حاول التركيز على المسار الذي سيسلكه، المسار فقط، لأنه لا يريد التفكير مجددًا في ذلك الاستيقاظ ونوبة القلق التي تلت. نزل من قمة دو ميدي عبر سفح آخر، عبر مسار سنكور، ثم عبر قمم تورماليه. كان الجو هادئًا في أول الصباح. لم يصادف أحدًا تقريبًا. وقليلًا ما توقفا، ولم يتبادلا الكلام. لا بد أن جوانا كانت سارحة في أفكارها بينما حاول هو منع نفسه من التفكير خوفًا من أن يبتلعها القلق مرة أخرى بالكامل. من جبل دو ميدي عليهما النزول إلى باريج. وأمامهما ما يزيد قليلًا عن ثلاثة عشر كيلومترًا، و1600 متر من التضاريس المتباينة، لقطعها، ولكنهما لن يصعدا اليوم. هذا أسهل. توقفا لبضع دقائق لمشاهدة بحيرة أونسيه، الوقت اللازم لشرب جرعات من الماء، ثم استأنفا النزول. كان قسم كبير من أول الجولة، محاذيًا لجدول مياه أونسيه، ما ساعدهما على تحمّل الحرارة بشكل أفضل. عندما ابتعد المسار عن جدول المياه، أصابتها الشمس والجوع بالإرهاق، وقررا التوقف. وجدا بقعة معشبة في ظل الأشجار. أخرجت جوانا الموقد. ومضى إميل لإحضار قطعة كبيرة من الخشب استخدمها كمقعد.

تناولا وجبة من الأرز، وأضاف إليه إميل قطعة نقائق، مع تبادل ملاحظاتها حول الجزء الماضي من الطريق، والجزء المقبل، وحول مخزون الماء الضئيل الباقي معها. ثم اتفقا على أخذ قيلولة قصيرة قبل الانطلاق مجددًا.

عندما استفاقا لاحقًا، استأنفا السير مع البحث في نشاطٍ عن مصدرٍ للمياه. فاتهما شراء فلتر أو حبوب لتنقية مياه الجداول. هذا ما سهت كلويه عن إخبارهما به. اضطرا الآن للبحث بصبرٍ نافذ عن مصدر مياهٍ صالحة للشرب. يشير دليل إميل إلى نافورة على بعد بضعة كيلومترات، عند تقاطع مسارهما مع نهر موسكير. باتت جوانا تجد مشقة في مجارة إميل، وتحاول قدر استطاعتها ألا تتخلف أكثر من عشرين مترًا تقريبًا عن إميل.

«هل أنت واثقة أنك لا تريد أن أحمل لك حقينتك؟»

«إنه العطش لا أكثر...»

«يمكنني حملها. سيساعدك ذلك.»

أصرت على الرفض. عند التقاطع مع نهر موسكير، لم يستطيعا المقاومة، ونزلا في الماء، دون قلقٍ بشأن حذاء المسير وملابسهما. وتقدما في الماء حتى مستوى الأفخاذ، ثم بقيا هكذا بلا حراك، مغمضي العينين.

«هل أنت متأكد أننا لا نستطيع شرب هذا الماء؟»

«الامر مخوف بالمخاطر...»

«وكم تبعد نقطة مياه الشرب؟»

منذ بداية نزولهما لم يصادفا أي قرية ولا أي بيت. وهذه المرة وجدا نفسيهما في وسط البرية، بلا مُعين. تحقق إميل من دليله.

«يقولون كيلومترين اثنين.»

رأى التعب على وجهها. جلست فوق صخرة كبيرة بارزة فوق الماء، وبدا عليها الإنهاك.

«امنحني بضع ثوانٍ قبل معاودة السير.»

«طبعًا. هل أنت بخير؟»

شعر بالقلق لأنها وضعت يدها فوق جبينها.

«أشعر بدوار.»

«هل هذا بسبب الحر؟»

«بسبب الجفاف.»

«ابقي هنا إذا. سأذهب للماء عبوتي بمفردي.»

لكن جوانا أصرت على موقفها كعادتها.

«لا... أحتاج فقط إلى بضع ثوانٍ»

رفض الإذعان لها. لا يريد أن تصاب بوعكة.

«ابقي عند النهر وارتاحي. أتعلمين؟ ستُبقين حقيقتي الظهر معك. ستكون

حركتي أسرع دونها.»

شعر بتردها. هل السبب أنها لا تحب أن تجد نفسها أضعف من أن تستمر أم

أنها تخشى من أن يتعرض في الطريق إلى خلل في الذاكرة؟

«سأضع حقيبة ظهري تحت الشجرة، اتفقنا؟ سأعود خلال أقل من ساعة.»

رضخت في النهاية.

«حسنًا.»

لم يشأ أن يخبرها بأنه هو أيضًا بدأ يشعر بالضعف حقًا. بات فمه جافًا، ولسانه

خشنًا، وفي وقتٍ سابق، عندما أراد قضاء حاجة خلف شجرة، كان بوله بنيًا على

نحوٍ غريب. يجب أن يعثرا على الماء، وإلا فلن يصلا إلى باريج أبدًا.

اليوم يوم غريب، مختلف عن سابقه. فبدلاً من التأمل والافتتان، حل الإنهاك

الجسدي المفرط والمعاناة. الغلطة التي ارتكبها بدخول الماء في حذائه، بدأ يدفع

ثمنًا باهظًا لها. بدأت الدمامل في قدمه تنفتح، الواحد تلو الآخر، ويتزعزع منه لحمه

الذي أصبح عاريًا من الجلد، صرخات الألم. كانت الحرارة لا تُطاق، وأغرته نفسه

مرات بالتوقف لحظات في ظل شجرة وأخذ قسطًا من النوم. ولكن هناك جوانا

التي تنتظر، والتي تعاني من دوّارٍ، وعليه ألا يتباطأ.

ما يعيشه كان كابوسًا مختلفًا تمامًا عن كابوس هذا الصباح. لا خلل ذاكرة، ولا

قلق خائف، بل بداية ذعرٍ وإنهاكٍ تام. لا يوجد منهل مياه. لقد اتبع المسار، ووصل

إلى البقعة المشار إليها ولم يجد شيئًا. ظن أنه ضلّ الطريق عند المنعطف، فعاد إلى

الخلف، وسلك الطريق الآخر قاطعًا أكثر من كيلومترين فيه دون أن يجد شيئًا.

أخذ يتساءل عما إن كان سيموت حيث هو أم لا. بدأ يعاني من دوخةٍ ومضاتٍ

بيضاء. وصل به التوتر والعصبية إلى درجة أن أنفاسه أصبحت على شكل اهتزازاتٍ

متقطعة. استأنف المسار المعاكس للالتحاق بجوانا. حين تعثر أول مرة، عد الأمر خرقاً، لكنه عندما تعثر مرة ثانية ثم ثالثة، أدرك أنه بدأ يدوخ. عندما تقاطع الطريق مجدداً مع نهر موسكير، ألقى بنفسه فوق الحصى على أطرافه الأربعة، وأخذ يشرب جرعات طويلة من سطح الماء مباشرة، تمامًا مثل حيوان، لا يأبه أن يصاب بالأميبا أو أي جرثوم آخر. لم يدرك في حياته كم هو لذيذ شرب الماء.

وجد جوانا حيث تركها، فوق الصخرة نفسها. وقف على الضفة مهموماً مرهقاً.

«ظننتُ أنك ضعت.» قالت.

«مضت ساعتان تقريباً.»

لم يجرؤ حتى على النظر في عينيها وهو يعلن:

«لم أجد ماء. المنهل المشار إليه غير موجود. ذهبت في الاتجاه المعاكس، وسلكت طريقاً آخر، ولم يكن هناك ماء في أي مكان.» هزت كتفيها.

«شربت من النهر، يا إميل.»

اعترفت بذلك مثل فتاة صغيرة ارتكبت حماقة، وقد تهدل كتفها وانطبعت في صوتها نبرة الأسف.

«لم أستطع منع نفسي من ذلك.»

«أنا أيضاً شربت من ماء النهر.» قال.

«أوه!»

ارتسمت نصف ابتسامة على وجهها وهي تقول:

«لسنا شديدي التعقل...»

«صحيح. لو أنك رأيتني... على أربع في النهر... كنت ألعق الماء مثل كلب.»

أصدرت جوانا صوتاً غريباً، حازوقة تشبه ضحكة. كانت ضحكة مكتومة تجدد صعوبة في اجتياز الشفتين. يبدو أنها لا تضحك كثيراً. إنها المرة الأولى التي يسمعها

فيها. يفكر في أن هذه الضحكة هي بالتأكيد ناجمة عن التعب الجسدي والعصبي، لكنه يجب أن يسمعها تضحك. حتى أنه أخذ يقهقه معها.
«لن نضحك هكذا هذه الليلة عندما نواجه الإسهال.»
«هذا لا يخيفني.»

«جيد. ولا يخيفني أنا أيضًا. مع ذلك يمكننا اتباع حمية الأرز على سبيل الاحتياط.»

«نعم... هذا قد يساعد.»

مرت بضع ثوانٍ ثم نهضت جوانا بصعوبة.

«علينا أن نستأنف السير، أليس كذلك؟»

«بلى. الآن أصبحنا قريبين جدًا.»

بعد بضعة أمتار، وصلا إلى الطريق وإلى ما يشبه المدينة. هناك في الأقل بضع سيارات. بدأ النهار ينحدر إلى نهايته في ببطء. كان يجب أن يصلا قبل ثلاث ساعات، لكن قصة منهل الماء كلفتها وقتًا.
«هأنذا أرى أسطحًا.» أشارت جوانا.

كانت قرية باريج هناك في البعيد. صادفًا لافته أكدت لهما ذلك. بقيا يطويان الأمتار في صمت.

«أكاد أموت جوعًا.»

«أنا أيضًا.»

أخيرًا، ها هو المبنى الأول، إدارة تورماليه المشتركة، وهو مبنى بسيط، نصفه حجري ونصفه الآخر من اللبن، ويجاور محطة التلفريك. وهو في الشتاء منتجع للتزلج يجد إقبالًا شديدًا، وكان مهجورًا هذا المساء. هناك مرأب فسيح فيه بضع شاحنات وعربات تخميم، دون أثر لحضور بشري في المحيط.
«سيتعين مواصلة السير قليلًا قبل الوصول إلى المركز...»

هناك لحسن الحظ شاليهات على بعد أمتار قليلة:

مدرسة التزلج الفرنسية، مطعم - بار، ومراحيض عمومية. كان الباب مفتوحًا. اغتنموا الفرصة ملء زجاجتيهما بالماء.

«يفترض أننا لم نعد بعيدين جدًا».

بعد بضعة أمتارٍ أخرى، مرا أمام شاليه آخر، نموذجي أكثر، مبني بالكامل من الحجر، يقود إليه ممر صغير من الحجر أيضًا. هناك لافتة كُتِب عليها (مطعم كوكيل). كان أناس يتناولون العشاء على شرفته. أسرعا الخطى. بدأ الليل يحل. سلكا طريق الإدارة. ظهرت شاليهات عند أحد المنعطفات، ثم وجدا نفسيهما من جديد مقطوعين عن الحضارة عند مرور الطريق عبر غابة صنوبر. بدا كأنهما لن يصلا أبدًا.

أضاءت النجوم السماء. أشارت لهما لافتةٌ بأنها دخلا في مدينة باريج. الشاليهات هناك متقاربة أكثر فأكثر، ويزداد عددها أكثر فأكثر. المدينة لا تشبه أرتيغ في شيء. إنها مدينة حقيقية، وليست قرية صغيرة ضائعة وسط الجبل. كان واضحًا على الفور أنها بنيت لاستقبال السياح القادمين للترليج. الشاليهات تتكون من أبنية كبيرة لها عدة طوابق. وكان هناك محال تجارية عديدة، ومصرف، وكشك للصحف. أخذوا يصادفان بعض البشر، مشاة، وسيارات. علت أصوات من شرفة البار.

«هل نبحث عن مكانٍ هادئ لنصب الخيمة؟»

«نعم».

اتضح أن الأمر أصعب مما كان متوقعًا. شوارع معبّدة تلو شوارع معبّدة أخرى. سائحون في كل مكان. البارات ممتلئة بالكامل. من الواضح أن المنتجع تمكن من البقاء بفضل السياحة في الصيف أيضًا. لم تكن جوانا تشتكي قط. ولا بد أنها قد استنفدت قواها هذا المساء، لأنها أعلنت:

«لم أعد أقوى على التحمل».

كانت الساعة هي العاشرة ليلاً، وكانا يسيران منذ هذا الصباح. شعر إميل أيضًا أنه على وشك الانهيار.

«انظري، نصعد المنحدر من هنا...»

خلف مرأب سيارات، وعلى طول شارع باريج الرئيسي، هناك منحدر من العشب يؤدي إلى دربٍ على أطراف غابة. باتا مستعدين للقبول بأي شيء. حمل إميل حقيبة جوانا كي تتمكن من صعود المنحدر. تسلفا الحاجز الخشبي الذي

يحدد المسار المخصص للمشاة، ثم اجتازاه للدخول إلى تخوم الغابة. سيكون المكان ممتازًا هناك، بعيدًا عن الضجيج، عن السياح، وعن الأنظار.
ارتمت جوانا أرضًا، وباشرت بإخراج الموقد من حقيبتها بحركاتٍ منهكة.
«سأتكفل بنصب الخيمة.» أعلن إميل.

لا يدري من أين استمدا قواهما الأخيرة، كيف تمكنا من نصب الخيمة، وإعداد طبق معكرونة بصلصة الطماطم؟!

عندما جلسا ووضع كلُّ منهما طبقه فوق ركبتيه، أدركا أخيرًا حجم الإنهاك الذي أصابهما. صدرت عنهما التنهيدة نفسها من الوهن. نظر إميل إلى جوانا وهي تأكل. لم يسبق أن أكلت بهذه الشراهة. كانت تُدخل اللقمة في فمها بنهم، تلعق أصابعها. لقد كانت اليوم شجاعة. استنفدت قواها الجسدية لكنها لم تشتك. راح يفكر بأنه ما كان يستطيع أخذ لورا معه في رحلة الاستكشاف هذه. كانت ستعترض، بل وتمارس الابتزاز. يستطيع سماع صوتها من هنا:

«أحذرك يا إميل... المرة القادمة التي تجعلني أعاني فيها هكذا، سأتركك.»
كان سيسكتها بإسقاطها فوق العشب. لاحظ أنه هو أيضًا يأكل بشراهة. لقد كان بالفعل يومًا عجيبيًا. كانت أصوات السياح البعيدة، على شرفات البارات، تصل إليهما، وتعلو عليها أصوات جراد الغابة، ثم يبددها هواءٌ بارد.
«أوه!»

سمع صرخة تعجبٍ جوانا قبل أن يسمع الانفجار.
«ما هذا؟»

جفل معتقدًا أنها مفرقات، لكنه رأى السماء تضيء فجأةً بلونٍ أحمر. حزم جميلة حمراء مضيئة تفرق. دوى انفجار آخر عندما قال متعجبًا بدوره:
«اللعاب نارية!»

انفجرت في السماء حزمة زرقاء. غمرت وجه جوانا ابتسامةٌ دهشة عندما التفت إميل نحوها.

«نحن في يوليو 13... إنها الألعاب النارية ليوم الاستقلال 14 يوليو.»

توقفت عن الأكل. وضعت صحنها على الأرض. راحت تنظر إلى السماء مفتونة في صمت. إنها حتى لا تسمعه. وجه نظره مجددًا إلى السماء، وعاد إلى تناول طعامه في بطءٍ واطمئنان، بينما تنفجر السماء بالألوان وحزم الشرارات.

13 يوليو، الساعة 11 و 50 دقيقة ليلاً
باريج، عند تخوم غابة، قرب مسار للمشاة.

بالكاد لدي القوة للإمساك بقلمى بين أصابعي، لشدة إنهاكي. كان النهار طويلاً. ثقب ذاكرة، كيلومترات من السير تحت الشمس الحارقة، عطش إلى الماء وجفاف قاس، انفجار دمامل وانكشاف اللحم تحتها وأمعاء تترقر (فعلتُ الصواب بالشرب من ماء ذلك النهر...). تناولنا اليوم أحد أطباقنا التقليدية المكونة من معكرونة، ونحن نتفرج على ألعاب نارية، وهذا ما أريد حفظه من هذا اليوم: ألعاب نارية على تخوم الغابة. لا التعب ولا الدمامل ولا رائحة التبرق الشنيعة تلك التي تفوح مني... تنمة المغامرات غداً.

15 يوليو، التاسعة ليلاً وغبار (توقفت ساعتى).

باريج، إلى الداخل أكثر قليلاً في الغابة المحاذية لدرب المشاة.

يومان من التوقف في باريج. دفعنا خيمتنا بضعة أمتارٍ إلى داخل الغابة، طلباً لمزيد من الهدوء. يبدو أن جوانا رأت أرنبا.

لم يكن ماء النهر صالحاً للشرب وبدأت أمعاؤنا تدفع الثمن. تحسنت جوانا صباح يوم 14 يوليو، بينما تفاقم وضعي أنا. لم أتمكن من تناول شيء، وتقيأت كثيراً. أصرت جوانا أن أرى طبيباً، ولكنني أخذت منها وعداً بأن تنتظر إلى اليوم التالي، كي نرى إذا كان الوضع سيتحسن من تلقاء نفسه أم لا. أمضت فترة بعد الظهر في التجول بين نباتات الحراج والخيمة. جمعت أطنائاً من أعشاب جافة نفعتها في ماء مغلي، وأجبرتني على شرب نقيعها، زاعمةً بأن له خصائص علاجية مضادة للإسهال.

لم أصدقها ولكنني في صباح اليوم التالي تحسنت للغاية. عدتُ للاهتمام بالطريق، وغابت جوانا طوال فترة الصباح. أخبرتني أنها ذهبت للجلوس في مقهى. وبعد ذلك أضافت أنها فعلت ذلك لشحن هاتفها المحمول. لم أعلق على كلامها. بعد ظهر اليوم، قمنا ببعض التسوق ثم أخذنا قسطاً من الراحة، لأننا سنستأنف طريقنا غداً. لا أحب باريج كثيراً ولن أحزن على مغادرتها. إنها محطة نزلاج لا أكثر. وليس فيها أصالة أرتيغ وسحرها.

استقلنا هذا المساء من متاجر باريج كي نعد لأنفسنا وجبة فاخرة: سوتيه خضار ويطاطا مع لحم خنزير (لأجلي). جوانا تقوم بطهي كومبوت الدراق للتحلية. الذكرى التي سأحفظها اليوم هي: كومبوت الدراق.

استيقظا اليوم في السادسة والنصف. ابتسم إميل وهو يقول لـ جوانا إنهما يتحولان إلى مشائين محترفين حقيقيين. لأن التخيم في الخارج يجبرهما على اتباع إيقاع حياة أكثر طبيعية. يرقدان مع هبوط الليل حوالي العاشرة والنصف، ويستيقظان مع الشمس وغناء الطيور.

سيسلكان اليوم دربًا إلى بحيرة غلير وملجئها. إنه مكان لا يمكن الالتفاف عليه في البيرينيه، وهي بحيرة أصيلة في الجبل بمساحة هيكترارين، وعمق عشرة أمتار. هذا ما قرأه إميل في دليله. ومع الجو الحار السائد، اتفقا على الحاجة إلى قضاء بعض الوقت في مكانٍ ظليل قرب الماء. تُعرف البحيرة في المقام الأول بالصيد. يوجد فيها أسماك ترويت فاريو وأومبل نهري وشبوط فيرون.

كان الطريق ممتعاَ والمنظر مذهلاً. سلكا طريقًا حجريًا في الوادي. السفوح من حولها خضراء، ملساء، تتناثر فيها صخور كبيرة بين الرمادية والبيضاء. عندما تبددت الغيوم، تمكنا من رؤية طريقهما الذي يتلوى في البعيد، يصعد، يعود إلى النزول، يتشعب، كمن يلعب لعبة الاختباء في الأودية الصغيرة.

بعد يومين من البقاء الاضطراري في المكان، كانا سعيدين باستئناف المسير. كانت جوانا أساسًا تسير في المقدمة، بملابسها السوداء التقليدية، وقبعتها التي تخفي وجهها. التقطت عود حطب واستخدمته عصا، وأعطت عصويها لـ إميل. كان يتبعها بخفة، سعيدًا باستئناف المسير ومشاهدة مناظر أكثر برية، من جديد. اكتشف أنه كلما مرت الأيام، أصبحت الأمور أسهل مع جوانا. ليس لأنها أصبحت يتبادلان الكلام أكثر، بل لأنها أصبحت أكثر أريحية، وأقل تأهبًا للدفاع عن نفسها. أو ربما كان السبب عنده هو... فقد كفَّ عن الاستياء من صمتها، من غياب تعبيرها. فهم أنها هكذا، وأن هذا ليس موجهاً ضده. هي لم تعد أساسًا بالجمود نفسه. لقد رآها بتسم عدة مرات، وضحكت في ذلك اليوم. لا بد أن أحدهما بدأ يعتاد الآخر، ببساطة.

ظهرَ زوجان من السياح، يسيران بمثل سرعتهما، قررا خوض حديثٍ معهما. جاء من باريس لقضاء عطلتها هنا، لأنها يعيشان البيرينيه. هما في العقد الثالث من العمر. لقد اعتقدا أن إميل وجوانا زوجان، ولم يقويا على تكذيب ذلك الاعتقاد، لأن شرح الأمر سيستغرق وقتًا طويلاً.

«وأنتما؟» سالا.

أجاب إميل إجابة ضبابية بأن حالتها مشابهة. عرّف الرجل عن نفسه.
«اسمي أنطوني. زوجتي تدعى سيلفيا.»

كانا يميلان إلى الثروة، وهو ما كان مناسباً لـ إميل لأن جوانا بقيت صامتةً وبعيدة بضع خطواتٍ إلى الأمام، وهو لا يرغب في خوض النقاش وحده.
«نحتاج حقاً إلى الابتعاد، إلى الخروج ثلاثة أسابيع في السنة من المنظومة المهيمنة. نحن دومًا في حالة اتصال. خذ مثلاً، في العمل... أنا مهندس معلوماتية، لدي جهازا iPhone مخصصان للعمل فقط. الأمر مشابه بالنسبة لـ سيلفيا في عملها كمساعدة إدارة. شيءٌ جهنمي. نحتاج جميعًا إلى قطعة. أنا وسيلفيا... لنقل أكثر راديكالية من الآخرين، فنحن نرحل بلا هواتف، ونأتي لنضيع وسط البيرنيه.»
بعد حين، عندما رأى إميل أن جوانا لا تتدخل، تذرّع بالحاجة لأخذ استراحة لتناول الطعام.

«لا بأس! نلتقي لاحقًا في الملجأ!»

أوما إميل موافقًا. نظر إليهما في ارتياح وهما يبتعدان. توقفت جوانا متفاجئةً.
«ذهبا؟!»

«نعم...»

أضاف وهو يتذمر مازحًا:

«شكرًا على المساندة.»

«لم أفهم.»

«تركّني بمفردي معها.»

«تدبرت أمرك جيدًا.»

لم يعرف إذا كانت تسخر أم لا، فهي تبدو جادة.

«تتكلمين عن طريقة التزود بمصادر الطاقة... المؤكد أنها لا يزودان الآخرين

بها...»

حافظت على هيئتها الجدية. لا بد أنها غارقة في أفكارها. استأنفا المسير لاحقًا،

عندما اختفى الزوجان بعيدًا.

مكتبة

t.me/soramnqraa

فوجئنا بالوصول سريعاً إلى بحيرة غدير والملجأ. كان النهار بالكاد قد انتصف. تجمع حشد من السياح أمام المبنى الفريد، والذي يتكون من ثلاثة طوابق، وواجهة ليست حجرية بالكامل، ولا مطلية بالدهان بالكامل، ومصاريع نوافذ ذات لونٍ أحمر صارخ، وفي الجانب سلم خدمة معدني، لولبي الشكل، وسطح متدرج. يبرز الملجأ بوضوح ضمن المشهد، إلا أن هناك البحيرة لحسن الحظ. إنها ذات زرقة عميقة مذهلة، وسطح أملس تمامًا، توحى بالسكينة العميقة. إنها كبيرة بما يكفي كي يجدا بقرها مكاناً هادئاً، بعيداً عن السياح. لم يحتاجا إلى تبادل كلمة، وباشرا بالابتعاد بين الصخور، بحثاً عن مكانٍ مهجور حول البحيرة.

16 يوليو

رينو،

دعني أخبرك يا صاحبي، بأنك كنتَ مخطئاً على طول الخط... لن تحزر أبداً أين أنا، وكيف هي حياتي اليومية منذ بضعة أيام. أنت الذي كنت تعتقد أن خطتي عديمة القيمة، وأنه لن يستجيب أحد لإعلاني، أو أن من يفعل سيكون مخبولاً (ذكرت احتمال استجابة من قبل الشواذ)، يسعدني أن أخبرك بأنك كنتَ مخطئاً... لقد فوجئتُ قليلاً بالفئة التي استجابت، واحتجّت إلى عدة أيام كي أعتاد شخصيتها الغريبة. لكنها ليست مخبولة، لقد اقتنعتُ بذلك الآن.

الآن، في هذه اللحظة، أنا على ضفة بحيرة جبلية رائعة، على ارتفاع 2153 متراً، وأشعر أنني وحدي في هذا العالم. معدني ممثلة، ومن المؤكد أنني سأخذ قيلولة حالما أضع قلبي جانباً. لم أشعر بمثل هذه السكينة منذ سنين. وعندما أفكر في تلك الساعات الضائعة في المكتب، التي أمضيتها وأنا أحرق إلى شاشة كومبيوتر، وأرد على رسائل بريد إلكتروني، لا معنى لها... أنا في النهاية مسرور لأنني مرضت. لولا ذلك ما كنت هنا، في جبل نيوفيل، وما واتتني الشجاعة للتخلي عن ذلك العمل. لورا كانت على حق. كان لدي ذلك الجانب السلبي، وكنت راضياً عن روتيني. لكنني الآن هنا، وأشعر بالارتياح. أعيش على إيقاع الطبيعة، ومن الجنون أن نقول لأنفسنا إننا خسرنا ذلك...

أنا لست بمفردى كما تعلم. ترافقني فتاة خاصة بعض الشيء. تكبرني بثلاث سنين، ولكنها أحياناً أكبر من ذلك بعشر سنين، وأحياناً تبدو مثل بنت صغيرة. إنها قصيرة (1.57 م.)، نباتية (يا لها من فكرة!) وصموتة جداً. لا تشتكي أبداً. إنها شجاعة، تستطيع حمل حقيبتها لأميال. رغم أن مظهرها لا يدل على ذلك، وليست جميلة بشكل خاص (أسمعك من هنا تسأل عن ذلك). ليست مثل لورا على أي حال. لنقل إنها لا تلبى معايير الجمال المعتادة. شعرها ليس لامعاً أو أملس. بل شبه مموج، ليس أجعد تماماً، لكنه متشابك دائماً. تميل إلى النحافة، ولها عيان بنيتان بسيطتان، لا تضع عليهما أي مكياج. لنقل إنها يمكن أن تكون جميلة لكنها لا تسعى إلى ذلك. وأين أهمية ذلك؟

إنها هادئة ومريحة. تعرف الكثير من حيل الجذبات، والعلاجات بالأعشاب. تتأمل. نعم، تجلس في حقل أو على ضفة ماء، وتلبث بلا حراك لساعات. أوه، لديها أيضاً صلة بالسماء أو النجوم، وتستطيع البقاء وقتاً طويلاً وهي تنظر إلى أعلى. في لائحة صفاتها الغريبة، يمكن إضافة خوفها من العواصف، وافتتانها بالألعاب النارية.

أمضي معها أياماً يسودها السلام. نمشي، نتشارك المهام اليومية (الطهي، نصب الخيمة، ملء زجاجات الماء من أقرب منهل، غسل الأطباق...)، لا نتكلم كثيراً. أعرف أن هناك رجلاً يتصل بها بانتظام. صديقها. أعرف أن علاقتهما في فترة توقف مؤقت للراحة لأنني سمعت إحدى مكالماتهما. عدا ذلك لا أعرف الكثير عن ظروف رحيلها.

أتمنى أن تكون أمورك على ما يرام، وأن تكون لبيتيسيا والشقي بخير، وأن تبقى عيادتك ممتلئة. أرجو أن تكونا قد تابعتما البحث ووجدتما بيتاً قريباً من بيت أحلامكما. أذكر أنك كنت ترغب في بقعة معشبة كي تختبر نفسك في أعمال البستنة صباحات الأحد. أتمنى أن تكون قد وجدت اللؤلؤة النادرة. وإذا لم يكن هذا هو الحال، لا تستسلم، استصان إلى مرادكما! لا أعرف متى ستصلك هذه الكلمات. ربما بعد وقت طويل، وربما بعد رحيلي. اعلم أنني أفكر كثيراً بك (بكم).

قبلاتي لثلاثتكم

إميل

كان يتذكر رينو في غرفته الطلابية الصغيرة، شاحبًا ويعصر يديه من القلق.
«إنها تبدو دومًا في حالةٍ من التركيز والصرامة.»
«صرامة؟»

«نعم... شفتاها مزمومتان. لا أجرؤ على الاقتراب منها.»
«أذهب لترأها في نهاية جلسات دراستها.»
«مستحيل! إنها تغادر المكتبة بخطواتٍ سريعة جدًا!»

كان إميل يكبح نفسه عن الابتسام. منذ أن شاهد رينو تلك الفتاة في المكتبة، لم يعد يستطيع منع نفسه من إطلاق أوصاف خارجة عن أي سياقٍ منطقي: شعرها أشقر وأجعد. إنها تشرب لترات من الماء. تحمل معها دومًا في المكتبة زجاجة ماء. لا بد أنها تدرس الحقوق، فهناك كراس قانون مدني أمامها على الطاولة. أعتقد أنها تمارس الرياضة. فقد كانت تحمل معها اليوم حقيبة رياضية. إنها عسراء. إنها تأكل ألواح بقوليات باللوز.

سار الأمر أسابيع على هذا النحو، ولم يكن رينو يعرف اسمها بعد. نفذ صبر إميل.
«أذهب إليها خلف طاولتها... قل لها ببساطة إنك كثيرًا ما تراها في المكتبة...»
«ثم؟»

«ستقوم هي بمواصلة المحادثة، وتتوالى الأمور بصورةٍ تلقائية. كفاك قلقًا.»
«هل تعتقد أنها... ستواصل المحادثة؟»
«نعم. وإلا فإنها لا تستحق عناء تركيزك عليها.»

قال رينو معترضًا:

«انتبه! أنا لا أركز عليها!»

«أجل!»

أراد أن يلقي بوسادته في وجهه، لكن لورا كانت قد دخلت بعد أن دفعت الباب وتركته يرتدّ على الجدار.
«اجتماع قمة؟»

جاءت لتجلس بجانب إميل فوق مكتبه، ملقياً في طريقها تحية على رينو. أحاط خصرها بذراعه وطبع قبلة على قمة رأسها. باغت رينو وهو ينظر إليه بحسد. كان يجب وضع حدٍّ لذلك. لقد خسر رينو ما يقارب الخمسة عشر كيلوجراماً نتيجة منح مدرسته لتعليم النطق أقصى طاقته، لذا لم يعد لديه أي سبب للبقاء في حالة استعصاء مع الفتيات! قفز إميل عن ظهر مكتبه ووقف أمام صديقه الذي انكمش في السرير.

«ما الذي تخشاه؟»

«حسناً... ماذا لو... ماذا لو كان لها صديق؟»

«لن تعرف ذلك ما لم تسألها.»

«ستلقي بي مثل جورب إذا كان لديها صديق!»

«ثم ماذا؟»

«ستكون آخر مرة أجرؤ فيها أن أقرب من فتاة.»

حاول إميل أن يبدو صبوراً.

«حسناً... هل تعرف ماذا سنفعل؟ سنرسل لورا كي تكلمها في المكتبة، كأنها

حدث هذا بشكلٍ عَرَضِيٍّ.»

بدا على رينو ذعر تام. قال معترضاً:

«ماذا؟ لا! ربما تكون قد شاهدتها معي!»

لكن لورا كانت قد قفزت بدورها عن ظهر المكتب، وأعلنت:

«جميل! أعشق المهام السرية! أعطني أوصافها يا إميل، وسأذهب إليها غداً!»

حاول رينو الاعتراض، وهدد بمغادرة الغرفة، وبعدم مخاطبتها ثانيةً إذا أقدم

على ذلك، لكن لورا لم تستسلم، وزودها رينو في النهاية بوصفٍ كامل لفتاة المكتبة

وهو يعصر يديه.

«اتصل به لورا.»

«هي في الدرس.»

«قلت لك اتصل به لورا.»

كان رينو على حافة الإغواء. كانا جالسين في مقهى ممتلئًا بطلاب جامعيين، ولم يكن رينو قد لامس كوب الكبتشينو بالقشدة المضاعفة.

«ستكون هنا خلال عشر دقائق وربما أقل.»

«ألم تكتب لك لتخبرك؟»

«هاتف لورا دائمًا غير مشحون. أو أنه مشحون ولكنها تركته في البيت.»

لم يتسم رينو، وعندما لم يعد إميل يستطيع تحمل قلق صديقه، فضّل أن يُخرج جهاز حاسوبه من حافظته، متظاهرًا بمراجعة آخر حصّة له في الاقتصاد الكلي، إلى أن وصلت لورا خفيفةً وغير مبالية، ولا تستعجل شيئًا. كاد رينو يهجم عليها:

«قولي، هل رأيتها؟ هل كلمتها؟»

رفعت لورا عينيها نحو السماء.

«اهدأ يا رينو! كفاك توترًا بهذا الشكل!»

كان رينو قد احمرّ من الغضب:

«لا! لا تلعب هذا الدور معي! لا تجعليني أنتظر كي تتسلي بي!»

«هل يمكنني طلب قهوة؟»

ارتسمت على وجهها ابتسامة صغيرة وقحة، جعلها إميل تحتفي عندما نظر إليها بعينين غاضبتين.

«لا تزعجيه يا لورا.»

تنهدت ورضخت على مضض.

«إنها مزعجة، هذا كل شيء.»

انحنى رينو فوق الطاولة، يكاد يقلب فنجان الكبتشينو.

«تكلمت معها إذًا؟»

«نعم.»

كاد يسقط مغشياً عليه.

«مزعجة؟ ولماذا هي مزعجة؟»

«بالمقارنة معك، ليست مزعجة إلى هذا الحد...»

«ماذا؟»

«نعم. أنت لست سيئاً في الفئة التي تنتمي إليها.»

«أمام نظرة إميل الغاضبة، توقفت عن التهكم.»

«لا بأس، كنت أمزح...»

«أخبريه بما عرفت.»

«اطلب لي قهوة.»

«لورا...»

«سأخبره ولكن اطلب لي قهوة.»

«أذن إميل. لم يشأ أن يصاب رينو بنوبة ذعر وهو يجلس إلى الطاولة.»

«إذا... من أين أبدأ؟ إنها في مثل عمرك... اسمها ليتيسيا.»

«أوه...»

«لماذا أوه؟ إنه اسم فقط...»

«لورا! دمدّم إميل.»

تجاهلته وواصلت:

«تدرس في كلية الحقوق، تريد أن تصبح محامية. بدت لي كأنها تمضي حياتها في

مراجعة كُتبها. ليست مسلية للغاية...»

كان رينو قد أوماً برأسه، غير مكترث بهذه الملاحظات. كان هناك شيءٌ وحيد

يعنيه:

«هل لديها صديق؟»

«لا.»

«متأكدة؟»

«نعم. سألتها بشكلٍ مباشر.»

«ماذا؟»

«قلت لها إن أحد أصدقائي مهتم بالامر.»

هذه المرة صرخ رينو تقريبًا:

«ماذا؟!»

تدخل إميل قبل أن تسبب له لورا تشنجًا تامًا.

«ليس في الأمر مأساة يا صاحبي. هي لم تقل لها إنك أنت المقصود.»

وأكدت لورا ذلك أمام ارتياح إميل الشديد.

«لا، لم أزد شيئًا على ذلك.»

«عظيم. لم يبق عليك في المرة القادمة سوى أن تذهب وتكلمها وأنت

مطمئن...»

«لكنها ستعرف الآن أنني الصديق المقصود!»

«وما المشكلة؟»

«ستعرف أنني مهمم.»

«أليست هذه هي الحقيقة؟!»

كانت لورا قد نظرت إلى السماء، قائلة:

«لا، هذا كثير. لم أعد أحتمل... أفضل الانصراف.»

«ماذا؟!»

«سيتهي به الأمر كهلاً أعزب.»

«لورا!»

«إلى اللقاء في وقت لاحق!»

كانت قد نهضت، مررت يدها في شعر إميل.

«أنجزت مهمتي. أدعك تكملها.»

«انتظري...»

«ماذا؟!»

«ماذا عن قهوتك؟»

كانت قد غادرت بابتسامة عريضة. بقي رينو صامتًا، منحنيًا فوق الطاولة:

«هل تعتقد أن... أنني سأتهي كهلاً أعزب؟»

كان إميل قد هز رأسه وأجاب بنبرة قاطعة:

«لا، لأنك ستذهب وتكلمها غداً.»

عند المساء، جاءت لورا إلى شقة إميل الصغيرة، وأعلنت بلا مقدمات:
«لقد كذبت.»

لم يفهم على الفور.

«بخصوص ماذا؟»

«على رينو. أخبرتُ الفتاة مَنْ يكون.»

لم يعرف إميل إن كان عليه أن يغضب أم يضحك.

«ماذا؟! ولكن لم فعلت ذلك؟»

كانت قد صعدت فوقه وجلست بين ساقيه.

«لأنه لن يذهب أبداً ليكلهما. وأنت وأنا نعلم ذلك جيداً.»

«وهل ستذهب هي إليه وتكلمه؟»

كانت قد التصقت به أكثر وبدأت تقبل عنقه. ثم همست له بين قبيلتين:

«كل المنى بذلك.»

لم يكشف إميل لـ رينو ما فعلته لورا. جاءه رينو بعد يومين، مضطرباً لكنه أكثر هدوءاً، وعلى فمه ابتسامة طفيفة.

«لا أدري هل فهمت أنني الصديق الذي كلمتها لورا عنه أم لا، لكنها جاءت إلي تطلب قطع عملة معدنية للحصول على قهوة من الموزع الآلي في المكتبة... هي لا تشرب القهوة أبداً، لذلك بدا لي الأمر ذريعة اختلقْتُها كي تأتي إلي وتكلمني...»
أكد له إميل أن الأمر يبدو كذلك تماماً.

«وماذا حدث بعد ذلك؟»

«رافقْتُها كي تحصل على قهوتها وتكلمنا في شتى المواضيع... اقترحتُ أن نقوم سوياً بجولة الذهاب إلى المكتبة... إنها تقيم في السكن الطلابي الذي أقيم فيه.»

«واو!»

«لا تتحمس كثيراً!»

«أجل! سأتحمس لأنك تُعجبها! ولكن سيتعين عليك أن تواعدها! يجب ألا
تكتفي بالقيام بجولاتٍ طوال عمرك!»

«لم نصل إلى هناك بعد. لم نقم بأي جولةٍ معًا بعد... الأولى ستكون غداً.»

«حسنًا... سأعود للضغط عليك خلال أسبوعٍ إذا.»

«إميل!»

«سأجعلها أسبوعين... أعرف كم أنت بطيء.»

«لن أخبرك بشيءٍ بعد الآن!»

«تخطئ إذا استغنيّت عن مساعدتي! لدي أفكار كثيرة لأول موعد!»

«إذا؟»

«ماذا؟»

«إذا ليتيسيا؟»

غاص رينو في كأس البيرة هرباً من الموضوع. كانا ضمن مجموعة من شبان
جالسين حول طاولةٍ خشبيةٍ في ذلك المقهى الإنجليزي الذي يمضون فيه أمسيات
الخميس. كان بينهم بعض أصدقاء رينو من أيام الكلية، وبعض أصدقاء إميل من
أيام الكلية أيضًا، وبعض أصدقاء الأصدقاء، غير المعروفين لهما.

«مشاوير كما إلى المكتبة مستمرة من شهر...»

«وماذا في ذلك؟ نحن بخير.»

«إذا كنتما بخير، الأمور على ما يرام...»

لم يشأ إميل إزعاج رينو بفكرة المواعدة تلك. لقد لمس التحول الذي طرأ عليه
رويدًا رويدًا، والثقة التي اكتسبها مع مرور الأيام، وكيف زالت عصبيته. غير رأيه
ولم يشأ ممارسة الضغط عليه.

«لقد دعّنتي لتناول الطعام في بيتها.» قال رينو في تلك اللحظة بالضبط.

اختنق إميل بالبيرة. بدأت ليتيسيا تمسك زمام الأمور. كان الأمر مفاجئًا، لكن
من الرائع أن يلاحظ أن تلك الفتاة فهمت على الفور كيفية التصرف مع رينو.

«هي خبيرة بطبق الموساكا⁽¹⁾. تكلمنا عنه يومًا في أثناء مشوارنا... فعرضت أن تطهوه لي، الأسبوع القادم... في بيتها.»
سيطر إميل على حماسه حتى لا يثير ذعر رينو.
«عظيم!»
ابتسم رينو ابتسامة ساذجة، ففهم إميل وهو يشعر بالفجعية، أن صديقه قد وقع في الحب.

«دعوة لأربعة أشخاص على الطعام؟»

بدت لورا مشمئزة من الفكرة.

«ولكنها فكرة سخيفة!»

لم يستطع إميل منع نفسه من الضحك.

«إنها فكرة رينو... هذا يسعده...»

«ولكن، لماذا؟»

كانت لورا مسترخية بشياها الداخلية على السرير الصغير في الشقة الطلابية.

كانت تلهو بمطاط سروالها وهي تمضغ علكتها.

«لقد أصبحت علاقتهما رسمية أخيرًا.»

«ما المقصود؟»

«أصبحا يخرجان معًا بشكلٍ جدي.»

«هل يضاجعها؟»

«نعم.»

«حسنًا... حان الوقت لذلك!»

كان يعيش هيئة المكر التي ترسم عليها.

«يريد أن يعرفنا إليها.»

«سبق أن التقيتها!»

(1) موساكا، باذنجان محشو باللحم ومطبوخ بصلصة البندورة في الفرن.

«لورا!»

«ماذا؟»

«كوني لطيفة... يعود الفضل في هذا كله لك، ألا تريدان رؤيتهما سعيدين معاً؟»

كانت قد أطلقت تنهيدة طويلة جداً.

«إنها ليست مسلية...»

«ليتيسيا؟»

«نعم. سنشعر بالملل.»

«كفى. هذا غير لطيف من أجل رينو.»

«لم أكن أقصده هو. بل أقصدها هي.»

«ستذهين، وستفعلين هذا من أجلي.»

«حقاً؟»

«نعم. إنه قرار. هيا لترتدي ملابسك.»

لقد أغضبته بشدة حين استغرقت عشر دقائق في ارتداء ثيابها، ثم أرادت الاستحمام مجدداً، فترعت ثيابها واستحمت ثم أعادت ارتداء ثيابها. ثم قررت أن تضع مكياجاً كاملاً قبل الخروج. لقد كانت لا تطاق حقاً في ذلك المساء.

وصلا إلى مطعم البيتزا متأخرين عشرين دقيقة. كانت ليتيسيا تبدو متوترة، وتُظهر الاستياء.

«نأسف للتأخير.» قال إميل عند وصوله إلى طاولتهما.

«كله بسبب الأنسة.»

نظرت لورا إليهما بابتسامة وقحة شنيعة، وزمت ليتيسيا شفيتها أكثر.

«مرحباً ليتيسيا، أنا إميل. إنني في غاية السرور لرؤيتك.»

بسَطَ كلامه أسارير ليتيسيا. فكَّر إميل أنها لطيفة. ليست من النوع الذي يفضل له لكنه رآها تميل إلى الجمال.

«مرحباً، أنا أيضاً مسرورة برؤيتك.»

قامت لورا بدورها بوضع قبلة مجاملة على وجنة ليتيسيا.

«أنا وأنت، سبق أن تعرفت إحدانا إلى الأخرى!»

«نعم.»

شعر الشابان بقدرٍ طفيف يكاد لا يلمس من التوتر بين الفتاتين. جلس إميل ولورا في مكانيهما حول الطاولة. حاول إميل فتح حديثٍ في انتظار الطلبات، منطلقًا من:

«إذا أنت طالبة أيضًا؟»، «من أين أنت قادمة؟»، «هل تنتمين إلى رابطة طلابية

ما؟»، «هل يعجبك السكن الطلابي؟»

بقيت لورا صامتة، تنظر في لائحة الطلبات، ووجه إليها إميل من تحت الطاولة ركلات خفية دون أن ينجح في جرّها إلى استجابة.

كانت طلبات البيتزا قد وصلت وباتت الجلسة أقل توترًا. أخذوا يتكلمون عن الطهي، وحتى لورا تدخلت معلنة أنها لا تتغذى إلا على الأطعمة المجمدة والمعلبات. تبين أن ليتيسيا تهوى الطبخ، وأخذ الشابان يسألانها عن أكثر ما تحبّه من وصفات. حتى لورا حاولت جهدها أن تعلق تعليقات لطيفة حول قدرة ليتيسيا على التوفيق بين دراستها ومهارتها كطاهية ممتازة. الأمر الذي عجب له إميل، وشعر أن ما تفعله هو انتقام طبيعي، وسوف تطالب بشيء ما مقابل تلك اللحظة من اللطف الخبيث. لكن مبادرتها أثرت فيه مع ذلك.

«لم يكن اللقاء فظيعةً، أليس كذلك؟» سأل لورا لدى عودتها إلى الشقة.

«تأكد أنني بذلتُ أقصى طاقتي... ليس لدي ما أقوله لها...»

«أعرف، وبذلتِ جهدك. أنا مسرور لقيامك بذلك.»

«لن أفعل ذلك كل أسبوع!»

«أعرف.»

أما رينو، فقد كان في غاية السرور. وقال معلنًا عكس ذلك:

«يجدر بنا أن نكرر هذا اللقاء مرات أكثر! الخميس القادم... ما رأيك أن

نجتمع الخميس القادم؟»

كان يجب التحايل على لورا كي ترافقه إلى تلك اللقاءات الرباعية على العشاء. كان يجب أن يعدّها بشيء آخر بالمقابل. أن يُكره نفسه على مشاهدة فيلم رعب لم يشأ أحد الذهاب معها لمشاهدته، أو أن يضع لها الطلاء على أظافر قدميها، ويعد لها وجباتها لأسبوع كامل... مقابل قبولها بالحضور وإظهار الود لليتيسيا. تمكنت لورا من وقتٍ إلى آخر من التهرب بذريعة امتحان (الخدعة الناجحة!)، أو إنفلونزا مبالغتة. لم ينخدع أحد بالفعل. ربما باستثناء رينو. كان مشرقاً من السعادة.

«الفتاتان متفاهمتان جيداً، أليس هذا أمراً رائعاً؟»

كان كل ما يريده إميل، وكذلك ليتيسيا، أن يكون رينو سعيداً، لذلك بقي كلٌّ منهما متمسكاً بالكذب عليه حول تلك النقطة.

«نعم. إنه أمر رائع.»

لم يكن إميل يعلم أين هي جوانا. لقد مضت ساعتان حتماً على ذهابها في جولة حول البحيرة. أخذ قيلولة في ظل الأشجار ثم سمع صوت خطوات تقترب. ظن أنها جوانا، لكن من اقترّب كان الرجل الذي صادفاه هذا الصباح. أنطوني. راح يتقدم بابتسامة عريضة، رافعاً يديه لاتقاء الشمس.

«مرحباً! هذا أنت فعلاً!»

أجبر إميل نفسه أن يبتسم ابتسامة خفيفة. لم يكن مستاءً من الحصول على شيء من الرفقة الذكورية.

«كنتُ ذاهباً للسباحة. هل تأتي معي؟»

«نعم. لم لا؟»

وضع أنطوني نظارته الشمسية عند قدميه وبدأ بنزع ملابسه. كان شخصاً قوي البنية حسن التكوين، اعتاد حتماً على الجهد.

«صديقتك ليست هنا؟»

قصّد بسؤاله جوانا. ألقى إميل نظرة دائرية حول المكان.

«لا. ذهبت في جولة حول البحيرة منذ حين...»

«ولم تعد في متناول نظرك؟»

«صحيح. أخذتُ قيلولة.»

لم يجرؤ على قول إن جوانا قد اختفت منذ ساعتين، فربما يتساءل الشخص عن أي نوع من الأصدقاء هو، ولن يجرؤ أن يشرح له أنه ليس حبيبها، بل رفيق رحلة، سيموت قريبًا ووافقت هي على مرافقته، إثر إعلان نشره على الإنترنت.

«وصديقتك... أين هي؟»

«سيلفيا؟»

«نعم.»

«وجدت أشخاصًا تتكلم معهم. إنه أمر جيد لنا أن يتمكن كلُّ منا من الذهاب إلى جهة، لبضع ساعاتٍ من وقتٍ إلى آخر.»

نزع أنطوني ملابسه، وبقي بالسروال الداخلي. انتهى إميل من نزع حذائه وجوريه، ثم دخلا الماء في حذر. كان باردًا ولكن ليس بالقدر الذي ظنه.

«أن تسافر برفقة شخص وتكونا معًا أربعًا وعشرين ساعة على أربع وعشرين، ليس بالأمر اليسير. نحب أن تكون لنا لحظات بمفردنا. أسمى هذه اللحظات صمام تخفيف الضغط.»

وصل الماء الآن إلى منتصف أفخاذهما. أيد إميل كلام أنطوني:

«صحيح، أفهم ما تقول...»

«لا أدري إذا كان الأمر مشابهًا بالنسبة لكما أم لا.»

استدار أنطوني نحوه منتظرًا الجواب. حاول إميل صياغة جواب بأبسط طريقة ممكنة:

«لنقل إن... نعم... الأمر مشابه...»

استمر في التقدم داخل الماء في هدوء.

«إنها على أي حال تبدو متوحدة قليلًا...»

«صحيح.»

«قليلة الكلام.»

«نعم.»

أدخل أنطوني يديه في شعره وجعله فوضويًا. تساءل إميل عما إن كان سيتوقف أخيرًا عن الكلام معه عن جوانا أم لا.
«حسنًا، يجب الدخول في المياه العميقة.» أعلن.
«سألحق بك!»

بللا مؤخر رقبتيهما، مع تكشيرة بسيطة، ثم غطس أنطوني حتى الرأس، وفعل إميل مثله. يا له من شعور رائع. حين عاد أنطوني إلى السطح، كان قد بدأ يسبح مبتعدًا عن الضفة.
«هيا تعال، اتبعني!»

سبحا بضع عشرات من الأمتار، دون مزيد من الكلام. في البعيد، كان بعض السياح الشجعان، قد دخلوا إلى الماء أيضًا، ويدت أحجامهم من هناك، بحجم النمال.
«يجدر بك أن تجدها لاحقًا.» قال أنطوني وهو يلتفت نحوه.
«ماذا؟»

«صديقتك. البحيرة ليست مشهورة بخطورتها، ولكنها عميقة بما يكفي...
يكفي أن تباغتها سمكة ضخمة فتصاب بالذعر...»
شعر إميل بشيء من الضيق. فهو لم يفكر حتى في ذلك. صحيح أن أحدهما في النهاية لا يراقب الآخر طوال الوقت، ولا يقوم بمساءلته، لكن فكرة الغرق تلك لم تطمئنه.

«هل هي سباحة؟»
أجاب مؤكّدًا بشكلٍ زائد قليلًا عن اللازم:
«بالطبع!»

وهو في الواقع لا يدري حتى إن كانت تعرف العوم أم لا.
سبحا نصف ساعة كاملة محاولين عدم الابتعاد كثيرًا عن الضفة. كان أنطوني يشير له من وقتٍ لآخر إلى أسماك ضخمة الحجم. أخذًا يتكلمان في الرياضة وأسهب أنطوني في الثرثرة عن الحياة اليومية المرهقة التي يعيشها في باريس. في النهاية، عادا إلى الضفة مع بدء هبوط الحرارة وتقدم فترة بعد الظهر.

«هل تقيمان في النزل؟» سأل أنطوني.

«لا، ننصب خيمة. سنخيم في هذا الاتجاه.»

«أوه! تمضيان عطلتكما بكاملها في خيمة؟»

«لا. لدينا عربة بيت متنقل، أوقفناها في أرتيغ. سنعود إليها بعد بضعة أيام.»

وجدا ملابسهما متكومة، مع حقيبة إميل وحقيبة جوانا، لكن لا أثر لـ جوانا.

«ليست هنا.» لاحظ أنطوني.

«لا. لن تتأخر.»

«أنا وسيلفيا، نمضي الليل في النزل. حين تعود صديقتك، يمكنكما الانضمام

إلينا لتناول الطعام. ما قولك؟ ندعوكما للانضمام إلى طاولتنا. ستكون فرصة

جميلة.»

«نعم، بالطبع.»

جمع أنطوني أشياءه عن الأرض، جفف نفسه سريعاً بقميصه وهزّ شعره بيديه.

«ما اسمها؟»

«لا أظن أنها أخبرتنا باسمها.»

«جوانا.»

«حسنًا. سأعود كي أستحم ولكن تعال أنت وجوانا لتناول العشاء. اتفقنا؟»

«اتفقنا.»

ابتعد أنطوني وراح إميل ينظر في قلبي إلى حقيبة جوانا.

قرر الالتفاف حول البحيرة. وقبل أن يبدأ السير، أخفى حقيقتي الظهر

الثقيلتين حقًا، خلف الأشجار. صادف بعض المنتزهين. بعضهم يريحون أقدامهم

في المياه، وآخرون يأخذون قيلولة في الظل. قرر أن يسأل أحدهم:

«هل رأيتم فتاة، ليست طويلة جدًا، وترتدي قبعة سوداء؟»

«لا. مع الأسف.»

البحيرة أكبر من أن يستطيع الالتفاف حولها. استسلم بعد عشرين دقيقة، وعاد

إلى نقطة البداية. لقد كان على حق لأن جوانا عادت. وجدها هناك، في المكان الذي

تناولا فيه الطعام وأخذوا قيلولتهما. كانت واقفة بهيئة ضائعة قليلًا.

«آه.» قالت وهي تراه قادمًا.

«كنت أبحث عنك.»

«ذهبتُ في الاتجاه المعاكس.»

«آه.»

قال لنفسه إنه يبدو عليهما الغباء بكل هذه الـ (آه) ات، التي لا تعني شيئًا.

«جاء أنطوني للسباحة معي.»

«أنطوني؟»

«الشخص الذي صادفناه هذا الصباح. الباريسي.»

«آه نعم. تذكرت.»

«دعانا لمشاركة وجبة العشاء هذا المساء، معه هو وصديقه سيلفيا.»

حاول أن يستطلع نظرتها كي يكتشف تعبير الرفض أو الاشمئزاز، لكنها بقيت

غير معبرة.

«اتفقنا.»

مع مغيب الشمس، اتجه الاثنان نحو النزل. نزلت جوانا قبعتها للذهاب إلى العشاء. وكبلا يذهبان فارغي الأيدي، قررا أن يحملتا معها علبة من سمك الإسقمري، وأخرى من جبن الكامبير. لبث إميل غير مصدق أن جوانا قبلت مشاركة هذا العشاء مع أنطوني وسيلفيا. وراح يتساءل عن الطريقة التي ستصرف بها معها. إنها تميل إلى إظهار الغرابة. لقد اعتاد هو طرافة شخصيتها، لكنه لا يعلم كيف سيكون رد فعل الاثنين الآخرين إزاءها. كان المنظر من حولهما رائعًا، فالوهج البرتقالي للشمس يغمر الجبال والبحيرة، وكأن المكان كله مشتعل.

«لا أزال غير مصدق أنني هنا.» قال إميل وهو يشير إلى المنظر المحيط بهما.

«أومات جوانا. بدا تعبيرها عجيبيًا، يشبه ابتسامة لكن ليس تمامًا.»

«كانت المناظر الطبيعية مثل قوسٍ يعزف على روعي.»

توقف إميل، وهو يحمل علب الإسقمري بيده. لا يدري ما الذي يفاجئه أكثر، هل هو جمال المنظر من حوله، أم تلك الكلمات التي تخرج من فم جوانا في أقل اللحظات توقُّعًا لها.

«هكذا إذا.» قال وهو مسمرٌ وسط الطريق.

رفعت حاجبيها مستفهمةً.

«أعتقد أن عليّ اعتياد ذلك...»

«ماذا؟»

«اعتياد اقتباساتك.»

توقفت على الطريق هي أيضًا، وشرعت في ابتسامة رضا. ابتسامة حقيقية هذه المرة.

«هل أحببتَ الجملة؟»

«جداً. لمن تكون هذه؟»

كان وجهها مغموراً بوهج الغروب، الذهبي، ما زاد من عدم واقعية الموقف. فكر إميل: هذه الفتاة قصيدة.

«ستاندال.»

لبث بضع ثواني صامتاً لا يعرف كيف يرد دون أن يفسد جمال الكلمات التي قالتها لتوها. واختار أخيراً:

«لا بد أنك قرأتِ عددًا لا بأس به من الكتب.»

وفكر وهو يقول ذلك في أنه قد أفسد لتوه جمال اللحظة. يمكن حقاً وصفه بأي شيء، لكنه ليس بقصيدة، بل علبة سمك إسقمري مثل تلك التي يحملها بيده. جوانا رقيقة مثل غروب الشمس، وهو براجماتي مثل علبة سمك إسقمري.

«أغلب اقتباساتي حفظتها من أبي.»

«هل كان يقرأ كثيراً؟»

«بغزارة.»

كانا لا يزالان واقفين بلا حراك في الطريق وسط الجبال المشتعلة. هو يحمل بيديه الإسقمري، وهي الكامبير.

«كان الناس يعدونه مجنون القرية.»

«حقاً؟»

«كان مختلفاً جداً، فقرروا أنه مجنون.»

لم يكن مظهرها حزينًا وهي تقول ذلك. كانت تبدو فقط كمن يسجل ملاحظة.

«في حين أنه كان في الواقع يقرأ كثيرًا، أليس كذلك؟»

«كان يهتم بأشياء كثيرة. وكان من الممكن أن يتعلموا الكثير منه.»

أوما إميل وهو يقول لنفسه إنه كاد يتعامل معها كما تعامل أهل القرية مع أبيها. لقد صَنَّفها سريعًا على أنها مجنونة، في حين أنها مختلفة جدًا عن جميع الفتيات اللواتي عرفهن. لم يتخيل أنها من الممكن أن تعلمه الكثير.

«نعم. إننا نكون حمقى أحيانًا... نتعلق بالمظاهر...»

لم تجب جوانا بشيء، وتابعوا السير في هدوء. شعر بالسرور لأنه تشارك معها تلك اللحظة. ستكون تلك هي ذكرى اليوم، التي سيدونها هذا المساء في دفتره.

«آه، ها قد وصلت!»

كان البهو المشترك في النزول، يضحج بالنقاشات والضحكات في جوٍّ من الحر الخانق. كانت الطاولات الخشبية الطويلة تستقبل ما لا يقل عن مئة من السياح، والمكان ممتلئ، والموسم في ذروته. كانت طاولة أنطوني وسيلفيا تستقبل مجموعة سياح إيطاليين يتكلمون ويضحكون بأعلى أصواتهم.

«اجلسا هنا، سنفسح مكانًا.»

بدا الزوجان مسرورين لمشاهدتهما. قالا شيئًا ما لجيرانهما الإيطاليين على الطاولة، وتحرك الجميع لتوفير متسع صغير مقابل أنطوني وسيلفيا.

«ما كان يجب إحضار شيء.» قال أنطوني.

«ما كنا نأتي فارغي اليدين.» رد إميل.

انتظر أن تنزلق جوانا بين المقعد ولوح الطاولة، كي يجلس بجانبها.

«لقد وجدتها إذا في النهاية؟» سأل أنطوني وهو يدفع نحوهما كأسين مملوئين

بالبيرة.

«تقصد جوانا؟»

«نعم.»

«نعم، كما ترى.»

«هل نصبتها الخيمة؟»

«نعم. وجدنا مكانًا محميًا عند ضفة البحيرة.»

«هل يُسمح هنا بالتخييم؟» تساءلت سيلفيا.

«لا، لا أظن ذلك... ولكنهم يغضون النظر.»

ارتسم على وجهها تعبير جعلها تبدو مثل طفلة.

«أظن أنني لن أستطيع التخلي عن الاستحمام والمراحيض الحقيقية. أنا لستُ مهيةً لذلك...»

حدقت إلى وجه جوانا منتظرةً رد فعلٍ، أو ابتسامة تواطؤ نسوي، لكن جوانا هزت كتفها بعدم مبالاتها الاعتيادية.

«نستحم في البحيرات أو جداول الماء.»

كانت الأجوبة تبدو في فمها واضحة وبديهية تمامًا.

«ولكن هذا ليس مشابهًا...»

«حقًا؟»

«نعم... ماذا عن سائل الاستحمام مثلًا؟»

«نستخدم الصابون الحلبي، إنه متعدد الفوائد.»

لم يبدد ذلك شكوك سيلفيا.

«على أي حال.» أعلنت سيلفيا.

«لقد وُفق أحدكما بالآخر. فليس هناك فتيات كثيرات مستعدات للسفر بهذه الطريقة.»

سارع إميل إلى تغيير الموضوع، فهو لا يريد أن يجد نفسه مضطرًا للتلعثم بأجوبة حول الثنائي المزعوم الذي يشكلاه، والعطلة الرومانسية المزعومة التي يمضيانها. لذلك قال بسرعة:

«هذا النزول مدهش... أعني بصريًا... إنه يشبه محطة أرصاد جوية... وعندما ندخل نكتشف أنه يستقبل كل هؤلاء الناس...»

كان يرجو أن يجر أنطوني نحو انعطافة التشيت هذه، ونجح في ذلك.

«صحيح. وهو على ما يبدو ممتلئ دوماً. لديهم طاقة استيعاب تصل إلى تسعين شخصاً، ولكن يجب أن يتم الحجز بسرعة. نحن قمنا بذلك في فبراير.»
بدورها وقعت سيلفيا في الفخ:
«صحيح. لقد حجزت كل شيء في بداية السنة. أحب أن أفعل الأشياء مقدماً. هذه صفة اكتسبتها من عملي.»

كان البهو يضج بنقاشات بكل اللغات. هنا إيطالية، أبعد قليلاً إسبانية وإنجليزية، وهناك ألمانية. فتحا زجاجة نبيذ. تحصنت جوانا بصمتها، لكنها كانت تومئ من وقت لآخر، وبدت حاضرة نسبياً. أخذ أنطوني وإميل وسيلفيا يناقشون خط السير ومعدات المسير والأماكن التي يجب رؤيتها بأي ثمن، والمتاعب اليومية...

«جرب الطين فوق الدمامل. وضعت لي سيلفيا منه، وشعرت بتحسني كبير.»
«طين؟»

«إنه يظهر ويساعد في الالتئام ويوقف النزيف. إنه مضاد التهاب. وفوق ذلك يساعد على تجديد الجلد.»

كان إميل متأكداً أن جوانا تعرف هذا كله، لكنها بقيت صامته.
«اشترت لنا سيلفيا جوارب خاصة، دون خياطة... إنها رائعة!»
«حقاً؟»

راحوا يأكلون بشهية. كان الجو حاراً إلى درجة أنهم شربوا أكثر مما يجب. أخرج أنطوني آلة تصويره وراح يعرض على شاشتتها صور المراحل السابقة من رحلتها: فيسكو وساسي، القريتان الصغيرتان النموذجيتان في البيريني، ممر ريو... كانا يريدان الذهاب لاحقاً إلى جبل نيوفيل ثم إلى بحيرة كاب لونغ.

عادا في آخر السهرة إلى خيمتهما، وهما يشعران بالارتياح للابتعاد عن الصخب والحرارة. كان أنطوني وسيلفيا شديدي اللطف ولكنها كثيرا الكلام. فهم إميل أنه في نهاية المطاف محظوظ لأنه يسافر مع شخص صامت.

وصلا أمام خيمتهما. أدارت جوانا ظهرها له، جلست القرفصاء وفتحت السحاب ثم انزلت داخل الخيمة. كان إميل يسمعها وهي تقلب بين أغراضها.

«ماذا تفعلين؟»

لم تحب إلا بعد خروجها من الخيمة متأبطة كيس نومها.
«سأضع حشيتي عند ضفة الماء.»

اتجهت نحو البحيرة في ببطء.
«طابت ليلتك.» قالت.

«طابت ليلتك...»

حاول الاستلقاء في كيس نومه داخل الخيمة لكن النوم جافاه. ومن فوق حشيته، وعبر الباب القماشي المفتوح، كان يرى جوانا جالسة فوق ضفة البحيرة. كانت لا تزال تنظر إلى تلك السماء اللعينة. ماذا يدور في ذهنها بحق الجحيم؟

تمنى حقاً أن يعرف... خرج من الخيمة في ببطء متجهاً نحوها.
«هل يمكنني؟» سألها مشيراً إلى العشب بجانبها.

أومات برأسها فجلس بجانبها. بدأ يلهو بالعشب دون أن يعرف ما سيقول. كان يجد أنه من المؤسف أنها لا يتحدثان كثيراً. تنحنح وقال:
«نحن لا نتناقش كثيراً.» همس.

هزت جوانا كتفها. لقد راهن أنها ستفعل ذلك.

«نتناقش إذا كان هناك ضرورة للنقاش. هذا كل ما في الأمر.»

فاجأته عذوبة نبرتها، التي تتنافر مع كلماتها. تردد في مواصلة الكلام.

«ربما، ولكن... المسألة هي أنني... سيظمتني فهم سبب قدومك...»
أبقت وجهها ثابتاً تجاه الماء الساكن.

«كيف سيظمتك ذلك؟»

«دعيني أقول إنه... سيجعلني أعرف ما إذا كنت ستسحبين بين يومٍ وليلة أم

لا... وأستعد للأمر في الأحوال كافة.»

حاول أن يبدو بمظهر المازح. أجابت جوانا في هدوء:

«لن أنسحب.»

«لستُ واثقاً.»

«أقول لك إنني لن أفعل.»

استعداد صورتها عندما كانت جالسة فوق صخرة كبيرة عند ضفة جدول الماء. وتذكّر صوتها وهي تتكلم في الهاتف. أنا... لا أعرف. لقد قلت لك ذلك... شهر، ستة أشهر، سنة... أحتاج إلى هذا الوقت...

«لا أحد ينتظرك إذا؟» سأل.

لم يكن يريد الكلام بهذا التشكك. أشاحت جوانا بوجهها فجأة. خشي أن يكون قد أفسد كل شيء.

«لن أغادر، أعدك بذلك.»

لم تجب حقاً عن سؤاله. لم يدرك قبل هذا المساء أن هذا يؤرقه، ولكنه كان يقول الصدق حين عبر عن خشيته من احتمال مغادرتها، وأراد أن يستوضح الأمر.

«وماذا عن ليون؟»

أظلم وجه جوانا في الحال، وكأن وشاحاً أسود قد غطاه للتو.

«ماذا؟»

وشى صوتها بحجم صدمتها.

«كيف عرفت؟» قالت مغممة.

لم يستطع الاعتراف لها بشأن المكالمات التليفونية التي سمعها، خشية أن تتخيل أنه تجسس عليها، فيخسر ثقتها دفعة واحدة، وربما تقرر المغادرة على الفور. فضل تقديم صورة مغايرة.

«ذلك اليوم... عندما ارتفعت حرارتك ليلاً... نطقت باسمه.»

لم يقرأ أي تعبير على وجهها. لا ارتياح ولا ارتباك. استعادت السيطرة التامة على انفعالاتها.

«ليس عليك أن تقلق بشأن ليون. سأبقى حتى نهاية الرحلة.»

لقد تهربت ثانية من السؤال. إنه أمر محبط.

«هل... هل هو صديقك الحميم؟»

رأها تضغط فكها. سينفد صبرها. شعر أنه ذهب بعيداً جداً.

«كان صديقي الحميم.»

«وهجرته؟»

«نعم»

«نهائياً؟»

ترددت قبل أن تجيب. كان يعرف الحقيقة، وتساءل عما إذا كانت ستكذب عليه أم لا.
«لا»

شعر بالارتياح. فمهما يكن القرار الذي ستخذه في وقت لاحق: أن تنفي بوعدها أو أن تنسحب، بات يعرف أنها لن تكذب عليه. إنها صادقة تماماً.

«إنه... ينتظرك إذا... وأنت ستبقين هنا؟»

ساد الصمت من جديد، وترددت من جديد. شعر أنه نجح في استنطاقها.
«نعم. لقد فعل شيئاً لا يغتفر».

فوجئ بالاعتراف حتى أنه لم يعد يجروء على قول كلمة. تركها تتابع:
«أظن أن هذا هو كل ما تحتاج إلى معرفته. رحلتُ لأنني لم أعد أستطيع العيش بقربه بعد الشيء الذي فعله».

أوماً إميل في صمت. كانت تلك لحظة حساسة، لم يشأ إفسادها.
«قد أعود إليه يوماً. وقد لا أعود. وإذا عدت... أظن أنني سأحتاج إلى سنين».
أوماً من جديد. لم يضيف كلمة. لبثا بلا حراك، عيونهما مثبتة على القمر الذي ينعكس على سطح البحيرة. فعل شيئاً لا يغتفر. رحلتُ لأنني لم أعد أستطيع العيش بقربه. هذا هو بالفعل، كل ما يحتاج إلى معرفته.

أضاف نقاش أمس لمسة من اللطف. ناما هذه الليلة جنباً إلى جنب في الخيمة. حتى الآن كانت جوانا تنام في الخارج، قائلة إنها تفضل النوم في العراء، ولا تحب أن يكون هناك سقف فوقها. كانت تقول الصدق حقاً، ولكن هناك شيئاً آخر، والدليل هو أنها نامت هذه الليلة بقربه.

تناولا فطورهما وهما ينظران إلى الشمس التي تضيء كل المشهد. القمم البيضاء، والبحيرة الممتدة على مد النظر، وأولى ومضات ضوء النهار على سطح الماء، وأول خيوط الضوء الوردية المائلة إلى البرتقالي، والحصى المستديرة والملساء. مشهد سوربالي. لا صوت سوى تغريد الطيور والنسيم بين أغصان الشجر. كانت

المناظر الطبيعية مثل قوس يعزف على روجي أخذ إميل يفكر فيما أسرت به جوانا عشية أمس. شيء لا يُغتفر. يبدو أنه شيء يفوق الخيانة. شيء خطر حقًا. لطالما كانت جوانا تقيس كلامها، ولم يكن هناك ما يصددها، حتى الموت. كانت تعتقد أن المصائب الكثيرة هي جزء من الحياة. كانت تأخذ كل شيء على نحو فلسفي. ما الذي فعله؟

هل كان للأمر علاقة بالدها؟
يبدو أنه أمر مهم حقًا. استمر إميل في التفكير ناظرًا إليها وهي تأكل. راح يتساءل: لماذا لا تغضب أبدًا؟

عندما سمعها تتكلم في الهاتف مع ليون، لم تكن تصرخ، بل حافظت على هدوئها. رغم أنه فعل شيئًا لا يغتفر، أجبرها على الهرب لأكثر من سنة...
«هل تغادر هذا الصباح؟» سألت جوانا وهي ترفع رأسها عن وعائها.
انتهى من ابتلاع الخبز قبل أن يجيب.

«نعم... ما رأيك؟»

«لا بأس بالنسبة لي.»

«هل نستعد ونطوي الخيمة؟»

«نعم.»

«إميل... إميل، هل تسمعني؟»

بيب. بيب. بيب. كان الصوت منتظماً وممتعاً إلى حدٍّ ما، يشبه صوت التنفس، أو نبض قلب. إلا أنه كان صوت صافرة فقط. كان هناك حركات إلى اليسار، صوت نسيج تقوم قبضة يد بتجعيده، وأصوات تبدو بعيدة أو هامسة.

«... كم من الوقت؟»

«... جيء به هذا الصباح... فاقداً للوعي منذ ساعة... فتاة في الردهة...»

«... يأتي؟»

«... يجب العثور على بطاقة هويته...»

ليس لهذا أي معنى. هذا الحلم غير مترابط إطلاقاً. إنه يخرج بصعوبة من النوم. لا يستيقظ تمامًا. يشعر أنه ثقيل جدًا وأن كل شيء في جسده يؤلمه، لكن هذا الشعور بسبب النوم حتمًا.

«إميل... إميل... هل تسمعني؟»

«هل بدأ يستيقظ؟»

«أظن ذلك... انظر إلى جفنيه.»

عمى شبيهه بأثر لمعة برقي عفيفة. ضوء فج. أشخاص بمآزر بيضاء. شعر أن عينيه تنقلبان من جديد، وأنه سيسقط ثانية في العمى. شعر أنه غادر بالفعل لكن قلبه ينعصر. ماذا كان ذلك؟

أشياء بيضاء. مآزر. شعر بتسارع نبضه. أين هو؟

ماذا يفعل هنا؟

ما كان ينبغي له... حاول مصارعة الألم الذي يحتاجه. حاول التمسك بأصوات عربية جَرّ، بأصوات أدوات معدنية. يجب أن يبقى مستيقظًا. ما كان يجب أن يكون هنا. ماذا يفعلون له؟

تسارع نبضه أكثر، وأخذ يَخْتَق. لم يكن يحلم... لقد كان في الجبال حقًا. كان في البيرينية. ليس خياله هو من صوّر له أنه ذهب في رحلة... وما حدث تاليًا لم يكن حلمًا... عربية التخيسم... حقيتنا الظهر... البحيرة... الذعرُ التام الذي أصابه، ساعده على الخروج في بطء من إحساسه بالثقل والعتمة. وبدأت الأصوات تتضح رويدًا رويدًا. سمع أصواتًا من جديد.

«... نوع من فقدان الوعي...»

«... القلب يتسارع...»

«... يجب إخبار الفتاة...»

لمعة ضوء عنيفة أخرى، وحالة ثانية من العمى. للمرة الثانية فتح جفنيه بسرعة شديدة، لكنه هذه المرة كان أقل تفاجؤًا وأقل تعرضًا لعنف الضوء. شعر أنه يحاول الكلام، لكن دون صوت. كان في الحجرة شخصان، رجل بمتزّر أبيض، وامرأة تخرج إلى الردهة. تثبت بملاءات السرير. إنه في سرير ويرتدي ثوبًا غريبًا، لقد نزعوا عنه ملابسه.

«اهدا يا سيدي. كل شيء على ما يرام. أنت في المشفى، ونحن نهتم بك.»
بدا كلام الطبيب كأنه جرى إبطاؤه. فتح إميل فمه مرة أخرى. نادرا ما شعر بخوف مماثل. كان قد رفض الأمر. رفض أن يموت موصولًا بأجهزة. ما الذي حدث؟

لقد اتخذ ترتيبات منعًا لحدوث ذلك. كانت يدها تحاولان نزع الأغشية، ويعمل الطبيب في هدوء على إبقائه في السرير.

«أعرف أنك مشوش، ولكن اطمئن. نحن نعتني بك. سنجد ملفك الطبي، وذهبت زميلتي لتأتي بصديقتك.»

فُتِح الباب وعادت المرأة ذات الرداء الأبيض ومعها امرأة أخرى أصغر حجمًا. حاول الكلام من جديد ولكنه لم ينجح في إصدار صوت، كما في الكوايس، عندما يكون الخوف شديدًا، يُشَل معه الجسد بالكامل.

«صديقتك هي التي اتصلت بنا. هل تتذكر؟ لقد فقدت وعيك وسقطت أرضًا.»

كانت حدقته تتحركان بسرعة كبيرة من اليمين إلى اليسار، ويعجز عن تركيز نظره على شيء معين. القامة الأصغر حجماً بجانب الممرضة، القامة التي ترتدي ثياباً سوداء، يحاول بكل قواه تركيز نظره عليها. وعندما عرفها، عندما تذكر جوانا، بات أشد حيرة مما كان عليه. لم يكن يحلم. لم يكن رحيله محض خيال، لم يكن يهلوس. كل ما حدث حقيقي. لقد رحل فعلاً برفقة جوانا، لكنه الآن في المشفى.

«إميل؟ إميل، حاول أن تهدأ. أنت تعاني حتماً من ثقب بسيط في الذاكرة. لا شيء خطر. من الطبيعي تماماً أن يحدث ذلك بعد فقدان الوعي.»
اقتربت جوانا من السرير وكان يبدو عليها القلق. تكلمت بصوت خفيض كأنها لا تريد أن يسمعها الطبيب:
«هل تتذكرني؟»

عندما تمكن من هز رأسه، رأى أنها تكاد تهوي من شدة الارتياح. خاطبها الطبيب:

«نحتاج إلى أوراق هويته...»
بدت ضائعة قليلاً. لبثت هناك متدلية الذراعين. تدخلت الممرضة:
«لدينا حقبة ظهره. انظري بداخلها.»
رأى الأشخاص منهمكين دون أن يفهم السبب. شعر أن قلبه يفشل في استعادة إيقاعه الطبيعي. كل ما يتذكره، أنها كانا على ضفة البحيرة، بحيرة غدير، مع ذلك النزل القميء. حاول التشبث بنظرة جوانا. وبواسطة شفثيه رسم سؤالاً:
«ما الذي حدث؟»
التقط الطبيب بطاقة صفراء وخضراء من حافظته، هي بطاقة الرعاية الصحية، وخاطبه في هدوء:

«سأجعلهم يبحثون عن ملفك الطبي.»
غادر الحجرة. قالت له الممرضة:
«سأعطيك مهدئاً. ستكون الأمور أفضل.»
هز رأسه، وحاول الجلوس في السرير لكن الممرضة مددته بالقوة.

«لا تتحرك، وإلا سنضطر إلى تقييدك.»

التفت تجاه جوانا وحاول أن يسأل من جديد: «ما الذي أفعله هنا؟» ولكنه لم يصدر أي صوت. ثم غُرزت الحقنة في ساعده.

«جوانا...»

كان ذلك أول صوتٍ ينجح في إصداره. شعر أن جسده قد استرخى على الفور تقريبًا، واستعاد في الوقت نفسه القدرة على الكلام.

«جوانا...»

«نعم.»

انحنى فوق السرير. ومن خلفها كانت الممرضة ترتب عربة جرّها الصغيرة المملوءة بالمعدات الطبية.

«كنا عند البحيرة...»

قطبت جوانا حاجبيها.

«ماذا؟»

«كنا عند البحيرة.»

«أي بحيرة؟»

شعر أن معدته تتشنج. لولا المهدئ لبدأ يختنق من جديد. هل حلم بالبحيرة؟

«بحيرة غلير...»

«ماذا؟ لا...»

ازداد وجه جوانا شحوبًا.

«غادرنا البحيرة منذ ثلاثة أيام.»

داخً وحاول مجددًا التشبث بملاءات السرير كي ينهض، لكن جسده لم يطاوعه، وأصابه الإعياء.

«لا...»

«بلى، إميل. لقد غادرنا من قرب البحيرة... وتابعنا المسير...»

رأت جيدًا كيف كان يحاول الفهم، والتعلق بكلماتها. رأت كيف كان يكافح كيلا يصاب عقله بالحدَر. أضافت بصوتها الرقيق:

«لا مشكلة. ستذكر... لقد مشينا، وتوقفنا في لوز سان سوفور وفي جيدر...
«ألا تتذكر؟»

هز رأسه نافيًا من جديد.

«كان في جيدر طواحين قديمة جميلة من الحجر... ألا تتذكر السيل؟»
هز رأسه، أخذ يهزه بلا توقف. لا بد أنها تكذب. هذا غير ممكن. لم يغادرا
البحيرة. تدخلت الممرضة:
«يكفي أسئلة وأجوبة. ستعود إليه الذاكرة في وقت لاحق. يجب تركه يرتاح
الآن.»

وضعت يداً فوق كتف جوانا.

«ما رأيك أن تذهبي لتشمي قليلاً في الردهة؟»

أومات جوانا برأسها موافقةً. وبدأ على الممرضة تعبير الشك.

«إذا بقيت هنا، دعيه يرتاح. توقفي عن الرد على أسئلته. هذا يربكه بشدة. لا
أريد أن يتسارع قلبه كما حدث في أثناء استيقاظه.»
«حسنًا.»

«أنا في الجوار على أي حال.»

رآها تغادر الحجرة تاركة الباب نصف مفتوح. نظر إلى جوانا.

«الدفتر...»

لم يكن صوته سوى همس لكنها فهمت. رآها تنحني للبحث في حقيبة ظهره.
أراد التأكد. إذا كانت تقول الحقيقة أم لا، فلا بد أنه كتب في دفتره أشياء لاحقة
لرسالته إلى رينو. نهضت ممسكة بالدفتر. عندما مدّ ذراعه لأخذه، لاحظ الضماد
فوق مرفقه.

«ما هذا؟»

«لقد سقطت مغشيًا عليك في الطريق... بين الأحجار...»

نظر إلى ذراعه الأخرى. فهمت جوانا، فهمت:

«أجريت لك بعض الغرز في المرفق والرأس.»

رفع ذراعه كي يلمس حجمته. مع تلك المهددات لم يعد يشعر بشيء.

«في الجهة الخلفية من الرأس. لا تلمس. كان الجرح ينزف بغزارة، وأعادوا خياطته. لا تلمسه.»

وضعت الدفتر فوق بطنه وسارع إلى فتحه، وهو خائف من أن يقرأ فيه تأكيد فقدانه التام لصوابه. لكن عليه أن يعرف. قلب الصفحات الأولى. 13 يوليو، الساعة 23.50 في باريج، عند طرف الغابة، على طول طريق للمشاة. ثم قرأ: 15 يوليو، الساعة 21، الجو غبار (توقفت ساعتني) باريج، على مسافة أبعد قليلاً في الغابة المحاذية لطريق المشاة. رسالته إلى رينو تعود إلى 16 يوليو. الكتابة تستمر بعد ذلك التاريخ.

17 يوليو، الساعة 18

لوز- سان- سوفور، جانب الطريق، أسفل حصن سانت- ماري. أصبح الطقس غائماً عندما غادرنا بحيرة غلير، رغم أن شروق الشمس كان رائعاً... سرعان ما غطت السماء فوقنا غيوم كبيرة واضطررنا للتوقف قرابة الساعتين في الغابة تحت أشجار الصنوبر لا تقاء المطر. وصلنا منذ نصف ساعة إلى لوز- سان- سوفور تحت وابل آخر من المطر الغزير، وأسرعنا إلى نصب الخيمة. ابتلت ثيابنا. ولم تصمد حقيبتنا أمام المطر. ولكن الدفتر بقي سليماً لحسن الحظ. حسناً فعلتُ عندما لففتُه بمنشفة الميكروفاير.

المطر يزداد غزارة. أرجو أن تصمد خيمتنا.

قامت جوانا فقط بإغلاق ناموسية الخيمة. وبهذه الطريقة نظل من الداخل إطلالة مباشرة على حصن سانت- ماري. وفي حال حدوث البرق، سنكون أمام مشهدٍ يبهر الأنفاس...

رفع رأسه نحو جوانا التي بدت آسفة.

«لا أتذكر شيئاً...»

«لا بأس.»

حاولت الكلام، طمأنته، لكنه شعر بالاختناق. قلب الصفحة. لقد كتب في اليوم التالي أيضاً. شيءٌ خفيف أن يكتشف هذه السطور التي خطها بيده ولا يتذكرها إطلاقاً. شعر أنه يفقد صوابه.

هذه القرية رائعة.

بعد ليلة أمضيناها ونحن نرتجف في كيسي نومنا المبللين، كان من الرائع استئناف المسير. كانت الكيلومترات الاثنا عشر شاقة في الحر. بدت جوانا منهكة. لكننا عندما وصلنا إلى جيدر في آخر النهار، نسينا كل صعوبة النهار. أعشق هذا المكان. أعشق كنيسة جيدر، والنافورة في ساحة القرية، التي تمثل امرأة جالسة تداعب ذئبًا، أعشق الجدول الذي يمر عبر القرية، وفي المقام الأول، أعشق هذه الطواحين الحجرية الصغيرة القديمة.

نصبنا خيمتنا على حافة الجدول غير بعيد عن الطواحين، كي يهددنا خريف الماء. أشعر أنني سأنام مثل طفل. غدًا ستكون وجهتنا سيرك غافارني وشلالاتها.

رفع إميل رأسه بغتة، محاولاً عدم الاستسلام للذعر:

«أين نحن الآن يا جوانا؟»

لم تكن متأكدة أنها فهمت سؤاله بالفعل.

«نحن... في المستشفى...»

«نعم، أعرف، ولكن هل ذهبنا إلى سيرك غافارني؟»

«كنا ننوي الذهاب إليه.»

«لقد سقطتُ إذًا في الطريق إلى السيرك؟»

أومأت برأسها، ترددت برهة، بللت شفيتها.

«ألا تتذكر حقًا؟»

غصة حلقه منعه من الرد. في اللحظة نفسها ظهرت الممرضة مجددًا في الحجرة.

اختفت التعابير التي ارتسمت على وجهها قبل قليل. بدت الآن بهيئة متشككة.

«هل أستطيع أن أكلّمك يا آنستي؟»

شعر إميل بنبضه يتسارع. رأى تردد جوانا، ورأى الممرضة تحاول جرها إلى طرف الحجرة. استطاع أن يقول:

«ما الذي يجري؟»

انتبه جيدًا إلى أنه يصرخ. الدواء المهدئ يجعل صوته ثقيلًا. لم تجبه الممرضة. سحبت جوانا خلفها، وأغلقت باب الحجرة. صرخ من جديد:

«ما الذي يجري؟»

حاول ألا يستسلم تمامًا للذعر. ما الذي يفعلونه؟

لماذا ذهب الطبيب آخذًا معه بطاقتي الصحية؟

ما سبب هيئة التشكك على وجه الممرضة؟

حاول الجلوس، وشعر أنه متصل بأشرطة. لقد وضعوا أقطابًا كهربائية على صدره. رفع رداء النوم الذي ألبسوه إياه وأزال الأقطاب بيدين مرتعشتين. ما الذي يجري بحق الإله؟

وقف على قدميه، شعر بدوارٍ في رأسه وراح يمشي في هدوءٍ وحذر، وصولًا إلى الباب. أمسك القبضة، سمع أطرافًا من الحديث وراء الباب بين جوانا والممرضة.

«هل كنتِ على علمٍ بحالته؟»

كان صوت جوانا مترددًا:

«نعم... أخبرني بحالته...»

«قد تتعرضين للملاحقة. المركز الذي كان يتابع حالته، واضح. مرضُهُ يجعله غير مؤهل لاتخاذ القرارات.»

شعر بموجة قارسة تجتاحه. بالكاد انتبه إلى أنه يفتح الباب. وجد نفسه أمام الممرضة، ولا يدري ماذا عساه يقول لها كي يُخرج نفسه من هذا المأزق.

«أنا...»

لم تعطه فرصة لمتابعة كلامه. أخذته من ذراعه وهي تخاطبه بلهجة فظيعة تتصنع الكياسة.

«ماذا قلنا؟ إذا لم تبق في مكانك، سأضطر إلى تقييدك في السرير.»

كانت تكلمه كأنه متخلف عقلياً، أو خرف تماماً. حاول أن يلفت انتباه جوانا التي كانت تهز رأسها في بطنٍ كأنها تقول له ألا يثير هرجاً ومرجاً في الوقت الحالي. «عقلي سليم تماماً.» حاول الدفاع عن نفسه.

«لدي فقط ثقب في الذاكرة.»

كان الكلام يخرج منه بطيئاً بسبب المهدثات، كأنه سكران، الأمر الذي لا يساعد قضيته.

«عليك أن ترتاح يا إميل. ستتكلم عن هذا كله بعد حين.»

جرته الممرضة إلى السرير، وحاول المقاومة.

«لقد سمعتُ حديثكما. أنت مخطئة! لا أدري ماذا قالوا لكم، ولكنني قادر تماماً على اتخاذ القرارات، وعقلي سليم تماماً!»

أخذ صراخه يعلو أكثر فأكثر، وهو يرى جوانا، في الخلف، تنظر إليه بهيئة مصدومة، لكنه فقد القدرة على التحكم في نفسه.

«دعيني! إليك عني!»

شعر أن الممرضة بدأت تصاب قليلاً بالذعر.

«إميل، اهدأ في الحال!»

كانت تعلم أنها لن تستطيع السيطرة عليه. تردد، سأل نفسه عما إذا كان يجدر به أن يلتقط حقيقته ويركض أم لا، ثم ينادي جوانا كي تلحق به. المشكلة هي أنه حافي القدمين، وبرداء النوم، ومحشو بمهدثات تجعل حركاته أكثر بطئاً مما يجب. «ما الذي يجري؟»

عاد الطبيب إلى الحجرة، وهاتفه ملتصق بأذنه. استدارت الممرضة نحوه.

«الأمور جيدة. أسيطر على الوضع.»

انتبه إميل فقط إلى أنها وضعت لتوها حزاماً حول معصمه وربطته بعارضة سرير، المعدنية. لقد قيدته في الوقت الذي يفكر فيه بالهرب. كان على حق، لقد تيسرت حركته تماماً من المهدثات.

«إذا لم يكفِ هذا لتهديتك، سأقيدك من يدك الأخرى!»

كانت تؤنبه كأنه صبي صغير. استأنف الطبيب مكالمته الهاتفية. كانت جوانا تقف مترجعة إلى الخلف، قرب الباب. راح يتساءل عما إذا جُنَّ بالفعل أم لا. كم يتمنى أن يستيقظ.

«نعم.. نعم... كان عليه أن يتبع ذلك الاختبار السريري إذا... لم يحضر في الجلسة الأولى؟»

كان الطبيب يتكلم وهو يلقي عليه خلسة نظرات جانبية.
«نعم، تم إحضاره بعد تعرضه لفقدان وعي... لا... لا شيء خطر، ولكن... انتظر كي أسأل.»

وجه الطبيب السؤال إلى الممرضة، وكأنه لم يكن معها في الحجرة نفسها.
«أخبريني، هل يتذكر تفاصيل ما قبل سقوطه؟»
هزت رأسها نافية.

«ولا تفاصيل اليوم السابق؟»
«لا. إنه مشوش جدًا.»

حاول إميل أن يتدخل لكنه رأى جوانا تقترب من سريره. تابعت الممرضة والطبيب همسهما. انحنت جوانا فوقه.
«توقف. إذا استمررت هكذا سيقيدونك ولن يعود بمقدورنا إخراجك من هنا.»

لم يعرف حتى بما يجيب.
«أشعر أنني أجنّ.»

«لم تجنّ. حدث خلل في ذاكرتك، هذا كل ما في الأمر.»
«أنت متأكدة؟»

أصبح لديه الآن شك. ماذا لو أنه جنّ حقًا؟
لماذا صرخ هكذا قبل قليل؟

«متأكدة. اطمئن. لقد وصلوا إلى ملفك الطبي عن طريق بطاقتك الصحية. اتصلوا بالمركز الذي تابع حالتك لإجراء الاختبار السريري.»
«ثم؟»

«ثم طلبوا نقلك إلى هناك بشكل عاجل. قالوا لهم إنك تعاني من الزهايمر مبكر، ومن ثم، أنت غير قادر على اتخاذ قرارات. أوصياؤك القانونيون هم من يتعين عليهم اتخاذ القرارات عنك.»

«ماذا؟ أوصياء؟»

«والداك.»

عاد إلى القلب في سريره. نظرت إليه موبخة.

«هل اتصلوا بهما؟»

«لا، لا أعتقد. ليس بعد. ما زالوا يكلمون المركز.»

صمتا مع توقف الطبيب والمرضة عن الكلام، لأنها لا يريدان لفت الانتباه إليهما. اقتربت الممرضة، وهيئة الارتياح لم تختف تمامًا من وجهها.

«إذا يا إميل، هل الأمور أفضل؟»

تولت جوانا الإجابة:

«نعم أفضل، لقد هدأ.»

راحا ينظران إليها وهي منهمكة حول السرير، تعيد وضع الأقطاب الكهربائية فوق صدره، وتقدم:

«ما الذي فعلته يا إميل؟»

انتظرا أن تتعد قليلاً، ثم همس إميل من جديد، وبسرعة كبيرة، قبل أن تعود:

«ماذا نفعل؟»

بالكاد حركت شفيتها عند الإجابة.

«يجب أن نهرب.»

نظر إليها في إمعان.

«أنت واثقة؟»

لقد سمع ما قالته الممرضة قبل برهة. قد تتعرضين للملاحقة. وهو ليس على يقين من أنها مستعدة للمضي إلى ذلك الحد، ومن أن قطيعتها مع ليون كافية لتسويغ هذه المخاطرة.

«أستطيع الهرب بمفردي.»

أجابت من بين أسنانه:

«لقد وعدتُك أن أتقيد بتعليماتك.»

أحالته إلى الكلام الذي تبادلاه عند جدول الماء.

لا أريد أن تأخذيني إلى هناك، مهما فعلت... حتى إذا توسلت. اتفقنا؟

عادت الممرضة فتوقفا عن الكلام.

بقي صامتاً في أثناء حديث الطبيب مع مركز الاختبار السريري لمناقشة مسألة تسفيره. دار الحديث أيضًا عن إخبار الأهل بالوضع. عادت الممرضة مرات عدة كي تتحقق من أنه هداً، فتظاهر بالنوم، كي يكون متأكداً أنها ستدعه بسلام. عندما غادرت الحجرة بعد دقائق، فتح جفنيه. اختفى الطبيب ولم يبقَ أحد غير جوانا المحتارة. أخذ وضعية الجلوس. بات يشعر بقدر أقل من التيسر.

«كيف نتصرف؟» همس مثبتاً عينه على الباب.

«سيعودان... ذهب الطبيب فقط كي يتصل بوالديك من مكتبه.»

«والممرضة؟»

«لا أدري.»

كانت جوانا متوترة.

«غادري المستشفى.»

«ماذا؟»

أعاد وهو يتكلم من بين أسنانه:

«اهربي. لن نلفت الأنظار إذا مضى كلُّ منا بمفرده. غادري أنت أولاً، وسألتحق

بك حالما أتمكن من ذلك.»

«ولكن...»

كانت تحديق إلى الحزام الذي يشبث معصمه.

«أرخبه لي ولكن دعيه مربوطاً بالسرير، فإذا عادت قد لا تنتبه...»

بدت جوانا مترددة، ما دفعه إلى حثها على الإسراع.

«جوانا، أرخي لي هذا، وغادري.»

«كيف سنلتقي؟»

«لا أدري... أليس هناك مقهى في الشوارع المحيطة، أو مراحيض عمومية، أي مكان نجتمع فيه؟»

أبقى نظره مثبتة على الباب. همست جوانا:

«نعم، هناك حديقة صغيرة مواجهة للمشفى.»

«ممتاز. سأوافيك إلى هناك حالما أستطيع.»

قامت وهي لا تزال مترددة، بإرخاء الحزام بحركات قليلة الثقة.

«ربما يجدر بك أن تغادر أولاً...»

هز رأسه في حزم. لقد استعاد الآن كل ملكاته.

«لا. إذا اختفيت وأنت هنا، قد يلقون القبض عليك.»

«أتظن ذلك؟»

«وإذا غادرت أنت، لن يكون عليّ سوى أن أقول إنك خرجت لشراء شيء

تأكلينه... أو لتناول قهوة. سأتمكن من المغادرة بعد ذلك.»

سُمع وقع خطوات في الممر، ونهضت جوانا في حيوية.

«اتفقنا.»

رغم ابتعاد الخطوات، انتظرا بضع ثواني كي يتهامسا من جديد.

«سأحمل حقيبتك معي.» أعلنت جوانا.

«ماذا؟ لا...»

«ستسير أسرع دون الحقيبة.»

أراد الاحتجاج لكن أدرك أنه يضيق وقتها بالجدال.

«حسنًا، ولكن اتركي لي بعض الملابس لأرتديها. لا يمكنني المغادرة بهذا

الرداء.»

أومأت. استندت إلى ركبتيها وبدأت تبحث داخل حقيبته الضخمة، وأخرجت

منها قميصًا أسود وبنطال شورت بيع.

«هذا مناسب؟»

«نعم.»

«حذاؤك هنا...»

«شكرًا. خذي، أعيدي دفثري إلى الحقيبة.»

فعلت ما طلبه منها.

«وماذا بشأن حقيبتك؟»

بدت متفكرةً لثوانٍ.

«لا بد أني تركتها في قاعة الانتظار، في الأسفل.»

شعر ببعض الانزعاج.

«هل أنت واثقة أنك مستدبرين الأمر؟ يمكنني التكفل بحقيبتك. امضي

واستعيدي حقيبتك. هذا هو الشيء الأشد إلحاحًا...»

«لا، سأكون بخير.»

نهضت وعلقت الحقيبة خلف ظهرها.

«أنا ذاهبة.»

«نعم. امضي بسرعة.»

«في الحقيقة، إميل...»

ربما خافت أن ينسى.

«الحقيقة.»

نظر إليها وهي تختفي من الغرفة حاملةً حقيبتة الضخمة على ظهرها.

الحديقة. الحديقة. الحديقة. شعر بخوفٍ شديد من فكرة نسيانه للمكان. راح

يكرره لنفسه بلا توقف، وبلا كلل. الحديقة. الحديقة. الحديقة. ماذا سيحدث إذا

نسي مكان اللقاء؟

إذا نسي أن عليه أن يهرب؟

لا، مستحيل. صحيح أن ذاكرته قد اختلّت، لكنه الآن استعاد كل ملكاته،

وبات متأهبًا، ولن ينسى. رغم ذلك أخذ يردد: الحديقة. الحديقة.

أغمض عينيه بقوة عندما دخلت الممرضة إلى الحجرة. حاول أن يتنفس في

بطءٍ وهدوءٍ، راجيًا ألا ترى الحزام المرتخي، والكومة التي شكلتها ملابسه تحت

الغطاء. دارت حول السرير، أعادت وضع أحد الأقطاب الكهربائية على صدره.

سمع الطبيب يناديها من الردهة:

«أليس؟»

«نعم!»

«هل يمكنك المجيء؟»

تنهدت في تدمير.

«ها أنا قادمة.»

أضاف صوت الطبيب:

«والداه يريدان أن يعرفا كيف حاله.»

دق قلبه بقوة. الآن! طغت عليه موجة الذعر. والداه على الخط. الممرضة التي ستعود. سيطلبان الكلام معه. لا. يجب أن يتحرك الآن، وإلا لن تتوفر فرصة أخرى. الحديقة. الحديقة. الحديقة. انتزع الأقطاب الكهربائية، تناول الملابس من تحت الغطاء. الحديقة. ليس لديه وقت لارتداء الثياب. لبس الشورت، وانتعل الحذاء الرياضي. رداء النوم سيخلعه في الخارج. الحديقة. دق قلبه بقوة، وتعرقت يده. مد رأسه من فتحة الباب. يجب أن يرحل على أي حال. رأى قائمةً في آخر الممر. لا يعلم إن كانت قائمة الممرضة أم لا. اندفع إلى الأمام. الحديقة. الممر، اللوحة التي تشير إلى المصعد. كان يسير محاولاً ألا يبدو هارباً، ويحث نفسه على المحافظة على الهدوء والبطء. يجب أن يبدو طبيعياً. القائمة التي ظهرت في آخر الممر، اختفت داخل إحدى الغرف. أسرع الخطى. الحديقة. استغرق المصعد دهرًا للوصول. سخن رأسه وشعر بدوخة. انفتح باب المصعد. كان فارغاً. ضغط عدة مرات على الصفر. انغلق الباب. اغتتم الفرصة كي يرتدي قميصه الأسود فوق رداء النوم. ويديه المرتجفتين دسّ ذبول الرداء داخل بنطاله الشورت. انفتح باب المصعد في الطابق الثاني، ووجد نفسه مقابل زوجين. سيطر على نفسه كيلا يبدو في حالة من الغيظ التام:

«هل تريدان الصعود أم الهبوط؟»

«نريد الهبوط إلى الطابق الأرضي.»

«أنا أيضًا.»

دخل الزوجان وانغلق باب المصعد مجددًا. في المرأة لمح وجهه الممتقع، والضهاد الأبيض الذي يغطي جانبًا كبيرًا من جمجمته. أخيرًا، وصل إلى الطابق الأرضي. كان الصخب والحركة يسودان البهو. اندفع بخطوات واسعة نحو البوابة الزجاجية. الحديقة. الحديقة. الحديقة. الحرارة في الخارج حبست أنفاسه، وضوء الشمس أعمى عينيه. كانت الشمس في كبد السماء. لا بد أن النهار قد انتصف. عبر من أمام سيارة أجرة، محاولاً أن ينظر حوله. رأى الطريق، وشارة المرور، ومطعمًا في الجهة المقابلة، وموقف السيارات التابع للمشفى... لم يرَ حديقة. نبهته سيارةٌ بزمورها، وصرخ رجل:

«انظر قبل أن تعبر!»

وصل إلى الرصيف المقابل ولمح أخيرًا بقعة خضراء، أشجارًا هناك... عندما وصل تقريبًا إلى سياج الحديقة، سمع صوت جوانا خلفه.

«إميل!»

استدار فجأة. ركضت جوانا تجاهه حاملة حقيبة على ظهرها، وأخرى معلقة من الأمام على صدرها.

«كنت وراءك.»

«ماذا فعلت كل هذا الوقت؟»

«اضطرت للذهاب إلى حجرة المفقودات لاستعادة حقيبتني.»

«يا إلهي!»

كان على وشك السقوط من شدة الارتياح وهو يراها أمامه، ومعها حقيبتاهما. لقد نجحا. لكن الأفضل لهما أن يتعدا وألا يبقيا هناك. استعاد حقيبتيه منها.

«تعال، ستوقف لنتناقش في مكانٍ أبعد.»

سارا في المدينة عشوائيًا، بخطىٍ حثيثة. الهدف هو الابتعاد عن المشفى. وباستثناء ذلك، لم يكن لديهما أي فكرة عن وجهتهما.

«أين نحن؟»

«لا أعرف بالضبط...»

«كيف لا تعرفين؟»

«لقد جاءوا بنا بطائرة مروحية.»

«أنت تمزحين؟»

«لا. كنا وسط الجبال...»

حاول ألا يفقد توازنه. كان كل هذا الوقت غائبًا عن الوعي. لا بد أن الأمر قد استمر ساعتين أو ثلاثًا. لم يدرك حتى أنهم ينقلونه بطائرة مروحية. إنه أمر جنوني تمامًا. استدار محاولاً رؤية واجهة المشفى. لحسن الحظ أن بصره جيد. استطاع أن يقرأ. مشفى بانير دي بيغور.

«أظن أننا عدنا إلى نقطة الانطلاق.»

التفتت جوانا إليه متسائلة.

«كيف ذلك؟»

«لا بد أننا على بعد نحو عشرين كيلومترًا من أرتيغ ومن عربة التخميم.»
لم ينجح في تفحص وجهها كي يعرف ما إذا شعرت بالارتياح للخبر، أم على العكس، شعرت بالخيبة. أضاف:

«إنني آسف. لم أكن أرغب أن تُختصر رحلة حقائب ظهر.»

«أنت تمزح، لا مشكلة إطلاقًا.»

«سننطلق مجددًا.»

أومات برأسها:

«ولكن ليس على الفور. يجب أن ترتاح الآن.»

مرا أمام مطعم الشواء ذاك، الذي يقدم وجبات برجر أمريكية، جذبتها رائحة اللحم المشوي والمقلي وهواء التكيف. كان وجه إميل لا يزال يعلوه الشحوب، ولم تكن جوانا متأكدة أنه سيستطيع الصمود طويلًا بحقيبة ظهره الضخمة إذا لم يأكل شيئًا.

تبادلا نظرة وفهما أنها متفقان.

«هل ندخل؟»

«نعم.»

جلسا في فسحة، آخر القاعة، متوارية خلف حجاب. طلبا حصة مضاعفة من البطاطا المقلية. اختارت جوانا شطيرة جبن بالخضار، واختار إميل همبرجر مضاعف. لم يقولوا شيئاً في انتظار طبعيهما، فقد كان كلٌ منهما أشد إرهاقاً من الآخر. سأل إميل عما إذا مشيا أكثر مما يجب في هذه الأيام الأخيرة. عندما وصل الطباقان، انقضا عليهما وأخذا يتكلمان في أثناء المضغ.

«هل أفصح الأطباء عن السبب الذي جعلني أفقد وعيي؟»

«تكلّموا عن الارتفاع، عن التعب الجسدي... لكنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن مرضك. هل تعتقد أنه ربما يكون مرضك هو السبب؟»

«ممكّن.»

«هل حدث لك هذا سابقاً؟»

«نعم.»

حدث له شيءٌ مماثل مرات عديدة قبل أن ترغمه أمه على الذهاب إلى المستشفى. لكنه في تلك المرات لم يكن بهذه الشدة، وكان يستعيد وعيه بعد بضع دقائق.

«لم أغب عن الوعي بهذا القدر قط.»

«ربما أسهم التعب في مفاقمة الوضع.»

«ربما.»

«سنبقى بعض الوقت في المكان نفسه. أليس كذلك؟»

نظر إليها وهي تأكل بنهم، وتلحق أصابعها، كأنها تعاني من الجوع منذ أيام. ربما لم يأكلا كفايتهما...

«نعم، هذا ممكّن...»

«الوقت الكافي كي ترتاح.»

«أنتِ على حق.»

جاء النادل لجمع الأطباق. ورغم أنها أكلت بشراهة، نظرا إلى لائحة أطباق التحلية واختارا كويين من المثلجات.

«وبخصوص الغرز؟» قال إميل وهو يضع الملعقة في كوب مثلجاته.

«ماذا؟»

ظهرت آثار من آيس كريم الفريز في زاوية فمها.

«هل لديك فكرة إذا كانت غرز جروحي كثيرة أم لا؟ وماذا سنفعل إذا اضطررنا لإزالتها؟»

مسحت فمها بمنديلها.

«جرح المرفق ليس كبيرًا جدًا وفق ما قيل. ثلاث أو أربع غرز. جرح الرأس أكبر.»

نظر إليها في قلق.

«هل ستستطيعين القيام بهذا؟»

هزت كتفها ثم أوامت برأسها.

«أظن ذلك.»

تبنى نبرة أكثر خفة كي يسأل:

«لا بد أنك تعرفين كيفية تحضير علاجات من الأعشاب؟»

وحققت تلك الملاحظة المفعول المطلوب، فقد شرعت جوانا في ابتسامة.

«نعم. ثم إنني... سبق أن فككت عددًا غير قليل من الغرز.»

لم يجرؤ أن يسألها عن السبب.

استأنفا الطريق بمعدتين ثقيلتين، إنما بمعنويات أفضل. جعلته جوانا يضع قبعة تحمي رأسه وتغطي ضماده. وعلى بعد أمتار معدودة من المطعم، نزع عنه الرداء الذي يحمل ألوان المشفى، ووضعه في سلة مهملات. أخرج دليله الخاص بجبال البيرينيه.

«هل تعرف إلى أين نذهب؟» سألت جوانا.

«نعم، أعرف.»

كان أمامهما مسير عشرين كيلومترًا، لكن فترة بعد الظهر قد بدأت، ونظرًا لحالة إميل الصحية، قررا التوقف لقضاء الليل في قرية صغيرة تدعى بوديان. يشير الدليل إلى أن عدد سكانها 392 نسمة، وارتفاعها أقل من ستمائة متر. ستكون مثالية للتعافي قليلًا.

كان الطريق منحدرًا بشكلٍ ممتع، وظليلًا. اجتازا العديد من القرى والتجمعات الصغيرة، وتمكنا من ملء زجاجات المياه. وعند دخولهما إلى بوديان بعد ساعتين تقريبًا من ذلك، كان إميل قد أنهك.

بوديان قرية صغيرة في قلب الوادي، تحيط بها مساحات خضراء. بُنيت غالبية المنازل بالحجر. تطل عليها كنيسة قوطية صغيرة ذات مظهرٍ غريب، لم يشاهدا مثله من قبل، فقد أحيط برج الجرس الأرذوازي، بأربعة أشكالٍ تزيينية تشبه الأجراس، يعلوه غطاء مخروطي الشكل. تبدو الكنيسة أشبه بحصنٍ صغير من حصون القصص الخيالية.

كان يتعين عليهما عبور القرية والتجول قليلًا في المساحات الخضراء للعثور على مكانٍ هادئٍ للتخيم في ظل الأشجار. نُصبت الخيمة بسرعة، وقررت جوانا الذهاب في نزهةٍ على الأقدام بحثًا عن بعض النباتات لعلاج جروح إميل. أسند ظهره إلى جذع شجرة وفتح دفتره الأسود.

17 يوليو، الساعة 18

لوز- سان- سوفور، بمحاذاة الطريق، عند سفح حصن سانت ماري.

كان الطقس غائمًا عندما غادرنا بحيرة غليير. إلا أن شروق الشمس كان منهلاً...

لا تزال الأيام الثلاثة الماضية ممحوةً تمامًا من ذاكرته. لقد ظن في فترة ما بعد الظهر أنه سيتذكرها باستعادته لرشده، وتبدُّد ذعره تمامًا من الاستيقاظ، بالتزامن مع تلاشي أثر المهدئات... لكن لا. لا شيء. الثقب الأسود نفسه. كانا جالسين بجانب البحيرة، وذهبا لحزم أمتعتهما والمغادرة. ثم لا شيء.

قرية جيدر، مخيم مرتجل أسفل جدول الماء.

هذه القرية رائعة.

بعد ليلة من الارتعاش في كيسي النوم المبللين، كان من الرائع استئناف المسير.

لماذا توقفت ذاكرته في ذلك الصباح عند ضفة البحيرة؟

ما الذي حدث؟

أعشق كنيسة جيدر، والنافورة في ساحة القرية، التي تمثل امرأة جالسة تداعب
ذئبًا، أعشق الجدول الذي يمر عبر القرية، وفي المقام الأول، أعشق هذه الطواحين
الحجرية الصغيرة القديمة.

مهما أعاد قراءة هذه السطور التي كتبها بنفسه، لا يتذكر شيئًا. وربما يكون هذا
هو الحال على نحو متزايد. ربما يتفاهم الأمر. عليه بأي ثمن الاستمرار في تسجيل
ملاحظاته. عليه بأي ثمن كتابة كل هذه الرسائل الصغيرة إلى والديه، إلى مارجو،
إلى رينو، قبل أن ينساهم تمامًا.

لم يدرك على الفور أنه يرغب في البكاء. لم يعتد البكاء قط... إنه الإرهاق بلا
شك. إنه جلوسه متكئًا على هذه الشجرة، مع هذا الدفتر اللعين، وهذا الثقب
الأسود الذي لا يتضح. من هنا تأتي سخرية الموقف. لأنه بقي شهورًا وشهورًا،
دعا فيها في صمت متجهًا إلى إله، إلى ملائكة، إلى قوى غامضة. وجة دعاء يقول:
لبيتي أستطيع نسيان كل شيء. لبيتي أستطيع نسيان من أكون.. كانت لورا قد
رحلت وشعر أن حياته انتهت. لم ير سوى طريقة واحدة تساعد على الاستمرار
في الحياة: أن ينساها، وينسى أنه أحبها. عندها ردد هذا الدعاء. لبيتي أستطيع نسيان
كل شيء... واليوم يتمنى وهو وحده مستندًا إلى شجرة، أن يبكي مثل طفل. لم يعد
يرغب في النسيان. لقد فات الأوان.

أيقظت إميل يدان صغيرتان توضعان فوق جبينه. ظن في البداية أنه في حلم لأنه فتح عينيه ولم يرَ غير الحُضرة وضوءًا ذهبيًا جميلًا. ولم يكن ذلك في الواقع سوى العشب وأوراق الشجر، وأشعة الشمس تتراقص بين الأغصان. لا بد أنه غفا، ودفتره إلى جانبه. كانت اليدان هما يدا جوانا التي تضع فوق جبينه شيئًا باردًا ومبللًا.

«جوانا؟»

لا بد أنها تحركت لأنه الآن يرى وجهها فوقه.

«لا تتحرك. وضعتُ لك كمادة.»

اختفت مجددًا من نطاق رؤيته. ألقى نظرة على مرفقه دون تحريك رأسه. لا بد أن جوانا قد اعتنت بهذا الجرح، لأنه لم يعد ملفوفًا بضمار المشفى الأبيض، بل كان مغطى بنوع من الهريس الأخضر.

«ما هذا؟»

لم تجب على الفور. كانت شديدة التركيز على ما تقوم به.

راح يتذوق الإحساس بالانتعاش الذي يغلف فروة رأسه، والذي يبدو أنه يتغلغل داخله ويتشرب في جميع أنحاء جسده.

أجابت أخيرًا: «كمادات نبات القراص.»

كان يسمعها تتحرك، ولا بد أنها استقامت لأنه عاد لرؤيتها فوقه.

«لم أجد غير القراص.»

«وهذا ليس جيدًا؟»

«كنت أفضل لو أجد النعناع... للحصول على مطهر...»

«آه...»

«هذا سيحول في الأقل دون حدوث نزيف من جديد...»

بدت متفكرة للحظة.

«سنحتاج إلى خل للتطهير.»

لم يستطع إلا أن يتنسم. لاحظ أن ذلك يسبب شدة في جلد رأسه حيث توجد الغرز.

«ما الذي جعلك تبتسم؟» سألت جوانا.

فوجئ بأنها رأت ذلك.

«كنت أتساءل عما ستكون عليه رائحتي عندما تدهنيني بالنعناع والخل.»

كان سعيدًا لرؤيتها هي أيضًا تبتسم.

«ستكون طارداً ممتازاً للحشرات.»

أطلقت ضحكة خفيفة جدًا.

من المفاجئ دائمًا سماعها تضحك. أغمض إميل عينيه ليستمتع باللحظة. هو وجوانا يتبادلان المزاح، وهو الشيء النادر، العشب الذي يمتد تحت جسده، أشعة الشمس التي تمس جبهته، والنسيم البارد الذي يدغدغ ساقيه.

«سأدعك ترتاح قليلاً أيضًا.» قالت.

شعر أنها تنهض. سمع خطواتها تبتعد فوق العشب.

«كم الساعة؟»

لكنها كانت قد اختفت.

عندما استيقظ من جديد، كان الليل قد حل. جلس متجهماً بسبب ألم مرفقه الذي لا يزال الهريس يغطيه، وخمّن أنه لا يزال يغطي رأسه أيضًا. كانت جوانا تجلس في مكان غير بعيد، حول ضوء صغير يومض. استغرق بضع ثوانٍ كي يتأقلم مع الظلام ويفهم أنها تنحني فوق الموقد. استدارت عند سماعه يتحرك.

«آه. ها قد استيقظت.»

«آسف... لقد نمت نومًا عميقًا... هل الوقت متأخر؟»

لقد تحطمت ساعته منذ بضعة أيام. ولا يزال يجد مشقة في اعتياد العيش دون جدول مواعيد. هزت جوانا كتفيها.

«أفترض أن الساعة ربما تكون العاشرة.»

اتخذ وضعية الجلوس ثم نهض في بطاء. شعر بتحسين كبير عن ذي قبل. انضم إليها بجانب الموقد، مرتاحًا، هادئ النفس.

«لا بد أنك جائعة جدًا.» قال بلهجة اعتذار.

«لا بأس.»

«ماذا تعدّين؟»

أشارت إلى علبة من الفاصوليا الحمراء وأخرى من الذرة، عند قدميها.

«طبق يشبه شيلي كون كارني ولكن دون كارني⁽¹⁾.»

«هذا مثير للاهتمام.»

جلس بجانبها، مدّ ساقيه أمامه، متمطيًا.

«هل نحتاجين إلى مساعدة؟»

«لا. الوجبة جاهزة تقريبًا.»

«حسنًا.»

انتظرَ بضع ثوانٍ، وراح يراقبها وهي تحرك عتوى القدر في بطاء.

«وهذه الأشياء، متى يمكن إزالتها؟»

«الكهادات؟»

«نعم...»

«سوف تجف وتساقط من تلقاء نفسها.»

«حسنًا...»

«هل تسبب لك حكة؟»

«لا.»

هزت كتفيها.

(1) فلفل باللحم.

«دعها إذا حتى تتساقط من تلقاء نفسها.»

عاد الصمت. لا يُسمع سوى صوت الصراخ وصوت الملعقة وهي تحك القدر. مرت بضع دقائق. أطفأت جوانا النار، والتقطت الطبقين البلاستيكيين وملأتهما بوجبة الفلفل دون لحم.

«تفضل.»

«شكرًا.»

أحضرا الملعقتين الكبيرتين اللتين يستخدمانهما في التخميم كشوكتين، وبدأ يتناولان الطعام. كان الهدوء تامًا في القرية، ولم يصادفا أحدًا في أثناء عبورهما لها قبل حين. شعرا أنهما بمفردهما في العالم، مع طبعيهما البلاستيكيين.

«لقد....»

أنهى إميل ابتلاع لقمته قبل أن يتابع:

«لقد أعدتُ قراءة الدفتر قبل قليل... لكنني لم أتذكر شيئًا.»

«لم تتذكر؟»

هز رأسه بالنفي. لم تكن جوانا تبدو قلقة. كانت هذا الصباح قلقة فعلاً، لكنها هذا المساء تبدو مطمئنة وتوحي بالاطمئنان.

«ربما تتذكر.»

«ربما لا.»

«ربما لا.»

«ما الذي جرى في هذه الأيام الثلاثة؟»

فوجئت قليلاً بسؤاله. وضعت طبقها على الأرض، وهزت كتفيها.

«لم يحدث شيء خاص... الأشياء المعتادة...»

«والمقصود؟»

«مشينا. نصبنا الخيمة. تناولنا الطعام ونمنا... كما في كل الأيام.»

«آه.»

خاب أمله. أراد سماع شيء آخر. أراد أن تبدد كلماتها عتمة رأسه، وتستبدلها بالمناظر الطبيعية، بالأصوات، بالروائح... لا بد أنها فهمت ذلك من ارتبائه المذهول... أو ربما من الـ (آه) التي صدرت عنه. استقامت قليلاً على أي حال، وأعلنت:

«كان يوماً خفيفاً، يوم وصولنا إلى لوز سان سوفور... كانت السماء منخفضة ومظلمة، وأخذت ترعد طوال الليل. كنت تبدو سعيداً. أمضيت ساعات تراقب البرق.»

ابتسم لها في امتنان. لا يمكنها أن تتخيل كم يساعده ذلك.
«وأنتِ؟» سأل إميل.
«أنا؟»

«لا بد أنك كنت خائفة.»
هزت كتفها بحيادية بدأت تخف شيئاً فشيئاً.
«ليس لهذا الحد.»
«حقاً؟»

«رؤية البرق تُخفف من رعب الصوت...»
«أوه... هذا خبر جيد إذًا...»
«أومات موافقةً وضيق عينها قليلاً كي تركز.
«اليوم التالي كان إلى حد ما... مثل صبيحة ما بعد العاصفة.»
«كيف؟»

ضيق عينها مرة أخرى لاختيار كلماتها.
«بعد الظلام والرياح، يبدو كل شيء أكثر تلوُّناً، وأكثر نضارةً وخفة.
«أتفهمني؟»
«نعم.»

«بدت السماء كأنها أشد زرقاء، والغيوم أشد نعومة...»
لم يدرك أنه كان يصغي إليها بنوع من الافتتان، ويجدق إليها بفهم نصف مفتوح.
كان يدرك شيئاً واحداً، أنه كان يفكر في سره: لا شك أن في رأسها شيئاً حقيقياً.

«جمعتُ أزهارًا في الطريق. سألتني: ما نوعها؟ كانت زهور الحوذانية.»

فتح فمه لكنها أجابت عن سؤاله قبل أن يصيغه:

«كانت زهورًا ذات عنيّ طويل وعشرات الجريسات البنفسجية المزرقة. وصفتها بالجميلة. ثم... ثم وصلنا إلى جيدر بعد الظهر، وأردت... أردت الذهاب لمشاهدة الطواحين، وأعجبتك للغاية. وبالفعل كانت تلك الطواحين الحجرية العتيقة، جميلة.»

انتظر لحظة كي يتأكد أنها أنهت كلامها، ثم قال:

«شكرًا.»

هزت كتفيها بمعنى أن ما فعلته غير مهم. لكنه مهم. كان ممتنًا لها.

كان يعرف التمة. سلكا هذا الصباح طريق سيرك غافارني، وفقد وعيه. تم نقله بالطائرة المروحية إلى بانير-دي-بيغور، وها هما هذا المساء في هذه القرية الصغيرة التي تبدو مهجورة.

استأنفا تناول وجبتهما في صمت. وبعد دقائق عندما ألقيا بصحنيهما في العشب، قاطعت جوانا ساقها متربعة ثم فتحت فمها عدة مرات، كمن يهّم بالكلام، ثم يعدل عنه. سأها إميل:

«ماذا هناك؟»

وهزت رأسها.

«لا شيء. فقط حماقة.»

أصر قليلًا، فهمست في النهاية: «لا أدري.»

ضائعة في أفكارها. لم يكن من المؤكد أنها تخاطبه بالفعل. أخرجها من أفكارها عندما استقام في بطء، واقترح:

«سأقوم بجولة في القرية. أحتاج إلى المشي قليلًا. هل تأتين معي؟»

لم تنظأمر حتى بالتردد. نهضت بدورها.

«حسنًا.»

كانت خطاهما ترن على حجارة الرصيف في القرية المهجورة. كانا يسيران على مهل، وأيديهما في جيوبهما. توقفنا لحظة أمام الكنيسة، فتنحنحت جوانا.

«قبل قليل خطرت لي فكرة...»

ترددت. أو ما برأسه مشجعاً كي تواصل الكلام، لكنها بقيت متشككة.

«فكرتُ فيها سيحدث في المرة القادمة التي ستعرض فيها لفقدان وعيك...»
هز رأسه موافقاً.

«أنتِ على حق. يجب أن نتكلم في هذا.»

هوى جالساً فوق إحدى درجات الكنيسة. فيما بقيت هي واقفة، تنقل ثقلها من ساقٍ إلى أخرى.

«سوف... سوف يتعين عليّ أن أنقلك إلى مشفى إذا تكررت هذه الإغماءات...»

عرف إلى أين تريد الوصول. بعد ظهيرة اليوم، لم يكن يريد التفكير في ذلك، لأنه أراد الاستمتاع فقط بالسلام الداخلي المستعاد. لكن لا مفر من التباحث في الأمر.

«لا أدري إذا كانت جميع المشافي تستطيع الوصول بهذه السهولة إلى الملفات

الطبية أم لا، ولكن...»

قاطعها قائلاً:

«أعتقد أن هذه هي حال جميع المشافي. أعتقد أن هذا الموقف سيتكرر.»

كان وجهه ينم عن الألم.

«لا أعرف ماذا يمكنني أن أقول لك... لا أعرف إن كان هناك حل لذلك أم

لا... لا أريد أن تتم ملاحظتك... لذلك، إذا تكررت الحالة، أفضل أن تركيني بجانب الطريق إلى أن أصحو...»

«كفى.»

«لا أريد أن يعيدوني إلى أبيّ.»

«أعرف.»

«أفضل أن تركيني أموت على قارعة الطريق.»

«أعرف يا إميل. هناك حل.»

«ماذا؟»

أخذ يحدق إليها غير مصدق. بقيت واقفة أمامه، تطل عليه من أعلى، وتبدو واثقة بنفسها. أومأت برأسها وقالت:

«نعم. لقد فكرت في الأمر عصر اليوم، وفكرت أيضًا لاحقًا في أثناء الوجبة.»
«وما...؟»

لم يتمكن من إنهاء سؤاله، فقد كان ممتلئًا بالشكوك والترقب المحموم.
«لن نغير شيئًا في مسألة اعتبارك غير مؤهل لاتخاذ القرار بمفردك. هذا مستحيل. ولكن...»
«ولكن؟»

«ولكننا نستطيع التصرف بحيث لا يعود والداك هما المسؤولان القانونيان الوحيدان عنك.»

لم يفهم. كانت تبدو واثقة تمامًا بنفسها. فتح فمه كي يستفهم منها لكنها في النهاية ألقت القبلة التي كانت تحتفظ بها:
«يجب أن نتزوج.»

أصيب بنوبة عصبية من السعال. لقد أدرك سبب تردها قبل حين في أثناء الوجبة، وسبب قولها: لا شيء، فقط حماقة.

بدت فكرتها جنونية تمامًا، ولم ير ارتباطها بالموضوع!
«أعرف... قد تبدو لك الفكرة خارجة تمامًا عن السياق، ولكنني سأشرح لك.»

الآن وقد ألقت قُبيلتها، عادت لتصبح من جديد جوانا التي يعرفها. جوانا الهادئة، المسيطرة تمامًا على انفعالاتها، والتي تكاد تكون متبلدة. أصبحت فجأة كأنها لم تعد معنية حقًا بالموضوع.

«إذا تزوجنا، سأصبح قانونيًا مسؤولة عنك... و... ويصبح بإمكانني أن أضمن عدم أخذك إلى المركز الطبي أو إلى والديك...»

صمتت لتتركه يقيم ما أعلنته لتوها. بقيت واقفة بذرايعين متقاطعتين، دون أي انفعالٍ خاص.

«لا أطلب منك أن تعطيني جوابًا، ولا حتى أن تفكر في الأمر بأي ثمن. أردت فقط أن تعرف أن هناك حلًا.»

مرت المفاجأة في هدوء. حاول أن يجري تقييمًا لهذا كله. بإمكانني أن أضمن عدم أخذك إلى المركز الطبي أو إلى والديك... تردد صدى الجملة في رأسه. أرغم نفسه أن يقول في ببطء:

«أنت محقة... قد يكون هذا حلًا.»

فهم بصورة أفضل لماذا قالت ذلك أمام الكنيسة. هز رأسه في محاولة لاستعادة صوابه.

«لديك كل الوقت للتفكير في الأمر، أو عدم التفكير فيه.»

«نعم. أعرف.»

تراجعت خطوة إلى الخلف، وأشارت إلى الطريق المرصوف بالحجارة.

«هل تريد أن نعود أم نتابع الجولة؟»

«لسنا مضطرين إلى الكلام في الموضوع. ليس هذا المساء على أي حال.»

نهض في ببطء، واستأنفا السير في القرية التي لا تزال مقفرة. كانت المصابيح تشوّه ظليّهما على الطريق، فيظهران مثل شبحين ضخمين يتسكعان بلا هدف. إذا تزوجنا، سأصبح قانونيًا مسؤولاً عنك... و... ويصبح بإمكانني أن أضمن عدم أخذك إلى المركز الطبي أو إلى والديك... هل هي مستعدة حقًا للقيام بذلك؟

ذهبا للنوم دون كلمة. لقد خلق ذلك النقاش في ساحة الكنيسة، حالة من الفتور بينهما، على الرغم من أنهما لا يريدان ذلك. أصبح كلُّ منهما الآن مضطّرًا إلى التفكير في الأمر، مضطّرًا إلى تصور الآخر بوصفه زوجًا محتملاً وزوجة محتملة، ولو على الورق، وهذا يخلق نوعًا من الإرباك.

«هل تريدان أن تتزوجي، أنت؟»

عاد بالذاكرة بضع سنين إلى الوراء، في شقته الطلابية. تذكّر لورا، وهي تستدير نحوه، هبتها الساخرة. كانا مستقلّين في سريره الضيق. كانا يعرفان جيدًا أنها عندما يمارسان فيه الحب، يبدأ الجيران بالطرق على الجدران. كانا أحيانًا يقومان بذلك فقط لأجل التسلية.

«ما هذا السؤال؟»

لم يسمح لنبرتها الوقحة أن تريبكه، فهو يعلم أنها كثيرًا ما تستخدمها للتغطية على انزعاجها.

«إنه سؤال مثل غيره.»

«ممم.» دمدمت وهي تشيح بوجهها.

«إذًا... تريد أن تتزوجي؟»

«لا أعرف.»

«كفاك. جميعنا نعرف ما إذا كنا نريد ذلك أم لا.»

«من جهتي، أنا أخاف من تغيير رأيي عند فوات الأوان.»

أسند نفسه إلى مرفقه.

«ماذا؟»

«عند المذبح مثلًا؟»

«لا. ليس على الفور. بل بعد أن يتم الزواج... مع الشهور والسنين.»

«آه.»

سرح نظرها في السقف، وقالت:

«هذا ما يجعلني واثقة بأمر.»

«حقًا... وما هو؟»

«إذا تزوجتُ يومًا، فسيكون ذلك بإرادتي.»

«والمقصود؟»

«سأكون أنا من اتخذ القرار، وأنا من يتقدم بالطلب.»

نفخت صدرها كي تبدو مهمة.

«لأنني سأعرف أنني مستعدة للأمر. ستكون تلك هي اللحظة التي أعرف

فيها ذلك.»

ظهر عليه الارتباك والانزعاج.

«ماذا إذا كنت أنتي لطلبك للزواج الآن، في الحال؟»

«سأجيبك بـ لا! دون تردد!»

تظاهر بالإهانة ودفعها خارج السرير. لقد شعر على أي حال بشيء من الإهانة، وإن لم يشأ الاعتراف بذلك.

عادت إلى السرير، وأخذت تضربه براحة يدها.
«المشكلة هي أن الوقت ربما يكون بعدها قد فات...»
«ماذا؟»

«عندما تقرر الركوع أمامي، ربما أكون قد غيرت رأيي...»
وجهت إليه نظرة ازدراءٍ مرعبة.
«أنا أركع أمامك؟! هذا لن يحدث أبدًا!»
ردًا متزعجًا:

«على كل حال، لن أتزوجك أبدًا. سأزوج فتاة شقراء.»
عقدت ذراعيها فوق صدرها.
«أرى ذلك.»
«ماذا ترين؟»

«لقد جرحت مشاعرك، وتسعى إلى إيذائي.»
«إطلاقًا. المسألة هي أنني لطالما فضلت الشقراوات. وأولئك اللواتي يتمتعن
بقدر أكبر من التميز...»
شعر هذه المرة أنه جرحها حقًا.

«إلامَ تُلَمِّحُ؟»

«لا أعرف...»

«أجل! إنك تلمح إلى أنني أفقر إلى التميز؟»

«قليلاً... أنت فتاة متبجحة يا لورا.»

رأى كيف اكفهر وجهها. نهضت بقفزة واحدة، جمعت ثيابها وحقيبة يدها.
«ماذا تفعلين؟» صرخ بدوره، وتجاهلته. حاول الإمساك بذراعها كي يوقفها.
«ماذا تفعلين؟»

«كان ذلك محض كلام! كان...»

علقت حقيبتها الشخصية على كتفها. كانت بقميص النوم، وتحمل ملابسها وحذاءها بيدها.

«لو⁽¹⁾، لن نخرجي هكذا!»

«لو؟»

تحولت إلى الازدراء. هذا ما تفعله دومًا عندما تتعرض لإهانة. وضعت يدها على مقبض الباب. أراد أن يقول لها: توقفي، أنا أحبك. أنا غبي. نعم، أنت على حق، نعم أنا متزعج، وهذا ما دفعني لقول هذه الترهات. حركت القبضة وقالت:

«أمسية طيبة!»

اصطفق الباب بقوة. أراد أن يقول لها الحقيقة... أراد أن يقول لها بالزواج بها يومًا.

تصالحا طبعًا. لكنه لم يقل لها ذلك قط.

تقلبت جوانا في نومها. على الأغلب أنها لم تنم جيدًا.

ذكرى أخرى عادت إليه...

«مساء الخير.»

«مساء الخير.»

«أنتِ كارين؟»

استدارت المرأة في بطء بحركاتٍ واهنة. كانت طويلة القامة، طويلة جدًا، تزيده حتمًا بضعة سنتيمترات. كما كانت سمراء، سمراء جدًا.

«نعم. أنا كارين. أنت إميل إذا؟»

أومأ برأسه. كان لديه شعور خفيف بعدم الارتياح. لم يكن لديه أي فكرة عن سبب وجوده هنا. كانت يدها مبللتين ويعتمل في صدره غضب شديد، رغبة في جعل الأرض كلها تدفع الثمن. لقد سرقوا مني لورا. أحدهم أخذ لورا مني في فترة جفافها فيها النوم، قام بإنشاء حسابٍ في موقعٍ خاص بمواعدة نساءٍ خارج إطار الزواج. استعرض الملفات ووجد ملف كارين وفيه صورة امرأة سمراء في

(1) لو، اختصار على سبيل التجنب لاسم لورا

سن الأربعين، ممشوقة القامة، ومتزوجة منذ عشر سنين، وتحتاج إلى كسر الروتين. حددت مكان اللقاء في بارات الكوكيتيل فقط، وإذا حدث انسجام مع طالب اللقاء، يمكنها الذهاب إلى بيته، ولكنها كانت تقبل أيضًا قضاء ليلة في فندق. كانت تفضّلهم في عمر يقل عن الثلاثين سنة. شعر وهو يقرأ وصفها برغبة في التقيؤ. لكن الرغبة فيها كانت أقوى. شعر بحاجة إلى جعل لورا تدفع الثمن من خلالها. تواصل ورتبا الموعد في بار الكوكيتيل البعيد عن الأنظار هذا، الذي لا تخشى من التعرض فيه لمصادفاتٍ غير مرغوبٍ فيها (الزوج كاتب عدل ولديه الكثير من المعارف في المدينة).

«لا تكن خجولاً، اجلس.»

أشارت له إلى الكرسي المرتفع. صعد وجلس عليه وهو يشعر أنه طفل خائف أمام امرأة ذات هيبة.

«بدأتُ قبلك.»

كان أمامها كأس من الشمبانيا. وضعت يدها فوق ركبته بهيئة المالك.
«ماذا تريد أن تشرب؟»

أخذته المباغطة وأجاب بأول ما تبادر لذهنه:

«مثلك.»

طلبت له الشراب واستدارت كي تراقبه بالتفصيل.

«قل لي، هل خرجتَ من المهد لتوَّك!»

تلعثم مرتبكاً: «آه... آوه.» حتى أثار ضحكها.

«كم أنت ظريف! أعشق أمثالك من الشبان. أنتم لا تزالون أبرياء وأنقياء!»

كانت مرتاحة، وتضحك بأعلى صوتها. لا بد أنها التقت الكثير مثله من الرجال، من شبّان خجولين. كانت معتادة.

«أخبرني... ما الذي يفعله شاب مثلك بمفرده في هذا الموقع؟ أليس لديك صديقة حميمة؟»

وصل كأس الشمبانيا وتناول منه جرعة قبل أن يجيب بإيجاز.

«لا، ليس في الوقت الحالي.»

راحت تتفحصه بنظراتٍ تخترقه، وبدت كأنها تقرأ أفكاره.

«كنت تحب فتاة وهجرتك؟»

لم يستطع أن يكذب، خانه الضعف الذي ظهر في تعابير وجهه.

«كنت متأكدة من ذلك.» أعلنت كارين.

«أنت لست الأول. أقع على أعدادٍ لا بأس بها من الشبان المجروحين.»

بدت هادئة.

«حسنًا، كما تعلم، قد أتمكن من تقديم بعض العزاء.»

حاول بعد ذلك استعادة بعض السيطرة على الموقف. سألها هو أيضًا، لكنه

كشف ضعفه وهو يخاطبها بصيغة التقدير.

«و... وزوجُ حضرتكِ؟»

نظرت إليه في حنانٍ وكأنه لا يستطيع أن يفهم، وكأنه أكثر براءة مما يجب.

«ستفهم ذلك عاجلاً أو آجلاً. الزواج كلمة كبيرة جدًّا، لم تعد اليوم تعني

الكثير.»

ثم أضافت ببعض الألم، كأنها لتسويغ سلوكها:

«أعيش مع كاتب عدل، الأمر الذي يصعبُ الأمور، لأن الزواج بالنسبة له هو

مسألة ورقيات وتقاسم ممتلكات...»

شربا عدة كؤوس من الشمبانيا قبل أن تضع يدها من جديد فوق ركبته.

«هل نصعد؟»

يقع بار الكوكتيل أسفل فندق، وهو أمر لا علاقة له بالمصادفات. كانت كارين

تعرف جيدًا ساحة الصيد التي تتحرك فيها. أخذت غرفة باسم إميل، وما إن أغلقت

بابها بالمفتاح حتى ارتميا فوق السرير. كانت كارين ترتدي ثيابًا داخلية جميلة، مغرية

لكنها متقنة، ولا بد أنها غالية الثمن. لم ير إميل ثيابًا داخلية بهذا الجمال. لكن كارين

لم تكن تتصف بالقدر الذي تخيله من البراعة، والتمرس. أو ربما كانت المشكلة

تكمُن فيه. ربما تخيل أنه سيجد بين ذراعي هذه المرأة المجهولة التي لم يستطع حتى

أن يحترمها، ما وجده مع لورا.

لقد خاب أمله ذلك المساء. انتشى دون سعادة. أقسم لنفسه ألا يعيد الكرة ثانية. لم تعتمد ذلك لكنها أفسدت كل شيء. الزواج كلمة كبيرة جدًا، لم تعد اليوم تعني الكثير. لم يكن يتفق معها. لو أنه تزوج لورا، فإن هذا سيعني الكثير، ولن يكون خاليًا من المعنى.

لقد أفسدت كل شيء حقًا.

«هل نمت جيدًا؟»

«نعم، نمت جيدًا، وأنت؟»

كانا يكذبان، ويعرفان ذلك. لقد سمعها تتقلب طوال الليل. وارتسمت حول عينيها هالات زرقاء، لم تستطع حتى قبعنها السوداء أن تخفيها.

«سنعود إذاً إلى أرتيغ...»

«نعم.»

كانت ترتدي أحد بناطيلها الفضفاضة جدًا وبلوزة من اللون نفسه. بقي إميل ينظر في دليل الرحلة، متعقبًا بإصبعه المسار الذي سيسلكه اليوم.

أضافت فقط: «دعني أعاين الغرز قبل المغادرة.»

كانت الكلمات قد تساقطت من تلقاء نفسها في أثناء الليل. وبقيت نثرات من القريض الجاف فوق مرفقه وبين شعره، نفخت عليها جوانا.

«إذا؟» سألها في قلق.

شرعت في نطق بعض الكلمات التي لم يستطع تأويلها.

«الجرح ينز قليلًا.»

«هل هناك خطورة؟»

بدلًا من الإجابة عن السؤال، قالت:

«ستكون هذا المساء في عربة التخميم، حيث توجد مطهرات.»

لقد فاتهما وضع مطهرات في حقيبتيهما الضخمتين. إنها غلطة مبتدئين حقيقية. جلبا لحسن الحظ بعض الأشياء المفيدة مثل شرائط الشاش. لفّت جوانا مرفقه بها وصنعت منها عمامة بيضاء حول رأسه.

«لا بد أنني أبدو مخادعًا بهذا المنظر.»

تذمر كنوع من الدلال مدركًا أنه ما كان يستطيع تدبّر أمره دونها.

اجتازا عدة قرى صغيرة تقع في طريقهما، توقفًا لتناول الطعام في حقل قريبًا من حصانين أخذًا يراقبانهما في فصول. أمضت جوانا وهي تداعبهما وقتًا طويلاً حتى أن إميل غفا في ظل الأشجار. تبين له أنه لم ينم بهذا القدر منذ مغادرته إلى البيرنيه. لقد منحه ذلك شعورًا رائعًا.

بدأت الحرارة تتناقص في بطء مع دخولهما إلى أرتيغ. لقد حان الوقت. بدأ الألم في رأس إميل. شعر أن نقاط الغرز قد نزت على فروة رأسه تحت الشاش. تمنى ألا يكون هناك التهاب. كانت جوانا تسير في المقدمة كمن يتعجل الوصول. العودة إلى ساحة وقوف السيارات قرب جدول الماء، منحه سعادة هائلة، كأنه عائد إلى بيته. لم يتخيل أنه سيفتقد الاستقرار والمكان المألوف. كان سعيدًا بالعودة إلى عربة التخميم، ورائحة العفونة الطفيفة للمكان المغلق، والصوت المميز للجدول والحصى تحت أقدام المتزهين.

صدرت عنه «آه» وهو يدخل المقصورة.

انجهت جوانا فورًا إلى خزانة الحائط وأخرجت منها الطاولة وكرسيين قابلين للطي. سيتشاركان وجبة حول الطاولة، وسيكون الأمر رفاهية حقيقية.

«خذ مكانك. سأطهر جروحك.»

تم وضع الطاولة والكرسيين. أخرجت جوانا مجموعة الإسعافات الأولية وبحثت فيها ببيئة العارف. شم الرائحة الحادة للكحول ذي الدرجة تسعين. ذكره ذلك بطفولته وسقطاته العديدة في أثناء قيادته للدراجة الهوائية. كانت أمه تتذمر في كل مرة، وتحب أن تخيفه، فتتظر إليه مهددة:

«حذار يا إميل، إذا واصلت القيادة بهذه السرعة، فسينفد دمك قريبًا.»

كان في البداية يصدقها، ويسألها مذعورًا:

«لم يبق لي الكثير من الدم؟»

وتنظر إليه بتلك الهيئة التي تعني أن الوضع لا يبدو جيدًا. كان يهدأ لفترة ثم يعود للقيادة بسرعة. هذا ما رواه لجوانا وهي تضع له الكحول من الدرجة تسعين على جمجمته. بدا أن الأمر يضحكها، حتى أنها قالت:

«الصبية الصغار مشاغبون حقيقيون! يجب عدم تركهم ثانيّتين بلا مراقبة!»
تساءل عما إذا كانت قد عرفت الكثير من الصبية الصغار أم لا، وهي التي لم يكن لها أشقاء، ثم تذكّر أنها عملت حارسة مدرسة. لا بد أنها رأت رُكْبًا مسلوخة، وشفاهًا مشقوقة، وحواجب مجروحة جروحًا عميقة. لا بد أنها وبخت أولادًا يلبسون الشورت، أولادًا أشقياء يرتدون جوارب بيضاء عالية.

كان الاستحمام هو سعادة اليوم، الثانية. والثالثة ستكون النوم في فراشٍ وثير. لم يُفرغا حقيّتيهما، وقالا إنها سيفعلان ذلك غداً. أعدّا وجبة حقيقية من علبٍ وجداهما في عربة التخميم أسفل الحوض: سلطة طماطم وقلوب نخيل، فطر بلا مذاق ومستحضر مكون من العدس والجزر.

«سيتعين أن نقوم ببعض التسوق غداً...»
رتبا المائدة وأشعلا شموعًا لأن الظلام بدأ يجيم، ثم جلس أحدهما مقابل الآخر.

«حسنًا...» قالت جوانا.

خشي أن تطرح الموضوع الذي يتهيب منه، لكنها لم تفعل، بل سألت:

«إلى أين سنذهب غداً؟»

«سؤال وجيه.»

استأنفا المضغ في صمتٍ، إلى أن اقترح إميل:

«إنه دورك في اختيار المكان.»

«مهم.»

«يمكنني هذا المساء أن أعيرك دليل البرينييه، كي تدرسي الموضوع.»

أومات وهي تبتلع لقمة من العدس.

«حسنًا.»

بعد الوجبة تناولا كأسين من الشاي خلف طاولتهما الصغيرة. لا تزال البقعة توحى بالراحة، ولا تزال تُسمع فيها أصوات الجنادب وخرير الماء بين الصخور، ونعيق يوم من وقتٍ لآخر. فتحت جوانا الدليل أمامها. قلبت الصفحات، تابعت

الخطوط بأطراف أصابعها، وجعّدت أنفها كي تفكر، ثم رفعت رأسها عن الدليل كي ترشف جرعة من الشاي. لزم إميل الصمت. كان يخربش بقلمه فوق دفتره الأسود. كتب بضعة سطور عن اليوم الذي مضى لتوه، عن فرحة العودة إلى الساحة وعربة التخميم.

عندما رفع رأسه، أغلقت جوانا دليل البيرنيه. أحاطت يداها بفنجان الشاي منتظرة انتهاءه من الكتابة كيلا تقاطعه.

«هل قررت بشأن المكان؟»

«نعم. سنذهب إلى موسيه.»

لم يكن هذا الاسم يعني له شيئاً، فهو لم يطلع على دليله كله.
«لماذا موسيه؟» سأل.

كان لديه فضول إلى معرفة الشيء الذي يشدها إلى مكانٍ دون غيره.
«إنها قرية من القرون الوسطى تقع على قمة تلةٍ صخرية.»
«يبدو لي خياراً لطيفاً.»

«وهناك غطاء نباتي رائع في الجوار.»

«هذا سبب إضافي.»

ساد الصمت مجدداً. كبرت جوانا تثاراً وأعلنت:

«أظن أنني سأذهب للنوم... سأأخذ المقعد في الأسفل.»
كانت تتهياً للوقوف عندما حسم أمره أخيراً:

«جوانا...»

منذ مساء أمس وهو لا يفكر إلا في هذا الموضوع، ولا بد من إعادة طرحه.

«بشأن فكرة الزواج تلك...»

عادت للجلوس مقابله، واضعةً مرفقيها على الطاولة وباسطة يديها.
«ماذا هناك؟»

راحت تنظر إليه بانتباه. انتظرت دون أن تستعجله. غطس في كرسيه وهو يبحث عن كلماته.

«أنت على حق، إنه حل مناسب... ولكن...»

«ولكن؟»

كان لهب الشموع يتراقص على وجهها، ويشعل ضوءًا ضعيفًا في عينيها اللتين يراها عادةً باهتين جدًا. لكنها في الحقيقة لم يكونا باهتين بهذا القدر، ويمكن لها أن تكون فتاة جميلة، كما يمكن لها أن تكون عروسًا جميلة. يمكنها اختبار هذه السعادة يومًا ما، ولكن ليس هكذا، وليس في هذه الظروف.

«لا أستطيع أن أطلب منك القيام بذلك.»

بقيت ساكنة، دون أي تعبير على وجهها.

«أنت لم تطلب مني شيئًا. أنا التي اقترحتُ الأمر.»

«أنت تفهمين ما أعنيه؟»

«لا...»

أطلق تنهيدة وغاص أكثر في كرسيه.

«الأمر بسيط بالنسبة لي. ربما يكفي أن أوقع على تلك الأوراق. وسأكون، بفضلك، على يقين أنني حر حتى النهاية. ثم أموت ولا يعود أحد يتكلم في الأمر. ستكونين قد قدمت لي خدمةً جلييلة، وسأكون ممتنًا لك إلى الأبد، إلى ما بعد المئات على أي حال.»

أخذ بضع ثوانٍ لبلع ريقه واختيار كلماته.

«الأمر مختلف بالنسبة لك. حياتك ستستمر. لا أدري ماذا ستفعلين، ربما تعودين إلى ليون أو تلتقين يومًا ما رجلًا آخر.»

بقي وجهها جامدًا وعيناها لا ترمشان.

«إذًا...؟»

«إذًا، لا يمكنك الزواج بي. لا يمكن أن تترقي في التاسعة والعشرين من عمرك.»

كان مرفقاها لا يزالان على الطاولة وهي تحدق إليه بنظرة مباشرة. كررت مشددةً على كل كلمة:

«لقد اقترحتُ عليك الأمر، وأنا مستعدة للقيام به.»

هز رأسه وقد تكوّن لديه شعور بأنها لم تفهم شيئًا.

«لا يمكنك إفساد هذا الأمر مع شخصٍ مجهول..»

«أي أمر؟»

«إنه شيء لا يقدم عليه الشخص إلا مرة واحدة... مرة واحدة في حياته.»

لم يظهر عليها أي رد فعل. هل كل هذا غير مهم إطلاقاً بالنسبة لها؟

هل كل هذا بلا معنى بالنسبة لها؟

«أنا مستعدة للقيام بذلك.» كررت مرة أخرى.

«رغم ليون؟»

«رغم ليون.»

صمتا من جديد. نظر إلى وجهها غير المعبر متمنيًا أن يعرف ما يخفيه، أن يعرف

ما الذي فعله ليون.

«ما رأيك أن نتكلم في الأمر لاحقاً؟» سألت.

«إنني مرهقة فعلاً.»

هز رأسه. نهضت جوانا ونفخت فوق نصف عدد الشموع لإطفائها.

«لا تتركني الآن وحدي يا صاحبي. أنا أحذرك! أكاد أموت من الخوف!»

كان رينو يتعرق بغزارة، يقوم مرارًا بمسح جبينه بمنديل مبلل.

«لم يكن ينبغي أن ترتدي بذلتك مبكرًا بهذا الشكل.» دمدَمَ إميل متذمرًا.

كانت الحرارة تصل إلى ثلاثين درجة، وبلغ رينو من التوتر أنه أراد ارتداء بذلة

عرسه قبل ساعة من الحفل. كانا في الغرفة التي جمعتهما في الطفولة، الغرفة نفسها

التي شهدت لبالي أرقهما الأولى، ومكاشفاتهما الأولى، وأفلامهما الأولى. الغرفة

التي حولها إلى ورشة إصلاح دراجاتٍ نارية أو حلبة مصارعة عندما يميل

مزاجهما للشجار. لا يزال فيها، فوق سرير رينو، دمي محشوة تمثل دبية، وصور

من أيام المدرسة على الجدار. كان من الغريب رؤيته وهو بين بقايا طفولته، طويلًا

وأنيقًا، وعلى وشك الزواج. سمي إميل إشبينًا للعروس الرجل، إلى جانب أحد

أقرباء رينو. كانت إشبينتا العروس الفتاة، قد اختارتها لبيتيسيا. أختها وإحدى

صديقاتها.

«افتح النافذة من فضلك يا إميل.»

امثل إميل. كان رينو على حافة فقدان الوعي.

«ما الذي يربك بهذا الشكل؟ أنت تعلم أنها ستقول (نعم)... أليس كذلك؟»
«أغلق فمك.»

لم يكن رينو لديه مزاج للمزاح. خلال ساعة، سوف تلتفت إليه كل الأنظار، وسيتزوج ليتيسيا.

«هل زهرتك معك؟» سأل إميل وهو يجلس عند النافذة.

«ماذا؟» أجابه إميل فقط كي يربعه قليلاً.

«زهرتك! الزهرة التي ستضعها في العروة! لا تقل إنك نسيتها!»
أخرج زهرته من جيب قميصه.

«إنها هنا. استرخ.»

كانت ليتيسيا قد رتبت ببراعة كل تفاصيل حفل زفافها. أرادت تحديد قواعد لباس لجميع الضيوف، حتى تكون الصور ناجحة وتتوافق مع موضوع الزفاف. فرضت أن تكون بذلات الرجال سوداء، ومثلها فساتين النساء (سمحت ببعض الأنماط البيضاء ولكن غير الظاهرة للغاية). كان على الجميع تزويد ملابسهم بعناصر تزيينية حمراء. كان رينو قد طلب من كل فرد من ضيوفه الذكور، تعليق زهرة حمراء في عروة سترته. هو نفسه يرتدي ربطة عنق حمراء وحواف سترته حمراء. كان إميل على عجلة من أمره لرؤية لورا في ملابس الاحتفال. لقد عبست عندما اكتشفت قواعد اللباس المفروضة، لكنها مارست اللعبة، فقد اشترت فستاناً أسود اللون جميلاً يشبه تنورة قصيرة تصل إلى ما فوق الركبتين، ووجدت حزاماً قرمزيًا عريضاً بعقدة كبيرة على الجانب. كان على يقين أنها ستكون رائعة.

عندما جاءت والدته رينو وطرقت الباب، انفجرت بالبكاء حين رآته في بذلته.
«أنت في غاية الجمال...»

في ساحة الكنيسة، وجد إميل نفسه غارقاً وسط كتلة سوداء وحمراء من المدعوين الذين انخرطوا جميعاً في اللعبة. ثم وجد أصدقاءهما المشتركين على درجات الكنيسة، يبحثون بأنظارهم عن لورا.

ظهرت ليتيسيا بين الحشد كأنها أميرة، بفستانٍ واسع مبهر البياض، دون حمالات، ويتلوى حتى قدميها. وزين شعرها المعقوص عاليًا بفراشات حمراء صغيرة. ضحك إميل وهو يتخيل رد فعل لورا. كان بإمكانه تخيل تكشيرتها وهي تفكر بصوت عالٍ (أعلى مما يجب): قلة ذوق!

سيجعلها منظر الفراشات تقلب عينيها إلى الأعلى.

«أليست لورا هنا؟» سأل دون مخاطبة أحدٍ بعينه.

كانت المجموعة كلها موجودة باستثناء لورا. أجابه أحد زملائه في الكلية:

«كانت هنا وغادرت.»

«ماذا؟ كيف غادرت؟»

أدى وصول رينو إلى أمام الكنيسة، بسيارة العائلة، إلى تشتيت انتباههم. قاده أبوه وأمه وسط صيحات الحاضرين وتصفيقهم، إلى أعلى الدرجات حيث تنتظره ليتيسيا.

«أين ذهبت لورا؟» سأل مرة أخرى بينما أخذ الجميع يتجمعون داخل الكنيسة.

لم يكن أحد يعلم. اتصل بها على عجل.

«ماذا هناك؟»

لا بد أنها كانت تقود سيارتها، لأن صوت الإشارات الوامضة كان يصله من الطرف الثاني للخط.

«ماذا تفعلين؟ أين أنت؟»

«لا تكلمني في الأمر! لقد طردتني تلك الشرسة عندما ألقيت عليها التحية.»

«ماذا؟ عَمَّن تتحدثين؟»

«ليتيسيا! كانت متوترة جدًا، تلك السيدة المهووسة بالسيطرة! كانت تعطي

الأوامر للجميع وطردتني!»

«ماذا؟ ولكن متى؟»

«هناك، منذ لحظة، عندما وصلتُ أمام الكنيسة. لن يمر الأمر ببساطة!»
«ولكن أين أنت؟ وماذا تفعلين؟ لا تقولي لي إنك قررتِ عدم حضور الحفل
لهذا السبب!»

شعر بارتياح شديد عند سماعها تجيب:
«لا، لا. أنا قادمة. ذهبت فقط لتغيير ثيابي.»
لم يفهم معنى عبارتها الأخيرة، الأمر الذي وثره بشدة. كان الجميع قد أخذوا
أماكنهم في الكنيسة، فيما كانت علامات الذعر ترسم على وجه رينو الذي كان
الجميع الآن في انتظاره فقط.

دوت ترنيمة الزفاف في جميع أنحاء الكنيسة. كان آخر الضيوف قد جلسوا.
راقب إميل ليتيسيا وهي تعبر الممر المركزي ممسكة بذراع والدها في صميتٍ ديني.
رأى عيني رينو تتلألأ بالسعادة، وسمعه يجيب: «نعم، أريد.»
نافعًا الهواء من شدة التأثير. في لحظة القبلية، لحظة «أعلنكما زوجًا وزوجة»
بحث عن عيني لورا، أراد أن يجعلها تفهم من خلال عينيه: يومًا ما سنكون أنت
وأنا.

ولكنها لم تكن هناك.
وجدها عند باب الكنيسة، في أثناء خروج العروسين وسط التصفيق وبتلات
الورد الحمراء. وجدها بهيئتها الوقحة وستان أزرق فيروزي يبرز بشكلٍ رائع في
الحشد الأحمر والأسود للمدعوين.
«لو... تجرأتِ أن تخالفي.»
كانت حبيبته الماكرا الصغيرة، سعيدة. لم يستطع منع نفسه من الانفجار
بالضحك وهو يمسك خصرها.

«أنت رهيبة.»
أجابت وهي تبسم ابتسامة تكشف كل أسنانها:
«في انتظار الصور!»

كانت بالفعل قد أفسدت كل الصور. لم يكن يظهر غيرها في الصور الملتقطة داخل الكنيسة، وفي الحديقة الصغيرة، وتحت السرادق، وعلى درج البلدية. البقعة الزرقاء الفيروزية وسط مدّ أسود وأحمر. لقد استقطبت كل الأضواء حتى لم يعد أحد يرى ليتيسيا. كانت تفسد الصور حتى أن شقيقتي ليتيسيا وأمها طلبن منها صراحةً أن تقف في جميع الصور إلى الخلف. امتثلت وهي تبسم. لقد رأت الغضب على وجه ليتيسيا، وكان هذا كافيًا لها. بعد ذلك أخذها إميل بالقوة إلى شقتيها وأمرها:

«غيري فستانك الآن.»

فعلت ذلك بلا تذر. لم تكن شريرة في الحقيقة، بل مشاكسة صغيرة. مشاكسة صغيرة معبودة.

«إذًا كيف كان شعورك؟»

أصبح أخيرًا بمفرده مع رينو حول طاولة العرسان. كانت ليتيسيا قد ذهبت للرقص مع أختيها. وكانت لورا تتحدث مع أصدقاء مشتركين على بعد بضع طاولات.

«إنني... أكاد لا أصدق.»

كان ينظر في سعادة إلى خاتم زواجه في يده اليسرى.

«أشعر أن هذه ليست يدي.»

«لا بد أن هذا يمنحك الشعور بالأهمية، أليس كذلك؟»

نفخ رينو صدره في فخر.

«نعم.»

إنه لا يزال متأثرًا، وخداه تكسوهما حمرة. ابتسم له إميل.

«لا أستطيع أن أصدق.»

«ولا أنا.»

«كنت أنظر إليك في الكنيسة وأنت تقف مستقيمًا تمامًا، واثقًا بنفسك... وليتيسيا تتقدم... وقلت لنفسني: انظر إلى الطريق الذي قطعناه.»

«ذلك البدين القصير الذي كتته، ما كان ليصدقني لو قلتُ له إنه سيكون هنا يومًا ما.»

«أرأيت؟ علينا أن نؤمن بأنفسنا دومًا.»

كان رينو قد قام بصورة خفية جدًا بمسح دمعته صغيرة في زاوية عينه.

«الفضل لكما في كل هذا... لو لم تدفعاني في ذلك الوقت...»

«لا تتفوه بحماقات! صحيح أننا أحضرناها لك على طبق، لكنك أنت من قام بكل ما تبقى! وأرى أنك عرفت كيف تتعامل مع الأمر!»

عندها ضحك رينو مع تنهيدة سعادة في الحلق. كانت هناك مفاجآت أخرى في انتظاره، فهو لم يعلم بعد أن بطن ليتيسيا سيتكرر بعد ثلاثة أشهر. لم يعلم أنه سيصبح أبا.

كانت كارين مخطئة. الزواج لا يزال له معنى. والآن تكونت لديه قناعة: لا يمكنه الزواج بجوانا ولا أي فتاة غيرها. هكذا هو، مثل رينو. إذا تزوج يومًا، يريد أن يكون قويًا وجميلًا. سيتخلى عن هدية جوانا، مهما بلغ الثمن الذي ينبغي دفعه.

21 يوليو، حوالي الساعة 13

قرية موسيه، عند طرف حقل خزامى، أسفل القرية.

يجدر أن تتولى جوانا مرارًا عملية اختيار وجهة سيرنا. لم ندخل إلى القرية بعد، كنا فقط نلمحها من هنا في الأسفل. نستطيع أن نرى أسوارها ومنازلها الجاثمة فوق الصخرة الكبيرة.

توقفنا في حقل الخزامى ذاك لتأكل شيئًا، ونستمتع بالمنظر. ليست قرية موسيه فقط هي التي تستحق الإعجاب، بل هناك تلك الكنيسة المهتمة، كنيسة نوتردام دي كوريبياك، القديمة والضخمة من العصر الروماني. تشير لافتة عند المدخل إلى أن زوجين بريطانيين قاما بشرائها وباشرا بإعادة إعمارها.

سندخل إلى القرية بعد الوجبة، ونبحث عن موقف نركن فيه عربة التخميم قبل أن نذهب لاكتشاف أزقتها...

لم يجدا موقف سيارات يُسمح فيه بركن عربة التخميم. دارا مرتين حول القرية للتأكد من ذلك، ثم قررا شراء بعض الحاجيات من متجر مواد غذائية قبل النزول ثانية إلى أسفل القرية. تركا العربة إلى جانب طريق ريفي صغير، وعادا سيرًا على الأقدام، مع حقيبتيهما، لاستكشاف موسيه. كانت الحرارة قد انخفضت جزئيًا عند دخولهما إلى القرية. عبرا واحدة من البوابات الثلاث التي تسمح بالوصول إلى داخل الأسوار: بوابة ساننا مادلينا. احتفظت موسيه بمظهر القرية الجبلية والإقطاعية. لا تزال الجدران التي كانت تحمي حصن اللوردات موجودة، إضافة إلى بوابة كوم جيلادا وبوابة فرنسا. في قمة برج جرس الكنيسة، هناك شيء لا يصدق، شجرة صنوبر منتصب، عمرها قرون. يبدو أنها عامل جذب للسائح. دخلا في الأزقة الظليلة. توقفا أمام مخزن حبوب، ثم أمام لافتة نجار منحوتة في الحجر، تُعرض في فخري مسحجته بوصفها رمز نبالته. ذهلا أمام فرن خبز عتيق.

في وقتٍ لاحق، أخذنا قسطاً من الراحة قرب حوضٍ كبير لغسل الملابس، وشاهد
إميل جوانا وهي تبلل قدميها فيه.

«هل أعجبتك؟»

هبط الليل وعادا إلى عربتهما أسفل القرية، بعد أن تجولا لساعاتٍ في الأزقة.

«نعم. أحببتُ هذه القرية.»

وكعادتهما جلسا حول الطاولة القابلة للطوي، قرب عربة التخيم. كانت حركة
المرور خفيفة جداً على الطريق. لقد أحسنا صنعاً بركن سيارتهما هناك.

«يجدر بنا أن نقلل من سيرنا.» أعلنت جوانا وهي تملأ صحنيهما بطيخٍ أساسه
الجزر.

«ولماذا؟»

«منذ يومين فقدتَ وعيك.»

وضع ملعقته في الطيخ وحملها مملئةً إلى فمه.

«صحيح.» قال بفمه الممتلئ.

«أنت على حق.»

لم يعرف ما الطبق الذي يأكله: هل هو يخنة أم حساء أم هريس الجزر؟
لم يكن شيئاً قط. إنه الجزر الذي قاما بشرائه من متجر المواد الغذائية، في الأعلى.

«خصوصاً أنني لا أريد أن تأخذيني إلى المشفى في المرة القادمة.»

أفلتت ملعقتها من يدها وقد فوجئت بقوله.

«ماذا؟»

انتهى من ابتلاع لقمته.

«لقد فكرت. لا أريد أن نتزوج.»

استعادت ملعقتها في بطنها، وهزت كتفيها قائلة:

«حسناً.»

لم يستطع كشف أي انفعالٍ على وجهها. لا خيبة ولا أي شيءٍ آخر، فهذا كله
سيان بالنسبة لها. لقد عرضت تقديم خدمةٍ له، لا أكثر. تابعا تناول الطعام في
صمتٍ وسط ضجيج احتكاك ملعقتيهما بالصحنين.

«في هذه الحالة، إذا سقطت مغشياً عليك مرة أخرى، ماذا أفعل؟»
لبث عاجزاً عن الإجابة.

«هل أعنتي بك بنفسي؟»

جعله هذا السؤال يعتقد أنه أناني تماماً، وأنه يفرض عليها مهمة هائلة. لكنه
عجز عن إعطائها إجابة منطقية وذات صلة. كما لا يمكنه أن يطلب منها أن تكون
ممرضته، وأن تعيده بمفردها إلى عربة التخميم، وتعتني به... كما لا يمكنه أن يطلب
منها أن تمضي في طريقها وتركه بجانب الطريق. سوف يجدونه ويعيدونه إلى
المشفى. سيتهي به الأمر في مركز الاختبار السريري. سيكون من جديد في عهدة
والديه، وهذا ما يسعى لتجنبه بأي ثمن. لبث جوانا تنتظر الجواب. قال متلعثماً:
«هناك حل آخر... أستطيع... أستطيع تغيير هويتي... هذا... هذا ممكن،
أليس كذلك؟»

كان سعيداً لأنها بقيت بلا تأثر، ولم تقطب حاجبيها، ولم ترفع عينيها نحو
السما، ولم تنظر إليه كشخصٍ سخيٍ يثير الضحك.
«سوف أستفسر. غداً سوف أستفسر. إذا اتخذتُ لنفسِي هوية أخرى، سأتمكن
من الذهاب إلى المشفى بلا مخاطر.»
هزت رأسها في بطاء.
«حسنًا.»

إنها على الأرجح لا تصدق أنه سيفعل ذلك. كيف سيفعل ذلك؟
بأي أوراق؟

ليست لديه أدنى فكرة. واصلاً تناول الطعام في صمت.
قاما لاحقاً بتنظيف الأطباق وسط الصمت المتوتر نفسه، هو يغسل وهي
تحفف. لم تسأله عن شيءٍ لكنه قال لها مع ذلك:
«رفضت لفكرة الزواج ليس له علاقة بك.»

استدار كي يتمكن من رؤية وجهها. كانت تحافظ على وجه حيادي.
«أعرف.» قالت.

أدار لها ظهره مجددًا واستأنف تنظيف القدر الصغير في الحوض.
«المسألة هي أنني... لا أستطيع تخيل الزواج إذا كان فارغًا تمامًا من المعنى.
أنا...»

توقف عن الكلام والرغوة تغطي يديه فوق الحوض.
«لدي هذا الجانب العاطفي. قد يبدو لك ذلك جنونياً... أحتاج أن يكون لهذه
الخطوة معنى.»

شعر أنها وهي خلف ظهره تؤيد كلامه. مرت بضع ثوانٍ، وعندما تكلمت كان
صوتها في غاية العذوبة:

«هل تخيلت أن ذلك كان خاليًا تمامًا من المعنى؟»
اضطر أن يتوقف، يغلق صنبور المياه، يضع إسفنجته جانبًا، ويستدير كي
يواجهها.

«ماذا تقصدين؟»

قالت وهي تقطب حاجبيها قليلًا:
«كوتنا لسنا حبيين، لا يعني أن هذه المبادرة مجردة من المعنى. أنا أيضًا ما كنت
لأقدم عليها لو كانت في نظري خالية من المعنى.»

بقي ينظر إليها متمعنًا دون أن يقول أي شيء، ويدها تغطيها الرغوة.
«هناك معنى لهذا الأمر. إنه وعد أقطعه لك، أو بالأحرى... التزام... حتى
تكون على يقين أنني سأقيد بتعليقاتك حتى النهاية، وأني سأحمي حريتك بأي
ثمن، وسوف أركاك حتى النهاية... صحيح أن هذا ليس زواجًا عن حب، ولكنه
ليس خاليًا من المعنى، أليس كذلك؟»

هز رأسه في هدوء. لا، ليس خاليًا من المعنى. إنها على حق.
«صحيح. إنه ليس كذلك... أنت على حق...»
ليس لزواجه منها المعنى الذي ينتظره، لكنه ليس خاليًا من المعنى. لقد أخطأ.
احتاج إلى بضع ثوانٍ كي يتمكن من الكلام من جديد.

«وما الذي يعنيه هذا كله لك أنت؟ ما الذي... ما الذي تكسيينه من ذلك؟»
عبر وجهها هذا التعبير المؤلم، إنه اعتراف بالضعف. هذه هي المرة الأولى التي
يستطيع فيها أن يقرأ شيئاً بين ملاحظها المحايدة. كانت تعاني، وبشكل هائل. لم يكن
يعرف السبب ولكنه فهم في هذه اللحظة، أن هذا هو سبب انغلاقها على نفسها،
سبب تظاهرها باللامبالاة، وعدم تعبيرها عن أي انفعال. كان بداخلها ألم كبير.
إذا سمحت ولو لجزء من هذا الألم بالإفلات منها، سيتبعه سيل لا يدرى إن كانت
ستنجو منه أم لا. عندما أجابت، خرج صوتها ثقيلًا وعميقًا:
«أيضاً لدي سبب.»

لقد فهم ذلك حتى قبل أن تفتح فمها.

مر يومان دون أن يتبها لذلك حقًا. مرًا بسرعة شديدة وفي بطء شديد. ارتاح
إميل كثيرًا. أمضى معظم وقته جالسًا خلف الطاولة الصغيرة، أمام عربة التخميم،
أو تحت شجرة بمحاذاة الطريق الصغير. أخذ عدة قيلولات وكتب بضعة سطور
في دفتره، وعمل على صنع حساء الغاسباتشو⁽¹⁾ من الخضار الذي جلبته جوانا من
السوق في اليوم الثاني... أمضت جوانا ساعات طويلة في موسيه والمناطق المحيطة
بها. سارت عبر الشوارع المرصوفة بالحصى وحقول الخزامى. عادت ومعها باقات
من الخزامى المجفف، وضعتها على منضدة العمل في سيارة التخميم. تجولت في
السوق الصغيرة في موسيه، حاملة معها خضروات من الألوان كافة. لم يعودا إلى
موضوع الزواج إلا في مساء اليوم الثاني، في أثناء تناول الشاي إلى جانب تلك
الطريق الصغيرة غير المطروقة كثيرًا. قال إميل:
«سنذهب إلى البلدية غدًا.»

وفهمت جوانا.

راح الاثنان هذا الصباح يسيران تحت شمس حارقة للوصول إلى القرية
المحاطة بأسوار. كانا سعيدين عندما تبين لهما أن البلدية مفتوحة. لم يعرفا أي يوم
من الأسبوع هو ذلك اليوم. خشيًا أن يكون يوم أحد. في البهو، توقفت جوانا

(1) حساء معروف في إسبانيا مكون من خضروات نيئة، يضاف إليها زيت الزيتون والثوم.

طويلاً أمام لوحة عرض مغطاة بمنشورات. في النهاية، نفذ صبر الموظفة الجالسة خلف مكتبها، عندما لم يقتربا منها، فتنحنحت.

«طاب يومكما، هل يمكنني مساعدتكما؟»

جفلت جوانا. أشار لها إميل بأن تتبعه، وذهبا تجاه مكتب الاستقبال.
«طاب يومك.»

كان صوت إميل أجش أكثر من المعتاد.

«جئنا... جئنا إليك لأننا نريد أن نعقد قراننا.»

تكلم بصوت غريب، صوت مكتوم بدا لها غريباً. أطالت موظفة البلدية النظر إلى ثيابها الخاصة بالمسير لمسافات طويلة.

«هل أنتما من سكان القرية؟» سألت بطريقة غير ودية.

تولت جوانا الرد، مما فاجأ إميل:

«لا. نحن عابران.»

أصدرت المرأة صوتاً غريباً بلسانها الذي نقرته بحلقها.

«هذا غير ممكن إذا.»

خيم صمت في بهو البلدية الكبير والبارد.

«حقاً؟» قال إميل.

هزت الموظفة رأسها.

«لا يمكن إتمام الزواج إلا في البلدية التابعة لمكان إقامة أحد الزوجين في الأقل.»

تبادلا نظرة سريعة ومنزعجة. لم يتخيلا أن هذا سي طرح مشكلة. لم يعرف إميل بما يجيب. راحت جوانا تنقل ثقلها من قدم إلى أخرى في توتر، وحاولت أن تشرح:

«نحن نساfer كثيراً... وليس لدينا حقاً عنوان ثابت.»

استرخت الموظفة في مقعدها بهيئة تواطؤ.

«فهمت. في هذه الحالة... دعيني أتحقق...»

قامت بتاوير كرسي مكتبها ونهضت لتبحث في خزانة كبيرة على الحائط، وتناولت ملفاً ثقيلاً، وضعت على المنضدة.

«امنحاني بضع ثوانٍ...»

أوماً كلٌّ منهما برأسه على عجل. راقباها وهي تُخرج ورقة من الملف، تابعا نظراتها وهي تنقلها من سطرٍ إلى آخر، وفمها وهي تزمُّه ثم توسعه في ابتسامة رضا. «نعم.» قالت في النهاية.

«حصلتُ على المعلومة.»

انتظرا وعيونهما معلقةً بشفتيها.

«يجب أن تكون البلدية التي يتم فيها الاحتفال بالزواج، إما بلدية مكان السكن أو محل الإقامة.»

تبادلا نظرة عدم يقين. إنيها لا يفهمان الفرق.

«إذا كانت القرية هي مكان إقامتك وليس مكان سكنك، فيجب أن يكون أحد الزوجين في الأقل مقيماً فيها منذ أكثر من شهر.»

أعادت الورقة إلى المتضدة، ونظرت إليهما معاً. جعدت جوانا أنفها لتفكر. حكَّ إميل ذقنه. إنيها الحركة التي يقوم بها دائماً في لحظات التوتر. «ماذا تعني: أن يكون مقيماً؟» قال أخيراً.

«تعني أنك تعيش هناك.»

بدا أنها تعده غيباً أو بطيء الفهم.

«نحن في عربية تخيس.» أعلنَ.

«في هذه الحالة، أخشى ألا ينجح الأمر.»

انتظرت موظفة البلدية رد فعلٍ من جانبه. غمغم بإجابة غائمة:

«حسنًا... حسنًا... سوف... سوف نرى ما العمل...»

أومات برأسها.

«إذا قررنا الإقامة والزواج هنا، نذكّرنا أن تبلغا البلدية بذلك. هناك ملف زواج يجب تقديمه في البلدية مع عددٍ معين من المستندات الداعمة. يجب إصدار إعلان الزواج وإصااقه أمام البلدية خلال عشرة أيام. ولن تستطيعا الزواج إلا في اليوم الحادي عشر. إذا قررنا الزواج هنا، نذكرا أن تنجزا ما يلزم قبل انتهاء المدة المحددة.» حكَّ إميل ذقنه من جديد.

«ما المستندات الداعمة؟»

نظرت الموظفة في الورقة التي أخرجتها من الملف.
«بطاقة الهوية الأصلية وصورة عنها، وأي فاتورة كإثبات إقامة، ومعلومات
عن الشهود وكذلك بطاقات هوياتهم ونسخة كاملة من شهادتي ميلادكما. هذا
كل شيء.»
عاد إلى حك ذقنه.

«بالنسبة للشهود...»

فهمت سؤاله على الفور.

«ليس لديكما من يشهد؟»

هز الاثنان رأسيهما بالحركة نفسها. آنذاك لم تعد تبدو متفاجئة. فلا بد أنها
اعتقدت أنها غير سويين.
«يجب أن يكون لديكما اثنان في الأقل. يُسمح لموظفي دار البلدية بالعمل
كشهود.»

عاد الصمت مجدداً إلى بهو البلدية. قرأت الموظفة الارتياح على وجهيهما. عبر
البهو تيار من الهواء الساخن لحظة فتح الباب الزجاجي خلفهما. اقتربت سيدة
مسننة مقوسة الظهر، وكان صدى خطواتها مسموعاً على البلاط.
«هل هذا كل شيء أيها السيدان؟» سألت الموظفة.
هزا رأسيهما.

«نعم. هذا كل شيء. شكرًا.»

«شكرًا لكما. إلى اللقاء.»

«إلى اللقاء.»

كان إيقاع سيرهما في أثناء نزول الأزقة أكثر بطئاً منه في أثناء صعودها. فقد
شعرا بالإحباط قليلاً بسبب كل ما سمعاه للتو.
«كيف ستصرف؟» سأل إميل.

ظهر وجه جوانا الصغير تحت قبعتها عندما رفعت بصرها إليه.

«سيتعين علينا أن نستقر في مكانٍ ما لمدة شهر. أن نأخذ شقة صغيرة مفروشة،
أي شيء...»

«نعم...»

«إما هنا، أو في مكانٍ آخر.»

بقي محبطاً بعض الشيء. بدا ذلك كله شديد التعقيد بالنسبة له. فيها أخذت
جوانا الأمر بقدرٍ أكبر من اللامبالاة، وراحت تسير بخطى خفيفة وشبه خالية
من الهموم.

«إذا كان علينا البقاء في مكانٍ واحد لفترةٍ طويلة، يجب أن نشعر فيه بالارتياح.»
أضافت.

«صحيح...»

«انظر ما الذي أخذته من بهو البلدية...»

أعطته نشرة دعائية بعنوان «إيوس. إحدى أجمل قرى فرنسا. صنفت صرحاً
تاريخياً». تتكلم عن قريةٍ قديمة، مكونة من شوارع حجرية صغيرة، تقع على
سفح الجبل، وتحيط بها نباتات وافرة وملونة. تبدو رائعة. حتى أروع من موسيه.
«أين تقع؟» سأل.

«على بعد خمسة عشر كيلومتراً.»

«تريدون أن نقيم فيها؟»

هزت كتفيها.

«لا أعلم بعد...»

رفعت قبعتها التي غطت جبينها.

«ولكنني أود أن أرى كيف سيكون شعورنا فيها.»

«حسنًا. سنذهب لنرى.»

رينو،

مرحلة جديدة في طريقنا. بعد ظهر هذا اليوم، سنغادر موسيه إلى قرية تدعى إيبوس.

هذه الرحلة هادئة. لم أكن أتوقع أن أجد هذا القدر من الصفاء والسلام الداخلي في التجوال بلا هدف. لن نتعرف إلي! انظر أساسًا كيف أتكلم! «سلام داخلي»! من المؤكد أن جوانا تشير غيظي! إلا أنني أجد متعة في البقاء جالسًا، والنظر إلى النجوم أو حركة السحب، أو الاستلقاء في ظل الأشجار. لقد استمتعت أيضًا بمحاولة صنع هلام الخزامى لإرضاء جوانا! عندما يبرد الوعاء، يبدو الهلام جيدًا. كما ترى، أنا أتحول. إلى الأفضل كما أعتقد... سأدعك تكون القاضي ☺

اكتشفت أنني أجد متعة في أشياء تافهة، في إيماءات يومية بسيطة. لكن هذا ليس موضوع رسالتي حقًا. موضوع رسالتي هو خبر مهم يجب أن أخبرك به: سأتزوج يا رينو. لا تقفز من الفرح. هذه ليست مزحة ولكنها ليست أيضًا ما تعتقده بالضبط. ليس زواجًا مثل ذلك الذي عشتَ مع ليتيسيا... إنها فكرة جوانا. إنها مستعدة للقيام بذلك حتى تصبح الوصي القانوني علي في حال دخولي المستشفى أو في حال اتخاذ قرار مهم. إنها تفعل هذا لتحول دون أن ينتهي بي الأمر في المركز الطبي. أعتقد أنها ستتخذ القرارات الصحيحة، بالضبط لأنها لا تحبني.

سنبداً بإعداد إجراءات الزفاف ولكن الأمر لن يتعلق باختيار متعهد الطعام أو تجربة الأزياء أو استئجار سيارة قديمة رائعة للوصول إلى الكنيسة. سيكون الأمر فقط مهمة إدارية مؤلمة إلى حد ما، وسنشعر بالارتياح الشديد لحلها.

هل تتذكر؟

في يوم زفافك، كان من الصعب تصديق أنك أنت حقًا ذلك الرجل الذي يرتدي البذلة، وأنت أنت الذي حدث لك هذا. لقد قلت لي شيئًا بمعنى «الطفل الذي كنت عليه لم يكن ليصدقني قط إذا أخبرته أنه سيقف يومًا في ذلك المكان». لم تصدق أنك ستجد نفسك يومًا أمام المذبح بجانب ليتيسيا. لم تصدق قط أن حياتك ستبدو يومًا ما بهذا الشكل. حسنًا، لدي إلى حد ما الانطباع نفسه، ولكن بشكل مختلف. عندما كنت طفلًا وتخيلت نفسي عروسًا، كان ما تخيلته حفل زفاف جميلًا: كنيسة

حجرية، وامرأة سمراء جميلة ترتدي فستاناً أبيض، ومدعوين، والاحتفال. لم أعتقد قط أن الأمر سيبدو على هذا النحو: نسخ من أوراق رسمية يجب جمعها والإسراع بإنجازها. لم أكن أعتقد أن العروس سيكون لها حبيب من قبل، وأنه ينتظرها في مكان ما بالقرب من سان مالو.

ولكن... علينا أن نؤمن بأن الحياة تخبيئ لنا مفاجآت. هذه الرحلة مثلاً، وهذا الصفاء، إنها مفاجأة سارة...

رينو، يجب أن أتركك الآن. جوانا جاهزة، وسنستأنف السير. سأوافيك بالأخبار حالما نستقر في إيوس.

قبلاتي لك. أفكر بكم كثيراً.

إميل

وصلاً إلى إيوس بعد الظهر، في ظل حرارة شديدة. يقال إن إيوس هي القرية الفرنسية المشمسة. الحر شديد على أي حال. ركنا عربة التخيم في ساحة وقوف السيارات، أمام الأسوار مباشرة. سيفعلان ما فعلاه في موسيه: سيكتشفان القرية سيراً على الأقدام. وما إن خرجا من السيارة، حتى تسمرا لعدة ثوانٍ. كانت إيوس هناك، أمامهما، فوق تنوء صخري مقابلهما. إنها قرية قديمة محصنة، على الجانب الجنوبي للجبل، مبنية في غابة أشجار حرشية بين وادي كونفلنت وجبل كانيغو. كانت أعلى نقطة في القرية هي برج جرس الكاتدرائية.

حاول إميل التوقف عن التأمل.

«هل نأخذ حقيبتينا ونمضي؟»

أومأت جوانا.

ما إن عبرا السور حتى اعترضهما رجل عجوز.

«هل أنتما سائحان؟»

كان للعجوز شعر أبيض خفيف، ويرتدي سترة رُعاة وقبعة. بدا للوهلة الأولى مجنوناً بعض الشيء. تولت جوانا الإجابة، مما فاجأ إميل.

«طاب نهارك يا سيدي. نعم نحن سائحان.»

شاهدوا العجوز يقترب بخطواتٍ صغيرة بدا أنها تكلفه مجهودًا خارقًا. ابتسم بغمٍّ الخالي من الأسنان.

«أهلاً». قال عندما وقف أخيرًا أمامها.

هزت جوانا رأسها شاكرةً له، وبقي إميل إلى الخلف قليلًا. مد لها العجوز يدًا صافحها في تردد.

«أستطيع أن أكون دليلكما في الزيارة. أعرف هذه القرية عن ظهر قلب.»
استدارت جوانا نحو إميل تنتظر موافقته، فرأته مرتابًا. أما هي، فإنها لمرة واحدة لم تكن مرتابةً على الإطلاق.
«أنا...»

لم يعرف ما يجب أن يقول، هل عليه أن يخبر العجوز بأنها لا يحملان أي نقود... لكن صوتًا دويً على يسارهما واكتشفا نافذة منزلٍ مفتوحة، وفي الداخل سيدة خمسينية ترتدي مئزرًا أصفر.

«لا تقلقا أيها الشابان! إنه جون. وهو ذاكرة هذه القرية.»

كانت تتكلم في ابتهاج.

«منذ سنوات وهو يرشد كل سائح يأتي إلى هنا.»

ابتسما له في تهذيب.

«آه... حسنًا.»

أضافت السيدة:

«ستعلمان برفقته أكثر بكثير مما تتعلمانه من أي كتاب.»

كان العجوز ينتظرهما مقاطعًا يديه خلف ظهره.

«هل ستأتيان؟»

وافق إميل.

«نعم، ستبعك.»

لقد أحسنا صنعًا بالموافقة. ويغض النظر عن خشيتها من إرهاق الرجل العجوز نتيجة تسلق الشوارع المرصوفة بالحصى تحت هذه الشمس الحارقة، كانا

سعيدين بقبول دعوته. كان جان يتكلم كثيرًا، حتى في أثناء اجتياز الأزقة شديدة الانحدار، ولا يتعب أبدًا. روى لها تاريخ كاتدرائية سانت فنسنت التي تهيمن على القرية والتي تنطلق منها جميع أزقة القرية المرصوفة بالحصى. بنيت الكنيسة على أنقاض القلعة القديمة. أساسًا، أوضح لها، لا يزال يمكن العثور على بعض هذه الآثار خلف الكنيسة. وقال إن الكنيسة قد بناها سكان القرية أنفسهم. فالأغنياء قدّموا المال بينما قدّم الفقراء أيام عمل.

«كان الرجال يعلون الجدران، والنساء يحملن الحجارة التي تزن كلٌّ منها حوالي مائة وخمسين كيلوجرامًا.»

أوضح جان أن الحجارة كانت ثقيلة جدًا، وأن المهمة كانت تتطلب من الجهد ما أدى إلى أن العديد من الأجنة لم ير النور.

«كان الأطفال والنساء الأقل قوة، يحملون سلال التراب لبناء سقالات طبيعية داخل الأسوار.»

تُسمى كنيسة سانت فنسنت بالكنيسة (العليا) مقابل الكنيسة (السفلى) وهي كنيسة صغيرة على الطراز الرومانسكي تقع أسفل القرية.

اتجهوا نحو أزقة شديدة الانحدار، ومروا تحت أروقة عائدة إلى تلك الحقبة، وتوقفوا أمام بقايا ممشى التحصينات. تميزت منازل عديدة بتجويفٍ مستدير غريب إلى حدٍّ ما. شرح لها جان أن هذه الأبنية هي أفران خبز يملكها أفراد، ولا تزال تُستخدم أحيانًا من وقتٍ لآخر. هذا المبنى القديم الضخم هو بيت الكاهن. والدكاكين الصغيرة المفتوحة، التي تجذب السياح، هي في الغالب محال للفنانين: نحاتي الرخام والحجر، ورسامي الزجاج الملون، وصناع المجوهرات، وصناع السكاكين، والخطاطين... خلّقت جوانا إلى قمة السعادة، وكان إميل يرى عينيها تلمعان أمام كل علامة. تابع جان طريقه بلا كلل، دون أن يتوقف عن الكلام.

وصلوا أخيرًا إلى أعلى نقطة في إيوس: كاتدرائية سانت فنسنت. أشار جان إلى النباتات الموجودة بالأسفل في محيط القرية.

«لن تريا مثل هذا الخليط من الصبار والميموزا في أي مكانٍ آخر.»

استدار نحو الشمال، وأشار إلى شيء ما في البعيد.

«إذا واصلتما السير في هذا الاتجاه، فسوف تصلان إلى قرية قديمة لم يبق منها اليوم سوى أطلال. تسمى كوم. لم يبقَ هناك غير الحجارة... وكنيسة.»

انصرف جون. لقد تركهما بالطريقة المفاجئة نفسها التي اقترب بها منهما. اختفى بقبعته وسترة الراعي التي يرتديها، مرسلاً إليهما تحية بيده. بقيا محترسين، وقال لهما رجل كان يدخن سيجارة أمام دكانٍ للسكاكين القديمة، مبتسمًا:

«إنه أسطورة هنا.»

اقتربا من الرجل، وسأله إميل:

«هل يعيش هنا منذ زمنٍ طويل؟»

هز الرجل رأسه.

«تقريبًا. كان في السابق راعيًا. عند قدومه للاستقرار في القرية، ذهب إلى كبارها وسألهم عن تاريخ القرية وعن الحياة في ذلك العصر، فحدثوه لساعاتٍ طويلة عن ذلك.»

لبث إميل محتارًا أمام الرجل.

«لم نعطه أي شيء في المقابل...»

وضحك الرجل.

«إنه لا يطلب شيئًا. ويفعل ذلك تطوعًا ويكرم أخلاقٍ تام.»

جلسا عند سفح كاتدرائية سانت فنسنت وشاهدا الشمس وهي تغرب في بطءٍ فوق إيوس. بدأت الحجارة تتلون بأضواء ذهبية تنزلق على طول الأزقة. توهجت الأسطح باللون الأحمر، وارتسم في الأفق خط بين البرتقالي والوردي. أظلمت منطقة الغطاء النباتي فيما وراء الأسوار. انعقد لساناهما من الدهول، ولبثا عاجزين عن انتزاع أنظارهما بعيدًا عن المشهد. كان ذلك النهار نهائيًا خارج الزمن. جان، الطرقات المرصوفة بالحصى، الحجارة الغارقة في التاريخ...

«إميل...»

تحدثت جوانا وهي تشهق، دون أن تفارق عيناها أسطح المنازل التي توردَ لونها بأشعة الغروب.

«نعم.»

«أظن أننا سنستقر هنا...»

راحت الآن تنظر إليه بوجهها الذي يكون عادةً شاحبًا وخاليًا من التعبير، وبدأ الآن منيرًا يغمره الافتتان، كما لو أنه يستعيد الحياة، كما لو أن الحرارة تدب فيه.

«نعم.» قال ببساطة.

إنه لا يعلم إن كان سيجد الكلمات في دفتر ملاحظاته لوصف ما رآه اليوم أم لا.

تناولا هلام الخزامى بإصبعيهما من وعاء التبريد مباشرةً. كسطا الخواف جيدًا للتأكد من عدم خسارة لقمة واحدة. ثم لعقا إصبعيهما بشراهة وهما يغمضان أعينهما. لقد أكلتا تقريبًا نصف محتوى القدر. ويراهن إميل على أنها سيأتیان عليه الليلة بالكامل. لقد نجح هلام الخزامى الذي صنعه. كانت عينا جوانا تلمعان. وكان سعيدًا لرؤيتها هكذا. أخرجتا الطاولة والكرسيين ووضعاهم بجوار عربة التخيم، في ساحة وقوف السيارات المقابلة للأسوار. لم يكن ذلك هو أفضل مكان خيمًا فيه، ولكن لا أهمية لذلك. غداً سيبحثان عن شقة صغيرة يقيان فيها شهرًا. سيتركان العربة في هذا الموقف، وسيوقعان عقد إيجار شقة ويتقلان إليها.

قبل شهر، علم إميل أنه محكوم عليه بالموت الوشيك، وأنه سيقضي الستين الأخيرتين من حياته محتجزًا في مركزٍ للتجارب السريرية. وها هو اليوم يتناول هلام الخزامى اللذيذ أمام أجهل قرية رآها على الإطلاق. غداً سوف ينتقل للعيش مع جوانا. وفي غضون أسابيع قليلة سيقفان أمام مجلس المدينة لإعلان قبول كلٍ منهما بالآخر زوجًا. لم تنته حياته قط. لقد فهم ذلك جيدًا. ما دام قرر أنه لم يمت، فسوف تستمر في ملاعبته. ولم يمت بعد. على العكس تمامًا، لم يشعر قط أنه حي بهذه القوة.

هذا الصباح كانت جوانا إعصارًا، تنتقل جيئةً وذهابًا من وإلى عربة التخيم فيما يحاول إميل جهده أن ينام. كان يسمعها تدخل وتخرج، تأخذ كوبًا من تحت المغسلة، تسخن الماء، تغسل الملعقة. ثم غادرت لفترة طويلة، قرابة الساعة. بالكاد أسعفه الوقت كي يعود إلى النوم، ثم عادت وأجرت الماء مرة أخرى، بحثت في

الحزانة، أسقطت شيئًا ما. انتهى الأمر بـ إميل إلى النهوض. فهم أنه لن يستطيع النوم أكثر مع كل تلك الفوضى.

«ما الذي يجري؟ هل بدأنا بنقل أغراضنا؟»

قفز إلى أسفل سلم الحبال. كانت جوانا تطوي المقعد الذي تنام عليه في الطابق السفلي.

«مرحبًا.» قالت وهي تنهض واقفة.

«هل أيقظتُك؟»

«قليلاً...»

«صادفتُ جان عند مدخل إيوس. أردتُ البدء باستكشاف الشوارع والشقق المعروضة للإيجار...»

فرك عينيه، وخنق تثاؤبًا. ليس لديه أي فكرة عن الوقت. لقد ظن أنه نام ساعات قليلة، ولكن موقع الشمس يشير إلى أن الوقت لا يقل عن منتصف النهار. «ما زال عند مدخل القرية؟» سأل من باب اللباقة.

«نعم. كان مع تلك السيدة ذات الإزار الأصفر، نفسها التي كانت هناك أمس.»

تذكر هذه السيدة الخمسينية التي تحدثت إليهما من نافذتها. أو ما برأسه وذهب إلى المنضدة ليصنع لنفسه بعض الشاي.

«لقد ألقت علي التحية وسألني عن المدة التي نريد أن نمضيها هنا. أخبرتها أننا نتطلع إلى الاستقرار في القرية لبعض الوقت. أخبرني أن الشقة التي تعلو شقة والدتها متاحة.»

توقف وهو يمسك بالغلاية، والتفت نحو جوانا.

«ماذا؟»

«في الواقع إنها شقة واحدة في طابقين... لكن والدتها تبلغ من العمر أربعة وثمانين عامًا وتواجه صعوبة كبيرة في التنقل. لقد أعادوا ترتيب الشقة حتى تتمكن من العيش في الطابق الأرضي فقط. وضعوا في الأسفل حوض استحمام ودورة مياه، وبقي الطابق العلوي شاغراً منذ عامين.»

«أوه..»

قال لنفسه إنها مصادفة ممتازة.

«ألم تستطع تأجيله خلال عامين؟»

ارتسمت على وجه جوانا هيئة لم يتمكن تمامًا من فهمها. هيئة حرج.

«لقد عرضت في الواقع، أن تعطينا الشقة بنصف الإيجار مقابل مبادرات معينة

من جانبنا...»

لم يفهم أيضًا. كان يرى مقدار الحذر لدى جوانا، وترقبها لرد فعله.

«هذا يعني؟» سأل.

«إنها تبحث عن أشخاص جادين، قادرين على رعاية والدتها، مقابل الإقامة

بنصف الإيجار.»

قطب حاجبيه.

«أليس هناك غش في هذه العملية؟»

«سيكون كافيًا أن نمر عدة مرات خلال اليوم للتأكد أنها بخير، ومجالستها.

لديها عاملة تنظيف... يتطلب الأمر أن نعتني بها قليلًا فقط.»

انتظرت جوانا رد فعله ببعض القلق.

«ما قولك؟»

وضع الغلاية فوق منضدة العمل.

«لا أدري... هل سنعيش عندها؟»

«إلى حد ما... سيفصل بيننا وبينها سلم مستقل للصعود إلى الطابق العلوي.»

لم يستطع منع نفسه من تقطيب حاجبيه ثانية.

«لا أدري... الاعتناء بسيدة عجوز... لست معتادًا ذلك...»

جربت جوانا مدخلًا آخر، بنظرة قلبي متجدد:

«ستتمكن من استخدام فناء منزلها الداخلي... قالت إن والدتها لا تذهب إلى

هناك أبدًا... إنه فناء جميل، ظليل جدًا، وفيه شجرة دلب كبيرة.»

«مم.»

عاد لتحضير الشاي. لا يعرف ما الفكرة التي وضعتها هذه المرأة في رأس جوانا ولكن من الواضح أنها أقنعتها بها. لبثت جوانا بضع ثوانٍ دون أن تضيف شيئاً. راحت تراقبه وهو يغلي الماء، ويسكبه في كوب كبير، ويغمس فيه كيس شاي. ثم تبعته إلى الخارج عندما جلس خلف الطاولة القابلة للطوي.

«هل سيكتب اسمانا في عقد الإيجار؟»

أساساً، هذا هو السبب الوحيد الذي جعلهما يتطلعان إلى استئجار شقة في القرية.

«نعم. لقد أكدت لي ذلك. لكن هذا ليس كل شيء...»

نظر إليها وهي تتكئ على الطاولة بنظرة جادة.

«إنها لا تشترط كفالة ولا عقد عمل...»

وجد نفسه متفاجئاً قليلاً.

«لم نفكر في الأمر أمس... لكنها نقطة قد تشكل مشكلة...»

كانت على حق. حماستهما أمس منعتهما من التفكير في كل شيء. هناك شروط يجب التقيد بها لتوقيع عقد إيجار من هذا القبيل، في حين أنهما ليس لديهما كُفلاء، ولا عقد عمل، ولا مصادر دخل منتظمة تمنحهما المسوغات الكافية...

«اللعة». قال بمزاج سيئ.

عبست جوانا.

«ما الأمر؟»

«أنت على حق... نحن عالقون...»

هزت رأسها. كان يعتقد أنها متحمسة لمساعدة سيدة عجوز، في حين أنها فهمت ببساطة عدم وجود خيارٍ أمامها.

«ألم يبد لك ذلك شيئاً بعملية احتيال؟» سأل وهو يغوص في كرسيه.

«لا.»

«هل نستطيع زيارة الشقة؟»

«نعم. لقد اقترحتُ أن تأخذنا إليها بعد ظهر هذا اليوم.»

«حسنًا...»

انتظرت بضع ثوانٍ وعندما لم يقل شيئاً سألت: «هل أقول لها إننا موافقان؟»
بدا مترعجاً قليلاً. في الواقع، كان يمكن أن يعد هذا العرض خطة بديلة
إذا مكّنتها من الحصول على أوراق الزواج... ربما سيستطيعان تقبّل الوضع لمدة
شهر...

«نعم. يمكننا تفقّد الشقة بكل الأحوال.»

«وبعدها نقرر؟»

«وبعدها نقرر.»

خلعت السيدة مئزرها الأصفر. كانت ترتدي فستاناً صيفياً ملوناً بزهور بيضاء
ووردية وتحمل حقيبة ذهبية صغيرة. رحبت بهما بابتسامة عريضة، كما في اليوم
السابق، عند أسفل الأسوار.

«طاب يومكما!»

كانت قد قابلت جوانا هذا الصباح، لذلك لم تصافح سوى إميل.

«سعيدة لرؤيتكما مرة أخرى.»

«ونحن كذلك.»

«اسمي آني.»

«أنا إميل.»

علّقت حزام حقيبتها الصغيرة على كتفها وأضافت:

«أخبرتني صديقتك أنكما تنويان الاستقرار في قريتنا الجميلة لبعض الوقت.»

أوما إميل برأسه.

«لا نعلم حتى الآن إن كنا سنبقى فيها على المدى الطويل أم لا...»

حاول أن يبدو حذراً، فهو لا يعرف ما قالته جوانا، ولا يعرف ما إذا كانت
هذه المرأة مستعدة لتأجير هذه الشقة لسائحين عابرين لمدة شهرٍ واحدٍ فقط أم لا.

«قالت لي إنكما ستمكثان شهراً في الأقل.»

أوما بنوعٍ من الارتياح.

«هو كذلك.»

بدأت الأمور واضحة منذ البداية، في الأقل. أشارت لهما المرأة بأن يتبعاهما. سلكوا شارعًا صغيرًا صاعدًا إلى اليسار.

«نجد صعوبة في تأجير الشقة... الناس الذين يأتون إلى هنا يكونون في العموم عابرين، غير مقيمين.»

دوى وقع خطاهم على حجارة الطريق. صادفوا مجموعة من السياح الأجانب يتبعون دليلًا سياحيًا يحمل مكبر صوت.

«العرض لا يثير اهتمام السياح الذين يقيمون هنا لبضعة أيام. وكل ما يبحثون عنه هو شقق لقضاء العطلات، لا أكثر. أمي لا ترغب أن ترى موكبًا دائمًا من الغرباء، فهي، في عمرها، تحتاج إلى الاستقرار.»

أومأ إميل وجوانا بحركة واحدة.

«ستريان أن الشقة صغيرة ولكنها هادئة. الفناء الداخلي ساحر حقًا. يمكننا الاستفادة منه بلا تردد. أمي لا تحب الخروج كثيرًا في الصيف، فالحرارة تكون خانقة، حتى في الظل. إنها تفضل البقاء في غرفة المعيشة الخاصة بها، مع مكيف الهواء. لذلك ستمكنان من الجلوس هناك دون مشكلة.»

توقفًا بعد بضع ثوانٍ وأخذت آني تبحث في حقيبة يدها عن المفتاح.

«إنه مفتاح هذه الشقة. كما لاحظتما، أنا لا أعيش بعيدًا عن منزل أمي. يمكنني المرور مرة واحدة في الأقل في اليوم... أعني، عندما لا أرى أحفادي... تعيش ابنتي وزوجها في المنطقة.»

وصلوا إلى زقاق ضيق للغاية مرصوف بالحصى، تمتد على جانبيه شقق أقرب إلى بيوت حجرية. تشير آني إلى باب صغير أحمر ساطع كُتب عليه الرقم (6) فوق مربع خزفي. المبنى الحجري صغير الحجم: هناك نافذة صغيرة في الطابق الأرضي، مطلية باللون الأحمر ومزينة بأصيص جيرانيوم. ستار الدانتيل يحمي الداخل من النظرات الفضولية. وهناك نافذة ثانية في الطابق العلوي، مغلقة بمصاريع خشبية سميكة ذات لون بني، تشير إلى أن هذا الجزء من المنزل لا يشغله أحد. لا بد أن عرض المبنى بالكاد يزيد عن أربعة أمتار. وبجانب منازل الزقاق، الأخرى، يبدو المبنى أشبه ببيت الدمية.

تصعد آني الدرجة الصغيرة المؤدية إلى الباب الأحمر، وخشخشت المفاتيح وهي تُدخِلُها في القفل. فتح الباب، ودعتهما للحاق بها إلى الداخل.

«أمي!» نادى وهي تغلق الباب وراءهما.

«أمي! هذا أنا، آني! جئتُ مع شاين كي أريهما الشقة!»

وجدا نفسيهما في عمرٍ معتم يؤدي إلى غرفة معيشة ومطبخ. كان شعاع ضوءٍ يرشح من تحت الباب. على يسارهما مباشرةً يوجد الدرج الذي يقود إلى الطابق العلوي، وهو درج خشبي مغطى بالسجاد. انطلق صوت سيدةٍ عجوز مكتومًا:

«حسنًا. هل ستأتي إلي بعد ذلك؟»

«نعم يا أمي. سأريهما الطابق العلوي ثم نأتي لرؤيتك.»

«حسنًا.»

أشارت آني إلى الدرج إلى اليسار.

«تفضلًا، سألحق بكما.»

مشى جونا في المقدمة، يتبعها إميل. صعدا الدرج ووصلا إلى غرفةٍ غارقة في الظلام، لم يتمكنوا حتى من تحديد معالمها.

«أوه، عفوًا!» صاحت آني.

«كان يجب أن أتقدمكما، يجب أن أفتح مصاريع النوافذ.»

تقدمت بضعة خطواتٍ مكتومة بسبب وجود الموكيت على الأرض. سمعا نافذةً تُفتح، ويُصدِرُ مصراعها صريرًا، ثم أبهر بصريهما ضوءُ الشمس المباغتِ القادم من الشارع. لقد فاجأهما اكتشاف مكان وجودهما. كان إميل يتوقع تصميمًا داخليًا كثيفًا ومكتنظًا لسيدةٍ عجوز، لكن الغرفة التي وجدا نفسيهما فيها كانت مشرقة جيدة التهوية وحديثة إلى حدٍّ ما. يبدو أن آني لاحظت المفاجأة على وجهه لأنها أوضحت:

«قمت أنا وزوجي بإعادة تصميمها عندما قررنا نقل أمي إلى الطابق الأرضي.

قمنا بإزالة الجدران الفاصلة لتوسيع الشقة، وحاولنا تحديث الديكور قليلًا.»

وبغض النظر عن الموكيت البيج الذي تُرك على حاله، يبدو أن الحجرة قد أعيد بناؤها بالكامل. تم التعامل مع الجدران بطريقةٍ تكشف عن حجارة البناء الجميلة.

ويبدو أن السقف قد أعيد طلاؤه باللون الأبيض مؤخرًا، وأدججت فيه الإنارة. الحجرة هي في الواقع شقة صغيرة مؤثثة بأريكة زاوية، بيضاء اللون وكبيرة، وطاولة قهوة، ورف ممتلئ بالكتب. ويشغل الجدار المقابل مطبخ صغير. فوق الموقد والثلاجة الصغيرة، هناك نافذة ثانية، شبيهة بكوة، يُفترض أنها تطل على الفناء الداخلي.

دعتهما للتقدم في الحجرة، قرب خزانة حائط، وسرعان ما فهم السبب. خلف أريكة الزاوية، يوجد باب صغير يخفيه رف الكتب، لإخفاء جزئيًا. قامت بفتحه.

«ها هو الحمام والتواليت.»

هنا أيضًا تم تجديد كل شيء. مقصورة دش جميلة بيضاء متلألئة، وصنبور من حصى كاذبة. وهناك منور صغير يسمح بتهوية الغرفة. المكان صغير ولكنه لطيف ومدرّوس جيدًا.

«لقد تركت أُمِّي أشياء تستطيعان استخدامها. بياضات حمام، وبعض الكتب، ولعبة سكرابيل. إنها، في سنّها، تفضّل التلفاز.»

عادوا إلى الحجرة الرئيسية، أمام الدرج.

«كما أخبرتُ صديقتك هذا الصباح، أعرض عليك تخفيض الإيجار إلى النصف مقابل اهتمام خاص بأُمِّي. أنا لا أطلب عناية بنظافتها أو حمامها. لدى أُمِّي مساعدة منزلية تعني بها وتأتي كل صباح باكراً جداً، زهاء السابعة صباحاً. بالكاد سوف تصادفانها. يتعلق الأمر بمجالستها قليلاً. تخصيص بضع دقائق للردشة معها. مساعدتها على النزول إلى الفناء إذا أرادت الحصول على بعض الهواء النقي، وإطعام قطتها، وتمني ليلة سعيدة لها مساءً...»

أومات جوانا برأسها. بقي إميل في الخلف متردداً قليلاً. هذه الشقة ليست سيئة، وهو يعتقد أنها سيشعران فيها بالارتياح. ولكن هل يستحق الاستثمار كل هذا العناء؟

«هل آخذكما لمقابلة أُمِّي ورؤية الفناء الداخلي؟»

لحقا بآني على الدرج. وجدا نفسيهما مرة أخرى في الطابق الأرضي يعبران الممر المعتم. أشارت لهما آني إلى الأبواب المغلقة:

«هذه غرفة نوم أُمِّي ومرحاضها وحمامها.»

في نهاية الممر، فتحت الباب فوجدنا نفسيهما في الضوء من جديد. هذا الصالون هو غرفة معيشة حقيقية لسيدة عجوز. بساط أخضر بحواف مذهّبة، أرائك مخملية، وسجاجيد بأهداب واسعة، ومفارش فوق قطع الأثاث، وسيدة عجوز في حجرها قطعة، تجلس في إحدى الأرائك. كان شعرها أبيض اللون معقوصاً إلى الخلف، أما عيناها فلوניהما أزرق ونظرتها ثابتة.

«هذان يا أمي، شابان جاءا للمعاينة الشقة.»

قفزت القطة السمينة ذات الشعر الأحمر الطويل، من فوق الأريكة، وفرت بعيداً، خائفة من الزائرين. شاهداها تخرج عبر باب زجاجي يبدو أنه مقل على الفناء الداخلي.

«أوه! يبدو أن كاناي خافت.»

اقترب إميل وجوانا لتحيّتها.

«نهارك سعيد سيدتي.»

بدت المرأة العجوز محتفظة بقواها. مدتّ لها يداً ثابتة ولكنها تعرّضت للتأنيب عندما حاولت النهوض.

«ابقي جالسة يا أمي!»

ابتسمت لها السيدة العجوز وارتسمت على وجهها هيئة التسليم بالعجز. ومن ورائها كان التلفزيون يبتّ مسلسلاً تدور أحداثه داخل مصيف في الريف. في الجزء الخلفي من الغرفة هناك مطبخ صغير مطابق لمطبخ الطابق العلوي باستثناء أنه ممتلئ بزهور جافة وضعت في مزهريات قبيحة باللون الأخضر والذهبي للبسط. «تعالاً.» أشارت آني.

«سأريكما الفناء الداخلي.»

تبعها إميل وجوانا من الباب الزجاجي ونزلا الدرجات القليلة المؤدية إلى الفناء الداخلي الخاص الصغير. المكان ساحر حقاً. تم تحديد الفناء بواسطة الأسوار العالية للمباني المجاورة، ولكن لا يوجد نوافذ تفتح عليه، لذلك فهو يوفر خصوصية كاملة. الأرضية مرصوفة، نمت في وسطها تماماً شجرة دلب كبيرة لا بد أن عمرها يقدر بمائة عام، وتضفي على المكان الظل والانتعاش. وقد وضعت السيدة العجوز على الأرض، إلى جانبي الباب الزجاجي، العديد من الأحواض

الملتثة بالزهور من مختلف الأنواع والألوان. وتحت الشجرة هناك طاولة خشبية مستديرة وكريسيان صغيران. كانت القطة الصهباء البدينة مستلقية تحت الطاولة، وراحت تراقبهما في خشية.

«هذا هو الفناء الشهير. يمكنكما الوصول إليه عبر شقة أُمي. لا أعتقد أنها سوف تمنع. كما أخبرتكما، هي تفضل البقاء في غرفة المعيشة الباردة خلال فصل الصيف. أرجو أن تتقبلكما كاناي هنا. لأنها قطة لا تثق بالآخرين.»

انحنى آني للأسفل ومدت يدها نحو القطة التي بقيت بلا حراك.

«ليست في مزاج جيد اليوم. لا بد أنها تخيلت أنكما ستأخذان صغيرها...»
«صغيرها؟» سألت جوانا.

استقامت آني وشرحت:

«أنجبت كاناي، ومن بين الهريرات الثلاث نجت واحدة فقط. ذكر صغير. ولا يمكن لأُمي، في هذا العمر، الاعتناء بقطتين، وعلى أي حال، سينتهي بهما الأمر بالتقاتل عندما يصبح الهر بالغاً.»

بدت جوانا متأثرة بهذه القصة. رأى إميل وجهها يعبر عن القلق.

«ماذا ستفعلين به؟»

«لم أجد مَنْ يأخذه.»

«ألن يكون مصيره القتل؟»

أصبح صوت جوانا مثل صوت فتاة صغيرة انتابها الرعب. وبدت آني مكتئبة.

«بلى... إذا لم نجد له عائلة تتبناه.»

«أين هو؟»

صعدت آني الدرجات القليلة التي تؤدي إلى غرفة معيشة أمها.

«إنه في ركنٍ من الصالون. هل تريدان رؤيته؟»

وافقت جوانا في لهفةٍ وتقدمت داخل المنزل خلف آني. تباطأ إميل للحظة في الفناء قبل أن يلحق بهما. صحيح أنها سيسهران بالارتياح هنا. بدأ يتخيل نفسه جالساً خلف الطاولة الخشبية تحت شجرة الدلب. وقال لنفسه إن السيدة العجوز

لا تبدو عجوزًا جدًا أو مريضة جدًا. بل بدت قبل قليل ماثلة إلى الحيوية. بعد كل حساب، قد يشكل الأمر تعايشًا ممتعًا...

في غرفة المعيشة، وجد جوانا قد أخذت وضعية القرفصاء أمام سلة ينام فيها قط صغير أصهب وأبيض، بالكاد ينجح في إبقاء عينيه مفتوحتين.

«كم عمره؟»

كانت العجوز هي التي أجابت. نهضت عن الأريكة وتقدمت بصعوبة تجاه جوانا وآني والهر.

«عمره شهران. لقد فُطم لتوّه.»

استدارت آني منتفضة:

«أمي! ابقِ جالسة قليلًا! إنك ترهقين نفسك بلا فائدة!»

لكن السيدة العجوز تجاهلت ابنتها تمامًا، وتابعت حديثها مع جوانا فقط:

«آني تريدنا أن نقتله إذا لم نجد من يتبناه.»

تدخلت آني:

«كنت أود أن نقتله على الفور لكن أمي لم تستمع إلي. حاولت كسب الوقت.

لنتنظر أن يتم فطامه... سنجد عائلة تتبناه. لدينا الآن هر صغير بعمر ثمانية أسابيع،

سيكون علينا أن نقتله!»

في نهاية الأمر، أبعدت جوانا عينيها عن الهر الصغير الأصهب والأبيض.

نهضت بهيئة فتاة صغيرة تأخذ نفسها على محمل الجد.

«أستطيع العناية به في الوقت الحالي. سيكون في الطابق العلوي، بالقرب من

والدته. بعد ذلك، سأساعد في العثور على عائلة له. سأضع ملصقات في القرية. أنا

متأكدة أننا سنجد له منزلًا...»

تغير وجه آني تمامًا. فبعد أن كانت غاضبة من عناد والدتها، بدأت تبتسم.

«هل أفهم أنكما ستأخذان الشقة؟»

نظرت جوانا إلى إميل وهي ممتلئة بالخوف. يبدو أنها أدركت أنها قد تعجّلت

بالكلام دون أن تستشير.

«أنا...»

التفتت آني نحو إميل:

«أفهم تمامًا أنك في حاجةٍ إلى التفكير. أستطيع أن أمهلك اليوم وحتى بضعة أيام.»

لكن إميل فكر في الأمر فعلاً. ليس لديها وقت كثير يضيعه في التفكير إذا أراد حل مسألة الزواج هذه بأسرع ما يمكن.

«من جهتي، لقد قررتُ.»

رأى عيني جوانا تضيئان، وهي مترددة بين الخوف والفرح.

«قررتُ أخذها.»

بدت آني سعيدة ومرتاحة مثل جوانا. صفقت بيديها لإظهار سرورها.

«حسنًا، هذا ممتاز! يسعدني أن أعرف أنكما من ستعتيان بأمي. أنا متأكدة أنكما

سوف تتعايشان معها بشكلٍ رائع. هل ننجز هذه القضايا الورقية الآن؟»

جلست آني وإميل وجوانا في الخارج حول الطاولة الخشبية الصغيرة تحت شجرة الدلب. لم تكذب جوانا: كانت آني مستعدة لتوقيع عقد الإيجار على الفور، دون كفلاء، ودون إيداع، ودون إثبات مصدر دخل. كل ما تريده، بعض المؤنسة لأمها. إنها مقتنعة بأن وجود الشباب سيقدم لها أعظم فائدة. علم إميل أن اسمها الأول هو ميرتيل وأنها فقدت زوجها، والد آني، منذ عشر سنوات. أخرجت آني أوراق عقد الإيجار وملأتها وهي تبلل قلم حبر جاف بلعابها.

«ما الذي جاء بكما إلى هنا؟» سألت فجأةً، وهي ترفع عينيها عن أوراقها، وعلى شفيتها ابتسامة.

أمام صمت جوانا المرتبك، تولى إميل الإجابة:

«نريد الزواج هنا.»

أضاء وجه آني، وعلا صوتها إلى الطبقة الحادة:

«تهانٍ الحارة! هذا رائع!»

حاول الاثنان أن يظهر الحماسة مثلها، لكن الأمر لم ينجح.

«أعتقد أنكما ستتقلان إلى منزلٍ خاص بكما، حالما تتزوجان، أليس كذلك؟»

«بالتأكيد.»

سحبت الأوراق تجاههما وهي لا تزال مبتسمة:

«إنه خيار ممتاز، فهذه القرية ملاذ للسلام. هل أدعكما تملآن الأوراق؟»

تم ملء الأوراق. كان ينقصهما نسخ من أوراق الهوية، لكن آني قالت إنهما يستطيعان إحضارها غداً عند انتقالهما للسكن. كانت السيدة العجوز قد غفت في كرسيها ولم يشأ أحد الثلاثة إيقاظها. ودَّعا آني أمام الباب الخارجي، ورتبا للقاء عند ظهر اليوم التالي، لنقل أغراضهما إلى الشقة.

حين عادا إلى موقف عربتهما خارج الأسوار، كان كل ما قالته جوانا لإميل هو:

«سيتعين أن نجد له اسماً.»

كان إميل يرقد منهكًا على الأريكة البيضاء في الزاوية. لم يكن لديها الكثير من الأغراض ليحملها إلى الشقة، لكن تسلق الشوارع شديدة الانحدار تحت أشعة الشمس الحارقة كان كافيًا لإرهاقه. ذهبت جوانا لتصوير المستندات هذا الصباح في أحد متاجر إيوس، بينما قام إميل بتجهيز كل ما يحتاج إليه في صناديق، للانتقال إلى 6، كاريرو دِل ماسادور. انطلقا بعدها، عند الظهر، إلى منزلها المستقبلي، بأيدي ممثلة بالصناديق. ساعدتهما آني في إحدى عمليات النقل، وانضم إليهم جان وحمل أقل الحقايب وزنًا. لم تستغرق عملية النقل أكثر من ساعة. قدمت لهما آني عصير الليمون الطازج في الفناء الداخلي وسألتهما عن سبب وجود عربة التخيم.

«هل تسافران رحلة تمهيد لشهر العسل؟»

كان إميل هو من رد لأنه رأى أن جوانا تتهرب من المحادثة.

«نعم، هذا هو الحال. أراد كلانا البدء برحلة والزواج في أثناء الطريق.»

بدت آني متأثرة من الفكرة.

«كم هذا رومانسي!»

إلا أنها كانت متحمسة للموضوع حتى أنها أصرت على طرح مليارات الأسئلة عليهما.

«هل قررتما منذ لحظة انطلاقكما أين سيكون مكان الزواج؟»

«لا. لم نقرر المكان ولا التاريخ.»

«أردتما ترك الأمور لتطورات الرحلة؟»

«نعم، هو ذاك... لقد وقعنا في حب قريبتكم.»

«وبعد ذلك؟ هل ستغادران من جديد؟»

«ربما. لم نقرر بعد.»

«هل ستستقران في مكانٍ ما بصفة دائمة؟»

«هذا ممكن».

اضطرا أن يخبرا آني بالتفصيل بكل الأماكن التي توقفا فيها قبل إيوس، وأن يخبراها بقصة لقاءهما. أجاب في اقتضاب شديد أن لقاءهما جرى من خلال أصدقاء مشتركين من فترة شبابهما الأول. كانت جوانا قد هربت حاملّة الهر، واضطر إميل إلى الارتجال بمفرده.

25 يوليو

مارجوري،

حان دورك لتلقي رسالة مني. أنا حاليًا في مكانٍ ستحيينه. سأستقر فيه مؤقتًا. هذه خطوة في طريقي. القرية رائعة. الشقة التي انتقلت إليها للتو ستجعلك ترتجفين من الغيرة. حجارة جدرانها مكشوفة على الطريقة التي تحبينها كثيرًا. مقصورة دشر إيطالية (أنت مفتونة بها). أريكة زاوية من شأنها أن تتناسب بشكلٍ رائع مع صالون بيتك. طراز حديث وراقٍ ومشرق جدًا.

سأسكن فيها مع فتاة. نعم! أرى من هنا هيتك المتفاجئة. حتى أننا تبيننا هرًا صغيرًا لونه أصهب وأبيض. لم نختر الاسم لكنني سأخبرك عندما تتخذ جوانا القرار. (نعم، اسمها جوانا).

كما ترين، أموري تسير على ما يرام. أعلم أنك قلقَت لأجلي كثيرًا عندما رحلت لورا، ولكنك كنت مخطئة. إننا نتعافى دائمًا من كل شيء ونعود. أنا سعيد تمامًا. أخبرني أمي. توقفي عن القلق بشأنني. قررت أن أعيش مائة حياة قبل أن أغادر الحياة. لكنني لم أنساكم. أفكر بكم كثيرًا. كل يوم. قبلاتي لأبي، أمي، باستيان، والتوأمين. إميل.

سوف يضع هذه الرسالة في صندوق بريد قرية بعيدة، كي يكون مطمئنًا إلى أنه لن يأتي أحد ويأخذها من إيوس. سوف يأخذ السيارة ويقودها لمدة يوم كامل حتى يعثر على مكتب بريد. وسيوضح في أسفل الورقة بعد اسمه: لقد رُتبت لإرسال

هذه الرسالة من مكانٍ بعيد تمامًا عن المكان الذي أقطن فيه. لا تضيعوا وقتكم في البحث عني. عيشوا حياتكم واضعين في الاعتبار أنني بخير. إنه عازم على أن يظهر لهم أنه سعيد. من المؤكد أنه يتصالح مع الحقيقة إلى حدٍّ ما، لكنه لم يكذب. إنه سعيد.

كانا صامتين في أثناء العشاء في ذلك المساء. تناولت ميرتيل طعامها من قبل أمام المسلسل التلفزيوني الذي تتابعه. أرادت جوانا مساعدتها بتسخين طبقها ووضعها على الطاولة، أمام مقعدها، لكن السيدة العجوز أكدت لها أنها تستطيع القيام بذلك، وإن استغرق الأمر وقتًا طويلًا جدًا بسبب ساقها اللعيتين، وما دامت قادرة على تسخين وجبتها، فهي لا تشعر بالانتكاس التام.

أرادا تناول وجبتهما في شقتهما بالطابق العلوي، لكن ميرتيل أخبرتهما عشر مرات أن بإمكانهما الجلوس في الفناء، وسيكون من الخطأ حرمان نفسيهما من طقس نهاية يوليو، المعتدل. لذا أحضرا الأطباق وأدوات المائدة والسلطة، الأمر الذي أثار تذمرًا جديدًا من جانب ميرتيل:

«في المرة القادمة، لا تجعلاني ألح عليكما بهذا الشكل، واطبخا في شقتي! ابتي تسلمني وجبات جاهزة، لذلك لم أعد أستخدم ألواح الطهي!» غفت بعد فترةٍ وجيزة وهي تشاهد مسلسليها التلفزيوني.

راح إميل وجوانا إذاً يتناولان العشاء في صمتٍ تحت شجرة الدلب. تحيل إميل أنه كان من الممكن أن ينتهي به الأمر مثل ميرتيل، يتلقى المساعدة من أقربائه، حتى يختنق ويصبح معاقًا من شدة الرعاية. إنه يهنئ نفسه مجددًا على رحيله.. خطر له أن سلوك آني إزاء ميرتيل هو ما يجعل العجوز تبدو أكبر مما هي عليه. وأن والديه وأخته كانوا سيفعلون معه الشيء نفسه. كانوا سيجعلونه أكثر مرضًا وهشاشة مما هو عليه الآن. أما مع جوانا، فهو ليس مريضًا ولا خرفًا، ولا يزال شابًا يسافر على الطرقات في عربة تخميم، ويتخذ القرارات، ويتنقل للعيش مع فتاة، ويوبخها لأنها تأكل وهي تحمل هرا صغيرًا في حجرها.

رأها تمسح بقايا الصلصة في طبقها بقطعة خبز، ثم تترك الهر الصغير وشأنه على الأرض، لتأتي أمه كاناي وتنظفه بلسانها قرب أصيص التوليب.

«هل وجدت له اسمًا؟» سأل وهو يتمطى إلى الخلف متكئًا على ظهر الكرسي. رفعت جوانا نظرتها الطفولية نحوه. منذ أن وجدت هذا الهر، تحولت إلى فتاة صغيرة من جديد. لقد بدأت الرحلة تغيرها بالفعل، لكن هذا الهر هو الذي يكمل عملية التحول. كانت تبتسم، ترتعش عندما يلمس ساقها بطرف ذيله، تناديه باستمرار، تراقبه، وينبض وجهها بالحياة عندما يظهر.

«ما زلت مترددة.»

«هل تريد أن أساعدك في الاختيار؟»

«لا؟»

انتهت من مسح الصلصة في طبقها بقطعة الخبز.

«اخترت كلمتين برتونيتين قصيرتين للغاية، يستطيع تذكرهما بسهولة. (بوك)

تعني قبلة، و(سبي) الأمل.»

كان يجدها فاتنةً بنظرها الجادة والمنشغلة، وكأنها تقرر اسم مولودها الجديد.

«أيها تفضّل؟ رأيك مهم طبعًا...» وهو ما وسّع ابتسامته أكثر.

«ماذا هناك؟» قالت عندما رآته يبتسم.

«لا شيء...»

لم يجرؤ على إخبارها بأنه يجدها لطيفة. قال بدلًا من ذلك:

«نستطيع أن نسميه بوك، وأن نعد سبي اسمه الثاني. ما قولك؟»

وافقت جوانا في حماسة.

«يمكننا ذلك.»

ثم أضافت بابتسامة عريضة:

«سيكون أول هر على سطح الأرض له اسمان!»

بدا أن ذلك أسعدها للغاية.

للمرة الأولى لا يكون لديها ما يفعلانه مساءً. ليس عليهما الاستئناس بدليل جبال البيرينيه، ولا التفكير في خط سير، ولا نصب خيمة... أمامهما شهر للتجول والإعداد للزواج دون تسرع. شهر للتفكير في بقية المغامرات.

نمط حياة الاستقرار له محاسنه. مع ذلك لا يزالان تحت شجرة الدلب، يجدان نفسيهما مجرّدين أعزلين. اقترحت جوانا إخراج لعبة السكرابل، ووافق إميل دون حماسية كبيرة.

وضعا لوح اللعبة على الطاولة الصغيرة وقام إميل بإشعال الشموع التي أحضرها جوانا أيضًا من الشقة. لعبا في صمت، وكل منهما سارح في أفكاره. أخرجت جوانا بوك الصغير من تحت الطاولة وأجلسته في حجرها. تساءل إميل عن رد فعل لورا لو أنه عرض عليها لعبة سكرابل... لا شك أنها ستسخر، وقال سرًا إنها بهذا سترتكب حماقة، لأن مباراة سكرابل ليست أمرًا مزعجًا.

بعد حين، مرّا مجددًا عبر غرفة معيشة ميرتيل، وأيقظتها جوانا في لطفٍ.
«سأرافقك إلى سريرك...»

تولى إميل قيادة السيدة العجوز إلى غرفتها، فقد خشي أن تكسر جوانا عمودها الفقري تحت ثقل ميرتيل. قال لها:
«اذهبي للنوم، سأتولى الأمر.»

وافق ميرتيل إلى سريرها ورفع عارضتيه. كانت نافذة غرفتها تطل على الشارع المقفر تمامًا في هذه الساعة. تلك هي النافذة المزينة بستائر من الدانتيل وأزهار الجيرانيوم.

قالت السيدة العجوز: «ذكّرني بسقايتها في الغد...»

أوما برأسه وشاهدها تمشط شعرها وهي جالسة منتصبه حقًا على السرير، وشعرها أبيض فضي طويل. لا بد أنها كانت حسناء في شبابها.

همست السيدة العجوز: «خطيتك ساحرة.»

كانت تنظر إليه بعينيها الزرقاوين الثابتين ويشعر أنه مكشوف.

«نعم...»

«أنا سعيدة بوجودكما ضيوفاً.»

ابتسم لها وهو يدير رأسه. إنه لا يعرف إذا كانت السيدة العجوز قد فهمت قصته مع جوانا أم لا. كما لا يعرف إذا كانت قد اشتبهت في أنها ليسا خطيين

بالفعل أم لا. ربما شعرت بذلك من خلال سلوكهما، ونظراتهما، وإيماءاتهما، فهما يحافظان على مسافة معينة بينهما، يمكن لأي شخص رؤيتها.
اكتفى بقول: «نحن أيضًا.»

رقدت ميرنيل في سريرها. فحصت جوانا جروح إميل في مرفقه ورأسه. قالت إن الخيوط بدأت تتساقط من تلقاء نفسها، وكان محظوظًا لأنها لن تحتاج إلى إزالتها. طهرت الجروح، وأضاف هو قليلًا من المادة المطهرة، مكشّرًا. قاما بعدها بإطفاء الضوء. استلقيا في الظلام على أريكة الزاوية المفتوحة. لكن إميل لم يستطع النوم بسبب أصوات تشبه الخدش على السجادة يسمعا منذ دقائق، من شيء خفيف.
«جوانا؟»

لم تتحرك كتلة جوانا النائمة. كرر:

«جوانا؟ جوانا... أسمع هذا الصوت؟»

في الثانية التالية، شعر بشيء صغير دافئ يقفز فوق قدميه، جعله يندفع إلى أسفل السرير.

«لا! لا، يا جوانا! هذا خارج النقاش! بوك يبقى في سلتة في الطابق السفلي!»

الصوت الخافت لجوانا التي لم تكن نائمة على الإطلاق، علا قريبًا جدًا منه:

«ولكنه سيخاف بمفرده...»

بقي غاضبًا:

«أنت تمزحين! هناك أمه في الأسفل! أنا متأكد أنها تبحث عنه!»

«إنها تتصيد...»

«لا! لن يبقى هنا!»

أشعلت الضوء وراقبها وهي تجتاز الغرفة على مضض، حاملة بوك الصغير بين ذراعيها، مرتدية بنطالها الشورت الفضفاض الأسود ويلوزتها المتوافقة معه. فكّر في أن هذا يشبه أول شجار بين زوجين. لم يستطع منع نفسه من الابتسام ورأته يتسم.

«إميل...»

«لا»

«بوك سـ...»

«لا»

اختفت على الدرج بهيئة درامية. حاول محو ابتسامته لكنه لم يستطع. كان لديه شعور شديد بالاستطراف، وتقريباً يفتقد المشاجرات الزوجية...

مرت الأيام الأولى في إيوس دون أن يلاحظ أحد الثلاثة مرورها. كانت أياماً هادئة ولطيفة، خصصها للعثور على نقاط ارتباط، وإقامة نمط صغير من العادات.

عندما استيقظ إميل في الصباح الأول، وجد الشقة فارغة. عندما انحنى كي ينظر من الكوة الصغيرة فوق ألواح الطهي، رأى جوانا على الشرفة، تطعم كاناي. كانت القطعة المعروفة بالحذر، قد تبنت جوانا، الأمر الذي لم يفاجئ إميل، لأن جوانا متكئة وهادئة وصامتة، ولا بد أنها توحى بالثقة.

لم تحقد جوانا عليه لأنه طرد بوك من شقتيها في الليلة السابقة. كانت لورا ستظل ساعات عابسة، لكن جوانا لم تفعل ذلك. في صباح اليوم الأول، تناولوا وجبة الإفطار في الفناء الداخلي، وهما يشاهدان القطعة والمهر ينظفان فروهما. بعدها قام إميل بسقاية أزهار ميرتيل بينما ذهبت جوانا للقيام ببعض التسوق في القرية. في فترة ما بعد الظهر، باسرا بتجميع الأوراق اللازمة للزواج، في أثناء قيلولة ميرتيل فوق أريكتها.

«اللعنة...»

ارتسم تعبير حرج على وجه جوانا.

«ماذا هناك؟»

«ليس معي شهادة ميلاد.»

«آه...»

عندما غادر إميل شقته، أخذ معه المستندات الخاصة به كافة. كان لديه كل شيء. من شهادة الميلاد إلى شهادة السلامة على الطرق التي حصل عليها قبل عشر سنوات. هنا نفسه على ذلك.

«لم أكن أعتقد أنني سأحتاج إليها...»

«حاولي الاتصال بمجلس المدينة التي ولدت فيها... قد تكون هناك إمكانية لإرسالها إليك عبر البريد...»

وهو ما فعلته جوانا. وعندما أغلقت الخط، تأكد لها أن هناك ملائكة ترعاها.
«مدينتي هي إحدى البلديات النادرة التي يمكنك فيها التقدم بطلب للحصول على شهادة ميلاد عبر الإنترنت.»

في صباح اليوم التالي، ذهبت جوانا للبحث عن مقهى إنترنت أو أي وسيلة توفر لها إمكانية الوصول إلى الإنترنت من أجل التقدم بطلب للحصول على شهادة ميلادها. اقترح إميل على السيدة العجوز أن يأخذها للجلوس في الفناء الداخلي. لقد كان اليوم أكثر برودة، وكانت السماء رمادية تهدد بالمطر، لكن شجرة الدلب ستحميهم. ولدهشته، وافقت ميرتيل.

«هل تريدين بعض الشاي؟» اقترح عليها.

«اعتدت أن أشرب الشاي طوال اليوم...»

«طبعًا... بكل سرور.»

تم التوافق على وضع أدوات إعداد الشاي في غرفة معيشة السيدة العجوز بالطابق السفلي لأسباب عملية. تحت شجرة الدلب، وضع إميل الفنجانين اللذين يتصاعد منهما البخار. فتح دفتر ملاحظاته الأسود بينما مدت ميرتيل ساقها أمامها، وقفزت كاناي فجلست فوقهما.

«ما هذا الدفتر؟»

«أوه... نوع من دفتر يوميات...»

حدقت السيدة العجوز إليه بعينيها الزرقاوين المدهشتين.

«ابتي تقول إنكما ستتزوجان هنا.»

«نعم. هذا صحيح.»

«متى؟»

«عندما نجمع كل الأوراق المطلوبة.»

أومات ميرتيل برأسها على نحوٍ غير محسوس، كما لو أنها فهمت شيئًا.
«لم يكن هذا مخططًا له، أليس كذلك؟»
«عفوًا؟»

«هذا الزواج...»

فَضَّل أن يكون صادقًا معها، جزئيًا في الأقل.

«صحيح، لم يكن كذلك.»

ابتسمت ميرتيل نصف ابتسامةٍ لم يفهمها على الفور. ولكنه فهم عندما رأى
العجوز تضع يدها على بطنها.

«أوه لا! لا، لا! ليس الوضع كذلك!»

لكن ميرتيل نظرت بطريقةٍ تقول إنها لا يمكن خداعها.

«أوكد لك. لا علاقة لهذا بالأمر...»

كلما أصر أكثر، اتسعت ابتسامة ميرتيل.

«جوانا لا تنتظر مولودًا!... أي كلام غبي هذا؟!»

راح يتساءل عما إذا كان من الأفضل ترك الأمر. على أي حال، في غضون شهر
سوف يغادران هذا المكان... فقرت ميرتيل بلسانها على سقف فمها.

«لا أحد يستطيع خداعي! يكفي أن تراها كيف تتصرف مع الهر الصغير...»

«عفوًا؟»

«إنها لا تنتظر سوى أن تصبح أمًا!»

هز رأسه ثانية كي يفهم العجوز أن الأمر ليس كذلك.

«كفأك، سأدعك تكتب في دفتر يومياتك.»

«ميرتيل، أنت مخطئة...»

«اكتب اكتب. لا تهتم بي.»

«أنت فعلاً على خطأ...»

«عد إلى كتابتك!»

فَضَّل الاستسلام أمام عناد ميرتيل. هو وجوانا ينتظران مولودًا... ليت ميرتيل
تعلم...

بدأ المطر بالهطول في هدوء. كانت شجرة الدلب تحميها تمامًا. راح إميل يكتب بلمساتٍ صغيرة، واصفًا إيوس وشوارعها، وهو يرتشف الشاي. لم يكن قد كتب سوى ثلاثة أسطر عندما سُمعت طقطقة الباب الأمامي وظهرت جوانا في أعلى الدرجات الصغيرة، مبللةً من رأسها حتى أخمص قدميها.

«إذا؟» سأل إميل دون أي شكلٍ آخر من التقديم.

«هل تم الأمر؟»

«نعم. هناك مقهى صغير متصل بالإنترنت مقابل الكنيسة.»

«هل تمكنت من تقديم طلب؟»

«نعم. سيتم إرسال شهادة الميلاد إلي عبر البريد الإلكتروني. سأضطر إلى الذهاب من وقتٍ لآخر من أجل التحقق.»

صفقت ميرتيل لسانها بحلقها كما فعلت قبل قليل.

«يبدو أن مسألة هذا الزواج لا يمكنها الانتظار!»

لم تفهم جوانا. ألقت نظرة استفهام نحو إميل الذي أعطاها إشارة بأنه سيشرح لها فيما بعد.

«أين بوك؟» سألت وهي تضع يدها في شعرها المبلل وتبعثره.

«بوك؟» سألت ميرتيل.

«الهر الصغير.» أوضح إميل.

«لقد أسمته بوك.»

«أوه!»

من جديد ارتسمت على وجهها تلك النظرة التي تشي بالكثير.

«أين هو؟» ألحت جوانا.

أجابتها ميرتيل بابتسامتها العريضة.

«في سلَّته يا جميلتي، في سلَّته.»

في ذلك المساء، حدثتها ميرتيل عن حياتها في إيوس، وعن زوجها الذي كان صانع سكاكين واسمه يوجين. ولد كلاهما هنا. قامت ميرتيل بتربية أربع بنات، ومن بينهن، وحدها آني لم تغادر إيوس ولم تترك والدتها. شقيقاتها الثلاث انتشرن

في أنحاء فرنسا. أمضت حياتها في إدارة منزلها. ثم ساعدت زوجها في متجر السكاكين حين غادرت بناتها المنزل، حتى توفي يوجين.

كان إميل وجوانا يستمعان بانتباه، ويطرحان عليها الأسئلة، ويحثانها على التركيز على هذا التفصيل أو ذاك، وتستجيب على الفور، إذ كانت تشعر بالحاجة إلى الغوص في ذاكرتها وسرد القصة. عندما كانت بناتها صغيرات، كان يوجين وميرتيل يذهبان للتنزه حول إيوس في نهاية كل أسبوع. يحملان سلة الزهات ويعثران على بقعة خضراء صغيرة بالقرب من حفرة الري. كانت الفتيات يلعبن بالحبل أو الدمى، ويتخبطن في جدول ماء. كان يوجين يريح يديه المصابتين بسبب الشفرات التي يتعامل معها طوال اليوم. كانت ميرتيل تراقب عالمها الصغير في هدوء. كان التعليم يتم في المنزل. كانت نظرة ميرتيل إلى حياتها يلفها السلام. يبدو أنها عاشتها بالطريقة التي أرادتتها تمامًا.

«لم أختَر يوجين زوجًا. كان زواجنا مرتبًا من قبل. كان آباؤنا من أقدم سكان القرية.»

عندما سألتها جوانا عما إذا كانت تعيسة بهذا الزواج أم لا، هزت رأسها وازداد لمعان عينيها الزرقاوين، بشدة.

«لا. ما كنت لأرغب في شخصٍ آخر زوجًا لي.»

في صباح اليوم الثالث، ذهب إميل لإيداع رسالته إلى مارجوري في البريد. وكان من المفترض أن تذهب جوانا إلى مكتب بريد القرية، لأن لديهم طابعة صغيرة، وقد وعدت آني وميرتيل بطباعة ملصقات للعثور على عائلة تتبنى بوك. كان إميل متأكدًا أنها لن تفعل ذلك. سوف تتدبر أمرها كي تتجنب القيام بذلك.

مشى نزولًا في القرية، ألقي التحية على جان الذي كان يراقب وصول السياح اليوم. عبّر الممر بين الأسوار ووصل إلى عربة التخيم في موقف السيارات. كان قد أخبر جوانا وميرتيل بأنه سيعود لتناول العشاء الليلة. لم تكن لديه أي فكرة إلى أين سيذهب. كان ينوي أن يسلك الطريق السريع ثم يمضي في اتجاه عشوائي.

قاد عربته طوال الصباح. وفي منتصف النهار، توقف عند منطقة الاستراحة وقام بتسخين علبة بازلاء وأكلها مع كومبوت الموز المتبقي. أخذ قيلولة على المقعد السفلي ثم عاد إلى الطريق. عندما سلك اتجاهًا عبر مخرج عشوائي، حوالي الساعة

الثالثة مساءً، أدرك أن الوقت متأخر بالفعل وأنه قد سار مسافة طويلة ولم يعد يتذكر حقاً إلى أين هو ذاهب، ولماذا سلك الطريق. حاول أن يبدد الشك من خلال قراءة اللافتات الموجودة على الطريق ولكنه لم يتوصل إلى أي شيء مفيد من أي اسم بلدة، ولبث غير قادر على تذكر سبب وجوده هناك. تذكر أنه غادر بيت ميرتيل هذا الصباح... وترك جوانا في الشقة بالطابق العلوي... عادت إليه الذاكرة بعد بضع ثوانٍ. لا شيء خطر، لقد تعرض لمئات من هذه الحالات البسيطة من خلل الذاكرة في الأشهر الأخيرة. كانت هذه قليلة الأهمية إلى حدٍّ ما وأدرك أنه محظوظ، لأن المسألة كان من الممكن أن تكون أسوأ.

وجد مكتب البريد باتباع اللافتات التي تشير إلى الكنيسة. كان مكتب البريد مقابلها. وجد مكتب التذاكر مفتوحاً، واشترى منه مجموعة كاملة من الطوابع للرسائل التالية. حين عاد إلى العربية، كان مرهقاً وانتابه شعور غير سار بإضاعة يومٍ كامل. كان يتوق إلى العودة إلى المنزل ورؤية جوانا. سيكون بوك بالتأكيد في حجرها.

تقاطرت الكيلومترات، وبذل مجهوداً خارقاً للحفاظ على تركيزه، لكنه كان يشعر بالإرهاق من هذه الرحلة كلها. بدأت الشمس تغيب. توقف عند منطقة استراحة على الطريق السريع لتناول القهوة والتزود بالوقود. أشارت ساعة لوحة القيادة إلى الثامنة، وأدرك أنه لن يصل إلى المنزل في وقت تناول العشاء أبداً. تساءل عما إذا كانت ميرتيل وجوانا ستأكلان معاً في الفناء الداخلي أم لا، راجياً ألا يتتابها القلق.

كانت الساعة قد بلغت العاشرة ليلاً عندما دخل إلى موقف السيارات أسفل أسوار إيوس. قضى يومه على الطريق. وجد صعوبة في تذكر كيف استطاع أن يُبقي عقله نشطاً طوال تلك الساعات.

كان المنزل غارقاً في الظلام. لا بد أن ميرتيل في السرير. في الشقة، وجد جوانا جالسة على أريكة الزاوية، في يديها أحد كتب ميرتيل، وبوك وكاناي متكوران بجانبها، وتقوم كاناي بتنظيف صغيرها. كان إميل سعيداً برؤية جوانا مرة أخرى. لقد كان يوماً طويلاً ولاحظ أنه اشتاق إلى حضور جوانا. رفعت نظرها عن كتابها حينما سمعت خطواته الصامتة على السجادة.

«أهلاً! ها قد عدت...»

بدا على وجهها بعض الاضطراب. هل انتابها القلق؟

«نعم... قدت العربية مسافة بعيدة قليلاً... أدركت ذلك بعد فوات الأوان.»

وضعت الكتاب جانباً ووقفت. جاءت كاناي لتشممه.

«هل أودعت البريد رسالتك؟»

«نعم.»

جلس على الأريكة بجانبها وخلع حذاءه.

«وأنت، ماذا فعلت؟»

«ساعدتُ ميرتيل في إعادة ترتيب صالونها.»

«حقاً؟»

أومأت بابتسامة راضية على وجهها.

«نعم. أعددتنا لها ركناً للقليلولة قرب الباب الزجاجي، كي تتمكن من الاستمتاع

بالنسيم دون أن تخرج.»

«أنا آسف، جعلتكما تنتظراني لتناول العشاء.»

«كانت ميرتيل متعبة هذا المساء. أخذتها إلى السرير قبل العشاء.»

«إنك تدهشيني... جعلتها تنقل غرفة معيشتها بالكامل! يا للعجوز المسكينة!»

«هي زودتني بالتعليقات فقط.»

تحتاج جوانا إلى بضعة أسابيع أخرى كي تفهم الدعابة. مع الوقت ستفهم...

«وماذا عن بوك؟»

«ما به بوك؟»

«هل طبعتِ الملصقات للعثور على عائلة تتبناه؟»

بدا التهرب على جوانا. حاولت الإجابة بحيادية، لكنها لا تحيد الكذب.

«لم يسعفني الوقت بسبب إعادة ترتيب الصالون...»

حاول إخفاء الابتسامة التي بدأت ترسم على وجهه. لم يشأ أن تراها جوانا.

كانت تسليّه رؤيتها مرتبكة. نهضت، حتمًا بغاية تشتيت الانتباه وإغلاق الحديث.

«سأعيد كاناي وبوك إلى الأسفل... لفترة الليل.»

«حسنًا. أنا سأمدُّ فراش الأريكة.»

كان مستلقيًا في العتمة عندما صعدت جوانا إلى الطابق. انزلقت تحت الغطاء في الناحية الثانية من السرير.

«كنت أفكر...» همست في الظلام.

«ماذا؟»

«غداً... يمكننا زيارة قرية كوم... قرية الآثار... لقد كلمتني ميرتيل عنها

اليوم.»

«حقًا؟»

«نعم. كانت هي ويوجين يجبان التجول فيها قبل أن يرزقا ببناتهما. قالت إنها

قرية جميلة ومؤثرة معًا.»

أظهر سخرية شكية:

«جميلة ومؤثرة معًا؟»

«هذا ما قالت.»

«إنها تقول الكثير من الحماقات.»

«إميل!»

«هذا حقيقي! إنها تظن أنك حامل.»

«ماذا؟»

شعر بها تستند إلى أحد مرفقيها.

«هل تمزح؟»

«لا. إنها تعتقد أن هذا سبب زواجنا على عجل.»

«ألم تقل لها إنها على خطأ؟»

«بلى. لكنها عنيدة، لا تريد أن تسمع شيئًا.»

عاد الصمت للحظة إلى الغرفة. رأى خيال جوانا وهي لا تزال تنتظر مستندة

إلى مرفقها.

«لهذا أرادت أن أنتظرك من أجل نقل خزانها الكبيرة!»

«هل نقلتِ خزانة الكبيرة؟»

«لم يكن الأمر في حاجةٍ إلى قدراتٍ خارقة... لكنها لم تتوقف عن قول إن هذا تهور.»

«إنه كذلك.»

«لستُ هشة.»

«وزنك بالكاد يصل إلى خمسين كيلو جرامًا...»

«فإذا؟»

«إذا كان من الممكن أن تلحقني الأذى بنفسك.»

«وأنت، كان من الممكن أن يصيبك إغواء جديد ولا تعود إلى إيوس ثانية أبدًا.»

وجد نفسه وقد أخذ مباحةً. لقد غادر دون حتى أن يفكر في الأمر. لكنها على حق بالطبع. لم يكن تصرفاً حكيمًا. كان من الممكن أن يحدث ذلك بالفعل. لقد كان غيبًا في تحمُّل هذا القدر من المخاطر من أجل رسالة.... خصوصًا أنها تفتقر إلى وسيلةٍ للاتصال به. لا بد أنها كانت قلقة اليوم.

«ومع ذلك فعلتها.»

«صحيح.»

لم تشأ التركيز أكثر على الموضوع، فشعر بالارتياح.

سألت:

«حسنًا... هل سندهب إلى كوم غدا؟»

«نعم... سندهب إلى كوم غدا.»

في المرة القادمة عندما يريد إيداع رسالة للبريد، سيصحبها معه.

«أنتما قليلا الكلام هذا المساء.»

أخذت ميرتيل تنقل ناظريها بينهما. لقد اكتسبا ألوانًا. أصبح أنف جوانا قرمزيًا.

وارتسمت على وجه إميل علامة نظارته الشمسية.

«هل كوم هي من فعل هذا بكما؟»

«نعم... أظن ذلك.»

لقد وصلا إلى قرية الآثار تحت شمس حارقة. كانا هناك بمفردهما، وحيدين في منتصف أنقاض حجارة. بدا المكان كأنه مدينة هجرت بعد وقوع كارثة، مدينة أحرقتها الحر الذي لا يمكن لشيء أن يبقى فيه على قيد الحياة. لقد فهما ما قصده ميرتيل من وصفها للقرية بـ جميلة ومؤثرة... لبثت جوانا لفترة طويلة خاشعة في الداخل. فكَّر إميل أنها لا بد أن تكون مستغرقة في التأمل، وبقي في الخارج في ظل قطعة من الجدار المنهار. لقد أسرته هذه الكنيسة الحجرية الجميلة وسط الأنقاض. فكَّر أن هذا هو المكان الذي يرغب في الزواج فيه لو عاش حياة أخرى، لو كان بإمكانه أن يتزوج زواج حُب بفتاة، كان من الممكن أن تكون لورا. حاول أن يتخيل كيف سيكون شكل الحفل هنا. تخيل لورا متحررة أكثر من أي وقت مضى، بقدمين حافيتين، وشعر منسدل، وتتقدم بفستان أبيض على الطراز الهيبى. تخيل تاجاً رقيقاً من زهور بيضاء حول رأسها ووردة واحدة، بيضاء أيضاً، بمثابة باقة في يدها. تخيل أمه بعينين دامعتين في بذلتها الوردية الشاحبة. بالتأكيد ستبكي. رأى والده ببذلة جميلة ورصينة للغاية إلى جانب والدته. أما مارجوري، فستردي فستاناً صيفياً مزيناً بالزهور بينما يرتدي باستيان قميصاً أبيض فوق الجينز. وسيليسان التوأمن ربطتي عنق. كان من الممكن أن يتعرض رينو للتأنيب من قبل ليتيسيا بشأن تجميده على قميصه، وكان تيفان سيغتتم الفرصة للهروب على أربع، نحو أكوام الحصى. كان مشهداً سعيداً. أخذ يتسم بمفرده متكئاً على الجدار نصف المنهار.

عندما خرجت جوانا من الكنيسة، بدت حزينة. وتساءل عما فكرت فيه. عادا إلى أيوس في صمت، تحت الشمس الحارقة.

«إنه مكان جميل للغاية.»

هزا رأسيهما في صمت. لم تشأ ميرتيل أن تلح عليهما. لقد أدركت أن شيئاً ما حدث هناك وأنها في حاجة إلى التزام الصمت.

في صباح اليوم التالي، حصلت جوانا على شهادة ميلادها في بريدها. بدأ إميل يدور في الشقة، ويسأل ميرتيل: كيف يمكن أن أكون مفيداً؟

أخبرته عن رفٍّ يجب تمثينه في غرفتها، ودراجة قديمة في منزل ابنتها آني،
يمكن أن يستمتع بإصلاحها. ويمكنه بعد ذلك استخدام هذه الدراجة للتجول
في القرية، أو الذهاب إلى العمل، إذا كان يخطط للعثور على عملٍ هنا. عكف في
اليوم نفسه على إصلاح الرف. في المساء، جاءت آني لرؤية والدتها وتناولتا العشاء
في الفناء الداخلي.

قامت جوانا بفحص وتطهير ندوب إميل. بدت قلقة.

«إذا أردت إصلاح تلك الدراجة غدًا، ابقَ في الظل.»

«لماذا؟»

«شمس أمس في كوم، لم تكن مناسبة لندبة الرأس.»

«هل تنزّ؟»

«لا. ولكنك إذا واصلتَ التعرض للشمس، لن تتلاشى أبدًا. ستبقى حمراء

وواضحة للعيان، مدى الحياة.»

لم يستطع إلا أن يهز كتفيه. ما همّة إذا كان لديه ندبة مدى الحياة؟!!

الوقت يمر في إيوس. الندوب تشفى في ببطء، والشمس الملتهبة تشوي النباتات. انكبّ إميل على إصلاح دراجة آني خلال الأيام الثلاثة التالية. وقف على الطريق المرصوف، في ظل منزل آني وزوجها، وأخذ وقته. ترك العنان لأفكاره. كانت آني تجلب له عصير الليمون كل ساعة، فهي لا تعمل في الصيف، وتنصرف بقية العام لصنع المجوهرات وبيعها. في الصيف، تعتني بأحفادها الذين يقضون إجازة. راح الأطفال يتسلون بالدوران حول إميل، ويمضون ساعات في مراقبته وقد تلطخت أدواته ويداه بالشحم.

كانت جوانا تذهب نهارًا لاستكشاف المنطقة حول إيوس، وتعود بباقة ميموزا أو أزهار أخرى متعددة الألوان، مع خدوش في يديها. وفي المساء، يلعبان السكرابل حتى وقت متأخر جدًا. لم يكن يتعين عليهما في اليوم التالي المضي في طريق، أو تحديد خط سير، وليس هناك اعتبارات زمنية تقيدهما. لم يكونا يتبادلان الحديث في أثناء ألعاب السكرابل. شغلًا موسيقي لتكون خلفية في أثناء تحريكهما لبيادق اللعبة، عثرا على جهاز راديو صغير على رفٍ ممتلئ بالكتب.

سألته مساء أحد الأيام:

«هل قررت بشأن ما سنفعله بجثمانك عند وفاتك؟»

كان وقع السؤال عليه مربكًا حتى أنه استغرق بضع ثواني قبل أن يجيب استجابة.

«ماذا؟»

هذا كل ما استطاع النطق به حين تمالك نفسه.

«هل تريد أن يُحرق جثمانك أم يُدفن؟»

«أعتقد....»

لماذا لم يفكر في هذا السؤال قط؟

ألغى نفسه مثل الأحق أمام جوانا.

«أعتقد... أعتقد أنني لا أبالي بذلك.»

استأنفا اللعب ونظر إليها وهي تنهي تشكيل كلمة إكسيليفون⁽¹⁾ دون ذرة تأثر بالفكرة التي طرحتها.

«وَأَنْتِ؟»

لم تكن في حاجة إلى التفكير من أجل الرد.

«أنا أريد أن تُحرق جثتي. لأنني بهذه الطريقة يمكنني أن أطيّر.»

أدارت حامل حروفها. لم يبق معها ييادق. لقد ربحت المباراة لتوها.

تم إصلاح الدراجة. ومرة أخرى وجد إميل نفسه يدور في الشقة دون أن يهدأ. الحرارة في أغسطس لا تطاق، وقد صدر تنبيه من موجة حارة. لم تعد ميرتيل تخرج إلى الفناء الداخلي. وبقيت متحصنة في غرفة المعيشة، حيث تنام كثيرًا، وتتعب من أدنى جهد. تخلت جوانا نهائيًا عن أي فكرة لتوزيع ملصقات في القرية بحثًا عن مبنى بوك. ماذا سيحدث للهر الصغير؟

تحيل إميل أن الانفصال سيكون صعبًا جدًا حين يتعين عليهما استئناف رحلتهما من جديد. هل ستوافق آني على الاحتفاظ به؟ ربما تعطيه لأحفادها... لن تتمكن من قتله. سيكون قد أصبح استقلالياً ومحبًا للعب...

قبل 15 أغسطس بقليل، ذهبوا إلى دار البلدية لتقديم طلب زواجهما. لا توجد مستندات ناقصة. ومع ذلك، أبلغهما الموظف أن ملفهما سيجمّد حتى 26 أغسطس، ذكرى انتقالهما إلى إيوس. ولا يزال أمامهما أسبوعان من الانتظار. ومع ذلك، سيتم الإعلان مقدمًا عن اعتزام الزواج. غادرا راضيين، سيرًا فوق أحجار إيوس الصغيرة.

«أعتقد أنني سأبحث عن عملٍ صغير يساعد على الانتظار.» أعلن إميل.

(1) غاية لعبة سكرابل هي تكوين كلمات.

أومات جوانا.

«قد تستطيع آني مساعدتك. إنها تعرف الكثير من الناس هنا.»

بدأت ميرتيل سعيدة ذلك المساء حين علمت أن إميل يبحث عن عملٍ صغير.

«سيحتاج الطفل المنتظر إلى تغذية.» قالت بنظرها القاسية.

صرخت جوانا وقد شعرت بالاستياء:

«ليس هناك طفل منتظر يا ميرتيل!»

لكن السيدة العجوز لم تمنحها قدرًا أكبر من المصادقية.

أقيم مهرجان للفنون في إيوس، أخبرتها ميرتيل أنه حدث سنوي يجمع الكثير من الناس، حيث يحتل الأزقة عشرات الفنانين: ممثلون، رسامون، مصممون، موسيقيون، ممثلو إيباء... ويتردد صدى الخطوات والضحكات والهتافات في الأزقة. وبينما بقيت ميرتيل في غرفة معيشتها بعيدًا عن الحر، راحت جوانا تتجول بين نشاطات المهرجان من الصباح إلى المساء.

تحدث إميل إلى آني عن رغبته في العثور على وظيفة صغيرة، فأجابت:

«سوف أهتم بالأمر.»

أرسلته آني إلى أركان القرية الأربعة، من هذا المنزل إلى ذاك، لأداء أعمال صغيرة، مثل إفراغ علية منزل، وتغيير إطارات سيارة، وإصلاح رفوف، وحمل بقالة، فيعطيه الناس ورقة مالية ويشترون له وجبة. لقد لاحظ أن هفوات ذاكرته أصبحت نادرة أكثر فأكثر. تشكل لديه انطباع بأن استقرار حياته الجديدة وصفاءها لهما دور في ذلك. كان مشغولًا حتى أنه لم يعد يصادف جوانا. أما ميرتيل، فغالبًا ما تكون نائمة عند عودته.

«رأيتُ إعلان الزواج أمام البلدية، مع اسميكما. متى سيتم الزفاف؟»

سألته آني عندما رجع في نهاية اليوم إلى منزلها لإعادة صندوق أدوات أقرضته

إياه.

«في نهاية الشهر. عرضوا علينا تاريخين، إما 30 أو 31 أغسطس. يجب أن نعطيهم إجابتنا بسرعة.»

كانت آني مشغولة بتقطيع الجزر، وأحد أحفادها في حجرها.

«هل سيحضر أحد أفراد عائلتيكما؟»

هز رأسه.

«لا. سيكون زواجًا مدنيًا بسيطًا لا أكثر.»

«والشاهدان؟»

«لقد اخترنا موظفين من مجلس المدينة.»

«أوه.»

بدت خيبة الأمل على وجه آني التي توقعت زواجًا حقيقيًا.

«لا فستان ولا خاتما زفاف إذًا؟»

«لا. لا شيء من ذلك.»

في صباح أحد الأيام، تسببت لهما ميرتيل في حرج شديد. عند نزولهما سلام الشقة، كانت تنتظرهما أسفل الدرج، وعند قدميها ظهرت كاناي مع قطعة كبيرة من قماش الدانتيل الأبيض. كانت جوانا هي التي فهمت أولًا، وأطلقت «أوه» من المفاجأة والحرج. احتاج إميل إلى بضع ثوانٍ أخرى كي يفهم.

«أعتقد أنه ليس لديك فستان زفاف...»

وجدت جوانا نفسها صامته دون عونٍ من إميل الذي راح ينظر بفمٍ نصف مفتوح. عدت ميرتيل ذلك نوعًا من التأثر.

«إنه فستان زفافي. يعود إلى حوالي ستين عامًا ولكنني اهتممت به كثيرًا... لا أعتقد أنه موضحة قديمة. في أسوأ الأحوال سوف يعطيك جانبًا فيه شيء من الزمن العتيق.»

ازداد شعورهما بعدم الارتياح، ولم يعرفا كيف يخرجان من هذا الموقف. أخذت جوانا تنقل ثقلها مربةً من قدمٍ إلى أخرى. ولبث إميل متسمراً بين درجتين.

«اذهبي وجريه يا جميلتي. لا بد أنه سيلائمك، فلم أكن أثقل منك وزناً في ذلك الوقت...»

تبادلا نظرة تائهة. سيكون عليهما المضي في اللعبة حتى النهاية... ويخشيان ذلك. ترددت جوانا للحظة، ومدت يداً مرتعشةً نحو الفستان، ثم التفتت من جديد نحو إميل، على أمل أن يساعدها بطريقة أو بأخرى، لكن ميرتيل أمرته بالابتعاد:

«لا تبقِ واقفاً في مكانك! انصرف! ألا تعلم أن رؤية العروس بفستان العرس قبل اليوم المقرر، تجلب الشؤم؟»

شعر بالذنب لاضطراره إلى ترك جوانا وبين يديها فستان ميرتيل الدانتيل.

«كيف تدبرت الأمر؟» سألها لدى عودته مساءً.

«اضطرتُّ أن أجربه وارتأت ميرتيل أن تجري بعض اللمسات النهائية.»
شعر بالأسف عليها.

«ربما يجب أن نخبرها بكل شيء...»

لكن جوانا هزت رأسها في حرارة.

«مستحيل! سوف نكسر قلبها إذا أخبرناها!»

«ماذا ستفعلين؟ هل سترتدينه؟»

هزت كتفها.

«تستطيعين التفكير في بذلةٍ أخرى والتخلص من الفستان حين خروجنا من المنزل.»

«نعم.»

لم يكن يعرف حقاً رأيها في كل هذا، وها قد انغمست مجدداً في قراءة روايتها، وراح بوك ينخرخر في حجرها.

رينو،

سيقام الزفاف غدًا. وأشعر أنني فارغ.

في الأسابيع الأخيرة قمنا بكل ما هو ضروري لجعل ذلك ممكنًا. اتخذنا الخطوات بالترتيب الصحيح، وجمعنا الأوراق، حتى أننا اضطررنا للاستقرار مؤقتًا في قرية كي نُعد من المقيمين فيها ويصبح لنا الحق في الزواج فيها. لقد قتلنا الوقت حتى جاء يوم الزفاف اللعين. الآن وصلنا إليه، وأنا فارغ. أعتقد أن الوضع سيكون أفضل حين يتم التوقيع على هذه الأوراق.

لم أخبرك بأننا انتقلنا للعيش مع سيدة عجوز تدعى ميرتيل. هي في الطابق الأرضي ونحن في الطابق العلوي. قامت ابنتها بتأجير الشقة لنا مجانًا، مقابل أن نعطي بها قليلًا. أنا، الذي كنت مترددًا في فكرة الانتقال للعيش مع سيدة عجوز، يجب أن أعترف أنني غيرت رأيي. هذا التعايش جميل حقًا. علي أن أقول إن ميرتيل العجوز تعني بنا بقدر ما نعني بها. أقوم بأعمال غريبة في منازل الناس في القرية لأشغل نفسي. ثم إن هذا يؤمن لنا بعضًا من مصروف الجيب. تخيل، أمس تعلمت كيفية تفريغ رادياتور سيارة!

حياتي هنا لم يعد لها أي علاقة بما كنت أعيشه في روان. ليتك تراني كيف أصبحت!

حتى لو كنت مترددًا منها، يجب أن أعترف أن هذه الحياة تجعلني هادئًا. سعادة بسيطة جدًا وهادئة.

سأوافيك بأخباري قريبًا جدًا يا صاحبي.

اعتنِ بثلاثتكم.

قبلاتي لك.

إميل.

«هذه المرة، قضي الأمر.»

أومات جوانا. هذا المساء، تناولا الطعام في الشقة الخاصة بهما بالطابق العلوي. أرادت ميرتيل أن تمنحهما بعض الخصوصية عشية هذا اليوم الكبير وكانا شاكرين لها. لقد سئما قليلاً من الدور الذي يلعبانه. لبنا مرتاحين لأنهما يستطيعان التنفس قليلاً بعيداً عن عيني ميرتيل الفضوليتين. في منتصف الوجبة، وضعت جوانا شوكتها جانباً ونهضت عن الطاولة.

«كدتُ أنسى أن أخبرك...»

رآها تسير نحو حقيبتها الحمراء وتنقب فيها.

«لقد اشتريت هذا بعد ظهر اليوم.»

عادت بصندوق أسود صغير، وضعته على الطاولة أمامه.

«ما هذا؟»

أشارت إليه أن يفتح الصندوق، ففعل. تفاجأ بالعثور على خاتمين فوق وسادة حمراء صغيرة.

«لماذا؟» سأل وهو ينظر إليها.

«حتى تتوقف ميرتيل عن طرح الأسئلة. ولم يكلفاني شيئاً. إنيها من فولاذ مقاوم للصدأ. اعتقدت أنها ثمن سلامنا.»

أغلق الصندوق وهو يوميء برأسه.

«حسناً فعلت.»

عادا إلى تناول الطعام دون عجلة. لاحظ أن الهر الصغير ليس هناك. عادةً ما تأخذه جوانا إلى الأسفل وقت النوم فقط بناءً على طلب إميل، وبقيّة الوقت يكون حتماً عند قدميها أو في حجرها. ليس هذا المساء. لا بد أنها متوترة... وكان يجدها تميل إلى الصمت.

«هل أنت بخير؟» سألها بين لقمتين.

هزت رأسها.

«هل أنت متوترة قليلاً؟»

«لا... لست متوترة... بل أشعر بالغربة.»

ترك شوكته وصدق إليها في جدية.

«إذا لم تعودتي واثقة بأنك تريدين فعل ذلك، يمكننا إلغاء كل شيء.»
«ليس الأمر كذلك.»

«لسنا مضطرين إلى هذه الخطوة. أنا أساسًا في حالٍ أفضل... منذ مجئنا إلى هنا،
لم أتعرض لأي خللٍ في الذاكرة...»
«سأفعل ذلك يا إميل. ستتزوج.»
«إذا...»

«ستتزوج غدًا. كل ما في الأمر أن هذا يشعرني بالغربة، ولكنني أفترض أن
الأمر مشابه بالنسبة لك.»
نظرت إليه تحاول سبر أغواره، وأكد ذلك بإشارة من رأسه. شعر بالارتياح
لأنها لا تريد إلغاء الزواج.
«صحيح. أشعر أنني فارغ قليلًا.»
«وأنا أيضًا، ضائعة قليلًا و... غير مصدقة.»
«غدًا ستكون الأمور أفضل. إنها قطعة ورقٍ فقط.»
«أعرف.»

خيم الصمت في الشقة من جديد. إلا أن أحدهما لم يستأنف تناول الطعام.
مرت بضع ثوانٍ ثم وضعت جوانا يديها على الطاولة وسألت بصراحة:
«هل سبق أن وقعت في الحب؟»
كان في حالةٍ أغرب وأشدّ خمولًا من أن يفاجئه السؤال أو يزعجه.
«نعم.»

«مرات عديدة؟»

«لا. مرة واحدة.»

«وكم استمر الأمر؟»

«أربعة أعوام.»

«أليست لورا؟ الفتاة التي كلمتني عنها يومًا؟»

تذكّر هذه المحادثة في موقف السيارات بـ أرتيغ. بدا له ذلك بعيدًا على نحو غريب.

«نعم، هي.»

قطب حاجبيه، مندهشًا أكثر من كونه منزعجًا.

«لماذا تسأليني عن هذا؟»

«أنا وأنت ستزوج، أليس كذلك؟»

«بلى...»

«يمكن لأحدنا معرفة هذه الأشياء عن الآخر.»

ارتسمت على وجهه ابتسامة طفيفة.

«نعم. بلا شك.»

لم يسعه حقدًا اضطرابه لإحياء ذكرى لورا عشية زواجه بـ جوانا. أخذت تلهو بالشوكة للحظاتٍ تكفي لصياغة سؤالها التالي:

«هل ما زلت تحبها؟»

غاص في مقعده، منزعجًا. كان يفضل كثيرًا جوانا الصامتة وغير المبالية، التي لا تطرح أسئلة أبدًا.

لقد رحلت. انتهى الأمر منذ عام.

«وماذا في ذلك؟ هل ما زلت تحبها؟»

«أنا... بالتأكيد لا.»

«بالتأكيد لا؟»

راحت تنظر إليه في تشكك. استسلم متنهّدًا.

«أعتقد أن جزءًا مني سيحبها دائمًا، مهما جرى.»

أخطأ حين فكر أن جوابه سيرضي جوانا ويشبع فضولها المبالغت.

«هل أردت الزواج بها؟» سألت في لطف.

«جوانا...»

«إنه سؤال فقط.»

«نعم. نعم. كنت أود ذلك... يومًا ما.»

استقام في مقعده. اكتفى من أسئلتها تلك.

«ما سبب هذه الأسئلة؟»

«أردت أن أعرف لا أكثر.»

«لماذا أردت معرفة ذلك؟»

هزت كتفها.

«كنت أتساءل فقط عما ستفكر فيه غدًا، عندما نذهب إلى البلدية ويضطر كلُّ منا إلى إعلان قبوله بالآخر... الآن أعلم أنك ستفكر في لورا، وأن هذا سيجعلك تعيسًا. إنني آسفة لهذا الأمر.»

«ليس عليك أن تكوني كذلك... أنت تقدمين لي خدمة كبيرة.»

«ربما، ولكن سأكون أنا التي تقف بجوارك أمام العمدة، وليس لورا، والنظر إلى وجهي سيكون شاقًا عليك.»

«ستكونين في موقفٍ مشابه، لأنك ستفكرين في ليون.»

هزت رأسها بقوة فاجأته وتركته عاجزًا عن الكلام.

«لا. لن أفكر فيه غدًا في البلدية، ولا بعد ذلك.»

وجد نفسه غيبًا بعض الشيء، بفم نصف مفتوح. لم يكن لديه ما يضيفه. فكَّر أن استعادة كل ذلك قبل ساعات قليلة من الزواج، كانت فكرة سيئة للغاية. في ذلك المساء، ذهبًا للنوم في صمت تام.

في صباح اليوم التالي، أيقظهما صوت ميرتيل العالي من الطابق الأرضي.

«جوانا! جوانا! أرايت كم بلغت الساعة؟! يجدر بك أن تجري الفستان!»

لم يفهما سبب دعر ميرتيل. إذ أن موعد البلدية ليس قبل الثانية بعد الظهر. مع ذلك نهضت جوانا وأخذت تتلمس طريقها في الظلام. علا الصوت من جديد:

«جوانا! إميل! افتحا النوافذ! لقد أصبحنا في وقت الظهيرة!»

انتفض إميل فجأة.

«ماذا؟»

أضاف بصوتٍ خافت، مخاطبًا جوانا:

«إنها تخدعنا، أليس كذلك؟»

«أنا قادمة!» صرخت جوانا قبل أن يعلو صوت ميرتيل مجدداً في المنزل.

ارتدى إميل ثيابه بلا استعجال. لم يكن لديه الكثير ليرتديه في مثل هذه الظروف... إلا أنه عثر على بنطال أزرق داكن وقميص أبيض قديم. يفترض أن يفني ذلك بالغرض. ثم استحم وصنع لنفسه فنجاناً من الشاي الأسود، مدركاً أنه لن يتمكن من أكل شيء. ظهرت جوانا مرة أخرى بعد ساعة، وقد صفتت شعرها في جديلة، وهيئة حزينة.

«لم أستطع الإفلات من التسريحة...»

«والفستان؟»

«لن أفلت منه أيضاً...»

لم يسعه إلا أن يضحك. لقد وقعا في شرك لعبتهما ذاتها. لو أنهما كانا صادقين منذ البداية لكانت الأمور أسهل.

«ضعي بذلة في حقيبتك... ستبدلين الفستان في الطريق، عندما نبتعد عن ناظري ميرتيل.»

«نعم... هذا ما سأفعله.»

«تعال نبحث عن زقاقٍ هادئ كي أبدل الفستان، وأنت ستخبثني.»

بدت جوانا مستعجلة للانتهاء من الأمر، لكن إميل لم يتحرك. أخذ ينظر إليها في تمنع. فستان ميرتيل هو أحد فساتين ذلك الزمن، الفضفاضة والمستقيمة التي تصل إلى القدمين. هناك دانتيل يغطي صدر جوانا وكتفها وذراعيها حتى معصمها. قامت ميرتيل بتعديل حفرة الرقبة على شكل حرف V بحيث لا تكون أوسع مما يجب، راسمةً خط عنقٍ جميل.

«هل نذهب؟» قالت جوانا بنفاد صبر.

شعرت بالخرج من هيئته الغريبة وهو ينظر إليها في تمنع.

«نعم، لنذهب.»

تقدما بضع خطواتٍ في الزقاق، وهما يشعران بعدم الارتياح.

«أنتِ... إنه فستان جميل.» أعلن إميل وهو يحك حلقة.

لم يجرؤ أن ينظر إليها مباشرةً في العينين. لم يجرؤ أن يقول لها إنها جميلة في الفستان، لأن الأمور ستصبح أكثر حرجًا. إلا أن ذلك كان صحيحًا، وأنها اليوم جميلة حقًا.

«هذاء جميل!» قال بنبرة ساخرة لكسر الجليد. برزت تحت فستان زفاف ميرتيل، قدمان حافيتان ترتديان صندلاً مذهّبًا حال لونه بفعل الشمس، وهذه علامة على أن لا شيء من ذلك يعنيها حقًا.

لم يكن من السهل العثور على زقاقٍ مهجور تخلع فيه جوانا فستانها، خصوصًا في أوج مهرجان فني، والقرية مكتظة بالسكان، والسياح يتوافدون من كل حدب وصوب، في كل الشوارع، حتى في الساحات الداخلية، المتصلة بالشارع. سرعان ما وجد إميل وجوانا نفسيهما في مركز الاهتمام، يراقبهما السائحون في فضول، ويلتقطون الصور، وينادي بعضهم بعضًا. حتى أنها أصبحت موضع صيحات تعجب:

«أوه! انظروا! عروسان!»

«تهانينا أيها العاشقان!»

أخذت جوانا تتكلم من بين أسنانها المشدودة:

«أظن أنني لن أستطيع تغيير الفستان!»

«أنا آسف» قال إميل.

«أعتقد أنك ستضطرين لإبقائه في الحفل.»

«ليست مشكلة.»

«ستخلعيه بعد الحفل مباشرةً. لا بد من وجود حمامات في مبنى البلدية...»

«لا تقلق. سأنجو.»

بدت هادئة كعادتها، هادئة ولا مبالية قليلًا. أما هو فكان يشعر بالتوتر. لم يكن هو من يشير إليه المارة في نشوة، لكنه هو الذي كان يشعر بالحرج الأكبر من ذلك.

أخذًا يَحْثَانِ الخَطَى للوَصُولِ إِلَى الْبَلَدِيَّةِ فِي أَسْرَعِ وَقْتٍ مُمْكِنٍ. شَمَرَتْ جَوَانَا فَسْتَانَهَا إِلَى مَا فَوْقَ رَكْبَتَيْهَا كَيْ تَتِمَكَّنَ مِنَ الْإِسْرَاعِ. وَكَانَ صَنْدُهَا الْبَاهِتَ يَقْرَعُ الرِّصِيفَ. وَصَلَا إِلَى بَهْوِ الْبَلَدِيَّةِ لَاهِثِينَ. رَحِبَتْ بَيْنَهُمَا الْمُوظَفَةُ مِنْ خَلْفِ مَنْصَدَتِهَا، بِابْتِسَامَةٍ كَبِيرَةٍ.

«كَمْ هُمَا جَمِيلَانِ، عُرُوسَا الْيَوْمِ!»

أَجْلَسَتْهُمَا فِي رَكْنٍ مِنَ الْقَاعَةِ، رِيثَمَا تَنَادَى (السَّيِّدُ الْعَمْدَةُ) وَالْمُوظَفِينَ اللَّذِينَ سَيَسْهَدَانِ عَلَى الزَّوْجِ. التَّقَطَّتْ هَاتِفَهَا لِإِخْطَارِ كُلِّ هَؤُلَاءِ الْأَشْخَاصِ. كَانَتْ جَوَانَا سَاكِنَةً هَادِئَةً الْأَعْصَابِ، تَجْلِسُ مُسْتَقِيمَةً الظَّهْرِ. لَقَدْ اخْتَفَى قَلْقُ الْيَوْمِ السَّابِقِ تَمَامًا، وَعَادَ لَهَا هَدُوءُهَا. كَانَ إِمِيلُ يُوَاجِهُ صَعُوبَةً فِي الْبَقَاءِ فِي مَكَانِهِ ثَابِتًا، وَأَخَذَ يَرَاقِبُهَا بِنَظَرَاتٍ خَاطِفَةٍ رَاغِبًا فِي إِبْقَاءِ هَذِهِ الصُّورَةِ مَطْبُوعَةٍ فِي ذَهْنِهِ. صُورَةُ جَوَانَا فِي فَسْتَانِ زَفَافٍ عَتِيقٍ، بِشَعْرِ مَعْقُوصٍ فِي ضَفِيرَةٍ جَعَلَتْهَا تَتَلَبَّدُ فَوْقَ إِحْدَى كَتِفَيْهَا مِنْ نَاحِيَةِ الْأَمَامِ، وَالدَّانِثِيلِ الَّذِي يَغْطِي ذِرَاعَيْهَا وَمَعْصَمَيْهَا الْهَزِيلَيْنِ، وَالْقِمَاشَ الْأَبْيَضَ الْمَفْتُوحَ عَلَى شَكْلِ حَرْفِ V كَاشِفًا عَنْ رَقَبَتِهَا وَمَفْرَقِ صَدْرِهَا. فِي غُضُونِ خَمْسِ عَشْرَةِ دَقِيقَةٍ، بَعْدَ التَّوْقِيعِ عَلَى السَّجَلَاتِ، سَوْفَ تَخْتَفِي فِي حَمَامَاتِ الْقَاعَةِ وَتَرْتَدِي أَحَدَ فَسَاتِينِهَا السُّودَاءِ الْمَشُوهَةِ. لَنْ تَتَّاحَ لَهُ الْفُرْصَةُ لِرُؤْيَتِهَا هَكَذَا مَرَّةً أُخْرَى. لِذَلِكَ كَانَ يَغْتَنِمُ الْفُرْصَةَ. مِنْذُ الْآنِ، سَيَكُونُ هُنَاكَ فِي ذَهْنِهِ دَائِمًا نَسْخَتَانِ مِنْ جَوَانَا. جَوَانَا بِالْأَسْوَدِ، الصَّامِتَةِ، وَغَيْرِ الْمُبَالِيَةِ بِمَصِيرِهَا، وَالْمَخْتَبِئَةِ خَلْفَ مَلَابِسٍ فَضْفَاضَةٍ وَقَبْعَةٍ كَبِيرَةٍ. وَجَوَانَا بِالْأَبْيَضِ، الْجَمِيلَةِ وَالْمَفْعَمَةِ بِالْأُنُوثَةِ، جَوَانَا فِي هَذَا الظُّهُورِ الْعَابِرِ الَّذِي هُوَ لَمَحَةٌ عَمَّا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ عَلَيْهِ لَوْ أَنَّ الْحَيَاةَ جَرَتْ عَلَى نَحْوٍ مُخْتَلَفٍ، لَوْ لَمْ يَرْتَكِبْ لِيُونُ شَيْئًا لَا يَغْتَفَرُ. مِنَ الْمُؤَكَّدِ أَنَّ جَوَانَا مَا قَبْلَ لِيُونِ وَقَبْلَ الدَّرَامَا الْغَامِضَةِ، كَانَتْ تَرْتَدِي الْأَلْوَانَ، وَتَجْدُلُ شَعْرَهَا، وَتَضْحَكُ أَكْثَرَ. لَكِنَّهُ لَنْ يَسْتَطِيعَ التَّيَقُّنُ مِنْ ذَلِكَ أَبَدًا.

«آنسة جوانا ماري ترونييه، هل تقبلين بالزواج بالسيد إميل مارسيل فيرجيه،
الحاضر هنا؟»

نظرت إليه. استمرت النظرة المتبادلة ثانية واحدة فقط، ولكن بدا أنها قالت
الكثير. قالت إنه ليس عليه أن يقلق، وأنها قطعت وعدًا بالسهر على حرите، وأنها
تقي بوعدها. كان صوتها واضحًا للغاية عندما أجابت:
«نعم.»

التفت العمدة نحوه. بالكاد كان يسمع الكلمات التي ينطق بها.
«سيد إميل مارسيل فيرجيه، هل تقبل بالزواج بالآنسة جوانا ماري ترونييه،
الحاضرة هنا؟»
بالكاد أتاح له إنهاء جملته، وأجاب:

«نعم.»
وهذا ما أضحك شاهده، موظف البلدية أصلع الرأس، الذي أخذ الأمر على
أنه تسرع مرتبط بالانفعال.
«باسم القانون، أعلن السيد إميل مارسيل فيرجيه وجوانا ماري ترونييه،
زوجين.»

خيم الصمت من جديد. تبادل نظرة ارتياح يشوبها بعض الحرج.
«هل لديكما خاتما زفاف؟» سأل العمدة.
«الآن يمكنكما تبادل الخاتمين.»
انتفضت جوانا قليلًا.
«آه، صحيح!»

بحثت في جيوبها، وتبين لها أنها ليسا معها، وأنها ترتدي ثوب عرس ميرتيل.
همس لها إميل:
«في حقيبتك؟»

نظرت حولها، ووقع نظرها أخيرًا على كيس قماشي أسود صغير مربوط بخيط،
عند قدميها، أعارتها إياه ميرتيل للمناسبة. ابتسم الشاهدان. آه، التأثير... كما
يفكران حتمًا. أخرجت جوانا الصندوق الصغير الأسود من الكيس.

«أدعكما تتبادلان الخاتمين.»

فتحت العلبة، وقدمت خاتمها لإميل وهمست:

«يفترض أن تلبسني إياه.»

«آه؟»

«سنقوم بتوثيق هذا الاتحاد بالتوقيع على سجلات الأحوال المدنية. العروسان أولاً، ثم الشاهدان.»

كانت يدا إميل مبللتين، لكنه الآن في حالٍ أفضل. انتهت الإجراءات. بقي توقيع ثم ينصرفان. بات حرًا. مهما حدث من الآن فصاعدًا، سيكون تقرير مصيره متروكًا لجوانا، وهو يعلم أنها ستنفذ إرادته.

«حسنًا. الآن أستطيع تسليمكما دفتر عائلتكما قبل أن تغادرا.»

بالكاد أخفى مفاجأته. دفتر عائلة... ماذا سيفعلان به؟

وجد نفسه ممسكًا بدفترٍ رسميٍّ صغير. وضع العمدة يده على كتفه إشعارًا منه بأنه سيرافقهما إلى خارج القاعة. همس موظفو البلدية لهما بالتهاني المبهذة عند عتبة الباب، ثم غادرا مع دفتر عائلتهما. انتظري هنا. همست جوانا.

«سأذهب إلى الحمام لأغير ملابسني.»

وجد إميل نفسه ينتظر وحيدًا في القاعة، في مواجهة موظفة البلدية التي سألته في حماسة:

«إذا؟ هل سارت الأمور على ما يرام؟»

أوما بالإيجاب، مرتاحًا لانتهاء هذا كله. ولكن في فمه بعض المرارة، فقد كان الأمر حزينًا وغير شخصي. بالطبع، لم تكن المسألة تتعدى مسألة توقيع، كما قال لنفسه مرارًا وتكرارًا. ولكن هذا لا يغير شيئًا من الإحساس الثقيل والحزين، الذي يعتريه. وتمنى لو تحقق له الأمر على نحوٍ آخر. لم يستطع التخلص من تلك الغصة في حلقة.

وجدا نفسيهما في الحر الخائق، دون فستانٍ أبيض. لقد انكفأ كل شيء. الخوف والعصبية. لم يبقَ سوى فراغ كبير.

«ما... ماذا فعل؟» سألت جوانا في خجل.

كانا محتررين، وليس لدى إميل سوى رغبة وحيدة، أن يمشي بمفرده قليلاً، ويستنشق بعض الهواء النقي، وينسى أنه قد أفسد للتو شيئاً كان يؤمن به بشدة.

«لا أعرف. أعتقد أنني سأمشي قليلاً...»

يبدو أنها شعرت بالثقل في صوته. وظهر الأسف في نظرتها. ما جرى كان لا شيء بالنسبة لها. لكنها تعرف أن الأمر مختلف بالنسبة له.

«سألقي نظرة على المهرجان.» قالت بصوتٍ ناعم.

«نلتقي هذا المساء في الشقة...»

تشكلت لديه لحظة من الوضوح:

«ماذا سنقول لميرتيل؟ ستجد أنه من الغريب أن يعود كلُّ منا بمفرده.»

هزت جوانا كتفها.

«سأخبرها أن... لا أعرف... أنك ذهبت لشراء الشمبانيا لأجل هذه الليلة.»

«نعم...»

كان مكتئباً. وقف أحدهما مواجهاً الآخر لبضع لحظاتٍ أخرى، ثم أعلنت

جوانا:

«حسنًا... أراك لاحقاً إذا.»

وابتعدت بخطى بطيئة وفستان العرس تحت ذراعها. استدارت لحظة لتقول:

«يمكنك أن تأتي معي... أعني... يمكننا الذهاب معاً إذا أردت...»

ولكنها رأت جيداً أنه منحرف المزاج.

«لا تهتم... إلى وقتٍ لاحق.»

31 أغسطس

لورا،

سوف تتفاجئين بتلقي هذا البريد الإلكتروني. ليس لدي عنوانك. لا أعرف أين تعيشين الآن. ليس لدي سوى عنوان البريد الإلكتروني هذا للاتصال بك. لا أعرف حتى إذا كنت لا تزالين تقرأين بريدك الإلكتروني أم لا.

جلستُ أمام جهاز كمبيوتر في مقهى متصل بالإنترنت، لأكتب لك. الحرارة أربعون درجة، وأنا أرتمي قميصًا لعينًا يجعلني أتعرق.

لقد خرجت قبل قليل من قاعة البلدية حيث تزوجت لتوي. لقد قلت (نعم) للتو لأسباب خطأ. جوانا فتاة ممتازة، بدت جميلة جدًا في فستان الزفاف ولكنها كانت تفعل ذلك أيضًا لأسباب خطأ. قلنا (نعم) أمام رئيس البلدية وأمام شاهدين لا نعرفهما ولا يعني لهما شيئًا حضورهما هناك. وقعنا على السجلات وحالما غادرتُ دار البلدية، ذهبتُ أبحث عما يشبه مقهى إنترنت لأكتب إليك.

كل ما أردتُ فعله في تلك اللحظة هو أن أقول لك إنني كنت أريد الزواج بك أنت. وما قد قلتُها. لم أخبرك بذلك من قبل، لأننا كنا دائمًا خجولين جدًا وبالدرجة الأولى أحمقين جدًا. كنا نخاف من قول الأشياء بوضوح. نعم. أحبيتك. أحبيتك بجنون، أعتقد أنك تعرفين ذلك. لكنني لم أخبرك أنني أريد الزواج بك. اعتقدت أنه سيكون لدينا الوقت. في يوم زفاف رينو ولتيسيا، بحثت عن نظراتك في الكنيسة كي أفهمك ذلك، لكنك لم تكوني هناك. كان يجب أن أرى في ذلك علامة. لقد ذهبتُ للانتقام من ليتيسيا... أحبيتُ أيضًا حقيقة كونك فتاة مشاكسة.

لقد استغرق الأمر مني وقتًا غير قليل لتجاوز رحيلك، ولا أخفي هذا عن نفسي. لا أدري إن كنت قد شفيتُ تمامًا من الأمر أم لا، ولكنني أبذل قصارى جهدي للمضي قدمًا وعدم التفكير فيه بعد الآن. اعلمي أنك لم تكوني معي في قاعة البلدية، وأنني، منذ لحظة استيقاظي، طردتك بالقوة من أفكاري، ولكنك ظهرت من جديد، ما إن اجتزتُ باب القاعة.

أعتقد أننا لا نحب حقًا إلا مرة واحدة فقط في الحياة. كنتِ أنتِ، ولن يكون غيرك.

هذا ليس بالأمر الحزين، وليس متاحًا للجميع أن يحبوا حقًا. لقد أتيت لي هذه الفرصة. أنا ممتن لذلك.

سأنهي هذه الرسالة الآن، قبل أن أموت من الحرفي مقهى الإنترنت اللعين هذا. أتمنى لك الأفضل، وأرجو أن تكوني سعيدة، ومزدهرة، وأن تظلي دائمًا كما أنت (نعم، سأفتقد دائمًا جانبك المزعج والوقح). من جهتي، أنا باقٍ كما أنا (أعتقد ذلك، في الأقل).

قبلاتي

إميل

لم يعد حاليًا إلى الشقة. كان الجو حارًا خانقًا في الخارج لكنه لم يشأ العودة بعد. هرب من الشوارع التي تضج بالسياح، ونزل مستظلًا بأزقة القرية شديدة الانحدار وانجه شمالًا، لا يدري بالضبط إلى أين. كان يعلم أن السير في حرارة الجو المرتفعة ليس بالأمر الجيد، لكنه في حاجةٍ إلى ذلك. أخذ يمشي بلا توقف لمدة ساعة، ثم لمح في ارتياح، أول ركاب من الأحجار، وأول الآثار. إنه المكان الوحيد الذي يريد أن يكون فيه الآن، المكان الوحيد الذي يعكس تمامًا حالته الذهنية الحالية. كوهم قرية الآثار، التي يسمونها (القرية الضائعة). إذ لم يعد هناك أي لافتة تشير إلى وجودها، ولم تعد سوى منظر طبيعي للأسى، وفي وسطه كنيسة صغيرة تقف في شجاعة. كنيسة سانت إتيان دي كوما، كنيسة عارية غريبة، بلا برج جرس، بلا نقوش، بلا نوافذ زجاجية ملونة، كنيسة بسيطة للغاية، بجدران حجرية. دفع إميل الباب الخشبي الثقيل الذي يفتح بصوت صرير رهيب. التصميم الداخلي بدوره بسيط للغاية. تصطف جدران بيضاء ومقاعد من خشب البلوط الصلب، مقابل المذبح، المصنوع أيضًا من الخشب الصلب والمغطى بزخارف حمراء وذهبية. كان الجو باردًا هناك وأكثر قتامة. هوى إميل على مقعدٍ في الصف الأمامي وأغمض عينيه، وكل ما يرغب فيه أن يدع الدقائق تمر هكذا، دون التفكير في شيء، وسط القرية المفقودة.

عاد إلى شقة 6 كاريرو و دِل ماسادور، دون أن يصادف ميرتيل. بعد اجتياز بوابة الدخول، اتجه مباشرةً يسارًا نحو السلام، غير راغبٍ في مصادفة السيدة العجوز. صعد السلام وأطلق لتوه علامة تعجب ومفاجأة عند اكتشاف المائدة التي أعدتها جوانا، والشموع التي أشعلتها، ومفرش المائدة المذهَّب، ورائحة شهية من الفرن الصغير، تملأ الغرفة، وجوانا هناك ترتدي منظرًا أمام منضدة العمل. التفتت عندما سمعته يدخل.

«ها أنت ذا.»

احتفظت بجديلتها التي تمنحها أنوثة شديدة. وفي آخر الشقة، كان فستان عرس ميرتيل يتدل من مشجبٍ مثبت إلى مسبارٍ في الجدار.

«هل تعدين لنا وجبة احتفالية؟»

«نعم... أردت أن أعدّ...»

بدت محرّجة.

«ما يشبه وجبة زواج... أعرف... أعرف أن الأمر لم يكن يعني لك شيئًا... وأنه لم يكن حفل الزواج الذي تحلم به ولكن... إنه شيء صغير...»

تأثّر من اهتمامها. ما أعدته لتوها ليس شيئًا صغيرًا. إنه شيء كثير. لم يعرف كيف يقول لها ذلك. سعل كي يجلو حنجرتة.

«شكرًا جوانا. هذا... هذا ممتاز... أؤكد لك... إنه اهتمام جميل.»

جعدت أنفها محرّجة قليلًا.

«أرجو أن ينال إعجابك.»

«أنا واثق بذلك.»

مسحت يديها بمنزرها بشيءٍ من العصبية.

«لم أشتري نبيذًا... أنا لا أشربه أبدًا ولا أعرف كيفية اختياره.»

«سأخرج إذاً وأشتري الشمبانيا.» أعلن.

«شمبانيا؟»

«نعم شمبانيا، لقد تزوجنا لتونا، لا مجرد كلام فارغ.»

بدت مرتاحة لرؤيته يحاول المزاح، ولرؤيته يستعيد شيئاً من الخفة.

«نعم.» قالت مبتسمة في خجل.

«وستكونين ملزمة بالشرب! هذا حد أدنى مساء زواجك. أنا ذاهب! أعود في

غضون عشر دقائق!»

«إلى اللقاء!»

لم يجد متجراً مفتوحاً. بلغت الساعة الثامنة وكان مضطراً للتوجه إلى منزل آني، راجياً أن يكون لدى زوجها شمبانيا في القبو. فوجئت برؤيته.

«ماذا يفعل العروس الجديد هنا؟»

حاول أن يوضح وهو يشعر بالحرج:

«نفدت الشمبانيا لدينا... كل متاجر القرية مغلقة... أتيت لأرى إذا كان بإمكانك إعطاءنا زجاجة أم لا.»

اتسعت ابتسامة آني.

«بالطبع!»

أمسكت به لتطبع على خده قبلة دافئة.

«مع تهاني الحارة!»

خرج بعد بضع ثوانٍ من المنزل حاملاً زجاجة شمبانيا تحت ذراعه، يرافقه صياح آني:

«إنها هدية زواج نابعة من القلب! أتمنى لكما أمسية رائعة!»

عند دخوله إلى الشقة، اعترض شيء ما طريقه، وبالكاد أمسك بزجاجة الشمبانيا قبل لحظة من سقوطها وتحطمها على الأرض. حين استعاد توازنه، لمح عند قدميه، كرة الوبر البيضاء والصهباء المسؤولة عن الحادث. صرخت جوانا:

«بوك! أنت مشاغب!»

ثم أضافت بسرعة وهي تتخاطب إميل:

«سأنزله! كنت سأفعل ذلك قبل وصولك!»

لكن إميل انحنى بالقرب من بوك. لم يسبق أن أعاره اهتمامًا قبل الآن، فهو لم يكن بالنسبة له سوى كرة الوبير الخاصة بجوانا. لكن المؤكد أن له سحنة جميلة، بعينه الصغيرتين اللتين تطلبان الملاحظة. جثت جوانا بجانبه ورفعت بوك بين ذراعيها.

«ابتعد عن هنا! لماذا تتحرك دائمًا بين أقدامنا؟»

كانت لطيفة للغاية للغاية وهي تحاول أن تبدو حازمة. لكن محاولتها بقيت بعيدة تمامًا عن الإقناع. كان واضحًا أنها لا ترغب في تعنيف بوك.

«اتركيه.» قال إميل.

«ماذا؟»

«يمكنه قضاء السهرة معنا. إنه لا يسبب الإزعاج.»

لم تستطع إخفاء دهشتها.

«كاد لتوه أن يسقطك أرضًا...»

«سأنتبه الآن إلى موضع قدمي عندما أمشي.»

«أعرف جيدًا أنك لا تحبه كثيرًا... أستطيع إنزاله، هذا لا يزعجني.»

«لم أقل قط إنني لا أحبه...» دافع عن نفسه في خرق.

«ولكن...»

بدت ضائعة.

«أنت ترفض بقاءه هنا...»

«ليلاً فقط. أعرف أن صغار القطط تحب اللعب، ولا أريد أن يوقظني كل

ساعتين بالقفز فوق بطني أو عضّ قدمي.»

واجه كلُّ منهما الآخر، فيما يلبد بوك في أمانٍ بين ذراعي جوانا.

«هل هذا هو السبب فقط؟» سألت متشككة.

«بالطبع هذا هو السبب.»

«كنت مقتنعة بأنك لا تحبه، ولا تريده هنا.»

«بالطبع أريده هنا... وأجد أن التصاقه الدائم بك، شيء لطيف.»

أشاحت جوانا بناظرها محرّجةً.

«ولكنك كنت تسألني باستمرار عما إذا جهزتُ الملصقات أم لا... وإذا وجدتُ له عائلة تبناه أم لا... اعتقدت أنك لا تستطيع الانتظار حتى أخلص منه.»
أخذ يبتسم. وجوانا تُبقي بوك مشدودًا إلى قلبها، كأنها لحمايته من خطر.
«كنتُ أستمع برويتك محرجة إلى هذا الحد، وأعلم أنك لن تسمح لي برحيله أبدًا.»

لم تعرف إن كان عليها أن تبتسم أم تعبس.

«ولكن في هذه الحال...»

«ماذا؟»

«أنت ترى...»

«ماذا؟»

«أنا نستطيع الاحتفاظ به؟»

نظرت إليه بعينين مفتوحتين على اتساعها وفم نصف مفتوح.

«نعم، ربما.»

«في عربة التخيم؟ عندما تغادر؟»

هز كتفيه.

«الأمر ممكن، أليس كذلك؟»

«أهذا صحيح؟»

أوما برأسه بالإيجاب.

«نعم، صحيح.»

ها قد حانت اللحظة التي كان يرقبها، لحظة تلاشت فيها تجاعيد جبينها، وضيق عينيها، وارتعش فمها. لم تستطع إخفاء سعادتها.

«هذا رائع يا إميل! هذا... شكرًا.»

أراد أن يكون شريكًا صالحًا. إنها تستحق ذلك.

راح ينظر إليها وهي تأكل في صمت. هذا أيضًا شيء يقدره لدى جوانا، أنها تعرف كيف تقدر الصمت ولا تشعر أنها ملزمة دومًا بالكلام للملئ.

«ما الطبق التالي؟» سألها عندما رآها تنهض.

«لا أعلم إن كان سيعجبك أم لا...»

«توقفي عن قول هذا دومًا.»

«إنه تورته حلوة مالحة.»

«أنا أحب الحلو والمالح. ما الطبق؟»

وضعت طبق التورته أمامهما، والبخار لا يزال يتصاعد منها، ورائحتها شهية للغاية.

«تورته من البصل المكرمل، مع التوت البري وجبن الماعز الطازج.»

احمرت خجلًا، وهي تنظر إلى نظراته المذهولة والمعجبة.

«توقف عن التحديق إلي هكذا.»

«كنت سأقول (سيتهي بي الأمر بالزواج بك)... ولكن ذلك قد حدث

بالفعل.»

لم تحدث الدعابة الأثر المطلوب، فقد ارتسمت على وجهه جوارنا ابتسامة خجولة لا أكثر.

«هل أعجبْتِك؟»

«جداً.»

واصلت تناول الطعام على صوت الشوك وموسيقى الجاز التي تملأ الشقة، وضوء الشموع الذي يومض خافتًا. رقد بوك عند قدمي جوارنا وراحت كاناي تراقبه من بعيد.

«كيف كان المهرجان بعد ظهر اليوم؟» سأل إميل.

«أوه... جيد... كان هذا آخر يوم. عرض جميع الفنانين أعمالهم أمام كنيسة

سان - فانسان.»

«جميل.»

عاد الصمت واستأنفا الطعام.

«هل صادفت ميريل لدى عودتك؟»

«لا. وأنت؟»

«ولا أنا.»

«أظن أنها تختبئ.»

أوماً موافقاً وشرب جرعة ماء.

«تريد أن نمضي سهرة زواجنا بمفردنا. لا بد أنها اختبأت في ركنٍ من صالونها...»

«المسكينة...»

أنهى إميل إخلاء المائدة بينما أحضرت جوانا التحلية في كوبين ممتلئين برغوة بيضاء، نثرت فوقها ثمار التوت البري. بقي كوب ثالث فوق منضدة العمل.

«وذاك الكوب، ألن نتناوله؟» سأل.

«لا، هذا لـ ميرتيل.»

«إنها محظوظة بك جداً.»

هزت رأسها.

«لا، نحن المحظوظان بها.»

«صحيح.»

يشهد بذلك فستان العروس الذي يتدلى فوق المشجب، في طرف الحجرة. هذا أيضاً ليس بلا قيمة.

«سوف أفتقدها.» أضافت جوانا.

«لم أكن أظن ذلك، ولكنني أنا أيضاً سأفتقدها.»

«سيتعين علينا الآن بعد إتمام الزواج، أن نغادر، أليس كذلك؟»

شعر أنها لا ترغب في ذلك حقاً، ليس على الفور. ولا هو كذلك. لقد اعتادا هذه الحياة اليومية في إيوس، والشقة ذات الجدران مكشوفة الحجارة، والفناء الداخلي، والشاي تحت شجرة الدلب، ووجود ميرتيل، ولعبة سكرابل الليلية، والشوارع المرصوفة بالحصى. إنها ليسا مستعدين للمغادرة بعد.

«كما تعلمين، ليس هناك ما يدعو للعجلة... يمكننا أن نمنح أنفسنا بعض الوقت.»

رأى الارتياح على وجهها القلق. كانت تتمنى هذا النوع من الجواب. أوماً بالإيجاب.

«نعم، لا حاجة للاستعجال.»

كانا مسرورين للتوافق الحاصل بينهما.

«ما هذا؟» سأل إميل وهو يغرز ملعقته في الكوب.

«تيراميسو بالتوت البري والشوكولا البيضاء.»

ابتلعها بسرعة حتى أنها لم تكلف نفسها عناء سؤاله عما إن كان قد أحبها أم لا.

أخرج كأسَي نبيذ من إحدى خزائن المطبخ الصغير، وفتح زجاجة الشمبانيا.

«هذه هدية لنا من قبل آني وزوجها.» أعلنَ.

«إنهما في منتهى اللطف.»

ملا الكأسين بالشمبانيا بينما وضعت جوانا فوق الطاولة لعبة مونوبولي،

وجدتها في صالون ميرتيل، قبل أيام.

«أقترحُ قاعدة جديدة.» أعلنَ وهو يأخذ مكانه مقابلها.

«ما هي؟»

«نظرًا لكونها ليلة زفافنا، يمكننا أن نشخصن اللعبة قليلًا، ونستغل الفرصة

كي يعرف أحدنا عن الآخر بعض التفاصيل.»

شعر أنها مترددة. وواصل على أي حال:

«من يدخل السجن، عليه أن يجيب عن سؤالٍ ليتمكن من الخروج. ما رأيك؟»

استغرقت بضع ثوانٍ للرد، لأن عليها تقييم احتمال أن تجد نفسها في وضع

سيئ.

«هيا، لا سوء في الأمر.» أصرَّ.

«فقط كي نعرف بعضنا البعض أكثر... مثل ألعاب الجراءة أو ألعاب الحقيقة،

الغبية تلك.»

تساءل عما إن كانت قد لعبت هذه الأنواع من ألعاب المراهقين في قريتها أم

لا... ربما لا.

«موافقة.» قالت أخيرًا.

باشرا باللعب وهما يشربان الشمبانيا التي كانت لذيدة.

«هل أعجبتكِ؟» سألها إميل.

«نعم. إنها منعشة.»

تولت مسؤولية البنك، لحساب التذاكر وتوزيعها. كانت اللعبة قديمة، لا تزال تذاكرها تُحسب بالفرنك. بعد صوت راي تشارلز خرج صوت لويس أرمسترونج. أخذت جوانا تهمس بكلمات أغنية Only You. بدا واضحًا أنها تعرفها عن ظهر قلب.

«لم أكن أعرف أنك تحبين الجاز.» قال متفاجئًا.

ردت بمواصلة فرز التذاكر:

«كان أبي معجبًا شديدًا بـ مايلز ديفيس، وآخرين. لقد نشأت على ألحان الجاز.»
«أنت تثيرين الدهشة...»

رفعت رأسها، متفاجئة، وكفت عن فرز البطاقات.

«ماذا...؟»

لا يعرف هل قال ذلك تحت تأثير الشمبانيا أم لا. ففي هذا الحر، يكفي كأسان منها لجعله ثملًا تمامًا.

«لا، المسألة هي أنك شخص مثير للدهشة.»

«بِم؟»

«لا أدري. هذا اللغز الذي تحتفظين به بشأن حياتك... طريقتك في الوجود... صمتك... هدوئك... كما لو أنك تحاولين جعل نفسك منسية... وفجأة تصبحين قادرة على ذكر اقتباس، أو كلمات أغنية جاز قديمة قَدَم العالم...»

ابتسم لنظرها المتفاجئة. إنها شخصية رائعة حقًا. كل ما قاله للتو كان صحيحًا. هذا ولم يتكلم بعد عن قبعاتها السوداء وملابسها الفضفاضة، وانفصالها التام أحيانًا، وأعشابها العطية الخاصة بالجذات...

«لستُ سوى انعكاس لوالدي.» قالت وهي تهز كتفها.

ابتسم في حزنٍ لأنها فقدت هذا الأب الذي كان مثّلها الأعلى. ربما هذا ما جعلها تقتصر على ارتداء الملابس السوداء...

«لا بد أنه كان شخصًا جميلًا.»

«كان كذلك.»

سلمته كومة بطاقات لطر د تلك اللحظة ثقيلة الوطأة.

«هذه البطاقات كي تضعها في الوسط، وهذه تذهب إلى الصندوق المشترك.»
استأنفا اللعبة في صمت. وجد إميل نفسه أولاً في السجن. فكرت جوانا طويلاً
في السؤال الذي يجب أن تطرحه عليه.

«لا أعرف...» قالت في خجل.

«أليس هناك شيء تودين معرفته ولكنك لم تجدي الجراءة للسؤال عنه؟»
ترددت لحظة أخرى، نقرت بأصابعها على الطاولة ثم سألت بصوت واضح:
«إلى أين ذهبتَ عصر اليوم، بعد الحفل؟»
من الواضح أن ذلك لم يكن السؤال الذي يتوقعه. أظهر بعض التردد قبل أن
يجيب:

«ذهبت إلى كوم، وجلست في الكنيسة. ثم عدت.»

هزت رأسها بشيء من الرصانة. لم يخبرها بشأن رسالة البريد الإلكتروني التي
أرسلها إلى لورا. لم يكن لها ذنب في ذلك، فكل ما أرادته هو تقديم خدمة له، ولم
تدع قط أنها ستحل محل لورا، لكنه لم يشأ المخاطرة بإهانتها.
«حسناً... يمكنك الخروج من السجن.»

أعاد رمي النرد. وبعد دقائق، وجدت جوانا نفسها في السجن. رآها وقد
ظهر عليها عدم الارتياح وأخذت تتململ على كرسيها. هناك شيء يود بشدة أن
يعرفه... لماذا لا ترتدي إلا السواد، لون الحداد؟

لكنه لم يشأ أن يحزنها، أو يجبرها على الحديث عن والدها، أو يعيد خلق شعور
بالثقل لديها. لذلك وقع خياره على سؤال ظن أنه أخف وطأة.

«هناك شيء لاحظته...»

«ما هو؟»

«عندما تجلسين مساءً في الخارج، كي تتألمي أو تستنشقي الهواء فقط، تقومين
بالحركة نفسها دومًا...»

«ما هي؟»

«ترفعين رأسك إلى السماء وتظل عيناكِ تحدقان إلى الهواء لساعات. لماذا تفعلين هذا؟»

أدرك بعد فوات الأوان أنه قد ارتكب خطأً، وأن السؤال عن الملابس السوداء ربما كان أفضل. رأى الارتباك على وجهها، والجهد الذي تبذله للحفاظ على تعبير محايد ومنفصل، لكنه رأى ارتعاش زاويتي فمها.

«جوانا، إذا كنتِ لا تريدين...» أضاف على عجل.

لكنها كانت قد باشرت بالإجابة:

«عرفتُ صبيًا صغيرًا كان يمضي ساعات في النظر إلى السماء... يدعى توم. كان مختلفًا عن الآخرين، ويعيش داخل عالمه دومًا. كان من الصعب التواصل معه.»

ارتسمت ابتسامة حزينة على وجهها. أدرك أن عينيها امتلأتا بالدموع، لكنها تابعت:

«لقد كان صبيًا رائعًا. قضى وقته في التلوين...»

اضطرت للتوقف لحظة كي تبتلع لعابها:

«... في التلوين بالأزرق. ملأ صفحات وصفحات باللون الأزرق. لا شيء سوى اللون الأزرق. لم تكن نعرف ما إذا كان يلون السماء أم البحر. لم يقل ذلك. و... وأسوأ ما في الأمر... أنه فور انتهائه من تلوين رسوماته، كان يقوم بتكويرها في قبضته باستياء، وكأنه محبط لعدم عثوره على اللون المناسب، على المزيج الصحيح من اللون الأزرق. ثم يعود إلى الفناء ويبدأ بمراقبة السماء مرة أخرى لساعات. وفي اليوم التالي، نكون متأكدين أنه سيعود إلى تلوين لوحات بالأزرق.»

رؤيتها في هذا الموقف وهي على وشك البكاء لكنها مبتسمة وتتحدث بسرعة، وشغفٍ وتأثر، كانت مثيرة للقلق. لم تكن هكذا من قبل. ولم يعد بوسعها أن يوقفها.

«أساء المعلمون توم بلو. وبناءً على طلبني منعوا الأطفال الآخرين من استخدام اللون الأزرق ليصبح مخصصًا له، لـ توم بلو.»

صدرت عنها ضحكة عصبية خافتة، ممتلئة بالتأثر. لم يرها قط تضحك بهذا الصدق. لا بد أنها أحبت هذا الصبي حقًا. وسأل متأثرًا هو أيضًا:

«هل كان في المدرسة التي عملتَ فيها؟»

هزت رأسها في حب.

«نعم. كان في المدرسة. لكنه غادر.»

«منذ وقتٍ طويل؟»

«قليلاً، نعم.»

أخذت رشفة طويلة من الشمبانيا. هكذا هي جوانا، تحتوي الكائنات الأضعف والأكثر هشاشة، الكائنات التي لا تشبه أحدًا، المنغلقة على عالمها، أو تلك التي قد تتعرض للقتل... توم بلو، بوك...

لقد أصاب حين قال إنها شخص مثير للدهشة.

«أنت إذاً تراقبين السماء بدورك؟»

أومأت برأسها، وقد اختفت الدموع من عينيها.

«نعم. أسأل نفسي عما إن كنتُ سأتوصل يومًا لأجله، إلى المزيج الصحيح من الأزرق، وأعطيه إياه في اليوم الذي سألتقيه فيه من جديد أم لا...»

قام هو أيضًا بشرب جرعة من الشمبانيا كي يداري تأثره.

«سيكون سعيدًا بذلك.» قال.

«هل تعتقد ذلك؟»

«أنا واثق بذلك.»

تبادلا ابتسامة مرتجفة. لقد تشاركا للتو لحظة حميمة. شعر إميل بذلك ومن المؤكد أن جوانا قد شعرت به أيضًا.

«هل تعرفين إلى أين ذهب؟ هل تعرفين كيف ستجدينه؟»

ابتلعت لعابها.

«لدي فكرة.»

تناولت النرد من لوحة اللعب وسألت وهي تتنحج:

«هل أستطيع العودة إلى اللعب؟»

«بالطبع. يمكنك إلقاء النرد.»

تحاشيا السجن طوال بقية اللعبة، دون عمد، لكن الرد قرر إعفاءهما من لحظات عصيبة لبقية المساء. حل منتصف الليل عندما أخليا الطاولة وفتحا أريكة النوم. أطفأ الضوء، ولم يقل إميل شيئاً عندما شعر أن بوك وكاناي قد قفزا فوق السرير واستقرا عند أقدامهما. فكّر أنها عطلة ويمكنه التساهل هذا المساء.

«تصبحين بخير.» همس.

«تصبح بخير.»

«كانت الأمسية لطيفة.»

«بالفعل.»

عاد الصمت الذي بالكاد كانت تشوشه خرخرة السعادة الصادرة عن بوك. من المؤكد أن جوانا كانت تمسح على بطنه في الظلام. راح يفكر في توم بلو الصغير الذي كان يلون الأوراق بالأزرق... ويفكر في نفسه. لقد احتوته هو أيضاً. قررت أن ترافقه في رحلته الأخيرة وتمنحه حريته بالزواج به. إنه جزء من المجموعة. توم بلو، بوك وهو. لقد قررت منح الثلاثة فرصة ثانية. إنها مثل هذه الكنيسة الصغيرة، التي تقف في فخري، سليمة وقوية، وسط أنقاض كوم كانت جوانا هكذا... رمزاً للأمل وسط أرض من خراب.

عادت ميرتيل للظهور في اليوم التالي، حين لم تعد قادرة على المقاومة. لا بد أن الوقت بدا لها طويلًا، وهي مختبئة في غرفة معيشتها.

«إذا كيف سار حفل الزفاف؟»

كانت ترسم على وجهها ابتسامة بهجة. لقد أعدت لهما الفطائر والشاي الأسود، ما جعل جوانا تهتف محتجة:

«كان يجب أن تبقي مرتاحة!»

أجابت ميرتيل في لهجة لاذعة:

«لا، أرجوك! لا تكوني مثل ابنتي! تكفيني آني واحدة!»

أجبرتها بعد ذلك أن يعودا للجلوس في الفناء الداخلي تحت شجرة الدلب. ساعدها إميل على نزول الدرج والجلوس معها.

«ماذا عن الزفاف إذًا؟ إنكما تبقيان الأمر محاطًا بالغموض!»

«كان جيدًا.»

«كان جيدًا؟ هذا كل شيء؟ أخبرتني آني أنكما طلبتما منها زجاجة شمبانيا. هل أعددتما وجبة احتفالية؟»

أوما إميل.

«نعم. أعدت لنا جوانا وجبة رائعة. أساسًا، لقد خصصت لك حصة من التحلية!»

نجحت عملية الإلهاء لفترة من الوقت. ثم طرحت ميرتيل أسئلة حول الوجبة، وأحضرت لها جوانا التحلية التي أعلنت ميرتيل أنها لذيذة. لكنها عادت إلى صلب الموضوع: حفل الزفاف في البلدية، والفيستان.

«هل التقطتما صورًا في الأقل؟»

بدت مرعوبة عندما هزا رأسيهما.

«يجب معالجة الأمر! لا يمكن الزواج دون التقاط الصور! ما الذي سترينه للصغير؟»

علا صوتان في وقت واحد:

«ميرتيل! لا يوجد طفل!»

فرقت بلسانها.

«سأتصل بـ آني. صهرها مصور وسيلتقط لكما صورًا جميلة في الشوارع

للمصوِّفة.»

انتاب إميل غضب شديد جعله لا يحسب قوة صوته عندما أجاب:

«لا، ميرتيل، هذا يكفي! لن يكون هناك صور! مثلما أنه ليس هناك طفل!

انتهينا من حفل الزواج. انسينا الآن قليلًا!»

انكملت جوانا في كرسيها. خيم صمت ثقيل على الفناء الداخلي. أعادت

ميرتيل كوب الشاي إلى الطاولة بحركة جافة. طال الصمت. أعلن إميل تصحيحًا

لخطئه:

«الفطائر لذيذة جدًا.»

لكن جملة لم تحقق الأثر المطلوب. انتهى به الأمر بالنهوض ومغادرة الفناء.

احتاج الأمر إلى الكذب والتصنع بشأن الزواج، لأسابيع وأسابيع. كان يرجو

أن ينتهي كل شيء هذا الصباح، حتى يتمكن من استئناف حياة طبيعية. لكن

ميرتيل أبت إلا أن تضخم الأمر، وأن تقحم نفسها في حياتها. كان عادةً يجد

الأمر مؤثرًا، لكنه لم يجده كذلك هذا الصباح. أراد أن يتنفس قليلًا فقط، ويستمتع

بحريته الجديدة. ركب دراجة آني التي جرى إصلاحها وانطلق داخل القرية.

تعرّض لثقب أسود جديد في الذاكرة. غادر منزل ميرتيل هذا الصباح، غاضبًا،

وأراد ركوب الدراجة بسرعة كبيرة للتخلص من كل هذا، ولا يعرف ماذا فعل

بعد ذلك. كان الفنانون قد غادروا إيوس، وانتهى المهرجان. وجد نفسه مجددًا

في ساحة صغيرة، غير بعيدة عن الكنيسة في الأعلى، جالسًا على مقعدٍ ومعه علبة

صودا، وفي رأسه حروق الشمس، ويشعر بالتهابٍ في الندبة. كان يتذكر بوضوح

تام يوم السهرة وكذلك الأيام السابقة لها، يتذكر كيف استيقظ هذا الصباح، وتناول الإفطار تحت شجرة الدلب، فالمشاجرة مع ميرتيل. ثم لا شيء آخر. كان برج جرس الكنيسة يشير إلى الساعة السادسة مساءً. لم يكن في نيته أن يبقى كل هذا الوقت في الخارج. لا بد أن جوانا قلقة... جوانا التي تركها بمفردها مع ميرتيل في لحظة رهيبية من الخرج...

ما الذي فعله كل هذا الوقت بحق الجحيم؟

أين كان منذ هذا الصباح؟

أين ذهبت الدراجة؟

ما سبب وجود علبة الصودا بين يديه؟

هل فيضُ المشاعر خلال الأيام القليلة الماضية، هو الذي تسبب في فصل دماغه عن الواقع؟ أم العصبية الناجمة عن إجراءات الزفاف؟ ألم يجد عقله من حلٍّ سوى إفراغ ذهنه من أجل تخفيف الضغط؟ أم أنه الارتياح، واليقين بأنه بات في أمان الآن، بعد إيكال المسؤولية القانونية عنه إلى جوانا؟

وبعد أن أزيح هاجس التجربة السريرية، عن رأسه؟

الآن، مهما حدث، بات يعلم أن جوانا ستحرص على إبعاده عن هذا كله. خف الضغط وسيطر المرض.

رغم التعب وحروق الشمس، أجبر نفسه على النهوض من مقعده، مع رغبته في العودة بسرعة إلى شقتيها الصغيرة، ولكنه عندما وقف، كان عاجزًا عن الحركة. ارتبك. هل هي الحرارة؟

هل أصابته ضربة شمس؟

لم يعد يعرف إلى أين يذهب. ولم يعد يعرف الاتجاه الذي يجب أن يسلكه. كفاف! لا تكن سخيًّا. إنه مسار يسلكه يوميًّا لأكثر من شهر. ومع ذلك، وجد نفسه اليوم عالقًا ومحتارًا، لا يعرف في أي زقاقٍ يجب أن يمضي. إنها النهاية هذه المرة، يا صاحبي.. لقد انتهى أمرك. وسيخرج كل شيء عن مساره. استمر في محاولة إيهام نفسه بأن هذا بسبب الحر وأنه أصيب حتمًا بضربة شمس، رغم علمه أن هذا غير صحيح. لقد توقع الأطباء حدوثه.

«الأعراض الأولى هي صعوبة تنفيذ بعض المهام في سياق مهني، وحالات إغماء، وثقوب في الذاكرة.»

كانت والدته قد استفهمت:

«وبعد ذلك؟»

وأجاب الأطباء:

«ستليها أعراض أخرى، بسرعة أكبر أو أقل، تبعًا لتطور المرض. فقدان متكرر للأشياء، تقلبات مزاجية أو انكفاء، خصوصًا في المواقف الاجتماعية أو العقلية الصعبة، حالات نسيان تتعلق بالماضي، صعوبة في ربط الاسم بالوجه، ارتباك على المستوى المكاني والزمني...»

ارتباك على المستوى المكاني والزمني هذا ما يحدث. إنه لا يعرف ماذا فعل اليوم. ليس لديه أي فكرة عن الوقت الذي مر منذ أن غادر الشقة. عشر دقائق؟ ساعة؟ يوم؟

دون برج الكنيسة، ما كان يستطيع حتى أن يحدد موقعه من النهار. صباحًا؟ أم بعد الظهر؟

ثم هناك تلك المشكلة الأكثر إلحاحًا... عجزه عن معرفة كيفية العودة إلى الشقة. رغم أنه يتذكر العنوان. 6 كاريرو ديل ماسادور. لم ينس ذلك. ليس بعد. بدأ يمشي بشكل عشوائي. ربما تعود إليه الذاكرة في أثناء المشي. المحال التجارية مألوفة له، وكل الأرصفة أيضًا. ومع ذلك، بدأ يساوره الشك وعدم اليقين. عاد إلى الورا على أمل الوصول إلى الكنيسة العليا. من هناك سيطل على القرية، فيصبح العثور على طريقه، أسهل. عند وصوله إلى القمة، اتكأ على إحدى الواجهات، منهكًا، وعلى حافة الانهيار العصبي. شعور مؤلم. أسوأ ما شهده على الإطلاق، بعد الألم الناتج عن رحيل لورا... بات يشعر أنه قد جُنَّ، وفقد كل وسائله.

توقف بضع ثوانٍ كي يتنفس. فكَّر في سخرية الموقف. في الآونة الأخيرة، ظن أن الأمور قد تحسنت، وأن المرض ينحسر، أو أنه في الأقل في حالة ركود. ظن أن استقرار حياتهما في إيوس قد ساعده، ومنحه صفاءً أبقي ذاكرته حية. لكنه كان مخطئًا. من الواضح أن هدف الزواج هو ما جعله يستمر، وأن فكرة عدم تبقي أي

خيارِ أمامه، وأنه يجب عليه أن يصمد حتى ذلك الحين، ولا يتعرض لإغواءات، ولا يفقد الوعي إلى أن يتم توقيع الأوراق، فتصبح جوانا، رسميًا، الوصي القانوني الوحيد عليه. يتمتع العقل بسلطة هائلة على الجسد، وتطور المرض. لقد أصبح اليوم يدرك ذلك وهو متكئ على واجهة مبنى، مُحَرَّقة. حاله شبيه بحال أولئك المحتضرين الذين يتمكنون من الصمود أيامًا عدة قبل وصول أحبائهم، ليموتوا أخيرًا بين أذرعهم. هذا ما حدث له. خوفه من فقدان وعيه مجددًا، ومن إرساله إلى المركز، ورغبته الشديدة في أن يكون أخيرًا في أمان، جعل جسده يحافظ على ذاكرته في متناوله. الآن انتهى الأمر. صيرورة المرض عاودت من جديد. وها هو يقف ضعيفًا مستندًا إلى هذه الواجهة. إنه هناك، مثل رجل عجوز لم يعد يتذكر الطريق إلى المنزل. كان ضعيفًا إلى درجة يريد معها أن ييكي أو يغضب. لكن عليه ألا يفعل ذلك. لقد دفعت ميرتيل بالفعل ثمن غضبه هذا الصباح، وجوانا بشكل غير مباشر. وعليه القبول بحالته دون أن يستسلم للغضب. لا أحد له يد في هذه الحالة. ولا حتى هو.

انتهى به الأمر بالعثور على الزقاق بعد شيء من التردد. كانت نوافذ غرفة ميرتيل المطلة على الشارع، قد أغلقت، وذلك بلا شك للحفاظ على قدرٍ من البرودة. في أعلى الدرج، وجد جوانا في أوج عملية تنظيف ربيعية. ربطت شعرها أعلى رأسها وسحبت سروالها إلى أعلى فخذها. تنشط، وفي يدها منفضة غبار، في محاولة إزالة خيوط العنكبوت من السقف. وفي زاوية الغرفة هناك مكنسة وممسحة. لم يكن الهر وأمه هناك. لا بد أنها هربا خائفين من الضجة. لم ينتظر منها أن تقول كلمة، بل اعتذر على الفور.

«جوانا، أنا آسف. لا أعرف ماذا فعلت. حدث لي غياب آخر في الذاكرة. أدركت للتو كم هي الساعة، وأضعتُ دراجة آني...»

بدت جافة بعض الشيء في البداية، كأنها غاضبة منه بسبب مشاجرة هذا الصباح، لكنها لمست البؤس في صوته، فوضعت منفضة الغبار على الأرض واقتربت منه.

«هل أنت بخير؟ هل أصبت بضربة شمس؟»

لكنه لم يجب، فهناك شيء آخر يشغل باله.

«وميرتيل؟ لا بد أنها غاضبة لأجل ما بدرَ مني هذا الصباح...»
أفلتت بضع خصلات من شعر جوانا المربوط في أعلى رأسها. كان جبينها يلمع
من العرق جراء جهد التنظيف الربيعي الكبير الذي تقوم به.
«لقد سألتني عما إذا كنا نريد المغادرة، وإذا كنا قد مللنا منها.»
بدت محرّجة وهي تقول ذلك.
«قلتُ لها إننا لا نريد المغادرة، ولكنها لم تصدقني...»
توقفت قليلاً وجففت جبينها.
«يجدر بك أن تذهب وتكلمها.»
أوماً.
«سأذهب على الفور.»

وجد ميرتيل نائمة على كرسيها، والتلفزيون يعمل في الخلفية. كانت كاناي
متكورة على نفسها فوق ركبتيها وتؤمن الحراسة. راحت تحديق إليه بعينٍ شريرة.
لا بد أنها عرفت على أنه عدو المنزل، الذي يسبب الأذى لـ ميرتيل وجوانا. تنح
إميل متردداً في إيقاظ السيدة العجوز، لكن الصوت كان كافياً لإيقاظها من نومها
الخفيف. استقامت، مما تسبب في سقوط كاناي التي أطلقت مواء احتجاج.
«لقد غفوت...» تمنت، وهي تمسح خفيةً خيط لعابٍ في زاوية فمها.
وقف إميل أمامها غير مرتاح، ولا يعرف من أين يبدأ، لكنه يعتقد أن أسهل
طريقة هي إخبارها بالحقيقة كاملة.
«ميرتيل، أنا آسف بشأن هذا الصباح. أعلم أنك كنت تفكرين فقط في إسعادنا
ولكن...»

مسح يديه المتعرقتين فوق شورتته. لم ترتبك ميرتيل. ومن الواضح أنها كانت
تتظر إيضاحات، ولا تصدها، بل تستمع إليها في اهتمام. ابتلع لعابه.
«ليس هناك طفل يا ميرتيل... لقد تزوجنا على عجل، فقط كي تتمكن جوانا
من الاعتناء بي لأنني مريض.»
فتحت السيدة العجوز عينيها الزرقاوين الزاهيتين على اتساعهما. لم تكن تتوقع
هذا النوع من الإيضاحات.

«الزهايمر مبكر... مرض نادر... لذلك كان هذا الزواج أقرب إلى إجراء شكلي... وسيلة لضمان تمكّن جوانا من اتخاذ جميع القرارات المتعلقة بحالتي الصحية.»

غمر الحزن عيني ميرتيل الزرقاوين. لم يشأ أن يسبب لها الحزن، بل أراد ببساطة أن يجعلها تفهم أنها لا يد لها في الأمر، وأنها ليس لديها أي رغبة في مغادرتها وتركها. ليس على الفور على أي حال. فتحت فمها وخرج صوتها شبيهًا بصوت امرأة عجوز هدها التقدم في العمر.

«يؤسفني هذا يا إميل... لم أكن أعلم...»
هز رأسه.

«أعرف، لا تهتمي...»

لكن الحزن بقي مهمنًا على وجه ميرتيل، حتى بدت أكبر سنًا.
«لقد ارتكبتُ مؤخرًا عددًا لا بأس به من الأخطاء الفادحة. فستان الزفاف ذاك... كان سلوكًا أحق...»

«لا، لم يكن.»

«بلى.»

«لا، أؤكد لك. كانت جوانا جميلة جدًا بفستان العروس.»

ارتسمت على وجهها ابتسامة متعبة.

«حقًا؟»

هز رأسه.

«نعم. والصفيرة التي صنعتها لها كانت جميلة جدًا أيضًا.»

نظرت ميرتيل إلى الأسفل في حزن.

«أردت أن أجعل وجهها يضيء قليلًا. إنها تختبئ دائمًا خلف اللون الأسود.
الآن فهمت السبب...»

ابتلع لعبابه. إنه لا يريد أن يسبب لميرتيل مزيدًا من الحزن. ولن يخبرها أن هذا ليس سبب السواد الذي ترتديه باستمرار. ولا أن العلاقة بينه وبين جوانا ليست علاقة حب، وأنها التقيا للتو قبل شهرين من خلال إعلان مبوب. هناك أشياء لا تحتاج السيدات المسنات المتعبات إلى معرفتها.

شهقت. هل ذرفت دمعة؟

لم يكن يستطيع رؤية وجهها في الصالون شبه المعتم، فقد أغلقت جميع مصاريع النوافذ للحفاظ على برودة الجو في الداخل.

«لن تتمكن من النجاة، أليس كذلك؟» سألت بصوتٍ بعيد على نحوٍ غريب. عرف أنها تتكلم عن المرض. أراد أن يكذب عليها لكنه تراجع.

«لا... في الواقع.»

شهقت من جديد.

«ماذا سيحل بها؟»

ابتلع لعبابه أملًا في التخلص من الغصة في حلقه. أحزنته ميرتيل. لماذا بكت؟

«لا أدري.» اعترف بصوتٍ غير واثق.

«يجب التفكير في الأمر... هل ستفكر فيه؟»

«نعم، سأفعل.»

نظرت ميرتيل إلى كاناي وهي تنضم إلى بوك الصغير في السلة قرب التلفزيون، وتتكور بجانبه.

«هذا ما دفعكما للقيام بهذه الرحلة؟»

«نعم.»

لاذ كلٌّ منهما بالصمت، وبقي التلفزيون يعمل مصدرًا مجموعة أصوات في الخلفية.

«هل سينتهي بكما الأمر بالمغادرة إذًا؟»

رفعت رأسها نحوه واستطاع أن يرى عينيها الزرقاوين المبللتين.

«نعم. سنغادر في نهاية المطاف... ليس على الفور، ولكن في أحد الأيام.»

هزت رأسها. راحت تلهو بأطراف أصابعها المجمعة، بخيط يبرز من فستانها، فتسحبه، وتلفه.

«يمكنكما العودة لقضاء فصل الشتاء... عندما يصبح الجو أبرد من أن تستطيعا البقاء في عربة تخييم أو تحت خيمة، يمكنكما العودة إلى هنا.»

بثت الفكرة بعض الراحة في قلبه. أو ما برأسه.

«إنها فكرة جيدة للغاية.»

«تكلم مع جوانا بشأنها...»

«أنا متأكد أنها ستسعد بذلك.»

«أنا أيضًا سأكون سعيدة.»

تبادلا ابتسامة صغيرة. على شاشة التلفزيون، بدأ برنامج مسائي يعرض عشرة آلاف يورو جائزة لمن يجيب عن سلسلة من عشرة أسئلة. شردت ميرتيل قليلاً قبل أن تدير وجهها نحوه.

«هل تتناولين العشاء معنا الليلة؟» سأل.

لم يمنحها وقتاً للرفض:

«سأذهب للطهي، وأدعوك للعشاء في الشقة. سآتي لأخذك من أسفل الدرج في السابعة والنصف. كوني مستعدة.»

كانت ابتسامة ميرتيل تستحق كل دموع العالم.

أحرق إميل وجبة اللازانيا باللحم، لكن جوانا قالت إنها ستتدارك الأمر، وأن بوسعه الذهاب إلى الحمام. لقد أعدّها طبقاً خاصاً دون لحم. طبق لازانيا صغير مع الخضار والبيستو. بدت سعيدة.

قالت: «اذهب للاستحمام، لقد بلغت الساعة السابعة. سأجهز طبقك من اللازانيا.»

«أوه... ميرتيل، لقد أخرجتِ أحمر الشفاه والشال!»

كانت تنتظره أسفل الدرج بملابس سهرة حقيقية. فستان أسود، شال أرجواني، قرط ذهبي، وأحمر شفاه قرمزي. بدت أنيقة حقًا. لم تسمح للملاحظة بأن تززع ثباتها، وأجابت:

«أين ذهبت لحيتك؟»

كانت جوانا قد أظهرت استجابة مشابهة عندما رآته يخرج من الحمام. ولكن على نحو أكثر تحفظًا. هتفت قائلة:

«أوه، لقد حلقت لحيتك.»

لم يعرف حقًا لماذا فعل ذلك. كان قد أطلق لها العنان منذ عام، بعد رحيل لورا، كما لو يهدف الاختباء خلفها، وإخفاء وجهه، وحماية نفسه. لكنه نظر في المرأة الليلة وأدرك أنه أهملها مؤخرًا بسبب مغامراتها. لقد استولت على جزء كبير من وجهه وكان ذلك كثيرًا. فبدأ يقصقص. كانت الفكرة أن يقوم بتقليمها فقط لكنه لم يستطع التوقف. أزال كل شيء وكشف وجهه. شعر أنه عارٍ وضعيف لكنه أصغر سنًا أيضًا، وأقل حزنًا. بدا جديدًا تمامًا على هذا النحو، وأكثر تألقًا. اتسعت عينا جوانا عند رؤيته.

سألها:

«هل أعجبك المنظر؟»

أومات برأسها ولح في عينيها نظرة إطراء جعلتها تحمر قليلًا.

«نعم يا ميرتيل، لقد أزلتها تمامًا.» أجاب وهو ينزل الدرجات الأخيرة نحوها.

«أنا رجل جديد.»

«رجل متزوج.» أجابت بابتسامة.

وصل إلى مستواها، أسفل الدرج، ومد لها ذراعه:

«أتسمحين؟»

ضحكت ميرتيل مثل فتاة صغيرة.

«لديك طرق جميلة أيها الشاب.»

«دائمًا!»

شعر أنها تضع ثقلها على ذراعه. كان صعود الدرج صعباً عليها. مهما قالت، ومهما أظهرت، تبقى سيدة عجوز أنهكتها الحياة. توقفاً في منتصف الطريق على السلام لأنها بدأت تلهث.

قالت وهي تحتق: «التقدم في السن أمر قبيح.»

«أتخيل ذلك.»

«لكن ذهني سليم تماماً. أكثر ما كنت أخشاه هو أن أفقد عقلي.»
توقفت مذعورة حين أدركت ما تقوله له. أنهى تلك اللحظة المحرجة:
«أتفق معك تماماً!»

استأنفا صعود الدرج.

قام إميل بتهيئة الطاولة، وأشعلت جوانا الراديو فملأت الشقة موسيقى الجاز. بدأت (كاناي) و(بوك) يطارد أحدهما الآخر بين الأريكة ومنضدة العمل، وتعثرا بقدمي إميل. جلست ميرتيل على الأريكة، وشالها على كتفيها، وفي يدها كأس من الشمبانيا (بقايا من اليوم السابق). بدت سعيدة بوجودها هناك، وراحت تضحك مثل فتاة صغيرة. جلست جوانا قربها، بملابس سوداء كالعادة، لكن ميرتيل أعارتها مشطاً أصلياً قديماً، مذهباً، ومزيناً بأحجار جمشت أرجوانية، علقته في شعرها المتشابك. كانت قطعة قديمة الطراز ولكنها تناسب جوانا بشكل رائع باعتبارها فتاة لا تنتمي إلى عصر، ويمكن أيضاً أن تكون قادمة مباشرة من فترة الثلاثينيات. فكر إميل أن ميرتيل فعلت ذلك بقصد إضفاء بعض اللون والضوء على وجه جوانا. لقد لاحظت بخصوص الأسود، وقالت ذلك قبل قليل وهي تتحدث عن فستان الزفاف والجديلة. أردت أن أضيء وجهها قليلاً. إنها تختبئ دائماً تحت اللون الأسود.

نجح الأمر، وبدت جوانا تلك الليلة أصغر سناً، مثله دون لحية.

«إلى المائدة!» قال وهو يضع طبق اللازانيا الساخن.

لكن المرأتين واصلتا الهمس والضحك بصوت خفيض. راقبهما إميل بطرف عينه مستمتعاً. لا تزال رؤية جوانا تضحك، مصدرًا للبهجة حتى اليوم. قد يصبح الأمر يوماً ما، في غضون بضعة أشهر اعتيادياً حتى أنه لن يلفت نظره. سيكون

ذلك علامة جيدة ولكنه سيكون حزيناً في الوقت نفسه، لأنه لم يعد يبهجه...
تنحى وكرر:

«إلى المائدة!»

في أثناء الوجبة، عادت ميرتيل فتاة صغيرة حقيقية، خفيفة القلب، ثرثرة، ضحكها سهلة وتروي حكايا كثيرة عن القرية. بدأوا بتناول الحلوى المكونة من سلطة الفراولة، عندما سألت فجأة بجدية:

«ماذا عن بوك؟»

«ماذا عنه؟»

«قالت جوانا إنها ستجد له عائلة...»

بدت قلقة. ترددت جوانا في الإجابة، ونظرت إلى إميل كي تستطلع إن كانت تستطيع التأكيد أم لا:

«ستبناه.»

بدت ميرتيل غير مصدقة.

«ولكن...»

«ولكن؟»

«قلتما إنكما ستغادران خلال وقتٍ قصير...»

نظرت جوانا إلى إميل نظرة استشارة، فهز رأسه مبتسماً.

«سنأخذه معنا في عربة التخيم.» أعلنت.

أخذت عينا ميرتيل تلمعان.

«حقاً؟»

«نعم، سنفعل!»

«ألن تتخلينا عنه؟»

«لا!» أجابت جوانا وهي مصدومة.

ردّ إميل:

«أصبح لدينا الآن دفتر عائلة، يا ميرتيل!»

هزت العجوز رأسها دون أن تفهم.

«أظن أن هذا يؤهلنا لتبني قط صغير...»

بدأ الثلاثة بالضحك. كانت أمسية جميلة جدًا بموسيقى الجاز، وطعم الفراولة المنعش في الفم، وآثار صلصة الطماطم عند أطراف شفتي ميرتيل، والمشط القديم في شعر جوانا، وضحكاتهم. كانت حقًا أمسية جميلة جدًا.

2 سبتمبر

أمي،

أكتب لك ولدي خبر عظيم. أنا رجل متزوج منذ يومين. لا تفتحي عينيك وتلطمي رأسك هكذا. لا، لم أصب بالجنون. جوانا فتاة جيدة جدًا، تعهدت باحترام رغباتي وعدم إعادتي أبدًا إلى مركز التجارب السريرية هذا. نعم، أعترف بالأمر، ولهذا السبب فعلنا ذلك، لكن هذا لا يغير حقيقة أنني رجل متزوج.

من الآن فصاعدًا، ستكون جوانا، مهما حدث، الوصي القانوني الوحيد لي. ولن يزعجكم أي مشفى بعد الآن بما يصيني من فقدان وعي وفقدان ذاكرة. أعلم أن هذا ليس ما كنتم تريدونه ولكن هذا ما أريده وأنا الآن فتى ناضج، عمري ستة وعشرون عامًا ومتزوج. كمكافأة، سأموت خلال عامين، وأستطيع في الأقل أن أقرر كيف ستكون حياتي خلال هذين العامين المتبقين.

لا بد أن مارجوري قد تلقت رسالة مني أعطتك إياها كي تقرأيها (لقد طلبتُ منها ذلك على كل حال). سأرسل إليك هذه الرسالة في أقرب وقتٍ ممكن، لكنها ستكون الأخيرة. من الآن فصاعدًا، سأستمر في الكتابة لكم بانتظام ولكن في دفتر أسود صغير، سأحافظ عليه بعناية. لقد تعهدتُ جوانا بتسليمكم إياه حين أموت. لا يعني ذلك أنني لم أعد أرغب في تزويدكم بأخباري باستمرار، لكن إيداع هذه الرسائل للبريد أصبح رحلة حقيقية (إذا أردتُ أن أضمن بقائي مختبئًا). إضافة إلى ذلك، أتمنى أن تكون هاتان الرسالتان الأخيرتان قد طمأنتاكم وأثبتتا أنني سعيد وأنني أعيش الحياة التي تناسبني.

في انتظار استلامكم لدفترتي الأسود، وكتاباتي القادمة، حاولوا قدر الإمكان أن تسامحوني ولا تلوموني على ما أسببه لكم. صحيح أن هروبي وطلبي أنانيان ولكنهما ليسا أقل أنانية من رغبتكم في إيقائي خرفًا وسجينًا بالقرب منكم. لقد سامحتكم.

أرجو أن تكونوا قادرين على إظهار تسامح مشابه لإزائي. أحبكم مدى الحياة. هاتان السنتان بعيداً عنكم لن تغيرا شيئاً. على العكس من ذلك... يقولون إن الابتعاد عن الناس يجعلنا ندرك مدى حبنا لهم. دعونا نعد هذه فرصة.

أمي، أبي، في الختام، اعلموا أنني كنت عروساً وسيماً (هذا ما أعتقد في الأقل). كنتما ستفخران بي. لم أخلق لحيتي ولكنني ارتديت قميصاً أبيض ولم أتصرف بازدرأ أمام العمدة. جواتا كانت جميلة. أشعر بخيبة أمل عندما أفكر أنكم لن تعرفوا إليها أبداً. إنها واحدة من تلك النساء التي لا نقابلها إلا مرة واحدة في الحياة. كانت ترتدي أحد فساتين الزفاف القديمة تلك، المزودة بالكثير من الدانتيل، الفساتين التي تغطي الذراعين حتى الرسغين. ميرتيل (سيدة عجوز نقيم معها حالياً) صنعت لها جديدة جميلة. لم ينقصها سوى الطرحة لتبدو عروساً حقيقية. وحذاء لائق! أمي، أبي، أقبلكما. لا أنساكما أبداً. أنتما دائماً معي أينما وجدت. كونا واثقين بذلك.

ابنكما إميل

«إميل؟» نادى ميرتيل، من مكان جلوسها أمام التلفزيون.
كان قريباً جداً، يسقي النباتات على الدرج الصغير المؤدي إلى الفناء الداخلي.
«أنا هنا.»

«تعال واجلس.»
استغرب طلبها، ولكنه امتثل. سحب كرسيًا ممتلئًا بمنشورات دعائية طرحها
أرضًا بظهر يده وجلس.
«لقد غادرت آني لتوها...»
«أعرف.»

«قالت إن الدراجة التي أعارتها إياك، عثر عليها جان في أحد أزقة إيوس. يبدو
أنها كانت متروكة هناك منذ عدة أيام.»
شعر إميل بالانزعاج ولم يعرف إن كان قلقٌ ميرتيل نابعًا من سكوته عن
موضوع ضياع الدراجة أم لا. بدأ يدمدم بكلام كي يؤكد لها أنه آسف لذلك، وأنه
سيعمل على إصلاحها من جديد إذا لزم الأمر، لكن العجز أوقفته.
«ما الذي حدث؟ هل سقطت؟»
هز رأسه نافيًا.

«لا! لا، لم يكن الأمر...»
«هل ضُغِت؟»
أخذت تداعب كاناي بطريقة آلية، دون تفكير، مركزة كل اهتمامها على إميل.
«نعم، ضُغِت. لقد كان ذلك اليوم الشهير الذي عرضت علينا فيه أن تكلفني
أحدًا بالتقاط صور زفافٍ لنا، ثم أسرعْتُ إلى مغادرة المنزل.»
هزت ميرتيل رأسها، مستكشفة كل شيء بنظرها العميقة.
«لقد اختفيت طوال اليوم، أليس كذلك؟»

«بلى... وليس لدي أي فكرة عما فعلته... عندما انتضحت الأمور ثانية في ذهني، لم تعد الدراجة موجودة... وواجهت صعوبة شديدة في العثور على طريق العودة إلى المنزل. أنا آسف جداً على الإهمال. لم أكن أنوي إضاعة هذه الدراجة.»

«أنا لا تعينني الدراجة يا ولدي! هل هذا هو سبب توقفك عن الخروج من المنزل؟»

«أنا...»

خجل من الاعتراف بذلك، لكنها الحقيقة. منذ تلك الحادثة، راح يخلق أعذاراً كثيرة كيلا يضطر للخروج بمفرده إلى القرية. في البداية، كان ينتظر فقط خروج جوانا في نزهة لمرافقتها والهروب معها قليلاً. أما الآن بعد انشغالها بمساعدة صديقة له آني، في محل مثلجات، طوال اليوم، لم يعد يخرج من المنزل.

«نعم... أحاول تجنب الخروج... لم أتعرض للضياح ثانية لأنني لم أعد أخرج.»

«وبقية الأعراض؟»

«التشوش؟»

«نعم، التشوش...»

إنه لا يعرف حقاً، كونه لم يجد نفسه في موقفٍ مربك كما في ذلك اليوم في أزقة إيوس، بل تعرض فقط لحوادث مزعجة مقتضبة. وجد نفسه مثلاً يضع فرشاة أسنانه في الثلاجة ذات صباح. وفي حالةٍ أخرى، أدرك أنه نسي إيقاف الدش وبقي الماء ينسيل مدة ساعة. وفي هذا الصباح دعا جوانا باسم (مارجوري). لكنه كان مجرد شرود ذهن... هذا، في الأقل، ما قاله لنفسه آنذاك. إنه يعلم أن هذه هي الصيرورة الطبيعية للمرض، ولكن ما دام أنها بضع حالات من التشوش وغرابة الأطوار فقط، فقد كان يقول لنفسه إنها ليست خطرة للغاية. وأكثر ما يخشاه هو حالة إعتام الذاكرة.

«لا شيء خطر للغاية ولكن نعم... لقد أصبت ببعض حالات التشوش.»

انتابه القلق فجأة.

«لماذا؟ هل أخبرتك جوانا بشيء؟»

هزت ميرتيل رأسها.

«لا... لم تخبرني بأي شيء إطلاقاً.»

«يبدو أن هذا العمل في محل الثلجات، يسعدها، أليس كذلك؟»
سأل إميل، مستجوبًا ميرتيل بنظراته.
أومأت برأسها.

«نعم، يبدو أن الخروج من هنا قليلًا، له أثر جيد عليها.»
فرقت بلسانها.

«ويحذر بك أن تفعل مثلها.»

أصبحت نظراته مراوغة وتظاهرَ بالتركيز على التلفزيون لكن ميرتيل لم تنخدع.
«بقاؤك منعزلًا هنا لن يبطئ تطور هذا المرض اللعين. على العكس تمامًا. يجب
أن تحصل على بعض الهواء النقي.»
أجاب في تذمر:

«لن تربني إذا لمدة ثلاثة أيام. أخشى أن أضيع في الأزقة.»
«اطلب من جوانا أن ترافقك إذا.»
«إنها تعمل.»

«هي لا تعمل، بل تقوم بالمساعدة فقط. يمكنها أن تخصص أحد الصباحات
للتزهر معك.»

«لا أدري إن كانت ترغب في ذلك أم لا.»
أخذت ميرتيل تؤنبه كأنه صبي صغير.

«استمع إلى نفسك قليلًا يا إميل! ما سوء النية هذا؟! انظر إلى هذا الطقس
الجميل. هناك هواء منعش. يمكنك الذهاب لزيارتها في محل الثلجات. أنا متأكدة
أنها ستكون سعيدة. ولا تقل لي إنك سوف تضيق! المكان بالكاد يبعد أربع دقائق
عن هنا! أعدك بأن أرسل خلفك طائرة استطلاع مروحية إذا لم تعد خلال ساعة.»
رفعت كاناي من حجرها ووضعتها على الأرض.

«انصرفي!»

كانت تكلم كليهما. توجه لهما حركات صغيرة بيدها كي يتعدا.
«الطقس جميل! من أجلي، اخرج واستنشق الهواء!»

قبل أسبوعين، عادت جوانا سعيدة من يومها الأول في متجر الثلجات Coco Glacier. ومنذ ذلك الحين، وهي تذهب إلى هناك مع ساعات الصباح الأولى، ولا تعود إلا في المساء. استغرب إميل:

«هل هناك هذا القدر من العمل؟»

هزت جوانا كتفها.

«لا، ولكنني أحب البقاء خلف المنضدة ومراقبة أهل القرية في مجيئهم وذهابهم. إنه أمر مهدئ.»

شعر خلال ثانية كأنه أصبح أصغر بعشر سنوات حين وجد نفسه تحت شمس سبتمبر اللطيفة، وتدوس قدماء الرصيف. لم تخطئ ميرتيل، وكان محققاً في الاستماع إليها. تمنحنا العودة إلى الحركة والإحساس بأشعة الشمس، شعوراً رائعاً. بدا الأمر وكأن سنوات قد مرت. شعر أنه يستعيد حيوية العشرينيات من عمره. بدت له شوارع إيوس مهجورة في منتصف شهر سبتمبر، بعد صخب شهر أغسطس. عدد من السياح هنا، ومجموعة مدرسية هناك، لكن المكان هادئ نسبياً. شعر فجأة بقدرٍ من الخفة جعله ينعطف عبر معرض الفنون قبل الوصول إلى متجر الثلجات الذي أشارت إليه ميرتيل، المتجر الصغير ذو الواجهة الوردية بكتابة بيضاء تقول «Coco Glacier»، لبيع الثلجات البيتية الأصلية. كان المتجر مفتوحاً على الخارج. تم وضع عدد قليل من الطاومات والكراسي البلاستيكية في الممر، وكان هناك اثنان من السياح يستريحان. في خزانة العرض المبردة، هناك حوالي عشرين وعاءً من الآيس كريم، من جميع الألوان، تغري المارة، وتقف خلفها جوانا تحت قبعاتها السوداء الكبيرة. يبدو أن رؤيته شكّلت مفاجأة سارة لها.

«إميل!»

وقف أمام المنضدة، محرّجاً بعض الشيء.

«نعم، لقد خرجتُ من البيت.»

«أحسنّت صنعاً، فالجو لطيف اليوم.»

بدت بمفردها في المتجر ولكن ضجيجاً كان يُسمع في الجزء الخلفي من الصالة، يدل على أن كورين، مالكة المحل، تُجري ترتيبات في بقعة تخزين أو غرفة باردة.

«كيف حالك، هل تتأقلمين؟»

أومات بالإيجاب.

«نعم. الآن حفظتُ جميع النكهات عن ظهر قلب، حتى أن لدي بضعة زبائن منتظمين يعودون كل يوم.»

اصطفق بابٌ خلف جوانا ودخلت امرأة شقراء في الخمسينيات من عمرها، تضم شعرها تحت عصابة رأس زرقاء، حاملةً صندوقًا بلاستيكيًا، وتبدو بشوشة. ابتسمت ابتسامة عريضة وهي ترحب به بصوتٍ دافئ.

«صباح الخير. هل تهتم جوانا بك؟»

تأهب للرد لكن جوانا تتولى الأمر.

«لا، هذا إميل، يا كورين...»

حين بدا أن المرأة لم تفهم، أضافت جوانا:

«زوجي.»

وجد صعوبة في قمع الرعدة حين سمعها تقول زوجي وتمنى أن المرأة التي تدعى كورين لا تلاحظ ذلك. واتضح أنها لم تفعل، لأن ابتسامتها اتسعت أكثر. «أوه! سعدت بملقاتك، إميل! حسنًا، اطلب مثلجاتك، لا تقلق! ستكون هدية الدار.»

«أوه، هذا لطف منك ولكن...»

«سوف تخبرني برأيك. لدينا نكهة جديدة أود حقًا أن أجمع الآراء حولها.»

كانت لها ابتسامة عريضة ودية وعطوفة. فهم سبب حب جوانا لقضاء ساعاتٍ هنا. لا بد أنها رفيقة ممتعة.

«آه؟»

«آيس كريم زهرة اليلسان.»

«أوه... هذا مبتكر.»

«جوانا لم تحبها جدًّا، ولكنني أود أن يكون هناك رأي آخر.»

هز كتفيه مستمتعًا.

«حسنًا إذًا... إذا كان لا بد من ذلك.»

التفتت كورين نحو جوانا:
«سأدعك تخدمين زوجك. لا يزال لدي صناديق لغسلها.»
«بالطبع.»

اختفت بالسرعة التي ظهرت بها ووجدت جوانا نفسها مكتوفة الذراعين خلف المنضدة. ترك نظراته تتجول بين صناديق البوظة، محاولاً التعرف إلى النكهات.

«هل لديك أي شيء كحولي؟ سأحتاج إليه للتعافي من التكرار الصادم، في محادثة واحدة، لمصطلح زوجي»

بدأت جوانا تصطبغ بحمرة الخجل، الأمر الذي أضحك إميل.

«لم أعرف كيف... لم أر كيف...»

بدت محرجة حقاً، ما جعله يضحك أكثر.

«لا بأس. هذا ما أنا عليه. سأضطر فقط أن أعتاد ذلك.»

لإخفاء ارتباكها، سارعت إلى اغتراف كرة من مثلجات زهر اليلسان. ثم أمسكت بمخروط ووضعت الكرة فيه.

«ماذا أضع لك إضافة إلى هذه النكهة؟»

«لم تخبريني بالأنواع الكحولية لديك.»

بقيت متلونة بالحمرة لكنها حافظت على هدوئها في أداء دور بائعة المثلجات. أبقت رأسها منكباً فوق صناديقها وراحت تُعدد بجدية: ليمونسيلاو الليمون. روم بابا. أماريتو البندق. القهوة الأيرلندية.

«أماريتو البندق.»

«أماريتو البندق، حسناً.»

حاولت تشكيل كرة جميلة أضافتها إلى مخروطه. أعطته الآيس كريم، متجنباً نظراته مرة أخرى.

«بكم أنا مدين لك يا سيدتي؟»

كان مستمتعاً برؤيتها جدية ومحرجة إلى هذا الحد.

«لا شيء». لقد سمعت ما قالته كورين.

«حسنًا... شكرًا لك.»

تناول مخروط الآيس كريم الذي أعطته إياه وظل واقفًا أمام خزانة العرض المثلجة دون أن يعرف حقًا ما يجب عليه فعله، هل عليه أن يغادر، أم يأكله أمامها بشيء من البلاهة. أشارت إلى الطاولات والكراسي البلاستيكية الصغيرة.

«اجلس هنا. ليس لدينا الكثير من الناس اليوم. يمكنك الاستفادة من الشرفة.»
كان الزوجان السائحان الجالسان هناك بصدد المغادرة. اختار إميل الطاولة الأقرب إلى منضدة المحاسبة، وبدأ بتناول البوظة في بطء، ممددًا ساقه في الشمس.
«ألا تشعرين بالملل هنا طوال اليوم؟» سأل.

هزت رأسها بالنفي.

«لا. كنت أولًا في الطاقم الاحتياطي، أغسل الصناديق وأضع الملصقات. الآن أنا سعيدة لوجودي على منضدة المحاسبة.»
«هل تتأملين في أثناء انتظار الزبائن؟»
رفعت جوانا عينيها نحو السماء بنفاد صبر.

«هل تسخر مني؟»

«إطلاقًا.»

باشر بقضم المخروط بشهية.

«أنت من أخبرتني أنك تحبين التأمل... تذكرني أولى رسائلك الإلكترونية.»
شاهدا سيدة تعبر الزقاق، وهي تنزه كلبًا مربوطًا بسلسلة.
«كنت أعتقد أن الشخص الذي يريد التأمل عليه أن يجلس متربعًا ويغمض عينيه...» أضاف.

أجابته بنظرة جادة تمامًا:

«ليس بالضرورة.»

«أوه.»

«أمارس التأمل وأنا بكامل يقظتي...»

حرك عينيه إلى أعلى لأن ما قالته بدا له صعب الفهم.

«آسف، لم أتقن كل المفردات الخاصة بالتأمل.»

هزت كتفها. وفي تلك اللحظة، عبرت كورين المتجر مرة أخرى، ومسحت جبينها بيدها. قالت لإميل:
«إِذَا، ما رأيك؟»
«إنه لذيذ.»

بدت مسرورة. رفعت إبهامها وقالت: «عُدْ إلى هنا في الغد، وستجرب نكهات أخرى.»

«يجدر بك أن تحاول القيام ببعض الأعمال الصغيرة هنا وهناك...»
«لا أعرف... سأرى...»

لم تعد الأعمال الصغيرة شيئًا متداولًا، ولم يجرؤ على إخبار ميرتيل بذلك بوضوح، لكنه تساءل كيف يُحتمل أن يكون مفيدًا لأي شخصٍ مع شروده وقلة تركيزه. هذا الصباح فقط وجد فرشاة أسنانه في مكانٍ غير متوقع: تحت وسادته. وبما أن جوانا كانت حاضرة وتُنظر إليه بحاجبين مقطبين، ضحك من الأمر، لكن ذلك لم يكن يسليه في الحقيقة. وراح يتساءل عن الحالة التي سيتهي إليها، وعما إذا كان تشخيص الأطباء هو وحده التشخيص الصحيح أم لا. شعر أن الأمور تتسارع في الوقت الحالي. أو أن نمط الحياة المستقر يكشف على نحوٍ أفضل الصعوبة التي يواجهها في تنظيم تفاصيل حياته اليومية. إنها إحدى علامات خَرَفه الأولى.

الآن لديه أشكال جديدة من الروتين. لا أعمال صغيرة. في الصباح، يأخذ وقته، يتسكع في الشقة قليلًا، يذهب للدردشة لبضع دقائق مع ميرتيل. ثم يهتم بـ بوك الصغير. يلعب معه في الزقاق أو الفناء الداخلي. بعد الوجبة، يأخذ قيلولة ثم يتناول شايًا أسود قبل التوجه للخارج. يقوم بجولة قصيرة داخل إيوس، محاولًا ألا يتعد كثيرًا لأنه يخشى أن يضيع من جديد... ثم يتوقف عند Coco Glacier ويستمتع بالآيس كريم الخاص به وهو يراقب المارة. تضع جوانا مرفقيها فوق منضدة المحاسبة، وذقنها بين يديها، ويتحدثان حول أي شيء، عن العاصفة القادمة، والتقدم الذي يُظهره بوك، وما يفضلانه من نكهات الثلجات. لقد اختبر إميل عشرًا منها الآن، لكن تصنيفه لها يتغير باستمرار. فبعد أن كانت نكهة زهر البيلسان تتصدر القائمة، حلت محلها نكهة الأناناس بالريحان، التي تمت إزاحتها

بدورها من قبل الأيس كريم بنكهة الفول السوداني. فيما بقيت جوانا ثابتة أكثر وبسيطة للغاية. نكهتها المفضلة هي التفاح. وبقي إميل يسخر منها دائمًا.

«تحملتِ عناء العمل هنا، مع كل هذه النكهات، لتقفي عند آيس كريم التفاح!»

رفعت جوانا عينيها إلى السماء، ولم ترد.

في المساء يجتمعان في الشقة ويتناولان العشاء وهما يستمعان إلى الراديو. إنها يبدوان مثل زوجين مسنين، ولكن هذا يناسبهما.

«لقد اكتسبتُ وزنًا، أليس كذلك؟»

كان إميل واقفًا أمام المرأة، وجوانا أمامه مباشرة، تنظف أسنانها بمنحنية فوق المغسلة.

«ماذا؟» قالت وفمها ممتلئ بالرغوة.

«لقد اكتسبت وزنًا.»

هزت كتفيها على نحوٍ لا يبشر بخير.

«عليّ التوقف عن تناول الآيس كريم... أو العودة إلى الرياضة.»

لم يرها وهي تحاول احتواء ابتسامتها. راح يفكر وهو ينظر إلى ذقنه التي استدارت، وخديه اللذين انتفخا، والزوائد الدهنية التي بدأت بالظهور في جانبي جذعه.

«نعم. قد تكون فكرة جيدة أن أمارس بعض التمارين الرياضية... يمكنني أن أقوم هنا ببعض تمارين الضغط وتمارين عضلات البطن.»

«سيكون الأمر أفضل عندما نستأنف السير.» قالت.

لم يتكلما قط عن موعد استئناف الطريق، وبقي الأمر غامضًا وبعيدًا، وذلك لأنها لا يريدان المغادرة على الفور، أو لأن جوانا في الأقل لا تريد ذلك. لقد أصبحت أخف من أي وقتٍ مضى منذ أن بدأت تبيع الآيس كريم.

«سأبدأ بممارسة الرياضة من جديد... لكن كان عليك أن تخبريني بأنني سَمِنتُ...»

هذه المرة، ابتسمت جوانا بشكلٍ حقيقي. لم تعد قادرة على التراجع.

«ماذا هناك؟» سأل إميل.

اندفعتُ خارجةً من الحمام. صرخ مخاطبًا إياها:

«أنت تعتقدين أننا نبدو مثل زوجين متقاعدین، أليس كذلك؟»

لحق بها إلى الغرفة الرئيسية حيث كانت تبحث عن قبعاتها السوداء.

«بلى! يُفترض أن يزداد وزننا عندما نتزوج، أليس كذلك؟»

«ربها.»

«زواجنا ناجح إذا.»

وجدت قبعتها، وضعتها على رأسها والتقطت حقيبة كتفها.

«فكر في أخذ بوك في نزهة خارج البيت، إنه لا يكف عن المواء على حافة

النافذة.» قالت.

«سأفعل يا عزيزتي.»

عبست، مما جعله يبتسم أكثر.

«أراك لاحقًا... في موعد الوجبة الخفيفة.» قال وهو يتبعها نحو الدرج.

ظننتُ أنك ستوقف عن تناول الآيس كريم.

«قلتُ إنني سأعود لممارسة الرياضة.»

«آه... إذا ستواظب على الآيس كريم...»

«نعم. لا تغييرات كبيرة في وقتٍ واحد.»

قلبت عينيها نحو السماء في استسلام.

توالت الأيام متشابهة، مع بعض اللمسات الجديدة من وقتٍ لآخر. نزهة في الأدغال مع جوانا يوم الأحد. عشاء في منزل آني وزوجها، بصحبة ميرتيل. لقد بدأ شهر سبتمبر بالفعل. وأصبحت الأيام أقصر. بدأت الشوارع تفرغ من الناس. وباتت الحرارة ألطف. استُبدل الضوء الشاحب بضوءٍ برتقالي جميل. بدأت الأشجار تفقد بعض أوراقها في بطاء. أصبح بوك أكثر استقلالية. وبدأت المعارك تنشب بينه وبين كاناي.

«مرحبًا! هل أنت نائم؟»

كان إميل مستلقيًا على الأريكة، نصف نائم. رفع رأسه فجأة، بشيء من الخجل، وأجاب:

«لا... كنت أغمض عيني فحسب.»

كانت جوانا قد عادت لتوها من العمل. وضعت حقيبتها على طاولة القهوة وعبثت بشعرها المبلل بالمطر. من الواضح أن المطر ما زال يهطل...

«كيف كان يومك؟» سألت.

«لا بأس، وماذا عنك؟»

«طلبت مني كورين ألا أعود ثانية.»

«ماذا؟»

لم يكن واثقًا أنه سمع جيدًا ما قالته، لكن جوانا أكدت بهزة من رأسها. «لم يعد هناك الكثير من الناس في إيوس، ولا الكثير من الزبائن. وبإمكانها تدبر الأمور بنفسها.»

«آه...»

شعر بخيبة في صوتها.

«سوف تفتقدين هذا...»

«في كل الأحوال، سيحين وقت المغادرة، أليس كذلك؟»

استعادت هيبتها الأكثر حيادية وراحت تنظر إليه نظرة تقصص. كان يتحرق شوقًا لاستئناف الطريق، ولكنه لا يريد أن يؤثر عليها، أو يفرض عليها شيئًا. إنه ليس بمفرده في الرحلة، وهذا هو الثمن الذي يتعين دفعه. تهرب من السؤال:

«لا أدري... وأنت هل تريد المغادرة؟»

«أمورنا بخير هنا... لكن الشتاء على الأبواب... ثم سيصبح الجو أبرد من أن نستأنف السير. ما قولك؟»

«صحيح.»

«ثم إنني شعرت أنك بدأت تمل هنا...»

فوجئ بأنها لاحظت ذلك. بذل أقصى ما يستطيع كيلا يسمح بظهور ضجره وقلة حماسه. لم يشأ أن يفسد مزاجها الجيد.

«لا... لنقل إن المسألة هي...»

«قلها. أنا أيضًا أرغب في استئناف الرحلة.»

ابتسم لها مرتاحًا لما بينهما من توافق. شعر بالاطمئنان. لقد صمنا لفترة عن الأمر، وضاع كل منهما في أفكاره.

«سيتعين أن نخبر ميرتيل بذلك...»

30 سبتمبر، الساعة 23

6 كاريرودل ماسادور، إيوس

يا إلهي! كم أنا مرتاح للرحيل من هنا! لم أشأ أن أظهر ذلك كثيرًا لـ جوانا، لكنني كنت أشعر أنني أدفن نفسي حيًا! لقد خلّث إيوس كليًا من الناس، وأقفرت أزقتها. المطر ينهش معنوياتي ولم أعد أطيق البقاء، طوال اليوم، حبيس غرفة تبلغ مساحتها ثلاثين مترًا مربعًا. أعلم أنني أتحمل نصيبي من المسؤولية في كل هذا، لكنني أعلم أن العودة إلى الحركة والفعل، ستحقق لي أعظم فائدة. أتصور أن الحد من هذا النوع من المرض، يتطلب تحفيزًا مستمرًا.

لهذا السبب ينتهي الأمر بكبار السن إلى الضعف والهزال في دور رعاية المسنين. لا يعود لديهم تحفيز، ولا شيء يمنحهم الدافع للبقاء على قيد الحياة. هذا ما كان سيحدث هنا. رغم ميرتيل وآني، رغم جوانا. كانت الحياة اليومية ستبتلعني. سوف نفتقد ميرتيل وآني لكننا لا نستطيع البقاء إلى الأبد. تلك كانت القاعدة، وعرفناها منذ بداية انتقالنا إلى هنا. من كان يظن أساسًا أننا سنبقى كل ذلك الوقت؟

عادت الشمس إلى إيوس. قاما بإخلاء الشقة من أغراضهما الشخصية. أرادت ميرتيل بأي ثمن مساعدتهما في حزم أشياءهما، لكنهما أصرا على الرفض. «كدنا ننتهي يا ميرتيل».

ساعداها على نزول الدرجات الصغيرة المؤدية إلى الفناء الداخلي، وجلست تحت شجرة الدلب، متدثرة بشاها. كان الطقس لطيفًا لكن الهواء أصبح أكثر برودة في هذه الفترة، ومالت أوراق الشجرة إلى الاحمرار.

أصرت ميرتيل وآني على إقامة حفل وداع صغير لهما. سوف يقام هذا المساء، هنا. تكفلت آني وزوجها بدعوة بعض الأصدقاء من القرية، مثل كورين، وبعض الأشخاص الذين أنجز لهم إميل بعض الأعمال الصغيرة خلال الصيف. طلبا من الجميع أن يحضر كل منهم طبقًا صغيرًا وزجاجة مشروب.

«مشوار أخير إلى عربة التخميم وينتهي الأمر» أعلن إميل، وهو يدخل رأسه عبر الباب الزجاجي لشقة ميرتيل.

لقد قطعنا المسافة خمس مرات ذهابًا وإيابًا نحو عربتهما. كانت رائحة السيارة عفنة، لكن إميل كان سعيدًا بالعودة إلى عجلة القيادة وعلبة السرعة وفراش النوم تحت السقف. وهذا يعني استمرار المغامرة، وبعض التجديد.

«سوف تأخذان لعبتي سكرابل معكما... وكذلك الـ مونوبولي» أضافت ميرتيل.

«أنا لا ألعبهما أبدًا. ستكونان مثل تذكاري صغير لكما».

ابتسم إميل وأشار إلى بوك الذي يتمطي تحت شجرة الدلب.

«سيكون لدينا منكم ذكرى صغيرة أخرى».

كان المدعوون القلائل في حفل الوداع متجمعين في الفناء الداخلي الصغير لمنزل ميرتيل. علقت آني عددًا من الفوانيس على أغصان شجرة الدلب. لقد حلّ الخريف حقًا، وأصبح الجو باردًا في الخارج والجميع يرتدون سترات صوفية. تخلت جوانا نهائيًا عن قبعتها، لكنها، في أمسية الوداع هذه، علقت مشط ميرتيل العتيق في شعرها، إرضاء لها. تم الاستئثار بإميل من قبل أحد أصدقاء آني، وهو

رجلٌ وظَّفَ إميل في منزله مرتين أو ثلاث خلال الصيف للقيام بأعمالٍ صغيرة. سأل عن وجهتهما ولم يمتلك إميل أي إجابة.

«سنرى... سنقود بشكلٍ عشوائي...»

قبل أن يستقرا في إيوس، كانا دومًا يتدارسان حول وجهتهما القادمة قبل المغادرة. ولكن ليس هذه المرة. واجه إميل صعوبة كبيرة في العودة إلى دليل جبال البيرينيه، كما لو أن الخدر قد أصاب دماغه. ارتأت جوانا أن بإمكانها القيادة عشوائيًا والتوقف كلما أعجبتها بقعة ماء، وراقت له الفكرة جدًّا.

كان الرجل يعرف المنطقة جيدًا، وأصر أن يوصيه ببعض القرى الصغيرة الساحرة. انتقى إميل قريةً تُدعى كاستيل.

كان الجميع قد تجاوبوا مع طلب آني وأعدَّ كلُّ منهم طبقًا احتفاليًّا حقيقيًّا. شعر بالخرج من كل هذا الاهتمام. وفكَّر أنها قبل شهرين، لم يكونا يعرفان أحد هؤلاء الأشخاص، وها هم، هذا المساء، يقدمون لهما عربون مودة حقيقية. كانت إقامتهما هنا استراحة قصيرة ولكنها استراحة لطيفة.

«هل رأيتَ جوانا؟»

اعترضت ميرتيل لتوها إميل وهو يستعد للقاء كأسه على الطاولة تحت شجرة الدلب.

«جوانا؟»

«نعم، جوانا... زوجتك.» أجابت العجوز وهي تنظر إليه في ارتياب.

كان سماعه لهذه الكلمة ذا تأثير رهيب عليه دومًا.

«أنت سكران أيها الشاب.» أضافت وهي تضيق عينيها.

«إطلاقًا.»

«وهذان الخدَّان الأحمران!»

لم يستطع إلا أن يبتسم، ولا يدري إن كان سكرانًا أم لا، لكنه الآن يشعر بالحر الشديد. استأثر به زوجُ آني لمدة ساعة كاملة للحديث في المعلوماتية، وشربا دون أن يتبها لذلك، دون تناول أي طعامٍ مغدًّا إلى جانب المشروب.

«مر وقت منذ أن لمحتُ جوانا. هل يمكنك النظر إذا كانت في الأعلى أم لا؟»
أوما برأسه، وترك كأسه على الطاولة.
«نعم بالطبع.»

لا شك أن ميرتيل كانت محقة بأنه سكران. فقد أخذ يترنح وهو يصعد الدرج.
«جوانا! جوانا!»
لم تكن في الشقة. وحده بوك موجود هناك، ينام عميقًا فوق الأريكة البيضاء،
في الظلام.
«جوانا!»

نظر في غرفة ميرتيل، التي تفتح على الردهة، وفي الحمام. لا أحد. كان على
وشك العودة إلى الفناء الداخلي عندما فُكر أنها ربما تكون في الزقاق، أمام المنزل.
ربما رغبت في بعض الهدوء. كاد يتعثر عندما دفع الباب الأمامي ووجد نفسه أمام
كومة سوداء صغيرة. كانت جوانا تجلس على درج البيت الخارجي. وبجانبيها طبق
ورقي مملوء بالفاكهة وشريحة من الكاتو الكريمي.
«ما الذي تفعلينه هنا؟»

أغلق الباب وجلس بجانبها على الدرج.

«هل تتأملين وأنت في كامل يقظتك؟»
تكلم بنبرة تهكم لمناكدتها قليلًا، لكنها أجابت بجدية:
«نعم.»

«أوه.... قلتُ ذلك على سبيل المزاح فقط.»

وجد صعوبة في رؤية وجهها في الظلام. وحده مُشطها كان يضيء تحت الهلال
الرقيق، فيما بقيت ملامحها في الظل.

«أردت أن أنعزل قليلًا لأستمتع بالحفل... بما أنها الليلة الأخيرة.»
بذل مجهودًا كيلا يبدو ساخرًا أو غير مصدق.
«كي تستمتعي...»

«نعم.»

«بمفردك... هنا؟ بدلاً من هناك؟»

أومات.

«ما الذي يفاجئك؟ هل يجب أن نكون وسط الضوضاء والصخب حتى نستفيد منهما بشكل كامل؟»

شعر بالغباء وتلعثم برّد غير مفهوم.

«حسنًا... لا أعرف... أتخيل ذلك...»

انتفض جسدها قليلاً بحركة تشنج لا إرادية تدل على الانزعاج.

«أصغ.»

امتثل لطلبها. كانت أصوات المدعوين تتردد. سمع ضحكةً بوضوح، صوت رجل، صوت الكؤوس التي توضع على الطاولة. يمكن تمييز صوت ميرتيل، من بين كل الأصوات الأخرى:

«اترك غصن الشجرة هذا وشأنه يا دومينيك! ستكسره!»

سُمع احتجاج، تلاه:

«لا تعنيني الفوانيس! ما يعنيني هو شجرة الدلب!»

ابتسم كلاهما في الظلام.

«أرأيت؟ إننا نسمعهم بشكل أفضل مما لو كنا هناك.» همست جوانا.

نظر إلى الطبق الورقي بجانبها ومن جديد ابتسم مستطرقاً.

«وهل ينطبق الأمر على هذا؟ هل يمنعك الضجيج من تذوّق الكاتو؟»

حافظت على نبرة هادئة وواثقة تمامًا.

«نعم. سوف تتفاجأ إلى أي درجة يصبح مذاق الأشياء أفضل عندما نتذوقها

ببقعة كاملة.»

امتنع عن أي تعليق خشية أن يظهر مرة أخرى مثل أحق خالٍ من الروحانية. الأمر الذي قد يكون حقيقياً... إلا أنه لم يتوقع أن تؤكد جوانا بصوت شبه حماسي.

«هنا، أستطيع أن أنظر إلى قطعة الكاتو. نحن لا ننظر حقاً إلى ما نأكله. أستطيع

أن أمضي عدة دقائق في النظر إليها، أحاول تخمين نكهتها، وقوامها في الفم، وما إذا كانت الطبقة المكرملة في الأعلى مقرمشة أم ذائبة. ثم أستطيع أن أغمض عيني

وأركز على الرائحة. كما تعلم، عبارة *يسيل اللعاب*... ليست مزحة. يحدث هذا حقًا عندما تنظر وتشم بانتباه، عندما ترسخ الرغبة. أنا أترك جسدي يطالب بهذه الكعكة، ويسيل لعابه لفترة كافية، إلى أن يصبح جاهزًا للتذوق، لأنني أعلم حينها أن كل حواسي ستكون في حالة تأهب.

بات يستمع إليها الآن في اهتمام، لكنه لا يستطيع لجُم عادته الصغيرة. إنه أحمق، هذا هو الحال.

«هل يأتي وقتٌ وتأكلينها؟»

تجاهلت تهكمه تمامًا وواصلت كما لو أنه لم يتكلم.

ثم أحملها إلى فمي وأركز على قوامها فوق لساني، على الطريقة التي يغلفها بها لعابي... أشعر بها تذوب في بطءٍ عند سقف حلقي، أكتشف النكهات الأولى التي تتحرر، حليّات ذوقي التي تستيقظ. يبدو الأمر وكأن فقاعات صغيرة من السعادة تنفجر على اللسان. ثم هناك هذا الشعور بالرفاهية في جميع أنحاء الجسم. كما تعلم، يفرز الدماغ هرمونات السعادة عندما يلتقط وجود السكر. ذكريات الطفولة التي يمكن استعادتها من خلال التقاط رائحة زهر البرتقال أو الشوكولا...

صمتت لثانية من الزمن كما لو أنها تستمتع بالكعكة، وأطلقت تهيدة صغيرة. «ثم أقضمها أخيرًا. وبعد ذلك يصبح الأمر أشبه بانفجارٍ كبير... نشوة. مسك الختام.»

كان مستمتعًا بسماحها تتحدث بهذه الطريقة الحسية للغاية. بالكاد استطاع أن يكبح الابتسامة الفجة التي ظهرت على شفتيه.

«هل يحدث كل هذا عندما نأكل؟»

أومات بالإيجاب. خيل له أنه لمح ابتسامة على وجهها أيضًا.

«نعم. يحدث كل هذا عندما نأكل. وأيضًا عندما نتنفس، وعندما نمشي، وعندما ننام... يكفي أن نكون متبهين.»

أوما برأسه وعندما حاول البلع، تبين له أن في حلقه غصة هائلة. شعر فجأة بالثقل والخرق. أدرك أنه مجرد رجل مخرج تمامًا. رجل دون العادي لا يفهم شيئًا. رجل لم يسبق له أن خصص دفترًا لتدوين انطباعاته قط، ولم يتمكن قط من فهم عمق اقتباسٍ أو الاستمتاع بقطعة كاتو بيقظةٍ كاملة. أما هي فقد تعلمت كيف

تعيش. علّمها والدها. لهذا السبب كل شيء شاعري في رأسها، كل شيء جميل وبسيط للغاية.

راح ينظر إليها وهي جالسة في هدوء فوق الدرج الخارجي الصغير للبيت، وعيناها متجهتان نحو السماء. رأى نفسه مجدداً بجانبها، قبل ثوانٍ قليلة، بابتسامته الغبية لصبيٍّ غير ناضج، وهي تتحدث عن النشوة، وتساءل عما تفعله مع رجلٍ مثله الليلة، ولماذا تأخذ الوقت لمشاركته هذه اللحظة. كان بإمكانها ببساطة أن تخبره بأنها في حاجةٍ إلى بعض الهدوء والسكينة، كي ينصرف مخموراً قليلاً، عائداً إلى الفناء الداخلي، ليستأنف نقاشاً فارغاً مع أحد الضيوف. لماذا تضيع وقتها عليه؟ لا بد أن ليون كان مختلفاً، يقرأ الكتب، وينسخ الاقتباسات، ويحفظ الكثير من أنواع الزهور غيباً، ويعرف كيفية صنع منقوع نبات القراص. ربما كان يرسم، ويغمض عينيه على نغمات الجاز وينقر على ملامس بيانو متخيل، وربما يجيد العزف على البيانو. كان بالضرورة شخصاً جديراً بها.

هبت عبر الزقاق رياح منعشة وظلا صامتين يسرح كلٌ منهما في أفكاره. وهل كان هو جديراً بالفتيات اللواتي التقاهن؟ هل كان جديراً بلورا؟

ربما كان كذلك. لم يكن سوى فتيات عاديات، يتظاهرن بفيضٍ من الثقة بأنفسهن، ويضحكن بصوتٍ عالٍ ليظهرن للعالم أجمع أنهن سعيدات. فتيات يخرجن للرقص دون أن يشعرن بذبذبات الأصوات في أجسادهن، ويكتفين بالتمايل ومراقبة نظرات الرغبة أو الحسد التي يمكن أن يُثرنها، على حلبة الرقص. لا يذهبن إلى هناك من أجل الحضور، في اللحظة الحالية. بل من أجل إثارة الإعجاب، من أجل إشباع غرورهن، ونسيان يوم سيئ، والبحث عن الراحة في نظرة شخصٍ ما، من أجل أن يشئن لأنفسهن أنهن ما زلن في مستقبل أعمارهن. كنّ خرقاوات مثله ولكن ما لديهن من جمالٍ وسطوة كان كافياً لجعله ينسى ذلك.

نهض إميل قليلاً. لم يكن يعرف سبب شعوره بالغباء والحزن في تلك اللحظة. لا شك أنه الكحول الذي شربه. الكحول وكلمات جوانا... هياً نفسه كي ينهض ويسألها: «هل تريدان أن أتركك بمفردك؟» لكنها عاجلته وتكلمت قبله:

«انظر إلى السماء. لا يمكن رؤيتها من الفناء. شجرة الدلب تحجبها. ومن هنا نستطيع رؤيتها. نادرًا ما يكون القمر بهذه الصورة.»
كان إصبعها ممدودًا نحو القبة السماوية التي تضيئها آلاف النجوم الصغيرة. لم يكن القمر سوى هلال فسفوري نحيل يتوسط هذه الزرقة العميقة. أو ما إميل برأسه وتنحنح.

«أزرق جميل.»

كان يعلم أن جوانا قد فهمت إلى أين يريد الوصول، لكنه أضاف مع ذلك:
«هل تعتقدين أنه يراقب السماء في هذه اللحظة؟»
أومات بالإيجاب.

«أنا متأكدة من ذلك. ما كان ليدع مثل هذا المشهد يفوته.»
أسند مرفقيه إلى ركبتيه ووضع ذقنه بين يديه.

«ما الذي كان يفضله من هذا كله برأيك؟ الأزرق العميق؟ إنه عميق إلى درجة يمكن معها أن يكون أسود. إلا أنه يبقى أزرق. إنه حقًا أزرق فريد. أعتقدين أن هذا ما كان يحيره؟»
فكرت لبضع لحظات.

«نعم... هناك شيء من هذا. من المؤكد أننا لا نعثر على هذا الأزرق في أي مكان آخر. لكن هناك أشياء أخرى. كان يرسم أيضًا التدرجات داخل الأزرق. التباينات. الخطوط، التجاويف، التجاعيد، الوميض...»
مرت ثواني قبل أن يعود إميل للكلام.

«قلت إنه لم يعرف أحد إن كان يرسم السماء أم البحر؟»

«نعم، صحيح. أعتقد أنه كان يرسم كليهما معًا. لم يكن يوجد بالنسبة له فارق كبير بين السماء والبحر. الشيء الذي كان مهمًا هو الأزرق، والتدرجات التي تُستشَف داخل كل هذه الزرقة.»

لبثا صامتتين لحظات طويلة، جنبًا إلى جنب على الدرج الخارجي للمنزل، في الزقاق المقفر، ينظران إلى السماء.
«ربما...»

انتفضت جوانا لسماع صوت إميل. راح يحك أسفل ذقنه.

«ربما لم يكن الأزرق هو ما يحيره...»

نظرت إليه دون أن تفهم.

«كيف ذلك؟»

«ربما لم يكن ما يستحوذ عليه هو اللون ذاته أو تدرجاته ذاتها... بل الاتساع

الهائل والعمق الذي يعكسه.»

لبثت جوانا عدة ثوانٍ وهي في حالة عدم تصديق، حتى سألت نفسه عما إذا كان

قد قال شيئاً ينبغي ألا يقوله أم لا. تكلمت أخيراً بصوتٍ مبحوح:

«هل تعتقد أنه كان يحاول إعادة إنتاج الاتساع على أوراق رسمه؟»

بدت مذهولة تماماً، كما لو أنها لم تفكر في الأمر قط. هز إميل كتفيه.

«هذا هو الشيء المشترك بين السماء والماء، أليس كذلك؟»

بدت كأنها تجد صعوبة في البلع.

«يا إلهي... طوال تلك السنين وأنا أعتقد أنه كان مهووساً باللون الأزرق...»

هزت رأسها، وشعر أن عينيها قد اغرورقتا بالدموع.

«في الوقت الذي كان يحاول فيه كشف سر الاتساع الهائل، يحاول رسمه، إعادة

إنتاجه.»

بدت جوانا وكأنها كتلة من المشاعر المضطربة. من الغريب رؤيتها هكذا، هي

التي تسيطر دائماً على انفعالاتها وملاحظاتها.

«لقد كان أذكى مما كنت أظن.»

لم يكن إميل يحب رؤيتها مضطربة إلى هذا الحد. أضاف بصوتٍ متردد:

«قلتُ ذلك على سبيل الاحتمال... ربما لم يكن هذا ما كان يرسمه...»

لكنها هزت رأسها بقوة.

«لا... لقد كان الأذكى بين كل الأولاد الصغار الذين عرفتهم.»

لم يجرؤ أن يجيب بشيء. وراح يسأل نفسه عن السبب الذي جعل ذلك الطفل

يبرز مشاعر جوانا بهذا الشكل، وهل كان ذلك لأنها وجدت نفسها فيه، في صمته

وخصوصيته وعالمه الصغير المتوحد والشاعري الذي صنعه لنفسه. لم يجرؤ أن يضيف شيئاً.

«هل تعلميني كيف أذوق قطعة كاتو؟»

لقد جعلها تجلّ عملياً. لا بد أنها، مع مرور الدقائق، سرحت في تأمل السماء، ونسيت حضوره.

«ماذا؟»

«أريد أن تعلميني كيف أذوق هذا الكاتو وأنا بكامل يقظتي.»

«حقاً؟»

بدت متفاجئة بطلبه. تجاوزت انفعالها السابق واستعادت هدوءها وسكيتها. أوماً إميل برأسه.

«نعم.»

«هل أنت جاد؟»

مكتبة

t.me/soramnqraa

«نعم! في عالمك يبدو كل شيء جميلاً.»

هزت كتفها مع تقطية خفيفة في الحاجبين. ردت:

«ليس كل شيء جميلاً في عالمي...»

«بلى. أجهل مما في عالمي على كل حال.»

«كيف يمكنك أن تكون واثقاً بذلك؟»

«أستشف هذا من طريقتك في الكلام.»

هزت كتفها من جديد غير مقتنعة كثيراً.

«أنت تشعرين بأشياء لا أشعر بها. وترين أشياء لا أراها. أودّ أن تعلميني.

الأشياء في عالمي أكثر فجاجة، وأقل ألواناً، وألوانه دون تدرّجات.»

وأضاف بجدية:

«في الأزرق الخاص بي، لا توجد حركات. هناك فقط الأزرق الأساسي. هل

تفهمين ما أعنيه؟»

نجح في انتزاع ابتسامة طفيفة منها.

«أعتقد.»

«أرني، بشأن الكاتو.»

أومات برأسها. ما زالت أصوات المدعوين تملأ، ولفظ أحدهم اسم جوانا. لا بد أنهم يبحثون عنها. ولا بد أن ميرتيل قالت لهم إن إميل قد ذهب لبحث عنها. لم يكن هناك حركة واحدة في الزقاق. أمسكت جوانا الطبق الورقي ووضعتة فوق ركبتيها في بطة، ثم تناولت بطرف أصابعها قطعة من الكاتو.

«هل أغمضت عينيك؟»

امتثل.

«نعم.»

شعر بشيء يقترب من أنفه، وفي الثانية التالية بدأت العطور تداعب منخريه. لم يتعرف إليها جميعاً. شعر، دون ثقة تامة، بنكهة بين السكرية والحامضية. استمر في تنشق العطور. لماذا هو فاشل إلى هذا الحد؟

إنه عاجز عن معرفة النكهات. عاش كل هذه السنين دون أن ينتبه إلى أن لديه حاسة شم هزيلة.

«افتح فمك.» طلبت منه جوانا.

ارتجف عندما لامس إصبع جوانا شفتيه. ثم شعر بالقوام القشدي للكاتو الذي وُضع فوق لسانه. شعر باللعباب في فمه، مثلما وصفته جوانا. لعباب يغمر الكاتو، ويذيبه في هدوء.

«تستطيع إغلاق فمك... خذ وقتك بالكامل.»

شعر بالكاتو يصبح طرياً فوق لسانه، عند سقف حلقه. خطرت في ذهنه كلمات. قشدي، طري. ذائب في الفم. حلوا. ناعم. شعر برغبة في ابتلاعه، لكنه اتبع تعليمات جوانا. جعل سقف حلقه ولسانه يمتلآن بالنكهات. تعرف إلى النكهة الأولى للفانيليا، الأكثر حضوراً. لكن الفانيليا ليست بمفردها. إنها مختلطة ببراعة بنكهة برتقال. أم تُراها ليمون؟

لا، إنها فعلاً برتقال. يذكره هذا بعيد الميلاد، ونيران الخطب، ورائحة شجر التُّوب في غرفة المعيشة، والإحساس بخفي الفراء تحت قدميك، وصوت المفرعات في ورق التغليف. وقبل أن يبدأ بالمضغ لاحظ نكهة قرفة. الجدة أليس!

الجلدة أليس وخبز القرفة. كانت تصنع أرغفة منه لمناسبة الأول من يناير، حتى لقبها هو ومارجوري بـ الجلدة خبز القرفة. تذكر الرائحة في المنزل القديم ذي الأرضية الترابية. واستسلم لأحاسيسه التي أخذته بعيداً، خارج منزل جدته، لأنه الآن يشعر بذوبان الزبدة، ويتركها تتدفق في فمه. ثم لا يعود له قدرة على المقاومة، فيبتلع لقمة الكاتو. يبتلعها بالكامل ويطلق تنهيدة الرضا دون أن يدرك ذلك. الآن، لم يعد في فمه كاتو ولكن العطور لا تزال موجودة في حليته الذوقية. راح يتلذذ بها في بطاء. شعر بالنعيم الذي تحدثت عنه جوانا. هذه النشوة. هذا الصفاء. هذه المتعة. وحق السماء كانت على حق. إنه شيء لا يضاهى. كان مستمتعاً حتى أنه يستصعب فتح عينيه. راح يرصع الهواء كي يلتقط كل رائحة وكل فتات. لم يلاحظ قط أن اللذة تدوم في الفم، بعد فترة طويلة من ابتلاع الطعام، وأن المتعة تستمر.

«ما رأيك؟»

فتح عينيه. راقبته جوانا في اهتمام.
 «إنه أفضل كاتو تناولته في حياتي.» أعلن.
 ارتسمت على وجهها ابتسامة سعيدة.

«كان ذلك... كان نشوة جماع!»

أخذت تضحك وحذا حذوها بخفة سعيدة. انتشرت البهجة الناجمة عن الكعكة في جميع أنحاء جسده. استمر في الضحك مثل طفلين لبضع ثوانٍ. حين استعاد إميل جديته، لم يكن لديه سوى رغبة وحيدة:

«هل تسمحين؟» سأل وهو يشير إلى شريحة الكاتو في طبق جوانا.
 رفعت عينها نحو الأعلى.

«كنت متأكدة أن هذا ما سيحدث. تفضل. هي لك.»

التقط الطبق برغبة شديدة. لقد تمكن من التقدم خطوة في عالمها. خطوة أولى جميلة. كانت ناعمة، حلوة، ذائبة، فيها مسحة من الحامضية. ولكن هذا ليس كل شيء، بل كانت ممتلئة بالمشاعر، والذكريات، والأصوات، والروائح.

انتهى الحفل وانصرف المدعوون. قمنا بمساعدة ميرتيل وآني في تنظيف وترتيب كل شيء. كانت أمسية جميلة. تأثرت لقيامهما بتنظيم كل هذا الحفل لأجلنا، ولمجيء كل أولئك الأشخاص لوداعنا.

عندما أطفأتُ مصباح السرير الصغير كي أنام، كانت اللحظة التي تبادرت إلى ذهني هذا المساء هي تلك التي أمضيتها مع جوانا، على الدرج الخارجي للمنزل. كنتُ قبل ثمانية أشهر أنني ثقيل وأخرق، قبل ثمانية، ثم قلتُ لها شيئاً بخصوص نوم بلو فشعرتُ عندئذٍ أنني أصبحت أقل ثقلًا وخَرَقًا. قلتُ كلماتٍ أثرت فيها. وهذا ما يعجبني بشكلٍ خاص في جوانا. إنها تجعلني أخف وزناً وأكثر روحانية. تحولّني إلى شخصٍ جيد. شخصٍ أفضل. حتى دون أن أريد ذلك.

هناك تلك الأغنية التي كنت أحب أن أدندنها في ذلك الوقت. أغنية باولو نوتيني، (رجل أفضل). والآن أتذكر الكلمات وأنا أكتب.

تلك الفتاة تجعلني أريد أن أكون رجلاً أفضل.

إنها لا تخاف من شيء، إنها حرة.

إنها ممتلئة بالطاقة.

تلك الفتاة جعلتني أشعر بتحسين كبير.

يمكن أن تنطبق هذه الأغنية على جوانا. إنها تناسبها بامتياز.

كانا بمفردهما في منطقة خدمة عربات التخيسم أول شهر أكتوبر، هذا. لقد هجر آخرُ المصطافين الطرقات والمناظر الطبيعية بحثًا عن سقفٍ دافئ وأجهزة تدفئة. بالنسبة لجوانا وإميل، كان هذا هو الوقت المناسب للرحيل من جديد. تجولاً لمدة ساعة في القرى المحيطة بإيوس للعثور على منطقة خدمة. كان بوك يقبع في هدوءٍ على المقعد في الطابق السفلي، وجوانا ملتزمة بمعطفٍ أسود كبير. بدأت مسألة التدفئة تطرح نفسها.

«مدفأة غاز؟» اقترحت جوانا في خجل.

كانا ممسكين بخزان المياه، الذي يتم ملؤه في بئرٍ، وكانت رياح باردة تعصف بهما. «نعم... بهذه الطريقة، حتى لو لم يكن لدينا توصيل كهربائي، فلن نموت من البرد.»

اتفقا ألا يمضيا فصل الشتاء في هذه العربة. سيمضيان فيها جزءاً من الخريف فقط. عندما تشتد برودة الجو، سيقمان مع السكان المحليين. ومن المحتمل أيضًا أن يمضيا بعض الوقت في منزل ميرتيل. لقد أصرت على ذلك بشدة عند توديعهما. كانت نظرة عينيها الزرقاوين، نظرة قاسية، كأنها كيلا تكشف عن الحزن الذي هيمن عليها.

«أنا أعول عليكما كي تأتيا لزيارتي في عيد الميلاد.»

تركت لها جوانا رقم هاتفها وأخذت رقمها. وغادرا المنزل وهما يلوحان لها. كان بوك بين ذراعي جوانا، وكاناي تراقب ما يجري وهي متكورة على نفسها. أخذوا يفرغان خزان المرحاض الكيميائي. إنه ليس الشيء الأكثر متعة. «سيلزنا قنينة غاز جديدة للموقد... وبعض التسوق...»

«هل نقوم بذلك عصر اليوم؟»

سيصبحان بعدها جاهزين لاستئناف المغامرة.

بعد قضاء نهار في محال السوبر ماركت في براديس، استأنفا الطريق محملين أكثر مما كانا عليه. الثلاجة ممتلئة. تم شراء صندوق صغير لفضلات بوك إضافة إلى حوالي عشرة أكياس من طعام القطط والرمل الخاص بالفضلات مقدماً. أصرت جوانا أن تجلب له سلة صغيرة حتى ينام محاطاً بالدفء. قاما بشراء مشعّ محمول للتدفئة، وزجاجات غاز. هذه المرة أصبحا مجهزين لعدة أسابيع.

استأنفا الطريق عندما أشارت لوحة القيادة إلى الرابعة بعد الظهر. لم يكن لديهما فكرة إلى أين سيذهبان. كان إميل ينوي إجمالاً العودة في اتجاه جبال البيرينيه الكاتالونية لأنها ابتعدا عنها بذهابهما إلى إيوس. لكنه مع ذلك التفت نحو جوانا للحصول على موافقتها.

«هل نعود في اتجاه البيرينيه الكاتالونية؟»

بَسَطَت الخارطة الكبيرة فوق حجرها، ولم تجبه على الفور في أثناء تركيزها.
«جوانا؟»

«نعم.»

رفعت رأسها نحوه ولم تدعه يتكلم. أشارت بإصبعها إلى نقطة على الخارطة.
«انظر. نحن هنا.»

أشارت إلى بُرَاد، المدينة التي قاما فيها بالتسوق.

«نحن قريبان جداً من البحر.»

حركت إصبعها إلى ساحل البحر الأبيض المتوسط حيث توجد نقطتان صغيرتان تتوافقان مع مدينتي أرجيلية سور مير وكوليور.

«نعم بالفعل. لقد ابتعدنا شرقاً مسافة ليست بالقليلة.»

بقيت صامته للحظة، وهي تتتبع بطرف إصبعها طريق بُرَاد - أرجيلية - سور مير.

«يمكننا...»

رفعت رأسها نحوه وهي تنظر إليه في توجس.

«هل يمكننا أن نسلك طريقاً بحرياً؟» وتضيف على عجل:

«لم أَرَقْط سوى بحر المانش.»

فكّر أنه لم يتوقع شيئاً مما حدث له. شابة صغيرة ذات نظرة غائبة، غير مبالية بمصيرها، تصعد إلى هذه العربة، وعندما قال لها: «بشأن مسار الرحلة... لم نتفق.» هزت كتفها وأجابت: «هذا غير مهم بالنسبة لي.»

لقد جمده هذا الجواب من الخوف. اليوم، تستغرق هذه الفتاة نفسها في قراءة الخريطة، وترغب في رؤية البحر. شيء رائع. إنه لا يعرف إذا كان هو وراء هذا التحول أم لا، وإن كان هو من استطاع أن يعيد لها قليلاً من حب الحياة، أم أنها ميرتيل، والجبال، وبوك، وأبراج الكنائس القديمة، والشوارع المرصوفة بالحصى... «طبعاً.»

بدت مسرورة، ثم طوت الخارطة ووضعتها فوق ركبتها.
«نسير إلى الأمام إذا؟»

«نعم.»

ابتسمت وهي تنظر إلى الطريق.

توقفا عند محطة خدمة بالقرب من برينيان للترود بالوقود. اختفت جوانا في المرحاض. تمت عملية تعبئة الوقود ولم تعد جوانا بعد. لذلك ذهب إميل إلى داخل المحطة لشراء القهوة. لقد بلغت الساعة الخامسة مساءً ومضى اليوم سريعاً. ربما سيكون الوقت ليلاً عند وصولهما إلى الساحل.

اقترب من ماكينة القهوة، ومد يده في جيب بنطاله الجينز، بحثاً عن الفكة. فور إدخال العملات المعدنية في الموزع وتدفق قهوته في الكوب، رفع رأسه حين مَيَّز صوت جوانا. كانت على بعد ثلاثة أمتارٍ منه بصحبة رجل. في البداية، شعر بثقل في معدته، لأن أول ما فكر فيه هو: إنه ليون الأمر واضح بالنسبة له. لا يمكن أن يكون سوى ليون. لقد وجدها. كيف استطاع ذلك؟

«أيها السيد.» قالت سيدة مخاطبةً إياه بشيء من نفاذ الصبر.

«هل انتهيت من ماكينة القهوة؟»

تمالك نفسه وتناول فنجان قهوته مدممًا:

«نعم، نعم... آسف.»

خطا بضع خطواتٍ متناقلة محاولاً الاستماع إلى ما يقوله كلٌّ من جوانا والرجل،
للآخر. كانت رثاه لا تزالان مضغوطتين، وهو يفكر: ماذا سيحدث الآن؟
هل ستهرب معه؟

قال الرجل وهو يهز رأسه: «لا، ليس فيها شيء أصيل.»
«حقاً؟»

«أبدًا. إنها سياحية بالفعل. للعثور على قرى صيادين أصلية، أقترح عليك
الذهاب إلى أبعد من ذلك.»

كاد إميل أن يسقط فنجان قهوته عندما أدرك أن الرجل لم يكن ليون بل إنه
شخص غريب تمامًا قام، لسبب ما، بفتح محادثة مع جوانا.

«إذا عدت في اتجاه ناربون، ستجدين منظومة ضخمة من البرك الشاطئية، على
حافة المتوسط. ستجدين حول هذه البرك قرى صغيرة ساحرة. بيرياك دو مير،
باجيس، جرويسان... هذه هي التي أعرفها بشكل أفضل.»

دفع الرجل نظارته إلى أعلى أنفه وانتهز إميل الفرصة لمراقبته دون أن يراه
أحد. كان رجلًا في الثلاثينيات من عمره، وربما أكبر قليلًا. أربعة وثلاثون، خمسة
وثلاثون. رجل مهووس قليلًا، بمظهر معلم مدرسة: سروال قصير بييج من
المخمل المضلع، وسترة بشعة على شكل حرف V باللون الأخضر الزيتوني تبرز
منها ياقة قميص أبيض، ونظارة مستديرة، ومفرق شعر في المنتصف تمامًا.
راحت جوانا تشكره على المعلومات.

«هذا لطف منك.»

«العفو. ليس الجميع يحبون الشواطئ البيتونية!»

ضحكا، وتساءل إميل فجأة عما إذا كان الرجل يغازل جوانا أم لا. خنق
ضحكة ساخرة خلف كأسه. المسكينة جوانا! مثل هذا المتخلف! ثم أدرك أنه لثيم
بلا مسوغ. ولكن كان ينبغي لهذا الرجل أن يرى خاتم الزواج في إصبع جوانا!
هذا إذا كانت لا تزال ترتديه... حديق مضيقًا عينيه كي يرى الخاتم الفضي، وأدرك
أنه ليس في إصبعها. إنها ترتديه أحيانًا، وأحيانًا أخرى لا تفعل. حسب مزاجها أو
نسيانها له على حافة الحوض. أما هو فلم يكن يخلعه. لأنه ربما يفقده إلى الأبد، في

أي وقت، نظرًا للحالة الراهنة لذاكرته. وهو يشكّل ذكرى بالنسبة لهما. وحين يراه في إصبعه يتذكر الاتفاق الذي قام بينهما، فيشعر بالاطمئنان.

حاول ابتلاع قهوته الساخنة بأسرع ما يمكن لأن الرجل على وشك مغادرة جوانا. كانا لا يزالان يتبادلان بعض الكلمات والابتسامات الغبية إلى حدّ ما، ثم ابتعد الرجل وهو يضع نظارته المستديرة فوق أنفه. خرجت جوانا من المبنى دون أن تراه، وأسرع الخطى كي يلحق بها.

«جوانا!»

استدارت متفاجئة. ألقي كوبه في سلة المهملات في ساحة انتظار العربات وتقدم نحوها. سأل نفسه عما إن كانت ستخبره عن هذا الرجل أم لا، وإذا لم تفعل، كيف ستقترح فكرة التوجه شمالًا نحو ناربون. حاول إخفاء ابتسامته ساخرة ترسم على وجهه.

«هل ننطلق؟» قال، وهو يفتح باب عربة التخييم.

صعدت في صمتٍ من جانب الراكب. شغل المحرك بينما راحت تتحرك في مقعدها. سوف تأتي على ذكر الموضوع...

«لقد أخبرني أحدهم عن مكاني جميل.» قالت.

«على شاطئ المتوسط... مجموعة من البرك تحيط بها قرى صيد نموذجية.»

لم تكن نظرتها مواربة بشكلٍ خاص لكنه لاحظ استخدام (أحدهم) لتجنب قول إنها تقاربت مع رجل. هل هي محرّجة؟

في بعض الأحيان تبدو حقًا مثل فتاة صغيرة.

أخذت العربة تطوي كيلومترات الطريق نحو البحيرات، وبدأت السماء تظلم. قامت جوانا بتشغيل الراديو. بدا أنها تغفو على النافذة. لم يستطع إلا أن يطرح على نفسه سؤالًا عن سبب عدم ذكرها للرجل ذي النظارة. ثم سؤالًا عجيبًا، بعد مسافة على الطريق، إن كان الرجل قد حاز على إعجابها أم لا. تذكر سرّوالة القبيح من المخمل المضلع، وكثرته ذات اللون الزيتوني والياقة التي على شكل حرف V... أي قبح...

«جوانا؟»

أجلست رأسها في هدوء، تاركة أثر ضبابٍ على الزجاج.
«هل اقتربنا؟» سألت بصوتٍ ضعيف.

«نعم، اقتربنا. إلى أي مدينة نتجه؟»

تفحصت لافتات الطريق. هذه المرة حل الظلام في الخارج. بلغت الساعة السابعة.

«بيرياك دي مير... لقد أخبرني هو بذلك. يمكنك اتباع هذا الاتجاه.»

«لقد أفلتت منها كلمة (هو). في أعماقها، هل كانت تحاول حقًا إخفاء هذه

المناقشة المبتذلة مع الغريب؟ أليس هو من يضخم الأمر؟»

«جوانا؟»

«نعم.»

كانت تنقضي المناظر المحيطة حيث لا يرى الكثير في الليل الذي يخيم.

«ما العمل الذي كان يمارسه ليون؟»

كان صوتها متوترًا للغاية وهي تجيب:

«لماذا؟»

لم يستطع رؤية وجهها في العتمة الشديدة.

«حسنًا... كنت أتساءل عما إذا تعرفتِ إليه في المدرسة التي كنتِ تعملين فيها

أم لا.»

تنحنحت وغاصت في مقعدها.

«نعم، هو كذلك. كان أستاذًا في المدرسة.»

بذل جهدًا خارقًا لإخفاء الابتسامة الساخرة على شفتيه. شعر بالضحكة

تتصاعد في صدره لكنه سعل كي يطردها. حاول التركيز على الطريق لكنه لم

يستطع منع نفسه من استنتاج: هذا هو... إنها تحب أساتذة المدارس بالسراويل

المخمليّة المضلعة ومفرق الشعر في منتصف الرأس.

سيتمين عليه الحذر. اقتربت عطلة عيد جميع القديسين... وإذا لم يكن حذرًا،

فإنها قد تتخلّى عنه في منطقة استراحة على الطريق السريع، من أجل أستاذ مدرسة

يمضي العطلة المدرسية. لم يستطع هذه المرة، أن يجبس ضحكته. لحسن الحظ أن جوانا غفت من جديد على زجاج النافذة.

عندما اقتربا من بيريك دي مير كان الظلام قد اشتد فلم يتمكنوا من الاستمتاع بالمنظر. لكنهما تمكنا من رؤية المدينة عن بعد بفضل أضوائها وبحيرات المياه المالحة الممتدة إلى يمينها على طول الطريق. إلى جانب الطريق في اتجاه العمق، رأى إميل بقعة صغيرة مستطيلة، وضعت فوقها طاولتا نزهة.

«يمكننا التوقف هنا لفترة الليل؟» اقترح.

أومات جوانا موافقةً.

«ثم نذهب صباحًا لاكتشاف المدينة.»

«هذا مناسب.»

أوقف العربة فوق البقعة وأطفأ المحرك. فتحت جوانا بابها وانتشرت رائحة مياه مالحة في المقصورة بأكملها. رائحة بحر. تذكر الكوخ الذي كان والداه يستأجرانه كل صيف، غير بعيد عن فالراس - بلاج. كان هو ومارجوري ينمان في سرير بطابقين. لقد مر وقت طويل منذ أن رأى البحر، عامان تقريبًا. إنها ليست بالفترة الطويلة لكنها تبدو له كأنها دهر. لقد كانت لورا هي من تحب ارتجال رحلات إلى شاطئ البحر في عطلة نهاية الأسبوع. كانا ينمان في السيارة، بعد طي المقاعد والتدثر بالأكسية.

«أعشق هذه الرائحة.» قالت جوانا وهي تجعد أنفها.

فعل مثلها وخرج من السيارة. شيء مريح أن نحرك ساقينا. الجو هنا أكثر دفئًا بكثير بالمقاييس إلى إيوس. لكن بعد أن حل الظلام، أصبح الجو أبرد من أن يستطيعا تناول الطعام في الخارج، ولكنه كان مقتنعًا بأن هذا ممكن جدًا خلال النهار. سمع إميل مواء، ورأى جوانا تفتح الباب أمام بوك. تحرك الهر للأمام في حذر، خائفًا بعض الشيء.

«بوك، هل تحب هواء البحر؟ أنت لم تعتد ذلك بعد.»

اجتاز إميل البقعة المستطيلة ثم عبّر الطريق، حيث تمتد، على الجانب الآخر، بحيرة هائلة. في البعيد لمح أشكالاً، ربما لطيور النحام الوردية. ضيق عينيه ثم نادى:

«جوانا! جوانا، تعالي وانظري!»

انضمت إليه بعد ثوانٍ، حاملةً بوك بين ذراعيها.

«ماذا هناك؟»

«كأنه جسر عائم هناك.»

ضيق كلاهما عيونهما. يبدو أن جسراً خشبياً عائماً، على بعد نحو مئة متر منهما، يمتد إلى ما لا نهاية، في البحيرة.

«إنه هائل، أليس كذلك؟»

«نعم.»

«كأنه بلا نهاية...»

أوقفوا تساؤلاتهما عند هذا الحد، لأن العربة بقيت مفتوحة ولأن بوك يطلق مواء احتجاج.

«أكاد أموت من الجوع.» أعلنت جوانا.

«مهمتنا هذا الصباح، عبور الجسر العائم! أكرر: عبور الجسر العائم!»

حاول إميل قدر استطاعته تثبيت سلم الحبال على الحائط. كان يشعر بمزاج ممتاز هذا الصباح. لم ينم جيداً بهذا الشكل منذ زمنٍ طويل. أيقظه شعاع ضوء تمكن من اختراق سقف العربة، وصراخ طيور النورس. كانت جوانا في الطابق السفلي. كان يسمعها وهي تحرك الأغراض في خزانها. تساءل عما إذا كانت تخفي هاتفها أم لا. عندما نزل، كانت الطاولة قد أعدت في الخارج، كما في الأيام الخوالي، مع فنجانين، إضافة إلى الزبدة والمربى. هانحن ذا من جديد. غزته فرحة طفولية. لقد ذهب ثقل الأسابيع القليلة الماضية بعيداً، واستؤنفت المغامرة.

«اهدا!» تظاهرت جوانا بتوبيخه.

«ماذا جرى لك؟»

رأى جيداً أنها مستمتعة، وأن مزاجه الجيد كان يعزز مزاج جوانا.

«أظن أنه الهواء البحري.»

أومأت مؤيدة الفكرة.

«حسنًا، هل أنت قادم أم لا؟»

كانت تنتظره لتناول الفطور، جالسةً فوق أحد الكرسيين القابلين للطي، وقد شمعت قليلاً فستاها الأسود الطويل لتشميس ربليتي ساقها. بدا بوك المستلقي تحت الطاولة كأنه يأخذ قسطاً من النوم.

«يا له من شعورٍ مريح أن نستأنف طريقنا.» قال في تنهيدةٍ وهو يرمي على الكرسي.

«صحيح.»

كان كل شيءٍ يشير بأن اليوم سيكون جميلاً، يفترض أن تبلغ فيه الحرارة خمساً وعشرين درجة. أخذت طيور النورس تحلق هناك في السماء. ضيق إميل عينيه، وتمكن من رؤية مدينة بيرياك دي مير، في البعيد، بأسطح منازلها ذات اللون الوردي القريب إلى لون سمك السلمون، وبحيراتها الهادئة، والعشب الطويل يتمايل في مهب الريح. وهنا وهناك، يقوم واحد أو أكثر من طيور النحام الوردي بالصيد في كسل. وهناك هذا العائم الذي يبدو أنه يمتد إلى الأفق.

«هل نذهب؟» سأل إميل وهو ينهض.

«ماذا؟»

لم يلمس فطوره، واكتفى بابتلاع الشاي الأسود، ومع ذلك بدا عازماً على الذهاب في نزهة.

«حسنًا... لنذهب.»

وضعت جوانا قلب التفاحة التي ابتلعها للتو، جانباً.

«ستقفل على بوك في الداخل ونذهب.»

كان يدرك أنه يعدو سابقًا جوانا بمسافة. لم يستطع منع نفسه من ذلك. لقد أعاده هواء البحر إلى طفولته. كان لديه رغبة أن يضع قدمه فوق الجسر العائم، ويركض نحو طيور النحام الوردية، ويداعب العشب الطويل بأطراف أصابعه. إلا أنه تباطأ عند وصوله إلى مستوى أحد الصيادين، كي لا يتسبب في تخويف الأسماك.

وبما أن جوانا لا تزال إلى الخلف كثيرًا - كانت تمشي وأنفها في الهواء، ويبدو أنها تتنشق كل ذرة ملح في الهواء - توقَّف لبضع ثوانٍ بجوار الصياد ومد يده إلى المياه. «ما الذي تصطاده هنا؟» سأل الرجل الذي يخفي وجهه بقبعة خضراء كاكي. فوجئ عندما نظر الصياد إليه. ظن أن الرجل سيكون خمسينيًا، لكنه كان شابًا في مثل عمره، ولا يزال وجهه ممتلئًا بحب الشباب. ارتسمت ابتسامة على وجه الشاب.

«سؤالك يشير إلى أنك لستَ من المنطقة.»

هز إميل كتفيه.

«لا، بالفعل.»

«نحن نصطاد الكثير من الأشياء هنا في البرك. باس البحر، الدنيس، سمك موسى، سمك البوري... لكن النجم المحلي لهذه الأسماك هو ثعبان البحر.» عبَّر وجهه عن مفاجأة مزوجة بالاشمئزاز. لم يحب ثعابين الماء قط. وبمجرد ذكرها يقشعرُ بدنه. انفجر الشاب ضاحكًا.

«كفاك يا رجل. إنه لذيذ في اليخنة.»

«يخنة بثعبان البحر؟»

ملاحه المشمزة أضحكت الشاب.

«نعم. أو في حساء البوريد.»

«لم أسمع بهذه الكلمة قط.»

في تلك اللحظة وصلت جوانا بهيئتها الاعتيادية التي تبدو وكأنها في مكان آخر، ومشيتها البطيئة الهادئة.

«مرحبًا.» قال لها الشاب وهي تقف بجانب إميل.

«مرحبًا.»

«إنه يصيد ثعبان البحر.» أعلن إميل وهو يراقب رد فعل جوانا.
«آه.»

بدا أن الأمر لا يعني لها شيئًا، أظهرت اهتمامًا غامضًا لا أكثر.
«هل يوجد شيءٌ منها في ذلوك؟» سأل إميل ببعض الخوف، مشيرًا إلى الخوض الموضوع بجانب الصبي.

«لا. لم أصطد شيئًا منها هذا الصباح.»
وضع صنارة صيده على حاملٍ ثلاثي الأرجل، ونهض بصعوبة. لا بد أنه كان جالسًا هنا بلا حراك لعدة ساعات.

«يدير والذي مطعمًا في بيرياك. إنه يقوم بطهي ثعابين البحر بشكلٍ رائع. يجدر بكما إلقاء نظرة هناك.»

ابتسم عندما رأى نظرة إميل المترددة، وأضاف:
«لكنه لا يقتصر على طهي ثعبان البحر. يمكنك العثور هناك على أفضل أنواع الدنيس البحري في المنطقة. اسم المطعم جور دو بيش يقع في حي القرون الوسطى.»

تبادل إميل وجوانا نظرة وهزا رأسيهما.

«نعم. لم لا؟»

«هل ستمكثان في المكان لبعض الوقت؟» سأل الشاب في اهتمام مهذب.

«نحن نسافر في عربة تخييم.» أجاب إميل.

«نحوب المنطقة تبعًا لهوانا.»

التمع وجه الصبي بنظرة حسد.

«أووه! هذا جميل!»

«وصلنا مساء أمس إلى بيرياك. وقبل ذلك كنا في إيوس.»

«أعشق إيوس! ذهبت إليها عدة مرات. هل تفكران في المكوث طويلًا هنا؟»

أجاب كل منهما بهز كتفيه.

«لا ندرى... بالفعل لا ندرى... نبقى إلى أن نقرر أننا نريد رؤية مكانٍ آخر.»

أخذ وجه الشاب الآن يعكس الانبهار، وبهذا بدا أصغر سنًا بكثير من إميل.
«أنا أعشق هذه الطريقة في السفر! سأفعل الشيء نفسه يومًا ما. سأذهب في
عربة تخييم مع كلبتي.»

حين أدرك، على ما يبدو، أنه تخمس جدًّا، أضاف:

«على أي حال، إذا أردتما تناول العشاء عند والدي الليلة، يمكنني أن أراكما
هناك. سأقترح عليكما بعض الأماكن الجميلة في المنطقة.»

كانت حماسة الصبي مُعديّة. رأى إميل أن جوانا تومع برأسها في اهتمام.
«بقيت بيرياك قرية صيد أصيلة. نحن بالكاد نشكل سبعمائة نسمة على مدار
السنة... شواطئنا الرملية الجميلة بقيت بمنأى عن أي تغيير. لقد نجونا من
السياحة الجماعية.»

أشارت جوانا إلى الجسر العائم.

«أردنا أن نرى ماذا يوجد في آخره.» قالت.

انفجر الشاب ضاحكًا.

«حسنًا، يصعب الوصول إلى آخره! قام مجلس المدينة ببناء هذا الجسر العائم
بحيث يشكل حلقة حول بركة دولد يستغرق اجتياز الحلقة ساعة من المشي.»

«هل يمكننا القيام بالجولة كلها فوق الجسر العائم؟»

«نعم. وإذا كتنّا تحبان طيور النحام الوردية، سوف تشاهدانها.»

في هذه اللحظة، بدأت صنارة الصيد الموضوعة على الحامل الثلاثي، بالاهتزاز.

«أوه! أعتقد أن سمكة قد عُلقت.»

استند الشاب إلى ركبتيه وانشغل بتدوير بكرة صنارته.

«اللعة. أعتقد أن الخطاف قد انكسر.»

جاهدَ لبضع ثوانٍ مع صنارته وراح يرغبى ويزبد ضد خيط الصنارة، الذي
يبدو أنه انقطع أيضًا.

«سنتركك.» قال إميل.

«لا نريد تشتيت انتباهك.»

أوما الشاب برأسه وهو منهمك في إصلاح معداته.

«حسنًا... هل نلتقي الليلة في جور دوبيش؟»

«نعم. اتفقنا.»

وبينما أخذوا يبتعدان في بطء، قال الشاب:

«بالمناسبة، ما اسمكما؟»

كان اسم الشاب سيباستيان وبلغ من العمر خمسة وعشرين عامًا. كان أصغر من إميل بسنة واحدة، كما أخبرهما قبل أن يدعهما يصعدان فوق الجسر العائم. أدى هذا اللقاء إلى تحسين مزاج إميل، الذي كان ممتازًا بالأساس.

«أنا سعيد حقًا لاستئناف الرحلة.»

رأى جوانا تهز رأسها موافقةً.

مشى وهو يتخيل الكلمات التي سيكتبها في دفتره هذا المساء، على ضوء الشموع التي ستشعلها جوانا. كان يعلم أنه سيكتب عن رائحة البرك المالحه، التي هي أقوى بكثير من رائحة البحر، وعن شمس أكتوبر، الألف والآخر إمتاعًا من شمس الصيف. عن الدوائر التي تشكلها طيور النورس في السماء، عن صرخاتها، والخطوط البيضاء التي تتركها خلفها، أمام عينيه. عن صوت خطواته على الجسر الخشبي العائم. عن الماء شبه الساكن، وعن رائحة الطين. عن الأسماك التي يراها تندفع بين أيكيتين من العشب الطويل. عن طيور النحام الوردية التي تحلق بعيدًا، في مجموعات. عن مسار الشمس في السماء في أثناء سيرهما دون أن ينطقا بكلمة واحدة. عن تلك السيدة الستينية التي تمجد محتفياً بأشعة الشمس في الماء على حافة البركة. عن القارب الأصفر القديم المهجور على حافة إحدى البرك، وقد أكله الصدا. حاول إميل تسجيل كل هذه التفاصيل، وهو يقول لنفسه إن هذه الطريقة ربما تكون هي تلك التي ترى بها جوانا الأشياء وتشعر بها.

«جوانا...»

لقد كسر لثوّه حاجز الصمت الذي رافقهما منذ بداية النزّهة.

«نعم.»

«ماذا تقصدين بالتأمل في حالة اليقظة الكاملة؟»

رأى ابتسامة المفاجأة ترسم على وجهها، وسرعان ما أخفّتها. أضاف مرتبكًا:

قليلًا:

«كنت أتساءل عما إذا كان هو التركيز على كثير من التفاصيل الصغيرة، المحيطة بنا... ومن هذا القبيل. أو مات.

«نعم. هناك شيء من ذلك. أعني أنه شكل من التفكير التأملي.»
عبس بهيئة مهذدة.

«احذري أن تربكيني بكلمات معقدة!»

لكن جوانا هزت رأسها وهي تبسم.

«ليس في هذا شيء معقد. الأمر يتعلق فقط بثبيت صورة، بوضع أنفسنا في حالة ثبات مؤقت ومراقبة اللحظة الحالية، وما يحدث حولنا وأيضًا بداخلنا... وتسجيل أدق التفاصيل، وأيضًا كيف تنعكس هذه التفاصيل الخارجية بداخلنا. هل تفهم ما أقول؟ ما الذي يجعلنا هذا الصوت نشعر به، وما الذي تثيره هذه الصورة فينا...»

«أتخيل أن والدك هو من دريك على ذلك؟»

أو مات مؤكدة.

«نعم. حتى أن تلك كانت بالنسبة له هي الطريقة الوحيدة للعيش. أن نتعلم كيف نكون هنا لا في أي مكان آخر، وأن نفصل أنفسنا عن مخاوفنا بشأن المستقبل وندم الماضي. أعترف أن الأمر معقد في البداية. نحن نعتاد بشدة اجترار الأحداث الماضية أو محاولة توقعها. ونادرًا ما نكون حاضرين حقًا لأنفسنا.»
تركت نظراتها تسرح على امتداد البحيرة.

«ولكن مع مرور الوقت، ومع الممارسة، يصبح الأمر أسهل ويصبح تلقائيًا. نتعلم التوقف في أثناء النظر إلى المناظر الطبيعية، أو تذوق طبق، أو الاستماع إلى لحن... يصبح قيامنا بذلك استجابة تلقائية، دون تفكير سابق.»

«أود أن أصل إلى هذا يومًا ما. التمسك بالماضي كما تقولين، أو القلق بشأن المستقبل، يجعلنا ننسى أن هناك جمالًا في كل شيء تقريبًا. في طفولتنا، نفعل ذلك بشكل طبيعي، أليس كذلك؟ نشعر بالدهشة أمام... أمام حصاة لها انعكاسات فضية أو... أو أمام ريشة. نجتمع أزهار الهندباء ونتعجب من لونها الأصفر اللامع. وبعد أن نكبر نجد الهندباء قبيحة... نعدّها حشائش ضارة.»

ابتسم الاثنان.

«صحيح أننا نعرف كيف نفعل هذه الأشياء في طفولتنا.»

قطب إميل حاجبيه.

«وماذا يحدث لنا لاحقًا؟ هل ننسى؟»

«نعم... أتخيل أننا لاحقًا نشغل أكثر مما يجب ببناء مستقبل لأنفسنا، بالنجاح

اجتماعيًا، بجمع بعض المال.»

مر طائر نورس فوقهما مطلقًا صرخة حادة.

«أتعلم؟» قالت جوانا وهي تتابع الطير بنظراتها.

«إذا أجبرت نفسك، لفترة بسيطة كل يوم، على النظر حولك بيقظة كاملة،

سوف تستعيد تلك الممارسة من أيام الطفولة.»

«هل تعتقدين ذلك؟»

«طبعًا.»

«أظن أنني بدأت بذلك في أثناء السفر. في السابق، خلال حياتي في روان، كنتُ

أركز بشدة على مشاكل الصغيرة، وشغلني بشدة التفكير في حقيقة أنني تعرضتُ

للهجر، وأنني كنت أشعر بمملٍ قاتل في العمل.»

كانها صفحة تُقلب، وتُكتب قصة جديدة تمامًا. والثابت الوحيد فيها: هو

وجوانا، إضافة إلى سيارة التخميم. عدا ذلك كل شيء تغير مرة أخرى. المنظر

الطبيعي، الديكور، الجو، الروائح، ضوء النهار. لا مزيد من الجبال والمراعي

والأبقار والأغنام. لا ممرات صخرية وبحيرات صغيرة مرتفعة. إنها الآن يواجهان

البرك، يواجهان البحر الذي يلمحانه من بعيد عندما تكون السماء صافية، برائحته

المالحة وطيور النورس وطيور النحام الوردية التي تحوم فوقه. ولهذه القصة الجديدة

شخصيات جديدة. سياستيان وكلبه لاكمي، اللذان حلا محل آني وميرتيل وكاناي.

في اليوم الأول، بعد زيارة بيرياك دي مير، بهمة ونشاط، وجدا نفسيهما

جالسين حول طاولة في جور دو بيش، المطعم المحلي النموذجي، بمفارش طاوولاته

الزرقاء ولوحاته المعلقة في كل مكانٍ على الجدران، والتي تمثل قوارب صيد. جلس

سياستيان مقابل إميل. وورقد كلبه لاكمي، وهو لا يرادور كريمي طويل الشعر، عند

قدميه. كان إميل يجد صعوبة في إدراك أن هذا الصبي في مثل عمره، مع هذا الجانب البريء الذي يجعله يبدو كأنه طفل يتعجب من كل شيء ويتكلم كثيرًا، ويحب قريته بشغف. فهم إميل ذلك. فقرية بيرياك دو مير، وفقًا لما شاهدها بعد ظهر هذا اليوم، هي قرية أوكيتانية صغيرة جميلة حافظت على محاجرها ومقالعها التي تعود إلى العصور الوسطى. تتركز معظم حياة القرية في الساحة المركزية الصغيرة والنافورة الخاصة بها. يمكنك الجلوس هناك على الشرفة، تحت أشجار الدلب التي تعشش فيها النوارس. المكان صاخب لا بسبب البشر بل بسبب الطيور. وقبل قليل، كان أحد الرسامين جالسًا قرب النافورة ويرسم كنيسة القديس بولس المحصنة، التي يعود تاريخها إلى القرن الرابع عشر. توقفت جوانا لبضع ثوانٍ لمراقبته.

«لطالما حلمتُ بتعلم الرسم.»

أمام قائمة المطعم، وجدا صعوبة في اتخاذ القرار. حاول سياستيان إقناعهما باختيار مخنة ثعبان البحر، التي كانت وراء شهرة مطعم والده. أعلنت جوانا في خجل أنها لا تأكل الحيوانات وتكتفي بصحن سلطة، بينما اختار إميل سمك الدنيس البحري.

«إذا ماذا رأيتما اليوم؟» سأل سياستيان مباشرة بعد تقديم الطلب.

استمع إليهما وهما يتحدثان عن يومهما ثم أخبرهما عن ميناء بيرياك الصغير، حيث من اللطيف الجلوس لمشاهدة القوارب العائدة من الصيد، والجزر والبرك العديدة التي يحب التجول بينها على متن قارب صيده الصغير.

«هديةٌ والدي في عيد ميلادي الثامن عشر.»

أخبرهما عن الكروم المحيطة بالقرية.

«تنتج المنطقة نبيذًا استثنائيًا، شديد التميز. يجدر بكما أن تتذوقاه. معظم الأقبية مفتوحة للزوار.»

أتى على ذكر الشواطئ والكثبان الرملية الجميلة، وأيضًا الغابات. يبدو أن القرية مكونة من مناظر طبيعية متعددة. كانت جوانا مستغرقة في كلامه عن قريته. وصلت الأطباق. وتساءلت في تهذيب:

«هل عشت دائمًا هنا؟»

أوماً سيباستيان برأسه وهو يقطع شريحة صغيرة من ثعبان البحر أعطاها لكلبه لآكي تحت الطاولة.

«ولدتُ هنا. عمل أبي دائمًا في الصيد. وقبل خمسة عشر عامًا، قرر افتتاح هذا المطعم وتوقف عن الصيد. أنا توليتُ الأمر. تركت المدرسة في السادسة عشرة حتى أتمكن من الحلول محله. لقد أهداني قاربًا ثم أهداني لآكي منذ عامين. كان يخشى أن أشعر بالوحدة طوال اليوم على متن قاربي.»

«هل تعيش مع والديك؟»

«أمي قد غادرت منذ وقتٍ طويل. حتى أنني لا أتذكرها. نعيش أنا ووالدي بمفردنا.»

«هل أنت ابن وحيد؟»

«نعم. ما زلت أعيش مع أبي ولكنني عندما أتزوج، سأحصل على بيتٍ لي... ولزوجة المستقبل بالطبع. أود أن يكون لي منزل على الميناء.»

«ألم ترغب قط في رؤية أماكن أخرى؟»

«أوه نعم! يومًا ما سأفعل. سأذهب في عربة تخييم مع لآكي. يجب أن أفعل هذا قبل أن أتزوج!»

ابتسمت جوانا ونظرت إليه في حنان، كما يمكن أن تفعل مع طفلٍ صغير. كانت لديها القصة نفسها. الأم شبه مجهولة. والأب يقوم بدور القدوة في حياتها. ولا وجود لإخوة أو أخوات. وقرية لم يغادراها قط. بالنسبة لسيباستيان، هي قرية بيرياك. ولجوانا، قرية سانت سولياك. وكلٌ منهما لديه ميل واضح للعزلة والهدوء.

«أليس لديك صديقة حميمة؟» سألت جوانا للتسلية.

«لا. لا يوجد الكثير من الفتيات هنا.»

«حقًا؟»

«أبناء الصيادين غادروا القرية جميعًا، الواحد تلو الآخر. معظمهم أكملوا تعليمهم. استقروا في ناربون أو بيزيه. بيرياك لا تثير اهتمامهم. إنها هادئة أكثر مما يجب. وهذا يئأسني.»

اختتم حديثه وهو يتلعق لقمة من ثعبان البحر.

«غدا... أو في أحد الأيام... يجب أن آخذكما بالقارب.»

وفي أثناء قيام الثلاثة بتناول طبق التحلية - فطيرة بالكُمثرى والجوز - سألهما سياستيان في شوقي عن رحلتها. أخبراه عن بوزاك، وأرتيغ، وجبل بيك دو ميدي والطريق إلى ميلوتيه، عن باريغ، وبحيرة غلير، وعن لوس سان سوفور، وجيدر، وبوديان، وموسيه، وإيوس، وكذلك عن كوم، القرية المدمرة. فتح سياستيان فمه وراحت عيناه تلمعان من الرغبة.

ترك إميل الكلام لجوانا. تبين له أنه نسي بعض مراحل الرحلة، مرحلة لوس سان سوفور ومرحلة جيدر، بسبب نقطة سوداء في الذاكرة لم يصل إليها النور. ولكن ليس هذا فقط. لقد وجد صعوبة في تذكر بوديان. كما نسي باريغ. وعندما حاول تصور شوارعها والجبال المحيطة بهما، اختلط كل شيء. لقد خلط بينهما وبين القمم التي يمكن رؤيتها من أرتيغ وشوارع موسيه. إضافة إلى أنه لم يعد متأكدًا أن تلك الشوارع المرصوفة بالحصى هي شوارع إيوس، لا شوارع موسيه. لذلك لزم الصمت، لأن القلق الذي انتابه كان قويًا جدًا. بقي صامتًا، متجمدًا من الخوف، ولم يعد يستمع حتى إلى جوانا وسياستيان وهما يتحدثان عن الجبال والمراعي وغروب الشمس...

«هل أنت بخير؟» سألت جوانا وهما عائدتان، سيرًا، إلى القرية خارج القرية.

«نعم. لماذا؟»

«كنت صامتًا.»

«أشعر بالنعاس، هذا كل ما في الأمر.»

وصلا في هدوء إلى الطريق الرئيسي ثم إلى الفسحة التي مكنتهما من ركن عربة التخميم. لاحظ إميل بمرارة أن جوانا هي من تحمل المفاتيح. من الآن فصاعدًا هي التي ستحتفظ بالمفاتيح وكل الأشياء المهمة. فقد كثرت إخفاقات ذاكرته في إيوس، خصوصًا في نهاية إقامتهما، فلم تعد تثق به. كان يعلم أنها على حق ولكن هذا لم يمنعه من الشعور بمزيد من الإحباط.

في الليل، لم يغمض له جفن، وأبقى بوك الصغير بالقرب منه حتى الفجر، إلى أن غلبه النوم أخيرًا، دون أن يزول عنه القلق.

ظن أن الأمر سيكون سهلًا. ظن أن مغادرة روان وأحبائه، والمضي بلا هدف، وتغيير المكان، والمناظر الطبيعية، سيساعده على نسيان ما ينتظره، أو جعله أكثر قبولًا بالنسبة له. لكن هذا لم يكن صحيحًا. إنه غير مستعد للتخلي عن ماضيه، ومستقبله. ليس بعد. كان يحاول أن يبدو أمام جوانا في أحسن حال. هي ليست مضطرة أن تعاني مما يعانيه. لديها نصيبها الكافي من المعاناة. إضافة إلى ذلك، في صباح أحد الأيام، بعد ثلاثة أيام من وصولهما، سأها:

«ليون لم يعد يتصل؟»

كانت تغسل الأطباق ولم تلتفت إليه كي ترد.

«هاتفي مغلق منذ أسابيع.»

ثم أضافت، دون أي طلب منه: «لست أدري إذا كنت سأعود إليه يومًا أم لا.»

كاد يخنق بالشاي الساخن.

«كيف ذلك؟ اعتقدتُ...»

لم يستطع إكمال جملته. لقد اشتبه بذلك عندما رأى أن المكالمات تصبح أقل تكرارًا، وعندما وقعا على أوراق الزواج. لم تكن لتفعل ذلك لو كانت متأكدة أنها ستعود إليه يومًا. استدارت كي تواجهه بهيئة غريبة لم يسبق أن رآها، تشبه الكآبة.

«أنا أيضًا كنت أعتقد أنني سأعود، إلى أن بدأتُ أبتسم من جديد بعيدًا عنه، لذلك...»

لم تُنه جملتها. حاول إميل تخمين ما أرادت قوله. لذلك ليس لدي سبب للعودة. وأريد أن أبقى سعيدة.

7 أكتوبر، الساعة 13

فوق الجسر العائم على بركة دول.

سماء برتقالية. نهار خريفي دافئ.

بيرياك دو مير تُبلِسَم قلبي قليلاً. القلق لا يزال موجوداً ولكن تأثير المناخ اللطيف والمناظر الطبيعية، يُرجى ذلك قليلاً. لا أعتقد أنني رأيت غروب شمس أجمل من ذلك الذي يرتسم كل مساء على بركة دول. تشتعل المياه بالأحمر الباقوتي، وتبرز طيور النحام الوردي مثل ظلال سوداء فوق كل هذا اللون الأحمر.

اعتدت المجيء إلى هناك كل مساء. أجلس فوق الجسر العائم. في بعض الأحيان يكون بوك معي. لقد اعتاد توسيع منطقته حول سيارة التخميم. إنه يحب السير فوق الجسر العائم وتشمُّ الماء. يتعقب مسار السمكة بين العشب الطويل.

اكتشفنا أمس ميناء بيرياك الصغير، الذي أخبرنا عنه سياستيان. وهو ميناء صغير مزود بجسرٍ عائم واحد ترسو عليه قوارب الصيد. ما زال ذلك الرسام، هناك، يجلس القرفصاء على الجسر العائم. كان يرسم القوارب هذه المرة. بعد ذلك، عندما غادرتنا، قررت جوانا الذهاب إلى متجر أدوات فنية في وسط المدينة واشترت بعض اللوحات القماشية والفرش وبعض مواسير الطلاء الزيتي، وجاءت بها هذا الصباح. غادرت في الصباح الباكر، لا أعرف إلى أين.

غداً، سياخذنا سياستيان نهاراً بالقارب. يريد منا أن نكتشف الجزر المحيطة ببيرياك دو مير.

أخذ الثلاثة أماكنهم في قارب سياستيان الأخضر تحت شمس الخريف الناعمة. كان النسيم خفيفاً يكفي لخلق حركة لطيفة على سطح الماء. كان لاكي معهم، يجلس في مقدمة القارب، وينبح على طيور النورس. كان بوك هناك أيضاً، لكن جوانا أخفته في الوقت الراهن، في سلة كبيرة من الخوص، خوفاً من نشوب

نزاع بين القط والكلب. كان أحدهما يتشمم الآخر في حذر، ولا يتردد بوك في النخر عندما يقترب لأكلي كثيرًا. لذلك فإن بقاء بوك في سلتة أسلم. انزلق القارب في هدوء. كان سياستيان هو من يقوم بالتجديف. أخفت جوانا وجهها تحت قبعتهما السوداء الكبيرة. مالت بجسدها فوق حافة القارب، كأنها تتفحصه من الخارج. وعندما استقامت سألت:

«اسم قاربك له علاقة بالرواية؟»

شاهد إميل ابتسامة عريضة ترسم على وجه سياستيان.

«أتعرفينها؟»

«بالطبع!»

«إنها كتابي المفضل!»

انحنى إميل بدوره كي يحاول قراءة اسم القارب. الخيميائي لم يعن له الاسم شيئًا. ولم يسمع بهذه الرواية، ولا يزال لديه هذا الشعور بأنه أخرق وثقيل. غبي بعض الشيء. لا يعرف إذا كان القلق هو الذي يجعله يرى كل شيء باللون الأسود أم لا. لا شك في ذلك.

قرر سياستيان أن يطوف بهما بين الجزر العديدة. وطلب منهما إحضار مأكولات مع خيمة.

«خيمة؟» سأل إميل متفاجئًا.

«نعم. إذا لم يكن الجو باردًا جدًا، فقد نرغب في التخييم في إحدى الجزر...»
أثارته الفكرة وأحس بعقدة القلق تنفك في صدره.

حل الصمت على القارب وسأل إميل:

«أين نحن؟ هذه البركة أكبر من بركة دول، أليس كذلك؟»

أوما سياستيان بالإيجاب.

«نحن في بركة باج سيجان.»

مر بيده في شعره الكستنائي، مما زاد من تشابكه.

«باج أيضًا تعد قرية أصيلة. من نوع بيرياك. تجدر زيارتها قبل مغادرة المنطقة.»
عادت جوانا للظهور من خلف قبعتهما.

«هل هي قرية صيد أيضًا؟»

أوما سيباستييان مؤكّداً.

«وانتِ، من أين أنتِ؟» سأل.

«من سان سولياك. قرب سان مالو. وهي أيضًا قرية صيد.»

«حقاً!» صاح سيباستييان في حماسة.

«لم أكن أعلم أنك فتاة بحراً!»

كان إميل يشاهدهما وهما يتحدثان أكثر مما يستمع إليهما. لم يرغب في المشاركة. لقد تكوّن لديه أساساً انطباع بأنهما نسيا وجوده بالفعل. وأن القلق الذي اعتراه منذ أيام، لم يكن مسؤولاً عن سوداويته المفاجئة. أما نظرة سيباستييان المعجبة بجوانا، فقد كانت كذلك.

«ألست بخير؟»

لحقت به جوانا عندما نزلوا للتو في جزيرة بلاناس، وهي جزيرة طولانية. سار في المقدمة، بينما قام سيباستييان بربط القارب بالشاطئ ووضع حزاماً حول رقبة لأكي.

«بلى.»

حاول تغيير الموضوع.

«هل بوك معك؟»

«لا. طلب مني سيباستييان أن أتركه على القارب. يبدو أن هناك الكثير من

الطيور، من أنواع محمية، ينبغي ألا يهاجمها بوك.»

«وماذا عن لأكي؟»

«سيفيقه مربوطاً بالحزام.»

بدأ سيباستييان ولاكي باللحاق بهما. لم يعرف إميل من منهما كان يركض بحماسة أكبر.

جمال المكان جعل إميل ينسى كآبته. بعد وقت قصير من مغادرة القارب، وبينما كانا يلحقان بسيباستيان ولاكي، بدأ يشاهدان أعشاش طيور في كل مكان. كانت الأرض مملوءة بها.

«كونا متبهيّن!» أشار سيباستيان.

«ما هذا؟» سألت جوانا.

«أعشاش نوارس.»

«أوه!»

ركعت بالقرب من أحد الأعشاش.

«هل يمكن العثور على فراخ؟»

«لا، الفراخ تفقس في الربيع... لكن انظرا... إنها تنبه أقرانها إلى حضورنا.»

أشار إلى السماء حيث تدور عشرات النوارس مرسلّة صرخات حادة.

«عمومًا إنها ليست سعيدة حقًا برؤيتنا.»

نبح لاكي في عنف، الأمر الذي يبدو أنه كان يزيد من غضب النوارس في السماء.

بعد مسافة اكتشفا بحيرة صغيرة ومنزلًا مهديمًا. وهنا أيضًا أقامت الطيور أعشاشها وصنعت ملجأ لها. وفي مكان أبعد، أشار سيباستيان إلى حوضي ممتلئ، يشكّل مجسمًا لطيور (أبو منجل)، وهي طيور طويلة الساق والعنق، وذات مناقير منحنية. يبدو أن سيباستيان يعرف الحيوانات والنباتات المحلية تمامًا. أخبرهما أنه يمكن التعرف إلى صغار النوارس على مدار السنة من خلال لونها الرمادي والبني، وأن هذا النوع محمي. وشرح لهما أن طيور البلشون البيضاء أيضًا تقيم في الجزيرة، لكنها تفضل تجميع أعشاشها في أشجار الطرفاء.

توقفوا على الشاطئ الرملي لتناول الطعام. كان هواء البحر ينفح وجوههم، واستلقى إميل للحظات وأغمض عينيه. شعر كأن القلق يتلاشى في بطنه.

بعد بضع ساعات، عندما أبحروا من جديد على متن الخيميات، اكتشفوا جزيرة سولييه. وهي مجموعة تلال صخرية تبرز من الماء. أخبرهما سيباستيان أنها مكان لا يرتاده سوى الطيور وأن الاقتراب منها مستحيل بسبب الصخور المغمورة بالمياه. داروا حولها ثم اتجهوا نحو جزيرة ناديير.

«إذا أردنا قضاء الليل في مكانٍ ما، فهو هناك.» أعلن سياستيان بينما أخذ حجم الجزيرة يكبر أمام عيونهم.
«أوه حقاً؟»

«إنها مدينة أشباح. هناك العديد من الآثار التي ستحمينا من الريح. يمكننا أن نلوذ بها لنصب الخيمتين.»

عندما اقترب القارب من الجزيرة الصغيرة واكتشفوا الآثار الغارقة في غروب الشمس، تبادلوا نظرة واحدة فقط ليفهموا أنهم سيمضون الليل هنا معها كان الثمن.

«إنه جمال غير معقول.» تمتعت جوانا لنفسها وهي تحديق إلى الأفق.
عادت إلى الشاطئ وجلست على القارب الأخضر الزجاجي، مستظلةً يدها، لمشاهدة غروب الشمس فوق البركة.

تجولوا في الجزيرة وفي القرية المكونة من أنقاض، دون تبادل كلمة واحدة. حتى سياستيان بقي صامتا. لم يبق من البيوت المتجمعة أو المنفصلة بممرات ضيقة، غير الأنقاض. احتفظ عدد منها ببعض البلاط على السطح، واحتفظ عدد آخر، على نحوٍ مثير للدهشة، ببعض عناصر المنازل: أحواض مطبخ ومواقد. وأوضح سياستيان أن بعض عائلات الصيادين عاشت هنا حتى ثلاثينيات القرن الماضي، حيث مكَّنها جسرُ مشاة من الوصول إلى الجزيرة انطلاقاً من بورت لا نوفيل. وأضاف أن جمعية محلية تتولى ترميم قسم من المنازل.

«ربما في غضون سنواتٍ قليلة ستصبح الجزيرة مسكونة من جديد.»
اختاروا نصب خيمتهم وسط الأطلال العالية التي تحميهم من الرياح والبرد. أقاموا معسكرهم ثم أعلن سياستيان أنه سيتولى إشعال النار. انفردت جوانا بنفسها على الشاطئ، داخل القارب، كي تستمتع بغروب الشمس. وذهب إميل للجلوس بعيداً على الرمال الناعمة. كان نادماً لعدم وجود دفتر ملاحظاته الأسود معه. أراد أن يكتب كي يصف جمال المناظر الطبيعية، سحر اللحظة، شعر جوانا المتلألئ بأضواء الغروب الذهبية، ظل بوك الصغير بجانبها، وهو يحفر في الرمال بحثاً عن فريسة، قارب الصيد الصغير ومجاذيفه، يستريح في هدوءٍ على الرمال.

تبخر القلق والكآبة لبعض الوقت. كان سعيدًا بوجوده هنا الليلة. سعيدًا لأنها صادقا سياستيان، وإن كان كثير الكلام، وإن كان يعرف كل شيء عن كل شيء، الأمر الذي يصيبه بالجنون، وإن كان يوجه إلى جوانا نظرات غريبة، ويقرأ الخيميائي هذا ما حاول إقناع نفسه به على أي حال.

رفع رأسه حين سمع جوانا قادمة إليه، يتبعها بوك.

«نادرًا ما شاهدتُ غروب شمس مثل هذا.» قالت وهي ترتقي بقربه فوق الرمال.

أوما مؤيدًا. فكَّر أنه خلال ثلاثة أشهر من السفر شاهد غروب الشمس أكثر مما شاهده خلال ستة وعشرين عامًا. شعر أنها تحديق إلى وجهه، لكنه يرفض النظر إليها مباشرة، ويفضل مواصلة النظر إلى البركة وآخر خيوط الشمس المتوهجة.

«إميل، هل أنت بخير؟»

استشعر أنها ستطرح عليه هذا السؤال، لذلك كان يتجنب نظراتها.

«نعم.»

بقي على هذه الحال يذرو الرمال من بين أصابعه، ولا ينظر إلى جوانا. جاء بوك وتشم يديه ثم غادر، غير مهتم كثيرًا.

«يبدو لي أنك بعيد عن هنا في الأيام القليلة الماضية.»

شعر بعودة كتلة القلق. لماذا تريد التحدث عن هذا الآن؟

لماذا لا تستطيع الانتظار إلى الغد أو أي يومٍ آخر؟ أو لماذا لا تستطيع حتى ألا تسأل أبدًا؟

كان بخير، وتمكن من تهدئة القلق لفترة من الوقت، والآن تعود بأسئلتها الغبية.

«لا بأس.» أجاب، وهو يعرض على أسنانه.

ضغطت الكتلة على رتيبه، وقفصه الصدري، وسدت حلقه. مرت بضع ثوانٍ ثم، لخبيته الشديدة، عادت جوانا إلى السؤال.

«أجداك صامتًا وغائبًا.»

ابتلع لعابه. بحق الجحيم، إنها تدفعه إلى الحد الأقصى. كان قادرًا على البكاء.
لماذا هو هذا المساء عاطفي بهذا القدر وعلى هذا النحو الغبي؟
«حسنًا، لقد تبادلنا الطباع، هذا كل شيء». سابقًا، كنت أتكلم عن شخصين
وأنت لا تفتحين فمك. والآن انعكست الآية.»

لم يشأ أن تكون نبرته جافةً وفظة. لام نفسه لكنه اضطر للدفاع عن نفسه قدر
استطاعته. لن يبدأ بالبكاء أمام غروب الشمس لأن فتاة تضايقه بأسئلتها.
«هل تعتقد...»

بدا صوت جوانا رقيقًا ومترددًا.

«... بأنني أتكلم كثيرًا؟»

هذه المرة نظر إليها في حنانٍ، فاجأه.

«لا. لا، يا جوانا. يسرني أنك في حالٍ أفضل، وأنتك...»

بحث عن كلماته وهو يحفر أثلامًا في الرمال، بأطراف أصابعه.

«أنتك أصبحت تبسمين... كما قلت.»

بقي القلق ظاهرًا عليها، ف شعر تقريبًا برغبة في الإمساك بيدها لطمأنتها، لكنه لم
يفعل. لم يكن الخاتم في إصبعها.

«ولكن ماذا جرى لك أنت؟ كنت أسعد من ذلك عندما مضينا مجددًا في

الطريق.»

«أعتقد ذلك؟»

«نعم.»

لم يفهم سبب حزنها الفجائي، حتى سمعها تهمس:

«إذا أردت متابعة الطريق بمفردك، سأنفهم كما تعلم...»

«كفى يا جوانا! لا تنفوهي بالترهات!»

«ربما مللت مني...»

«لا علاقة لذلك بالأمر!»

«أرى ذلك جيدًا.»

«ماذا ترين؟»

«أرى أنك تبدو مطفأ بجواري.»

لرعبه من كلماتها لم يجد ما يجيب به. ولم يكن هذا ما حدث. بل على العكس تمامًا. حاول أن يقول متلعثمًا:

«المسألة عكس ذلك، يا جوانا! لقد فتحت عيني على الأشياء، أظهرت لي جمالها، أنت...»

«ربما كان هذا الزواج خطأ... كنت سعيدًا من قبل.»

هز رأسه في حرارة. شعر أن لا شيء مما سيقلعه سيمنع جوانا تمامًا.

«لا. إنه المرض. إنها ذاكرتي.» أطلق تنهيدة عميقة.

«بدأت أنسى كل شيء. الأشياء اليومية، وحتى مراحل رحلتنا بدأت تتلاشى من ذاكرتي.»

سمع صوته ينكسر. شعر بالدموع تملأ عينيه. كان يعلم أن جوانا تستطيع رؤيتها، لذا أدار رأسه نحو البحيرة لإخفائها. أقسم ألا يبكي ولكن الأمر أصبح فجأة فوق الاحتمال.

«لست مستعدًا لهذا... أعني... اعتقدت أنني كنت مستعدًا... لأدرك الآن أنني بعيد عن ذلك.»

تركت له جوانا الوقت كي يتنفس ويستجمع نفسه. عندما تحدثت، كان صوتها منخفضًا حتى أنه بالكاد سمعها.

«إنني آسفة.»

طال الصمت في الظلام الذي يجيم على الشاطئ. توارت الشمس تمامًا الآن. تكوّر بوك ملامسًا بدن القارب.

«أنا سأخبرك.» همست جوانا في لطف.

«إذا نسيت رحلتنا، أنا سأخبرك عنها.»

شعر بدمعة تندرج على خده لكنه لم يمسحها، وإلا لعرفت جوانا أنه يبكي. هز رأسه ومنع نفسه من التنهد.

«كلُّ منا لديه دفاتر ملاحظات... يمكنك قراءتها و...»

صمتت لأنها فهمت أن هذا ليس ما يريد سماعه. خيم الصمت من جديد. كانا يسمعان سياستيان من بعيد، وهو يعد الوجبة. سمعا صوت قدرٍ يوضع على الأرض.

«ألن تقول شيئاً؟» سألت جوانا هامسةً.

شعر بالدموع تكاد تنهمر، ولم يكن يريد بقاءها بقربه لترى هذا المشهد المؤسف. أجاب بشيء من الفظاظة.

«ليس عليك أن تكوني لطيفةً معي وتصري على تذكيري بكل هذه الأشياء... لأنك على أي حال، ستكونين أول ما سأنساه.»

شعر هو نفسه بالصدمة من قسوة كلماته. تمنى أن ينظر في عينيها، ويأخذها بين ذراعيه، ويقول أي شيء تعويضاً عن هذه الجملة ولكن عليه ألا يفعل. يجب ألا ترى أنه يبكي. ثم إنه على حق. ما الفائدة؟

لقد قالها الأطباء. ستبقى الذاكرة القديمة سليمة، لكن الأحداث هي التي ستمحي سريعاً. ستكون هي أول شخصي ينحني من ذكرياته.

سمعها تنهض وتهمس:

«سأذهب... سأذهب لأرى إن كان سياستيان في حاجةٍ إلى مساعدةٍ أم لا، اتفقنا؟»

لم يجب. رآها تبتعد بطرف عينه، ثم تشوش نظره تمامًا واجتاحت الدموع وجهه تاركةً طعمًا مالحًا فوق شفثيه.

مرت نصف ساعة، وربما أكثر، عندما جاء سياستيان يبحث عن إميل.

«الوجبة جاهزة. تعال إلى جوار النار. الجو بارد جدًا هنا.»

جفف دموعه. شعر أنه أخف قليلًا. البكاء يحررنا قليلًا. لم يلاحظ سياستيان شيئًا على وجهه.

«يجب أن أحضر بوك.» قال إميل.

«أين هو؟»

«أعتقد أنه في قاربك.»

بالفعل، تناول الهر من القارب، إذ كان متكورًا تحت المقعد الصغير الخاص بالتجديف.

«هل هذا قط جوانا؟» سأل سياستيان بنظرة فضوله الأبدي.

«إنه قطنا.»

«هل أنتما...»

بدا الحرج واضحًا على سياستيان. أخذ يفرك يديه مترددًا. لكن نهاية السؤال جاءت أخيرًا:

«... زوجان؟»

ابتسم إميل مستطرقًا. قبل قليل كان منزعًا من سياستيان، ومن اهتمامه بجوانا. الآن بات متأكدًا أن سياستيان يحب جوانا كثيرًا. ولكن بدت الأمور مختلفة بالنسبة له بعد المحادثة التي أجراها معها على الشاطئ. خففت عنه الدموع. ويجب أن تبقى مبتسمة مهما كلف الأمر.

لهذا رد على سياستيان وقد اختفى كل حقد:

«لا. إنها فتاة ظريفة... ولكننا لسنا زوجين.»

«آه.»

أشاح سياستيان برأسه وقد احمر خجلًا. ابتسم إميل له من جديد. صحيح أن سياستيان مؤثر ببراءته، كأنه طفل كبير.

كانت أمسية لطيفة في نهاية المطاف. كان الدموع قد طهرته. شعر إميل أنه شخص جديد وطازج. أشعل سياستيان نارًا كبيرة. قام هو وجوانا بلف البطاطس وجبن الريبلوشون بورق الألومنيوم وألقيا بها في النيران. ثم التقطها بطرف الشوكة، وتقاسم الجميع الغنيمة. جلس إميل قرب لافي، بعيدًا قليلًا عن الآخرين. جاء الكلب ووضع رأسه فوق ركبته مطالبًا بقطعة جبن. التصق بوك بجوانا، بعيدًا قدر الإمكان عن كلب اللابرادور الذي كان يواصل التحديق إليه بريبة. فرقعت النار وألقت بظلالها على الأرض.

راح سياستيان يتبادل الحديث مع جوانا، ويستمع إميل إليهما، بعينين نصف مغمضتين، مستسلمًا لهددة صوت النار. تحدث سياستيان عن رحلاته بالقرب عبر الجزر وكيف اكتشف كل واحدة منها على مر السنين. حكى لها عن الطيور، عن البيض الذي يفقس في الربيع، عن الزهور التي تلون الصخور... كان هو يتحدث وهي تطلب المزيد وعيناها تلمعان. لقد عرف كيف يكلم جوانا، فهو يشبهها.

كان الليل باردًا. بقي إميل يرتجف حتى الفجر، على الرغم من لحاف الريش الذي كان ملفوفًا به. انطفأت نار المخيم ورغم حماية الآثار تسللت الريح من تحت الخيمة. بدا أن جوانا نابت نومًا جيدًا. استلقت على شكل كرة، وأدارت له ظهرها وبقيت بهذه الوضعية دون حركة.

عندما خرج هذا الصباح من الخيمة، وجدها تتمشى على الشاطئ.
«ذهب سياستيان كي ينزّه لأكي.» أعلنت.

قام بينهما حاجز صغير منذ حديثهما أمس على الشاطئ. بات أحدهما يكلم الآخر بتهديزٍ أشد من أن يجعل الأمر طبيعيًا تمامًا.

«هل شاهدت شروق الشمس؟» سألتها وهو يباشر بالسير إلى جوارها.
«لا. فاتني ذلك.»

وضع يديه في جيبه كي يستمد رباطة جأش. كانت أقدامهما تذرو الرمال في كل مكان. بدت السماء منخفضة هذا الصباح، ذات لونٍ رماديٍّ مائل إلى الحليبي الأبيض. وعادت الطيور إلى التحليق في السماء.

«ماذا عن لوحاتك؟» سألت بهيئة حيادية على نحوٍ زائف.

«لوحاتي؟»

«لقد حملت لوحاتك معك ذلك الصباح... نسيْتُ أن أسألك... هل تمكنت

من رسم شيء؟»

يبدو أنها فهمت أنه يبذل جهدًا لكسر الجمود فاستجابت بأريحية:

«أوه، مارسمته ليس رائعًا... حاولت رسم مجموعة من طيور النحام الوردية.»

«ثم؟»

«بدت أشبه بمزيج هجين من زرافات وطيور لقلق.»

لم يستطع منع نفسه من الانفجار بالضحك وابتسمت هي بدورها.

«هل ستريني إياها؟» سأل.

«لا، لا أعتقد ذلك.»

«أنا واثق أن الأمر ليس بهذا السوء...»

«بلى، سأبدأ أساسًا برسم طبيعة صامتة... سيكون هذا أفضل كبداية.»

«هل تعتقدين؟»

9 أكتوبر، الساعة 7:40 صباحًا

ساحة لافونتين، على مقعدٍ حجري.

مباشرةً من أمام شروق الشمس فوق بيرياك دو مير.

استيقظتُ منذ الساعة السادسة هذا الصباح. يستحيل النوم. رأسي يعج بالأفكار إلا أنني لا أستطيع التقاط إحداها مع ذلك. تركت جوانا ويوك نائمين على الحشية، وأخذت دفتر ملاحظاتي وقلمي لأذهب في نزهة قصيرة في أزقة بيرياك. وأنا أغادر العربة، أردت أن آخذ حقيتي من خزانة الحائط، فعثرت على اللوحة التي رسمتها جوانا... تلك التي من المفترض أن تمثل مجموعة زرافات مهجنة مع طيور لقلق. لم أستطع إلا أن أضحك في صمت. إنها على حق. يبدو كأنه نوع جديد من الطيور الهجينة، نصف ثديية ونصف طيور. لقد وجدتُها لطيفة حتى أنني أردت سرقة اللوحة وإخفاءها في حقيتي، تحت المقعد، كي أبقها معي.

«ماذا تفعل؟»

لقد خرج إميل للتو من حجرة الحمام الصغيرة مرتديًا سروالًا رياضيًا وقميصًا، ويحمل بيده حذاءه الرياضي. نظرت إليه جوانا دون أن تفهم.

«يفترض أننا اتفقنا أن يرينا سياستيان الكثبان الرملية...» قالت متلعثمة.

«نعم، أعرف. لكنني أردت الركض فوق الجسر العائم.»

انحنى لعقد رباط حذائه.

«اذهبا دوني.»

لم تجب جوانا على الفور. يبدو أنها كانت مترددة.

«هل ستنضم إلينا بعد ذلك؟»

أخذ وقته قبل أن يستقيم، ولاحظ عند ذلك أنها تبدو محبطة.

«حسنًا.» قال.

«سأنضم إليكما.»

«سنكون فوق شاطئ دول. إنه يبعد عشر دقائق عن هنا.»

«اتفقنا.»

كان في حاجة إلى الركض كي يصفى رأسه. لم يكذب. ثم إنه سواء حَضَرَ أم لا، فإن سياستيان وجوانا سينغمسان في حديثٍ حول زهور الطرفاء أو شيء من هذا القبيل... لذا كان يفضل تركهما معًا واغتنام الفرصة لممارسة الرياضة. بدأ يشعر بقيمة العزلة وبدا له ذلك مفاجئًا، لكنه تعلم خلال الأشهر الأربعة الأولى من سفره أنه يمكن للإنسان أن يعيد اكتشاف نفسه باستمرار. وجوانا مثال حي على ذلك. بدأ تحوُّلها في جبال البيرينييه، ولم يعد يتذكر متى بالضبط. ثم كان هناك بوك، ميرتيل، الزواج... تسارع الأمر. والآن أصبح وجهها ممتلئًا بالحياة. أصبحت تتكلم، تطرح أسئلة، تهتم بعددٍ من الأمور. وها قد بدأت حتى بالرسم! قبل أيام بدأت بلوحةٍ جديدة وعرضتها عليه. رسمت الخيميائي وعلى متنه صبي وكلب يحدقان إلى الأفق. لقد سببت له اللوحة وخزة في قلبه، لكنه ابتسم وأكد لها أنه عمل جميل حقًا. وبالفعل كانت الألوان جميلة، وتنبعث منها عذوبة حقيقية. ومع ذلك، كان يفضل لوحة طيور النحام الوردي المتحولة، على لوحة سياستيان وهو على متن قاربه. لكنه لم يخبرها بذلك.

بدأ يركض بخطواتٍ قصيرة فوق الجسر العائم الذي يدور حول البحيرة. كان ذلك يومًا خريفياً جميلاً آخر. تحدث سياستيان عن صيفٍ هندي. قال إنهم لم يشهدوا شهر أكتوبر مشابهاً منذ سنوات. في عربة التخميم، لم يحتاجا بعد إلى تشغيل مدفاتها الصغيرة.

أوما إميل بالتحية نحو صيادٍ يجلس على الجسر، وأبطأ الركض حتى لا يسبب إخافة الأسماك. راح يتذكر جولاتها الأولى على الجسر العائم ولقاءهما مع سيياستيان، صباح يومٍ شبيه بهذا الصباح. لم يعد يتذكر مقدار الوقت الذي مر منذ وصولهما إلى بيرياك دو مير. ربما أكثر من عشرة أيام. كان لدى سيياستيان يوم استراحة واحد في الأسبوع. آخر مرة، منذ أسبوع مضى، انتهر الفرصة لأخذهما بالقرب واكتشاف الجزر. واليوم، الكتبان الرملية. مر الوقت بسرعة لا تصدق. أحيانًا كان إميل يقول لنفسه إنه يود الاتصال بميرتيل. بدا له كأن دهرًا قد مرَّ منذ أن غادراها. لقد أحب حضور ميرتيل، ونظرتها الزرقاء المحدقة إليهما. مع ميرتيل، شكّل هو وجوانا ما يشبه العائلة. مع سيياستيان، هما صديقان فقط، لا أكثر.

يمكنه الاتصال بميرتيل مساء أحد الأيام، ليس من هاتفه - الذي لا يزال خائفًا جدًا من تشغيله - ولكن من هاتف جوانا. إذا قبلت...

سرَّع وتيرة الركض وشعر أن قلبه سينفجر في صدره. كان إجهاد نفسه بهذه الطريقة يُشعره بارتياح شديد. أخذ يلهث ويتصبّب عرقًا، لكنه يشعر بالارتياح والسلام الداخلي. حتى أنه قرر مواصلة الركض حتى شاطئ دول، للانضمام إلى جوانا وسيياستيان.

توقف على بعد أمتارٍ من الشاطئ كي يلتقط أنفاسه ويدها مستندتان إلى ركبتيه. يجدر به المواظبة على الهرولة، كل صباح. حاول إقناع نفسه بأنه سيكون عند كلامه وسيفعل ذلك. سار في بطاء. بدأت الكتبان تُرى من بعيد. رأى لاكي يعدو بسرعة نزولًا من قمم الكتبان إلى أسفلها وهو ينبع طوال الوقت. كان يطارد طائر نورس، مرة أخرى. ثمة أشخاص قلائل يسرون على ضفة الماء، بسترٍ واقية من الرياح. التفتَّ حول أقرب الكتبان الرملية وانتهى به الأمر برؤيتهما. كانت جوانا تجلس متربعة الساقين عند سفح الكتيب، مع شيءٍ مسطح على ركبتيها. كانت ترفع رأسها بشكلٍ متكرر وتخفضه نحو ركبتيها، ويلتصع في شعرها مشط ميرتيل العتيق. كان سيياستيان يجلس بجانبها مشيرًا لها من وقتٍ لآخر، إلى شيءٍ ما. أدرك إميل أنها ترسم الكتبان الرملية.

«مرحبًا إميل!» قال سيياستيان عندما رآه قادمًا.

اندفع لاكي نحو ساقيه، سعيدًا برؤيته. ونظرت جوانا إلى الأعلى مبتسمةً له.

«انظرا جوانا تخلد الكشبان الرملية!»

أصبح أخيرًا بجانبهما وألقى نظرة على اللوحة القماشية الموضوعة فوق ركبتَي جوانا. لقد حققت تقدمًا. بدت الرمال الممتدة كأنها تتحرك على اللوحة، وكأن حبيباتها تندرج تحت تأثير الريح. لقد مثلت السماء بدرجة أقل زرقة مما هي عليه في الواقع، أقرب إلى لونٍ من الأزرق الرمادي اللؤلؤي. لا أثر لسياستيان أو لآكي في هذه اللوحة، بل لنورس يحوم قريبًا من سطح الرمال.

«إذا؟» سألت جوانا وهي تنظر إليه بشيءٍ من القلق.

«ما رأيك؟»

لكنه لم يتح له وقت للرد، فقد تولى سياستيان ذلك بدلًا منه، في حماسة:

«عمل موفق حقًا يا جوانا! أنا متأكد أن بإمكانك عرضه في مطعم والدي!»

«أوه...»

بدت جوانا مترددة.

«هل تعتقد ذلك؟»

«أستطيع أن أسأله. لكنني واثق أن نظرتك لـ بيريك دو مير ستعجبه. أنا أحببت اللوحة. إنها تحمل نظرة صحيحة. وفي الوقت نفسه أنت تضيفين في رسمك شيئًا من الغموض الصوفي، في كل اللمسات الصغيرة...»

يبدو أن جوانا شعرت بالإطراء، رأى إميل أن وجهها كان قد احمرّ، عندما رفعت رأسها كي تنظر إليه. سارع إلى التأكيد وهو يهز رأسه.

«هذا صحيح.»

أخذ سياستيان يغمر جوانا بنظراته، ما جعل إميل يكاد يشعر بالضيق. أشاح بوجهه بعيدًا.

«سوف أتمشى على الشاطئ وألقي نظرة على المكان هناك.»

بدا له أن جوانا تريد إضافة شيءٍ ما لكنه سارع إلى الابتعاد متظاهرًا برغبته في اللحاق بـ لآكي.

في ذلك المساء، في أثناء تناول وجبتها داخل العربة، وبينما كان الصمت يمتد بلا نهاية، قال إميل بهيئة تتصنع اللامبالاة:

«أعتقد أنك جذبت اهتمام سياستيان.»

أنهت جوانا ابتلاع كوب الماء قبل أن تحديق إليه في غرابة.

«لماذا تقول ذلك؟»

«رأيت الطريقة التي ينظر بها إليك، هذا كل شيء.»

لا يعرف لماذا كان يحاول أن يشعرها بعدم الارتياح. أراد أن يراها تحمر خجلاً وتتلعثم، لكنها بقيت هادئة.

«ليس أكثر من طفل...»

«عمره خمسة وعشرون عامًا.»

«العمر لا يقاس بالسنوات.»

«حقاً؟»

حاول ألا يبدو متأثراً جداً بإجاباتها أو سعيداً بها جداً. حاول أن يبدو حيادياً.

«بالطبع.»

عادت إلى نقر الطعام من طبقها ثم أضافت بالنبرة نفسها:

«أمام سياستيان الكثير ليتعلمه.»

لم يفهم حقاً ما تعنيه بذلك. كان يجد أن سياستيان يعرف الكثير في مواضيع كثيرة. أكثر منه بكثير. لكنه لا يهتم، لأنه يشعر كأنه لهما صغيراً يفرقع بالشرر في صدره.

«إميل! إميل!»

راحت جوانا تنادي بأعلى صوتها في أزقة بيرياك دو مير.

ذهبت هذا الصباح للانضمام إلى سياستيان الذي يصطاد قرب الميناء، فيما كان إميل لا يزال نائماً. لم تشأ أن توقظه، فقط تركت له ملاحظة صغيرة على الطاولة بجوار الفنجان الذي أعدته له.

دعاني سياستيان للذهاب معه للصيد. سأعود بحلول الظهر على أبعد تقدير. سنكون على بعد حوالي مائة متر من الميناء في اتجاه متجر الزوارق. يمكنك الانضمام إلينا عندما تستيقظ.

انضمت إلى سياستيان. راقبت الأزقة عدة مرات كي تتأكد من قدوم إميل، لكنها لم تره.

«أنتِ لا تركّزين.» لاحظ سياستيان.

عندها ركزت انتباهها، ونسيت إميل قليلاً. ثم رن جرس الكنيسة ظهراً، فأسرعت عائدة إلى العربة، لأنها وعدته بالعودة بحلول الظهر. شعرت أن هناك خطأ ما عندما رأت الطاولة والفنجان، لا يزالان في المكان نفسه، كما لو أن إميل لم يتناول وجبة الإفطار. ثم رأت باب العربة المفتوح على مصراعيه... نادت:

«إميل؟ إميل؟»

كما نادت: «بوك؟»

لا يوجد أحد في العربة والخزائن مفتوحة، كما لو أن شخصاً ما قد فتش فيها، لكنه لم يسرق شيئاً. والدليل: وجود الهاتفين الخليين على منضدة العمل، قيد التشغيل. كان أحد ألبومات صور إميل مفتوحاً على الأرض، وكانت حافظتها الخاصة مفتوحة وأوراق هويتها مفروشة على الأرض. نادت مرة أخرى:

«إميل؟ إميل؟»

لم يكن عادةً يتعدد ويترك العربية مفتوحة على مصراعيها. لم يكن ليسمح بهرب بوك أو بأن تدهسه سيارة. ما الذي حدث؟

خطر لها أنه هجوم، أو عملية سطو، لكن لا يبدو أن هناك أي شيء مسروق. قررت الذهاب إلى الجسر العائم. لم يكن إميل هناك. بالمقابل، وجدت بوك مستلقيًا بطوله تحت الشمس.

«ها يا صديقي. سنعود أدراجنا.»

أعادته إلى عربة التخميم، محاولةً ألا تستسلم للذعر. أخذت تكلم الهركي تطمئن نفسها:

«ألا تعرف أين ذهب؟»

تحققت لترى هل أخذ معه أغراضًا قبل المغادرة أم لا. لم يكن هناك أي شيء مفقود. بدأ يتتابها الذعر. أغلقت العربة وعادت إلى القرية وقلبها ينبض بشدة. بدأت تمدق إلى كل الأشخاص في طريقها، لترى إن كان أحدهم هو إميل أم لا، يسرح على غير هدى في الأزقة، فريسة عماء جديد في الذاكرة. بدأت تناديه. في هدوء. ثم بقوة.

«إميل!»

ضغط الخوف على رثيها. فكرت في هاتفيهما الخليين، على سطح العمل، في وضعية التشغيل. ماذا فعل؟

هل فقد الذاكرة مرة أخرى؟

هل اتصل بأحد؟

«إمبيل!»

هل اتصل بوالديه؟

هل أخبرهما بمكان وجوده؟

سبق لها أن رآته يتعرض لثقب في الذاكرة. سبق لها أن رأت التشوش في عينيه. سبق لها أن سمعته يختنق بالفعل. سبق أن رأت في عينيه أنه لا يتعرف إليها. ماذا لو أن هذا هو ما حدث؟

هل أتيح لأحد وقتٌ لاصطحابه؟

عائلته؟ مستشفى؟ قسم الشرطة؟

لم تلاحظ أن الدموع تسيل على خديها. كما لم تسمع نفسها وهي تصرخ باسمه. إذا حدث أن اتصل بشخص ما، تكون قد حثت بوعدها. لقد أقسمت أن تسهر عليه، أن تبقيه بعيداً عن أهله، عن المستشفى. لو حدث ذلك...

لم تدرك متى برز سياستيان أمامها.

«جوانا... جوانا، هل أنت بخير؟»

بالكاد لاحظت أن قدميها ساقتاها إلى مطعم جور دو بيشر، وأنها جاءت تطلب مساعدته.

«ماذا هناك يا جوانا؟ لماذا تبكين؟»

حاولت جهداً أن تهدأ، أن تتكلم بصوتٍ متزن.

«لقد اختفى إميل.»

«ماذا؟»

«إميل ليس في عربة التخميم. هناك من بحث بين كل أغراضه. لا أدري إلى أين غادر.»

أجبرها أن تجلس على كرسيٍّ في الشرفة.

«انتظري... هل تعرضت عربة التخميم لعملية سطو؟»

هزت رأسها بالنفي. كانت تشعر أن إيصاحاتها مشوشة لكن الذعر كان يمنعها من أن تكون أكثر وضوحاً.

«لقد غادر... لا بد أنه تاه.»

هز سياستيان رأسه وأجبر نفسه ألا يتنسم.

«اهدئي يا جوانا. إنه كبير. ذهب ببساطة كي يركض. إنه يعرف المدينة ولن

يتوه.»

«المسألة مختلفة.»

«ما المسألة؟»

«إنه يفقد الذاكرة.»

«يجب أن نجده. لقد ضاع.»

باتت الآن متأكدة من ذلك. إذا استيقظ وقد تم محو ذاكرته، فلا بد أنه حاول أن يفهم ما الذي يفعله هناك، فقام بتفتيش الخزائن، ووجد ألبوم صورته، ووجد حافظة جوانا وأوراق هويتها التي تشير إلى جوانا ماري ترونييه. ربما تساءل: من تكون؟ وما الذي تفعله هناك؟

ربما وجد سجل ميلادها وشهادة زواجهما التي تحتفظ بها في حقيبة يدها. إذا لا بد أنه أراد تشغيل الهاتفين ليحاول أن يفهم. ربما اتصل بشخص ما... تجمّد دمها. إذا اتصل بأحد، فلا بد أنه اتصل بوالديه. لذلك ربما أخبرهما بمكان وجوده. إلا إذا نسي ذلك أيضًا. كان عليه أن يخرج، كان عليه أن يتجول في الطريق الرئيسي، في الأزقة، في دُعر تام، دون أن يفهم ما كان يفعله هناك.

وضع سياستيان كلتا يديه على ركبتيها في محاولة لتهدئتها.

«هل تريدان أن نتصل بالمشافي؟ بمركز الشرطة؟»

أومات بشكل هستيري.

«نعم. نعم، هذا ما يجب فعله.»

شاهدت رجلًا ينضم إلى سياستيان. ربا والده. شعره رمادي ومظهره صارم. تبادل الكلام. سمعت سياستيان يطلب منها رقم هاتفها. انصرف الرجل.

«سوف نتصل. حاولي أن تهدئي يا جوانا.»

شعرت كأنها ترجع إلى الوراء، وكأن رأسها يميل. إنه بسبب كلمات حاولي أن تهدئي، يا جوانا. وبسبب الذعر بداخلها. لقد سمعت هذه الكلمات نفسها من قبل، عندما كانت في حالة مشابهة من الذعر. لقد أخرجوه من الماء. حاولي أن تهدئي يا جوانا. بصوت ليون، أكثر صوت تكرهه في عالمها.

عادت إلى نفسها عندما وضع سياستيان يداً باردة على خدها.

«جوانا؟»

رفت بجفنيها عدة مرات. نظر إليها سياستيان في قلق.

«أنت مصابة بدوخة؟»

هزت رأسها بالنفي وحاولت النهوض، دون أن تعرف كم مضى من الوقت. لا شك أنها تعرضت لدوخة، هذا صحيح.

«هل اتصلت؟»

«لقد أخبرتكِ للتو.»

رقت بعينيهما مجددًا.

«ماذا؟»

«إنه في مركز الشرطة.»

شعرت كأن دلوًا من الماء قد سكب على رأسها. لم تعد تعرف ما إذا كانت تشعر بالارتياح لمعرفة أنه حي، في مركز الشرطة، أم بالذعر من فكرة العواقب القادمة.

«هل سيقونه لتسليمه إلى المستشفى؟»

«سأخذك إلى هناك.» أعلن سيامتيان.

لم تحاول المقاومة.

ركضت إلى بهو مركز الشرطة، وتبعها سيامتيان من كذب، وهو يهمس لها بأن تبطئ السرعة. كان إميل يجلس على كرسي في الردهة بجوار ضابط شرطة. من الوهلة الأولى، أدركت على الفور أنها كانت على حق.

أصابه فقدان ذاكرة جديد. عيناه تعبران عن شدة تامة، ويبدو غائبًا عن نفسه، وفريسة رعب لا يوصف.

«أتيت لأخذه. أنا الوصية القانونية عليه.» قالت جوانا لضابط الشرطة، دون أن تفكر حتى في إلقاء التحية عليه.

مدت له حافظتها وجميع أوراق هويتها التي استعادتها في وقت سابق من أرضية غرفة التخميم. رفع إميل رأسه نحوها، وجهدتها عيناه. «أنتِ أول ما سأنساه. أدركت أن هذا قد حدث. كانت عيناه فارغتين. لم تجد فيهما شيئًا مما شهدته خلال هذه الأشهر القليلة من السفر معًا. لم يتعرف إليهما. بل كان الأمر أسوأ من ذلك، لأنه بدا مذعورًا وهو يراها تقترب وتعلن أنها الوصي القانوني عليه.

«انتظري يا سيدتي الصغيرة.» أوقفها الشرطي وهو ينهض.

«هل أنتِ التي اتصلتِ بي؟»

«هذا أنا.» تدخل سياستيان ووقف بجانب جوانا...

«لقد ضاع...»

قاطعته جوانا فجأة:

«إنه يعاني من مرض ألزهايمر مبكر.»

أخذ الشرطي ينقل نظراته بالتناوب بين الأشخاص الثلاثة.

«كان هذا السيد يبدو مشوشًا بالفعل، ويعتقد أنه قد تم اختطافه.»

أغمضت جوانا عينيها برهة كيلا تستسلم للذعر الجديد الذي يحتاجها. وعلى

الرغم من كل ما فكرت فيه، إلا أنها لم تكن مستعدة للأمر. ماذا عليها أن تفعل إذا لم يستعد ذاكرته؟

هل تأخذه معها بالقوة؟

«أنا... هذا يحدث له... إنه يعاني من حالات عماء في الذاكرة.» تمكنت أن تقول

متلعثمة وفمها جاف.

«إنه... يتوه أحيانًا...»

«حسنًا...»

أخذ الشرطي الأوراق التي كانت جوانا تمدّها إليه منذ بضع ثوانٍ.

«وأنتِ...»

«زوجته. نحن متزوجان.»

رأت عيني سياستيان تسعان من الذهول أمام هذه الكلمات. بينما لا تعبّر عينا

إميل عن شيء سوى ذعر عميق إلى درجة أفقدته القدرة على النطق.

أشار لها ضابط الشرطة إلى مكتب جدران زجاجية، في البهو.

«سنسوي المسألة في مكثي.»

من خلال جدران المكتب الزجاجية، كانت جوانا ترى إميل، مسمّرًا كأنه في

حالة صدمة، إنه أبكم، يدها مثبتتان على ركبتيه، وسياستيان يجلس بجانبه. ما زال

يبدو بالقدر نفسه من الضياع، إلا أن عينيّه كانتا تعبران الآن عن عدم التصديق

أكثر من الذعر.

«قلت إنه خضع للمراقبة في مركزٍ للتجارب السريرية.»

«نعم.»

«في روان.»

«في روان.»

التقط الشرطي نسخة شهادة الزواج، التي خرجت من آلة التصوير.

«وأنه قرر وضع حدٍّ لهذه التجارب.»

أومات برأسها مرة أخرى وهي تحاول البلع.

«هل لا يزال يخضع للعلاج؟»

«لا.»

دوّن الشرطي بضع كلمات في دفتر ملاحظاته.

«يجب الانتباه له في المستقبل.»

«نعم... سأكون أكثر حذرًا.»

«ربما يجدر التفكير في إيداعه المركز... لتجنب هذا النوع من المواقف.»

كان حلقها جافًا لكنها بقيت متماسكة.

«سوف أرحاه.»

قلب الشرطي بطاقة هوية جوانا بين يديه.

«أليس لديه وصي قانوني آخر؟ أليس لديه أبوان؟»

شعرت أن أنفاسها تضيق. بالكاد تمكنت أن تقول بصوتٍ مخنوق:

«بعد زواجنا، لا وصي آخر.»

أوما ضابط الشرطة برأسه ووضع بطاقة جوانا فوق مكتبه.

«طبعًا. بحكم المنطق.»

طرحت السؤال الذي يحرق شفيتها:

«هل اتصلتم بأحد؟»

«عفوا؟»

«هل اتصلتم بوالديه؟»

«لا. تلقينا مكالمتك الهاتفية مع وصوله إلى مركز الشرطة.»

حاولت إخفاء الارتياح الذي اجتاحتها فجأة. مسحت يديها المتعرقتين بسروالها وابتلعت لعابها من جديد.

«هل يمكنني أخذه؟»

«بالطبع.»

نهض الشرطي وجمع النسخ التي قام بتصويرها. سلم جوانا بطاقة هويتها وشهادة زواجها ثم رافقها إلى باب مكتبه.

«كوني منتبهة في المستقبل...»

«نعم. أنا... آسفة على هذا الموقف المزعج.»

«أرجوك سيدتي لا داعٍ للأسف.»

كان أول وجه تراه حين انجذبت إلى البهو، هو وجه سياستيان الشاحب والمضطرب الذي نهض للقائها قائلاً:

«أعتقد أنه قد استعاد وعيه.»

ابتعد سياستيان جانباً قليلاً، فرأت إميل وقد قوّس كتفيه ووضع رأسه بين يديه. بدا كأنه ينتحب.

وضعت يدها فوق كتفه في لطفٍ شديد حتى لا تخيفه. رفع رأسه نحوها. لم تكن هناك دموع على خديها. مزيج من الحزن والمرارة فقط. فتح فمه وقال:

«جوانا؟»

أومأت برأسها وهي تكافح للسيطرة على أعصابها.

«نعال، سنعود إلى المنزل.»

تبعها خارج البهو تحت أنظار رجال الشرطة. كان سياستيان ينتظر في الساحة المشمسة في الخارج.

«لا أعرف ما الذي حدث.» تتمم إميل.

«لا بأس.»

راح الثلاثة يسيرون الآن في صمتٍ في شوارع بيريك دو مير المشمسة. سار سياستيان في المقدمة، ويداه في جيبيه، وهو لا يعرف ما إذا كان عليه البقاء معهما أم تركهما بمفردهما. إلى الخلف قليلاً سار إميل وجوانا التي بدت مرتاحة، على الرغم من بقاء وجهها شاحباً للغاية. لم يتوقف إميل عن النظر إليها في قلق.

«لقد بكيت.» قال.

«لا.»

«بلى. لقد سببتُ لك الخوف... وبكيت.»

ويبدو أن هذا كان يدمره. ارتأت جوانا أن تغير الموضوع.

«منذ أن غادرنا مركز الشرطة هذا، وأنا أقول لنفسي، ماذا لو لم نكن قد قمنا بذلك؟

ماذا لو لم نكن متزوجين؟»

لم يضيف أحدهما شيئاً. كانا يعرفان بالضبط ما سيحدث.

توقف سياستيان عند زاوية الزقاق. وأشار إلى مطعم والده في البعيد.

«سوف... سوف أغادركما...»

كان متردداً وهو ينقل نظره بينهما ويبدو عليه عدم الارتياح.

«أخبراني بالمستجدات... أرجو أن يتحسن وضعك يا إميل.»

أوماً إميل وقال:

«أشكرك على مساعدة جوانا في العثور علي.»

«لا موجب للشكر.»

حك سياستيان حنجرتَه وأخذ ينقل ثقله من قدمٍ إلى أخرى بسرعةٍ أكبر، كأنه يريد أن يقول شيئاً.

«لم أكن...»

تردد للحظة.

«لم أكن أعلم أنك مريض...»

ثم جاء الباقي:

«لم أكن أعلم أنكما متزوجان.»

بدا حزينًا خائبًا. أجابت جوانا ببعض التحفظ:
«لم يكن مهمًا أن تعرف.» ثم أضافت بشيء من اللطف:
«سيذهب ليرتاح. إلى اللقاء في يومٍ مقبل.»
«نعم... إلى اللقاء في يومٍ مقبل.»

«لقد كسرت قلبه.»

فوجئ إميل بنفسه وهو يحاول المزاح. لم يكن لديه رغبة في الضحك، بل كان يحاول فقط أن يجعل الأمور أقل ثقلًا وألمًا.

«سوف يتغلب على الأمر.» أعلنت بتجرّد غريب.

بدأت جوانا مهزوزة الكيان. كان كلاهما شديدي الشحوب عندما جلسا حول الطاولة القابلة للطوي أمام عربة التخيم.

«هل أعد لك فنجان شاي؟» اقترح إميل.

هزت رأسها بالرفض.

«الأفضل أن ترقد في الفراش.»

«لا أشعر بالنعاس.»

نهض وذهب لملء الغلاية. كان يشعر بالذنب لأنه سبّب لها كل هذه الشدة. بدا كل شيء أبسط في البداية. سافرا معًا. كان يفقد ذاكرته ولا يتأثر انفعاليًا. كان مستعدًا لهذا. ودّع الجميع عندما غادر روان. وافقت على الشروط واستطاعت أن تبقى بعيدًا عن عائلته.

أما الآن، فقد مضى أكثر من أربعة أشهر. ما الذي فعلاه كي يتغير كل شيء إلى هذا الحد؟

كان كل شيء يبدو بسيطًا للغاية... لم يكن يفترض بها أن تبكي أمام فكرة فقدانه... ولم يكن يفترض به أن يذبل أمام فكرة نسيانها.

راح يعد الشاي بيدين مرتجفتين قليلًا. تسلل إلى رأسه صوت ضعيف. ربما لم يكن عليهما أن يتزوجا. ربما لم يكن عليهما أن ينتقلا إلى تلك الشقة معًا، ويتبنيا قطًا، ويناما في سرير واحد، ويتشاركا قطعة كاتو، بيقظة تامة...

ربما كان عليهما الاكتفاء ببقاء أحدهما غريبًا عن الآخر. لقد كانت على حق في ذلك اليوم، في جزيرة نادير. كان سعيدًا أول الأمر ثم خمد مؤخرًا... لكن ليس للأسباب التي تخيلتها.

لقد سار في الطريق، ولم يبق لديه ما يخسره على الإطلاق، ولا أحد ليتمسك به. لقد قبل فكرة ترك والديه وأخته وأفضل صديق له. كان نصف حياته قد انتهى عندما رحلت لورا. وعند الإعلان عن المرض، انطقت بشكل نهائي الشعلة الضعيفة التي بقيت تومض منذ رحيلها. ركب هذه العربة في سلام، لأنه لم يعد لديه شيء هذه المرة، وقرر الرحيل نهائيًا. لم يعد يترتب عليه سوى الاستمتاع ببعض نترات السعادة التي قد تهبها الحياة له، قبل أن يختفي. الصفقة كانت واضحة. ولكن بدلًا من أن يغادر بمفرده، اضطر إلى نشر هذا الإعلان الغبي... التقط هذه الفتاة الضائعة تمامًا من منطقة استراحة على الطريق السريع، وبعد ذلك، بدلًا من أن يتلاشى من الحياة رويدًا رويدًا، تشبث بها بقوة أكبر. بسببها. لأنها أظهرت له كل جمال العالم، وكل نقاء المشاعر، وكل الخير الذي يمكن أن ينبعث من الكائنات. لقد تعلم أن يراها تبسم كل يوم أكثر من اليوم السابق، وتكتب في دفتر ملاحظاتها، تعلم أن يعتني بـ بوك، ويراقب السماء، ويجلس متربعا فوق جسر عائم.

ابتلع بصعوبة القصة التي تسد حلقه. صحيح أنه ينطفئ، يستسلم للقلق والخوف يومًا بعد يوم. وذلك كله بسببها. لأنها أيقظته على الحياة بطريقة غير متوقعة على الإطلاق. واليوم يشعر أنه حي أكثر من أي وقت مضى... واليوم، بفضلها، لم يعد يريد مغادرة العالم. هذه الفكرة تخيفه. وأصبحت فكرة اختفائها من ذكرياته لا تطاق بالنسبة له.

حاول ألا يخنق وهو يمسك بالغلاية ويسكب الماء في الفنجاني.

«لقد حدث ذلك.» قال بصوتٍ مخنوق.

«حدث ذلك.»

أخذًا يرش فان الشاي في صميت، وهما يستعيدان بعض اللون. سألت جوانا بصوتٍ باهت: «الهاتفان... كانا في وضعية التشغيل... هل اتصلت بأحد؟» أجاب، وأنفقه في فنجانه.

«نسيتُ رقم التعريف الخاص بي... وهاتفني مقفل برمز تعريف...»

أغمضت عينيها في ارتياح وسألت من جديد: «وماذا عن هاتفني؟ ليس فيه رمز تعريف...»

بدا أنها خائفة مما سيصيب به.

«صحيح... لم أتعرف إلى أي اسم في الدليل. لقد أصابني ذلك بالجنون... لذا خرجت وتركت كل شيء على هذا النحو.»

فهمت من خلال نبرته المتهربة أنه لم يعد يريد الحديث عن ذلك. عادا إلى شرب الشاي في بطء، وعيونهما تحدق إلى الفضاء.

«يستحسن أن تغادر بيرياك، أليس كذلك؟» همست جوانا بعد برهة.

هز كتفيه. لقد فقد مفهوم الزمن. وهذا عَرَض آخر من أعراض المرض الذي يقتله في بطء.

«هل نحن هنا منذ وقتٍ طويل؟» سأل.

«منذ أسبوعين.»

لم يعرف إن كانت تلك مدة طويلة أم لا. كان يريد المغادرة واستئناف الرحلة، لكن جوانا بدت مرتاحة هنا جدًا بصحبة سياستيان ولاكي. لكنها أضافت:

«ألا تريد رؤية البحر؟»

أمعنت النظر إليه، لكنه لم يرمش.

«لم نعد بعيدين عنه كثيرًا...»

شعر أنها هي أيضًا تريد المغادرة، لذلك وافق.

«نعم. يمكننا الذهاب لرؤية البحر.»

لم يعرف ما إذا كان الجو شديد البرودة تلك الليلة في عربة التخميم، أم أن القلق هو الذي يجعله يرتجف هكذا. كان كل شيء فيه يرتجف. كان فكه متصلبًا، وأسنانه تصطك، ويجد صعوبة في التنفس وكأن كمامة تقبض عليه، وكأنه سيموت الليلة مختنقًا بمخاوفه ذاتها.

«إميل؟»

دعا ألا يتسبب في إيقاظ جوانا، لكن بعد فوات الأوان.

«إميل؟» كررت في همس.

رأى بوك في طرف السرير، متكورًا ونائمًا في عمق. إنه الوحيد النائم.

«ماذا؟» قال متظاهرًا بأنه لا يعرف لماذا همس في منتصف الليل.

«هل أنت بخير؟»

وأضافت على عجل:

«هل أصابك إعتام جديد في الذاكرة؟»

استدار كي يواجهها. استطاع في العتمة أن يستشف ملامح وجهها وشعرها

فوق الوسادة.

«لا. أنا بخير. فقط أشعر أنني مُثَقَّل قليلًا.»

رأى تجمعيدتين صغيرتين تتشكلان على جبينها.

«إنه شيء لا يُذكر. عودي إلى النوم يا جوانا.»

ربما انقضت ساعة. غيّر بوك موقعه مرتين أو ثلاث مرات وبقيت جوانا بلا

حراك. كان إميل يعرف أنها لم تنم. كان على يقين من ذلك.

«جوانا...»

ما كان للهمس أن يوقظها، إلا أنها فتحت عينيها على اتساعها وراحت تحرق

إليه.

«نعم!»

تردد مطولاً لكنه قال لنفسه إنه بعد ما مرابه معًا هذا الصباح، فإن الأمر يبدو

له طبيعيًا.

«أعتقدين أنه...»

أبتلع لعابه.

«أعتقدين أن بإمكانك... أن تأتي إلى هنا...»

وأنتهى بتنهيدة:

«... بقربي؟»

رأى قامة جوانا النحيلة ترفع الغطاء وتقترب في صمت. وضعت رأسها فوق كتفه وإحدى يديها الصغيرتين فوق ذراعه. لم يجرؤ أن يضمها أكثر، خوفاً من كسرها.
«شكراً.» همس خلال شعرها.

17 أكتوبر، الساعة 6:50 مساءً

فوق الجسر العائم. غروب الشمس الأخير فوق بركة دول.
سنغادر غداً إلى باج، القرية التي نصحنها سياستيان بزيارتها عندما اصطحبنا في جولة بالقارب. بعد باج سنذهب إلى غرويسان لرؤية البحر.
حل الخريف هنا. فقد برد الطقس، وتلونت الأشجار بتدرجات البرتقالي، وبدأت مدفأة الغاز تعمل بأقصى طاقتها.

أمضت جوانا فترة ما بعد الظهر في الميناء، ثم على الشاطئ مع الكشبان الرملية، كي تخلد في لوحتها، اللحظات الأخيرة في بيرياك دو مير. أعلم أن سياستيان كان هناك أيضاً، وأنه أراد قضاء لحظة أخيرة معها. لا أعرف ماذا أخبرته عن الزواج. على الأرجح أنها أخبرته بالحقيقة.

دعوانه هذا المساء لتناول العشاء في العربة كي نشكره على استقباله لنا في بيرياك، ونودعه. قمت بإعداد غراتان الخضار (من كان يصدق أنني سأتمكن يوماً من طهي أشياء كهذه؟). وبما أنه كان لدي بعض الوقت قبل وصول سياستيان، فقد اغتيمت الفرصة وذهبت للجلوس فوق الجسر العائم. إنني بهذا الشكل أواجه غروب الشمس الأخير فوق بركة دول. طيور النحام الوردي هناك، وكذلك البريق الياقوتي في الماء. سأفتقد هذا الجسر العائم ومشاهد الغروب هذه. أحب أن أقول لنفسي إن المشاهد التالية ستكون استثنائية بالقدر نفسه.

اجتمع الثلاثة حول الطاولة، على مقعد عربة التخميم، ووضعت المدفأة عند أقدامهم. رغم ذلك، كانت جوانا متدثرة بستر سوداء كبيرة ويلف إميل وشاحاً حول رقبتة. يبدو أن سياستيان هو الوحيد الذي كان يستطيع التأقلم مع برودة منتصف أكتوبر. أحضر سلة ممتلئة بالبرتقال (للتحلية) كما أوضح. أكلوا الغراتان وهو يستفسر عن وجهتهما المقبلة. تجنب الجميع إثارة حادثة مركز الشرطة، ومرض إميل. سأل سياستيان إذا كان بإمكانها أن يرسل إليه بطاقات بريدية للأماكن التي سيذهبان إليها، حتى «يسافر معها قليلاً» فوافقا في سعادة.

أحضرت جوانا الآن سلة البرتقال إلى الطاولة، وأحضر إميل الغلاية والفناجين الثلاثة. راح سياستيان يلهو مع بوك بقطعة رباط انتزعها من حذائه. «سيسود السكون هنا.» قال متنهّداً.

«شتاء بيرياك يميل إلى الكآبة.»

وأوضح أنه لا تسقط ثلوج بشكل عام ولا يأتي الكثير من السياح. ويعمد هو ووالده في أغلب الأحيان إلى إغلاق المطعم بين يناير ومارس. نهضت جوانا بعد ذلك وبحشت في خزانة الحائط لبضع لحظات قبل أن تعود بلوحتين وضعتهما على الطاولة أمام سياستيان.

«هذا لك.»

بدا أنه لم يدرك ما قالت له.

«أنا؟ لي أنا...؟»

«إنها هدية.»

أضاء وجهه. لا بد أن الصبي كان مغرمًا، كما فكّر إميل.

«يمكنك وضعها في مطعم والدك إذا شئت... أو في منزلك المستقبلي.»

كانت جوانا متدثرة بشال أسود. كان النسيم منعشًا يحمل معه هواء البحر. توقفنا إلى جانب الطريق ونظرنا إلى بلدة باج فوق تلة وسط البرك. أعجبتهم أكواخها الحجرية، وأسطح القرميد، وطيور النحام الوردي في برك المياه الساكنة، والقوارب الصغيرة الزرقاء والبيضاء.

لقد برد الطقس كثيرًا. لم يجرؤ بوك أن يتقدم خطوة إلى الخارج. «تبدو جميلة، أليس كذلك؟» قالت جوانا.

في تلك الليلة أيضًا، ارتعد إميل وأنت للالتصاق به كي يهدأ. يبدو أن ذلك يحقق الغرض. باتا الآن مرتبكين قليلاً، مثل مراقبين خجولين. «هل نوقف العربّة هنا؟» سألت.

«نعم. يبدو لي المكان مناسبًا.»

هناك منصة إلى جانب الطريق، ومنها تكون الإطلالة على باج جميلة. لديها جدار حجري صغير للجلوس عليه والاستمتاع بالمنظر. وبإمكانها تغيير الموقع في الغد إذا كانت ضوضاء المرور ملموسة جدًا.

«لقد خطر لي شيء...» همست جوانا. التفت إليها.

«يهدئ القلق...»

أوما برأسه لتشجيعها على متابعة كلامها.

«كنت أقول لنفسى... حسنًا، أعتقد...»

بدت مترددة، وعلى وشك التخلي عن فكرتها، لولا أن إميل شجعها بنظرته.

«أعتقد أن ممارسة التأمل بيقظة كاملة قد يساعد...»

لم يفهم ما تقصده، ولم يرغب في الحديث عن حالات إعتام ذاكرته أو مخاوفه، كان يريد أن يُترك حتى يتمكن من نسيان الأمر لبضع ثوانٍ.

«أعتقد أن هذا سيلطّف حياتك اليومية... ويساعدك على ترسيخ نفسك في أثناء حالات إعتام الذاكرة.»

«ترسيخ نفسي؟»

شدت شالها حول كتفها.

«نعم، ترسيخ نفسك في الحاضر. أعني أن...»

بدا أنها تبحث عن كلماتها في الأفق، في السماء الرمادية - البيضاء.

«ماضيك بصدد التلاشي... لا حول لك ولا قوة حيال ذلك. لا يمكنك التحكم في ذلك...»

كانت تتحدث بصوتها الناعم كعادتها.

«ومستقبلك...»

«مستقبلي لا وجود له.»

ابتلعت لعابها، وأومات مؤيدة.

«مستقبلك يتلاشى أيضًا. لذلك...»

توقفت برهة واعتقد أنه فهم إلى أين تريد الوصول:

«لذلك فإن حاضري هو كل ما تبقى لي.»

أدارت رأسها نحوه وبدت مرتاحة لأنه فهم.

«بقيت لك اللحظة الحاضرة. وهذا... هذا جيد، بطريقة ما.»

نظر إليها بشيء من المرارة.

«حقًا؟»

«نعم. كَتَبَ والدي على جدار غرفة المعيشة العبارة التالية: تمتاز اللحظة الحاضرة على كل اللحظات الأخرى بأنها ملك لنا.»

لقد مر وقت طويل منذ أن أسمعته أي اقتباس. لقد اشتاق تقريبًا إلى ذلك.

«كان على حق. وأعتقد أنك إذا تعلمت أن تحيا اللحظة الحاضرة، سوف تعاني أقل. إذا قررت أن تحيا اللحظة الحاضرة فقط، وترك ماضيك وشأنه، فسيكون الأمر أقل إيلامًا.»

«يبدو الأمر سهلًا جدًا وأنت تتحدثين عنه. دع الماضي يمضي.»

«لم أقل قط أن الأمر سهل.»

يبدو من صوتها أنها تتكلم عن شيءٍ اختبرته. هز إميل كتفيه، وكف عن مراقبة طيور النورس والتفت نحوها.

«موافق. أود أن تعلميني.»

ارتسمت على وجهها ابتسامة راضية، وإن كانت مشوبة ببعض الحزن.
«حسنًا. أعتقد أن هذا سوف يساعدك.»

لم يكن يعرف ما إذا كان ذلك سيساعده في التغلب على القلق أم لا، ولكن قضاء وقتٍ مع جوانا بوصفها أستاذته سيجعل حياته اليومية أكثر لطفًا بالتأكيد.

«جوانا، هل يمكنك أن تعطيني العبارة التي اقتبسها والدك... حتى أتمكن من تدوينها في دفتر ملاحظاتي؟»

«نعم. بالطبع.»

التمعت عيناها، كما لو أنها فكرت فجأة في شيءٍ ما. وأضافت:

«يمكننا كتابتها على باب العربية، ما رأيك؟»

تخيّل جوانا، بمشطها الجمشت في شعرها، منكبّة على تشكيل حروفٍ جميلة على جدار العربية، ووافق في سرور.

«فكرة عظيمة.»

«كان والدك يقوم إذا بنسخ اقتباسات على الجدران؟»

«ماذا؟»

بدأ المطر يهطل في الخارج، وهما يشعران بالدفع داخل العربية. كانت جوانا ملفوفة في شالها، وفي يدها قلم أسود. أعادت تمرير القلم عدة مرات فوق الحروف التي خطتها على مدخل عربية التخميم. كانت رؤيتها وهي منهمكة في الكتابة شبيهة إلى حدٍّ ما بالرؤية التي تخيّلها إميل، ولم يكن يتقصها سوى مشط الجمشت.

«هل كان والدك من علمك أن تكتبي الاقتباسات على الجدران؟»

ابتسمت ابتسامة فتاةٍ صغيرةٍ مشاكسة. يا إلهي! كم تغيرت خلال بضعة أشهر!

«نعم. كان هناك عبارات في كل مكان.»

«إنه شيء...»

لم يعرف الكلمة التي يجب استخدامها.

«إنه شيء مبتكر.»

أصبحت ابتسامة جوانا أكثر مشاكسة.

كان هناك عبارة مكتوبة على جدار المرحاض، مقتبسة من دينو بوتزاتي وتقول:

«يسهل عليك تحمل البؤس عندما تتصرف مثل لورد عظيم.»

سماع هذه الكلمات من فم جوانا، التي عادةً ما تكون خجولة للغاية، يحمل نفحة كوميدية لأبعد حد. وهو ما جعله ينفجر ضاحكًا.

«هل أحببتها؟» سألت وقد توقفت لثواني عن الكتابة.

«نعم. أريدها في حمامنا.» أعلن.

«سأترك لك إذا شرف نسخها.»

«أشعر بالإطراء...»

استعدادا جديتهما. كان بوك نائمًا في عمق فوق المقعد الطويل. كان يمضي وقته في النوم. مرت جوانا بالقلم مرة أخيرة فوق الحروف السوداء. تمتاز اللحظة الحاضرة على كل اللحظات الأخرى بأنها ملك لنا. ثم كتبت تحتها اسم المؤلف، بشكل أصغر وأدق. تشارلز كاليب كولتون.

«ها قد انتهينا.» قالت وهي تقف أخيرًا.

انضمت إلى إميل على المقعد أمام الطاولة. وأخذ الاثنان ينظران إلى الجملة الممتدة عبر الباب الأبيض. كانت تعطي بيتها الصغير مظهرًا يشبه الحياة، يعطيها لمسة شخصية ومضحكة قليلًا، مثل شرارة من الحميمية.

«أعتقد أنني كنت أتمنى لو كان لدي أب مثل أبيك!» أعلن إميل، وعينه تنظران إلى العبارة المقتبسة.

سألته في هيئة جدية:

«والدك لم يكن يجب الاقتباسات؟»

«لا أظن ذلك... والدي كان رجلًا صالحًا. لكن أدركت أنني لم أعرفه جيدًا.»

تلقت جوانا كلماته بتقطعية حاجبين.

«كان يمضي الكثير من الوقت في العمل. وعندما يأتي إلى المنزل، يكون في أكثر الأحيان مرهقًا. حاول أن يكون حاضرًا من أجلنا ولكن... أتخيل أنه كان دائم التفكير في همومه. كثيرًا ما يغوص في أفكاره ونادرًا ما يكون حاضرًا. مشاكل العمل، وأجرة البيت التي يجب دفعها، ومشاكل مع ابنه البكر... لا أعرف حتى ما الذي كان يحبه. الآن أدركُ ذلك. لا أعرف ما الموسيقى التي كان يحب سماعها، أو الأحلام التي كانت تراوده...»
هز رأسه.

«هذا لا يصدق، أليس كذلك؟»

قبل أن يتعرف إلى جوانا، لم يدرك قط أنه عاش بالقرب من والده دون أن يعرفه. كان الوقت الذي جمع بينهما، ضائعًا. كان والده نموذجًا لرجل ابتلعت حياته اليومية، رجل لم يعرف كيف يكون في الحاضر، وأمضى حياته قلقًا بشأن المستقبل. أخذ يتساءل عما لو أتاحت له فرصة كي يعيش فترة أطول سيتهي به الأمر مثل والده، غارقًا في روتين كتيب. كان مغامرًا مقدمًا عندما كان أصغر سنًا. كان حيًا. ثم مع رحيل لورا، أصبح يشعر بالمرارة واللامبالاة. كان سيتهي به الأمر حتمًا مثل والده، ولكنه سيفرق بالأحرى في الماضي... متحسرًا على نفسه، متجاهلاً الحاضر. ثم نزل به المرض، وجاء السفر، واللقاء مع جوانا.
«خسارة.» تمتمت جوانا.

حتى إميل رأسه، وعيناه ما زالتا تنظران إلى الاقتباس المكتوب على الباب.

«أحببتُ هذه اللمسة الشخصية الصغيرة.»

«أنا أيضًا.» قالت جوانا.

«يجب أن نستمر في تزيين العربة... يمكنك تعليق بعض لوحاتك.»

يبدو أن الفكرة قد راقَت لها، فابتسمت بخفة.

«نعم.»

«علينا أن نعلق لوحة الكائنات المتحولة.»

«متحولة؟»

عبرت وهي تحاول معرفة اللوحة التي يتحدث عنها.
«لوحة المخلوقات المهجينة الشبيهة بزرافات وطيور لقلق.»
اتسعت عيناها وهي تهتف:

«لم ترَها!»

أخذ يضحك بشكلٍ خرج عن سيطرته، وجعلته هيثُتها المرعوبة، يزداد ضحكًا.
«بلى، رأيتها.»
«ولكن...»

لم يعد يستطيع التوقف عن الضحك.

«لكنني أخفيتُها!»

«يبدو أنك لم تخفيها جيدًا...»

«إميل!»

لبثت مترددة لا تدري هل تثور محتجّة، أم تتلعثم من الخجل.

«لا عليك يا جوانا.» قال إميل وهو يغص بالضحك.

«إنها ألطف لوحة رأيتها في حياتي.»

هذه المرة، اصطبغ وجهها بأجمل حمرة شاهدها إميل على الإطلاق. سارعت
للنهوض، وأدارت له ظهرها معلنةً:

«سأسخن الماء لإعداد الشاي.»

رأى قامتها السوداء الصغيرة تهرب، لتتتابه فجأة رغبة وحيدة في أن يلحق
بها ليضمها بين ذراعيه ويقبل شعرها. وكان ذلك غير مرجّح حتى أنه شعر أنه
اصطبغ بدوره بالحمرة.

«سأسخن ذاك الاقتباس في الحمام.» أعلنَ على عجل.

«هل تكرريه على مسمعي؟»

«اجلس.»

«هنا؟»

«نعم، هنا.»

«أيمكنني وضع سترتي تحتي؟ تبدو الأرض قاسية.»

«نعم. الغاية هي أن تكون مرتاحًا.»

كانا في بقعة صغيرة من ترابٍ وعشب، مقابل بحيرة باج وسيجان، المتاخمة لمدينة باج. كان الطقس يتناوب منذ أمس بين الماطر والمشمس، واستغلا فترة هدوء للخروج وبدء جلسة التأمل الأولى المخصصة لإميل، في الهواء الطلق. كان الهواء باردًا والغيوم تنذر بالمطر.

«أنا جاهز.»

جلس متربعًا وكان ظهره مستقيمًا. جلست جوانا بجانبه، ووضعت أرضًا، سلة الخوص التي تكوّم فيها بوك.

«إذا يا أستاذة، ما التمرين؟»

حافظت جوانا على هيئةٍ جديدة تمامًا.

«أولًا، أريد أن تركز على تنفسك، أن تعيه. تعي إيقاعه، الأحاسيس الناجمة عنه. الهواء الذي يدخل أنفك، ويمر عبر حنجرتك، إلى رتيك، إلى بدنك... حجابك الحاجز الذي يتسع... الهدوء الذي تمنحك إياه تلك العملية...»

«ألم يكن ممكنًا القيام بذلك في الداخل؟»

«لا، لأنك بعد ذلك سوف تركز على الريح.»

«الريح؟»

«نعم، الريح. الشعور ببرودتها المنعشة، وملامستها لبشرتك، رائحتها البحرية، ملوحتها، الصوت الناجم عنها...»

«برنامج ضخم.»

«يجب أن تركز بشكل أفضل.»

«سأفعل يا معلمتي.»

بقيت خارج لعبته، وحافظت على هيئةٍ جديدة للغاية.

«سيكون الهدف هو أن تلتزم الصمت طبعًا، وتحاول ألا تدع الأفكار تشتت انتباهك. أفرغ ذهنك من الأفكار، ولكن إذا ظهرت فكرة شاردة، فما عليك سوى النظر إليها وهي تمر. بحياد تام. لا تحاول تفسير ذلك. اتفقنا؟»

«جوانا... أعتقد أنها ستمطر.»

تجاهلته تمامًا وأغمضت عينيها. لا خيار أمامه سوى تقليدها.
«جوانا...»

فتح عينًا نصف فتحة. لا بد أن عشر دقائق قد مرت على انغماسهما في تمرين التأمل، وبدأ يشعر ببعض القطرات على جلده.
«جوانا.» كرر.

بقي وجهها حياديًا تمامًا، وبقيت عيناها مغمضتين.
«أظن أنها تمطر.»

خرج بوك من سلته وبدأ يدور حولهما، بحثًا عن فرائس حتمًا. لا يبدو أن المطر يزعجه.

«هل تسمعينني؟» أصرّ، لأنها لم ترمش بعد.
همست من بين شفتيها.

«ممتاز. ركز على إحساسك بالمطر فوق جلدك.»

تساءل عما إذا كانت تسخر منه أم لا، إلا أنه رغم ذلك امتثل على مضض.
«جوانا، إنها تمطر حقًا هذه المرة.»

بدأ المطر الخفيف يشتد، والقطرات تتساقط بقوة أكبر على وجهه. فتح عينًا واحدة نصف فتحة. نهضت جوانا.

«ماذا تفعلين؟»

كان شعرها البني ملتصقًا بوجهها. التقطت سلة بوك التي تكور فيها الهر.

«اعتقدت أنه من المفترض أن نشعر بالمطر على بشرتنا!»

«هذا ليس مطرًا. إنه سيل قادم.»

بالفعل، أخذت سحب كبيرة تندرج في السماء، وتتحرك فوق البحيرة. قفز إميل بوثية واحدة.

«هل كنت ستنسحبين دون أن تخبريني؟»

«كان مظهرك يدل على التركيز الشديد...»

بات على يقين هذه المرة، أنها تسخر منه، حتى وإن حافظت على هيبتها الجادة.
«هذه وقاحة، يا جوانا!»

علّقت سلة بوك على مرفقها ووضعت شالها على رأسها.
«من الأفضل أن نركض.»

في هذه اللحظة، تضاعف شدة المطر، وعلا ضجيج اصطدام قطراته بسطح البحيرة، يصم الأذان، ويأشر كلاهما بالركض دون إبطاء.

«كانت تلك فكرة غبية حقًا، يا جوانا، لقد حذرتك! أخبرتك أنها ستمطر!»
ركضا بلا توقف، وكلُّ منهما يتسبب برش الآخر بمياه البرك التي يعبرانها. لم يعد ممكناً تمييز رأس جوانا، وقد أخفاه الشال الذي تلى فوق وجهها. كانت تركض دون أن ترى تقريبًا. إضافة إلى سلة الخوص تلك، المتدلية من ذراعها، والتي يبرز منها رأس بوك المبلل تمامًا، والذي بات شبيهًا برأس فأرٍ مرعوب. أخذ إميل يضحك، ضحكة عصبية وخارجة عن السيطرة.

«ماذا هناك؟» سألت جوانا، لاهثة.

«انظري إلى حالنا!»

لم يكن يرى وجه جوانا تحت شالها الأسود المبلل، لكنه يستطيع أن يتخيلها وهي تبسم.

«يبدو أنك مثل مومياء عملاقة تصحب أبا الهول في نزهة.»

هذه المرة سمعها بوضوح وهي تضحك، وأصبح صوت ضحكها أعلى من صوت المطر. لم يعد بوسعها التوقف عن الضحك. أخذًا يضحكان ويحاولان مواصلة الجري والقفز في البرك. ضحكا أكثر عندما انزلق إميل فوق أجعة صغيرة من العشب وكاد يسقط أرضًا. انتهى بهما الأمر بالتوقف على بعد أمتار قليلة من عربة التخيم، دون أن يعرفا سبب ضحكهما الشديد. كل ما عرفه أنه لم يضحك هكذا منذ سنوات.

«لا تنهض!»

«ماذا؟»

استيقظ للتو في حجرة النوم. لا بد أن الجو كان لطيفًا في الخارج لأن ضوءًا ناعمًا يتسرب من أسفل عربة التخيم. من الواضح أن جوانا كانت مستيقظة أيضًا، لكنها لبثت بلا حراك على الحشية وعيناها مثبتتان على السقف.

«لا تنهض.» كررت.

«اغتمم الفرصة لتجربة حالة اليقظة التامة.»

بذل جهدًا حتى لا يبدو غاضبًا جدًا وارتمى إلى الخلف.

«حسنًا.»

كل ما يعرفه أنه جائع جدًا، ويريد التهام شطائر الخبز المحمص مع الزبدة.

«حاول أن تشعر بكل جزءٍ من جسدك على الفراش، جسدك الذي يستيقظ في

بطءٍ بعد نوم الليل، تنفسك، ثقل جفونك... إنها لحظة ثمينة، لحظة الاستيقاظ.

الآن لا نزال نصف مستيقظين، وأماننا اليوم كله. لا شيء يدعو للاستعجال.

يمكننا أن نأخذ كل وقتنا...

امتثل لإرضائها لا شيءٍ آخر.

«جوانا، أشعر بثقل...»

رأها تبتسم ابتسامة راضية.

«شيءٌ جيد. طبيعي. لقد بدأت تروّض أحاسيسك.»

«هناك ثقل كبير عند مستوى البطن.»

أخذ جفناه يرتعشان.

«أوه؟»

«نعم. مثل شيءٍ يزن كيلوجرامين ويخرخر.»

فتحت عينيها بالكامل هذه المرة وجلست. اكتشفت أن بوك، يجلس فوق بطن

إميل، متكورًا ويخرخر في سعادة.

«يا غبي...»

«لستُ أنا!»

«سأنهض. تدبّر أمرك.»

«لكن يا جوانا، لست أنا المسؤول، إنه بوك!»

لقد فات الأوان، بدأت ترحف إلى طرف الحشية.

«لقد جاء وألهاني عن التركيز!»

كانت قد نزلت السلم.

«أنتَ لم تكن تركّز على أي حال.»

«هذا غير صحيح! جوانا!»

اختفت. لم يستطع منع نفسه من الضحك، محاولاً القيام بذلك في هدوءٍ قدر الإمكان.

«جوانا! أنت تعيقين استيقاظي بوعي تام! أنت تشوشين الكارما الخاصة بي! لم أعد أسمعك! جوانا؟ موجاتكِ السيئة تتفاعل!»

راح يضحك كطفلٍ وهو مقتنع بأنها تبتسم هناك أيضًا، في الأسفل.

«دورُك في الكتابة.»

«ليس لدي أي إلهام.»

«تكفي بضع كلمات.»

كانا جالسين في مقهى صغير في وسط المدينة. سلمته جوانا البطاقة البريدية التي اشترتها لسياستيان، والتي تمثل منظرًا من الجو لمدينة باج. وعلى وجهها الخلفي كتبت بضعة أسطر بخط يد متقن.

عزيزي سياستيان،

ها نحن على وشك المغادرة. لقد استمتعنا حقًا باكتشاف مدينة باج، بناءً على نصيحتك الجيدة. الشواطئ هنا أيضًا برية ولم تتعرض لأي تغيير، كما تعلم على الأرجح. كان لاكي سيحب مطاردة النوارس فيها. لم أتمكن من الرسم كثيرًا هنا. كان الطقس ممطرًا في كثير من الأحيان. أرجو أن أتمكن من العودة إلى الرسم عندما نصل إلى غرويسان على شاطئ البحر.

أقبلُكَ

جوانا

رفع إميل رأسه وحدث إلى وجه جوانا بسحنةٍ ساخرة.
«أقبلُك...»

نظرت إليه غاضبة.

«كان من الأفضل لو أنك كتبتِ له قبلاتي الحارة لك... بل كان عليك أن
تكتبي قبلاتي الحارة المبللة.»

ألقت بقلمها في وجهه، وخفض رأسه في اللحظة المناسبة لتفاديه.
«اكتب!» قالت أمرّة.

كان يعشقها عندما تكون بهذه الهيئة المتسلطة.

«وعندما تنتهي ستكتب على هذه البطاقة الموجهة لـ ميرتيل.»

خطّ بضع كلماتٍ لـ سيباستيان:

رحلتنا متواصلة. وكما وعدناك، هذه أول بطاقة من سلسلة طويلة، كما أرجو.
سيجعلنا البرد نتوقف على الأرجح لبضعة شهور. اعتنِ بنفسك. إلى لقاء قريب.
إميل.

بعد ذلك، أولى عناية خاصة بالكتابة إلى ميرتيل، وقد لاحظ مقدار افتقاده
للسيدة العجوز.

العزيزة ميرتيل،

قادنا طريقنا إلى مكانٍ بالقرب من البحر، باج، مدينة الصيادين ومزارعي كروم
النبيذ، الضائعة وسط البحيرات. بدأت جوانا ترسم على القماش. لا بأس برسمها
حقاً.

بدأ بوك يعتاد في بطءٍ هواء البحر. تعرف إلى طيور النحام الوردي والنوارس
وعلى كلب لابرادور ودود يُدعى لاكي. حتى أنه ركب قارب صيد صغير. صباح
أمس، اشترت له جوانا سمكة قاروص، تم اصطيلها للتو، ونظراً لسرعته في التهامها،
اعتقد أنه أحبها جداً.

نتذكرك كثيراً ونتطلع إلى رؤيتك مجدداً في عيد الميلاد. قبلي كاناي من أجلنا
وأخبرها أننا نعتي بهرّها الصغير.
تحياتي لك.
إميل

تمثل البطاقة البريدية الموجهة إلى ميرتيل، أزقة باج و(بوابة الساعة الشمسية)
الشهيرة، وهو باب حجري قديم جداً، على شكل قنطرة، يؤدي إلى ساحة القرية.
مع مزولة شمسية نُحتت في الحجر، مع لافتة أسفل الباب توضح أن لويس الثالث
عشر هو من أهدى هذه الساعة الشمسية للقرية، في سنة 1642 لشكر السكان
على استقبال الجنود الجرحى العائدين من الحرب الإسبانية، ورعايتهم لهم.

21 أكتوبر، الساعة 12:11 ظهرًا

أجلس إلى الطاولة الصغيرة القابلة للطوي أمام عربة التخيم. مدينة غرويسان
تحت شمس مشرقة.

عاد الطقس الجيد عند وصولنا إلى غرويسان. الجو حار هذا الصباح، لا تقلّ
الحرارة عن عشرين درجة حتمًا. وما نحن نرى البحر!

أتعجل الذهاب لزيارة القرية. وفقًا لرجل عجوز صادفناه في أثناء ركن العربة،
فإن هذه القرية هي القرية الوحيدة الساحلية في جميع أنحاء لانغدوك روسيون. هي
قرية دائرية، أي أنها مبنية بأكملها بشكل دائري حول كنيسة أو قلعة محصنة. بالنسبة
لـ غرويسان، فهي مبنية حول حصن. إنها ببساطة قرية مستديرة. ويبدو أن الفكرة تعود
لمهندس معماري من أصل بولندي. لا أستطيع الانتظار لرؤية ذلك.

هذا المساء، عرّفتني جوانا إلى التأمل بالشموع. يتعلق الأمر بالتركيز على اللهب
والتأمل فيه وإهمال كل الأفكار. إنها لا تستسلم، على الرغم من ضعف التلميذ الذي
هو أنا... الليلة، أتعهد أن أحاول أن أكون تلميذًا مثاليًا. سوف أركز.

بعد ظهر ذلك اليوم، تجولا في الشوارع واكتشفا منطقة غرويسان التاريخية وكنيستها التي تحمل اسم نوتردام دو لاسومبشن، وقلعتها وشوارعها النموذجية. أنها جولتهما على الضفة اليمنى من ميناء غرويسان. إنه الجزء الحديث من القرية، حيث توجد المارينا وقواربها التي يبلغ عددها ألفاً وثلاثمائة، ومكتب رئيس الميناء، والعديد من المتاجر: متاجر ومطاعم وبارات ومحال مثلجات...

ذات مساء، ورغم تعب، لم يستسلم إميل. ركز على شعلة الشمعة التي تومض بشكلٍ طفيف في ظلام العربة. حاول ألا يغمض عينيه ولا يرمش. تشكل أمام عينيه حجاب طفيف طمس الصورة قليلاً، لكن هذا غير مهم. خيل إليه أنه شعر بما تحدثت عنه جوانا. تلك الحالة من الخمول الطفيف، هذا الفراغ الذي تشكل بداخله، هذا الانشغال الوحيد بموضوع التأمل: اللهب.

فرضت الصورة نفسها عليه دون أن يريد ذلك. هذه الشعلة هي الضوء والطاقة. هي الحياة التي تهتز، وترتجف، وتجاهد في الصمود في وجه الرياح التي تهددها. إنه لا يرى سواها، يشعر بها من الداخل، يتنفس على وقع اهتزازها. يشعر أنه يتحدث بها. كان في حالة ارتباك عندما نفخت جوانا على الشعلة.

«أظن... أظن أنني نجحت.» قال.

بدا صوته بعيداً وصافياً للغاية. كأنه قادم من الأعماق. أومأت جوانا بجديّة.

«أعتقد ذلك أيضاً... لقد مرت ساعة.»

بقي لدقائق طويلة ساكناً في العتمة. كانت جوانا نائمة عندما تحرك أخيراً، عندما انضم إليها في الفراش، وهو لا يزال في الحالة نفسها من الارتباك.

«إميل...»

سحب صوت جوانا الضعيف من نومه في لطف.

«إميل؟»

كان الصوت بعيداً، كما لو أن جوانا تنادي من مكانٍ بعيد... لا من الفراش.

«أعتقد أن لدينا مشكلة...»

لم ينم بهذا القدر منذ سنوات. وذلك بفضل تمرين التأمل هذا على الشمعة. نام مثل حجر. لم يستدر ولم يستيقظ مرة واحدة في أثناء الليل. كان يشعر بالراحة والهدوء كما لم يشعر إلا نادرًا. هذه الملاحظة جعلت مزاجه ممتازًا.

«إميل، هل تسمعني؟» عاد صوت جوانا المخنوق جدًا.

«نعم. أنا قادم. ما الذي يجري؟»

«كم من الوقت مضى منذ أن أفرغنا صندوق العربة؟»

لم يفهم سؤالها. زحف على طول الحشية، حتى وصل إلى سلم الجبال.

«صندوق؟ ولكن أين أنت يا جوانا؟»

«ليس مسموحًا أن تضحك، اتفقنا؟ عدني أنك لن تسخر!»

وضع قدمه الأولى على السلم. لم يستطع الربط بين جُل جوانا المفككة. ولكن أين هي في النهاية؟

«أي صندوق، يا جوانا؟»

وصل إلى الطابق السفلي. كان باب حجرة الحمام والمرحاض الصغيرة، مفتوحًا جزئيًا، وتفوح منه رائحة غريبة.

«جوانا، هل أنت في الداخل؟ ماذا يحدث؟»

رأى وجهها حتى قبل أن يسمع جوابها. كان ملطخًا بقناع ما من أقنعة الجمال، شبيه بالطين، ويبدو أنها على وشك البكاء أو القيء. ارتفع صوت جوانا الضعيف المكتوم:

«أعتقد أن صندوق المرحاض كان ممتلئًا.»

شعر بشيء يعلو ويعلو بداخله، مطيحًا بكل شيء في طريقه. في البداية ظن أنه الاشتزاز، ولكن كتفيه بدأتا بالارتعاش.

«لا، إميل! لقد وعدت ألا تفعل...»

لكن التشنجات حدثت. حاول السيطرة على نفسه وسألها في جدية:

«ما الذي جرى؟»

حقوق إلى نقطة ما، خلف كتفي جوانا، حتى لا يرى وجهها الملطخ، وكترتها السوداء الملطخة بالبني، ودموع الأشمزاز في زوايا عينيها.

«حاولت فتح سيفون المرحاض وتفجّر كل شيء..»

عندها لم يعد يحتمل، ولم يعد يمكنه السيطرة أكثر على نفسه. مرت الضحكة المجنونة على شفتيه. حملته التشنجات التي لا يمكن السيطرة عليها إلى أعنف نوبات الضحك التي عرفها على الإطلاق. أخذ يخنق، ويصاب بالفواق، ولم تنجح احتجاجات جوانا الضعيفة - «لا يحق لك يا إميل!» - إلا في زيادة ضحكه. إنه المشهد الأكثر تسلية الذي شاهده على الإطلاق. جوانا مغطاة بالبراز. جوانا التي بدت على وشك البكاء، تبدأ أيضًا بالضحك، لأن هذا كثير جدًا، لأنها فقدت السيطرة على أعصابها.

«أغمضي عينيك يا جوانا.» طلب منها بين ضحكتين.

«أغمضي عينيك وعيشي المشهد بكامل يقظتك.»

لم يعد يستطيع التقاط أنفاسه، راح يتلوى من الضحك حتى آلمه بطنه.

«ركزي على الرائحة... على الملمس... على دفء البراز فوق بشرتك.»

«سأمت من الضحك!»

ضحكا حتى فقدان القدرة على الاحتمال، لمدة دقيقتين، ثلاث دقائق، وربما أربع دقائق، دون توقف، دون أن يتمكنوا من التقاط أنفاسهما. ضحكا حتى احترقت حنجرتاهما وامتلات عيونهما بالدموع. ضحكا حتى لم يعودا قادرين على الوقوف لينتهي بهما الأمر بأن تهاويا أرضًا على رُكبيهما. وحق السماء، فكر إميل عندما تمكن أخيرًا من التقاط أنفاسه، إن هذا هو أفضل علاج في العالم.

«انظري يا جوانا! انظري ماذا وجدت!»

هذا الصباح، على الضفة اليسرى لميناء غرويسان، المسمى ماتيل، جرت عملية بيع كبيرة لبضائع مستعملة. لقد شاهدنا ملصقات تعلن عن معارض لتصفيات كبرى خاصة بشركة ماتيل، في جميع أنحاء المدينة، لمدة ثلاثة أيام، في أثناء تجوالهما ذهابًا وإيابًا في المدينة. كان إميل هو من خطرت له الفكرة:

«يمكننا أن نلقي نظرة هناك. قد نعر على ما نزين به عربة التخميم!»

كان فخورًا بنفسه عندما شاهد جوانا متحمسةً.

«أعشق هذه المعارض.» ردّت.

لو كانت لا تعشقها لساورته الشكوك. هذا الصباح، استيقظا في السابعة صباحًا. مضت ساعة على وجودهما على الشاطئ، وهما يستعرضان الأقسام الممتلئة بالأشياء العتيقة. لقد عثر إميل لتوه على مرآة معدنية مستديرة ومذهبة، وبالكاد صدته. كان متأكدًا أنها ستعود جديدة بعد دقائق من التنظيف.

«أوه!» قالت جوانا وهي تنضم إليه.

«ما قولك؟ يمكننا وضعها فوق المقعد الطويل.»

«نعم. إنها جميلة حقًا.»

لاحظ أنها تحمل شيئًا بيديها.

«وأنت، ماذا وجدت؟»

مدت له الشيء الذي كانت تحمله بحرص. إنه إبريق شاي من البورسلين الصيني الأصلي، مغطى بتصميمات زهور زرقاء وبيضاء.

«باعتبارنا نشرب الكثير من الشاي... ظننتُ...

قاطعها في حماسة:

«رائع! قد نجد الآن فناجين خزفية صغيرة جميلة!»

أومأت جوانا. رآها تسرع لتتوقف عند كشك ممتلئ بكتبٍ قديمة.

بعد حوالي ساعتين، كانا على الشاطئ ذي الرمال الناعمة، حيث أفرغا أكياسهما البلاستيكية لجرّد ما عثرا عليه. كانت جوانا قد عثرت على حوالي عشرة كتب اصفرت أوراقها بفعل الزمن، ومصباح زيت، نحاسي صغير وجميل، وشمعدان برونزي قبيح يزعم إميل أنه يجده *جذابًا وأصليًا* لكنه يرجو أن يتم إبقاؤه داخل خزانة حائط.

«وأنت؟» سألت جوانا.

لقد وجد، إضافة إلى مرآته المستديرة، أربعة فناجين شاي من الخزف، لا يتطابق أحدها مع الآخر. أحدها من خزف صيني رسمت فوقه تنانين خضراء. واثنان آخران من خزف إنجليزي مزخرفان بورد أحمر ويعلوها إطار ذهبي. والآخر مصنوع من خزف سانت بطرسبرغ، كما أوضح الرجل العجوز الذي كان يبيعه، ومزين بزخارف زرقاء وذهبية.

كانت أغراضها الموضوعة على الطاولة، تُشكّل خردةً بخليطٍ من الألوان والمواد المبهرجة قليلاً. لكنهما كانا سعيدين بها، لأنها سوف تجلب زويدة من الحياة إلى منزلها الصغير.

29 أكتوبر، الساعة 2:07 صباحاً

جالساً خلف طاولة العربة، على المقعد الطويل.

غرويسان. على ضوء شمعة.

لا أعتقد أنني كنت يوماً سعيداً كما هو حالي منذ وجودي مع جوانا على شاطئ البحر. إنها سعادة بسيطة للغاية، وأقل من عادية، ومع ذلك لم أشعر بهذه السكينة من قبل، حتى لو أنني سأموت قريباً، ودون ذاكرة. أعتقد أنها تمكنت أخيراً من إحلال السلام في نفسي. بأسلوب تأملها الغبي، أو بهدونها فقط، وطريقتها الغريبة واللطيفة في مقارنة الحياة.

إنني وحق السماء سعيد لأنني التقيتها في منطقة الاستراحة تلك على الطريق السريع. هي ولا أحد سواها. هذه الرحلة التي لا هدف لها ولا حدود لها، لم يكن من الممكن أن يكون لها معنى أو جوهر دون جوانا.

لقد منحّتها الألوان والراحة. لقد حولتها إلى رحلة بحثٍ عميق داخل نفسي، عميق داخل نفسينا.

سأموت قريباً ولم أشعر قط بهذا القدر من السلام مع نفسي. أصبحت أنظر إلى نفسي، إلى الشاب الغبي الذي كنت عليه، نظرةً جديدة، لكنها عطوفة. أشعر أنني كبرت بفضل هذه الأشهر القليلة. أشعر أنني ارتقيت. اليوم أريد أن أرتقي أكثر، أريد أن أواصل قراءة هذه الاقتباسات في كتب جوانا، الصفراء، وأتأملها في المساء، على ضوء الشمعة.

مساء أمس، كنت غارقاً في أحد الكتب القديمة الصفراء التي جلبتها جوانا من معرض السلع المستعملة. لقد اشترت تلك الكتب لأجلي. كتب مخصصة للاقتباسات. لقد أهدتني إياها حين عدنا إلى العرة. وجدتُ اقتباساً جميلاً حتى أنني ذهبت لأوقف جوانا وأقرأه لها. كانت نائمة على الحشية. جاء في الاقتباس:

«إذا بكينا لأن الشمس لم تعد موجودة، فإن دموعنا ستمنعنا من رؤية النجوم.» أخبرتها أنني فهمت هذا بفضلها، بفضل طريقته في تشييتي في الحاضر. أخبرتها أنني الآن، بفضلها، أرى النجوم.

خيل لي أنني سمعتها تبكي لكنني لست متأكداً، كان الظلام شديداً. بقيت صامته لعدة دقائق، وبعد ذلك طلبت مني أن أنسخ العبارة فوق رأسي، على سقف حجرة النوم.

إذا كانت هناك جنة، إذا كان هناك مكان يستريح فيه الموتى بعد هذه الحياة على الأرض، فأنا أقسم بتلك الجنة يميناً قاطعاً، أنني سأسهر عليها، ولن أنخلي عنها أبداً.

اقترب الوقت من منتصف الليل ولم تُعدّ جوانا بعد. لقد اختفت طوال اليوم. لا يتذكر إميل أنه سمعها تنهض هذا الصباح. لا بد أنها غادرت العربة عند الفجر. لم تأخذ معها أي شيء، ولا حتى حقيبة الظهر، ولهذا لم يشعر بالقلق على الفور. ظن أنها ذهبت لتتمشى قليلاً. إلا أن الساعات مرت والآن تفصلنا عشر دقائق عن منتصف الليل. لم تفعل ذلك قط. عادةً، تترك ملاحظة صغيرة عندما تغادر، وتشير إلى موعد عودتها. لم تحتف قط لمدة يوم كامل، في الأقل لم تحتف حتى منتصف الليل. كان المطر غزيراً في الخارج، والرياح عنيفة. ويبدو أن المدفأة الصغيرة قد أنهكت وهي تقاوم التيارات الجليدية التي تسرب من تحت الباب. لماذا تخرج في هذه الساعة تحت هذا الطوفان؟

لماذا لم تجربه؟

كان القلق يشتد على طول اليوم، ويصبح كثيباً أكثر فأكثر، وثقيلاً أكثر فأكثر. وما زاد الطين بلة أن هاتف جوانا كان يهتز في الخزانة باستمرار منذ هذا الصباح. هذا تعذيب حقيقي. مع كل اهتزاز جديد، ينتفض إميل في عنف. كانت حواسه متيقظة للغاية، ترقب أدنى صوت خطوات في الخارج، حتى أنه قد يصاب بسكتة قلبية إذا عاد الهاتف اللعين للرنين من جديد. وكما لو أن ذلك للسخرية منه، بدأ الهاتف يهتز مرة أخرى، فأسقط من يده أحد فناجين الخزف الصغيرة التي كان يغسلها في الحوض.

«اللعنة!»

لم يُكسر ولكن ظهرت فيه فرضة، قد تسبب لها أذية في أثناء الشرب. عاد الاهتزاز. من الذي يضايقها بهذه الطريقة بحق الجحيم؟

إنه ليون على الأرجح. ولكن لماذا اليوم؟

إنه لم يعد يتصل منذ أسابيع. ما لم... تسلفت فكرة إلى رأسه. فكرة كان ينبغي أن تخطر له قبل بضع ساعات. ماذا لو كانت جوانا تحاول الاتصال به؟

ماذا لو أنها وقعت في مشكلة وتحاول إخباره منذ الصباح؟
لن يكون لديها طريقة أخرى للاتصال به سوى الاتصال بهاتفها الخاص، الذي
بقي في العربة...

توقف عن غسل أطباقه وذهب مباشرةً إلى خزانة الحائط. يا إلهي، لماذا لم يفكر
في ذلك من قبل؟

ربما كانت تحاول الاتصال به منذ ساعات، لا يدري من أي مكان، وهي
مصابة، أو موقوفة عند الشرطة... من يدري؟

راح يتحرك بشكل محموم ومتسرع. أوقع الكثير من ملابس جوانا في أثناء
محاولة التقاط هاتفها. ها قد أمسك به. بقيت الآلة الجهنمية تهتز. ظهر على
الشاشة عبارة رقم مجهول. تردد للحظة. ماذا لو لم تكن هي؟

لكن اليقين تولى الأمر. إنها حتمًا هي. لقد اختفت لمدة أربع وعشرين ساعة
تقريبًا، دون سابق إنذار. يجب أن تكون هي، تتصل من كشك هاتف، أو مركز
الشرطة، أو أي مكان آخر عُلقت فيه لساعات. كان يتنفس بسرعة عندما أجاب
بحيث ابتلعت كلمة (ألو) في حنجرتة. لم يكن الصوت الذي وصل عبر جهاز
الاستقبال، صوت جوانا. إنه صوت ذكوري، مقطّع، شبه محطّم من شدة
الانفعال.

«جوانا! هذا أنا! كنت أحاول الاتصال بك منذ هذا الصباح، دون توقف.
لقد... فكرت أن أتصل بك كرقم مجهول... ظننت أنك قد نجيين في حال عدم
ظهور اسمي...»

تكرّر الصوت ووجد إميل نفسه صامتًا متفاجئًا. إنه ليون. لم يعد يعرف ماذا
عليه أن يفعل. إنه لا يستطيع إغلاق الخط...
«جوانا؟» كرر ليون.

أي ورطة هي تلك التي وقع فيها بالرد على ذلك الهاتف؟
سوف تقتله جوانا عندما تكتشف ذلك!

«جوانا، أرجوك أجيبيني! لم أعد أستطيع تحمل صمتك!»
هناك نبرة ألم في حلق الرجل. تنحنح إميل وقرر أن يخاطر.
«هذا... ليس جوانا.»

«ماذا؟»

تكسر الصوت في جهاز الاستقبال. ابتلع إميل لعبه بصعوبة.

«إنها... إنها ليست هنا الآن...»

خيل له أنه سمع تنهيدة مكتومة.

«هذا أنت إذا...» قال الرجل.

«عفوًا؟»

«أنت من رحلت لأجله؟»

«لا!»

«لهذا لم أعد أسمع منها أي أخبار؟ هل... هل هي معك الآن؟»

«لا!» كرر إميل وهو لا يقل ارتباكًا عن ليون.

«أنت تكذب!»

هذه المرة، لم يعد إميل مشتبهًا، فالرجل يبكي في جهاز الاستقبال. كان يسمعه يبكي بكاءً مخنوقًا.

«لقد... لقد أخذتها من منطقة استراحة على الطريق السريع. لم... لم تغادر من أجلي. كن على ثقة.»

فعل ما في وسعه لتهدئة الرجل دون أن يدري إذا كان يقول الكلمات الصحيحة، ولا يزيد الوضع سوءًا أم لا.

«لا.» شهق الرجل.

«هي لم تغادر من أجلك طبعًا... بل بسببي.»

خلال لحظة صمت سمع إميل الرجل يبكي محاولًا عدم إظهار بكائه. لكن التنهد في الصوت لا لبس فيه.

«لقد غادرت بسببي. بسبب ما فعلته لـ توم.»

توتر إميل بشكلٍ غير محسوس، وضغطت يده على الهاتف.

«توم؟» كرر وهو يشعر بحلقه يضيق.

«توم بلو؟»

يصدر ليون صوتًا غريبًا، مثل شهقة مفاجئة مع لمسة من الحنان.

«أوه! هل أخبرتك عنه؟»

«أوه، لقد...»

لم يعد يفهم شيئًا. ما علاقة توم بلو بهذا؟

ما علاقة هذا بليون؟

«لقد أخبرتني قليلًا... نعم.»

بدا أن ليون يَحْتَقِقُ:

«هل أخبرتك كيف حدث ذلك؟»

هز إميل رأسه. كان يشعر أن هناك شيئًا لا يفهمه. يشعر أن قلبه يطرق في صدره، وأن حنجرتَه تضيق.

«كيف حدث ذلك؟ ماذا حدث؟ إنها... أخبرتني فقط... أنه كان يلون بالأزرق... طوال الوقت... وأنه كان يمضي ساعات ناظرًا إلى السماء.»

الصمت الذي يصم الأذان، في طرف الخط، جعله يفهم أنها لم تكن الإجابة التي انتظرها ليون.

«هل قالت لك من هو؟»

«أظن... لا... حسنًا، نعم...»

لم يعد فجأة متأكدًا من أي شيء.

«كان... كان تلميذًا في مدرستها... أليس كذلك؟»

تولّد لديه انطباع مزعج بأن الأمر ليس كذلك على الإطلاق... وجاء ردُّ ليون وصوته المخنوق كي يؤكد هذا الانطباع.

«لم يكن تلميذًا.»

«لم يكن؟»

«لا.»

راح إميل ينتظر الجواب ببعض الخوف. حبس أنفاسه، وشدت أصابعه على جهاز الاستقبال.

«لقد كان ابنها.»

ابتلع لعبابه بصعوبة، وهز رأسه محاولًا الفهم.

«ما - ماذا؟»

«كان توم ابننا.»

كرر إميل، وهو في ذهول تام، الكلمات التي تدفقت للتو من فم ليون.

«كان توم... ابنكما. جوانا لديها... جوانا لديها ابن!»

لم يكن مستعداً لسماع التهمة.

«لقد توفي قبل خمسة عشر شهراً. كان قد بلغ للتو الثالثة من عمره.»

شعر كما لو أن أحداً ما قد ألقي قبضة حديدية فوق رأسه، أو أن أحداً ما قد

أوسعه ضرباً بوحشية. راح يبحث عن الهواء من حوله، ويواجه صعوبة في التنفس.

«صغيرها... مات...» تمكن من القول وهو يختنق.

استأنف ليون كلامه، على الجانب الآخر من الساعة، لكن إميل بالكاد كان

يسمعه.

«لقد كان طفلاً صغيراً مختلفاً جداً... كان مصاباً بالتوحد. ولم يتمكن قط من

تعلم الكلام. كان صامتاً على الدوام لكنه يرسم كثيراً. تركت جوانا كل شيء

لتعني به، وتحملت عن وظيفتها في المدرسة لتكون معه بدوام كامل.»

تمسك إميل بباب خزانة الحائط. لم يعد يشعر بيده وهي تمسك بالهاتف بقوة.

تابع ليون، دون اكتراثٍ بالصمت، وعدم وجود رد فعل، مواصلاً كلامه، غير

مهتم بالغصات المسموعة في حلقة.

«كانت لا تزال تقيم في المدرسة وبذلت قصارى جهدها لجعله يختلط مع

الأطفال الآخرين... كان توم مختلفاً تماماً، ومنعزلاً جداً. لم أنجح في جعله ينظر

إلي. كان منغلقاً على نفسه إزاء كل الأشياء وكل الأشخاص، باستثناء ذلك الأزرق

اللعين، وجوانا. كانت الوحيدة التي تستطيع لمسه...»

تحرك إميل بضع خطوات وجلس على المقعد الذي يتكور فوقه بوك. استطاع

أن يقول وهو يلهث:

«ما الذي حدث؟»

لم يكن واثقاً أنه يريد أن يعرف حقاً. لم يعد يعرف أي شيء. كان هناك، مسجراً على المقعد، ساقاه ضعيفتان، وقلبه جاهز للانفجار. تحول صوت ليون إلى حشرة أليمة.

«كان مهووساً دائماً بهذا اللون الأزرق. أزرق السماء، أزرق الماء. دائماً ذلك الأزرق اللعين... أخذته إلى البحيرة. اضطرت جوانا أن تبقى في المدرسة، بشكل استثنائي، لإغلاق البوابات بعد مائدة نهاية العام. قالت إنها ستنضم إلينا على الفور، وأنها ستأخذ دراجتها الحمراء. لقد صنعت لنا الشطائر. كانت بحيرة برية... لم نكن نريد أن نسبح، بل أن نستمتع فقط بجو الغابة المنعش...»
كان إميل يستمع، وكل خلية في جسده متوترة.

«تركْتُ توم مع سلة الطعام وغطاء النوم الصغير وذهبتُ لربط الدراجتين بحاجز على بعد حوالي عشرة أمتار، عند حافة الغابة. طلبت منه أن يبقى عاقلاً في انتظار عودتي... واجهت بعض الصعوبة في ربط دراجة توم، فقد كان القفل صديئاً...»

اضطر ليون أن يتوقف، وقد غلبه التأثر. شعر إميل بالرعب المتزايد بداخله. راجياً ألا يكون الأمر على النحو الذي يستشعره. هذا الأزرق. هذا الأزرق اللعين. «لم يستغرق مني الأمر أكثر من ثلاث دقائق. ربما أربع، كي أعود إلى مكان النزهة وأتبين أن توم ليس هناك.»

كان إميل يسمعه وهو يتنفس بصعوبة. «لقد عرفتُ على الفور. أدركتُ حالاً أنه ذهب لمشاهدة تلك البحيرة اللعينة. لكن اعتقدت أنني سأجده على الضفة، في وضعية القرفصاء اللعينة التي يمكن أن يبقى فيها ساعات. كنت سأنفضه وأتجادل معه. كان سيتخطى محاولاً الإفلات لأنه لا يتحمل أن ألمسه. جوانا فقط هي التي كانت تستطيع ذلك.»

انقطع صوت ليون لكنه استمر على أي حال:

«لم أكن أعتقد... لم أكن أعتقد أنني سأجده هكذا...»

خنق تنهيدة أخرى وترك له إميل بضع ثوانٍ كي يتمالك نفسه.

«لم يكن يظهر منه سوى شعره الأشقر وقميصه. ولم يكن يتحرك. كان يطفو على السطح. اعتقدت أنه يمازحني. صرخت في وجهه: هذا ليس مضحكًا! اخرج من هناك حاليًا!... لم أستطع التحرك من مكاني. لم أستطع أن أصدق ذلك. كنت هناك، أقف على ضفة البحيرة، عاجزًا عن القيام بحركة. وبعد ذلك، عندما تصرفْتُ، عندما دخلت الماء لأحضره، علقت بين الطحالب، في الوحل، بين الأغصان الطافية، كان هناك دوامات ماء... كانت بحيرة برية... كان من المستحيل استعادته! لم أستطع إعادته إلى الضفة!»

بدا أنه يدافع عن نفسه ضد تهمة يوجهها إليه أشخاص غير مرئيين ويكرر مرة أخرى: «لم أستطع. كان ذلك مستحيلًا». ساد صمت جليدي جديد طال لبضع ثوانٍ.

«لقد أخرجته رجال شرطة غواصون من هناك. كانت جوانا قد وصلت بالدراجة في تلك الأثناء. كانت نصف ميتة على تلك الضفة. أعتقد أنها ماتت في ذلك اليوم، على الضفة، بينما كنت أحتضنها حتى لا تنهار.» بذل جهدًا للتغلب على موجة الألم الجديدة التي طغت عليه.

«تمنيت لو أنها تقتلني في تلك اللحظة... ليتني كنتُ أنا بدلًا من توم.» استمر الصمت لأكثر من دقيقة. كان ليون يتنهد، وإميل يواجه الصدمة، محاولًا تقييم كل ما اكتشفه للتو. توم. توم بلو. ابن جوانا. والآن أدرك الآن، بعد محاولة التذكر، أنها لم تقل شيئًا محددًا قط. لقد أجابت فقط عن أسئلته.

«هل كان في المدرسة التي كنت تعملين فيها؟»

«نعم. كان في المدرسة.»

لم تقل أنه كان تلميذًا. قالت إنه كان في المدرسة. وكان ذلك صحيحًا. عاش في المدرسة معها ومع ليون. إنها لم تكذب. أضافت أيضًا:

«لكنه غادر.»

ولم تحدد إلى أين أو كيف، بل قالت إنه غادر. ربما كان بإمكانه أن يخمن... أن يفهم أنه غادر إلى السماء. لقد أعطت بعض القرائن.

«أتساءل عما إذا كنت سأجد المزيج الصحيح من درجات الأزرق. وإذا كنت سأتمكن من رسمها وإعطائها إياه، عندما ألقاه أم لا...»

«هل تعرفين أين ذهب؟ هل تعرفين كيف ستجدينه؟»

«لدي فكرة.»

«هل تعتقدين أنه ينظر إلى السماء الآن؟»

«أنا متأكدة من ذلك.»

ماذا لو لم يقتنع بأن توم بلو كان تلميذاً في المدرسة... ماذا لو لم يقتنع بأن هذا الصبي الصغير قد انتقل ببساطة إلى مكانٍ آخر... هز رأسه نافيًا هذا الاحتمال. لا، لم يكن بإمكانه التخمين. لم يكن بإمكانه على الإطلاق أن يتخيل رعبًا مماثلًا. أفرعه صوتُ ليون:

«اليوم هو عيد جميع القديسين... أنا متأكد أنها مرت بيومٍ رهيب. ذهبتُ إلى قبر توم مع والديّ. هل ستخبرها؟»

لم ينتظر ليون الجواب، بل تابع بسرعةٍ كبيرة:

«كيف حالها؟»

«إنها...»

لم يجرؤ على إخباره بأنها مفقودة منذ ساعة مبكرة جدًا من هذا الصباح، وأنه ليس لديه فكرة عن مكانها. فضّل أن يكذب قليلًا.

«إنها ليست في أحسن حال، هذا صحيح.»

أطلق ليون أنينًا مؤلمًا.

«لقد قالت إنها ستغادر قبل أن تجد القوة لقتلي.»

لم يجد إميل ما يجيب به، لكن ليون استمر كما لو أنه يحدث نفسه فقط:

«لقد قتلْتُ ابنتها. قالت إن الذنب ذنبي، وأنتي كان يجب أن أراقبه. كان طفلًا لا يدرك الخطر، ويحتاج إلى مراقبةٍ مستمرة. قالت إنه كان عليّ أن أعرف أنه مهووس باللون الأزرق... بالماء...»

استعادت ذاكرة إميل كلماتٍ قيلت ذات ليلة، عندما كانت جوانا تهلوس بسبب الحمى، عندما احتضنته ظنًا منها أنه ليون.

«لماذا تركته يذهب؟ أنت تعرف كيف كان...»

وكلمات أخرى، قيلت في وقتٍ لاحق، خلال رحلتها: «ينبغي ألا يترك الأولاد ثانيّين دون مراقبة!»

«لقد فعل شيئاً لا يغتفر. رحلتُ لأنني لم أعد أستطيع العيش معه بعد ما فعله.»
«قد أعود يوماً. وقد لا أعود. إذا عدتُ أعتقد أنني في حاجةٍ إلى سنين.»

استمر صوت ليون:

«ثم جاء الدفن... لم أتخيل أنها ستحقد عليّ بهذا القدر من أجل الدفن.»

«من أجل الدفن؟»

تنهد ليون من جديد. تشكّل لدى إميل إحساس بأنه يقبع تحت عمق أمتار من الأهوال. فقد كان كل إعلانٍ جديدٍ أسوأ من سابقه.

«كانت محطة ويتم إعطاؤها أدوية مهدئة في دارٍ للرعاية. بالكاد أذن لها أن تحضر القداس.»

«وما الذي حدث؟»

«قالت إنها تريد إحراق جثمانه، وكانت تردد كلاماً فارغاً بشأن رماده الذي تريد إلقاءه في البحر... كي يطير... لكنها كانت تحت تأثير الحبوب ولم يرغب والدائي في سماع شيءٍ عن إحراق الجثمان... أنا أنتمي إلى عائلة كاثوليكية جداً، تعد الأمر غير وارد. وعلى أي حال، كان مفعول الأدوية على جوانا أقوى من أن تتمكنها من إدراك ما تقول...»

وعلى نحوٍ لا إرادي، شعر إميل بذرة اشمزاز. لم يتمكن ليون من إنقاذ ابنه... لكن التهمة جاءت:

«لذلك قمنا بدفنه. لم تساعني على ذلك أيضاً. لقد أصيبت بالجنون في أثناء القداس. كان لا بد من إعادتها إلى دار الرعاية بالقوة... لم تشأ قط الذهاب إلى قبره. كانت تقول دوماً إن نوم ليس هناك. هذا ما كانت تعتقده على أي حال.»

نهض إميل حين لم يعد يحتمل البقاء جالساً، ولا يحتمل صوت ليون الذي يتذمر ويشتكى لكنه خان جوانا مرتين. ليون الذي يكرر أنه كان يفضل أن يموت هو بدلاً من نوم لكنه لم يتمكن من إخراج الطفل من وسط البحيرة. لو كنت أنا

لتمكنت من ذلك. راح هذا الصوت يتسلل إلى رأسه. لو أن جوانا حملت بطفلي، كنت سأرعاه أكثر من أي شخص آخر. كنت سأعيده إلى الضفة.

«لقد بقيت في مركز الرعاية لمدة عام تقريبًا. فقدت خلالها سبعة أو ثمانية كيلوجرامات. وعندما غادرت المركز، لم تتحمل البقاء معي في المنزل. فضلت الرحيل.»

لم يعد يريد سماع المزيد. لقد اجتاحه الذعر للتو، وتسلفت فكرة إلى ذهنه، جعلته بالكاد يستطيع التنفس.

«اسمع يا ليون، سأضطر إلى تركك... جوانا بمفردها، تحت المطر... من الأفضل أن أذهب للبحث عنها.»
«ماذا؟»

ارتدى معطفه بيد واحدة، وبحث عن مفاتيح العربة فوق منضدة العمل.
«لماذا؟»

عسى ألا يكون الأمر مثلما أظن. حاول السيطرة على الرعب الذي أخذ يحتاجه في كل ثانية.

«لقد ذهبت... ذهبت كي تتمشي.»
وضع يده على مفاتيح العربة وتكلّم بشكل متسارع.
«سأذهب للبحث عنها، اتفقنا؟ أنا مضطر للمغادرة. لا أستطيع تركها في الخارج تحت المطر.»

استشف ليون الذعر في صوته. حاول إيقافه:
«انتظرا أخبرها ب...»
«عليّ حقًا أن أغادر...»
«انقل لي أخبارها! أرجوك! أعلم أنها سترفض الرد علي، لكن أنت، أخبرني عنها...»

بدت نبرته يائسة حتى أن إميل قد وافق.
«ستجد رقمي في دليل هاتفها. اسمي الأول ليون.»

«حسنًا. عُلِّم. الآن يجب أن أسرع.»

أغلق الحظ دون انتظار الرد. تضخم الشعور السيئ بداخله واندفع خارجًا تحت المطر الغزير.

راح يركض وينزلق في البرك صارخًا باسمها. لم يكن لديه أي فكرة إلى أين يذهب. كل ما يعرفه أن اليوم هو عيد جميع القديسين، وأن ليون ذهب إلى قبر توم، لكن جوانا لم تعتقد قط أن طفلها الصغير يرقد تحت شاهدة حجرية. بالنسبة لها، كان ينبغي أن يطير فوق البحر. في أحد الأيام، في أثناء لعبة سكرابل، أعلنت: /أريد أن تُحرق جثتي. لأنني بهذه الطريقة أستطيع أن أطير. اليوم هو عيد جميع القديسين. هل ذهبت لتبحث عن توم بلو في البحر؟

هل قررت الانضمام إليه؟

انعصر قلبه حتى البكاء. لقد رسمت الكثير خلال الأيام الأربعة الماضية... ماذا لو انتهى بها الأمر إلى رسم اللون الأزرق المثالي؟

ماذا لو نجحت أخيرًا في إعادة إنتاج اللون الأزرق المثالي... لو قررت أن المهمة قد أنجزت، وأن بإمكانها الآن الذهاب لملاقاة توم، حاملةً لوحاتها تحت ذراعها... وماذا لو أنها لم تمض في هذه الرحلة إلا لهذا السبب؟

كي تراقب مئات السماوات المختلفة وتفي بالوعد الذي قطعته لنفسها. ماذا لو أن الوقت قد فات بالفعل؟

أخذ إميل يركض بسرعة أكثر من أي وقت في حياته، والماء يقطر من وجهه، وصوته ضائع وسط ضجيج الرياح والمطر.

«جوانا! أنا!»

اتجه مباشرة إلى الشاليهات على الشاطئ. لقد ذهب في نزهة إلى هناك ذلك اليوم. إنه شاطئ تصطف على طوله كبائن على ركائز متينة. وأوضحت جوانا أن الصيادين قد أعادوا بناءها - وكانت في الأصل مخصصة للسياحة فقط - وحولوها إلى أكواخ لصيد السمك، على ركائز متينة. كانت قد قرأت ذلك فوق لافتة رُفعت على الشاطئ. يذكر أنها لم تبدُ له حيةً مبتسمة وخفيفة كما بدت في الأيام الأخيرة. هل كانت سعيدة بفكرة العثور على توم الصغير؟

هل كانت تعدّ الأيام؟

«جواااانا!»

أصبح الشاطئ في مجال رؤيته في الأفق، والليل كان أشد عتمة من أن يمكن معها تمييز قامة. كانت الهبات تكتسح الرمال. اندفع لاهثاً بأقصى سرعة. استعداد قصة ليون، وفكر في ردود أفعال جوانا طوال هذه الرحلة.

فهم انفعالها المفاجئ الذي شعرت به وهي تتحدث عن توم. فهم عبارتها «ليس كل شيء جميلاً في عالمي...»

فهم الألم الذي حاولت احتواءه باستمرار خلف وجه جامد، ولا مبالاة التامة عندما أخذها من منطقة الاستراحة على الطريق السريع، كأنها لم يعد لديها ما تخسره. وهذا الأسود الذي ترديه طوال الوقت. تذكر الاقتباس الذي أثر بها يوماً، وأرادت أن تكتبه فوق رأسيهما: إذا بكينا لأن الشمس لم تعد موجودة، فإن دموعنا ستمنعنا من رؤية النجوم.

أسرع أكثر في الركض. تبلل حتى العظم لكنه لم يكثرث على الإطلاق. أيتها السماء، عساها لم ترغب في ملاقة الشمس. عساني استطعت أن أريها بعض النجوم.

«جواااانا!»

تعثّر على الرمال، وابتلع ذرات منها، لكنه نهض من جديد لأنه ظن أنه رأى شكلاً أسود من بعيد على الشاطئ. صرخ مرة أخرى: «جوانا!»

اندفع تجاهها. إنها هي! كاد قلبه ينفجر في صدره. إنها هي، ملفوفة في شالها الأسود، مبللة، مرتجفة من البرد، عيناها حراوان منتفختان، وشفاتها أرجوانيتان، ونظرتها فارغة، ثابتة تجاه البحر.

«جوانا!»

سقط على ركبتيه بجانبها، لاهثاً.

«جوانا، ماذا تفعلين هنا؟»

وجهت إليه نظرة غريبة، بعينين مطفأتين. كانت تبدو في مكان آخر.

«تعالى.»

أخذها بين ذراعيه، وضمها بشدة. كانت ترتعش من البرد. لم يلتقط أنفاسه بعد، وما زال قلبه ينبض في عنفٍ ويوشك أن ينفجر. خرج صوته مرتجفًا من الانفعال.

«جوانا... اعتقدتُ أنك غادرتِ. أنك ذهبتِ للأبد.»

ضمها بقوة أكبر. اجتاحتها في الظلام الدامس، الريح الجليدية والمطر، لكنها بالكاد لاحظا ذلك. راح يفرکہا، ويمرر يده في شعرها، ويهزها مهددًا. همس في أذنها بسرعة شديدة وهو يحاول ابتلاع ذعره:

«لا تهربي مرة أخرى، جوانا. ظننت أنني سأموت. ظننت أنك ذهبتِ بعيدًا. لا تفعل ذلك مرة أخرى. سوف أعتني به. سأعتني بتوم الصغير ابنك. قريبًا سوف نجتمع أنا وهو، كما تعرفين، أليس كذلك؟ أعدك أنني سوف أسهر عليه. سأخبره أننا فهمنا قصده من رسوماته... من الاتساع...»

شعر أنها أخذت تتحب على صدره.

«الجو بارد جدًا هنا. هيا نعود إلى المنزل الآن. سوف تصابين بالبرد. كنت خائفًا جدًا. اعتقدتُ...»

توقف فقط كي يلتقط أنفاسه.

«ربما كانت المسألة بضع أوراق و... وخاتمي زفاف مزيفين، لكن هذا لا يغير شيئًا، يا جوانا. لقد أحبيتك. لم يعد بوسعك أن تقرري المغادرة. لقد قام بيتنا عهد. وعدتني بالبقاء بجانبني. وأعدك بالاعتناء بتوم وبلو والسهر عليه عندما ألتقيه هناك في الأعلى.»

شعر أنها تسمرت على صدره، وتابع بسرعة لأنه لم يشأ أن يفكر كثيرًا فيما يقوله، لم يشأ أن ينقطع فيض كلماته:

«أعدك بذلك. ربما تكون الحياة قد وضعت أحدنا في طريق الآخر فقط من أجل ذلك.»

لم تعد تتحرك الآن. لقد تسمرت وراحت تهمس بين شفطها الزرقاوين:

«كيف عرفت...؟»

رفعت رأسها ونظرت إليه. لقد عادت إلى نفسها، إلى عالمها. كان الألم يغمر وجهها، لكنه لم يجدها بهذا الجمال من قبل.

«هل رأيت اللوحة؟ عرفتَ عندما رأيتَ اللوحة... أليس كذلك؟»
لم يعرف ما الذي تتحدث عنه لكنه لم يشأ الاعتراف لها. هز كتفيه بشكلٍ غامض.

«إنه هو الذي رسمتهُ أمام البحر بسر والة الأزرق القصير.»
تدفقت الدموع على وجهها، واختلطت بالمطر. ابتسمت في ضعف، ابتسامة مرتجفة أثارت مزيدًا من الدموع.

«إنه وسيم، أليس كذلك؟»
أوما برأسه، وهو يشعر بدموعه تسيل أيضًا.
«نعم. إنه الصبي الصغير الأكثر وسامة الذي رأيته على الإطلاق.»
لم يكن يكذب. هو لم ير توم بلو لكنه ابن جوانا... إنه على يقين تام أنه قال الحقيقة.

نهضا في بطءٍ لاحقًا، سندَ إميل جسدَ جوانا الذي يرتجف بأكمله. انطلقا تحت المطر البارد ورياح نوفمبر. كانا قامتين سوداوين فقط، وسط العاصفة، ظِلَّين متحركين هائمين على وجهيهما. ومع ذلك، هناك شيء جديد يحترق بداخلهما. شعلة صغيرة مضاءة بالوعد. وعد يتعلق بطفل صغير هناك في السماء.

كانت جوانا مستلقية على الحشية، ولا تزال ترتجف. لكنها الآن ترتجف بسبب الحمى، وحبوبات العرق تغطي وجهها، وأسنانها تصطك. وكان إميل يأتي إليها بانتظام لوضع كمادة مبللة على رأسها وأخذ الكمادة القديمة. وضع فنجانًا من الشاي بجانب وسادتها لكنها لم تلمسه. في الأسفل، كان إميل جالسًا بلا حراك على المقعد. لم يكن يُسمع سوى خرخرة مدفأة الغاز، وصفير الريح وهي تحاول التسلل من تحت الباب، وصرير أسنان جوانا.

شعر كأنه محموم أيضًا والطنين يملأ دماغه. بات غير قادر على استيعاب كل ما عرفه الليلة. كانت الكلمات تدور في رأسه وتصيبه بالدوار.

كان ابنها. كان توم ابنتا.

صبي صغير مختلف جدًا...

لم أستطع إعادته إلى الضفة!
كان منغلَقاً على نفسه إزاء الأشياء والأشخاص، باستثناء ذلك الأزرق اللعين...
وجوانا.

هل رأيت اللوحة؟
عرفت عندما رأيت اللوحة... أليس كذلك؟
مات منذ خمسة عشر شهراً. كان قد بلغ الثالثة من عمره لتوه.
ربما كانت المسألة بضع أوراق و... وخاتمي زواج مزيفين، لكن هذا لا يغير أي
شيء، يا جوانا. لقد أحببتك.
كان مصاباً بالتوحد. كانت الوحيدة التي يمكنها لمسه... ليتني كنت أنا بدلاً من
توم.

إنه هو الذي رسمته أمام البحر بسر واله الأزرق القصير.
لم يكن يظهر منه سوى شعره الأشقر وقميصه. لم يعد يتحرك. كان يطفو على
السطح.

كانت نصف ميتة على تلك الضفة.
تعلمين أننا سنجتمع قريباً أنا وهو، أليس كذلك؟
أعدك أنني سوف أسهر عليه.
تمنيْتُ لو أنها تقتلني في تلك اللحظة. انتهى بي الأمر بأنني أحببتك.

عثر إميل في النهاية على اللوحة التي تحدثت عنها جوانا. وجدها في خزانة.
رسمت فيها الشاطئ بشاليهاته، وكبائنه القائمة على ركائز متينة، والبحر، وطائر
نورس. وطفل صغير يجلس في الرمال. اعتقدت أنني سأجده على الضفة، في
وضعية القرفصاء اللعينة التي يمكن أن يبقى فيها لساعات. وجهُ طفل اللوحة متجه
نحو إميل كأنه ينظر محمداً إليه عبر اللوحة. شعره أشقر وحاجباه مقطبان وكأنه
قلق أو يفكر كثيراً. يرتدي سروالاً قصيراً أزرق وقدماه حافيتان. لم يسبق له أن
رأى هذه اللوحة من قبل. لا بد أنها رسمتها خلال الأيام الأربعة الماضية. الخطوط
غير واضحة، مع شيء من الضبابية، ما يضفي لمسة غموضٍ على اللوحة، وكان
الأمر يتعلق بذكرى قديمة جداً على وشك التلاشي.

وقف متسمرًا أمام هذه اللوحة، لا يصل إليه صفير الريح ولا صرير أسنان جوانا. حاول حفظ ملامح نوم الصغير. عيناه بنيتان مثل عيني جوانا، وشعره بلون الرمال، وانحناء حاجبيه... يجب أن يستطيع تمييزه عندما يلتقيه، عندما يصبح هو أيضًا هناك. يجب أن يتمكن كل منهما من التعرف إلى الآخر.

أخذت جوانا ترتجف. كانت حرارتها مرتفعة وتشعر بالبرد الشديد مع ذلك. كانت المدفأة عند قدميها، لتدفئتها، لكن تلك الموجة الجليدية بقيت تسري في كل أنحاء جسدها، وبقيت أنفاسها متقطعة، وقلبها يخفق. سرحت أفكارها وحملتها إلى سان سولياك قبل ست سنوات، عندما كانت في الثالثة والعشرين من عمرها فقط. كان قد مضى عليها ثلاث سنوات منذ تسلمت وظيفة أبيها، في المدرسة. عاشت هي ووالدها في هذا المنزل الصغير داخل فناء المدرسة. كان قد تقاعد وكرس أيامه للعناية بحديقة صغيرة للخضروات. كان فخورًا وهو يقوم بطهي أنواع من الحساء بأي نوع ينمو من الخضروات. وفي المساء كانا يشعلان المدفأة، حتى في فصل الصيف، فقد كان كوخهما الحجري باردًا دائمًا. ثم إنهما كانا يجبان سماع طقطقة النار في أثناء مطالعة الكتب.

لقد أبلت بلاءً حسنًا بتنفيذ كل تلك الأعمال الصغيرة في المدرسة، حتى عملية الدهان كانت سهلة عليها بشكل غريب. كانت ماريز، المعلمة التي عرفت والدها جيدًا، تُدهش وهي تراها تتسلق سلمًا حاملًا دلوين ثقيلين.

«كيف تفعلين ذلك يا آنسة جوانا، وأنت بخفة غصن؟»

وكانت تضيف أحيانًا:

«هذا العمل ليس للمرأة.»

حرصت جوانا ألا تجربه بأن والدها قد علّمها كيف تدهن وتلوّن وهي في الثامنة من عمرها. كانت هي التي أعادت تزيين جميع جدران غرفتها حسب رغبتها. تركها ترسم دوامات من الأصفر والبرتقالي والأحمر، تصل أطرافها إلى السقف، بل وتصنع أزهارًا قبيحة في كل مكان. لقد كانت فخورة بنفسها وبهذه الغرفة الجميلة التي أنشأتها لنفسها... ولا تزال تتذكر هذا الشعور بالرضا التام كما لو كان أمس.

وصل ليون إلى المدرسة في الأول من سبتمبر. وكان في ذلك الوقت في الرابعة والعشرين من عمره. كانت تلك أول وظيفة له كمعلم، وكان قد أنهى دراسته للتو. ولد في سان سولياك لكنه ذهب للدراسة في نانت بعد حصوله على البكالوريا. «هل كنتِ تلميذة هنا أيضًا؟» سأل جوانا ذات مساء وهي تغلق بوابة المدرسة الثقيلة.

«نعم.»

«أنا أيضًا. لا بد أننا في عمرٍ متقارب... عمري أربعة وعشرون عامًا.»

«أنا في الثالثة والعشرين.»

«لا بد أننا تصادفنا آنذاك في الفناء.»

وكانت تلك هي المرة الأولى التي يتبادلان فيها الحديث. حتى الآن، كانا قد تصادفا وحيًا أحدهما الآخر في أدب.

«اسمي ليون. ليون أندريه. والدائي هما الزوجان أندريه اللذان يديران متجر التبغ. ربما تعرفينهما.»

واجهت صعوبة في كبح تعبير الاشمزاز الذي كان الزوجان أندريه في متجر التبغ، يثرانه في نفسها. كانا ممتلئين بنفسيهما إلى درجة تقارب الادعاء، ولم يتصرفا باحترام مع والد جوانا. لقد سمعتهما مرارًا يهتمان عند ذهابها مع والدها لشراء الطوايح: «هذا هو الصبي العجوز.»

بينما أطلقا عليها هي لقب (الفتاة اللقطة). كان الزوجان أندريه يحبان الشائعات، ويتغذيان عليها. كانت جوانا على يقين أن تلك العائلة هي أول من نشر خبر ولادتها، وأول من همس في حماسة بأنها ولدت من علاقة بين عاهرة ومجنون القرية.

«وأنت؟ هل والدك من القرية؟»

نظرت إلى ليون في فخرٍ يخالطه التحدي.

«أنا ابنة الحارس.»

لم تقرأ في عينيه سوى الدهشة الطفولية، وليس الخبث وسوء النية.

«آه، هذا أنت.»

«نعم، هذا أنا.»

تذكرت الآن أن الزوجين أندريه كانا يتحدثان دائماً عن ولدهما اللامع، الذي ذهب للدراسة في مدينة كبيرة، ليصبح معلماً. كانت صورته أمامها. لم يكن متغطرًا متعجرفًا مثل والديه. لم يكن باستطاعتها أن تخمن من هو. لقد بدا شابًا تخرج لتوه في الكلية. شعره أشقر مائل إلى البني، مع خصلات أمام عينية. حاول جاهدًا أن يفرقه من المتتصف، كي يبدو راشدًا لم يبلغه بعد. عينان عسليتان. قميص كبير قليلًا عليه. حذاؤه ملمع جيدًا.

«هل حللت محله؟»

«نعم.»

«وتعيشين معه هناك؟»

أشار إلى الكوخ الحجري في الجزء الخلفي من الفناء، والمحاط بزهور الليلك والفيولا مثلثة الألوان.

«نعم.»

«يبدو المكان جذابًا.»

«وافقته.»

«أبي ذو يد خضراء.»

تبادلًا النظرات لبضع ثوانٍ دون أن يعرفا ماذا يضيفان. كانت جوانا تحرك المفاتيح الكبيرة للبوابة بأطراف أصابعها، وليون يلهو بحصاة بطرف حذائه الملمع. «حسنًا... أراك غدًا.» قال ليون أخيرًا.

افترقا بابتسامة خجولة، دون أن يكون أحدهما فكرة واضحة عن الآخر.

شعرت جوانا بحضور شخصٍ يقربها. رُفعت الكهادة عن جبينها. تخللت يدٌ شعرها.

«هل أنت بخير؟»

أومات. عادت الذكريات تتدفق من جديد.

مكتبة
t.me/soramnqraa

كانت أمام البوابة، ومعها مفاتيحها الكبيرة، وليون متردد.

«إنها عطلة نهاية الأسبوع إذا...»

«نعم.» قالت.

«ماذا تنوي حضرتك، أن تفعلني يوم الأحد؟»

لم يفكر أحدهما بعد في إمكانية مخاطبة الآخر دون رسميات.

«يريد أبي اصطحابي في نزهة على الأقدام إلى كنيسة غرينفوليه.»

«آه.» قال ليون وكأنه مستاء.

«وحضرتك؟»

«قلت لنفسني إن بإمكانني دعوتك لنزهة على الشاطئ. لكنك مرتبطة.»

هزت كتفها وبدأت متفكرة للحظات.

«هل تريد القدوم معنا إلى كنيسة غرينفوليه؟»

«بصحبة والدك؟»

بدا متفاجئًا.

«نعم. لا أظن أن ذلك يزعجه.»

تردد ليون مجددًا.

«هل أنت واثقة؟»

أومأت برأسها.

«حسنًا... اتفقنا إذا.»

ابتسم بصدق أثر بها. أرادت التأكد من حسن نواياه. كان واضحًا أنه ليس مثل والديه. بدا سعيدًا بصدق بالتعرف إلى والدها يوم الأحد.

الكنيسة الصغيرة على مرمى البصر، على مسافة أمتار قليلة أمامهم. كان والد جوانا هو الذي يقود المسيرة. راح يتقدم بتلك الطريقة الغريبة التي توحى بأنه لا يعرف إلى أين يتجه، وأنه يمضي إلى حيث يأخذه الطريق. مشى جوانا وليون في الخلف. غادروا من خليج سان سولياك ثم سلكوا الطريق الذي يمر بالشاطئ.

إنه الشاطئ الذي يمكن فيه رؤية أمواج هم بركانية قديمة متحجرة في الصخور. توقف والد جوانا ليريهما تلك الأمواج التي لم يسبق أن لاحظها ليون قط. ثم صعدوا الطريق المؤدي إلى قمة الجرف المطل على سان سولياك. هناك تقع الكنيسة الصغيرة.

توقفوا أمام النصب الحجري. كان المنظر مذهلاً. الكنيسة الصغيرة، المشيدة من كتل قديمة من الجرانيت والكوارتز، تحيط بتمثال أبيض للعدراء. تتشبث الأعشاب المتسلقة بالحجر القديم وتلتف حول قاعدة التمثال. خلف الكنيسة هناك البحر وخليج سان سولياك، والقرية الصغيرة التي يحضنها الوادي. «يجب القدوم إلى هنا في آخر النهار.» أعلن والد جوانا وهو يضع يده على عمود الكنيسة.

فتح ليون عينيه مندهشاً.

«أوه حقاً؟ لماذا؟»

«لأن الشمس تكون منخفضة فتصطبغ القرية بألوان دافئة.»

بدأ ليون مندهشاً بكل ما يقوله أو يريهما إياه والد جوانا.

«أخبره قصة الكنيسة.» طلبت منه جوانا.

«لا أظن أنه يعرفها.»

كانت قادرة أن تفعل ذلك بنفسها لكنها تحب أن يروي والدها القصة، لأن لديه القدرة على الإبهار بصوته العميق على نحو مذهش. هكذا أخبر ليون بقصة الكنيسة الصغيرة، قصة البحارة الذين كانوا يغادرون كل عام لصيد الأسماك الكبيرة لمدة ثمانية إلى تسعة شهور، بعد أن تعهدوا أنهم إذا عادوا جميعاً سالمين معافين، فسيبنون كنيسة تكريماً للعدراء، في المكان الذي كانت نساؤهم ينتظرن فيه عودة المراكب.

«لقد تحقق دعاؤهم ووفوا بوعدهم! تم إحضار الكتل الحجرية إلى هنا على ظهور الحمير وظهور الرجال، في عمل امتد لعدة أسابيع.»

بدا ليون حزينًا لأنه مضطر للانصراف في نهاية اليوم. عادوا إلى الشاطئ وألقوا بعض الحصى في البحر.

«أراك غداً.» قال ليون لجوانا.

«أراك قريبًا يا سيدي.» أضاف وهو يلتفت نحو والدها.

سألها والدها في طريق العودة:

«هل تخمين هذا الولد؟»

هزت رأسها.

«لا. أنا لا أعرفه جيدًا.»

إلا أنها أضافت:

«لقد دعاني لتزهيّة يوم الأحد المقبل.»

صمت والدها بضعة أمتار ثم قال:

«إنك تتحولين إلى شخصٍ راشد.»

هزت كتفها غير متأكدة حقًا. هل كونها تلقت دعوة من صبي يعني أنها

ستتحول فجأة إلى شخصٍ راشد؟

تعرفت إلى صبي في الصيف الماضي، ولم تشعر أن قصتها معه قد غيرتها كثيرًا.

صحيح أنهما لم يتعارفا لفترة طويلة، ولكن مع ذلك...

«يومًا ما ستقعين في الحب.»

«لا أعرف.»

«يجدر أن أهديك هذا الاقتباس على الفور.»

نظرت إليه في سعادة. لقد أحببت دائمًا الطريقة التي يعد بها الكلمات بمثابة

هدايا.

«أي اقتباس؟»

توقف في الزقاق الحجري، وهو أحد أزقة سان سولياك، النموذجية، التي تنمو

فيها الزهور بين أحجار جرانيت البيوت. لقد تم الحفاظ على القرية بشكلٍ مثالي،

وهذا ما تحبه جوانا بشكلٍ خاص هنا. لا تزال هناك أحواض ملح قديمة وطواحين مياه تستخدم ظاهرة المد وحتى منهير⁽¹⁾ قديم يسمى سِنُّ غرغتوا.

«هل أنت مستعدة لساعه؟»

أومات. انتشرت فوق شاربِي والدها وحتى حاجبيه، نترات أعشاب جافة، لا تدري أبدًا كيف يَلْتَقِطُ منها دائمًا في أماكن غير متوقعة.

«اقتباس عن الأمومة.»

«أبي!»

«ماذا؟»

«لست مستعدة لإنجاب طفل!»

«ولكنك ستكونين أمًا يومًا ما.»

راحت تدمدم متذمرة قليلًا، فهي تشعر أنها لا تزال فتاة صغيرة لا أكثر.

«يقول الاقتباس: قبل أن نهب الحياة، علينا أن نحبها وأن نجعل غيرنا يحبها.»

بدا وجهه جدًّا للغاية. كان يبدو جدًّا حتى عندما تتخلل حاجبيه نترات من الأعشاب.

«لقد حاولت جاهدًا أن أفعل ذلك معك.»

أومات برأسها.

«أعرف.»

«سوف تضعين هذا في ذهنك دائمًا، اتفقنا؟»

«اتفقنا.»

«وإذا أحببت ليون هذا، يومًا ما، حاولي أن تجعله يحب الحياة بقدر ما جعلتكِ

تحبينها.»

استأنفا السير على طول الزقاق.

«يبدو أنه فتى فضولي، هذا جيد... إلا أنه يبدو أنه لم يتعلم شيئًا بعد.»

«إنه معلم مدرسة!»

(1) كتلة حجرية طويلة قائمة تعود إلى العصور الحجرية الحديثة في منطقة بريتاني السلتية.

«المعرفة الحقيقية لا تقاس بالشهادات يا جوانا. ولا بعدد الكتب التي التهمناها. أريه النجوم، والنباتات التي تولد ثم تموت، وجمال غروب الشمس، اجعله يشم رائحة الليلك ويستمع إلى انبعاثات البحر.»

«إنه يعرف هذا كله يا أبي!»

التفت الوجه الخشن ذو الملامح الواضحة، نحوها.

«هل أنت متأكدة من ذلك حقاً؟»

انتابها الشك فجأة.

«هل تعتقدين أن والديه علماه ذلك؟»

لم تستطع قمع قشعريرة اشمزاز عند تذكر الزوجين أندريه، وهزت رأسها.

«لا. ربما لا.»

ابتسم والدها بشيء من الحزن.

«أنا أيضاً كنت أسمعها وهما يتهاامسان، يا جوانا. لكن لا يجب أن تلوميه

لكونه ابن والديه. إنه في الحقيقة فتى مسكين. نشأ في جوٍّ من البؤس.»

قالت وهي تشعر بالإهانة:

«يملك والداه متجر تبغ!»

«جوانا، هل أنتِ ابنتي؟ أحياناً أ طرح على نفسي هذا السؤال.»

لم تستطع أن تكبح ابتسامتها.

«الشائعات تقول إنني كذلك.»

«كنت أكلّمك عن شكلٍ آخر من أشكال البؤس.»

«آه.»

«أنتِ أيضاً ما زلتِ في حاجةٍ إلى التعلم.»

«وماذا عنك أنت؟» ردت وقد شعرت بالغیظ.

«أنا أيضاً يا جوانا، أنا أيضاً. نحن دائماً في حاجةٍ إلى التعلم.»

في يوم الأحد التالي، تبادل ليون وجوانا قبلةً للمرة الأولى على الشاطئ، بعد مشاهدة أحد أجمل مشاهد غروب الشمس في سان سولياك.

عادت العربة إلى السير. كانت جوانا مريضة منذ يومين، وحرارتها لا تنخفض. أعطاهما إميل أدوية جلبها من الصيدلية. أعد لها حساء خضار، لأنه الشيء الوحيد الذي تأكله.

«أين نحن؟»

تحسنت هذا الصباح وخرجت من سريرها في حذر.
«وصلنا إلى مكان قريب جدًا من آس، في جبال البيرينيه الأطلسية.»

جلس على المقعد، أمام فنجان قهوة يتصاعد منه البخار.

«هل تشعرين بتحسن؟ اجلسي هنا.»

أفسح لها المجال ودفع بورقة مكتوبة، نحوها.

«ما هذا؟»

«تكلمت مع ميرتيل في الهاتف.»

اتسعت عينا جوانا.

«أوه!»

«عندما لم أعرف ما أفعل لخفض حرارتك، اتصلت بها لطلب نصائحها.»

«ليتكَ مررتَ لي المكالمة، كنتُ أتمنى أن أكلمها.»

«كنتِ نائمة مثل طفل.»

ابتلعت جوانا خيبتها.

«ماذا أعطتك من نصائح إذا؟»

«أن نتجه مباشرة إلى منزلها حتى تتمكن من علاجك بشكل صحيح.»

كان يعلم أن ذلك سيجعلها تبتسم.

«قلتُ لها إنني سأتدبر الأمر مع الصيدلانية.»

«وما هذه الورقة؟» قالت جوانا وهي تحاول فك رموز الشخطة.

«قالت إنه باعتبارنا لا ننوي زيارتها قبل عيد الميلاد، فهي تريد التأكد أنني

أبقىك في مكانٍ دافئ حتى ذلك الحين.»

عبست جوانا دون أن تفهم.

«لقد أعطتني جهة اتصال. هذا السيد يعمل راعيًا.»

تمكنت جوانا من قراءة اسم أعلى الورقة. هيبوليت برنارد.

«لديه مشروع تجديد عقار حجري قديم في وادي آس، يستقبل فيه متطوعين من جميع أنحاء فرنسا، وأحيانًا من جميع أنحاء أوروبا، طوال العام. يتوقفون هناك لمدة يومين، أو أسبوع، أو شهر، ويعرض عليهم المسكن والطعام مقابل بضع ساعات من العمل في الموقع.»

«أوه!»

يبدو أن الفكرة قد أعجبتها.

«هل تريدان الاتصال بـ ميرتيل؟» اقترح إميل، ماذا إليها الهاتف.

ترددت جوانا التي لا تزال شديدة الشحوب. من الواضح أنها ليست مستعدة بعد لإجراء محادثة مع أحد.

«لا أدري...»

«انسي الأمر. لا موجب للعجلة. ساعد لك وجبة خفيفة أولاً، اتفقنا؟ منذ ثلاثة أيام لم تأكلي شيئًا غير السوائل.»

اتجه إلى منضدة العمل وانشغل وقد فكر أن يعد لها سلطة فواكه.

«سنكون في آس بحلول نهاية اليوم. بوجود الثلج على الطريق، يُفضل أن...» لكنه لم يكمل جملة، إذ نهضت جوانا وأزاحت الستار أمام النافذة الصغيرة فوق المقعد، لتكتشف الثلج بعينين مذهولتين مثل طفلة.

«إنها ثلج...»

«نعم، إنها ثلج.»

«منذ متى؟»

«منذ عودتنا إلى جبال البيرينيه.»

راح ينظر إليها بأنفها الملتصق بالنافذة، متسائلًا عما تفكر فيه، وهل كان توم الصغير يحب الثلج؟

وإن كان هو الذي تراه في الامتداد الأبيض متخذًا وضعية القرفصاء لصنع رجل ثلج أم لا.

تقاطرت الحقول والجبال المغطاة بالثلوج. من وقتٍ لآخر، كانت تبرز في مجال رؤيتهما فجأة بعض الأشجار العارية. إميل خلف عجلة القيادة، بينما بقيت جوانا في الخلف تلتصق أنفها بالنافذة وهي مستندة إلى ركبتيها فوق المقعد الطويل. كانت ملتفة بغطاء النوم، وشعرها المتسخ ملتصق بجبينها، وشفاتها متشققتان من البرد. لم تعرب بعد عن رغبة في الاغتسال، لكنها في الأقل تناولت سلطة الفواكه.

جلجلت سلسلة مفاتيح في الفناء الصغير المرصوف بمدرسة سان سولياك الابتدائية. جلست جوانا وليون إلى الطاولة الصغيرة وسط حديقة خضروات والد جوانا. راحا يشربان عصير الليمون الذي قدمته، ويستمتعان بآخر خيوط شمس أكتوبر. عاد والد جوانا حاملاً سلسلة مفاتيحه، الكبيرة. كان قد ذهب لشراء بعض الحاجيات من القرية، وكالعادة اختفى لمدة ساعتين تقريباً.

«هل أنتما بخير؟»

أومأت جوانا في هدوء، وسارع ليون إلى قول:

«نهارك سعيد يا سيدي.»

نزع والد جوانا قبعته القش، ووضعها فوق الطاولة.

«ماذا جلبت؟» سألت وهي تنظر إلى سلته.

«خرشوف، وبعض الشمندر، والباذنجان، وبعض التين.»

أخذت جوانا تفتش في السلة، بينما ارتقى والدها على كرسي بجانبها.

أعلن أن حديقة الخضروات قد أنتجت أول ثمرة قرع سباغيتي⁽¹⁾ في الموسم.

«حقاً؟» قالت جوانا وهي ترفع رأسها.

«سباغيتي.»

سمعا ضحكة ليون واستدارا متفاجئين. بدأ ليون يتلعثم.

«ظننتُ أن...»

(1) Courge قرع السباغيتي، نوع من القرع أو الكوسا الذي عندما يُطهى يسهل تفتيت لبه إلى شرائط تشبه السباغيتي.

قاطعه الصوت الضخم والخشن لوالد جوانا:
«لا. لم تنبت أي معكرونة في الحديقة... لم أجد طريقة لإنباتها بعد... إنه أمر مؤسف.»

انفجرت جوانا ضاحكة واهمر ليون المسكين من الخجل.
«إنها ثمرة قرع.» أضاف الرجل.
«أحد أنواع الكوسا.»
نهض بصورة مباغتة جعلت ليون يجفل.
«تعال، سأريك إياها.»
وجد الثلاثة أنفسهم يجلسون القرفصاء حول أول ثمرة قرع سباغيتي في الموسم.

«كانها بطيخة صفراء... أو بطيخة متطاولة.» لاحظ ليون.
أومأت جوانا.
«عندما كنت صغيرة، كنت أسمى هذه (الليمونة الأم).»
أخذ والدها يتسم أمام هذه الذكرى.
«وكنت غير قادرة على حملها حتى المنزل... كان طولك بالكاد أربعة أقدام.»
نهض وفرك يديه المملوءتين بالتراب بينظاله البيج.
«إذا بقيت لتناول العشاء يا ليون، ستتعلم كيفية طهي قرع السباغيتي.»
وجد ليون صعوبة في إخفاء دهشته وفرحته، وابتسم بشيء من الغباء سائلًا:
«حقًا؟»

أومأ الرجل.
«جوانا ستعلمك. إنها ماهرة في إعداد الغراتان.»
أكدت جوانا ذلك بإيماءة من رأسها.
«وأبي سيعد لنا كومبوت التين. إنه يضع فيه الجوز. سترى كم هو لذيذ.»
بدا ليون في غاية السعادة. وابتسم قائلاً:
«حسنًا إذا... نعم... أود... شكرًا على الدعوة... أنا أحب التين.»
قاطعه والد جوانا بصوته الأجش:

«الهاتف في المدخل، في حال أردت إخطار والديك. ومن ثم لنذهب إلى المطبخ!»

اتخذ كل من جوانا ووالدها مكانه الخاص: هي خلف طاولة المطبخ المتهالكة مستندة إلى ركبتيها فوق كرسي وأمامها لوح التقطيع، وهو أمام المغسلة، يغسل التين، وأوعيته مرصوفة على منصدة العمل. كانا يطبخان دائماً بهذه الطريقة. لكل منهما مساحة خاصة به. وقف ليون بشكلٍ آخرق إلى يمين جوانا، وراح يراقبها في اهتمام.

«ها قد قطعناها إلى نصفين. الآن سوف نغطيها بزيت الزيتون والملح والفلفل وندخلها في الفرن.»

«هل سنطبخها هكذا؟ مع الجلد؟»

«بالطبع. ناولني الزيت من فضلك.»

لم يكن والد جوانا يقول شيئاً. كان يراقبها بطرف عينه، ويبدو مستمتعاً. «نضع المؤشر عند مائة وثمانين درجة.» شرحت جوانا وهما مقرفصان أمام الفرن.

كلفته بتقليب البصل والثوم بزيت الزيتون في مقلاة ساخنة، ثم أضافت الطماطم المقطعة. أخذوا يحركان ويراقبان النار، وهما يتحدثان عن المدرسة، وعطلة عيد جميع القديسين القادمة، وإقامة ليون المرتقبة مع والديه في جبل سان ميشيل.

«ألم تذهبي إلى هناك قط؟»

«لا.» أجابت جوانا.

«يجب أن آخذك يوماً إلى هناك.»

بدت جوانا تفكر في الاقتراح.

«نعم. لم لا؟» أعلنت وهي تزم شفيتها.

كان العجوز ينظر إليهما وهما يفتتان ثمرة قرع السباغيتي التي أخرجت من الفرن، ثم يضيفان إليها خليط الطماطم والثوم والبصل.

«ثم نعيد هذا كله إلى الفرن.»

بدا ليون طيِّعًا أمام جوانا، ويحاول حفظ كل المعلومات التي تقدمها له.

«أنت لا تطبخ في المنزل أبدًا؟»

«لا. ليس أشياء شبيهة على أي حال.»

«بأي معنى؟»

«تقول والدتي إنه لا وقت لديها لطهي الطعام. إنها تقتصر على الأطعمة المجمدة التي تقوم بتسخينها في الميكروويف.»

رسمت جوانا تكشيرة اشمئزاز لم تفلت من ليون ولا من والدها الذي كان يصغي إليهما من المطبخ في أثناء قيامه بتحريك الكومبوت على النار.

لاحقًا جلس الثلاثة حول طاولة غرفة المعيشة. أشعل والد جوانا النار في الموقد. نظر ليون بفضول إلى النقوش التي تغطي جدران غرفة المعيشة. اقتباسات، مقتطفات من روايات، تأملات شخصية. من المؤكد أن أحد النقوش كتبه جوانا عندما كان عمرها لا يتجاوز العشر سنوات. الجو اليوم مشمس. كأن السماء تبسم وفوق الجملة المرتجفة، رسمت تلك الشمس الزرقاء الصغيرة.

«إذا يا ليون، ما الذي تعلمه للأطفال طوال اليوم؟» سأل والد جوانا وهو يملأ الأطباق.

«أوه، أشياء كثيرة. الكتابة والحساب. تاريخ فرنسا. ولكن أيضًا جسم الإنسان وعلم الأحياء.»

«هذا جيد. عندما كنت أعمل حارمًا، اقترحت على المديرة أن نقوم بإنشاء حديقة خضروات كبيرة لتعليم الأطفال كيف يزرعون خضرواتهم.»

«إنها فكرة جيدة.» أكد ليون.

أطلق والد جوانا دمدمة استياء.

«لقد رفضت المديرةُ فكرتي. لم ترَ فائدتها.»

«أمر مؤسف...»

«أنا متأكد أن معظم الأطفال لا يعرفون قرع السباغيتي.»

كان ليون على وشك أن يحمر خجلًا لكن الرجل قاطعه قائلاً: «يمكنك تعليمهم ذلك.»

أوما ليون. كانت جوانا تنقر لقيامتها في صمت، إلى جانبها.

«كما تعلم يا ليون، إذا كنت مهتمًا، تستطيع إحضارهم إلى حديقة نباتاتي من وقتٍ لآخر. ساعة في الأسبوع. يمكنهم سقاية النباتات، والتعرف إلى أصنافها.»
بدا ليون متحمسًا بصدق.

«هل تعتقد أنني أستطيع ذلك؟»

«لديك حصص للتربية المدنية، أليس كذلك؟»

«نعم.»

«أنت حر إذاً في اختيار ما تريد تعليمهم إياه خلال هذه الحصص. لا أعتقد أن المديرية تستطيع الاعتراض. فكر في الأمر، اتفقنا؟»
«أعدك.»

تردد صدى أغنية مايلز ديفيس في غرفة المعيشة الصغيرة. راحت جوانا تدندن وتحرك قدمها مع اللحن، تحت الطاولة. أسند والدها ظهره إلى كرسيه، وقد بدا عليه الإرهاق. بتشجيع من الرجل العجوز، أخذ ليون يخبرهما عن فصله، وإحجام بعض الطلاب عن القراءة، والصعوبات التي تواجهه.

«من المناسب تخصيص وقت للقراءة في الصباح.» اقترحت جوانا.

«عليهم أن يقرنوا ذلك بالاسترخاء والراحة. اقرأ لهم قصة في الصباح، ودعهم يستلقون على الأرض، مع دُماهم المفضلة، وغطاء نومٍ صغير. دعهم يستيقظون في لطفٍ وهم يستمعون إلى قصة.»

«هل تعتقدين ذلك؟»

أوما الرجل العجوز قائلاً:

«أعتقد أنها فكرة عظيمة.»

عندها بدأ ليون يتكلم بشيءٍ من الخجل:

«لقد فكرتُ للتو حين رأيتُ هذه الكلمات على جدران منزلكما... ربما تكون الفكرة سخيفة بعض الشيء... إنهم ما زالوا صغارًا ولكن... يمكنني أن أترك لهم لوحة قماش بيضاء كبيرة... أو... أو ورقة يمكنهم أن يدونوا عليها كل الأفكار التي خطرت لهم في يومهم... حالتهم المزاجية أو... أي شيءٍ يتبادر إلى ذهنهم.

هذا السلوك يمكن أن يعرفهم إلى الكتابة بطريقة ما... بطريقة أكثر حرية قليلاً من الإملاء...»

عند رؤية الإيحاءات المبتسمة لجوانا ووالدها، استقامت كتفا ليون في بطة.

في المساء، بعد مغادرة ليون، وتبادل قبلة مع جوانا أمام بوابة المنزل، ذهب إليها جوزيف في المطبخ وهي تغسل الأطباق. تناول قطعة قماش ووقف بجانبها كي يجفف الأطباق النظيفة التي تمررها إليه.

«أتعلمين يا جوانا؟ أعتقد أن ليون شاب طيب.»

«أنا أيضاً أعتقد ذلك.»

خيم صمت طويل.

«يريد أن يقدمني إلى والديه.» أعلنت جوانا.

«سوف يدعوني لتناول العشاء في منزله خلال عطلة عيد الميلاد.»

ابتلع الرجل العجوز الخبر في صمت، دون أن يظهر شيئاً، واستمر في تجفيف الأطباق. مكتبة سر من قراً

«ستذهبن إذا وتحافظين على رأسك مرفوعاً. سوف تظهرين لهما بكل كرامة أنه ما كان يجدر بهما أن يتهاكما في أثناء مرورك. هل فهمت يا جوانا؟»

«لقد تصرف دوماً على هذا النحو.» أجابت.

«أعرف. لكننا أحياناً نسمح لمشاعرنا أن تُضعفنا. الحب الحقيقي، هو الذي يجعلنا نشعر دائماً أننا كبار. ليس العكس.»

«أعرف يا أبي.»

لم تر أنه ينظر إليها في حنان.

«ألم أقل لك، إنك تتحولين إلى راشدة. لم يعد لدي الكثير لأعلمك إياه.»

ابتسم كل منهما دون أن يلتفت. بدت ابتسامة جوانا قريية من الفخر. بينما كانت ابتسامة والدها كثيفة بعض الشيء.

كان الزوجان أندريه مهذبين ومجاملين طوال العشاء، مع مسحة ازدراء، ولكنها طبيعتهما العميقة. جاءت جوانا وهي تجر قدميها. كان ليون في غاية السرور، كأنه لا يدرك أنه يأتي بـ (ابنة العاهرة) إلى والديه. بدا شديد الحماسة وقد فرق شعره في المنتصف.

كانت جوانا على وشك الاسترخاء في كرسيها المرتفع، مقابل الزوجين أندريه. تحدث الأب لمدة ساعة عن متجر التبغ الذي يملكه، وتظاهرت جوانا بأنها مهتمة بالأمر. لقد نجت تقريبًا. لم يبق سوى الحلوى ويصبح بمقدورها أن تغادر.

«أقدم لكم». أعلنت مدام أندريه، وهي تضع تورتة الفاكهة على الطاولة. تساءلت جوانا عما إذا كانت تلك تورتة مجمدة أم أن مدام أندريه هي التي أعدتها لتكريمهما رغم أنها لقيطة صغيرة. كانت أفكارها قد وصلت إلى تلك النقطة عندما طرح السؤال، بصوتٍ معسول فظيع:

«إذا يا جوانا، أخبرني ليون أنك توليت وظيفة والدك وأنت في عمرٍ لا يتجاوز العشرين؟»

تذكرت والدها ونصيحته وحاولت أن تبقي رأسها مرفوعًا.

«نعم. هذا صحيح.»

شرعت مدام أندريه في ابتسامةٍ تفتقر بشدة إلى الطبيعية وهي تدفع طبقها نحوها.

«وقبل ذلك ماذا كنت تفعلين؟ لا أعتقد أنك درست، أليس كذلك؟»

«لقد...»

تنحنحت.

«حصلت على البكالوريا وبعد ذلك بدأت أعمل مع والدي. كان يعلم أنه سيتقاعد خلال عامين، وكانت المديرية قد فكرت بي سابقًا كي أحل محله. لذلك بدأ يعلمني كيف أمارس المهنة.»

وزعت التورتة على الجميع حول المائدة ولم يكن يُسمع سوى صوت احتكاك الملاعق بالأطباق.

«خسارة كبيرة.» قالت مدام أندريه.

حاولت جوانا أن تبدو مهذبة:

«خسارة؟»

«فتاة صغيرة مثلك، لم تعرف شيئاً سوى القرية... كان بإمكانك أن تذهبي للدراسة في المدينة... لرؤية العالم...»

قامت مدام أندريه بإرجاع خصلة شعرٍ إلى خلف أذنها.

«من الطبيعي أن والدك، كحارس، لم يكن قادرًا على تحمل تكاليف ذلك.»
راحت والدة ليون بشعرها الذي جففته سنوات من المعالجة باللفائف والمجفف الكهربائي، تمنع النظر إليها. سعت جوانا جاهدة أن تحافظ على نبرة مهذبة، وبشكلٍ خاص أن تبقي رأسها مرفوعًا.

«لم تكن مسألة تكاليف. أنا كنت مرتاحة هنا. كنت مرتاحة في المدرسة. لم أرغب قط في العيش في المدينة.»

«ممم.» همست مرة أخرى، كما لو أنها مقتنعة بأن هذا كله هو مجموعة من الأكاذيب.

أبقى ليون وجهه مثبتًا بعناد على طبقه، كما لو أنه كان يرجو ألا يُشاهده أحد على شيء.

«لقد اعتقدنا أنا وزوجي دائمًا، بصفتنا الشخصية طبعًا، أن من الضروري أن يعرف ابنتنا شيئًا آخر غير سان سولياك، كي يفتح ذهنه. هناك الكثير من الأشخاص المثيرين للاهتمام الذين يمكنك مقابلتهم في مكانٍ آخر.»
هذه المرة، لم تستطع جوانا كبح مظهرها المتشكك.

«لم أقابل قط أشخاصًا مثيرين للاهتمام في مدرسة سان مالو الثانوية.»
أرفعت جملتها مع هزة كتفين. أصبح الصمت ثقيلًا حول الطاولة. لكن مدام أندريه عاودت المحاولة.

«بالتأكيد، فربما لست من النوع الذي... كيف أقول ذلك؟... يريد الاختلاط.»
«الروابط التي لدي في المدرسة تكفيني. أنا متفاهمة بشكلٍ ممتاز مع المعلمين ومديرة المدرسة.»

شربت مدام أندريه رشفة ماء دون أن تتمكن من فتح شفيتها.

«نعم بالطبع. ولكن أتخيل أن كل فتاة شابة تحتاج إلى أصدقاء في مثل عمرها.» حاولت جوانا أن تتنفس في بطءٍ وتمضغ فطيرة الفاكهة المطبوخة أكثر من اللازم. ربما كان عليها ببساطة أن توافق على كل جملة تقولها السيدة أندريه، فربما يكون هذا هو الخيار الأفضل لاختصار هذه المناقشة في أسرع وقتٍ ممكن. لكن مدام أندريه استمرت:

«لقد أحبّ ليون الحياة في نانت، وسنوات دراسته. التقى الكثير من الأشخاص المثيرين للاهتمام في الجامعة. أليس كذلك يا ليون؟»

أوما ليون برأسه بشكل غامض، وأنفه لا يزال مثبتًا على طبقه. ثم أطلقت مدام أندريه صهيلاً بمثابة ضحك، وهي تضيف:

«حتى أنه التقى شابة صغيرة هناك. كان اسمها إستل. أعتقد أنها استمرا معًا ما يقرب من العامين...»

«أمي!»

ضرب ليون بقبضته على الطاولة ووقف. تظاهرت والدته بملاحظة خطئها ووضعت يدها على فمها.

«بالطبع... لم أقصد الكشف عن خصوصياتك، بل كان ذلك فقط للتأكيد على كونك كنت مسرورًا هناك.»

استدارت نحو جوانا وأكثرت من الاعتذارات المعسولة والكاذبة. «لا علاقة لهذا الأمر بك. لم أقصد جعلك تشعرين بعدم الارتياح. هذه فكرة لم تخطر على بالي.»

بدا ليون غاضبًا وراح ينقر بأصابعه بعصبية على الطاولة كي يشير إلى والديه بأنه ينوي قطع الوجبة وإعادة جوانا إلى منزلها. لكن مدام أندريه، بعد أن شربت رشفة أخرى من الماء، استمرت في مسرحيتها من جديد.

«لقد أحب نانت حقًا، هذه حقيقة. وفي سنته الثالثة، ذهب إلى إنجلترا للتدريب. لقد عشق لندن أيضًا. ولديه في الواقع، فكرة العودة إلى هناك ذات يوم. حسنًا، من المفهوم بالطبع أن يكون من مصلحة ليون، بوصفه معلمًا شابًا، حديث التخرج، أن يكتسب الخبرة في مكانٍ يعد أهله... لنقل... غير متطلّين بخصوص التحصيل العلمي... غير طموحين. ولهذا السبب اختار سان سولياك.»

أخذ وجه ليون يتحول إلى اللون الأحمر. تجمدت أصابعه على الطاولة. كانت عينا مدام أندريه مصوبتين فقط إلى جوانا، وتحديقان إليها في استمتاع.

«بالطبع، لطالما أسرَّ لي ولزوجي - ونحن نفهمه كثيرًا! - بأنه لا يريد أن يدفن نفسه هنا، في هذه الهاوية الثقافية... يريد أن يمنح نفسه عامين. ربما ثلاثة كحد أقصى، ثم سيبحث عن عملٍ في سان مالو أو نانت. وكان يفكر أيضًا في الانتقال إلى لندن. هذه خطط كبيرة. لقد تمتع ليون دائمًا بهذا الطموح. أليس كذلك يا عزيزي؟»

حاولت جوانا أن تحافظ على هدوئها وألا ترمش. رفضت النظر إلى ليون، بل ورفضت مساءلة بعينها، كونها لم تشأ أن تُرضي تلك المشعوذة. لذلك فضلت الإذعان.

«نعم، إنها خطط كبيرة.»

حاول ليون اللحاق بجوانا في الليل. كانت تمشي بخفة في الزقاق المرصوف.

«انتظري! سأرافقك إلى المنزل! جوانا!»

قبلت أن تتباطأ حتى يتمكن من اللحاق بها. لكنها ردت في هدوء:

«أستطيع العودة إلى المنزل بمفردي.»

«أفضل مرافقتك.»

«أحب السير وحدي.»

التقط أنفاسه في بطءٍ محاولاً مواكبتها.

«أنا آسف بشأن والدتي... إنها دومًا هكذا.»

«هكذا، كيف؟»

«مزعجة.»

هزت جوانا كتفيها، وبقي وجهها حياديًا، الأمر الذي أربك ليون.

«لم يكن عليها أن تتحدث عن إستيل.»

«لا يعنيني هذا الأمر.»

تمعن في وجهها كي يعرف إن كانت تقول الحقيقة أم لا. بدت بالفعل على بعد آلاف الأميال عن الاهتمام بهذه القصة مع إستيل. إلا أنها واصلت السير بسرعة، مرفوعة الرأس، دون أن تنظر إليه.

«هل أزعجتك مسألة الانتقال إلى لندن؟»

خشيتُه من إجابتها جعلته لا يجرؤ على النظر في وجهها.

«لا. ليس هذا ما أزعجني. لا شيء أزعجني سوى فكرة إضاعة وقتك.»

«ماذا؟»

التقط ذراعها وأجبرها على التوقف.

«ما الذي جعلك تقولين ذلك؟»

كانت لها تلك النظرة الهادئة والمطمئنة التي تجعلها تبدو أكبر من عمرها بعشر سنين.

«لم أعتقد قط أنني أعيش في هاوية ثقافية. أحب هذه القرية ولا أعد المدرسة التي أعمل بها معهداً للأطفال عديمي الطموح.»

«الحقيقة... أنا لم...»

«لن أغادر سان سولياك أبداً. أحب كل أرجاء هذا المكان. ولن أترك والدي أبداً.»

تلثم ليون وهز رأسه. بقيت جوانا هادئة تماماً ومسيطرة على نفسها.

«لا أريد أن تضيق وقتك في دفن نفسك هنا. والدتك على حق، لديك خطط كبيرة. لا يجوز أن تتنازل عنها بالبقاء مع الشخص الخطأ. أن تعيش علاقة يعني أن ترتقي، لا أن تثبت في مكانك.»

توقفت لنصف ثانية، كافية فقط لالتقاط أنفاسها.

«كانت والدتك مزعجة تماماً، هذا صحيح. لكنها على حق. أحدنا لا يناسب الآخر.»

استأنفت السير فجأة. احتاج ليون إلى لحظة كي يُبدي استجابة وكانت قد ابتعدت.

«انتظري! جوانا!»

ركض وراءها وحاول الإمساك بذراعها من جديد، لكنها دفعته بعيدًا.

«أنت تعلمين أن هذا ليس صحيحًا! تعلمين أن هذه ليست كلماتي! صحيح أنني لم أكن أريد العودة إلى هنا. لقد فقدت الاتصال بجميع أصدقاء طفولتي. كنت خائفًا من الملل هنا. لكنني لم أزم قط أن سان سولياك هاوية ثقافية أو... أو أنني سأدفن نفسي فيها!»

تواصل جوانا سيرها بخطى حثيثة دون أن تنظر إليه.

«ثم إن هذا كان قبل أن ألتقيك.»

كانت تتقدم بشكل أسرع وأسرع، ويكاد ليون يركض لمواكبتها.

«تلك هي الكلمات التي كانا يرغبان في سماعها مني! لكنني في الحقيقة، لطالما خيئت أملهما دومًا. بعد المدرسة الثانوية كان عليهما أن يأخذاني إلى نانت. أما أنا، فقد كنت خائفًا من أن أجد نفسي وحيدًا في المدينة. وهذا التدريب في إنجلترا، فرضاه علي! أنا لست الفتى الطموح الذي أراداه. لقد أرادا رؤيتي محاميًا. لكنني أردت أن أصبح أستاذًا وليس محاميًا. إنها المرة الأولى التي أقف خلالها أمامهما معترضًا، ولا يزالان أساسًا يلوماني على ذلك.»

توقف لحظات كي يلتقط أنفاسه. يبدو أن جوانا قد أبطأت سيرها، مما شجعه على الاستمرار.

«لم تعجبني بشكل خاص فكرة العودة إلى بيت والدي في سان سولياك، هذا صحيح... لكن ذلك كان قبل أن ألتقيك، قبل أن يريني والدك الكنيسة الصغيرة، والحمم البركانية المتحجرة، قبل أن يروي لي قصة الرجال الذين كانوا يذهبون لصيد السمك... قبل ذلك لم يجعلني أحد أحب سان سولياك.»

في النهاية أبطأت جوانا سيرها تمامًا. التفتت نحو ليون وقد بدت حزينة بعض الشيء.

«صحيح؟»

كان ليون يلهث تمامًا. أو ما برأسه مؤكّدًا.

«نعم صحيح. أصبحت أعشق سان سولياك منذ أن عرفتُك. أعشق تناول العشاء عند أبيك واكتشاف كل تلك الأنواع من الخضار، والحديث عن حديقة الخضروات التي أجهزها في هدوء، والقصائد التي أجعل التلاميذ يكتشفونها...

في المنزل لا أحد يهتم بعملتي. إنه بالنسبة لهما لأصاغة تعريف فقط، علامة صعود اجتماعي صحيح. لكنني أحب ما أقوم به، المدرسة والتلاميذ وقبل كل شيء أحب بيتك الصغير في الفناء. أحب أن أعرف أنك هناك، في الصباح الباكر، تستعدين لفتح البوابة. أحب ظهورك عند تمام الثامنة والنصف، ومعك مجموعة المفاتيح هذه التي هي أكبر من يديك. أحب الطريقة التي تمشين بها، وتلقين التحية على الأطفال، وتسقين النباتات. أحب ما تجعليني أشعر به عندما تنظرين إلي. أشعر أنني أقوى وأكبر. أشعر كأنني شخص مهم. لم أقابل قط فتاة مثلك في نانت. لا أريد أن أبتعد عنك بعد الآن. إذا اضطررت للبقاء في سان سولياك، فسأبقى في سان سولياك.»

بدت متأثرة بكلامه لكنها بقيت نائية، وكأنها تقيمه، وكأنها تحاول اكتشاف الصدق في عينيه.

«ماذا يمكنك أن أفعل كي أجعلك تصدقيني؟» سأل ليون أخيرًا في إحباط.
«ماذا يمكنك أن أعطيك كي أثبت لك ذلك؟»

التمعت عينا جوانا قليلًا. استغرقت بضع ثوانٍ للتفكير، وهي تلهو بحصاة صغيرة بطرف قدمها. وأخيرًا تحدثت وهي ترفع وجهها نحوه:

«إذا كنت تحب منزلنا الصغير إلى هذا الحد، فيمكنك أن تأتي وتقيم فيه.»

لا يبدو أنها لاحظت الدهشة التي ظهرت على وجه ليون، وشحوبه المفاجئ.
«كان أبي يخطط لتوسيع غرفتي وإنشاء شرفة صغيرة تطل على حديقة الخضروات... حتى أتمكن من الحصول على استقلاليتي... إذا أتيت للعيش معنا، فيمكننا إنشاء مساحتنا الشخصية هناك. هدم الجدران لا يمثل مشكلة بالنسبة لي. وبعد ذلك لدي بعض المعرفة حول كيفية وضع أسس الشرفة الأرضية.»

توقفت عندما انتهت إلى نظرة ليون الحائرة، وفمه نصف المفتوح، وجفنيه اللذين يرمشان بشكلٍ محموم.

«ماذا؟» سألت.

«ماذا هناك؟»

هز ليون رأسه، وبدأ بهيئة من تلقى ضربة قوية على رأسه.

«لا يمكنكِ فعل ذلك.» همس بذلك. قطبت جوانا حاجبيها تعبيرًا عن عدم فهمها.

«ما الذي لا يمكنكِ فعله؟»

«سألتكِ: ماذا يمكنكِ أن أقدمه لك لأثبت صدقي؟»

«أعرف...»

«وأنتِ التي تقدمين لي شيئًا...»

بدا أنه يجد صعوبة في إدراك ذلك، حتى الآن.

«تقترحين أن آتي وأعيش معك! معك ومع والدك!»

أومأت برأسها وعند زاوية شفتيها ارتسمت ابتسامة خفيفة جدًا.

«تلقِي العطاء، يدل على الكرم... ربما أكثر من العطاء نفسه.»

راح ليون ينظر إليها وقد ملأه عدمُ الفهم.

«هل تعرف باولو كويلو؟»

أومأ ليون قليلًا.

«نعم... نعم، لقد قرأت بعض كتبه. قرأت الخيميائي وكذلك بريد.»

أصبحت ابتسامة جوانا أكثر ضبابية وانتشارًا بينما ازداد عدم فهم ليون.

«في أحد كتبه يقول شيئًا عن العطاء أو الأخذ. وأنا أتفق معه تمامًا.»

«أوه...؟»

«يقول إن التلقي هو فعلٌ كرم. بموافقتك على التسلم، فإنك تسمح للآخر

بإسعادك... وأنت تسعده.»

ابتسمت له، في هدوءٍ وسكينة، واستغرق منه الأمر بضع ثوانٍ حتى يتمكن

من الكلام.

«إذا ما تريدني مني أن أقدمه لك... لإثبات صدقي، هو أن أوافق على تلقي

هذه الهدية منك...»

أفلتت من حنجرة جوانا ضحكة كريستالية صغيرة.

«لم يكن الأمر معقدًا بهذا الشكل في رأسي. اعتقدت أنني سأكون سعيدة إذا

أتيت للعيش في المنزل.»

فوجئ ليون بعفويتها والبساطة التي تُعالج بها الأشياء. لبث مترددًا لا يدري هل يبقى فمه مفتوحًا أم مغلقًا، وهل يتكلم أم لا. تلعثم دون أن يتمكن من نطق كلمة واحدة. بدت جوانا فجأة قلقة. عبست وتهيات كي تقول شيئًا لكن ليون لم يمنحها الوقت. تدفقت الكلمات من فمه سيلاً، كلمات تهتف، تتصاعد عالية النبرة، تكاد تصرخ:

«الجواب هو نعم! موافق! أريد القدوم! أريد الإقامة معك!»

وكانت من أجمل القبلات التي تبادلها ذلك المساء، في زقاق سان سولياك المضاء بزينة عيد الميلاد.

لقد مر أسبوع منذ وصول إميل وجوانا إلى قرية آص واستقرا في ملكية هيبوليت. كان العقار يتمثل في مبنى حجري ضخم، يتم تجديده في بطء، على وقع مجيء المتطوعين وذهابهم، والذين يتناقص عددهم كثيرًا في الشتاء. كان هيبوليت يملك القليل من الموارد لكن بطء العمل لم يبد أنه يزعجه. كان رجلًا نبيلًا في حوالي الستين من عمره، أصلع الرأس وله لحية بيضاء صغيرة على شكل قطرة ماء في نهاية ذقنه. كان هيبوليت راعيًا سابقًا، لم يبقَ من قطيعه سوى ثلاثة أغنام كبيرة في السن وكلبه الوفي مستيك. ما زال كوخُ الرعاة الصغير الذي عاش فيه هيبوليت، سليمًا، على بعد حوالي مائة متر من الملكية، وفيه يقضي هيبوليت كل ليلائه. المتطوعون - هناك أربعة منهم في شهر نوفمبر الثلجي هذا - ينامون ويطعمون في بناء صغير ملحق بالعقار، يضم أربع غرف مزدوجة، ضيقة نوعًا ما ومزودة بوسائل راحة أولية، لكنها كلها مدفأة تمامًا، بفضل نار الموقد، ومطبخ مشترك تدوي فيه أصوات الضحكات مساءً على العشاء. يتكون الحمام فقط من مقصورة دش ومغسلة تقعان في نهاية الممر، ولا أحد يتذمر من ذلك. كان الجو ودودًا، والأطباق التي يعدةا هيبوليت مغذية وممتلئة بالنكهات المحلية. تعرف إميل إلى شاب ألماني يُدعى فانس، جاء لإتقان اللغة الفرنسية هنا، وعلى المتطوع الثاني، ألبين، وهو أب لعائلة منفصل عن زوجته ويريد عزل نفسه عن العالم لفترة من الوقت. سمعتهم جوانا يتحدثون في المطبخ عدة مرات. هكذا حفظت أسماءهم، وسبب وجودهم هنا. لم تغادر الغرفة مرة واحدة منذ وصولهما إلى هنا. أخذ إميل يُحضّر لها وجبتها صباحًا وظهرًا ومساءً. ويأتي للاستفسار عن صحتها عدة مرات خلال اليوم. لا تزال تعاني من ارتفاع حرارتها، خصوصًا في الليل، وتغضي أيامها مرتجفة. في أحد الأيام تحدثوا عنها على العشاء. سأل الألماني بلكته الواضحة:

«صديقتك لا تخرج من غرفتها أبدًا؟»

أوضح إميل أنها مريضة وأنه يتولى علاجها، وأنها ستعود للوقوف على قدميها قريباً. كانت تمضي أيامها ملتفة بشالها، تنظر من النافذة إلى المنظر الجميل للمراعي المغطاة بالثلوج. لو لم تكن تشعر بالضعف الشديد، لذهبت تمشي في الثلج. كانت تصل إليها أصوات الأشخاص، وجلبة اصطفاق الأبواب، وتلتقط إشارات تعطيها فكرة عن التوقيت، وعن الحياة التي تستمر في الخارج...

هذا الصباح، أخرجت لوحاً قماشياً للرسم وملوناً. وضعت فرشاة الرسم خلف أذنها وجلست على حافة نافذة غرفة نومها الصغيرة، مركزة على المناظر الطبيعية. أرادت أن ترسم المراعي الجبلية المغطاة بالثلوج، والأغنام، والسياح الخشبي الصغير الذي يمتد حول المزرعة. أرادت رسم بوك، الذي كان من وقت لآخر يرى وهو يعبر المروج، تاركاً أثاراً صغيرة في الثلج. «أوه! أنت ترسمين!» هتف إميل حين دخل غرفته، حاملاً صحيفة الطعام، ساعة الغداء.

يبدو أن هذا قد أسعده. ابتسم ووضع الغداء على السرير وانضم إليها عند حافة النافذة.

«ماذا ترسمين؟»

تأمل في اهتمام تفاصيل لوحاتها.

«لم تكتمل بعد.»

«سأعود لرؤيتها في وقت لاحق إذا.»

أومأت. إنها تعلم أنه ليس لديه الكثير من الوقت لتناول طعام الغداء، وأن عليه الآن إعداد غدائه الخاص، وتناوله مع شخصين آخرين والعودة إلى موقع الورشة. إنهم يعملون قدر الإمكان خلال الساعات التي لا تكون فيها درجة الحرارة تحت الصفر، ثم يتوقفون حوالي الساعة الثالثة أو الرابعة مساءً. لم يكن لديهم ساعات محددة حقاً ولكن هكذا تجري الأمور.

«أنا ذاهب. تناولي نقيع البابونج... لأجل الحمى.»

نهض وأزاح جانبًا بعض خصلات شعرها الملتصقة على جبهتها الرطبة وطبع
قبلة هناك. كان يفعل ذلك بشكلٍ طبيعي، دون تفكيرٍ في الأمر، ثم تنظر إليه وهو
يغادر عابرًا الغرفة، ويغلق الباب خلفه.

«أراك لاحقًا»

لكنه اختفى قبل أن يتمكن من سماعها.

وقف ليون في منتصف أسس الشرفة، بثياب عملٍ زرقاء مثقبة وملطخة
بالإسمنت. نظر حوله في فخرٍ كبير. شاهدت جوانا كيف ظهر الألق في عينيه منذ
أن انتقل للعيش معها. كان يدندن صباحًا في الحمام، وابتسم طوال الوقت ويقبلها
باستمرار، حتى عندما يكون والدها حاضرًا.

«الوجود هنا مريح للغاية. أنا سعيد جدًا بوجودي هنا.» راح يكرر باستمرار
وهو يرمش بعينه كي يقنع نفسه بأن ما يعيشه حقيقي.

جاء الربيع، وبدأوا يعملون على توسيع غرفة جوانا في ساعة متأخرة قليلًا.
كان الشتاء قاسيًا، ثم أصيب والد جوانا بنوبة قلبية طفيفة. قال الطبيب إنه يحتاج
إلى الراحة، وفضلت جوانا الاعتناء به والسهر على راحته، بدلًا من مباشرة العمل.
انتقل ليون للعيش معها في نهاية شهر ديسمبر، ليلة رأس السنة الجديدة. كانت
جوانا تعرف أن والديه غاضبان منه جدًا. انقطعت لقاءاتهم أساسًا. لم يستطيعا
تحمل ما يعدانه خيانة.

التقت جوانا مدام أندريه ذات يوم، وسط القرية، بينما كانت ذاهبة لشراء
بعض البيض، ألقت عليها الأخيرة نظرة جليدية دون أن تردّ تحيتها.
«انظري!» قال ليون، وهو لا يزال واقفًا في منتصف الأسس.

«انظري ماذا فعلنا!»

بدا غير مصدق.

«بمفردنا، دون مساعدة أحد!»

ابتسمت وانضمت إليه وسط الشرفة المستقبلية. كانت هي أيضًا ترتدي
ملابس جينز ملطخة، وشعرها مثبت في أعلى رأسها بواسطة مفك براغي وجدته

في صندوق الأدوات. لفَّها ليون بين ذراعيه وبدأ بتقبيلها خلف أذنها. أخذت تكافح وتضحك وتحاول الإفلات منه.

«أين تعلمت القيام بكل ذلك؟» سألها ليون وهو لا يزال يقبلها.

«إنه والدي.»

تراجع فجأة وأخذ يقيسها من أعلى إلى أسفل.

«ماذا هناك؟» سألت غير مرتاحة.

«هل هناك شيء واحد لا تعرفين كيف تفعلينه؟» تظاهرت بالتفكير ثم عبست.

«لا أعرف شيئاً عن السباكة ولا الكهرباء.»

هذا الجواب جعل ليون يضحك.

«لا بأس... أعتقد أننا سنتدبر أمرنا.»

«لدى والدي بعض المعرفة الأساسية بالسباكة.»

«لكن جوزيف ممنوع من بذل أدنى مجهود بدني. تذكري ذلك...»

انتابها إحساس غريب عند سماع ليون يسمي والدها باسمه الأول. بالنسبة لها، هي لا تخاطب والدها إلا بكلمة (بابا). وفي المدرسة يسميه الجميع (السيد ترونييه).

«حسنًا.» قالت وهي تسوي وزرتها الخاصة بالعمل.

«هل نترك كل شيء جانباً ونذهب لتناول العشاء؟»

«موافق.»

نزلت على ركبتيها وبدأت تجمع أدوات البناء والمجرفة. لكنها رفعت رأسها لأن ليون لم يتحرك. بقي في وسط الحجرة، ينظر نظرة ضائعة، نظرة تشمل الأسس، وحديقة الخضروات الصغيرة. لقد بدا أنه يفكر.

«قيم تفكر؟» سألت جوانا، وهي لا تزال جاثية بين الأدوات.

بدا أن ليون قد خرج فجأة من أفكاره. جفل تقريباً.

«إنها فكرة حقاً، ولكن...»

نهضت في ببطء وشجعتة بعينيها.

«كنت أفكر... يمكننا تحويل هذه الشرفة لاحقاً.»

اتسعت عينا جوانا.

«تحويلها؟»

«نجعلها غرفة نوم.»

«لدى أبي غرفة نوم خاصة، وهي مناسبة له. وغرفتنا تم توسيعها للتو.»
هز ليون رأسه.

«لا. الغرفة ليست لنا، يا جوا!»

«أنا وأبي لا نستقبل الضيوف أبدًا. لا أرى فائدة من إنشاء غرفة للضيوف. إلا إذا كنت تخطط لاستقبال أصدقائك من نانت في المناسبات...»
ولكنه هز رأسه مجددًا.

«انظري إلى هذا المنظر المطل على حديقة الخضروات. في الربيع سيصبح كل شيء ملونًا. وهذا يجعلها غرفة عظيمة لطفل.»

لبثت بعض الوقت وهي متفاجئة. راح ليون ينظر إليها بتمعن. كررت:
«طفل؟»

أوما ليون، والتمعت ابتسامته ثانية.

«نعم. أحب أن أنجب طفلًا منك. وأحب أن أربيه في هذا المنزل.»

بدت عاجزة عن النطق بكلمة أو حتى القيام بحركة، ولبثت بفمها نصف المفتوح، ووزرتها الضخمة.

«سنحول الشرفة الأرضية إلى غرفة نوم لطفل. ستكون غرفة مضيئة. وسنكون قريبين. نستطيع تفقده في أي وقت.»

لا تزال مذهولة لكنها بدأت تبسم في ببطء.

«يمكنه حتى أن يشاهد جوزيف وهو يعتني بالحديقة.»

هزت رأسها مبتسمة:

«لن يُسمح لأبي أن يعتني بالحديقة بعد الآن.»

«وهل تعتقدين أنه سيستمع إلى الأطباء؟»

ضحك الاثنان لأنها يعرفان الجواب جيدًا.

«سوف يعتني بالحديقة وسيأخذه إلى خليج سان سولياك ليعلمه كيف يلقي
الحجارة فيجعلها تتقاذف عدة مرات على سطح الماء.»
قطبت حاجبيها.

«لماذا تتكلم بصيغة المذكر؟ قد تكون بتًا.»
بدا ليون متفكرًا ثم هز كتفيه.
«هذا سيسعدني بالقدر نفسه تمامًا. لماذا؟ أنت تريدين بتًا؟»
هزت رأسها بشكلٍ قاطع.

«لا.»

«لا؟»

«لا.» كررت وذراعاها متقاطعتان على صدرها.

«سيكون صبيًا.»

«لماذا؟»

«لأن هذا ما أريده. مصغر عنك.»

نظر كلُّ منهما إلى الآخر في حنانٍ لا نهائي، وسط الأسس. أراد ليون تقبيلها
لكنه لم يتحرك. كان يعلم أن ما تبادلاه في أعماق عيونها أقوى من أي قبلة.

«جوانا! جوانا، هل أنت نائمة؟»

استغرقت بضع ثوانٍ لتذكر أين هي وماذا تفعل هناك. مر اليوم كله. عاد إميل
من موقع البناء وتشاركاً لعبة سكرابيل في غرفة النوم. كان بوك هناك أيضًا. لقد
مر العشاء أيضًا لكنها لم تأكل شيئًا وذهبت إلى السرير. كانت تشعر ببردٍ شديد،
وجسدها كله يتعرق. لا تزال صحيفة العشاء على حافة النافذة. نامت وهي تسمع
الضحك في المطبخ. كان إميل يلعب الورق مع الاثنين الآخرين. لقد فتحوا
زجاجة من النبيذ.

«جوانا.» همس إميل ثانيةً في أذنها.

لم يكن لديها أي فكرة عن الوقت ولكن الملحق بدا خاويًا. لا بد أن المتطوعين الآخرين ينامان. قد تكون الساعة هي الثانية عشرة أو الواحدة. نهضت بصعوبة، وهي لا تزال غارقة في العرق. لقد بللت كل الملابس. قال إميل إن هذا ليس عاديًا، هذه الحمى التي لا تزول، منذ ما يقرب من عشرة أيام. كانت تعلم أن هذه ليست حمى عادية، وليس فيها شيء عضوي.

«ما الذي يحدث؟»

سمعت صوتها ذاته فوجدته ضعيفًا، وكأن أنفاسها تنقطع.

«لا شيء يدعو للقلق.» همس إميل.

«تعال، تعالي وانظري.»

وضع يده خلف ظهرها وتحت ذراعها كي يسندها ويساعدها على النهوض من السرير.

«إلى أين نذهب؟» سألت وهي تتكى عليه.

«فقط إلى النافذة.»

شعرت كأنها عادت فتاة صغيرة من جديد. رفعها بين ذراعيه. رأت قدميها تتدليان في جوارب صوفية سميكّة، وشعرت برأسها يتمايل على كتف إميل. تذكرت نفسها وهي في الثامنة من عمرها في مساء شتائي. كانت مريضة، ونامت أمام الموقد فحملها والدها بالطريقة نفسها بالضبط إلى غرفتها. لقد مر أكثر من عشرين عامًا لكنها استعادت أحاسيس ذلك الوقت. هذا الشعور بالأمان وهذا الحنان.

«انظري...»

وضعها أمام النافذة فتشبثت بالحافة حتى لا تترنح، ووقف إميل خلفها مباشرةً.

«انظري.» كرر.

«انظري كم هذا جميل. يمكن أن تصوريه في لوحة.»

تركت عينيها تسرحان في المنظر، خارج غرفتهما، على البياض اللامتناهي، على الوديان، على البدر، هذه الدائرة المثالية التي تنير كل شيء بوهج يكاد يكون

غير واقعي. النجوم، الصغيرة واللامتناهية، التي تبرز في السماء السوداء، خجولة الألق، تاركة الهيمنة لوهج القمر. وضعت جوانا يدها على النافذة في بطاء.

إنه جميل، هذا الهدوء التام في الخارج. هذا الثلج الذي يكتم أدنى صوت. هذا القمر الساهر في هدوء على المنظر. ذلك الملمس البارد للزجاج على كفها الملتهب. بقيت لثوانٍ طويلة، مفتونة بالمشهد. تستطيع رسمه، هذا صحيح... ولكن من أين لها المهارة لإضفاء هذا الضوء الخاص جدًا على لوحاتها؟

بسبب أنفاسها، تشكّل ضباب خفيف على النافذة، فمسحته وألصقت أنفها بها، وهي تكاد تشم عطر الثلج، وتشعر بلمسه المميز.

«لقد انكشفت السماء في لحظة ذهابي للنوم.»

جفلت من صوت إميل. لقد نسيت تقريبًا أنه هناك، خلفها مباشرة.

«هل تريدان الخروج؟»

استدارت وحدقت إلى وجهه بنظرهما الضائعة تمامًا.

«تريد الخروج في الثلج؟»

لبثت صامتة وعاجزة مثل فتاة صغيرة تحلم بالركض في الثلج ولكنها فجأة لم تعد تعرف. أضاف في لطف:

«الجميع نائمون. حتى هيبوليت. نحن فقط. أنت وأنا فقط.»

وافقت بحركة خفيفة من رأسها، مثل طفل. ومرة أخرى أبعد إميل خصلة من الشعر ملتصقة بجبينها.

«حسنًا.» قال.

«هيا بنا... سوف أفلك بغطاء.»

ارتدت بنطالًا وسترة بحركاتٍ بطيئة، دون أن تقلق من وجود إميل. أمعن النظر في بشرتها التي بدت شديدة البياض في ضوء القمر. شاهد الوشم. شجرة الحياة الرقيقة التي تتسلق على طول عمودها الفقري وتنتهي عند عنقها. لم يشبهه بالأمس قط. لم يشبهه أيضًا بأن مثل هذا الجسد يجتبي تحت ثياب فضفاضة. لطالما بدت له ضعيفة وهزيلة. ظن أنها تعاني من سقم، لكنه اكتشف تلك الليلة جسدًا نحيلًا، صلبًا وممتلئًا بالحياة، جسدًا مرئيًا لكنه متين. ووجد الأمر مؤثرًا على نحو غير عادي. فكّر أنه جسد يمثل شخصًا بشكلٍ جيد. لذلك لم يُبعد نظره عنها

واستمر في مراقبتها، حتى عندما نظرت إليه. لم يقل كلمة واحدة، اكتفيا بتبادل النظرات. استمر الصمت ثم عادت لارتداء ملابسها في صمت.

خرجاً في هدوء. تشبثت جوانا بذراع إميل. لم تعد ترتجف. راحت عيناها تجوبان المنظر في ذهول. لقد كان على حق. كانا بمفردهما في صمت الجبل، التام، وسط الامتداد الهائل للبياض.

أخذاً يمشيان في بطءٍ لا نهاية له، وترك أقدامهما أثراً في الثلج الطازج. أخذاً يتقدمان للأمام، مع انطباعٍ بأنهما غير حقيقيين بقدر ما هو المنظر غير حقيقي، وأنها كملاكين من سراب.

عادا إلى غرفتهما الصامتة والدافئة. كان إميل لا يزال يرى الملاكين الأبيضين فوق الثلج، من خلال النافذة. تلك هي الآثار التي تركاها، عندما ارتقيا على الأرض. جلست جوانا على السرير وبدأت ترتجف مرة أخرى. كانت ترتجف وهي ملفوفة بشالها الأسود. ترك إميل عتبة النافذة وجاء ليركع أمامها.

«هل أنت بخير؟»

كان رأسها الصغير يرتعش. أسنانها تصطك. أمسك يديها وأجرها على رفع رأسها.

«جوانا...»

شعر بأنفاسها الدافئة عندما همست بين أسنانها المصطكة:

«أشعر ببردٍ شديد.»

لم تخلع ملابسها الخارجية. وبقي وشاحها حول رقبتها وشالها يلف جسدها، وشفاتها تتجمدان. لم يستطع أن يرفع عينيه عن شفتيها اللتين تحولتا إلى اللون البنفسجي. باغتَ نظرَها التي باغتَتْ نظرتهُ. هل خمنت أنه يريد تقييلها؟

«لقد مضى وقت طويل للغاية.»

همست في هدوءٍ شديد حتى أنه لم يكن متأكدًا أنه فهم.

«ماذا؟»

نظرت إليه بوجهٍ صغير يرتعش.

«لقد مر دهر منذ أن لمسني أحد...»

شعر أن قلبه توقف لحظة عن الخفقان. حاول إخفاء الذعر في صدره. لا تزال تعاني من تلك الحمى اللعينة. ربما كانت تهلوس. مر بيده في لطفٍ على جبينها وهمس.

«سيكون الأمر على ما يرام يا جوانا. لديك القليل من الحمى. سأضع بعض الحطب في الموقد.»

كانت شفتاها تصطدمان ببعضهما البعض. لماذا بحق الجحيم كل هذا الشعور بالبرد؟

ارتفع صوت جوانا الضعيف من جديد وهو يرتجف:

«لقد مضى ما يقرب من عامين...»

أمسك يديها بقوة في يده وراح يفركهما.

واستمر صوتها الضعيف المرتجف، يهمس وبالكاد يُسمع:

«برد شديد...»

«أعلم يا جوانا.»

تدحرجت دمعة على خدها وتفاجأ تقريباً بأنها لم تتحول على الفور إلى جليد.

«لست أدري حتى إن كنت أتذكر...»

مرر يده فوق جبينها الملتهب ومسح دموعها.

لم يعد يعرف ماذا يقول. واستمر في فرك يديها.

كان يود أن يحتضنها بالكامل بين ذراعيه لكنه لا يعرف ما إذا كان يُسمح له بذلك أم لا.

«بالطبع تتذكرين ذلك يا جوانا.»

سالت دمعة جديدة على خدها. مسحها ووضع جبينه فوق جبين جوانا

الملتهب لتهدئتها.

الأسنان تصطك. وتمتزج أنفاس جوانا الساخنة بأنفاسه. سقطت إحدى

دموعها على معصم إميل.

«إميل.» همست.

«نعم...»

«أريدك أن تدفّني.»

لم يكن متأكدًا أنه فهم. اعتمل في صدره شيء من الذعر، وفُضِّل البقاء هكذا ملصقًا جبينه بجبين جوانا. لم يشأ أن ينظر كل منهما إلى الآخر. ليس على الفور.

استعاد صورة الجسد المرن والصلب، مع وشم شجرة الحياة، بياض البشرة، الجميل. استعاد تلك النظرة التي وجهتها إليه. شعرت أنه ينظر إلى حقيقتها. ربما فهمت أنه وجدها جميلة ومثيرة. ربما فهمت أنها كذلك..

نظر إليها، بخديها المبللين بالدموع. بالعرشات التي تهز شفّتها. لو استطاع، سيقول لها مرة أخرى لقد أحبيتك، لكنه لا يستطيع ذلك. كل الكلام عالق في حلقه. كله باستثناء هذا الصوت الذي يخرج من حلقه:

«حسنًا.»

مال رأس جوانا في بطء نحوه. أمسكها بقوة أكبر، وغمرها أكثر. مسح دموعها، وحاول إيقاف ارتعاشاتها بين يديه اللتين تمنى لو أنها أشد اتساعًا.

«نظرتَ إليّ قبل قليل.» همست.

«نعم.»

«ماذا قلت في سرّك؟» همست.

«ماذا...»

«حين رأيّتي.»

«قلتُ أنت جميلة.»

سالت دموع جديدة من عيني جوانا لكنه لم يتركها تتبدد فوق خديها، بل قام بمسحها.

«أشعر ببردٍ شديد.»

«هل يحدث كل هذا عندما نأكل؟» سألها.

«أومأت بالإيجاب. خيل له أنه لمع ابتسامة على وجهها أيضًا.»

«نعم. يحدث كل هذا عندما نأكل. وأيضًا عندما نتنفس، وعندما نمشي.»

«أريني كيف.» همس.

كانت قد كفت عن الارتعاش، وقد توردت شفتاها وانتفختا قليلاً. كما احمرّ خداهما. سألت:
«ماذا؟»

«أريني كيف أعيش. مثلما فعلتِ بخصوص قطعة الكاتو، في إيوس.»
عندها وضعت يديها على صدره، أغمضت عينيها واقتدى بها. فكَرَّ أنه لم يسبق له أن توقف. لم يبذل وقتاً قط كي يشعر بجسده، بجسد الآخر، بالفراغ الذي يتشاركانه. لم يخصص قط وقتاً كي يشعر بتعائش، وجزيان الطاقات، وتكامل الجنسين، واللغة شبه العالمية التي يمارسها أحدهما مع الآخر.
أرشدته. كان يعلم أنها دلتُهُ، مثلما فعلتِ بخصوص الكاتو، بخصوص كل شيء آخر.

بقي هكذا بضع ثوانٍ، غير قادر على الكلام. كانت هي من همست أولاً، في تنهيدة بالكاد محسوسة.
«لم أعد أشعر بالبرد.»

لقد نامت الآن بينما لم يكن إميل يشعر بالنعاس. جلس متكئاً على الوسائد وراح يشاهد تساقط الثلج في الخارج ولوحة جوانا الموضوعة على حافة النافذة. نظر إلى ظل بوك المتكور على السجادة. حاول ألا يتحرك إلا بأقل قدر ممكن، وهو يتناول دفتر الملاحظات الأسود الصغير عن الطاولة بجانب سريره.
كان البدر يضيء الغرفة بما يكفي كي يكتب بضعة أسطر. لم يكن لديه أي فكرة عن تاريخ اليوم أو الوقت. لكنه لم يهتم بذلك.

ليلة من ليالي نوفمبر، في الجبال، تحت الثلج. القمر مكتمل.

«عليك أن تمشي في الظلام كي ترى النور.» (دينيس لا بوانت).
إلى جوانا، النائمة بجانبني. بوصفها الشخص الذي أرشدني إلى النور أخيراً.



«إلى أين أنت ذاهبة؟»

فتح عينيه فقط. أبهره ضوء النهار واضطر أن يرمش عدة مرات لتثبيت الصورة. لكنه لم يكن يحلم. كانت جوانا تقف على قدميها، مرتدية ملابسها من رأسها حتى أخمص قدميها، وتلف رقبتها بشال.

«أوه.» قالت وهي تستدير نحوه.

«فكرت أن أذهب هذا الصباح للمساعدة في ورشة العمل.»

كان يجد صعوبة في إدراك ما جرى بينهما هذه الليلة، وهو لا يزال يحتفظ بذلك الدفء الغريب في صدره.

«هل أنت متأكدة؟»

أومأت برأسها. بدت بهيبتها الحازمة ووجهها الهادئ.

«لم أعد أعاني من الحمى.»

«دعيني أرى.»

اقتربت من السرير على مضض. وضع يده كي يتحسس جبينها.

«حسنًا... لا بأس.»

كان عليه أن يعترف بالهزيمة. لم تعد تعاني من الحمى. وبدت بحالٍ أفضل. كان مرتاحًا لرؤيتها هكذا.

«هل ستعدين الفطور؟ سأستحم وأعود.»

«حسنًا.»

كان من الغريب رؤية جوانا في المطبخ بين ألبين وفانس. راحا ينظران إليها مندهشين، لم ينطق أحد بكلمة.

«أرى أنكما قابلتما جوانا.» قال إميل عند دخوله إلى المطبخ الصغير وهو يجفف شعره بمنشفة.

أوما الرجلان. يبدو أن وجود فتاةٍ بينهما، قد أزعجهما.

«إنها قادمة للعمل معنا اليوم.»

كانت صامته، ملفوفة في وشاحها، تنتظر أمام الوعاءين اللذين أعدتهما. جلس إميل بجانبها. أشارت إلى القهوة الساخنة والخبز الطازج والزبدة، التي يتركها هيبوليت فجر كل يوم.

«هل مارست من قبل أي أعمال بناء صغيرة؟» سألها إميل وهو يقضم من قطعة خبز.

ابتسمت ابتسامة محيرة. ثم أومأت أخيرًا:
«نعم.»

كانت ركبناها تؤلمانها بسبب قضاء أيامها في تبليط تلك الشرفة اللعينة. بدا ليون أيضًا منهكًا. لقد حل الصيف في سان سولياك، وبدأت الشمس تضرب بقوة نوافذ الشرفة. كانا يتصببان عرقًا.

«مشروب مثلج؟» سأل جوزيف، وهو يُخرج رأسه من النافذة الكبيرة نصف المفتوحة.

كان في الخارج بين نباتات الطماطم.
«أبي! تنهدت جوانا وهي تنهض مقبئة.
«ما كان يجدر بك الخروج في هذه الحرارة.»

«إذا كان لا يحق لي أن أساعدكما. هل يجب أن أبقى وحدي، محبوسًا في الظلام؟»
كان يبدو غاضبًا لعدم قدرته على احتمال هذه الراحة التي فرضها الطبيب.
لكن جوانا لم تضعف لأنه في الشهر الماضي تعرّض لنوبة قلبية أخرى.

«اذهب واجلس في الظل لبضع دقائق يا أبي. سأحضر لك مشروبًا مثلجًا.»
تذمر جوزيف قليلًا ولكنه نهض في النهاية ونفض الغبار عن يديه الممتلئين بالأوساخ. كانت نوبته القلبية الثانية أكثر خطورة من الأولى. لقد انهار وسط حديقة الخضروات، وعثرت عليه جوانا. أخضعه الأطباء لفحوصات متقدمة أكثر وتم تشخيص سكتة قلبية. وصف له الأطباء ثلاث أو أربع حبوب دواء عليه تناولها مع كل وجبة. ونصحوه بتجنب الشمس، والمشي كل يوم ولكن ليس لدرجة انقطاع الأنفاس. حرصت جوانا كل مساء على جعل وسائده عالية عند ذهابه للنوم، فقد قال الأطباء إن ذلك يسهل التنفس.

«هل تحتاجين إلى مساعدة؟» سأها ليون وهي ذاهبة إلى المطبخ.

«لا، لا بأس.»

استخرجت من الثلاجة المشروب الذي نقه والدها طوال الليل. إنه نعناع طازج من حديقة الخضروات مع قليل من العسل. ثم انضمت إليه وهو جالس في برودة غرفة المعيشة.

«تفضل.»

لا يزال متوترًا وهو يتلع المنقوع بشراهة. فوجئ كلاهما برنين الهاتف في المدخل.

«سأتولى الأمر!» قالت جوانا.

فوجئت بالصوت الذي سُمع في الهاتف. صوت أنثوي متعالٍ، فيه شيء من التسلط.

«مرحبًا، أنا مدام أندريه. هل يمكنني التحدث مع ابني، من فضلك؟» بقيت جوانا عاجزة عن الكلام للحظات. لقد مضت سبعة أشهر منذ أن انتقل ليون إلى هنا وانقطع أي اتصالٍ بوالديه.

«آلو؟» قالت مدام أندريه بنفاد صبر.

«نعم. سأذهب لأناديه.»

«أنا في الانتظار.»

شعرت جوانا أنها تتحرك حاملةً وزنًا ثقيلًا جدًا في صدرها. ما الذي يحدث؟ كانت ترجو ألا يحمل هذا الاتصال أخبارًا سيئة. عند دخولها الشرفة كان ليون منحنياً فوق البلاط، يمسح جبينه وهو ينفخ. أشارت إلى السماعية التي تحملها بيدها هامسةً: «والدتك.»

بدا متفاجئًا بقدرها. تركت له السماعية وغادرت في صمت.

انضم بعد لحظات إلى جوانا وجوزيف في غرفة المعيشة، حيث جلس كلُّ منهما أمام كأسه من المشروب المثلج وراحا يتحدثان إليه في قلق. «هل الأمور على ما يرام؟ هل هناك خطر؟»

بدا ليون محتارًا ومصدومًا قليلًا.

«لا. لا شيء خطر... أعتقد أنها يريدان إعادة التواصل فقط.»

ابتسمت له جوانا في ارتياح وأمسكت إحدى يديه.

«هذا شيء جيد. أليس كذلك؟»

أومأ برأسه دون أن يتخلص من إحساسه بالثقل.

«دعني لتناول العشاء معها مساء الغد.»

سأل جوزيف بشكل عفوي:

«بمفردك؟»

مما أثار بعض الاضطراب على وجه ليون.

«نعم.» قال محرّجًا.

«هذا جيد.» أعلنت جوانا.

«هذا شيء جيد.»

رسم على وجهه ابتسامة ضعيفة.

«نعم.» قال في النهاية.

«أعتقد ذلك.»

في المساء، التصقت به جوانا في السرير. إنها لا تزال تشعر باضطرابه. همست في أذنه:

«يمكنك أن تعرض عليهما القدوم إلى البيت يومًا ما لتناول العشاء...»

التفت نحوها فجأة، مذهولًا.

«هل أنت جادة؟»

«حان الوقت لدفن الأحقاد، أليس كذلك؟»

كانت المفاجأة أقوى من أن يستطيع ليون الكلام.

«إذا لم نتخذ أنا وأبي خطوة تجاههما، فلن يفعل ذلك أبدًا، أليس كذلك؟»

شعرت بذراعي ليون تحضنانها وفمه يضغط على أذنها، ويهمس:

«أحبك، كما تعلمين.»

«نعم»
«سأخبرهما. أعدك».

لقد مارسا الحب في ذلك المساء في شغفٍ أكبر من المعتاد. لم يتخيلا أن ليون سيعود حزينًا مساء الاثنين، معلنًا بصوتٍ غير مسموع تقريبًا:
«لقد رفضا الدعوة».

لم يتخيلا أيضًا أنه سيستمر في الذهاب إلى منزل والديه لتناول العشاء كل أسبوع، رغم رفضهما، تاركًا جوانا تشعر بمرارة متزايدة في بيت العائلة الصغير.

«في الأسبوع الماضي، أنهينا الهيكل الخشبي للمبنى».
قال ألبين لـ جوانا، عند الوصول إلى الموقع، والثلج يصل إلى مستوى الرُكَب.
«الآن سنبدأ بحفر الفتحات. هل هذا يعني لك شيئًا؟»
كان من الواضح أن ألبين ثرثار. بينما كان إميل وفانس يعملان في صمت، بدأ ألبين بسر قصة حياته لـ جوانا.

«أعمل بمهنة النجارة. مارستها خمسة عشر عامًا. لقد عشت فترة طويلة في جبال البيرنيه. إنه المكان الذي أحبه كثيرًا. ثم اضطررنا إلى المغادرة عندما نُقِلْتُ زوجتي. أقمنا في تولوز. العودة إلى هنا بمثابة إعادة الاتصال بالماضي، أنفهميني؟»
لم تكن جوانا تستمع إليه حقًا، بل تكتفي ببساطة بمسك السقالة التي يقف عليها ألبين، وتثبتها في مكانها عندما يحفر في الحائط باستخدام آلة قطع. عندما يتوقف صوت الآلة الذي يصم الأذان، كان صوت ألبين يعلو:
«بعد ذلك، عندما تنتهي من حفر الفتحات، سنعتني بالعضادات، وهو ما يفعله إميل وفانس هناك...»

كانت استراحة الغداء تأتي في وقتٍ أقرب مما توقعت. في فترة ما بعد الظهر، أنقذها إميل بأخذها لوضع اللمسات الأخيرة على العضادات التي اشتغل بها هذا الصباح. تحمّل فانس ثرثرة ألبين ولم تكن جوانا متزعجة من ذلك.

«إذًا ما انطباعك عن هذا اليوم الأول؟» سألتها إميل وهي تخرج من حمام ساخن في وقتٍ متأخر بعد الظهر.

«العودة إلى النشاط يعطي شعورًا مريحًا.»

ابتسم لها.

«لا أعتقد أنني أخبرتك... اليوم كان آخر يوم لفانس. سيعود إلى ألمانيا للتحضير لعيد القديس نيكولاس مع عائلته. لديهم نوع من التقليد هنا، في الملكية. في كل مرة يغادر فيها أحد المتطوعين، يتم إعداد عشاء احتفالي صغير مع هيبوليت. سيكون هذه الليلة.»

أومات.

«إذا كنت متعبة جدًا...»

«لا، أنا بخير. سوف آتي.»

«آه، وهناك آخر شيء...»

«ما هو؟»

«لأنهم يحبون كثيرًا لعب الورق... وشرب النبيذ. أخشى أن يستمر الأمر قليلًا.»

بدا آسفًا لكنها ابتسمت من جديد.

«لا بأس. قد يكون الأمر ممتعًا.»

في المطبخ الصغير، اقتربت درجة الحرارة من ست وعشرين درجة. كان الموقد محشواً بالخطب. وأدى الكحول الذي يشربونه إلى تدفئة وجوههم بشكل كبير. غشي النوافذ ضباب كثيف. كان هيبوليت يقدم اللحوم الباردة والأجبان المحلية والخبز الطازج والعديد من زجاجات النبيذ الأحمر.

«أنا لا أحب محال السوبر ماركت.» قال هيبوليت له جوانا.

«لدينا هنا ما نسميه Tut Tut.»

«ما هذا؟»

«إنه شاحنة تنقل المنتجات الطازجة من المنطقة. لا أحصل على مستلزماتي إلا من Tut Tut. تذوقي هذا. إنه نبيذ كابيرنيت من بيارن.»

لم يترك لها خيارًا. ملأ كأسها تلقائيًا. من الصعب عدم الانغماس في خفة ودفء هذه اللحظة. الحدود حمراء، والأصوات تعلو أكثر فأكثر. جعل فانس الجميع يضحكون بمحاولته نطق كلمة (الشمبانيا) بلكته الألمانية. ثم روى لهم هيبوليت قصة مدينة آس وتابعه الجميع في شغف. أخبرهم أن آس تسمى (أرض الصافيرين) لأن سكانها امتلكوا خصوصية: في الماضي، قبل انتشار وسائل التواصل الحديثة كانوا يتواصلون بواسطة الصفير من جانب الوادي إلى جانبه الآخر.

«يشكل الوادي نوعًا من مُوجِّهٍ للموجات. وهكذا كانوا يصفرون من أجل التواصل بين المراعي والقرية.»
«حقًا؟» سأل ألبين متشككًا.

«كان بإمكان الرعاة التفاهم بهذه الطريقة حتى مسافة ٢٥ كيلومترًا! لقد طوروا لغة كاملة، وهي لغة صفير معقدة إلى حدٍّ ما وانتقلت من جيلٍ إلى جيلٍ!»
لبث الجميع حول الطاولة مندهشين.

«لكن هذه اللغة اختفت مع ظهور تقنيات الاتصال.»
سأله فانس بلكته المتقطعة:

«هل تستطيع الكلام بها؟»

«طبعًا. علمني إياها جدي في صغري.»

هكذا وجد الجميع أنفسهم، وقد وصلوا إلى حالة سُكر حول الطاولة، وقد وضع كلُّ منهم إصبعين تحت لسانه، محاولًا الصفير. مع مرور الكؤوس، أخذوا يستنسخون بدقة تقلّ دقتها مع كل محاولة، النغمات التي يصفرها هيبوليت، لكن الراعي العجوز كان عصيًا على اليأس.

«يجب إتقان اللغة الأوكيتانية من أجل تعلُّم لغة الصفير.» أوضح.

حاول أن يجعلهم يرددون بصوتٍ عالٍ «apèra lo medecin» التي تعني «اتصل بالطبيب.»

ثم يعيد الجملة بالصفير بين إصبعيه. تحول النشاط الذي تلا ذلك إلى ضحكٍ عام وأعلن فانس بين حازوقتين:

«ويقولون إن اللغة الألمانية معقدة!»

في صباح اليوم التالي، شعر إميل بألم وثقل في رأسه، وجفاف في فمه. لقد أفرطوا جميعاً في تناول النيذ. حتى جوانا. ودَّعهم فانس الليلة الماضية، قبل النوم لأنه سيستقل الحافلة في الصباح الباكر، من أمام كنيسة آس. استدار متجهماً. حرَّض ضوء النهار ألم صدغيه.

«جوانا.»

رفع رأسه قليلاً، ولم يرَها في السرير. رأى قامتها الجائمة على حافة النافذة، وقد ضغطت الهاتف على أذنها. شعر أن قلبه قفز في صدره. أول ما فكر فيه هو:

«ليون!»

لم يعترف لها قط بشأن المحادثة الهاتفية... استدارت جوانا برأسها نحوه. كانت شاحبة وترتعش قليلاً.

«ماذا يحدث؟»

نهضت بحركاتٍ بطيئة إلى درجة مثيرة للقلق. جاءت ووقفت أمام السرير وسلمته الهاتف.

«ما الأمر؟»

راح قلبه ينبض بسرعة كبيرة، وأخذ يتنفس بصعوبة. شعر أن هناك خطأ ما لكنه عجز عن جمع أفكاره. فكَّر في ليون. ولكن لماذا تعطيه جوانا هذا الهاتف؟

«إنها رسالة صوتية.» قالت بصوتٍ أجش.

لم يفهم. أخذ الهاتف ووضع على أذنه بينما عادت جوانا في ببطء لتجلس على حافة النافذة. دوى الصوت الميكانيكي عبر الساعة:

«وصلت الرسالة هذا الصباح في الساعة الثامنة وثلاث عشرة دقيقة.»

سمع صوت نقرة ثم ضجيجاً مكتوماً ثم صوت امرأة:

«مرحباً جوانا، مرحباً إميل. معكما آني. أنا...»

من جديد سمع صوتًا مكتومًا لا يستطيع إميل التعرف إليه.

«اتصلت بكما لأخبركما أن أمي غادرت... الليلة الماضية. طارت إلى السماء. لم تتألم... رحلت في نومها.»

هبط قلبه في صدره، واستمر في هبوطه نحو الأسفل، حتى بدا أنه سقط على الأرض، واخترق الأرضية. رفع إميل رأسه في ببطء، وشعر أنه يزن أطنانًا. على حافة النافذة، كان وجه جوانا غارقًا في الدموع. لا حاجة إلى الكلام، فهما يعرفان أنها يتشاركان الألم نفسه.

أخذ ينقر وينقر وينقر بإزميل على الحجر. كانت يده متشققتين من البرد، وتعرض في عدة أماكن لإصابات وجروح عميقة، لكنه لم يعد يشعر بأي شيء.
«إميل...»

انطلق صوت جوانا من خلفه. لم يسمعها وهي تتقدم نحوه بين الأنقاض.
«لقد أعتم الليل. يجب العودة إلى الغرفة.»
مزكفيه.

«أموري بخير. سأنهي هذه الفتحة.»

«الحرارة تحت الصفر بشماني درجات.»

«أحتاج إلى أقل من ساعة. اذهبي واجلسي في الدفء. أنا قادم.»

ترددت جوانا ولبثت تنتظر واقفة، وذراعاها متدلّيتان. كانت قبعتها ووشاحها الضخم يخفيان وجهها بالكامل تقريبًا. تلك كانت المرة الثالثة التي تأتي فيها لاصطحابه. لقد غادرت هي وألين الموقع منذ خمس ساعات. قال إميل:

«سأنهي تفصيلًا صغيرًا وأعود.»

لكنه بقي هناك، وفي كل مرة تأتي جوانا، يكرر العبارة نفسها: «سأنهي هذا وأعود.»

لقد فهمت جيدًا أنه يحتاج إلى النقر لإخراج الحزن، يحتاج إلى تكسير الحجارة واحدًا تلو الآخر، وتحطيمها. كان هذا يجلب له شكلاً من أشكال الراحة. لكنها

أدركت أيضًا أنه قادر على قضاء الليلة هناك. ترددت. بدت على وشك أن تقول شيئًا لا تعرف ما هو...

«هيا أفسح لي مكانًا.»

جفل إميل عندما سمع صوتها. ظن أنها غادرت، لكن لا، من الواضح أنها لا تزال هناك.

«ماذا؟» سأل.

التفتَ ورآها تنحني وتلتقط إزميلًا مرميًا بين الركام.

«ماذا تفعلين؟»

«أفسح لي مجالًا.» كررت.

بدت بالعزم الذي بدت عليه تلك الليلة عندما طلبت منه ولوجها في الحال. امثل في بطاء. ابتعد قليلًا إلى الجانب ورآها تقف بجانبه أمام الفتحة التي يقوم بصنعها.

«سأساعدك.» أعلنت.

بأشرا الاثنان بالنقر وبدأت الحجارة تتساقط حجرًا حجرًا. أخذتا ينقران وينقران بلا توقف وتتجاوب ضرباتهما، حتى ساعة متأخرة جدًا في صمت الليل.

كان الحشد كثيفًا أمام كنيسة سان فنسان. كان جان، الراعي العجوز، حاضراً، إضافة إلى مسنين آخرين. من بعيد كان يمكن رؤية آني، بشالٍ أسود، وكذلك زوجها وأبنائها وأحفادها. كان إميل وجوانا بين الجمهور، وقد أمسك كلٌّ منهما بيد الآخر. كانا يشعران بشيء من الوحدة والضيق وسط هذا المد من الأشخاص المجهولين. أخذتا يشاهدان في صمت ذلك الموكب الطويل يسير متقدماً داخل الكنيسة. ميرًا بعضًا من أصدقاء آني، الذين التقياهم خلال تلك الأشهر القليلة في إيوس. تبادلا معهم تحية رصينة بإيحاء رأس. كانت الأزقة من حولهم مغطاة بالثلوج. إيوس جميلة في الشتاء. ربما أكثر منها في الصيف. دوى صوت جرس الكنيسة. رنة. اثنتان. ثلاث رنات. انتشرت غمغمة وتسارعت الحركة بين الحشد لدخول الكنيسة. سحب إميل يد جوانا.

«هيا.» قال لها في هدوء.

كان البرد شديدًا في الداخل. جلسا على المقاعد الأخيرة، بالقرب من الأبواب المصنوعة من خشب البلوط، وتيارات الهواء البارد تنفحهما. أبقى كلُّ منهما يده في يد الآخر طوال القداس.

تولت بناتُ ميرتيل الأربع وأحدُ أصهارها، الكلام عن حياة السيدة العجوز. تحدثوا كثيرًا عن يوجين، والحب الذي ربط بينهما، والفرحة التي سيشعران بها عندما يلتقيان هناك. تحدثوا عن سعادة ميرتيل بكونها جدة ثم بكونها أمًّا لجدة، وعن قوة إرادتها. كان حفلًا بسيطًا ومؤثرًا. سار موكب هائل وصامت خلف التابوت.

على درج الكنيسة اقتربت منهما آني وفي يدها منديل مجعد وعيناها رطبتان، لكنها ابتسمت لهما في حرارة وهي تقبلهما.

«كانت ميرتيل ستشعر بالسعادة لوجودكما هنا.»

هزا رأسيهما دون أن يقول شيئًا.

«كانت تشير إلى الأيام في تقويمها وهي متلهفة للقائكما في عيد الميلاد. لقد رتبت السرير في الطابق العلوي.»

لم يستطعا مواجهة نظرات آني. تولى إميل الرد بصوتٍ ثقيل:

«نحن أسفان حقًا... كان يجدر بنا أن نأتي في وقتٍ أبكر...»

لكن آني قاطعتَه بوضع يدها في لطفٍ على كتفه.

«ليس عليك أن تكون أسفًا. لا يمكنك أن تتخيل كيف أضاءت حياتُها بينكما.

لم أرها بتلك الحيوية والبهجة منذ سنوات. لقد رحلت سعيدة، صدّقاني.»

التقطت آني نظرةً جوانا عندما رفعت الأخيرة رأسها. راحت تحديق مباشرةً إلى عينيها.

«ولهذا السبب أيضًا أردت رؤيتكما هنا. أردت أن أشكركما.»

انتقلت نظرتها الممتلئة بالدموع من جوانا إلى إميل، ولم يتمكن أحدهما من قول

كلمة واحدة. احتاجا إلى لحظات، وهذه المرة جوانا هي التي همست:

«لا، نحن من جئنا لنشكرها هي.»

وضعت آني يدها على ذراع جوانا وضغطت عليها بدفقي عاطفي، قبل أن تبعد مشيرةً إلى الموكب.

«لقد جاءوا بنعشها إلى المقبرة. هل ستأتين معنا؟»
هزارأسيها علامة الإيجاب.

تبعاً الموكب في المؤخرة، في ظل بردِ نوفمبر القارس.
«هل اللوحة معك؟» سأل إميل.

كان لديهما لوحة جميلة كلّفها حِرَفِيًّا يمارس النحت في إيوس بنقشها عند وصولهما هذا الصباح، وكانت تتمثل في مستطيل بسيط من الزجاج الشفاف، على قاعدة سوداء، بسيطة بالقدر نفسه. جعلاً النحات ينقش فوقها جملةً بخطّ أبيض جميل. لقد كان إميل هو من خطرت له فكرة كتابة اقتباس بدلاً من جملةٍ مبتذلة. لقد اختاراه معاً الليلة الماضية، وهما يتصفحان كتب جوانا القديمة المصفرة.

الناس مثل النوافذ الزجاجية الملونة. إنهم يتألقون ما دامت الشمس ساطعة، وعندما يحل الظلام، لا يظهر جمالهم إلا عندما يضيئون من الداخل. (إليزابيث كويلر روس)

إلى ميرتيل، التي أضاء جمالها جزءاً من طريقنا.
مع المودة.
!ج.

شاهدا التابوت وهو ينزل في المدفن، الذي سبقها إليه يوجين. وقف أفراد الأسرة في المقدمة. بينما بقيا في الخلف، وقد احتجب وجهاهما وراء وشاحيهما. لم يستطع إميل منع نفسه من التفكير في أنه في المرة القادمة التي يتعين على جوانا فيها حضور مثل هذا المشهد، سيكون هو داخل التابوت. ولهذا السبب لا يستطيع ترك يدها، وراح يشد عليها بقوة.

تساءل عن العدالة الموجودة على هذه الأرض البغيضة. والدها وابنها والآن هو. هل حكم على جوانا بمشاهدة موت كل الرجال الذين تسهر عليهم؟ اتخذت العائلة مكانها على الجانبين، لتسمح للحشد بالاقتراب، في صف لا تبدو له نهاية. أقبل الجميع لإلقاء نظرة وداع أخيرة على ميرتيل أمام القبر ووضع إكليل من الزهور أو لوحة جنازية. كان إميل وجوانا الأخيرين في الصف الذي يتقدم في بطء وصمت تام.

«جوانا...»

أصدر إميل صوتًا بالكاد كان أعلى من صوت تنهيدة. أدارت وجهها نحوه لتسأله في صمت.

«هل سيكون الأمر أقل إيلاّمًا بالنسبة لك إذا أحرق جثمانى؟»

لم تُشعِ بناظرها، وراحت تحرق مباشرة إلى عينيه، محاولة الإبقاء على هدوئها. «نعم... أعتقد ذلك.»

صمت لأن إحدى بنات ميرتيل صعدت في الممر لتحية إحدى معارفها، أمامهما بالضبط. وبعد لحظات، غادرت وهمست جوانا من جديد:

«ولكن هذا ليس السؤال.»

«لماذا؟» أجاب بصوت هامس.

«إنه قرارك أنت.»

«أريد فقط أن أجعل الأمور أكثر احتمالًا بالنسبة لك.»

هزت رأسها في هدوء، وهي تعود للنظر إلى الأمام.

«إذا لم تستطع اتخاذ القرار بنفسك، فكر إذاً في أفراد عائلتك... ما الذي يريدونه. ليس بي أنا.»

«سأطلب إحراق جثتي.»

لبثت هادئة تمامًا، ونظرتها ثابتة إلى الأمام.

«هل أنت متأكد؟»

«متأكد.»

كشفت رعشة طفيفة في حلق جوانا عن تأثير مباحث، وأدرك إميل أنه اتخذ القرار الصحيح.

كانا آخر من وضع لوحته أمام مدفن ميرتيل ويوجين. عاد تساقط الثلج عندما اقتربا لتقديم التعازي لأفراد الأسرة.

«أنتما؟» سألت امرأة لا بد أنها إحدى بنات ميرتيل.

تولت آني الإجابة بدلاً منهما:

«إنهما محبوبا أُمي.»

لم يتوقعا هذه الإجابة. كما لم يتوقعا ما هتفت به المرأة على نحوٍ بهيج:

«أوه! أنتما اللذان قامت بتزويجكما!»

علت همسات ابتهاج بين الأسرة. تدخلت آني بروح دعابة:

«لم تقم بتزويجها يا ماري. لقد اهتم العمدة بالأمر.»

«أعلم.» أجابت المدعوة ماري.

«ولكنها هكذا كانت تروي القصة. أتذكرين؟»

أجابتها إيماءات عاطفية وابتسامات. ابتسم إميل وجوانا أيضًا بشيء من

الخلج.

«نعم... نحن.»

«كانت أُمي تحبكما كثيرًا.» أعلنت ماري، ووضعت يدها على كتف كلٍّ منهما.

«شكرًا لحضوركما.»

عادا وهما يسيران متجاورين نحو آخر الصف المركزي في المقبرة، ومن خلفهما،

تجمع أفراد عائلة ميرتيل حول القبر وراح بعضهم يتلو الصلوات.

«هل نقوم بجولة قبل العودة؟» سأل إميل.

أومأت جوانا. لقد أرادا أن يودعا إيوس الوداع الأخير. لن يعودا إليها بعد

الآن. حاول إميل ألا يفكر في وعده لـ ميرتيل... بحقيقة أنه لم يعد لدى جوانا

مكان تذهب إليه الآن.

في تلك الليلة راحت تتردد في غرفة الملحق الصغيرة، تنهيدات مكتومة. مثل أنين ألم امتزج بأنفاسهما. لم يكونا في حاجة إلى الكلام هذه المرة. كانا يشعران بالبرد، بالفراغ. كان ذلك مثل رغبة طاغية في الحياة. حاجة لأن يمتلئ أحدهما بالآخر. تردد صدى التنهدات حتى وقت متأخر من الليل ثم خمدت في هدوء، تاركةً جسديهما ينجران نحو هدوء هش.

«آنسة جوانا؟ آنسة جوانا؟»

استفاقت جوانا بشكل مباغت. كانت قد غفت في انتظار عودة إميل من موقع البناء هذا المساء، حيث أمضى ساعات منذ تلقيها رسالة آني الهالفية... كان ألبين وجوانا يتوقفان عن العمل عند الساعة الثالثة أو الرابعة مساءً ويأتیان طلباً للدفء، فتغتنم جوانا الفرصة كي ترسم أو تلعب مع بوك. لكن إميل كان يبقى حتى وقت متأخر. عادةً حتى حوالي الثامنة. وبفضله، تقدم العمل كثيرًا في موقع البناء، وكان هيبوليت سعيدًا بذلك. لكن جوانا لم تعرف ما إذا كان ينبغي لها اعتبار ذلك أمرًا جيدًا أم لا. كان يمضي أيامه في صمت تام، ويتحرك بشكل أسرع من أي شخص آخر، وفي المساء، بالكاد يتحدث. عشية أمس قال فقط إنه أسف، وأنها كانت المرة الأولى التي يفقد فيها أحد أحبائه، وأنه يحتاج فقط إلى الوقت حتى ينقضي الأمر.

«آنسة جوانا؟»

إنه صوت هيبوليت الذي يوقظها من نومها. نهضت واتجهت إلى باب غرفة نومها. كان هيبوليت في الممر، ويبدو عليه القلق.

«ما الذي جرى؟»

«أعتقد أن إميل سقط في موقع البناء. إنه لا يريد أن أستدعي طبيبًا.»
استغرقت بعض الوقت لفهم ما يقوله لها الراعي العجوز. وهي لا تزال نصف نائمة.

«سقط؟» كررت.

«لا أدري ما الذي كان يفعله في موقع البناء في تلك الساعة... لا بد أنه سقط على رأسه. فهو يقول أشياء غير مترابطة. لا يريد رؤية الطبيب...»
تقدمت عبر الغرفة والتقطت شالها الأسود عن السرير.

«أنا قادمة.»

بقي هيبوليت في الخلف بينما راحت تتقدم نحو إميل، الذي يقف وسط الأنقاض، ويبدو منهكًا. لم تتخيل أنه سقط. كانت تعتقد أنه أصيب بثقبٍ أسود جديد في الذاكرة. تقلصت معدتها عندما اقتربت لكنها حاولت الحفاظ على وجهها هادئًا.

«إميل؟»

شعرت بالذعر حين رأت ما رآته في عينيه، في باج، عندما لم يتعرف إليها. ولكن لم يكن الأمر كذلك، بل كان مختلفًا. بدا أن إميل عرفها، وكان فقط مضطربًا وعصبيًا للغاية، ينظر في كل مكانٍ حوله وكأنه يكتشف المكان ولا يفهم ماذا يفعل هناك.

«جوانا... متى أتينا إلى هنا؟» سألها عندما وقفت أمامه.

لم تجرؤ على إلقاء نظرة على هيبوليت في الخلف. وحاولت الكلام بصوتٍ منخفض قدر الإمكان.

«منذ ثلاثة أسابيع.»

لكن إميل هز رأسه بنفاد صبر.

«كفى. هذا غير صحيح.»

أجابت بصوتٍ هامس:

«بلى، وصلنا إلى هنا منذ ثلاثة أسابيع.»

مرة أخرى هز رأسه في غيظ.

«كنا في إيوس. أتذكرُ هذا جيدًا. وكانت الأشجار تفقد أوراقها في الأزقة.»

حاولت أن تومئ مخفية قلقها.

«نعم، هذا صحيح.»

«كان ذلك قبل يومين فقط. ربما كنا هناك هذا الصباح. كنا عند ميرتيل وكنتِ

تعملين في محل كوكو للمثلجات!»

حاولت التقاط نظرتِه وقالت بوضوح:

«لا.»

«ماذا تقصدين بـ لا؟»

بدأ حضور هيبوليت خلفهما، يُشعرها بالخرج بشكلٍ متزايد، خصوصًا أن الراعي المعجوز أخذ الآن يتنحى ويتدخل:

«كما ترين يا آنسة جوانا. أعتقد أنه تعرض لسقطةٍ شديدة. ينبغي ألا نتركه في هذه الحالة. سأستدعي طبيبًا.»

سعت جاهدة للبقاء هادئة تمامًا ومسيطرة على الموقف.

«لا أعتقد أنه سقط...»

نظر إليها هيبوليت بريية. بقي إميل صامتًا وتظهر على وجهه تشنجات لا إرادية عصبية.

«هو... إنه يعاني من الزهايمر مبكر.»

لم يتفاعل إميل مع هذه الكلمات وصوتها غير الواثق. عبس هيبوليت.

«ماذا؟»

«مرض يؤثر على ذاكرته... هذا النوع من الأشياء يحدث له من وقتٍ لآخر...»

استمر هيبوليت في تفحصها بريية. أصرت جوانا وهي تحاول أن تبدو واثقة:

«إنه أمر بسيط. سيستعيد كل شيء. إنه لا يحتاج إلى طبيب. فقط القليل من

الوقت.»

راح هيبوليت ينقل نظره بينهما. من الواضح أنه لا يعرف ماذا يفعل.

«هل أنت متأكدة؟»

«نعم. كل شيء على ما يرام. سأعيده إلى الملحق. سيرتاح ويكون أفضل غدًا.»

تردد هيبوليت لثانيةٍ أخرى، ثم أومأ برأسه.

«مع ذلك، راقبيه... في حال أصيب بدوارٍ أو غثيان...»

«سنحضر طبيبًا إذا كان هذا هو الحال.» أكدت جوانا.

ابتعد الراعي المعجوز في ببطء. من بعيد، اندفع كلبه ميستيك للانضمام إليه في

الثلج المنعش. تنهدت جوانا في ببطء. عندما استدارت، كان إميل يحرق إليها كأنها

مجنونة، كأنها تخيفه.

«لماذا أتيت بي إلى هنا؟»

ابتلعت لعابها. إنها لا تعرف حقاً كيف تعالج الأمر، ولا من أين تبدأ.

«إميل...»

«ماذا هناك؟»

«أنتَ الذي أتيتَ بنا إلى هنا...»

أجاب بشيءٍ من العدوانية:

«أنت تكذبين!»

«لا...»

«أنتِ قلتِ إننا كنا في إيوس! فلماذا نحن الآن هنا؟ كان يفترض أن ميرتيل

ستعد حفلاً بحضور أصدقاء.»

أغمضت عينيها في بطءٍ، راجيةً بكل قواها أنها عندما تفتحهما يكون قد استعاد ذاكرته.

«لا.»

«ماذا؟»

كانت نبرته ملحةً.

«لقد غادرنا بيت ميرتيل منذ شهرين.»

عيل صبر إميل. ولبثت هي عاجزة عن جمع أفكارها بشكلٍ صحيحٍ لطمأنته، للعثور على شيءٍ مهدئٍ تقوله له. همست فقط:

«تعال إلى قرب الموقد. سأشرح لك.»

لكنه لم يتحرك. ولم يكن ينوي الابتعاد عن الانقراض وموقع البناء.

«اشرح لي الآن.»

«حسنًا... ذهبنا إلى بيرياك دو مير... ثم إلى باج... ألا تتذكر؟ كان هناك

سياستيان، الصياد... وكلبه لاكي.»

لم تجرؤ على مواجهة عينيه ورؤية الضيق في نظرتهم.

«بعد ذلك ذهبنا لرؤية البحر وذهبنا إلى غرويسان.»

أبقت عينيها مثبتتين على قدميها، على حذائها المبطن بالفرو وسط الركام، وتابعت بسرعة كبيرة:

«ثم مرضتُ. كان لدي حمى. وأحضرْتَنِي إلى هنا حتى نحصل على الدفء.»
خاطرت باللقاء نظرة عليه لكنه أدار لها ظهره، ومشى نحو الجدار المقابل، وكان ذلك سيساعده على تحمل الأمر.

توقف فجأة واستدار، ثم هز رأسه. كانت تلك أول مرة يعتمد فيها إلى هذا السلوك. عادةً ما يكون مذعورًا تمامًا، سابحًا في محنة كاملة. لكنه يبدو هذه المرة مقتنعًا بأنه على حق، وأنها هي التي تكذب. كان عدوانيًا تقريبًا.

«كانت مارجوري تقول عنك دائمًا إنك غير مستقرة!»

اتسعت عينا جوانا. لم تعد تفهم شيئًا.

«عفوًا؟»

«كانت تجديك وقحة وغير مسؤولة.»

باتت عاجزة عن أي رد. إنها المرة الأولى التي تسببَ فيها بزعرعتها إلى هذا الحد.

«كانت على حق. انظري إلى أين أتيت بي! نحن في منتصف اللامكان! كانت خططك هي التي تأتي أولاً دومًا. خططك الخاصة. كانت الأولوية دومًا لرغباتك أنت!»

تراجعت خطوة إلى الوراء تريد الهرب، تريد الابتعاد عنه بأسرع ما يمكن.
«نعم، انسحبي!» بصقَ غاضبًا.

«اذهبي! هذا هو اختصاصك، أليس كذلك؟»

تراجعت خطوة أخرى إلى الوراء، فقد كان الآن يخيفها. شعرت بغصة تنمو في حلقها، أخذت تسد مجرى أنفاسها.

«لكنني لا أهتم إذا هربت يا لورا، لقد انتهى الأمر! لم أعد أحبك ولم يعد يعنيني رأيك!»

لم تعد تتعرف إلى هذا الوجه، ولم تعرفه من قبل. هذا ليس إميل الذي التقته قبل خمسة أشهر.

«اذهبي!»

دوى الصوت العدواني بين جدران موقع البناء. انسحبت جوانا.

عندما استيقظت صباح اليوم التالي كانت تلك الغصة لا تزال تسد حلقتها. احتاجت إلى لحظات كي تتذكر نوبة اليوم السابق وتفهم سبب شعورها الشديد بالغثيان. عندما فتحت عينيها أدركت أن إميل لم ينم هنا. بقي الغطاء أملس تمامًا من جهته، وخلت الوسادة من أي أثر للرأس. لكن الشيء الأكثر إثارة للقلق هو معطف إميل ووشاحه، حيث اختفيا من المشجب الصغير الموجود خلف الباب. شعرت أن قلبها يدق بسرعة. اللعنة، لماذا لم تعتمد على إخفاء مفاتيح العربة؟

نهضت بحركات غير مستقرة. الأرضية شديدة البرودة، وكل شيء يتراقص من حولها. كبحت بصعوبة رغبة في التقيؤ. كانت تجد صعوبة في إدراك أن هذا قد حدث، وأنها فشلت في مهمتها على نحو يدعو للراء. لقد وعدت بالتأكد من عدم عودته إلى المنزل. لكنها في اليوم السابق، فضلت أن تهرب وتتكور في سريرها مع قلب يدق، وأذنين مترقبين لصوت خطوات في الملحق. كان عليها أن تصر وتحاول التفاهم معه. لكنها لم تحاول حتى. لقد شعرت بالارتياح الشديد لمغادرة موقع البناء. كانت في الحقيقة، تشعر بالخجل من الاعتراف لنفسها بأنها تمت راحيله، واختفائه، وأنها لم تحب إميل الذي كان أمامها الليلة الماضية، إميل الذي أخافها. لقد بدا غاضبًا للغاية. صرخ بها بأشياء لم تكن موجهة إليها... بل كانت بلا شك موجهة إلى فتاة أخرى.

تمسكت بمقبض الباب محاولةً فتحه دون أن تفقد توازنها، لتجد نفسها وجهًا لوجه مع ألين الذي كان يستعد لطرق الباب.

«آه! أنت هنا.»

بدا أنه لا يفهم كثيرًا ما يحدث، ولماذا هي هناك، بهذا الشحوب، ملتفة بغطاء نومها، وثياب النوم.

«اعتقد هيبوليت أنك أخذت إميل إلى الطبيب.»

«ماذا؟»

تفحصها ألين ثانية في قلق، فهي شديدة الشحوب. بسبب سقوطه أمس... في موقع البناء.

تحرى تعابير وجهها. هزت رأسها:

«لم يسقط.»

لكن أليين قاطعها:

«عربة التخميم لم تعد موجودة. ظن هيبوليت أنك أخذته إلى مكان ما.»
هزت رأسها مرة أخرى عاجزة عن الإجابة.
«هل تعرفين أين هو؟»
(لا.)

لقد غادر. وفي اليوم السابق، لم يتعرف إليها. كان مقتنعًا بأنها كاذبة، وعاجزًا عن التوضيح في الزمن. لقد تذكر إيوس وميرتيل، لكنه لم يعد يتذكر باج أو غرويسان. كان ينبغي أن تريح دفتره، وتجبره على قراءة فقرات منه. وبدلاً من ذلك، ذهبت للاختباء تحت غطاء نومها... وعاد إلى عائلته. سينتهي به الأمر في مركز التجارب السريرية. لقد فشلت.

«ربما ذهب للتسوق.» قال أليين بدافع المراجعة، عندما رآها بذلك الشحوب.
أشار إلى المطبخ الصغير:

«لقد تركت لك بعض القهوة. سأكون في موقع البناء. انضمي إلي عندما تكونين مستعدة. أعتقد أنه سيعود في الصباح. لا تقلقي.»

لم تعد تعرف ما الذي يجب أن تفعله، فهي مشوشة وتائهة تمامًا هنا، في هذه المنطقة، دون إميل. الشعور بالذنب الذي انتابها هذا الصباح، عندما نهضت، نتيجة فكرة السماح له بالرحيل، تحول تدريجيًا إلى ضيق وغضب. كيف يمكنه أن يفعل ذلك؟

كيف يتركها هنا وسط الجبال؟

أجابها صوت خافت: لكنك لا شيء. حتى أنه لا يتعرف إليك.

ثم جاهدت لإسكات هذا كله، جاهدت كي تعتقد أن أليين على حق، وأنه خرج للقيام بمهمة، وسيعود. انضمت إلى موقع البناء لأنها لم تر شيئًا آخر يمكنها فعله.

«ماذا سنفعل اليوم؟»

«سنباشر بتركيب النوافذ.»

حدّثها ألبين مرة أخرى عن تجربته كنجار. دون هذا، لن يتمكن من تركيب نوافذ هيبوليت. لكن جوانا سحبت وشاحها على وجهها وحاولت الغوص في مكان آخر، في زمن آخر ومنزل آخر. زمن كانت فيه أخف وزناً وأكثر براءة. وبدلاً من التفكير في هروب إميل، فضلت العودة إلى سان سوليك، إلى المنزل الحجري الصغير.

في إحدى ثنايا ذكريات جوانا، قرع ليون باب الحمام في لهفة.

«هل كل شيء على ما يرام يا جو؟»

كانت تقف وسط حوض الاستحمام وتنظر إلى أثر الدم عند قدميها.

«نعم...»

«جو؟»

«نعم الأمور بخير. ماذا تفعل هنا؟ ألا يجب أن تذهب إلى منزل والديك لتناول

العشاء؟»

سكبت خيطاً رقيقاً من الماء في الحمام لإزالة الدم. ابتلعت خيبة أملها في صمت.

الدورة الشهرية. وهذا يعني أن الطفل ليس قادمًا بعد.

«نعم، سأغادر. أردت فقط أن أقبلك قبل أن أذهب.»

«حسنًا...»

أغلقت الصنبور وتناولت المنشفة.

«أنا قادمة. أجفف نفسي.»

لَفَّت نفسها بالمنشفة وهي ترتعش. في الخارج سادت العتمة. لقد ثبت شهرٌ

نوفمبر أقدامه. لم تشعر بالصيف. وانتهى شهر أغسطس مع انتهاء أعمال البناء. لقد

أنجزت الشرفة أخيراً، وعملاً على تأثيثها وتزيينها. ثم حان موعد افتتاح المدرسة.

أعاد ليون إحياء فكرة الطفل هذه. في الواقع، كلاهما كانا يفكران في الأمر. بسبب

الشرفة التي تم الانتهاء منها. ففي ذهنيهما، لم تكن تلك شرفة قط. منذ أن طرح

ليون الفكرة، أصبحت هذه الشرفة غرفة الطفل.

«هل انتهيت؟»

«أنا قادمة!»

جففت قدميها على عجل، ارتدت بيجامتها واتجهت إلى باب الحمام الذي فتحت وكان ليون ينتظرها وعلى وجهه تعابير القلق.

«هل أنت بخير؟»

«نعم. لقد قلت لك إني بخير.»

«هيتك غريبة.»

«إطلاقًا. أشعر ببرد شديد، هذا كل شيء.»

أغلق ليون الباب خلفه وعادت إلى المرأة لتتابع تحفيف نفسها.

«لقد أوقدَ جوزيف نارًا. وخلال ربيع ساعة سيصبح المكان دافئًا.»

بقي ينظر إليها بغرابة وهي تتجاهله. عصرت شعرها بحركة نشطة. لم تشأ أن تخبره بشأن دورتها الشهرية. ليس الآن. خيبة الأمل لا تزال في أشدها. إنها تعرف أن في الأمر حماقة، لأنها يحاولان بالكاد منذ شهرين...

«ألا تقبلينني؟ يجب أن أذهب.»

توقفت عن تحفيف شعرها واتجهت إليه لتقبله.

«لن أتأخر كثيرًا.»

كان الشعور بالمرارة نفسها يتابها كل مرة يتركها فيها للذهاب إلى منزل والديه لتناول العشاء. ذلك الشعور بأنه بتركه لها فإنه يسوغ نظرتها إليها بأنها الفتاة اللقطة ابنة العاهرة. ومع ذلك، فهو يريد إنجاب طفل منها. حاولت طرد هذه الأفكار من رأسها فهي تكره مثل هذه الأفكار، خصوصًا فيما يتعلق بليون.

«ربما تكونين نائمة حين عودتي...»

«ربما.»

«إذا تصبحين على خير.»

قبلها مجددًا ولكنها بقيت تشعر بهذا الثقل في صدرها. ولا تدري إن كان ذلك بسبب الدورة الشهرية أم بسبب هذا العشاء.

«جو، هل أنت بخير؟»

وجدت جوزيف ينتظرها في غرفة المعيشة، جالسًا إلى الطاولة التي جهزها بأدوات الطعام وأمامه حساء ساخن يتصاعد منه البخار.

«نعم، أنا بخير.»

راقبها مطولًا وهي تجلس مقابله. ثم تنحى وقال:

«ليون ليس رجلًا سيئًا، كما تعلمين.»

كان يشير إلى غيابه هذا المساء، مثل كل مساء اثنين.

«أعرف.»

«يفتقر بشدة إلى الشجاعة. هذا كل شيء.»

أخذ طبقها وسكب فيه مغرفة كبيرة من الحساء.

«ليس الأمر كذلك يا أبي.»

«أليس هذا ما يجعلك حزينة بهذا الشكل؟»

«لا.»

وضع جوزيف صحن حسائه فوق الطاولة ومال إلى الأمام كي يريها أنه يصغي إليها.

«أوضح لي إذا إذا شئت.»

«أنا وليون...»

وجدت صعوبة في المتابعة.

«تريدان طفلًا؟» سأل جوزيف في حنان.

لبثت مذهولة أمام بصيرة أبيها.

«نعم، نعم... هذا هو.»

حافظ جوزيف على هدوئه، وكأنه كان يتوقع هذا الخبر منذ شهور.

«ولا تعلمين كيف ستعلمين أنكما ستنتقلان من هنا؟» سأل بالقدر نفسه من

الحنان في الصوت.

صرخت:

«لا، لا! نريد البقاء هنا. لقد خططنا لتحويل الشرفة إلى غرفة للطفل.»

أضاء وجه جوزيف فجأة.

«جوانا...» همس.

«ماذا يا أبي؟»

«لقد كبرت بسرعة.»

ابتسمت وهي تنظر إلى صحنها.

«وهل تحملين طفلاً بداخلك؟»

رفعت رأسها في بطء نحو جوزيف الذي راح ينظر إليها في حنانٍ لا حد له.

«لا يا أبي، ليس بعد. ظننتُ أن هذا سيحدث بسرعة. أسرع من ذلك. لهذا أشعر بالفراغ قليلاً هذا المساء.»

كانت نظرة جوزيف حانية حتى أنه أعطاها الانطباع بأن أحداً ما قد داعب خديّه.

«أتعلمين ما كان يقوله بوذا؟ الصبر...»

تولت بنفسها إكمال الجملة:

«... هو أعظم صلاة. أعرف.»

ابتسم كلٌّ منهما للآخر، من مكانه في جانبٍ من الطاولة.

«إذا لن يعود هناك أنا وأنت فقط...» همس جوزيف في عذوبة.

شعرت بالتأثر، وأومات وهي تخفض بصرها من جديد إلى صحنها.

«لا، سنصبح أكثر.»

«أنا سعيد يا جوانا.»

مرت برهة من صمتٍ رائقٍ وخفيف، تخللته فرقة نار الموقد. ثم علا صوت جوزيف مجدداً:

«ستكونين أمّاً رائعة. أنا متلهف للقاء ابنك. أنا أيضاً سأحاول أن أكون

صبوراً.»

ابتسمت له في ضعفٍ.

«يسعدني أنك تريدني تربيته هنا.» أضاف جوزيف.

نهضت في بطءٍ وذهبت لتنضم إليه على الجانب الآخر من الطاولة. لم تقل شيئًا. اكتفت بوضع رأسها على كتفه، كما كانت تفعل وهي طفلة، وتركته يضمها بذراعيه الضخمتين، ورائحة المسك التي تفوح من قمصانه.

أومضت أكاليل عيد الميلاد في شوارع سان سولياك. ذهبت جوانا وليون للتسوق لهذا الأسبوع. كان جوزيف متعبًا جدًا في ذلك الوقت. حتى أنه أهمل حديقة خضرواته وقرن الدجاج الذي بناه في نهاية نوفمبر. تبين أن الدجاجات الثلاثة التي اقتناها كسولات حقيقيات. بالكاد جمعوا حوالي عشر بيضات منذ إحضارهن. كان جوزيف متلهفًا. وأكدت له جوانا أن البرد هو السبب.

كانا مسرعين في الأزقة التي اكتسحها برد جليدي.
«هل يمكننا التوقف عند الصيدلية؟» سألت جوانا عند رؤية اللافتة الخضراء تومض أمامها.

نظر إليها ليون بغرابة، وظهرت ابتسامة على زاوية شفتيه.

«هل هذا...»

«خذ حقيتي. أحتاج إلى دقيقتين واحدة فقط.»

«جوانا، انتظري!»

أمسك ذراعها ولم تحاول حتى أن تقاوم. رأى أنها هي أيضًا تحاول إخفاء ابتسامتها.

«قولي لي إن هذا صحيح!» همس بصوت متحمس. أسكته بوضع يدها على فمه.

«لا أعرف. أريد إجراء اختبار.»

«لكن...»

«سنرى بعد الاختبار.»

«انتظري يا جوانا، انتظري.»

ترك أكياس التسوق على الأرض وأوقفها ممسكًا بكلتا يديها، وهمس بصوت منخفض جدًا، مع بعض الاضطراب:

«هل انقطعت دورتك الشهرية... مؤخرًا؟»

نظرت حولها لتأكد أنها بمفردها في الزقاق.

«نعم.»

«نعم!»

«كان يفترض أن تأتي قبل ثلاثة أسابيع.»

كبح ليون صرخته وبدأ يصفق في صمت. أسكته بنظرة توبيخ.

«لا، توقف! لا أريد أن تبتهج حاليًا! سنقوم بشراء هذا الاختبار أولاً.»

وافق في مرونة لكن ابتسامته لم تختف.

«أسرعي!» قال لها وهو يدفعها إلى الأمام.

لم يكلفا نفسيهما عناء حمل البقالة إلى المطبخ عندما دخلا إلى البيت الحجري الصغير. أعلنوا لجوزيف الذي يقرأ في الصالون:

«لقد عدنا!»

وذهبا إلى الحمام. دفع ليون جوانا إلى الداخل.

«أسرعي!»

تظاهرت بالإهانة لكنها رأت أنه لم يعد يطيق صبرًا.

«من الأفضل أن تهدأ. إذا كانت النتيجة سلبية، فإن خيبة الأمل ستكون

كبيرة...»

لكنه لم يستمع. أغلق باب الحمام وهمس:

«سأنتظر هنا.»

عندما أعادت فتح الباب، بعد بضع دقائق، ما إن مشت خطوة في الممر حتى

مثل ليون أمامها على بعد أقل من سنتيمترين من وجهها.

«إذًا؟»

لم يستطع كشف شيء في وجه جوانا الجامد. لا شيء، باستثناء اضطراب

طفيف. وربما رعشة في طرف شفرتها... هل تذرف الدمع؟

قطب حاجبيه.

«جو؟»

لكن الشفتين ارتعشتا وأدرك أنها ابتسامة.

«هل النتيجة إيجابية؟» تتمّ مترقبًا كل نامة من أنفاسها.

أومات برأسها وابتسمت تمامًا، هذه المرة، واضعةً إصبعها على شفيتها، مشيرةً إليه بأن يصمت. كان جوزيف على بعد خطوات قليلة منهما في الصالون، ولا يستطيعان إخباره، بعد، فالوقت مبكر جدًا. قبلها ليون وهو يتقافز في مكانه. حملها ثم وضعها أرضًا وقبلها من جديد. راحا يضحكان خلف أكفهما كيلا يحدثا ضجيجًا.

لن يحتفظا بالسر طويلًا...

انتهت عطلة عيد الميلاد ولكن الشجرة القديمة بقيت موجودة، والأكاليل تتلألأ. كانت جوانا تقبع ملتوية على الأريكة، وفوق بطنها زجاجة ماء ساخن، إذ كانت تشعر بالغبث منذ هذا الصباح ولا يمكنها ابتلاع أي شيء دون الإسراع إلى الحمام. خمن جوزيف المسألة.

«هل حدث ذلك؟» سأل وهو يأتي لها بكوبٍ من الماء قبل ساعات قليلة. واضطرت أن تعترف له.

«لم يكن يجدر بي الإعلان عن ذلك بعد... ما زال الوقت مبكرًا جدًا.»
ما أرادت قوله هو أنه لا يزال هناك احتمال أن تفقده.

عاد ليون من العمل قبل قليل ووجدها على الأريكة، شديدة الشحوب.
«هل هذا طبيعي؟» وجّه سؤاله بصوتٍ منخفض، إلى جوزيف، بينما راحت جوانا تراقب النيران في صمت.

أوما جوزيف برأسه وهو يبتسم.

«نعم. هذا طبيعي.»

باتا يرغمان نفسيهما على تناول العشاء معًا، بينما تبقى جوانا ملتوية على الأريكة. كان ليون يبدو قلقًا.

«هل أنت متأكدة أنك لا تريدين شيئًا من هريس البطاطا؟» سأل من خلف ظهر جوانا.

«نعم متأكدة.»

وضعت زجاجة الماء الساخن فوق مسند ذراع الأريكة ونهضت.

«أين تذهبين؟» سألها ليون في قلق.

«إلى أبعد ما يمكن عن هذه الرائحة.»

«هذه الرائحة؟ أي رائحة؟»

ابتسم جوزيف من براءة ليون.

«سوف تكون لبعض الوقت حساسة من الروائح.» أوضح.

«وبعض تلك الروائح سيوحى لها بتقزز حقيقي.»

«رائحة هذا الهريس.» أضافت جوانا مكشرة. ابتسم لها جوزيف في تعاطف.

«اذهبي واستلقي. سنحضر لك ما ترغبين فيه. ما الذي تحببينه؟»

فكرت للحظات.

«كومبوت التين.»

سارع الاثنان إلى الإذعان.

«كما تشائين. ستحصلين خلال نصف ساعة على كومبوت التين.»

راقباها وهي تبتعد إلى غرفة النوم، وبدأ ليون شديد القلق.

«هل سيدوم هذا طويلاً؟»

«هذا ممكن. إنه أمر شائع جدًا في الأشهر الثلاثة الأولى.»

«أوه!»

بعدها دخلت جوانا إلى غرفتها ولم تعد تسمع ما يقولانه.

استمر الوضع شهرين بالكامل. في البداية رفضت أن يمنعها الطبيب من

مواصلة المهام الصغيرة في المدرسة إلى أن ضرب جوزيف بقبضته على الطاولة.

«ستخلدين الآن إلى الراحة! أنت لا تأكلين شيئًا! سيغمى عليك في النهاية.»

وجّه ليون شكرًا حارًا إلى جوزيف على المبادرة.

«إنها لا تستمع إلي أبدًا...»

ولكن المعاناة طالت بعد ذلك. كانت تشعر بالتعب طوال الوقت، وما إن تتحسن وتعود إلى تناول الطعام، حتى يعاودها الغثيان. أمضت أيامها في حساب الساعات. فالقراءة كانت تسبب لها الدوار، والطبخ يسبب لها الغثيان. لحسن الحظ كان هناك موسيقى. كان جوزيف يضع أغاني مايلز ديفيس ومقطوعات بيتهوفن وبعضًا من موزارت.

«هذا جيد جدًا من أجل النمو العصبي للطفل.» كان يقول.

وفي إحدى الأمسيات، وجدتهما يجريان محادثة في المطبخ. كان جوزيف عائداً من المدينة وكان يُري ليون كتابًا ضخماً جديداً.

«هذا قد يجعل بداية حملها أكثر متعة.»

وأبدى ليون، الذي بدأ يتصفح الكتاب الضخم، موافقته الشديدة.

حدثاها عن هذا الكتاب في المساء نفسه. كان يحمل عنوان طقوس وتقاليد الشامان بشأن الحمل، من أركان العالم الأربعة. جلس جوزيف وليون على الأريكة نفسها، والكتاب مفتوح بينهما. أعلن جوزيف:

«سوف نقرأ لك.»

تناوبا على القراءة، وأرفقا مقاطع القراءة بالتعليقات لتشجيعها على إبداء رأيها. «نجد فكرتين شائعتين تعتقد بهما معظم المجموعات العرقية حول العالم: المرأة وجنينها كائنات هُشان لأنها قد يتعرضا للهجوم من الأرواح الشريرة. ومن أجل حمايتهما منها، يجب اتباع طقوس الحماية والحظر. في أفريقيا، يجعلون النساء الحوامل يأخذن حمامات الكاولين.»

عبس ليون.

«ليس لدي أي فكرة عما يكون هذا... في كل مكان في العالم تقريبًا، يتم توفير أمور وقائية هن. في أفريقيا وفيتنام تُعطى تعويذات من قبل السحرة، ضد خطر الإجهاض. وفي السنغال تعطى تيممة عليها آية من القرآن. أوه! وفي غويانا، بين قبائل نديوكا، تقدم هن حبال قصيرة بتعين عليهن لفها حول بطونهن. والشامان هو الذي يجب أن يقدمها هن.»

كان جوزيف وليون منخرطين في اللعبة، أكثر منها.

«يشكل المعدن حماية ممتازة في غواتيمالا وتوغو بين شعوب الإوي. يحمي من لعنات السحرة ويكون بمثابة مانع صواعق ضد الأرواح الشريرة.»
ضرب ليون ركبته بسطح يده.

«نعم، هذا هو يا جو! علينا أن نشترى لك قطعة مجوهرات مانعة للصواعق!»
وعندما شاهدنا ابتسامة طفيفة على وجهها، واصلا القراءة طوال المساء. في اليوم التالي، أحضر لها ليون تعويذة إسلامية أصلية، عثر عليها لدى تاجر تحف في سان سولياك.

وفي أمسية أخرى، كان الأمر يتعلق بتخمين جنس الطفل باستخدام المعتقدات القديمة. كانت هي وليون في غرفة النوم في الظلام. كانا قد أشعلا بعض الشموع وكان ليون ينحني فوق الكتاب الذي اشتراه جوزيف.
«هل حلمت بدب أو تين مؤخراً؟» سأل ليون.
هزت جوانا رأسها وهي متكئة على وسادة كبيرة:
«لا.»

«حسنًا.» قال ليون وقد خاب أمله.

«ولا ببقرة؟»

فكرت ثم هزت رأسها مرة أخرى.

«ولا هذه.»

«إذا ربما بزهرة أو شمس؟»

«لا.»

«قطعة مجوهرات؟»

نظرت إلى أعلى بنفاد صبر. عبّر وجهه عن خيبة أمل.

«ماذا يفترض أن يعني ذلك؟» سألت وهي ترفع جذعها قليلًا.

«في كوريا، يزعمون أنه إذا حلمت الأم بدب أو تين أو بقرة، فإنها ستنجب صبيًا. وإذا حلمت بزهرة أو جوهر أو شمس، فهي ستنجب بنتًا.»
وختمت كلامها بكل جدية:

«ربما لم يتقرر ذلك بعد.»

«هل نأخذ استراحة؟» قال ألين، وهو يضع المثقاب والمسامير على الأرض.
«نعم.»

تبعته إلى الملحق الصغير، ثم إلى المطبخ. لم تكن تريد التفكير في حقيقة أن عربية التخيس لم تعد. انشغل ألين أمام قدير سكب فيه علبة من الخضروات المحفوظة. مدَّ إليها الخبز والزبدة.

«يمكنك البدء. ستسخن الخضروات قريبًا.»

لم تكن جائعة، ولا تزال تشعر بالغثيان. كانت تسعى جاهدة للعودة بسرعة إلى أعماق ذكرياتها، إلى دفء منزل طفولتها، في سان سولياك.

جاء الربيع وبدأت حديقة خضروات جوزيف تزدهر. سطعت الشمس وبدأ شهر مارس بداية لطيفة. تمكنت جوانا من العودة إلى العمل. لقد انقضت مرحلة الغثيان. والتعب أيضًا. الآن أصبح بطنها مستديرًا. بطن صغير مستدير. ذهبت هي وليون إلى موعدهما الأول في المستشفى وتمكنا من رؤية الطفل على الشاشة الصغيرة. إنه صبي. كانت جوانا في منتصف شهرها الخامس. وقال الطبيب إن كل شيء على ما يرام، وأنه ينبغي لها ألا ترهق نفسها كثيرًا في العمل، ولكن يمكنها استئناف مهامها بدوام كامل. كانت مسرورة، فقد وجدت الوقت طويلاً في الأسابيع الأخيرة، وإن كان لديها كل الوقت للغوص في كتاب جوزيف وليون للتقاليد العالمية حول الحمل. من ناحية أخرى، بين الطقوس التي كان كل واحدٍ منها أكثر جنونًا من سابقه، أثارت اهتمامها فكرة أو اثنتان. مثل هذه الممارسة الأفريقية التي تتمثل في ربط مئزر حول البطن ليلاً ونهارًا طوال فترة الحمل، بحيث يتشبع القماش بالكامل برائحة الأم. وعند الولادة، يُلف المولود بالمتنر خلال أيامه الأولى، ليكتشف رائحة أمه مجددًا. وما إن استعادت لياقتها، ذهبت واشترت بعض الأقمشة البرتقالية الزاهية. ذهبت إلى هناك سيرًا على الأقدام، مستغلة الفرصة للتجول في الأزقة. بدا ليون قلقًا عندما اكتشف الأمر. أكدت له أن كل شيء على ما يرام، وأنه لا يزال مسموحًا لها بالمشي إلى حد كبير.

كان الطقس معتدلاً وهواء البحر يتسلل إلى كل أزقة سان سولياك، وجوانا تنوق إلى القيام بنزهة على شاطئ البحر. في أغسطس عند قدوم الطفل، سيذهبون هم الأربعة إلى هناك. لم تكن السوق مزدحمة جداً بعد ظهر ذلك اليوم، رغم كونه ربيعاً. لذلك سمحت جوانا لنفسها في أثناء ذهاب جوزيف لإحضار الجزر، بالتوجه إلى كشك الزهور. كان الورد رائعاً. بلونٍ ورديٍّ جميل وأصفر عميق وحتى بعض الأبيض النقي. راحت تنظر إليه في دهشة عندما سلمتها البائعة، من خلف منضدتها، باقة من ثلاث وردات.

«هذه لي؟» سألت في خجل.

أومأت البائعة، السيدة ذات الوجه الودود، والعينين الخضراوين الجميلتين والشعر الرمادي المعقوص إلى الخلف.

«نعم، إنها لك ولطفلك.»

أشارت السيدة إلى بطنها وابتسمت.

«أوه. هذا لطف شديد.»

«ما الموعد المتوقع للولادة؟» سألت السيدة.

«شهر أغسطس.»

قاطعها فجأة سقوط وعاءٍ زجاجي وتحطمه على بعد ستيمترات قليلة من قدمي جوانا. جفلت الاثنتان. رفعت جوانا رأسها نحو المرأة الخرقاء التي أسقطت وعاءها للتو لتجد نفسها وجهًا لوجه أمام مدام أندريه التي تسمرت في مكانها، وتلدى ذراعها وتشوة وجهها بتعبير رعبٍ لا يوصف. شعرت جوانا بانقباض بطنها وتضيُّق حنجرتها. بالكاد سمعت البائعة وهي تخاطب مدام أندريه:

«حسنًا إذا يا سيدتي! لا تهتمي للأمر. هذا شيء يحدث. انتظري، سأساعدك

في جمع الشظايا.»

بقيت مدام أندريه متسمة، شاحبة الوجه، تنقل نظرها من وجه جوانا إلى بطنها، وكأنها لا تصدق ما تراه. ولم تستطع جوانا إلا أن ترى الحقيقة المروعة: السيدة أندريه لم تكن تعلم. ليون لم يقل لها شيئاً. وعلى الرغم مما كان يدعّيه منذ شهرين، لم يجرؤ ليون على الاعتراف لوالدته بأنه ينتظر طفلاً من هذه الفتاة اللقطة.

مكتبة

t.me/soramnqraa

لم تعد جوانا تعرف أيها أسوأ: هل هو الموقف، أم تعبير الاشمئزاز على وجه مدام أندريه أم الشعور بالخيانة.

«لا يمكن أن يكون هذا صحيحًا.» تمتد مدام أندريه وهي تضع يدها على جبينها.

بدأت أنها على وشك الإغماء، وأقبلت البائعة من خلف منصتها كي تسندها.

«هل كل شيء على ما يرام سيدتي؟ هل تعانيين من دوخة؟»

همست مدام أندريه بسرعة كبيرة بين شففتيها، دون أن ترفع عينيها عن جوانا.

«هذا غير ممكن. كيف استطاع أن يفعل بنا هذا؟ لا بأس أن يلهو. أما أن يمنحها طفلًا. لقد جن جنونه... لا أصدق أنه فعلها.»

لبثت جوانا غير قادرة على الحركة. شعرت أنها تتحلل في مكانها. أرادت أن تختفي، أن تهرب بسرعة كبيرة، لكنها تعجز عن الحركة. لقد شلها ازدراء مدام أندريه. التفتت إليها البائعة:

«هل تعرفينها؟» سألت مشيرةً إلى مدام أندريه. كانت هناك كتلة كبيرة تسد حلق جوانا. هزت رأسها، وابتلعت لعابها.

«لا.»

حاولت أن تتحرك من جديد فانحنت في بطيء، ووضعت باقة الورد في سلتها وهي تنظر حولها بحثًا عن والدها وسط الحشد. ليون لم يقل شيئًا، همست قائلةً للبائعة:

«شكرًا على الباقة. إلى اللقاء.»

وتعود الجملة: ليون لم يقل شيئًا. ليون يشعر بالعار منها. تذكرت الحرج الذي كان يظهر عليه كلما طرحت عليه السؤال.

«هل أخبرتهما؟»

«نعم.»

«كيف كان رد فعلهما؟»

«اعتيادي.»

«هل تعني أنها كانا مسرورين؟»

«نعم... نعم، كانا مسرورين.»

ولم يتوسع في الموضوع، بل انتقل بسرعة إلى شيء آخر. ظنت أنه أراد تجنب تكرار الفظائع التي قالها والداه عنها. لأن هذا هو ما كان يفترض أن يكون عليه الحال. استمر في الخروج لتناول العشاء بمفرده مساء كل يوم اثنين. لكنها كانت مخطئة. وكانت الحقيقة أبشع. إنه لم يقل شيئاً. كان بطنها ينمو، وأجريا أول فحص بالأموح فوق الصوتية، ولم يقل شيئاً. لقد استمر في إخفاء أمر هذا الطفل عن والديه.

«جو... هل أنت بخير؟»

أخذ جوزيف يراقبها في فضولٍ عندما انضمت إليه. كانت ترغب في البكاء، وتشعر بالحر الشديد والبرد الشديد في وقتٍ واحد. أرادت أن تتقيأ أيضاً. كانت تشعر بحزنٍ لم تشعر به من قبل.

«جو، ماذا حدث؟»

وضعت يديها على بطنها، وكأنها تحمي الطفل من كل هذا الرعب، وكل هذا الحقد، وكل هذا الازدراء. أرادت ألا يصل إليه شيء منها. حبست دموعها بصعوبة. لم يكن جوزيف يفهم. نظر حوله. قام بمسح الزقاق الصغير الذي عادت منه. رأى مدام أندريه تسندها البائعة وتاجر آخر، وهي تبدو كأنها على وشك الإغماء، والتاجر يجبرها على شرب كوب من الماء. استقام جوزيف غاضباً.

«ماذا فعلت لك؟»

شمر عن ساعديه، وكرر في غضبٍ:

«جو، لن نسمح لها بمعاملتك بهذه الطريقة! لن نسمح لأحد أن يعاملتك بهذه

الطريقة!»

كان مستعداً للذهاب، وقد دبت فيه القوة، لكنها أوقفته من طرف قميصه.

«المسألة ليست هي.» قالت بصوتٍ ضعيف.

توقف جوزيف فجأة واستدار وهو لا يفهم.

«ماذا حدث؟»

«لم تكن تعرف شيئاً عن الطفل.»

لم يتفوها بكلمة واحدة وهما يسيران بخطى حثيثة في دروب سان سولياك. كان وجه جوزيف قاسياً وحازماً وكانت جوانا مضطربة الكيان، يداها على بطنها وتمشي بسرعة، بسرعة كبيرة. كانت تعلم أن جوزيف سوف يتركها تفعل ما تريد. سوف يدعمها حتى النهاية، وبعد ذلك، عندما تجد نفسها وحيدة في غرفتها، غارقة في الدموع، سيأتي ليخفف عنها.

كان ليون يجني رأسه فوق أوراقه في الصالون. ابتسم عند وصولهما.

«هل الأمور بخير؟»

توارى جوزيف حالاً في المطبخ، ولم يبق سوى جوانا، ضعيفة وشاحبة، تستند إلى الطاولة..

«هل أنت بخير؟» كرر سؤاله.

بدأت بالبكاء. تمكنت قبل قليل، وهي في السوق، أن تمسك دموعها، أما الآن، أمام ليون، فهذا صعب جداً. كانت تود ألا تمقت هذا الوجه الذي تحبه بصدق. لكنه لم يقل شيئاً لأمه، وفضل السكوت عن حملها.

«جو، ما الذي جرى لك؟»

نهض واقترب كي يحضنها، لكنها منعتة وتراجعت خطوة. تكلمت بصوت صافٍ على نحوٍ مثير للاستغراب:

«لقد صادفتُ والدتك في السوق.»

رأت من خلال تعابير وجهه أنه عرف بالضبط ما حدث. إضافة إلى أنها تذكرت قلقه المفرط قبل بضعة أسابيع، عندما أخبرته أنها ذهبت إلى المدينة لشراء ثوبٍ فضفاض. لم يكن قلقاً على صحتها، ولا صحة الطفل. بل كان قلقاً بسبب أمه التي أراد أن يخفي عنها خبر الحمل بطفل العار هذا.

«ما الذي كنتَ تخطط له؟» واصلت، لأن ليون بدا غير قادر على الكلام.

«كنتُ...»

احمر خجلاً. وخفض رأسه كالطفل. تجاهلت الدموع التي سالت على وجهه وتابعت بصوت واضح:

«هل كنت تخطط لإخفاء الأمر حتى عند ولادة الطفل؟»

هز ليون رأسه. قال متلعثماً:

«سأقول لهما...»

لكنها قاطعته:

«أنا لا أريد ذلك.»

«ماذا؟»

كانت عينا ليون المتسعتان مثل عيني صبي صغير، تؤلمانها، لكن ليس بما يكفي لإيقافها:

«لا أريد ذلك لطفلي. لا أريد أباً ينجل منه، يشعر بالعار منه حتى أنه يفضل إخفاء أمر وجوده.»

«ما كنتُ لأفعل ذلك... أنت تعلمين ذلك...»

«لا أريد أباً يعجز عن الدفاع عنه ضد ازدراء الآخرين.»

«جو...»

«لقد كنتُ دائماً جباناً وضعيفاً، لكن هذا لم يكن مهماً. فقد كان الأمر متعلقاً بي فقط. وأنا كنت قوية بما يكفي لمواجهة ذلك.»

«جو...»

«لا مكان للشعور بالعار هنا. أنا وأبي استقبلناك بكل ترحاب. أريد أن تغادر.»

ظهرت الصدمة والرعب على وجه ليون.

«ماذا؟»

حاول التمسك بالطاولة. حاول أن يتكلم ليقول شيئاً لكن الانفعال قد منعه. كررت جوانا في هدوء تام:

«أريد أن تغادر المنزل.»

«لا... جو! لا! أنت... لا يمكنك!»

أخذ الآن ييكى، وهي كذلك، لكنها كانت متماسكة. كانت هادئة رغم الدموع.

«سوف أتولى الأمر. لا تقلق. لدي ما يكفي من الحب، وأستطيع أن أحبه عن شخصين. سوف نتغلب على هذا.»

حاول الإمساك بها، التمسك بها، لكنها كانت تبتعد. عادت إلى المطبخ حيث لجأ جوزيف. كانت تعلم أنه سيقول الشيء الذي يجب قوله أو لن يقول شيئاً، لكنه سيقف بجانبها.

سمعا من المطبخ بكاء ليون. لم يقل جوزيف شيئاً. اكتفى بالبقاء بالقرب منها، بوجه مغلق، بلا تعبير، مثل صخرة كبيرة ساكنة.

«جوزيف!»

كان صوت ليون اليائس، وقد جرجر نفسه من الصالون حتى باب المطبخ، ووقف عند العتبة، بوجه بلله الدمع. لم يعد يخاطب جوانا بل والدها، وهو ينظر إلى عينيه طالباً العون.

«جوزيف... أخبرها أنها مخطئة... أخبرها أنها ترتكب حماقة... لا يمكنها أن تطلب مني المغادرة...»

لكن وجه جوزيف كان قاسياً، لم تره جوانا بهذه البرودة والغضب من قبل.

«جوانا لا تتلقى الأوامر من أحد. إنها الأقدر على معرفة ما ينبغي لها أن تفعله، لأجلها ولأجل طفلها. إنني آسف يا ليون.»

بدا أنه تلقى صفعه على وجهه.

استمر البكاء ساعة كاملة... حتى غادر ليون المنزل، حاملاً حقيبة كبيرة على كتفه، وهو لا يزال غير مصدق، ولا يزال في حالة صدمة.

في المساء، أخرجت جوانا الكتب القديمة التي كانت تقرأها في طفولتها، من أسفل الرف الخاص بها. ثم جلست في الشرفة، في ضوء مصباح كيروسين قديم، وبدأت تقرأ بصوتٍ ناعمٍ ورقيق. كانت تقرأ مرة بعد مرة، لنفسها ولتوم الصغير القادم.

كان هناك رجل... وربما امرأة أو طفل، يعبر الصحراء. نعم الصحراء، سيراً على قدميه. وكان يبكي، يبكي، بلا انقطاع، بانتظام، أحياناً في هدوء وأحياناً بصوت عالٍ، لكنه لم يتوقف قط عن البكاء، كان يبكي على وقع خطواته في الرمال.

وفي أحد الأيام، في الصحراء الكبرى، صادف طائرًا سأله:

«ماذا تفعل وحدك في الصحراء؟»

«أمشي وأبكي...»

فتسقط من عينه دمعة كبيرة يلتقطها على الفور.

«لماذا أنت حزين بهذا الشكل؟»

«لست حزينًا.»

«لم تبكي إذا؟»

«انظر، دموعي تتحول إلى لآلئ.» قال وهو يمسك الدمعة الناعمة اللامعة.

«لدي الآلاف منها في جيوبي. هل تريد أن تراها؟»

«نعم. نعم!»

أدخل الرجل يده في جيبه المنتفخ وأخرج منها حفنة لامعة.

«كم هي جميلة!»

«اختر واحدة إذا شئت.»

«ألهذا السبب لا تتوقف عن البكاء، لتحصل على المزيد والمزيد من اللآلئ؟»

«بالضبط. هيا، اختر!»

«بكل سرور: هذه! إنها ليست الأكبر ولكنها الأكثر لمعانًا.»

«لقد أحسنت الاختيار. وداعًا!»

«وداعًا!»

التقط الطائر بمنقاره، اللؤلؤة التي أصبحت كثرًا، وابتعد خفيًا سريعًا، بينما استأنف الرجل الباكي، أنينه وسيره البطيء، بلا هوادة. في مكان أبعد، حط الطائر وتأمل الدمعة الثمينة. وقال لنفسه إنه يود الحصول على المزيد، ليس كثيرًا، بل بعضها فقط كهدايا لمسافرين مجنحين آخرين. استدار عائدًا نحو (الرجل الباكي) الذي تركه خلفه، ورآه من بعيد وهو يكافح في حمل جيبه الكبيرين الممتلئين بالآلئ. ثم لم يلبث أن عجز عن التقدم خطوة، فهوى على ركبتيه وأخذ يجرجر نفسه، إلا أنه رغم كل شيء، يواصل البكاء، والبكاء، وجمع هذه (الدموع اللؤلؤية) التي يضعها في جيبه.

«توقّف عن البكاء، دموعك هي التي تمنعك من المضي قدماً!»

«لا أستطيع التوقف، لا أستطيع.»

وسقطت دمعتان كبيرتان فالتقطتهما.

«إنني مرهق ولكنني أصبحت معتاداً ذلك أكثر مما يجب، ولا أستطيع التوقف،

لا أستطيع.»

وفجأة، بضربة سريعة وحادة من منقاره، أحدث الطائر شقاً صغيراً في جيب الرجل الباكي، ثم شقاً آخر في الجيب الآخر، وساعد الرجل على النهوض، والسير منتصباً من جديد. أخذ يشجعه بغناؤه وجناحيه. سقطت من الجيب المثقوب لؤلؤة، ثم أخرى؛ تشكل فوق الرمال المَحْرِقَة خَيْطَان من اللؤلؤ يحددان ملامح طريق. ومع تقدم الرجل، أخذ وزنه يخف، ومع استمرار إفراغ جيبه، أخذ يرتسم درب مضيء، ويهدأ نبج دموعه ويجف. وعندما فرغ جيبه، جفت عيناه أخيراً، وشعر قلبه بالسعادة من جديد، وأصبحت خطوته خفيفة جداً، خفيفة حتى أنه حلق في السماء مع الطائر. في الصحراء الكبرى، يمكننا أحياناً رؤية طريق من اللؤلؤ لا يؤدي إلى أي مكان، وإذا نظرنا إلى الأعلى، يمكننا رؤية رجل يحلق بجانب طائر... ولكنه قد يكون امرأة، أو طفلاً، من يدري؟

احتاجت إلى ثوانٍ كي تفهم مصدر الضجة حولها. كانت أصوات الرجال. كما احتاجت إلى بعض الوقت كي تتذكر أنها في آس، في ملكية هيبوليت وبالتحديد أكثر في المطبخ الصغير بالملحق. عادت إلى رشدها عندما وقف إميل أمامها، بمعطفه الأسود، وشعره البني الذي تنثر عليه الثلج. لبثت بلا حراك وغير مصدقة. لم تعد تعرف إذا كان قد رحل فعلاً أم أنها حلمت برحيله.

قال وهو يتسهم لها:

«نظرتك غريبة.»

كانت عاجزة عن إصدار صوت. ارمى بجانبها خلف الطاولة الصغيرة.

«ألم تتسلمي ملاحظتي؟»

«ماذا؟»

«الملاحظة على طاولة السرير...»

هزت رأسها. لم تفكر حتى في النظر إلى طاولة سريرها.

«كتبْتُ لك أنني سأعود إلى المنزل بحلول الظهر. وأنني ذهبت فقط لإيداع رسالة لصندوق البريد.»

لا بد أنها لا تزال تبدو مشوشة، لأنه ابتسم، وربت بيده خفيةً على ركبته، تحت الطاولة، وكأنه يقول: كل شيء على ما يرام، ها قد عدت.

عندها فقط أدركت أن ألبين يجلس إلى الطاولة مقابلها وأنه قدم لها الطبق. كما لاحظت أنها أصبحت تتنفس بشكل أفضل وشعرت فجأةً بالجوع. نظرت إليه مرة أخرى، قبل أن تمسك بشوكتها، نظرة أخيرة للتأكد أنه موجود بالفعل، وأنها لم تحلم، وأنه قد عاد. ثم انقضت حرقاً على عصيدة الخضار. يا للساء! كم كانت جائعة!

«إلى أين ذهبت؟»

«إلى باو.»

راحا يتحدثان وهما يمضغان، دون التفاتٍ إلى ألبين، المنغمس على أي حالٍ في قراءة صحيفة.

«هل كانت الرسالة...»

ترددت:

«هل كانت تلك الرسالة موجهة إلى والديك؟»

أوماً وهو يواصل تناول الطعام.

«نعم... بعض التعليقات.»

فكرت أن الأمر يتعلق حتماً بالقرار الذي اتخذته في ذلك اليوم بشأن إحراق جثته. لذلك لم تصر أكثر من ذلك. لكنها بعد دقائق، حين غادر ألبين الطاولة، سألت:

«هل تتذكر ما حدث الليلة الماضية؟»

«ماذا؟»

واصل تناول الطعام، وهو لا ينظر إلا إلى طبقه.

«ما حدث في موقع البناء...»

أمسك كوبًا من الماء وابتلع لعبابه قبل أن يشرب.

«آه، هيبوليت وألين قالا إنني تعرضتُ للسقوط. من الواضح أنك لم تريدي أخذي إلى الطبيب.»

نظرت إليه بعناية لمعرفة إذا كان يمزح أم لا، لكنه كان يبدو جادًا تمامًا.
«ألا... ألا تتذكر؟» أصرت.

«لا.»

«لا!»

التفت إليها وفي النهاية هز رأسه.

«لا. الأمر يزداد سوءًا في الوقت الحالي. الحالة تتسارع...
«كيف ذلك؟»

«لدي ثقب ذاكرة. لا أتذكر دائمًا ما فعلته في اليوم السابق أو... أو نحن في أي يوم.»

حاول كلُّ منهما التصرف كما لو أن الأمر لم يضايقهما، كما لو أنه أمر طبيعي، كما لو أنها يأخذان الأمر باستخفاف. عادا لتناول الطعام لكن جوانا تدخلت مرة أخرى بعد بضع دقائق:

«لقد ظننتني شخصًا آخر. أعتقد أنك ظننتني لورا.»

رأت حاجبيه يقطبان رغم إصراره على عدم النظر إلا إلى طبقه.

«هل... هل فعلتُ شيئًا مزعجًا أو... أو شيئًا سيئًا؟»

هزت كتفها.

«لقد كنت غاضبًا جدًا مني.»

لم تتوقع أن تراه يضحك، ضحكة عصبية، فوق طبقه.

«هذا لا يفاجئني!»

نظرت إليه دون أن تفهم.

«حقًا؟»

«نعم، لقد كانت مزعجة حقًا! كان لديها موهبة... موهبة استثنائية في إثارة غضبي! لا أظن أنك ستحيينها...»
بدأت جوانا تبتسم أيضًا، بشيء من الخجل.
«أعتقد ذلك؟»

«كانت وقحة واستفزازية. لم يحبها والداي قط... ولا أختي.»
أدهشه أنه ذكر لورا بهذا الاستخفاف، وسخر منها، وأنه رأى جوانا تبتسم في المقابل. وزادت دهشته عندما رآها تضع الشوكة جانبًا وتقول والابتسامة في عينيها:

«كان ليون مدلل أبويه وكان يفتقر بشدة إلى الشجاعة. ما كنت لتحبه أيضًا.»
جعلته المفاجأة لا يعرف ماذا يقول، وتجمدت ابتسامته للحظة. لم يسبق لها أن تحدثت عن ليون. لم تفعل ذلك من تلقاء نفسها قط. وعندما أجبرت، كانت لهجتها جدية ومتألمة. ولكن ليس اليوم. حاول أن يتمالك نفسه بسرعة كبيرة حتى لا يتسبب في أزمة:

«أترين؟ لا بأس بنا معًا.»
أومات بعينين لامعتين.

غادر ألبين موقع الملكية بعد بضعة أيام، مع اقتراب عيد الميلاد. كان الوداع مقتضبًا، دون أمسية ومشروبات. اعتاد هيبوليت أن يسافر إلى منزل أخته في باو لمدة أسبوعين لقضاء عطلة نهاية العام، ويتم إغلاق العقار، وكذلك ورشة البناء، فلا يستقبل متطوعين جدد قبل يناير. ومع ذلك، فقد سمح لإميل وجوانا بالبقاء في الملحق. ونصحهما بأخذ إجازة وعدم الاقتراب من ورشة البناء في أثناء غيابه. بدا مرتاحًا لوجود من يرعى كلبه ميستيك الذي لا تحتمله أخته في شقتها. أعطاهما تعليمات حول كيفية إطعامه وكيفية تغذية موقد التدفئة في الملحق بشكل صحيح. كما أعطاهما مواعيد مرور التاجر المتجول Tut Tut. ثم سلمهما مفاتيح الملكية قبل أن يغادر على مضضٍ تقريبًا. من الواضح أن هيبوليت لا يحب الابتعاد عن جباله طويلاً.

في ذلك الصباح، وجدا نفسيهما وحيدين تمامًا في المكان. لم يعد بوك وميستيك يشاهدان تقريبًا، وهما يتجولان في الأراضي الجليدية الممتدة، تاركين آثار أقدام في الثلج. كان إميل وجوانا مرتبكين قليلًا، في الصمت التام لهذا الملحق الذي باتت غرفه الثلاث الأخرى فارغة. العمل في موقع البناء غير وارد، فقد جعلهما هيبوليت يقسمان ألا يغامرا بالذهاب إلى هناك في أثناء غيابه، ثم إن الرياح الجليدية التي تهب في الخارج ستثيها عن ذلك على أي حال. أصبحا يجدان نفسيهما أمام وجبة منتصف النهار البسيطة في المطبخ الصغير الفارغ، ويشاهدان ندف الثلج تنزل مدوِّمةً في الخارج، وتأخذها الزوابع.

«ماذا يمكننا أن نفعل؟» سأل إميل وهو يلهو بطرف شوكتة بحبات البازلاء. رفعت جوانا كتفها.

«لا يمكن الخروج في هذا الطقس.»

تحقق إميل هذا الصباح إن كان لدى هيبوليت كتب أم لا، ولم يكن هناك حتى مجلات قديمة يمكن تصفحها، ولا تلفاز بطبيعة الحال.

في الأيام الأخيرة ملأ صفحات دفتره بالكتابة إلى أبيه وأمه ومارجو ورينو، خلال المهلة القصيرة التي كانت فيها ذاكرته سليمة. وضعت جوانا شوكتها جانباً وهي تحك حلقها.

«هل لديك فكرة؟» سأها إميل ممتلئاً بالأمل.

حركت كتفها إلى أعلى وهي مترددة.

«يمكننا أن نفعل ما يفعله الجميع...»

«وما هو؟»

«الإعداد لعيد الميلاد.»

بدا متفاجئاً ومال إلى الخلف نحو مسند كرسيه.

«تقصدين مثل الناس العاديين الذين لديهم أسر ولا يستعدون للموت؟»

قال ذلك بمسحةٍ من السخرية وشيءٍ من الوقاحة أيضاً، كما لو أنه يرجو في أعماقه أن يجعلها تبتسم.

«نعم.» أجابت جوانا بجدية.

«ألم تكن تحتفل بعيد الميلاد مع أهلِكَ؟»

«بالطبع. كنا نعد له قبل أسابيع. الشجرة، المغارة، مجموعات الأغاني التراثية...»

ابتسمت جوانا بخفة، كما لو أن هذا أعاد لها أيضاً ذكريات عائلية.

«أنت أيضاً كنت تحتفلين بعيد الميلاد؟» سأل إميل.

«نعم. مع والدي، كنا نصنع كل شيء بنفسينا. الهدايا، الديكور، أكاليل الشجرة، الشموع المعطرة. ثم نصنع المشروبات الخاصة بنا من قشور البرتقال والكاكاو المر والقرفة.»

لم يستطع كبح ابتسامته. بدا الأمر كما لو أن رائحة القرفة دغدغت أنفه. كما لو أنه سمع الأجراس على خلفية البيانو، من مكبرات الصوت في غرفة المعيشة. كاد يسمع الأصوات في المطبخ. أصوات مارجو وأمه، ويشم رائحة خلطة الزبدة

بالقدونس لطبق القواقع، التي تفوح منتشرة في الطابق السفلي. في عيد الميلاد الماضي، وصل التوأمان يرتديان قبعتي سانتا، وارتدى باستيان ربطة عنق حمراء. لم يرغب أحد في التعليق على وجه إميل المتعب والغائب. كانت قد مرت خمسة أشهر منذ أن غادرت لورا، وظن الجميع أنه تغلب حتمًا على الأمر. لكنه في الحقيقة لم يكن حاضرًا معهم. الآن يدرك أنه دمر آخر عيد ميلاد له. آخر عيد ميلاد حقيقي على أي حال. بقي عيد الميلاد هذا، مع جوانا، في هذا الملحق الفارغ. جوانا التي من المفترض أنها زوجته... من المفترض أنها يشكلان عائلة بعد كل شيء. استقام متحمسًا.

«أنت على حق. يمكننا الاستعداد لعيد الميلاد.»

إنه عيد الميلاد الأول لهما معًا، وربما الأخير. ينبغي ألا يفوت.

«يمكننا أن نتجول في القرية بعد الغداء ونرى إذا كانوا يبيعون أشجار ميلاد أم لا.»

أومأت جوانا وفمها ممتلئ.

وصلتا إلى القرية سيرًا على الأقدام في أثناء هطول الثلج. أخبرهما رجل عجوز، مر بهما، أنهما لن يجدا شجرة تنوب هنا، ونصحهما بالذهاب لقطعها في الغابة، النصيحة التي جعلت عيني جوانا تلمعان.

«بم تريدان أن نقطع شجرة؟» ردَّ إميل بينما كان العجوز يتعد.

«لا شك أن هيبوليت لديه أدوات في كوخه. أنا متأكدة أن هناك أدوات لنشر المعادن في الموقع، سوف تفني بالغرض.»

رغم البرد والرياح الجليدية، تقدما مسافة لمعرفة ما إذا كان في القرية بائع سجائر واحد في الأقل حيث يمكنهما شراء بعض الأقلام والأشرطة والخيوط لصنع الأكاليل. لكنهما عادا خالي الوفاض. القرية المغطاة بالثلوج هي مدينة صغيرة أصيلة ضائعة في الجبال. لقد أدركا أن فرصتهما الوحيدة للحصول على هذا النوع من الأشياء والتواصل مع خارج القرية هي طلب حضور Tut Tut. الخيار الآخر هو الذهاب بعربة التخميم ولكن الثلج مستمر في الهطول وهذا لن يكون أمرًا حكيمًا. في طريق العودة، توقفت جوانا عدة مرات لجمع أكواز الصنوبر

وأغصان التنوب، زاعمة أن لديها بالفعل آلاف الأفكار حول ما يمكن فعله بها. كان إميل يتنظرها وينفخ في يديه.

تولى إشعال النار، في مطبخ الملحق، ريشا تتصل جوانا بـ تاجر Tut Tut. حاولت، وفقاً لما سمعه، أن تتفاوض لتسلم كل شيء في جولة اليوم التالي، لأنه بخلاف ذلك، سيتعين عليهما الانتظار أربعة أيام أخرى. عرضت أن تدفع مبلغاً صغيراً إضافياً، ما جعل الرجل يلين لأنها عندما أغلقت الخط، نهضت لإعداد الشاي، وفي أثناء انتظارها غليان الماء، بدأت بفرز أغصان التنوب، بهيئة راضية.

«هل سيأتي غداً؟»

«نعم.»

واصلت فرز الأغصان، منتزعةً من هنا وهناك بعض الأفرع المستدقة.

«ماذا ستصنعين منها؟» سأل إميل وهو يأتي بقدر الماء الساخن والفنجانين، ليضعهم على الطاولة.

«أود أن أعلقها على شكل دائرة مع شريط ذهبي.»

«لصنع إكليل عيد ميلاد؟»

«نعم. ومن البقايا المتساقطة يمكننا أن نصنع نجوماً. يكفي أن نقاطع غصينات صغيرة ونثبتها بشريط لاصق.»

أخذاً يشربان الشاي ويراقبان هطول الثلج في الخارج. لقد بدأ النهار يميل إلى نهايته.

«هل نذهب بعد ذلك بحثاً عن شجرة تنوب؟»

«أومات جوانا موافقة.»

في ذلك المساء، أخرجوا من عربة التخميم لعبة المونوبولي التي أعطتها إياها ميرتيل، ولعبا حتى وقت متأخر جداً من الليل. ثم وقف إميل أمام النافذة المعتمة بسبب الثلوج وأخذ يراقب اللهب الخافت للشموع الموضوعة على حافتها. كانت جوانا على حق في تأملها اللعين. كلما كشفت ذاكرته عن عيوبها، ازداد شعوره

بالحاجة إلى التحديق إلى لُهب، أو سحابة، أو أي شيء، لتصفية ذهنه والتركيز على الصمت. بقي طويلاً بلا حراك في المطبخ الصغير، محدقاً إلى الشموع التي راحت تنطفئ واحدة تلو الأخرى. ثم انضم إلى جوانا وبوك في غرفتهما، ودخل في نوم عميق.

«ما الذي نفعله هنا؟»

استدارت جوانا فجأة وهي تتناول وجبة إفطارها في المطبخ، وتراقب من خلال النافذة الصغيرة وصول تاجر الـ Tut Tut.

كان إميل عند الباب، ومن خلال تعابير وجهه، عرفت على الفور أنه أصيب بإعتام جديد. انتظرت ثانية، ثم اثنتين عل ذلك يكون كافياً كي يعود إلى نفسه، إلى مدينة آس، ويتذكر ما يفعلانه فيها... لكن هذا لم يحدث. سأل من جديد:

«ماذا نفعل هنا؟»

لاحظت أن نبرة صوته قد تغيرت منذ فقدانه للذاكرة لأول مرة. كانت أولى حالات فقدان ذاكرته، مرادفة للفرح وتسبب له معاناة لا توصف. ما زالت تتذكر تلك المرة التي كان يَحْتَنق فيها عند استيقاظه وهو مستلقٍ على العشب. في المرات الأولى، بدا أنه كان يفهم جزئياً أنه فقد ذاكرته للتو. كان هناك خوف ثم كفاح من أجل الفهم واستعادة تمرّكه. لكن الأمر اختلف تمامًا ذلك المساء، في موقع البناء. لا ذعر، لا قلق. وبدلاً من ذلك، حدث ذلك الخلط بين الأماكن والأشخاص وبين الحاضر والماضي. كما لو أن الضرر الآن كان أقوى من أن يجعله يعي حقيقة فقدانه للذاكرة.

سأل إميل في ببطء وهو لا يزال عند الباب:

«أين أمي؟»

ابتلعت ريقها وهي تضع فنجان قهوتها في ببطء. وقبل أن تجيبه، أرادت أن تعرف مَنْ كان يظنها الآن. لا يبدو أنه يظنها لورا. إنه هادئ للغاية معها.

«لا... لا أعرف.»

فكرت أن هذا النوع من الاستجابة لا يُلْزِمها بشيء ولا يُقاوم الموقف. أخذت تراقبه في ارتياح وهو يدخل إلى المطبخ ويسحب كرسيّاً للجلوس عليه.

«لا بد أنها ذهبت تتسوق.» أعلنَ.

«وأعتقد أن أبي لا يزال نائمًا.»

لبثت جوانا بلا حراك، عاجزة عن الإجابة، ولا تجرؤ أن تأتي بحركة. أمسك إميل بألة صنع القهوة وصب لنفسه فنجانًا في هدوء تام. لم يعد يدرك أنه ابتعد عن الواقع، ليصبح في واقعه الخاص. واقع مكون من ذكريات وافتراسات. باتت لا تعرف ما هو الأكثر إخافة في النهاية. هل هو قلقُ البدايات، أم هذا النسيان التام؟! «هل أتينا إلى هنا أمس؟» استأنف أسئلته وهو يرفع الفنجان إلى فمه.

بقيت ساكنة، وبذلت قصارى جهدها للحفاظ على هدوئها.

«مارجو؟»

جفلت لسماع الاسم. إذا هي مارجوري اليوم. حاولت الرد متلعثمة:

«نعم... إنها... نعم.»

التقط إميل أغصان التوب التي تركتها جوانا على الطاولة في اليوم السابق وهو يعبس.

«ما هذه البشاعة؟»

لم يرَ وجه جوانا الذي امتقع.

«أراهن أن أمي تريد أن تصنع منها ديكورًا منزليًا.»

استدار نحوها بغتةً.

«هل هي التي أرادت استئجار هذا الشاليه لعيد الميلاد؟»

عساه يعود إلى نفسه. عساه يعود إلى نفسه بأقصى سرعة. كانت جوانا مضطربة

في كرسيها، ويزداد شعورها بعدم الارتياح. ابتلعت لعابها، وحاولت أن تقول بصوتٍ متقطع:

«احزُرْ...»

بالكاد عرفت الابتسامة التي ارتسمت على وجه إميل، وكأنها ابتسامة لإميل

من عصرٍ آخر، إميل لم تعرفه. لا بد أنها ابتسامة التواطؤ التي كان يقابل بها أخته في السابق. شرب قهوته دفعة واحدة ونهض.

«أين أنت ذاهب؟» سألته في قلق.

«لمراجعة الدروس!» أجاب كما لو أنه أمر بديهي.

«أوه...»

«لدي اختبار البكالوريا التجريبي في بداية العام الدراسي! أعلم أننا في العطلة، ولكنني تأخرت حقًا!»

أغمضت عينيها في بطء، ودعت الرب أن يكون هذا مجرد كابوس. عندما فتحتها، كان قد اختفى من المطبخ، مما جعلها تشعر بارتياح كبير.

«إميل؟ إميل؟ أين أنت؟»

راحت تمشي في بطء، بخطى صغيرة في الممر. تمكنت من ابتلاع قهوتها، ثم أخذت تترقب وهي جالسة في المطبخ. تساءلت عما إن كان سيظهر مرة أخرى ويسأل أين تضع أمه كراسات عامه الدراسي الأخير أم لا. لكنه لم يفعل. وحين لم تسمع شيئًا، قررت النهوض والبحث عنه في الملحق وهي متوجسة خشية أن تجده يهذي، فتضطر مرة أخرى إلى أداء كوميديا لا تعرف قواعدها. نادى:

«إميل!»

أجابها الصوت:

«أنا هنا!»

انفتح باب الحمام الصغير فجأة وظهر إميل مرتديًا رداء الحمام وفي يده منشفة. «استيقظت؟» سأل.

خلال ثانية واحدة ارتدت قناعًا متجردًا من المشاعر، واتخذت هيئة متجردة. أو مات.

«نعم، لقد استيقظت.»

«هل أعددت القهوة؟»

ومن الواضح أنه عاد إلى رشده. لم يدرك حتى أنه ذهب في رحلة قصيرة إلى الماضي، عندما كان في الثامنة عشرة من عمره. شعرت جوانا بالارتياح الشديد لرؤيته يعود إلى واقعه حتى أنها فضلت ألا تقول شيئًا، وأن تتصرف وكأن شيئًا غريبًا لم يحدث.

«نعم. غلاية القهوة على الطاولة.»
سُمع صوت محرك في الخارج وعبس إميل.
«ما هذا؟»

انتفضت جوانا واندفعت تجري إلى آخر الممر كي ترتدي معطفًا. لقد نسيت تقريبًا!

«لا بد أنه عامل التوصيل.»
«جميل! سأرتدي ثيابي وآتي.»
وصل بها الارتفاع إلى درجة أنها خرجت إلى الثلج بجوربها واستغرق الأمر عدة أمتار كي تلاحظ ذلك.

كان كل شيء أمامهما على الطاولة. ستة صناديق صغيرة ممتلئة بالمؤن والمشروبات، وأدوات للتزيين. خلال ثوانٍ عاد النشاط إلى الملحق. رتبا المؤن وفكا علب الألوان والأشرطة، وكرات الزينة. نظفت جوانا الطاولة وأفسحت مكانًا لورشة صنع الأكاليل، وراح إميل يراقبها في اهتمام، وهي تبحث بعجد ونشاط في صندوق ورق الزينة. الاضطراب الذي حدث صباحًا والخلل الغريب في الذاكرة، تم نسيانها، إلى حين في الأقل.

«أتظنين أننا سننهي تزيين الشجرة عصر اليوم؟» سأل إميل بفهم ممتلئ بالطعام. انهمكت جوانا في لفّ أشرطة شفافة حول أغصان التنوب كي تثبتها على شكل دائري، ثم قصت شريطًا مذهبًا وشكلت عُقدًا علقتها على جوانب الإكليل. كانت النتيجة جميلة.

«لا أدري.» أجابت بعد تفكير...
«لماذا؟»

«كنت أقول لنفسي إننا لم نقم بجلسة تأمل منذ وقتٍ طويل...»
رفعت رأسها نحوه متفاجئة.

«حقًا؟ كان لدي انطباع بأن الأمر يضرّك.»
هز إميل رأسه إلا أنه أنهى تناول جرعة الشوكولا قبل أن يجيب.

«أعتقد أن هذا يساعدي... عندما لا أعود أعرف ما الذي أفعله في المكان
الفلاني... أو لماذا أنا بكامل ثيابي حين أكون مقتنعا بأنني استيقظت لتوي... فلنني
أفعل كما أرشدتني. أركز على اللحظة الحاضرة وأخلي ذهني من الأفكار.»
ابتسمت بشيء من الحنان.

«هذا جيد...»

عادت تنظر إلى العقد الذهبية غير راغبة في تذكّر مشهد الصباح، الذي نسيه
تمامًا. أرادت الاعتقاد بأن ذلك لم يكن سوى خلل عابر في الذاكرة، وليس بداية
الانحدار.

«هل أنت موافقة؟»

رفعت رأسها بذلك الإحساس المخيف بانقباض في صدرها.

«ماذا قلت؟»

«بشأن التأمل.»

«نعم، طبعًا!»

نظرت إليه وهو ينهض ويلقي نظرة عبر النافذة.

«سأذهب لإطعام ميستيك، وأعود.»

أومأت برأسها. من النافذة المغطاة بالغيش، رآته يتقدم في الثلج ورأت ميستيك
يهرع إليه. انحنى مقرصًا وشكّل كرة ثلج بين يديه ورمها بعيدًا. أخذ ميستيك
ينبح ويبحث من حوله. وجّه إليه إميل كلامًا التقطت بعضه:

«ابحث!»

«أين الكرة؟»

استغرقت جوانا من جديد في صناعة العقد الصغيرة الذهبية وهي لا تزال
تشعر بانقباض في الصدر.

سان سولياك. كانت تسعى جاهدة للعودة بذكرياتها إلى سان سولياك...

«أبي!»

دوى صوت جوانا بقوة في المنزل الحجري، وهرع جوزيف إلى غرفتها وقد ملأه القلق.

«ما الذي يجري؟»

وجدها جالسة في سريرها وفوق ركبتيها كتاب مفتوح، وقد أطبقت يداها فوق بطنها الذي أخذ يكبر يومًا بعد يوم.

«ماذا يجري؟» سألها جوزيف خائفًا.

«هل هناك مشكلة في الجنين؟»

كانت جوانا جامدة وعيناها متسعيتين، كأنها تركز على شيء ما، كأنها تحاول أن تسمع شيئًا ما.

«جوانا؟» ناداها جوزيف في حنان.

بدا أنها تمالكت نفسها في بطنها لأن ابتسامة ارتسمت شيئًا فشيئًا على وجهها.

«إنه يتحرك...»

أطلق جوزيف تنهيدة ارتياح وجاء للجلوس بقربها.

«هل هذه هي أول مرة؟»

أومأت بالإيجاب.

كانت يداها مثبتتين على بطنها، وتبدو في نشوة كاملة. لم تكن ابتسامتها موجهة لأحد على وجه الخصوص. منحها جوزيف بضع ثوانٍ قبل أن يسألها في لطف:

«هل تريد أن أتصل بليون؟»

«من فضلك..»

لم يتأخر ليون في الحضور عند باب المنزل الصغير، محمومًا ومتلهفًا.

«أين هي؟» سأل جوزيف بهيئة رصينة.

«في غرفتها.»

هرع تقريبًا. جثا قرب السرير وأمسك بيدي جوانا وهو يهمس:

«جو...»

نظرت إليه دون إظهار أي مشاعر.

«جو، أنا آسف، آسف جدًا.»

هزت رأسها كي تمنعه من المتابعة.

«الطفل يتحرك.» أعلنت بنبرة وادعة.

انتقلت عينا ليون من بطن جوانا المستدير إلى وجهها. بدا أنه يتردد. ما الأكثر أهمية الآن؟ الطفل أم الحصول على المغفرة من جوانا؟

قام في النهاية بإطباق وجهه على بطن جوانا، مواصلاً الهمس:

«أنا سعيد لأنك اتصلت بي. أعدك أنني سأفعل كل شيء كي تسامحيني.

جو...»

توقف فجأة وقد اتسعت عيناه.

«جو، إنه... جو!»

استقام ووضع يديه فوق بطن جوانا. كان ينظر في دھول. قال مجددًا:

«جو، إنه...»

ابتسمت له أخيرًا، لأول مرة منذ مشاجرتها.

«أعرف.»

«إنه يتحرك!»

«أعرف.»

لم تستطع منع نفسها من الابتسام أمام دھول ليون. لم يعد يستطيع الثبات في مكانه. وضع يديه فوق بطنها وألصق أذنه ثم فمه، وصرخ:

«مرحبًا! أنت في الداخل، مرحبًا! أنا...»

استقام وتبادلًا ابتسامة تأثر. انتهت الجملة في صيحة لا تُصدّق:

«أنا بابا!»

ضحكت جوانا، سالت فوق خديها دموع تتظاهر بالحزن. قبل ليون بطنها، داعبت شعره ولم تعد تريد أن يتركها قط. أخذ الطفل يتلوى.

«ما الذي تفكرين فيه؟ أنت تبسمين بمفردك.»

جفلت عند سماع صوت إميل. أعادها صوته إلى مطبخ آس الصغير الذي حجب الثلج نافذته.

«عدتَ خلال وقتٍ قصير.»

نظرت إليه وهو يجلس واضعاً أمامه حوالي عشر برتقالات.

«ما الذي تفعله؟» سألت متفاجئة.

«سأقشر البرتقال، وأجفف القشور على حافة الموقد... لأجل وصفة مغلي

القشور، التي تصنعينها.»

ابتسمت مندهشة.

«حقاً؟»

«أليست هكذا هي الطريقة؟»

نهضت فأصدر كرسيها صوت صرير على أرضية المطبخ القديم.

«نعم. سأساعدك.»

فاحت في المطبخ رائحة البرتقال ونيران الخشب. تراكمت القشور على الطاولة

وأشار إميل إلى وعاء السلطة، التي وضعها فيها البرتقالات المقشرة.

«سيتعين تناول هذا كله الآن.»

أكل جزءاً من برتقالة، وذهبت جوانا لوضع قشور البرتقال بشكلٍ مسطح على

حافة الموقد.

«فيمَ كنت تفكرين للتو وأنت تبسمين؟» سأل إميل.

أخذ يراقبها وهي لا تزال تدير ظهرها له وتمدُّ كل قشرة برتقالة بكفيها،

لتجعلها مسطّحة. لم يعرف إذا كان على حق في الإصرار والسؤال مرة أخرى أم

لا. إلا أنها أجابت:

«كنت أتذكر سان سولياك.»

لم يعرف إن كانت تبدو حزينة أم سعيدة وهي تقول هذا، فهو لا يرى سوى

ظهرها.

«هل تفتقدين قريتك؟»

«أحياناً.»

لا يبدو أنها أرادت التوقف عند الموضوع. استدارت وفركت يديها بينظالها وقالت:

«يجب انتظارها حتى تجف، ثم نفتتها ونضعها في مصفاة شاي. سنضيف القرفة واليانسون النجمي. أعتقد أنني طلبتُ هاتين المادتين من البائع المتجول، أليس كذلك؟»

انحنى فوق الصناديق التي وضعت على الطاولة. لقد فهم أنها تريد تجاوز الموضوع. أخرج من الصندوق علبة سكر وزجاجة زيت وبقي محتارًا.

«كيف يبدو شكل اليانسون النجمي؟»

أظهرت تأففًا شكليًا.

«دعني أنظر. سأريك إياه.»

لم يَلَزَم أكثر من ذلك كي يختفي ثقل الصباح وتتسرب روح عيد الميلاد إلى الملحق الفارغ. كان بوك متكورًا على الكرسي الخشبي الصغير بجوار الموقد. وكانت تطاير في كل مكان رقايات براقه. تفحصت جوانا بعين خبيرة أكواز الصنوبر الصغيرة التي اكتسبت لونًا ذهبيًا جميلًا، وعلقتُ كوزًا أخيرًا على الشجرة. تسبب إميل بوخز أصابعه في أثناء وضع اللمسات الأخيرة على إكليل عيد الميلاد. قصّ نجومًا حمراء صغيرة من الغلاف الكرتوني للمعكرونة، وعلقها على الأغصان قدر استطاعته، وهو يمص إصبعه الذي ألمته الوخزة، وراح ينظر إلى تحفته.

«مارأيك؟»

لا تزال النجوم الحمراء تحمل الحروف الموجودة على عبوة المعكرونة. على إحدى النجوم يمكن قراءة نصف كلمة إيطالية... وعلى نجمة أخرى نقرأ (غ) من (500 غ). حافظت جوانا على هيئة جامدة وجادة تمامًا وهي تعلن:

«جميل جدًا.»

في وقتٍ لاحق، قررا شرب الشاي، وفي أثناء البحث عن منخل صغير، في درج الطاولة الخشبية المتهالكة، عثرت جوانا على أحجية بزل قديمة مكونة من خمسائة قطعة. هذا البزل، الذي يمثل منظرًا طبيعيًا خريفياً في الغابة، أبقاهما مشغولين

حتى وقت متأخر جدًا من الليل، إلى درجة نسيانها أن يأكل أي شيء آخر سوى البرتقال، وانتهى الأمر بأن غفت جوانا ورأسها على الطاولة، بين أجزاء البزل الضئيلة.

«هل لا يزال الثلج يهطل؟» قال إميل متذمرًا وهو يتمطى وقد أثقل النعاس جفنيه.

كانت جوانا قد استيقظت وجلست عند حافة النافذة في غرفة نومها الصغيرة. كان بوك يرقد على السرير بجانب إميل. ألصقت وجهها بالنافذة.

«نعم.»

«بغزارة؟»

«نعم. سيتهي الأمر بأن يتم دفننا تحته...»

«لحسن الحظ أننا طلبنا كل هذه الأشياء... لا أعرف إذا كان تاجر Tut Tut سيمر مع هذا الثلج أم لا.»

أومأت. في تلك الليلة حملها إلى سريرهما. لم يكن وزنها أثقل من ريشة. لم تجفل، ولا حتى تنهدت.

«ماذا تفعلين؟ أترسمين؟»

لقد لاحظ للتو أن هناك لوحة قماشية موضوعة على ركبتَي جوانا. رفع جذعه على السرير وتدفَّر بغطاء النوم. كان الجو باردًا جدًا، على الرغم من الموقد.

«نعم. أود أن أبدأ لوحة جديدة.»

«وماذا سترسمين؟»

كانت مترددة وتقضم طرف الفرشاة. لوح القماش لا يزال أبيض بشكل واضح.

«ربما أرسمك أنت؟»

تبادلا ابتسامة.

«أنا؟»

«نعم.»

«لم لا؟» قال.

«هل يجب أن آخذ وضعية خاصة؟ أنت لا تنوين أن ترسمي جسدًا عاريًا، أليس كذلك؟»

أمتعته رؤيتها تقلب عينيها إلى أعلى.

«لا أمانع برسم العري...»

نهضت ووضعت لوح القماش الفارغ على حافة النافذة. هذا الصباح ارتدت جوربين ضخمين من الصوف الأخضر، وشالها الأبدى الأسود.

«سنرى لاحقًا.»

«إلى أين أنت ذاهبة؟»

«لأعد الشاي.»

اختفت في الممر ثم نهض بوك ولحق بها.

«ماذا عن جلسة التأمل؟» صرخ.

لكن كل ما سمعه عبر الجدران هو خيبة أمل جوانا عندما لاحظت:

«أوه لا... أنهيت البزل دوني!»

لم يتوقف الثلج عن التساقط. أخذ مستيك يرتجف من البرد في الخارج حتى أن إميل وجوانا أدخلاه إلى الملحق، رغم تعليمات هيوليت الذي قال لهما إنه كلب راع، وعليه أن يتحمل البرد.

كان الكلب المسكين شديد السعادة بالتكؤر أمام الموقد. كانت الريح تصفر بين أشجار الصنوبر وتندفع عبر الباب الأمامي عند خروج إميل لإحضار بعض الحطب.

على مدى الأيام التالية، بدأ المطبخ يمتلئ برائحة كعكة الغريبة، وأبخرة البرتقال والقرفة وتوهج الشموع التي حاولت جوانا صنعها لإميل. هذه الأيام القليلة كانت مثل فترة شرود خارج الزمن. فترة من البهجة وسط الشتاء والثلج الذي يمضي في لفهما بردائه. في الصباح، يقومان بلا كلل بتفكيك البزل المكون من خمسمائة قطعة ويستمتعان بإعادة تركيبه. ثم يجريان جلسات تأمل بجميع أنواعها: تأمل أمام الموقد، تأمل أمام رقاقت الثلج، تمارين تنفس... بذل إميل جهودًا خارقة للتقدم. كان يحب هذه اللحظات. ليس فقط بسبب الهدوء الذي يكتسبه أكثر قليلًا كل يوم، بل بوجوه خاص لأن جوانا سعت جاهدة لتكون معلمة جيدة وكان يحب أن يراها وهي بهذه الجدية والتركيز.

كانا بالكاد يأكلان في منتصف النهار. ليس الشيء المغذي للغاية. قطعة حلوى من هنا، وبرتقالة من هناك. في فترة ما بعد الظهر، تمارس جوانا الرسم، ويختبر إميل إمكانياته في الطبخ. في أحد الأيام صنع كعكة الغريبة، وفي يوم آخر، خبز الزنجبيل. يتناولان وجبتهما الخفيفة مع الشاي. يصنعان أنواعًا من الحساء. يُعدان زينة عيد الميلاد الجديدة. وسرعان ما لن يعود هناك مساحة كافية على حافة المدفأة والنافذة الصغيرة لاستيعاب شموعها محمية الصنع، وكراتهما الورقية، وأشجارهما المصغرة المصنوعة من الأغصان الصغيرة. وغالبًا ما يغلبهما النعاس في أثناء صنع إحدى روائعهما أو في أثناء لعبة المونوبولي.

أصبح فقدان ذاكرة إميل أكثر تواترًا وغالبًا ما كان يقع في الصباح. ولا يدوم طويلاً. يسأل جوانا عن مكان وجودهما وعن كيفية وصولهما إليه. وبسبب خلطه بينها وبين مارجوري، لم تستطع جوانا قط أن تعرف ما إذا كان يتعرف إليها أم لا. فقد كان شعرها هي أيضًا بنيًا، وإن كان داكنًا أكثر، كما أنها تتسم بلون عينها الكستنائي. لكن التشابه ينتهي عند هذا الحد، بحسب الصور التي تمكنت جوانا من رؤيتها. وفي تلك الأوقات يكون لطيفًا معها، ويسألها عن باستيان، وما إذا تركت التوأمين معه أم لا. لم تعرف جوانا من هو باستيان. وافترضت أنه زوج مارجوري. كانت تجيب دائمًا إجابة غامضة:

«سوف يعود. إنه غير بعيد.»

في بعض الأحيان يتعمق أكثر في الماضي ويتحدث أيضًا عن امتحان البكالوريا الذي يجب أن يراجع، وعن رينو الذي يُفترض أن يأتي لاصطحابه للعب بكرة القدم. لا بد أنه يحب مارجوري كثيرًا لأنه يكون لطيفًا في تلك اللحظات، لا كما هو الحال مع لورا.

اعتادت جوانا ذلك في بطء. بات الأمر أقل صعوبة من المرة الأولى، وبدأت تحاول ألا تخالفه، محافظةً على غموضها. كان يعود سريعًا إلى رشده. وبعد ذلك يبدو أنه لا يتذكر ما حدث للتو. كان يكفي عدم إظهار شيء وتعود الأمور إلى طبيعتها.

رغم ذلك، حدث شيء أكثر خطورة في صباح أحد الأيام. بينما كانت جوانا تغسل الأطباق، وتنتظر شاردةً من خلال النافذة الصغيرة، انتهى بها الأمر برؤية شكل بني على الثلج. استغرق الأمر بضع ثوانٍ قبل أن تدرك أنها ثياب... وبالتحديد أكثر، جسد في ثياب. جسد ملقى على الأرض. سقطت الأكواب في قاع الحوض في صخب جعل بوك يجفل بالقرب من الموقد. اصطفق باب الدخول. وفي اللحظة التالية، كانت جوانا في الخارج بجوارها الأخضر السميك.

«إميل!»

راحت تجري قدر استطاعتها عبر سهاكة الثلج. وجاء مستيك لملاقاتها هارًا ذيله.

«إميل!»

وجدته ملقى على وجهه على الأرض، وكأنه سقط إلى الأمام. شعرت كأنه يزن طناً. صرخت:

«إميل! إميل! استيقظ!»

لكنه لم يرمش. كان قد فقد وعيه. أمسكت كتفيه، وراحت تهزه، وتحاول أن قلبه، لاعتة نفسها بسبب عدم امتلاكها للقوة.

راح ميستيك يجري حولها وينبح وكأنه يحاول إخطار شخص ما. أحد الجيران، أي شخص.

«إميل!»

فكرت بسرعة كبيرة، وحاولت ألا تستسلم للذعر. ركضت عائدة إلى الملحق، ثم عادت بعد ثوانٍ ومعها ملاءة. واستناتت، وهي جاثية في الثلج، كي تدرج جسد إميل الجامد، فوق تلك الملاءة البيضاء. عندما نجحت في ذلك، لاحظت أن وجهه أحمر أرجواني، منتفخ في بعض الأماكن. لم تكن تعرف كم من الوقت بقي فاقداً للوعي ووجهه في الثلج. لكنها شعرت بارتياح شديد عندما رأت أن نفساً دافئاً لا يزال يخرج من أنفه. عادت للوقوف على قدميها، وأبعدت ميستيك الذي ينبح في عنف بين ساقيهما. وبذلت جهدها لسحب الملاءة في الثلج وعليها جسد إميل. إنه ثقيل لكنها استناتت لمدة خمس دقائق كاملة، لتنهال في المدخل، عند الباب، خاتمة القوى.

منحت نفسها بضع ثوانٍ للتعافي من الصدمة، ومن الجهد الذي بذلته للتو. تركت دفء الملحق يغمرها في ببطء. كان إميل هناك، يتنفس، ممدداً على ملاءته البيضاء، على أرضية المدخل، وارتسمت في رأسها رؤية عابرة، قد تحدث خلال وقت قصير، رؤية تقشعر لها الأبدان، لهذا الجسد نفسه، وقد مُدد على الكفن الأبيض نفسه، إلا أنه لن يتنفس بعد الآن.

أغمضت عينيها لإبعاد هذه الصورة، وكل الصور التي قد تظهر. لكن فات الأوان، بعد أن تشكلت الصورة. غابة في منتصف الصيف. بحيرة برية، لونها أزرق - أسود عميق وخفيف. بحيرة محاطة بالعوسج والعشب الطويل. ماؤها ساكن. سطحها أملس تماماً تطفو فوقه أغصان، وبقع طينية، وبعض أوراق

الشجر. وسط هذه البحيرة يطفو جسد، جسد صغير جدًا لا يُرى سوى رأسه بشعره الأشقر، وقميصه الأبيض. هناك شخصٌ ما، يمسكها على الشاطئ. أحدهم يصرخ في أذنها:

«اهدأي يا جوانا!» ويطوقها بشكلٍ محكم أكثر فأكثر.

لكنها لم تكن تسمع نفسها وهي تصرخ. كانت فقط تشعر بعاصفةٍ داخل صدرها، شيء يدمر كل شيء، ويدمر عالمها. نزل رجال في الماء، والتقط الرجال صغيرها. راحت تصرخ بكل قوتها:

«اتركوه! اتركوا صغيري وشأنه!»

كان الصوت يقول في أذنها أشياء، ولا تفهم كل شيء.

«إنهم يعيدونه إلينا. سيعيدونه إليك. اهدأي يا جوانا.»

منعوها من الحركة. قام أحد الرجال بحمل توم بين ذراعيه. توم كله مبلل. وعيناه مغمضتان كما لو أنه نائم. انهار نصفها على الأرض لكنها لم تشعر بركبتها تتحطمان على الحجارة الكبيرة. عرفت فقط أنها مدت ذراعيها إلى الأمام، وأن توم موضوع على الأرض أمامها. لكن الرجال من حولها منعوها من أخذ توم بين ذراعيها والرحيل معه، بعيدًا جدًا عن هنا، بعيدًا عن هذه البحيرة اللعينة وعن ليون. كان جلد توم شديد البرودة وأنفه متصلبًا. راحت تخدش وتضرب كل أولئك الرجال من حولها، كل أولئك الذين كانوا يمنعونها من استعادة طفلها الصغير، وأخذة بعيدًا عن هنا.

«لقد أخرجوه من الماء. حاولي أن تهدئي يا جوانا.»

بدأت تموت في بطءٍ شديد على الضفة. بدأت تموت وهي تشاهد الرجال الذين يرتدون ملابس سوداء يغادرون ومعهم طفلها، ويجلسونه في تلك الشاحنة. بدأت تموت، ووجهها للأسفل، ممزقة بالآلم، على أمل ألا تستيقظ من جديد.

كانت تشعر أنهم ما زالوا يطوقونها، وأنهم ما زالوا ينادونها، وأنهم ما زالوا يرددون:

«جوانا، جوانا اهدأي.»

لم تعد في الغابة. الأرض باردة وصلبة. كانت في عمر الملحق، وكان إميل هو الذي يأخذها بين ذراعيه. هو الذي يتكلم. كانت متكورة عند الباب، يدها على أذنيها، والدموع تبلبل وجهها. كانت تهتز من الأمام إلى الخلف، وتتنفس بصعوبة. «توقفي يا جوانا. سيكون الأمر على ما يرام.»

حاول إبعاد يديها عن أذنيها وفهمت السبب، فقد خدشت خديها، ومزقت جلدها. أخذ إميل يتوسل:

«توقفي يا جوانا، أنا هنا. أرجوك.»

تركته يطوقها وحاولت التقاط أنفاسها.

«ما الذي حدث؟»

أجابت بتشنجات قصيرة:

«لقد أخذوا نوم.»

بقيا جالسين في المدخل البارد للملحق، لا يقوى أحدهما على الوقوف أو السير إلى الغرفة. غطى إميل جسد جوانا بالملاء البيضاء التي استيقظ عليها، لأنها كانت ترتجف بالكامل، مثل ذلك المساء، عندما وجدها على الشاطئ.

«حدثيني عن نوم.»

رفعت رأسها كي تنظر إليه بعينين خائفتين. كان خذاها ملطخين. باعدت قليلاً بين شففتيها كي تسأل:

«ماذا؟»

لم يكن لديه أدنى فكرة عما يفعله. كل ما أراده أن تتوقف عن الاهتزاز والنشيج الخائق. لذا كرر:

«أخبريني عن نوم.»

ثم أضاف وهو يبذل جهداً كي يبتسم، ابتسامة مرتعشة:

«قلت إنه طفل صغير مدهش... أذكى طفل عرفته على الإطلاق.»

راقب وجهها في قلق. توقفت عن الاهتزاز إلى الأمام والخلف، وبدأ أنها تتردد. في النهاية قالت هامسة:

«حسنًا.»

هكذا وجد نفسه في سان سولياك، في بيتٍ حجريٍّ صغيرٍ محاطٍ بحديقة خضروات، في مساءٍ جميلٍ من أوائل الصيف.

كانت جوانا مستلقية على الأريكة، ويطنّها مستدير يلامس السقف، وتهب رياحٌ ذعيرٌ في الصالون الصغير. كان ليون منهمكًا، يلتقط قطعة ملابسٍ عن الأرض، ومجموعة مفاتيحٍ عن الطاولة، ويضع كل شيءٍ في حقيبة سفر كبيرة. ظهر جوزيف من الخارج، وقبعته مشدودة إلى رأسه:

«هيا بنا المحرك يدور. يمكنك أن تأتي بها.»

كانت جوانا شاحبة، ووجهها مغطى بالعرق، وجبينها يتشنج من حينٍ إلى آخر. أصبحت الانقباضات الأولى أكثر انتظامًا. حان الوقت للذهاب إلى المستشفى.

فوجئ إميل بأنها اختارت أن تحكي له قصة توم بلو منذ لقائهما الأول في غرفة الولادة. لكنه تركها تتحدث، لأنها هدأت الآن أكثر، وبدأت تتنفس بشكلٍ أفضل.

كان ليون شديد التوتر حتى أنه لم يتمكن من القيادة، وجلس جوزيف بدلًا منه خلف المقود، وكان هادئًا، مثل جوانا، يتسم في وداعة ويصفر في أثناء القيادة. «إنه يوم عظيم للترحيب بتوم الصغير.» أعلن وهو ينظر إلى جوانا في مرآة الرؤية الخلفية.

كانا قد اختارا اسمه. في الواقع، كانت جوانا هي التي اختارته. توم، تيمناً بـ توم الإبهام إحدى قصص الأطفال المفضلة لديها، والتي تحكي عن زوجين مسنين لم يتمكنوا من إنجاب الأطفال، ويرغبان في إنجاب طفلٍ ولو كان (بطول إبهام). وُلد توم بأعجوبة وأُعطي اسم (توم الإبهام) لأن طوله لم يزد عن طول إبهام. وعلى الرغم من صغر حجمه، كان يقوم بجميع أنواع المآثر، وأكثرها إثارة هي نجاته من الموت بعد أن ابتلعتة بقرة.

قفزت القصة زمنيًا إلى الأمام، حيث نجد جوانا وليون وتوم في الشرفة الأرضية المطلة على حديقة الخضروات الملونة. كان توم طفلًا هادئًا للغاية يندر أن يبكي، وهو ما أقلق ليون بشدة وتساءل عما إذا كان هذا أمرًا طبيعيًا أم لا. كانت جوانا مطمئنة، وأجابت بأنها واثقة بأن توم الإبهام لم يكن يبكي أيضًا.

لقد وضعنا مهّدًا صغيرًا في الشرفة لكن توم لم ينم فيه قط، فقد أصرت جوانا أن تبقى معه في الأيام الأولى. إنه طفل هادئ، ذو شعرٍ أشقر، وعينين زرقاوين داكنتين تميلان بالفعل إلى اللون الكستنائي. كان ملفوفًا بشكلٍ دائم في المنزر البرتقالي اللامع الذي ارتدته جوانا في أثناء حملها. كان ليون يتعامل معه بخرق لكن جوانا كانت صبورة وعلمته كيف يحمله بين ذراعيه، ويغير حفاظته، ويهدده. بقي جوزيف إلى الخلف. كان يدرك أن ثلاثتهم في حاجةٍ إلى التلاؤم مع الوضع الجديد.

كانا لا يزالان في الشرفة عندما طرق الباب بقسوةٍ بعض الشيء. امتنع وجه ليون، وشرح لـ جوانا في همسٍ خافت وعلى عجل:

«لا بد أنها أمي. طلبت ثلاث مرات أن ترى توم. لقد تظاهرتُ بالموت...»

لم تقل جوانا شيئًا. لكنها تذكرت رد فعل مدام أندريه عندما اكتشفت حملها. كيف يفعل هذا بنا؟

الآن بعد أن جاء توم، طالبت السيدة أندريه بحقها في زيارة حفيدها. وصل السيد أندريه وزوجته إلى الشرفة الأرضية، يرشدهما جوزيف بوجهٍ صلبٍ وصارم. كان ليون شديد الشحوب والتوتر.

«مرحبًا يا جوانا.» قالت السيدة أندريه ببرودتها المعتادة.

شدت جوانا ذراعيها حول توم الصغير، ثم تراجعت إلى الوراء بشكلٍ طفيف.

«جئنا لرؤية حفيدنا.»

كان الصمت ثقيلًا في الشرفة. لبث جوزيف واقفًا بلا حراك عند العتبة. ووقف ليون بالقرب من جوانا والصغير، كأنه يشكل حاجزًا بينهما وبين والديه.

«هل أستطيع لمسه؟» سألت السيدة أندريه، وهي تمد يدها نحو الطفل.

أومأت جوانا برأسها ولكنها أبقت توم مشدودًا بقوة بين ذراعيها. انحنى السيد والسيدة أندريه فوق الطفل، وأمسكا بيديه الصغيرتين بين أصابعهما الكبيرة، وداعبا خده. ارتسمت على وجهيهما، اللذين عادةً ما يعبران عن القسوة والعجرفة الفارغة، فرحة غير مصطنعة، ونبضا بالحياة.

«إنها صورة ليون، أليس كذلك؟»

«تمامًا.»

«أشعر أنه هو في طفولته.»

كانا يتجاهلان، بوقاحة، جوانا التي ترفض إفلات توم.

«له عيناه.»

«وأنفه أيضًا، أليس كذلك؟»

كان ليون متوترًا ولم يقل كلمة واحدة.

«هذا الطفل هادئ جدًا. ألا يبكي أبدًا؟»

كانا يخاطبان ابنهما الذي هز كتفيه وقال:

«ليس كثيرًا، لا...»

حافظت جوانا على هدوء أعصابها.

«ما هذا القماش القذر؟» سألت مدام أندريه وهي تكشر مشمئزة.

«سوف ينقل له الميكروبات. يجب غسله.»

«إنه دثار.» أجاب ليون على نحوٍ أخرق.

«ماذا؟»

«تعتقد جوانا أنه يطمئن الصغير كونه يحمل رائحتها.»

لم يعلق أحد بشيء. أظهر جوزيف انزعاجه من خلال إصدار صوت نقرٍ بلسانه. تراجعت جوانا خطوة إلى الوراء وقالت:

«إنه يحتاج إلى النوم.»

ازداد الشعور بالضيق في الشرفة. سحبت مدام أندريه حقيبة يدها إلى كتفها بحركة انزعاج.

«حسنًا، نحن ذاهبان.»

أخذت جوانا تراقبهما في ارتياح لا يوصف وهما ينصرفان. بقي جوزيف في الشرفة. رافقهما ليون إلى الباب، وهو يشعر بعدم ارتياح أكبر من أي وقت مضى. لم يحاول خفض صوتهما عندما أعلننا على منصة الدرج:

«إنه حفيدنا. وهي لن تمنعنا من رؤيته.»

لم يجد ليون ردًا سوى:

«إلى المرة القادمة.»

قطب إميل حاجبيه دون أن يفهم.

«ماذا حدث مع الزوجين أندريه كي تتوتر علاقتك بهما إلى هذا الحد؟»

سألت جوانا بصوتٍ ضعيف عما إذا كان بإمكانها الجلوس في المطبخ، وإذا كان بإمكانه أن يعد لها بعض الشاي. ثم سوف تجربه.

أخذ الماء يغلي مكونًا فقاعات كبيرة في القدر الحديدي ذي القعر الصدئ في المطبخ الصغير. جلست جوانا على كرسي خشبي. وذهب إميل وأحضر لها إحدى كنزاتها. هو أيضًا تدثر بسترته لأنه كان يشعر بالبرد. عندما استيقظ منذ قليل فوق هذه الملاءة البيضاء، كان يتجمد من البرد. لم يسأل جوانا عما حدث لكنه خمن. لقد خرج لإحضار الحطب، وأغمي عليه.

أحضر القدر الساخن إلى الطاولة، في ببطء، ثم صب الماء في الكويين. عندما أخذ مكانه مقابل جوانا، عادت للكلام واستحضرت محل التبغ، والهمسات التي كان جوزيف يتظاهر بتجاهلها في أثناء مرورهما، تكلمت عن الوجبة الأولى في منزل الزوجين أندريه، وأسئلتها التافهة، ثم عن المشهد الجدير بالميلودراما، في السوق، أمام كشك الزهور.

«وبعد ذلك؟» سأل إميل في لطفٍ وناولها فنجانها.

«هل كرر الزوجان أندريه الأمر؟»

انتقلا مجدداً بالخيال إلى سان سولياك، في بداية شهر سبتمبر. كانت جوانا وليون في الشرفة الأرضية، وكانا يبدوان متزعجين قليلاً. كانت جوانا تجلس على كرسيّ هزاز من الخيزران، وتوم بين ذراعيها، فيما يقف ليون متصلباً.

«لا تكوني هكذا...» كرر مرة أخرى.

«لم يرغباً قط في دعوتي إلى منزلها.»

«تغيرت الأمور...»

«طوال فترة حملي، تعاملنا مع توم وكأنه كارثة حقيقية.»

«تغيرت الأمور.» كرر ليون.

«الآن قررا أنهما كانا يريدان حفيداً، فتنازلا ووجهنا لي دعوة إلى العشاء؟»

كانت جوانا هادئة، تتكلم في اعتدالٍ ولكن في حزم، وهي تواصل هدهدة الطفل بين ذراعيها.

«أنا من أدعوك.»

«لن ألبى.»

كبح ليون تنهيدة سخط، وتحرك من موقعه، يقاطع ذراعيه ثم يفلتها قبل أن يعلن أخيراً:

«إذا سأخذ معي توم إلى هذا العشاء.»

نظرت إليه جوانا محدقةً، كما لو أنه نطق لتوه بإهانة.

«لا.»

واجه كلُّ منهما الآخر. وكانت نظرة جوانا تزداد قساوة.

«من حقهما رؤيته.» أصر ليون.

نهضت جوانا والطفل لا يزال بين ذراعيها.

«لن يرياه دوني.»

«إلى أين أنت ذاهبة؟»

«بعيداً عنك.»

«جوانا!»

لحق بها إلى غرفة النوم، حيث وضعت توم على السرير لتغيير حفاظته. راقبها ليون وهي تفعل ذلك. كانت حركاتها دقيقة وهادئة. إنها مثابرة. لقد عرفت كيف تفعل ذلك منذ اللحظة الأولى مع توم. على عكسه تمامًا. يجب قول إن هذا الطفل مميز، لا ييكي أبدًا. يمكن تركه لساعات في عربته دون أن يتذمر، وبالكاد يتحرك. حاول ليون لفت انتباهه، وجعله يبتسم، وإثارة ما يشبه الاهتمام لدى الطفل، لكن دون جدوى. كان يبقى دائمًا بلا تأثر، مع نظرة غامضة بعض الشيء. كانت جوانا هكذا في بعض الأحيان. هل أصبح توم يشبهها منذ الآن؟
وفي هذه الأثناء، كانت تزعجه قلة التفاعل مع طفله.

«سيتعين عليك السماح لهما برؤية توم...»

أغلقت جوانا حفاظة الطفل وارتمت على السرير متنهدة. أغمضت جفنيها، كما لو كان عليها أن تستجمع كل قواها للتأقلم. وعندما أعادت فتحها، ظهر في أعماق عينيها حزن لا حد له.
«أعلم.» همست.

ساد الصمت في الغرفة. حدق الطفل توم إلى السقف في صمت. قرر ليون أن يتكلم:

«كيف ستتصرف إذا؟»

بدأت تتحرك في بطء مرة أخرى. تغلق قميص الطفل الداخلي وتلبسه بنطاله الرمادي الصغير من جديد.
«سأتي إذا.»

بقيت جوانا في الخلف صامته في زاوية صالون الزوجين أندريه. كانت الثريا الكريستالية تضيء الغرفة إضاءة ضعيفة. لم يتم إخلاء الطاولة، ولا تزال الكؤوس ممتلئة بالنبيذ الأحمر، وأفراد عائلة أندريه الثلاثة ينحنون فوق توم الصغير في عربته. أخرجه مدام أندريه بضحكة مكتومة رهيبة من السعادة.

«تعال يا صغيري. تعال إلى الجدة.»

وضعت في حجرها وراحت تنظر في سرور إلى زوجها وابنها.

«انظرا كم هو سعيد بوجوده بين ذراعي.»

وافقها الزوج والابن، وجلسا بجانب السيدة أندريه، دون إبعاد أنظارهما عن الطفل. بدأوا أولاً يعددون من جديد أوجه التشابه بين ليون وابنه.

«إنه أنفه!»

«عيناه بشكلٍ خاص...»

«بالطبع عيناه...»

ثم ينادونه.

«توم؟»

«تومي؟»

«ابتَسِمِ لَنَا. أَرِنا ابتسامتك الجميلة.»

استمر في مناداة الطفل الذي بقي بلا تعبير وعيناه مثبتتان تجاه الشريا في السقف. كانت مدام أندريه توجه الكلام إلى ليون، وتتصرف كما لو أن جوانا ليست هناك:

«هل سبق أن ابتسم؟»

هز ليون كتفيه.

«لا... ليس حقاً...»

استدار نحو جوانا، وتعايره تشي بعدم الارتياح.

«هل يبتسم؟»

لم يسبق له أن رآه يبتسم، وأكدت له جوانا وهي تهز رأسها.

«لا. ليس بعد.»

اختارت مدام أندريه أن تتجاهلها من جديد، بالتركيز على مخاطبة ليون:

«ألا يبتسم حتى للملائكة؟»

بدا ليون مثل الأحمق.

«للملائكة! كيف ذلك؟»

نظرت إليه مدام أندريه في حنان.

«ولكن يا عزيزي، هذا ما يفعله جميع الأطفال. يبتسمون ابتسامات تلقائية، في

نومهم أو في الفراغ. ونسميها التبسم للملائكة.»

أحمر ليون خجلاً.

«لا، أنا... لم أره يفعل ذلك.»

التفتت مدام أندريه أخيرًا نحو جوانا. من الواضح أن وجود زوجة ابنها أصبح فجأة مفيدًا.

«وأنت يا جوانا؟ هل رأيته يبتسم إلى الملائكة من قبل؟»

هزت رأسها. وأضافت بلهجة دفاعية:

«لكنه يجب التحديق إلى السماء. يمكن أن يكون شديد التركيز في هذه اللحظات.»

لم تُخفِ مدام أندريه مظهرها القلق.

«عمره الآن ثلاثة أشهر. يُفترض أن يبتسم.»

أبقت جوانا عينيها على يديها وهي تتوق إلى استعادة طفلها الصغير، لانتزاعه من يدي هذه الساحرة التي تدعي أنه متخلف، والعودة به إلى المنزل. إلا أنها ظلت جالسة في صمتٍ مهذب.

عندما بلغ توم الصغير ستة أشهر من العمر، تعيّن على جوانا أن تعود إلى وظيفتها كحارسة، وفي أثناء النهار اعتنى به جوزيف الذي تدهورت حالته الصحية، وأصبح يلهث أكثر فأكثر خلال سيره في حديقة خضرواته، ويواجه صعوبة في الوقوف أمام منضدة العمل عندما يريد الطهي. شعرت جوانا بالقلق.

«لا تهرق نفسك يا أبي. إذا كان الأمر معقدًا جدًا مع توم، فيمكنني الترتيب للعمل بدوام جزئي.»

لقد وعد بأنه سوف يراعي نفسه. ومع ذلك حين تعود جوانا إلى المنزل، يكون جوزيف لا يزال في غرفة المعيشة، محاطًا بمكعبات خشبية قطعها بنفسه لتوم الصغير، أو بعشرات الطيور الورقية التي شكّلها كي يبهره. كان يطلقها في فضاء الغرفة، محاولًا إدهاش توم الصغير. لكن محاولاته لا تنجح، ويبقى توم رزينًا لا يتأثر. لكنه بالمقابل، كان يبدو أنه يستمتع بسماع القصص التي يقرأها له جوزيف طوال اليوم.

في إحدى الأمسيات، اندلع شجار جديد بين ليون وجوانا، في ظلام غرفة نومهما.

«يجب أخذه إلى طبيب.»

كانت تهيدة جوانا الغاضبة تشير بوضوح إلى أن هذه لم تكن المرة الأولى التي يخوضان فيها هذه المحادثة.

«اتركه وشأنه. إنه يتطور وفق إيقاعه الخاص.»

«إنه لا يصدر أي صوت. الأطفال الآخرون في مثل عمره يصدرون استجابة للمناغاة في الأقل.»

«يجب أن تتوقف عن الاستماع إلى والدتك.»

«ليست والدتي فقط.»

«أوه حقاً؟»

كانت جوانا متوترة، وقد بسطت يديها فوق غطاءها.

«تحدثت في الأمر مع زملائي المعلمين. لقد وجدوا أنه من الغريب ألا تصدر استجابة للمناغاة...»

لم يأت أي رد. وبقيت جوانا عنيدة، متمرسة في صمتها.

«إنه لا ينظر إليّ يا جوانا. هذا الطفل لا ينظر إليّ أبداً. هل تجدين الأمر عادياً؟»

لم يشأ ليون أن يبدو مستاءً بشدة.

«إنه... إنه ينظر إلى الأشياء.»

«ينظر إلى الأشياء وليس إلينا!»

رفضت سماع كلمات ليون، رغم علمها بأنه على حق. كان لـ توم نظرة غريبة، ضبابية قليلاً، نائية قليلاً. هي أيضاً لم تتمكن من لفت انتباهه لفترة طويلة. ولكن هذا لا يعنيهها. توم هو صغيرها، وربما يكون مختلفاً عن الأطفال في مثل عمره، ولكن هذا ليس سبباً لإخضاعه لسلسلة من الزيارات الطبية.

«جو.» أصر ليون.

«ألم يخطر لك ذلك قط؟» ارتعدت بجانبه تحت الغطاء.

«لم يخطر لي ماذا؟»

«ماذا لو كان مختلفاً؟ ماذا لو كان لديه... إعاقة؟»

بدا ليون مرعوباً. بينما بقيت جوانا هادئة وعنيدة.

«إنه مختلف. لكنني لم أجد قط أن الاختلاف يعد إعاقة.»

«أنت تعرفين تمامًا ما أعنيه...»

أطلقت جوانا تنهيدة ألم.

«كان عليّ أن أعرف.»

تصلب ليون في السرير.

«أن تعرفي ماذا؟»

«أن ابني لن يرتقي أبدًا إلى مستوى عائلة أندريه.»

احتج بشدة:

«هذا مثير للشفقة يا جوانا!»

لم تعد ترد. تلمس ليون يدها في الظلام، وعندما وجدها، لم تنهرب منه.

«جو...»

أجابه الصمت.

«لا أريد إلا مصلحته. تعرفين ذلك.»

أخيرًا ارتفع صوت جوانا الضعيف المكتوم:

«إذًا دعه يعيش، دعه يزدهر بالسرعة التي تناسبه. دعه يصبح الصبي الصغير

الذي يريده.»

استسلم ليون وهز رأسه في الظلام.

«حسنًا.»

بينما كان جوزيف طريق الفراش في ذلك الصيف، بناءً على أوامر الطبيب وتحت إشراف جوانا الدقيق، تعلم توم الصغير المشي. لقد كانت جوانا على حق، فهو يتطور وفق إيقاعه الخاص، يمرح بين نباتات الطماطم والبطيخ، يرتقي على كومة من التراب ويراقب السماء، أو ربما تحليق الطيور. لا أحد يعلم حقًا ما الذي تسبره عيناه الغامضتان بلونهما البني الفاتح. يقطف الزهور مما يجعل جوزيف يوبخه في لطف.

«أيها العفريت!» يصرخ وهو ينهض من كرسيه الهزاز في الشرفة.

تسرع جوانا مبتسمة، لأخذ توم من يده ومسحبه بعيدًا، موضحة:

«يا صغيري توم، جوزيف يحب جدًا هذه الزهور، نحن لا نريد أن نسبب له الحزن، أليس كذلك؟»

كانت الوحيدة التي تستطيع فعل هذا. لقد طور توم رد فعل غريب عند اقتراب أحدٍ منه كثيرًا أو محاولة لمسه، فيقوم بحركة مفاجئة بذراعه، لصد الأذرع المعتدية ومنعها من الوصول إليه، كمن يوجه صفعه صغيرة في الفراغ، مقطبًا حاجبيه بشدة. لم يكن يحب أن يلمسه أحد. اعتاد جوزيف الأمر، ولم يعد يحاول الاقتراب منه، وأصبح يكلمه من مسافة متر، وهو يركع ليكون في مستواه. بالمقابل كان ليون يعاني بشدة، وجوانا تعرف ذلك.

«هذا الصغير لا يحبني.»

نفثت جوانا ذلك.

«إنه يرفض أن ألمسه، وهذا أمر غير عادي، أليس كذلك؟»

«إنه في حاجة إلى مساحة من الحرية.»

«ولديه ذلك الشيء في نظره أيضًا.»

«أي شيء؟»

«النظرة الشاردة.»

أكدت له جوانا أن توم يحبه كثيرًا، على طريقته.

«إنه صبي صغير مميز، بشخصية خاصة.»

حاولت التهرب من الذهاب إلى مناسبات العشاء في بيت الزوجين أندريه لأن العلاقة معها ازدادت سوءًا، فقد أصبحا يثيران قلقها إضافة إلى كونهما انتقادين.

«ليس من الطبيعي عدم تفاعله عندما نناديه باسمه!»

كانت شبه سعيدة لأن توم الصغير لا يستجيب لنداءات مدام أندريه الحادة. هذا هو انتقامها.

بعد ظهر هذا اليوم من شهر يوليو، جلس جوزيف في زاوية باردة وظليلة من الشرفة، على الكرسي الهزاز، بجوار سرير توم. كانت جوانا في حديقة الخضروات، تتعقب طفلها الصغير الذي يلهو في سعادة، متجاهلاً البالون الجميل الذي أهدها

إياه جوزيف، وكذلك عربة الدفع الجديدة التي اشتراها له ليون. كل ما كان يعنيه هو هذا الدلو الأخضر الصغير، الذي يحمله معه في كل مكان، ويملاه بالتراب من وقتٍ لآخر. كان ليون في حديقة الخضروات أيضًا، يتابع توم وجوانا بنظرته، مستظلًا بيده عند مستوى حاجبيه. كانت جوانا تعلم أنه يفكر في ورشة الشعر التي يتمنى إعادة إطلاقها مع بدء الدراسة في سبتمبر.

استوقف الأربعة صريرُ بوابة المدرسة، ووقع خطى فوق حجارة المرمر. كانت جوانا قد تركت البوابة مفتوحة في وقتٍ سابق كي يتمكن ليون من إفراغ السيارة بسهولة أكبر عندما اشترى مظلة كبيرة وطاولة حديقة جديدة. انقبض قلب جوانا عند رؤية الزوجين أندريه بثيابهما الصيفية بجانب حديقة الخضروات. كان السيد أندريه يرتدي قميصًا مزهرًا قبيحًا، وترتدي السيدة أندريه قبعة وردية كبيرة. «مرحبًا.» قال السيد أندريه.

«كنا نتجول في الجوار.» أضافت زوجته.

كانت جوانا تعلم جيدًا سبب حضورهما: لقد استطاعت التهرب لمدة شهر من عشاء أيام الاثنين، ويريد الزوجان أندريه رؤية حفيدهما ولا يترددان في الإعلان عن ذلك. تيسس جوزيف في كرسيه، ونهض في نصف وقفة.

دفع الزوجان أندريه البوابة الصغيرة ودخلا إلى حديقة الخضروات. قبلًا ليون ثم وجهًا تحية مهذبة إلى جوانا وجوزيف.

«أين توم؟» سألت مدام أندريه، وهي تنظر في الحديقة باحثة عنه.

كان الطفل الصغير مقرِّفًا بين نباتات الطماطم، يحمل التراب بيديه، غير متأثرٍ بوصول الزائرين، أو مبالٍ بالضوضاء. «توم!» نادته مدام أندريه.

حاولت جوانا تحذيرها عندما رأتها تندفع مسرعة نحو الطفل الصغير:

«انتبهي، فهو...»

ولكن بعد فوات الأوان، فقد كانت مدام أندريه ترفع توم بالفعل عن الأرض، وتطوقه بذراعيها.

«كيف حال صغيري...»

لم تنه جملتها لأن مجموعة ضربات قد انهالت على وجهها. كافح توم وتملل وراح يضرب كل ما استطاع ضربه للإفلات من هذا الاحتكاك الجسدي الذي يكرهه بشدة. أطلقت مدام أندريه صرخة فزع وأفلتته بشكلٍ فظ، ليهبط الصغير دفعة واحدة على مؤخرته. لم يصرخ. إنه لا يصرخ أبدًا. لم يخرج أي صوتٍ من فمه الصغير الشبيه بالقلب. هرعت جوانا. بدأت السيدة أندريه، وقد استولى عليها الغضب، بتوبيخ توم.

«يا لك من شقي! من علمك الضرب؟ هذه قلة أدب، يا توم!»
أمسكت ذراعه لتجبره على النهوض والنظر في عينيها، مما زاد من جنون الصغير. راح يكافح بشدة، وهو يوزع الضربات.
«اتركيه!» صرخت جوانا.

اقتربت من توم ومام أندريه التي أخذت تسوطها بنظراتها.
«يجدر بك أن تؤذي ابنك.»

ركعت جوانا ولاذ الصغير تحت ذراعها.
«إنه لا يجب أن يلمس.» أجابت في هدوء.
«آه حقًا؟ لم ألاحظ ذلك من قبل.»
حدقت إليها مدام أندريه مرتابة.

«منذ متى بالضبط؟»

«منذ بضعة أسابيع. عندما بدأ يمشي... في الواقع، منذ أن بات بمقدوره الإفلات من الأذرع الغازية.»

زمت مدام أندريه شفتيها واستقامت تمامًا.

«ينبغي ألا تترك له الخيار. عمره سنة واحدة فقط. إذا تركته يفعل ما يشاء، فإنك...»

توقفت لأن ليون قد اقترب كي يشكل درعًا بينها.

«أنا أيضًا لا أستطيع الاقتراب منه.» همس قائلاً.

يبدو أن هذا طمأن السيدة أندريه قليلًا. أضاف ليون:

«إنه شيءٌ عابر حتمًا.»

لكن مدام أندريه حافظت على هيئة الاستياء.

«أنا أعول عليك في تربية هذا الطفل، وتعليمه أنه لا يجوز ضرب شخصٍ بالغ، فما بالك بجذته؟!»

أوما ليون برأسه موافقًا، وأخذ ينقل ثقله في خرقٍ من قدم إلى أخرى. بقي
توم بلا حراك تحت ذراع جوانا. أخذت مدام أندريه تنظر إليه محاولةً سبر أغواره.
«وما سبب سواد أظافره بهذا الشكل؟»

تولت جوانا الإجابة:

«كان يلهو بالتراب...»

«ها هو صبي وقح وقذر تمامًا.»

ارتفع صوت جوزيف على نحوٍ جعل الجميع يحفلون، لأنه لم يره أحد يقترب.
«هل جئتِ إلى منزلي لهدفٍ وحيد هو إدانة طريقة ابنتي في تربية طفلها؟»
انعقد لسان السيدة أندريه من الدهول.

«إذا كان الأمر كذلك، أطلب منك التفضل بالمغادرة.»

لم يكسر الصمت الجليدي الذي أعقب ذلك إلا وصول السيد أندريه، عازمًا
على تخفيف التوتر.

«لا، بالطبع لا. ليس هذا ما قصدته زوجتي.»

لكن مدام أندريه لم تفعل شيئًا للتأكيد. وواصلت التحديق إلى توم الصغير في
استنكار.

«عزيزتي.» أضاف السيد أندريه.

«ربما يجدر بنا العودة لاحقًا...»

وافقت زوجته على مضض، ولكن ليس من دون أن تزيد من زَم شفتيها حتى
أصبحتا مثل خطٍّ رفيع.

«حسنًا.» أعلنت في برود.

«لكنني أريد تقبيل حفيدي.»

تراجعت جوانا للخلف بشكلٍ طفيف. كان توم لا يزال مختبئًا تحت ذراعها.
أخذ ليون يتنحى بعدم ارتياح.

«أمي، أنت تعرفين أنه...»

لكن مدام أندريه لا تستمع إلى أحد. أمسكت بذراع الطفل الصغير بقوة، مجبرة إياه على الالتفات نحوها.

«توم! انظر إليّ!» قالت له أمرّة.

فتح الطفل فمه واتسعت عيناه من الخوف، وكأنه يريد الصراخ بكل قوته، لكن لم يخرج من شفتيه أي صوت. بقيت صرخة الرعب عالقة في حلقه. حاول تحرير نفسه من مغالب مدام أندريه الضارية، والضرب بقدمه، وراحت ذراعه الحرة تضرب الهواء.

«توم!» أصرت السيدة أندريه بصوتٍ أعلى.

«هل تستمع إليّ؟ لا يمكنك التصرف على هذا النحو المزاجي!»

أخذت جوانا الأمر على عاتقها، وقد اغرورقت عينها بالدموع. كانت تود انتزاع صغيرها من براثن هذه الساحرة الفظيعة. إلا أنها حاولت السيطرة على نفسها كي تبقى هادئة. حاولت الاحتجاج في خجل:

«امنحني الوقت... فهو خائف...»

قامت مدام أندريه بثبيت وجه توم بالقوة لإجباره على النظر في عينها، وأخذت تعنفه.

«توم! هل فهمت ما قلته لك؟ أعطني قبلة.»

لم ترّ الضربة قادمة. لم ترّ يد توم الصغيرة وهي تحك الأرض، وتمسك بحفنة من التراب. لم ترّ القذيفة تصيب عينها. هذا كل ما استطاع توم أن يجده للدفاع عن نفسه. رمي التراب في عيني الساحرة.

صرخت. سارع زوجها كي يسندها. انتهزت جوانا الفرصة للإمساك بتوم وسحبه بعيداً، تحميه ذراعاها.

«ليون!» صرخت مدام أندريه.

«ليون!»

أصيب ليون بالذعر. لم يعد يتحرك. أخذت مدام أندريه تبصق التراب، وتمسح عينها، والدموع تسيل بغزارة على خديها.

«ليون، من مصلحتك أن تؤدب هذا الطفل!»

«أمي...»

ازداد الغضب على وجه والدته.

«أحضره إليّ!» صرخت.

«أحضره إلي ودعني أؤدبه! أنا سوف أريكم، أنا...»

لكن صوت جوزيف أسكت أي محاولة للتأديب.

«غادِرا منزلي!»

حاول السيد أندريه أن يقول شيئا لكن جوزيف لم يتح له الوقت.

«غادِرا منزلي في الحال!»

ظهر الفزع على وجهي الزوجين أندريه، فتحركا بسرعة، كما لو أن جوزيف مجنون ربما يهاجمهما. رأتهما جوانا وهما يغادران حديقة الخضروات دون كلمة. ضمت توم الصغير بإحكام إلى صدرها. لم تفهم على الفور لماذا انهار جوزيف وسط نباتات الطماطم، ولماذا تداعى جسده مثل دمية من خرق. فغرت فمها، وبدا أن الوقت قد توقف. سقط رأس جوزيف مثاقلاً فوق التربة الجافة. وفي اللحظة التالية، عبّرت شفيتها صرخة رعب:

«أبي!»

«أزمة قلبية.» أعلن الطبيب بجدية.

كانت جوانا لا تزال ترتجف ممتعة اللون، ولا تزال تحمل توم إلى صدرها، فهو لم يرغب في مفارقة ذراعيها، حتى إلى ذراعي ليون. أبقى وجهه مدفوناً تحت ذراعها، مصدوماً حتّى من عنف المشاجرة مع جدته. لكن لدى جوانا الآن قلق أشد في الوقت الحالي، هو الأزمة القلبية الجديدة التي تعرض لها جوزيف. رافقت الطبيب إلى باب المنزل. كان ليون ينتظر عند المدخل، متيسساً ومرتبكاً، مع إحساس بالذنب.

«ماذا يجب أن أفعل لأبي؟» سألت جوانا الطبيب العجوز.

«أجبريه أن يرتاح. أن يرتاح بأي ثمن. وأن يتجنب أي مصدرٍ للتوتر أو

الانزعاج. ونظراً لحالة قلبه، فإن الأزمة التالية يمكن أن تكون قاتلة.»

أسبلت جوانا عينيها بنظرة جدية.
«هل يمكنني الاستمرار في تحضير منقوع الزعرور والمليسة؟»
أوما الطيب العجوز بالإيجاب.
«هذا المنقوع لا يمكن إلا أن يفيد.»
مد لها يده وشد عليها في لطف، وكأنه يظهر لها تعاطفًا صادقًا.
«كيف حال هذا الطفل؟» سأل وهو يشير إلى توم الصغير، الذي لا يبرز منه سوى شعره الأشقر، تحت ذراع جوانا.
«مضطرب قليلًا...»
«هذا أمر مفهوم بالنظر إلى الأحداث... هل هو دائمًا صامت على هذا النحو؟»
أومات جوانا. أصبح الطيب العجوز الآن يعرف توم جيدًا، ولكنه لا يميل إلى التهويل مثل السيدة أندريه.
«حسنًا... اعتني جيدًا به... بهما كليهما.»
«شكرًا لك دكتور.»

صبَّ إميل لجوانا فنجانًا آخر من الشاي، شربته في رشفاتٍ صغيرة، دون أن تتوقف عن الكلام. دفع نحوها الفنجان الممتلئ، دون أن ينطق بكلمة. تركها تواصل.

استلقى جوزيف على سريره، بوجهٍ شاحب. وجلست جوانا بجانب قدميه في طرف السرير. لم تتحسن حالته، وكانت تشعر أنه يكافح للخروج من حالته والتغلب على التعب الذي ألمَّ به.
«أبي...»

أخذت يده في يدها. كانت شديدة البرودة.
«تناول مشرويك.»

امتلج جوزيف بطواعية. ثم جلس متكئًا على الوسائد، وراح ينظر إليها في حنان.

«جوانا، لا أريد أن أصبح عبثًا عليك.»
«لا تقل هذا الهراء يا أبي.»
«لديك عائلتك لتعتني بها. الصغير توم في حاجة إليك.»

نظرت إلى الأسفل. لم تجرؤ أن تخبر ليون بما قاله لها والدها همسًا، عشية أمس.
كلمة رهيبة. كلمة لا تستطيع نطقها.
«سيتعين عليك أن تحميه يا جوانا... لن أكون هنا إلى الأبد.»
بقيت تنظر إلى أسفل. كانت تعرف أنه على حق.
«يجب ألا تسمح ليها بفعل هذا بعد الآن. لا تسمح ليها بإساءة معاملة توم بعد الآن.»

بلعت ريقها بصعوبة:
«أعرف.»

«ليون لن يفعل ذلك.»
«أعرف.»

عاد الصمت ليخيم ولم تجرؤ جوانا بعد على النظر إلى وجه والدها.
«فيم تفكرين؟» سألها.
ترددت للحظة أخرى، لحظة قصيرة جدًا.
«هل تعتقد أن لديه... أنه...»

نظرت إليه بشكل مباشر:
«تحدث ليون عن التوحد.»

خرجت الكلمة، وكأنها نضل سكين في حلقتها.
«هل تعتقد... هل تعتقد أنه...؟»

بقي جوزيف ساكنًا، يجلس باستقامة متكئًا على وسائده.
«أعتقد أن توم يعيش في عالم خاص به. ذلك العالم الموازي لعالمنا. وأن لديه صعوبة في الدخول إلى واقعنا.»
ابتلعت جوانا لعابها وأصغت في انتباه، وهي تحبس أنفاسها.

«الكبار من حوله ينتظرون بنفاد صبر دخوله في عالمنا. لكن هذا غير ممكن له. ويحاول إفهامهم ذلك بطريقة الخاصة. بالضرب، بالهروب.»
نظر إليها بتركيز أكبر، وعينه تشرقان ببريق هادئ.
«هل تعلمين لماذا يسمح لك بالاقتراب منه يا جوانا؟ ولماذا لا يضربني أنا أبدًا؟»

هزت كتفها. كانت تشعر بالإجابة دون ثقة حقيقية.
«نحن لا نحاول أن نجرّه بالقوة إلى عالمنا. نحن نبذل الجهد للدخول في عالمه، بقدر ما يسمح لنا. نحن لسنا مثاليين لكننا نحاول. أعتقد أن توم شعر بذلك.»
أومأت جوانا، وهي تشعر بغصة في حلقها.
«سوف تحتاجين إلى الشجاعة، يا جوانا، لتستطيعي الوقوف أمامها. أنا آسف.»

«لماذا يا أبي؟ لماذا أنت آسف؟»
«لأنني لن أتمكن من البقاء لدعمك. أنا منهك. أشعر بذلك.»
«لكنني لا ألوّمك يا أبي. أنا...»
طردت الدموع التي تسد حلقها.
«أنا قوية بما يكفي للمواجهة. سأحيي توم.»
ابتسم له جوزيف في حنان لا حد له.
«أعلم يا جوانا. لم يكن توم ليحلم بأُم أفضل منك.»
تبع ذلك صمت أخف من سابقه.
«أنا آسف بخصوص أمر آخر.» أضاف جوزيف.
«ما هو؟»

«بخصوص ليون...»
«ليون؟»

«إنه ليس الرفيق المثالي للرحلة. كان يجدر بي أن ألاحظ ذلك في وقت أبكر. ولكن لا يعنيني ذلك الآن... أنت تحبينه. أليس كذلك؟»
قطبت جوانا حاجبيها.

«رفيق رحلة؟»

ابتسم جوزيف ابتسامة ضعيفة وأوماً برأسه.

«هذه الرحلة العظيمة التي هي الحياة.»

ظلت صامتة، وطال الصمت. بقيا بلا حراك، جوانا جالسة في طرف السرير، وجوزيف متكئ على الوسائد.

«ليتني أستطيع القيام بشيء وأنا في العالم الآخر...»

اتسعت ابتسامته، وأصبحت أكثر مكرًا.

«... إذا كان هناك عالم آخر، بالطبع...»

لكن جوانا لم تستطع أن ترد له ابتسامته، لأنها شعرت أنها على وشك الانفجار بالبكاء.

«إذا كان بإمكانني فعل شيء، فأنا أعدك يا جوانا بأن أتدبر الأمر كي أرسل إليك إشارة. في اليوم الذي تصبح فيه حياتك أثقل من قدرتك على تحملها، سأحاول أن أرسل إليك رفيق رحلة آخر.

«أبي!»

لم ترغب أن يتحدث عن ليون بهذه الطريقة. كانت تعلم أنه ليس مثاليًا لكنه والد طفلها.

«رفيق رحلة يحميك ويسعدك.»

كان النقاش في غرفة جوزيف شبه المظلمة قد توقف ذلك اليوم عند هذا الحد، لأن جوانا بدأت بالبكاء وأخذت دموعها تتساقط قطرات صغيرة فوق يديها الجليديتين.

في المطبخ الصغير بالملحق، وسط الجبل المغطى بالثلج، لبث إميل مقطب الحاجبين لا يجرؤ على الكلام، يمد يده إلى يدي جوانا ويلمسهما في لطف. لقد توقف الثلج عن التساقط في الخارج. ومال النهار في بطء نحو الغروب، في وهج برتقالي.

«هذا هو السبب؟»

بدت نظرتها ضائعة في فنجان الشاي الأسود. ارتجفت. بالكاد.

«هل هذا هو سبب استجابتك لذلك الإعلان؟»

ردت بصوت هامس:

«رفيق سفير لرحلة نهائية...»

رفعت رأسها.

«كنتُ أنا المقصودة، أليس كذلك؟»

ابتسم لها كما لم يبتسم من قبل. بمزيج من الحزن والحنان اللامتناهي.

«نعم. كنتِ أنتِ.»

أبي،

رسالة جديدة لك في دفتري. الرسالة القادمة ستكون لـ توم. يجب أن أخبره عن تساقط الثلوج، والسماء الرمادية اللؤلؤية، واللهب الجميل في الموقد.

أبي، لقد كلمتُ إميل أخيرًا بشأن ما فعلته. أعتقد أنه لم يكن يعرف أنك أنت من أرسلته إلي. هل سيصدقني؟

لا يعني، أعرف أنك فعلت ذلك. بعض العلامات لا لبس فيها. لقد استطاع مثلاً، أن يفهم توم منذ البداية. كان هو من أوحى لي بفكرة الاتساع، بفكرة اللوحات. كان هو من عرض علي أنه سيعتني به عندما يصبح في الأعلى.

إنه مثل توم. مصاب بمرض غريب يأخذه بين الحين والآخر إلى واقع آخر، إلى زمان آخر، بأشخاص من ماضيه.

قبل ستة أشهر، أخذني معه في عرته دون طرح أي سؤال. لقد حملني معه وحسب، ثم أراني أشياء لم أرها من قبل. هذه الجبال العالية التي بدت وكأنها تخرق السماء وتضع جسراً بين العالم العلوي وعالمنا السفلي. والسهول شديدة الخضرة وكثيرة الأودية وذات السطوح الملساء إلى درجة تجعلك ترغب في الاستلقاء فوقها والبقاء هناك إلى الأبد. والبحيرات ذات المياه النقية حتى أنها تطهر الروح. وغروب الشمس فوق ثلوج أبدية تجعل العيون تلمع أكثر من أي دمعة. لقد أراني كل هذا، كهدية أخيرة أراد أن يقدمها للعالم قبل مغادرته.

أعتقد أنه سينسجم مع توم هناك، ومعك أيضًا. إنه فضولي، يحب اكتشاف عوالم الآخرين. طلب مني أن آخذه إلى عالمي. قال إن كل ما فيه جميل وشاعري. أعتقد أنه سيرتاح معك. لقد درّثته على التأمل وهو الآن يعرف الأنواع المختلفة من القرع. بدأ بكتابة الاقتباسات في كل مكان، وفي أحد الأيام سمعته يندندن (حبيبي يهتم بي) (كان لديك دائمًا نقطة ضعف إزاء نينا سيمون). أنا متأكدة أنك سوف تحبه. أبي، يجب أن أتركك. الليلة هي عشية عيد الميلاد. سنقوم أنا وإميل بطهي ما يشبه وجبة احتفالية. سنكون أنا وهو فقط هنا، مع الحيوانات (سيحصل بوك وميستيك على بعض كرات اللحم التي لم يستطع إميل الامتناع عنها بعد... لكل عيونه!).

أقبلك. امنح توم قبلة نيابةً عني. أخبره أنني أفكر فيه في كل ثانية هنا.

مع كل حبي،

جوانا

كانت جوانا ترسم إميل على قماشها، وتراقبه وهو مستلقٍ على السرير يكتب في دفتر ملاحظاته، وتتفحصه في اهتمام كي تعيد إنتاج كل تفصيل من ملامحه، كل تعبير من تعبيراته بأكبر قدر ممكن من الأمانة، انتهت بها الأمر إلى التخلي عن فكرة الرسم ووضع لوحتها على حافة النافذة، والانضمام إليه في السرير. وضعت يديها الجليديتين على خديه، في لطف، فأفلتَ دفتره الأسود، في منتصف فترة بعد الظهر، بينما كان الثلج يتساقط على شكل رقائق كثيفة في الخارج، والنار تخمد في الموقد. بعد ذلك، بقيا هناك مستلقين لساعات، متدثرين بالملاءات الرطبة، دون أن يقولوا شيئًا. في المطبخ الصغير المشبع بالبخار، في الملحق، كانت الشموع تومض بشكلٍ ضعيف. ما زالت بقايا الوجبة الاحتفالية، على الطاولة المتهالكة. لم تنه جوانا طبق الريزوتو بالفطر. ترك إميل كرات اللحم الخاصة به وكان بوك بصدد التهامها بشراهة وهو واقف في منتصف الطبق. زجاجة النبيذ الأحمر نصف فارغة. أنهى إميل كأسه دفعة واحدة. أخرجت جوانا في بطء قطعة حلوى من غلافها الورقي ووضعتها في فمها وهي تتنهد في رضا. لقد مر وقت طويل منذ أن قاما بالطهي بهذا القدر من الجهد والاهتمام. لقد شبعًا تمامًا. صنعنا وجبة احتفالية حقيقية. مال

إميل إلى الخلف في كرسيه وهو يتأوه قليلاً من الشبع. شاهدَ جوانا وهي تُخرج لعبة البزل ذات الخمسمائة قطعة، من الدرج الصغير في الطاولة الخشبية. لقد قاما عشرات المرات بتفكيكه وإعادة تركيبه، لكنهما كانا يجدان متعة كبيرة دومًا في إعادة بنائه وهما يجيطان نفسيهما بصمتٍ لطيف، ويطلقان العنان لعقليهما للهروب. كان يسمح لها لأن تبدأ هي باللعب، فتقوم بفرض القطع وتبدأ بتشكيل الزاوية اليمنى العليا من لوحة البزل. التي تتمثل في طائر طنان فوق شجرة من أشجار الغابة. تنحنح، فاستدارت نحوه بنظرة استفهام.

«ماذا حدث بعد ذلك؟»

لم تفهم سؤاله. أظهرت له ذلك بتكشيرة.

«هل توفي والدك بعد وقتٍ قصير؟»

كان يشير إلى رحلتها الأخيرة نحو ماضي جوانا. كان يود العودة معها إلى هناك. بدأت جوانا تبحث مجددًا بين قطع اللغز الصغيرة. احتاجت إلى ثوانٍ للرد. «توفي بعد أسبوع، في هدوءٍ في أثناء نومه.»

كانت تجري إعادة تشكيل الديكور من حولهما، فيختفي تدريجيًا المطبخ الصغير في الملحق، والنافذة القذرة، والثلج في الخارج... ليجدا نفسيهما في منزلٍ حجريٍّ صغير، تحت شمس الصيف في سان سولياك.

«لقد رحل جوزيف.»

كان ليون هو من نطق بهذه الكلمات وهو في حالة ذهول. كانت جوانا تعرف. نهضت لتذهب فورًا إلى غرفته، ووجدته جامدًا لكنه نائم في سلام، ولا تزال ابتسامة غامضة تطفو على وجهه الشمعي. شرحت الأمر لتوم الصغير، الذي كان ينتظر بالقرب منها، ويسحب غطاء السرير.

«لقد بدأ جوزيف رحلته الطويلة الأخيرة. ذهب إلى مكانٍ ترتاح فيه النفوس.»

قبلت شعره الأشقر الذي تفوح منه رائحة العسل والتراب.

في حديقة الخضروات، أخذًا بيكيان وهما في حالة من عدم القدرة على اتخاذ قرار باستدعاء الطبيب العجوز. كانا بيكيان وهما جالسان بين نباتات الطماطم التي رواها جوزيف بكل حب لإطعام عائلته. كان وجه جوانا مخفيًا خلف قبعته السوداء الكبيرة، وتوم يحدق إلى السماء، وأحاط ليون رأسه بيديه، وكان أول من نهض.

«سأتصل بالدكتور أومون.»

في المساء، أخرجت جوانا قلمها الأجل، ذا الريشة السميكة، وكتبت على جدران غرفة المعيشة، بأحرف جميلة: أردت الحديث عن الموت، لكن الحياة اقتحمت المكان كالعادة.

راحت تتأمل العبارة في ارتياح، مع ابتسامة طفيفة على زاوية شفيتها. لم تكن تريد جملة حزينة، بل جملة يستطيع توم قراءتها لاحقاً، كي يدرك أن الموت ليس مأساة، وأنه جزءٌ من الحياة، ويجب قبوله. أرادت أن تكتب كلمات تحمل على الابتسام، تجعل قارئها يعتقد أن الحياة حاضرة دائماً، في كل مكان، كما في غرفة المعيشة هذه، في ذلك المساء: في ركض توم المبالغ والجامح عبر الغرفة، في يديه وهما تضربان الهواء بشكلٍ محموم. في حدقتي عينيه المذهولتين.

لاهثين ومبللين بالعرق، ساروا الأمتار القليلة الأخيرة تحت شمس حارقة للوصول إلى قمة الجرف الصغير. كانت جوانا تحمل توم على ظهرها - لا يزال ليون غير قادر على لمس الصبي الصغير دون أن يجر على نفسه عواقب غضبه - وكان ليون يحمل جرة الرُّفات، الفضية. توقف الثلاثة عند سفح الكنيسة الصغيرة. كانت مريم العذراء هناك، تحت الشمس الحارقة، هادئةً وراسخة وذات بياضٍ مبهر، والأعشاب المتسلقة التي أحرقتها الحرارة، تلتف حول أحجار القاعدة. وفي الأسفل، زرقاء البحر المبهرة وجمال خليج سان سولياك.

تراجع ليون، وترك جوانا تمسك بالجرة الفضية. أخذ يراقبها وهي تقترب من حافة الجرف بخطواتٍ بطيئة. وكانت تلك تعليمات جوزيف. الطيران فوق البحر. بقي ليون إلى الخلف برفقة توم الذي يحدق بلا حراك نحو السماء. بقيت جوانا جامدة بضع ثوانٍ فوق الفراغ، كأنها تخاطب والدها ببضع كلمات، ثم فتحت الجرة وألقت بالرماد بحركةٍ واسعة. تلاشت الغيمة الرمادية كأنها غيمة من فراشات، في سماء سان سولياك اللامعة.

صَفَّق توم. كان يصفق للمرة الأولى، واكتشف ليون عندما التفت إليه، أنه لم يعد ينظر إلى السماء. لقد اكتشف توم لتوه الأعجوبة الثانية في عالمه: البحر. وكانت عيناه تعبران عن ذهولٍ لا يوصف، عن نشوةٍ تتجاوز كل الحدود.

وجدت جوانا لوحة الرسم التي كانت تبحث عنها. سبق أن رأتها في قصة أطفال قرأها لها جوزيف وهي في الثامنة من العمر. كانت تمثل شجرة سوداء متينة الجذع، تمتد أغصانها نحو السماء مثل نقاط مائلة جميلة، وتحفر جذورها أخاديد عميقة في الأرض. تقول الحكاية إن هذه الشجرة تسمى شجرة الحياة. إنها توحد بين عالم السماء وعالم الأرض، بفضل أغصانها الممتدة إلى السماء، وجذورها المغروسة عميقًا في الأرض. تقول الحكاية إن الشجرة تفقد أوراقها في الشتاء ولكنها تستعيدوها في الربيع، وهو ما يمثل (توسع الحياة وانتصارها المستمر على الموت). لم تفهم جوانا كل شيء في ذلك الوقت وأوضح جوزيف:

«إنها تمثل دورة الحياة والموت.»

جعدت أنفها.

«إنها رمز للخلود يا جوانا. هذه اللوحة تمثل حقيقة أن الحياة تنتصر دائمًا على الموت.»

وضعت الكتاب في حقيبتها القماشية بنية اللون، فيما كان ليون وتوم ينتظرانها في الخارج في حديقة الخضروات. سوف يذهبون إلى المدينة. أرادت ترسيخ رمز الخلود هذا فوق لحمها. لقد اتخذت القرار الليلة الماضية. إنه رمز جوزيف، رمز من ساعدها على بناء نفسها والارتقاء. سوف تنقشه على ظهرها، على طول عمودها الفقري. لم تعثر على رمزية أفضل.

خيم الصمت من جديد على المطبخ الصغير بجو المحصور. تمدد بوك على الطاولة بكامل طوله بين طبقين. أكملت جوانا الزاوية اليمنى العليا من البزل فيما بقي إميل متكئًا إلى مسند كرسيه، محدقًا إلى وجهها. كان باستطاعته أن يشعر بشجرة الحياة عبر كتفتها السوداء الضخمة. عندما كانا يمارسان الحب في غرفة النوم، مر بأصابعه فوقها، متسائلًا عما تمثله. الآن بات يعرف.

جلس بصعوبة واقترب من الطاولة. التقط بعض قطع البزل وبدأ يفرزها. سيبدأ من الزاوية اليسرى السفلية. هذا ما يفعلانه دومًا.

بقيا صامتين لبضع دقائق، ثم سأل إميل:

«وبعد ذلك؟»

توقفت جوانا مؤقتاً كي تلتقط قطعة حلوى من العلبة. جعلت الورقة الذهبية التي تغلفها بين أصابعها، ودفعت بقطعة حلوى الشوكولا إلى فمها بحركات مطمئنة.

«بعد ذلك أصبح نوم صبيّاً صغيراً حقيقياً.»

تحدثت عن الحريف الذي حلّ في سان سولياك، والأشجار التي تساقطت أوراقها في فناء المدرسة، والبساط الأحمر الذي انتشر فوق الطرقات المرصوفة. تحدثت عن صمت الزوجين أندريه بعد ذلك المشهد في حديقة الخضروات، و وفاة جوزيف. بقيا ستة أشهر تقريباً لا يعرفان شيئاً عنهما. هل كانا يشعران بالذنب لتسببهما في تلك الأزمة؟

لن تعرف جوانا ذلك أبداً. ولم يعد ليون على اتصال بهما خلال تلك الفترة. كانت فترة سعيدة.

تخلت جوانا عن وظيفتها كحارسة كي تعتني بـ نوم بدوام كامل. لم يعد جوزيف موجوداً، وكانت ترفض أن تعهد به إلى امرأة أخرى في أثناء ذهابها إلى العمل. كانت مرحلة سعيدة دربت نوم خلالها على الرسم على القماش باليدين. كانا يمضيان ساعات طويلة في تلوين أسطح فارغة براحات أيديهما المغموسة في الطلاء الرطب. كانت جوانا تطبع بصماتها بعناية، فيما يصنع نوم دوامات وخطوطاً واسعة. لم يكن يستخدم سوى اللون الأزرق.

في أثناء قيلولة نوم، كانت جوانا تستلقي بجانبه وتراقب وجهه الهادئ الذي غلبه النوم. تراقب حاجبيه الرقيقين، فمه الشبيه بقلب، شفثيه الناعمتين والممتلئتين، خديه المائلين إلى اللون الوردي، وتدفن أنفها في شعره الذي تفوح منه رائحة العسل وشيء من رائحة تراب، وتغفو إلى جانبه أحياناً.

أخذت تعد له كعكة الغريبة وكومبوت القرفة وفطائر الكمثرى. كانوا يتناولون وجبة خفيفة في الشرفة الأرضية، التي كانت في الوقت نفسه غرفة نوم نوم، وحديقتهما الشتوية التي وضعت فيها الكراسي الهزازة، فيأكلون وهم يراقبون الطبيعة وحديقة الخضروات المغطاة باللون البرتقالي والأحمر والأصفر. كانت جوانا تشرب منقوع أعشاب، ويشرب نوم شوكولا ساخنة. كانت جوانا

تقرأ القصص وتنشد أغاني للأطفال، ويلبث توم متبهاً مع بقائه صامتاً دوماً، لكن هذا لم يكن يزعج أحدهما.

في المساء، يعبر ليون عن دهشته أمام رسومهما على القماش. ثم يتناولون العشاء في غرفة المعيشة، حيث تشتعل النار في الموقد باستمرار. بات المكان فارغاً دون جوزيف، لكن الثلاثة تأقلموا مع الوضع.

لم يرغب حارس المدرسة الجديد أن يسكن في الفناء، لأن لديه منزلاً كبيراً على أطراف سان سولياك، حيث يعيش مع أطفاله الأربعة وزوجته. لذلك أذنت المديرية لجوانا وليون بالاحتفاظ بالمنزل الحجري الصغير لقاء إيجار بسيط.

كانت فترة سعيدة رغم اختفاء جوزيف. كبر توم وازدهر. أخفى ليون قدر استطاعته حزنه لعدم قدرته على التواصل مع توم وعدم قدرته على احتضانه. ويبدو أنه اعتاد ذلك. كان على أي حال يسيطر على نفسه، وتشعر جوانا بالسعادة. كبر توم وأصبح صبيّاً صغيراً متهوراً. لحسن الحظ أن جوانا موجودة طوال الوقت في المنزل، لرعايته. يبدو أن توم لم يكن لديه أي إدراك للخطر. كان يركض كثيراً بطريقة عشوائية وغالباً ما ينتهي الأمر بسقوطه على الأرض ورأسه في المقدمة. أصبحت جوانا خبيرة في خياطة الجروح وإزالة الخيوط، والرُّكَب المسلوخة والإصابات المتفخخة على الجبهة. كان توم يقفز من الأريكة إلى الطاولة، ومن الطاولة إلى الكرسي، ثم من الكرسي إلى الأريكة مرة أخرى، على الرغم من تحذيرات جوانا. وفي أحد الأيام، تعرض لجرح قاطع في ذقنه عندما زلت قدمه عن الطاولة. يبدو أنه ليس لديه تقدير للمسافات ولا الارتفاعات، ولا يخاف من شيء. ولا حتى من النار في الموقد.

في إحدى الأمسيات، وجدته جوانا وقد التصقت يداه على واجهة الموقد. انفجرت دماغل الجلد وانكشف اللحم، لكن توم لم يصرخ. أفلتت دمعة وحيدة من عينه.

«لم أبعد نظري عنه سوى لحظة واحدة.» اعترفت جوانا للدكتور أومون وقد احمرت من الخجل.

عاد الزوجان أندريه للظهور من جديد في شهر فبراير، عندما اكتسحت سان سولياك رياح جليدية. ظهرا عند الباب الأمامي للمنزل الحجري، ملفوفين

بأوشحة سميكة، وعلى رأس كلٍّ منهما قبعة من الفراء، مع باقية من الزهور في يد وكعكة حلوى في اليد الأخرى. تولى السيد أندريه الكلام:

«فكرنا في أن وجبة خفيفة ستجلب لكم السرور.»

لم تقل جوانا شيئاً، فيما بدا ليون سعيداً. كان الزوجان أندريه سعيدين حقاً برؤية حفيدهما من جديد. لم يصرا عندما رفض توم أن يقبلهما، ولم يعلقا عندما ركض ليحتمي خلف فرن الطهي، وهو يضرب بقدميه. لم يتفصا عندما لاحظا أنه لا يزال صامتاً ويفضل الجلوس على حافة النافذة ومشاهدة السماء بدلاً من الاهتمام بالبالغين في الغرفة.

لبضعة أشهر، استمتع توم الصغير بفترة راحة سعيدة، بلا ملاحظات، ولا تعليقات، ولا أحكام. اكتفى الزوجان أندريه بمشاهدته وهو يمشي ويركض ويتسمر ناظرًا إلى السماء. ثم يغلب الطبع. بات الموضوع الرئيسي لانتقادات مدام أندريه هو شعر توم.

«يجب أن تقص شعرك يا فتى. إنك تشبه فتاة صغيرة.»

أخذت جوانا على عاتقها أن تصم أذنيها أمام هذه الملاحظة كلما سمعتها، فقد كان شعر توم ذا تجميعيات ذهبية جميلة تصل إلى كتفيه، ولا تريد أخذه إلى الحلاق، لأن من شأن ذلك أن يصيب توم بالذعر. لا أحد يستطيع أن يلمسه سواها. ومن ثم فهي تحبه بشعره الطويل. إنه لا يشبه فتاة، بل يبدو طفلاً صغيراً عفريتاً وممتلئاً بالسحر.

حاولت يوماً أن تقترب منه بالمقص، لكن توم كان واضحاً: لقد أطاح بكرسيه وهرب إلى غرفته. لا يريد أن يلمس أحد شعره الجميل.

«تعلمين أنه في بعض الثقافات، في منغوليا مثلاً، يترشون سنين عديدة قبل قص شعر الأطفال.» قالت يوماً لمدام أندريه الملحاحة. مما أثار لدى الأخيرة ضحكة مكتومة ساخرة.

«لو أن حفيدنا ولد في منغوليا، لكان هذا مفهوماً!»

في ذلك اليوم سمعت جوانا محادثة بين الزوجين أندريه وليون عند عتبة الباب. كانوا يتهامسون في قلبي واسترقت جوانا السمع من المطبخ.

«... ما زالت ترفض استشارته...؟» سأل صوت مدام أندريه.

لم تسمع جواب ليون. واصل صوت السيد أندريه العميق:
 «... توخذ مؤكدة... صامت مثل سمكة شبوط رغم جودة سمعه... مضطرب
 للغاية... قرأت هذا في مجلة صحية منذ بضعة أيام».
 صمتوا مجددًا، ثم تلثم ليون بشيء مثل:
 «حتى لو أكدوا لنا أنه مصاب بالتوحد... إلى ماذا سيقودنا ذلك؟»
 انفجر صوت مدام أندريه، الممتلئ بالازدراء، في فرح غير متزن:
 «لن يقود إلى شيء. أنت على حق. كان يجب التفكير في الأمر من قبل...»
 «عفوًا؟»

«ما الذي كنت تتوقعه عندما اخترت لطفلك أمًا هي ابنة رجل مغفل وعاهرة؟»
 كان الألم حارقًا، جعل جوانا تتسمر على الأرض أمام حوض المطبخ. لكن
 الألم الأمضى جاء لاحقًا في صمت ليون الساحق... في هذا الصمت الطويل الذي
 اجتاح المنزل الصغير بالكامل، مثل موجة جليدية.

أدرك إميل أنه متأثر أكثر بكثير مما ينبغي، وأبقى رأسه منحنيًا فوق البزل كي
 يخفي عن جوانا عينيه المبللتين بالدمع. تخلت عن الزاوية اليمنى العليا من اللغز.
 كانت تجلس منتصبّة على كرسيها، يداها ممدودتان على الطاولة، ونظراتها مثبتة
 بعيدًا إلى الأمام، كما لو أنها لا تزال هناك في الماضي. لبث مترددًا يخشى أن يوقظها
 فجأة إذا وضع يده فوق يدها. إلا أنه فعل ذلك ولم تحفل. بدأت تتحدث في ببطء
 مرة أخرى. كانت في حاجة إلى هذا لتتمكن من مواصلة قصتها.

اعتبارًا من تلك اللحظة، تغيرت الأمور بالنسبة لجوانا. بدأت تكره ليون. لم
 يكن ذلك فقط بسبب البحيرة وغرق توم. بل لأنه كان لسنوات، جبانًا إلى درجة
 مقرزة.

جاء الربيع في هدوء إلى سان سولياك، وتغيرت الأمور. بات المنزل الحجري
 الصغير كأن حجابًا غير مرئي قد شطره إلى قسمين. جوانا وتوم من جهة، وليون
 من جهة أخرى. هناك شيء ما قد انكسر. لم تعد جوانا ترى ليون أو تسمعه إلا من
 خلال الحجاب، كما لو أنها يتيمان الآن إلى عالمين مختلفين للغاية ولكنها يتعايشان
 مع ذلك. استمرت في النوم بجانبه. وبذلت جهدها كي تشارك في الأحاديث

بأدب. والتزمت من حين إلى آخر بواجبها الزوجي بصعوبة متزايدة. لم تُظهر أي شيء. إلا أن عالمها، لم يعد فيه من الآن فصاعدًا، سوى توم. فقط توم. باتت تعيش من أجله، تسهر في الليل من أجله. كانت تعد وجبات كي تأخذه طوال اليوم إلى الشاطئ، حيث يراقبان البحر معًا. أصبحت تتغذى على السعادة في عيني ابنها، وتستطيع قضاء ساعات في مشاهدة الشمس وهي تودع خيوطًا ذهبية في شعره الأشقر الجميل.

في الصيف كانا يسبحان، إذ تضع عوامة كبيرة حول بطنه، ولا تبتعد عنه خطوة واحدة. وعلى الشاطئ، كانا وهما يحفّفان نفسيهما، يخترعان لغة لا يفهمها أحد سواهما. لغة العيون والأيدي. كان كل منهما يفهم الآخر. تعلمت جوانا كيف تقرأ عينيه العسليتين، وكيف تفسر حركات يديه المحمومة.

كانا يسيران فوق صخور الشاطئ ولكنهما يتوقفان عاجلاً أم آجلاً، وعيونهما مثبتة نحو السماء، ينامان في العراء، متدثرين بكيّسي نوم، للاستمتاع بمشاهدة السماء.

في سبتمبر، اقترحت مديرة المدرسة، التي سمعت عن الصعوبات التي يواجهها توم، على جوانا، أن تجعله يختلط مع الأطفال الذين في مثل عمره.

«خلال فترات الاستراحة.»

وافقت جوانا لكنها بقيت في مكان قريب كي تراقبه. بقي توم صامتًا ووحيدًا. كل من حاول الاقتراب منه من الأطفال، انصرف عنه خائب الأمل. غير أنه كان هناك مجموعة من الأطفال اقترب منهم توم: أولئك الذين يمارسون الرسم في الجانب المسقوف من الباحة. هكذا ولدت أسطورة توم بلو. أسطورة الصبي الصغير الأخرس الذي يراقب السماء والبحر، ويرسم المدى الشاسع.

بالكاد توقفت لثانية واحدة في قصتها. فقط ما يكفي من الوقت للابتسام. ثم عادت إلى سان سولياك.

كان يومًا شتائيًا باردًا أصيبت فيه جوانا بالإنفلونزا وبقيت ثلاثة أيام طريحة الفراش، تعاني من حمى جنونية. تولى ليون العناية بـ توم. ليس دون صعوبة. ولم يتمكن أحدهما بعد من فهم الآخر. لم يكن ليون يفهم لغة اليدين والعينين، وأصر

على رغبته في لمس توم. فعل كل شيء على نحوٍ خطأ. لكن جوانا لم يكن لديها خيار. كانت خائفة القوى، في سريرها.

استيقظت من نومٍ ثقيلٍ ومحموم، حين سمعت ضوضاء واضطراباً في المطبخ. استغرق الأمر بعض الوقت حتى فهمت أن هذه لم تكن هלוسة. وقفت بصعوبة، تحاول التعرف إلى الأصوات، عندما دوت صرخة:

«أمسك رأسه يا عزيزي!»

نهضت جوانا بقفزة. إنه صوت مدام أندريه. ماذا يفعلون لصغيري توم؟ استشعرت بالأسوأ وكانت على حق. في غرفة المعيشة، غرفة معيشتها الخاصة، ثلاثة راشدين يحيطون بـ توم. السيد أندريه الذي يشبه في مكانه ممسكاً بكتفيه، وليون الذي يثبت رأسه لأنه يتقلب في كل الاتجاهات، محاولاً الهرب، ومام أندريه ويدها مقص.

تمسكت جوانا بالحائط كي تتجنب الإغماء من شدة الحمى والإرهاق.

«ماذا تفعلون؟»

كانت تود أن توبخ بصوتٍ عالٍ لكن صوتها خرج ضعيفاً ومنهكاً. استدار السيد والسيدة أندريه نحوها لكن ليون هو من رد بصوتٍ مهتز:

«نحن... أردنا قص شعره.»

شعر أنه يفعل شيئاً غيبياً. لكنه بالتأكيد لم يستطع الاعتراض على رغبة والديه. لم تنظر جوانا إلا إلى توم الصغير، وعينيه المتسعيتين من الرعب. اجتازت الغرفة بخطواتٍ كبيرة، ولم تعد تسيطر على نفسها.

«اتركوه!»

أطبق مقص السيدة أندريه، بصوتٍ حاد، على خصلة شعر. لو استطاع توم لصرخ دفاعاً عن نفسه. لكن صرخاته كانت صامتة لا يسمعها أحد سوى جوانا التي كانت تجدها غيفة تصم الآذان.

«اتركوه!» كررت.

خصلة أخرى تم قصها. وقفت جوانا أمامهم، مدت يدها نحو توم، وكررت بقسوة أشد:

«توقفوا!»

ردت مدام أندريه بصوتٍ صَفير:

«إنه يشبه ولدًا بريًّا! لن تضره قصَّةُ شعر!»

رفعت مقصَّها مستعدةً لقص خصلةٍ أخرى. تدفقت الدموع على خدي نوم. كان لشدة خوفه وعجزه يشد قباض بنطاله، ويمزقه، وأخذت جوانا تحاول إبعاد السيد والسيدة أندريه وليون.

«توقفوا الآن!»

سالت دموعها هي أيضًا على خديها. لكن السيد أندريه دفعها في لطف.

«كوني منطقية يا جوانا. عودي إلى السرير. أنت شديدة الشحوب. دعينا نهتم بنوم. إنها قصَّةُ شعر لا غير.»

لو كان جوزيف موجودًا، لما تجرأوا أبدًا، لو كان هنا لطردهم بالمكنسة. كان سيزجر بصوته الضخم. لكن جوانا وحدها، وبالكاد تستطيع الوقوف. سقطت خصلة جديدة.

دوت صرخة حادة أوقفت الزمن فجأة في الغرفة. إنها صرخة نوم الأولى. صرخة من الرعب. توقف الجلادون الثلاثة مصعوقين. شعرت جوانا بغضبٍ لم تشعر به من قبل. لقد دفعوه إلى أقصى الحدود. كانت تعرف أن شِدَّةَ عظمة فقط كان يمكن أن تنتزع صوتًا من نوم. ما إن سمعت شهقة مدام أندريه المنذهلة «أوه، إنه ينطق!» حتى انقضَّت وخطفت المقص من يديها، ثم صرخت بأعلى صوتها: «اخرجوا!»

أمسكت بالمقص على طول ذراعها، مهددةً. أخذت ترتعد ممتعةً، غاضبة، ويمكنها أن تقتلهم. يمكنها أن تغرز المقص في أجسادهم، واحدًا تلو الآخر. «جوانا!» صرخ السيد أندريه.

ركض نوم واحتمى بها. لا أحد من عائلة أندريه يجرؤ على الحركة. راحوا ينظرون إليها في قلقٍ وخوف.

«اخرجوا من منزلي حاليًّا! لا أريد أن تقتربوا منه مرة أخرى! أبدًا!»

حاول ليون فتح فمه لكن جوانا أشهرت مقصها مهددة.

«أنت أيضًا، اخرج. لا أريد رؤيتك في منزلي بعد الآن.»
تدخل السيد أندريه بصوتٍ يريد أن يكون مطمئنًا:
«جوانا، أنت محمومة لم تعودى تعرفين ماذا تفعلين.»
هوى صوتها مثل السوط:
«انصرفوا!»

محاولة جديدة من ليون هذه المرة:
«جو، لقد كانت قصة شعر فقط...»
كررت في هدوء أكثر:
«انصرفوا!»

مرت لحظات دون أن يتحرك أو يتكلم أحد، والوقت يتمطى بشكلٍ مؤلم. ثم
تنحنح ليون وهمس بصوتٍ مرتجف:
«علينا... علينا أن نفعل ما تطلبه جوانا.»
لم تنظر إليهم وهم يغادرون المنزل. ركعت بجانب توم وضمته بشدة كادت
تخنقه.
«اعذرنى يا صغيرى توم. اعذرنى. ما كان ينبغي أن تولد في مثل هذا العالم
القاسي.»

لم يعد ليون إلى منزل الزوجية إلا في شهر مايو. كان خداه غائرين وصدغاه
أصلعين، فقد أصيب بانهايارٍ عصبي في أثناء فترة إقامته مع والديه في انتظار أن
تسأحه جوانا.
اكتشف لدى عودته إلى المنزل الحجري الصغير، أن جوانا وتوم لا يعيشان
بمفردهما. كانت هناك قطعة بيضاء تنام كل ليلة في سرير توم، وتقضي أيامها
ملتصقة بجوانا.
«هل حاولتما استبدالي؟» سأل جوانا، محاولاً المزاح.

لم تجب. لقد قبلت بعودته لكنها لم تقل قط أنها ساعته. كان الأمر يحتاج إلى وقت لكنها لم يحصلوا عليه. بعد شهرين، عاهدت بـ توم الصغير إلى ليون، ريشا تغلق بوابة المدرسة. راقبتهم وهما يغادران على الدراجة، مع السلة المملئة بالشطائر. قالت لهما:

«سأوافيكما على الفور! افرشا الغطاء!»

لوح ليون لها، وبدأ توم يقود دراجته بسرعة. تلك كانت آخر مرة ترى فيها ابنها حيًا.

عاد الصمت إلى المطبخ الصغير. وراح كلاهما يبكيان في صمت، والدموع تتساقط على أجزاء البزل الصغيرة. كان إميل يبكي مع جوانا لأنه أدرك مقدار ألمها. لقد أودعته للتو معاناتها اللامتناهية، حتى يتمكن من تقاسمها، حتى لا تبقى وحيدة في المعاناة. وقبل هذه الهدية. قبلها دون قيد أو شرط، وأخذ يبكي معها حتى الفجر في المطبخ الصغير بالملحق، حيث بدأت تنطفئ الشموع الصغيرة الوامضة واحدة تلو الأخرى، مثلما تنطفئ نجوم في السماء.

«أن تعاني، هو أن تعطي شيئًا ما اهتمامًا فائقًا...»

بول فاليري، السيد تيست

«إميل!»

فُتح الباب وظهرت الفتاة ترتدي قبعة سوداء كبيرة واسعة الحافة وملابس سوداء فضفاضة.

«أنت هنا.» قالت بنبرة من الارتياح. لم يفهم سبب قلقها.

«نعم.»

«تعال، تعال لتأكل. لقد أنهيتُ العمل في ورشة البناء.»

مد ساقيه المتصلبتين لشدة بقائهما مطويتين على حافة النافذة، وأومأ برأسه.

«أنا قادم.»

شاهدها تحتفي في الممر الصغير المظلم وقفز على الأرض. قبل ذوبان الثلوج، كان هو أيضًا يشارك العمل في موقع البناء معها ومع الشابتين الكنديتين. لم يعد يتذكر اسميهما. وفيما بعد، رفضتُ ذهابه إلى العمل.

«لماذا؟» سأل وهو غاضب.

«بسبب ما تتعرض له من حالات إغماء.»

لم يتذكر أنه أصيب بالإغماء. إلا أن هيبوليت والشابتين الكنديتين، أكدوا كلام جوانا. «لقد أغمي عليه مرتين. انخفاض ضغط.» أوضحت جوانا.

«أنت في حاجة إلى الراحة.»

أصبح الآن يشعر قليلًا بالملل، لذا قالت له جوانا يومًا:

«هل توقفتَ عن الكتابة في دفترك؟»

«أي دفتر؟»

«كلُّ منا يسجل يومياته في دفتر، كما تعلم...»

«حقًا؟»

لم يفهم عن أي شيء تكلمه. أومأت.

«نعم.»

«وما الغاية؟»

ترددت قبل الإجابة.

«أن نخبر أحياءنا عن كل ما نعيشه هنا.»

«ممم...»

بدا متشككًا. لم يسبق له أن دوّن يومياته قط.

«سنخبرهم لاحقًا...»

لم تعرف بما تحيب. لكنها أخرجت دفتر يومياتها الخاص وبدأت بالكتابة، ربما على أمل أنه بهذه الطريقة سيغير رأيه في النهاية. لذلك، عمّد هذا الصباح إلى التقاط دفتره الأسود من فوق الطاولة المجاورة لسريره، بغرض إرضائها إلى حدّ ما، فهي تبذل قصارى جهدها للاعتناء به. رأى، مندهشًا، أنه ملأ بالفعل صفحات من الكتابة في هذا الدفتر. لقد فهم أنها كانت تقول الحقيقة أحيانًا، عندما تزعم أنه تعرّض لفقدان ذاكرة، أو عندما توضح له أنها هنا كي يرتاح ويستمتع بهواء الجبل النقي، ويزود دماغه بالأكسجين. لم يقرأ الصفحات الأخرى التي كتبها. لقد استاء بشدة عندما اكتشف أنه تعرض لحالات فقدان الذاكرة.

عبّر الغرفة وتوقف عند العتبة، ولاحظ أن لوحة جديدة قد انضمت إلى لوحات الفتاة، على أرضية غرفتهما. إنها ترسم كثيرًا. كانت ترسم عندما لا تقرأ أو تكتب في دفتر يومياتها. سببت له هذه اللوحة الأخيرة، الاضطراب، فبقي ساكنًا بضع ثوانٍ، غير قادر على التأكد من أن المسألة هي ما يستشعره بإحساسه. ناداه الصوت مرة أخرى في الممر:

«إميل.»

«أنا قادم!»

اقترب من لوحة القماش كي يتمعن في تفاصيلها. تعرف من فوره إلى غرفتهما هنا في الملحق. مفرش السرير ذو اللون الأخضر المزرق، وقاعدة صفيحيه، والجدران التي يتقشر طلاؤها الكريمي، والضوء الخافت الذي بالكاد يضيء الغرفة. شخصٌ مستلقٍ بوضعية مرتاحة على السرير، وقد ثنى رُكبةً، ووضع ذراعًا خلف رقبته، وأمسك قلماً بالأخرى، وبجانبه فوق الحشية دفتر أسود صغير، مماثل

لدفتره. الشاب أسمر طويل القامة، ويمكن رؤية لحية عمرها أيام على وجهه. وما يلاحظ على الفور هو حالة السكينة التي يبدو عليها.

لبث إميل هناك متسمراً أمام اللوحة. لديه انطباع بأن عيني الشاب السوداوين اللوزيتين مألوفتان له. لبث هناك غير قادر على إبعاد ناظره عن اللوحة. كان يسمع من المطبخ صدى ضحكات الشابتين الكنديتين، وصوت قدر يوضع على الموقد الصدى. أجبر نفسه على التحرك في ببطء. ألقي نظرة أخيرة على اللوحة قبل مغادرة الغرفة. بات شبه متأكد من ذلك الآن... إنه هو من رسمته الفتاة في تلك اللوحة... متى؟ لماذا؟ في أي مناسبة؟

لم يتمكن من تحديد ماهية القلق المتزايد في صدره. ثمة شيء يشبه الشعور بعدم الاكتمال. كما لو أن هناك أجزاء عديدة ناقصة في بزله.

في المطبخ، أمام موقد الغاز الصدى، تسرح جوانا بنظرها عبر النافذة الصغيرة القذرة، نحو امتداد ملكية هيبوليت المحاطة بالجبال. كانت الوديان الصغيرة مرئية تمامًا منذ عدة أيام، منذ أن جاء الربيع وتبدد حجاب الغيم في السماء. لكن أفكارها كانت في مكان آخر، ولا ترى المنظر. كانت تفكر في اللوحة التي أنهتها أخيرًا في وقت متأخر جدًا، الليلة الماضية. فبينما كان الجميع في الملحق نيامًا، جلست في المطبخ الصغير، أمام كوب من الشاي الأخضر وقررت إنهاء هذه اللوحة التي بدأتها منذ ثلاثة أشهر. تركت نظرها يسرح فوق عتبة النافذة الصغيرة، حيث لا تزال شجيرات التنوب التي صنعها لعيد الميلاد، موجودة. أطالت عيناها الوقوف هناك. ولاحظت بشيء من الحزن أن تلك الفترة تبدو لها الآن بعيدة جدًا. رائحة البرتقال. أغلفة قطع الحلوى المجمعة. بزل الخمسمائة قطعة. في ذلك الوقت بدأت ترسم إميل وهو يكتب مستلقيًا على السرير. لقد مارسا الحب بعد ظهر ذلك اليوم. تركت لوحاتها نصف المكتملة، على حافة النافذة، ولم تتمكن من إكمالها. انقضت عشية عيد الميلاد ثم انحرف كل شيء عن مساره.

ابتعدت جوانا بناظرها عن النافذة والوديان مع وصول إميل إلى المطبخ الصغير، مضطربًا. كان الاضطراب يبدو عليه مرارًا منذ أن بات عالقًا هناك، وبدأ

يحاول إلصاق واقعه على الأشياء المحيطة به. نظرت إليه وهو يجلس إلى طاولة الخشب، ويسأل ربيكا، إحدى الشابتين الكنديتين:
«نحن في أي يوم؟»

غابت نظرتة مجدداً في أعماق قدر البازلاء هذه المرة. بعد عيد الميلاد، تحولت حالات فقدان الذاكرة، العابر، إلى رحلاتٍ حقيقية، إلى هناك، نحو عالمه الآخر، نحو زمانه ومكانه الآخر، حيث تظهر شخصيات من الماضي، ويمكنك هناك أياماً وأياماً، وأحياناً أسابيع. وفي تلك المناسبات النادرة التي عاد فيها إلى هنا، بدا مشوشاً وقلقاً، حتى تمت في النهاية ألا يعود أبداً، حتى لو كان ذلك مؤلماً لها، حتى لو اشتاقت إلى إميلها، ذاك الذي كان عالماً في مكانٍ آخر.

في المرة الأولى التي عاد فيها، بدا هادئاً ومطمئناً لرؤيتها مرة أخرى. كان ذلك في الليل. في منتصف يناير. همس باسمها وظنت أنها سيغمى عليها من شدة الشعور بالارتياح، لأنه كان ينظر إليها منذ أسابيع دون أن يتذكرها.
«جوانا...»

استدارت لتواجهه في السرير، وهي محمومة. من خلال النافذة المفتوحة، كان هلالٌ يضيء كتفيها ورقبتها ووجهها المتسم. كان سعيداً.
«هل ما زلنا في ملكية هيبوليت؟» همس.

وأومات بالإيجاب، دون أن تخبره أن أسابيع مضت منذ عيد الميلاد، وأنه اختفى هناك. ضمَّها بين ذراعيه، واستسلمت لدفء عناقه. لبثا ساكنين متعانقين. كانت جوانا على وشك أن تغفو مجدداً، متمنيةً أن يكون معها صباح الغد، عندما دوى صوته من جديد:

«جميع التعليمات مكتوبة على ورقة. في الدفتر الأسود. لقد أدخلت الورقة تحت مطاط الغلاف.»

«ماذا؟»

وجدت صعوبة في مغادرة النوم وإدراك كلماته.

«التعليمات الخاصة بإعادة دفتر يومياتي إلى والدي.»

فكرت في أنه ربما شعر أخيراً أن فترة اختفائه كانت طويلة، وأنه قد لا يعود منها أبداً. وهذا ما جعله يكلمها بشأن التعليمات. أومات برأسها قائلة:

«حسنًا. سأحتفظ بالورقة معي.»

«سيكون ذلك أفضل.»

صمتَ مطمئنًا. لاعبَ للحظاتٍ يديَّ جوانا، أصابعها التي يجدها ضئيلة الحجم، خاتمَ الزواج الذي كان يديره حول بنصرها. كما واصل اللعب بخاتم الزواج مبتسمًا في الغرفة نصف المظلمة. ثم غفا مطمئنًا.

في المرات التالية، لم يكن واضح الذهن قط كما لم يكن بهذا الاطمئنان لدى عودته إلى ذاكرته. كان مشوشًا، مضطربًا، وعصبيًا. ترافقت إحدى المرات بإصابته بقلقٍ شديد جعل جوانا تتمنى له ألا يعود أبدًا. نعم، لقد خرج كل شيء عن مساره بعد عيد الميلاد، ولم تعد جوانا قادرة على إكمال هذه اللوحة التي تمثل إميل المطمئن، مرحلة تقاسمها فيها وقتًا مستقطعًا أخيرًا، دون معرفة أنه الأخير. لقد احتاج إلى وقت. ثلاثة أشهر. كأنها فترة كُمونٍ وحِدادٍ لإكمال عمله، واتخاذ قرار بمغادرة ملكية هيبوليت.

«هل أنت بخير؟» سألت ربيكا عندما رأت أن جوانا صامتة جدًا أمام طبقها.
«نعم، بخير.»

ربيكا وإيما هما شابتان كنديتان في العشرين والواحد والعشرين من العمر، جاءتا للقيام بجولةٍ في أوروبا قبل استئناف دراستهما في إحدى جامعات اللغات في تورونتو.

«سنجهز لك الليلة طبقًا كنديًا خاصًا.» قالت إيما بلهجتها الغليظة.

أجبرت جوانا نفسها أن تبتسم وتومع موافقة.

«أوه... ما هو؟»

«رغيف اللحم.»

كان إميل يأكل في صمتٍ بجانبهن. لقد أصبح منذ بعض الوقت يواجه صعوبة في المشاركة في الأحاديث، وغالبًا ما يكون مضطربًا ومشتتًا، ونادرًا ما يركز على مهمةٍ ما لأكثر من ثوانٍ معدودة. علامات أخرى من علائم المرض بلا شك.

«ما هذا؟»

«نوع من الشواء باللحم المقروم وفتات الخبز المنقوع بالحليب، والبصل و...»
«والبيض.» أكملت ريبिका.
«مع مقدار جيد من التوابل.»
حاولت جوانا أن تبدو متحمسة.
«يبدو لذيذًا.»

يبدو أنه لا يتذكر أحد أنها لا تأكل اللحوم. في الماضي، كان إميل يتذكر ذلك،
ويبذل جهودًا كبيرة كي يعد لها وجبات نباتية. أما إميل الجديد، فغالبًا ما يغوص في
أحلام يقظة، هي حتمًا ذكريات قديمة تتقاطر. أصبح قليل الكلام، ولم يعد يصغي
إلى الأحاديث. رفعت الفتيات الثلاث رؤوسهن عندما رأيته ينهض في عنف.
«أين أنت ذاهب؟» سألت جوانا.

كانت تكره اضطرابها لمراقبته على هذا النحو، لكن لم يعد لديها خيار منذ
اختفائه الأسبوع الماضي، حين عادت من موقع البناء ولم تجده. بحث الأربعة عنه
لمدة ساعة كاملة قبل أن يجذوه في مدينة آس الصغيرة، مذهولًا تمامًا.
«أردت الذهاب إلى رينو في الكافيتيريا.» أعلن.
في المطبخ، اتجه إميل إلى النافذة الصغيرة المتسخة.
«عاد الهر.» قال.

لم يفهم في الحال ما يقصده، لكنه في اللحظة التالية فتح النافذة، فقفز بوك إلى
داخل المطبخ.

«إنه بوك.» قالت له ريبिका في لطف.
«لا أعرف أسماء جميع قطط البيرنيه الشاردة!»

نظرت الفتاتان إلى جوانا بهيئة مصدومة، فهما لم تعتادا بعد حالات النسيان
التي تصيب إميل. كان من الضروري إطلاعهما على الوضع. أمضى إميل وقته وهو
يسأل الجميع:
«أين نحن؟»

«هل تعرف من جاء بي إلى هنا؟»

«لماذا لا يعيدوني إلى روان؟»

«هل أنتما صديقتان لـ مارجو؟»

كانتا لطيفتين دومًا مع إميل. تحييان عن أسئلته، حتى الأكثر إلحاحًا وتكرارًا.

«إنها ليست قطعة شاردة. إنه بوك. إنه قُطِّك.»

أشارت جوانا خفيةً إلى الفتاتين أن يهملًا الأمر.

«سأعرف لو أن لدي قطعًا.» أجاب إميل وهو يعود للجلوس إلى الطاولة.

لم يركز أحد على الموضوع. استأنف تناول وجبته وبعد دقائق قليلة، عندما انتهى، أخذت جوانا طبقه وقالت له في لطف:

«اذهب وخذ قسطًا من الراحة. سأوقظك حين أعود.»

في مطبخ الملحق، الصغير، راحت الفتيات الثلاث يغسلن الأطباق في صمت.

«ستغادرين إذا؟ أعني... ستغادرين حقًا؟» سألت إيميا فجأة.

عبست جوانا دون أن تفهم.

«نعم. سأغادر حقًا.»

وأضافت بنبرة دفاعية:

«لماذا؟»

هزت إيميا كتفيها بحركة عجز.

«كنا نظن أنكما ستبقيان معنا حتى شهر مايو.» أكدت ريبيكا.

«فقد اعتدناكما.»

لم تستطع جوانا منع نفسها من الابتسام حين رأت وجهيهما المتوترتين.

«ثم إن هيبوليت بدا قلقًا... بسبب حالات النسيان التي تصيب إميل...»

أضافت إيميا.

تذكرت جوانا المناقشات الطويلة التي دارت بين بايين من أبواب الملحق، مع

هيبوليت، عندما أخبرته أنها ينويان المغادرة.

«أنت نحيلة مثل غُصَين. ماذا ستفعلين إذا سقط؟»

ومع ذلك لا بد من المغادرة، فقد بات إميل منهكًا، وانتكاساته في تزايد ولم يعد بإمكانه المشاركة في تقدم أعمال البناء. كان يقضي أيامه محبوسًا في غرفته، يدور في دوائر، وتحشى في كل دقيقة من اليوم أن يهرب ويضيع من جديد. لا يمكنها مراقبته طوال الوقت. عليها أن تعمل. ولا معنى لوجودها هنا، وهذه الغرفة الصغيرة المخصصة لشخصين وهذا الطعام الذي يقدمه لهما هيبوليت، إلا لأنها تسعى جاهدة للعمل عن شخصين في موقع البناء. والحق أنها هي أيضًا تضعف. هيبوليت هو من أعطاهما عنوان (القرية الإيكولوجية) في ليسكان بجبال البرينيه. كان أحد أصدقائه الرعاة خلف المشروع المتمثل في تجديد أكواخ رعاة قديمة وتحويلها إلى مساكن وفق معايير بيئية. الآن يحاول سكان هذه القرية الصغيرة التي يسكنها حوالي خمسين شخصًا، إقامة حديقة خضروات كبيرة للزراعات المستدامة بهدف تأمين الاكتفاء الذاتي للقرية من الفاكهة والخضار. زعم هيبوليت أن السكان ما زالوا يبحثون عن متطوعين يساعدونهم.

«يمكنك إعطاء دروس رسم للأطفال.» أعلن.

«أنا متأكد أن هذا سيروق لهم كثيرًا!»

فُتنت جوانا على مهلهما بالفكرة، وساعدها هيبوليت على تحديد مسار الوصول إلى هناك. أرسل رسالة إلى صديقه الراعي، وبدا مطمئنًا لأنها سيكونان هناك، وسط مجتمع، لا بمفردهما، في مواجهة أزمات إميل. سيكون هناك دومًا مَنْ ينتبه لـ إميل، فكرت جوانا.

في المطبخ، بدت ريبكا وإيما محببتين وحزيتين بعض الشيء لرؤيتهما يغادران مبكرًا بهذا الشكل.

«سنكون في هذه القرية البيئية الصغيرة... هيبوليت هو من أعطانا العنوان. إنه مقتنع بأننا سنكون بخير هناك.»

بدت الفتاتان متشككتين.

«هل سيرحل بوك معكما؟» سألت إيما.

هزت جوانا رأسها بالإيجاب، وازداد إحباط إيما.

«سنتفقه هو أيضًا.»

ابتسمت جوانا للفتاتين اللتين بدتا لها فجأة أكثر شبابًا مما هما عليه.

«حالات الرحيل الحقيقية، الأكثر تراجيدية، هي تلك التي لن تحدث أبدًا». أعلنت بشيء من الغموض. رأتهما تقطبان حاجبيهما وتبادلان النظرات. بعد هذه الكلمات اتسعت ابتسامتهما أكثر وغادرت المطبخ.

علا صرير الحصى تحت قدمي جوانا وهي تسير بثقل نحو عربة التخميم. منذ عدة أيام وهي تمارس طقوس الاستعداد، وليس من دون توجُّس. بعد العمل في موقع البناء، تغادر الملكية وتصعد إلى عربة التخميم. تجبر نفسها على قيادتها لبضع دقائق، في المتعرجات الجبلية. لم يعد لديها خيار. فتحت الباب الذي أصدر صوت صرير خفيف، وصعدت جوانا إلى الداخل خلف عجلة القيادة، مع الشعور اللعين بأنها ضئيلة وغير قادرة على قيادة الآلة.

في ضوء النهار الذي يميل إلى نهايته، خلف الوديان، يُغلق الباب وتُضاء المصابيح الأمامية بينما تدير جوانا مفتاح التشغيل. قبل أن تغادر الطريق المرصوف بالحصى الصغيرة، تلقي نظرة نحو الملحق ونافذة مطبخه الصغير، المضاءة، حيث تقوم ربيكا وإيما بإعداد وجبة لوداعهما. لم يكن إميل هناك، بل بقي في غرفته. قالت للفتاتين وهي تخرج:

«ألقيا نظرة عليه... سأغيب عشرين دقيقة، لا أكثر.»

غادرت العربة الطريق في بطاء. لم تستطع تجاوز السرعة الثانية. فهي لم تمارس قيادة العربات قط. في سان سولياك، كانت تنتقل دائمًا سيرًا على الأقدام أو بالدراجة. أصر جوزيف أن تحصل على رخصة قيادة لأنها في ذلك الوقت لم يكونا يعلمان بعد أنها ستتولى وظيفة الحارس في المدرسة. كان يعتقد أنها ستحتاج إلى سيارة للبحث عن عمل. لقد حصلت على الرخصة لكنها لم تقد قط. لم يكن لديها سيارة هناك. لكنها اليوم مضطرة إلى ذلك. أصبحت ردود أفعال إميل أبطأ فأبطأ، ومن ثم هناك احتمال أن يتعرض لإغماءات في أثناء القيادة. انطلقت في حذر على الطريق الجبلي الصغير. كانت متوترة خلف عجلة القيادة، لكنها شعرت أنها تحرز تقدمًا، وأنها أصبحت أقل توترًا بالفعل. أصبحت قيادتها أكثر مرونة. راحت

تكرر لنفسها كلمات كان يقولها لها والدها وهي طفلة: بما أننا لا نستطيع تغيير اتجاه الريح، يجب أن نتعلم توجيه الأشرعة.

إنها جملة مقتبسة من جيمس دين، تحب أن تذكر نفسها بها عندما تحتاج إلى الإيمان بنفسها، عندما تبدو الأمور صعبة. إنها تبدو مثل تشجيع. أن تتكيف يعني أنك عرفت كيف تتعامل مع الوضع الصعب. عليك أن تعرف كيف توجه أشرعتك، دائماً.

«لن هذه البطاقة؟»

لقد تم الأمر وغادرا الملكية، هيبوليت، وإيما وريبيكا. وقبل أن يسلكا الطريق المؤدي إلى ليسكون، توقفوا في مركز مدينة آس الصغيرة. يعد مصطلح مركز المدينة كبيراً لأن كل الأعمال التجارية في آس تقتصر في الواقع، على بائع جرائد. حرصت جوانا على اختيار بطاقة بريدية تمثل كوخ رعاة جميل في وادٍ مغطى بالثلج. حاولت أن تخط فوقها بضع كلمات على طاولة التاجر، حتى تتمكن من إيداعها صندوق البريد من هنا، قبل استئناف الطريق. أخذ صاحب المتجر يراقبها بطريقة غريبة. ربما بسبب إميل الذي كان ينظر في كل مكان ويبدو مشوشاً بعض الشيء.

«إنها لسياستيان.» أجابت جوانا دون أن ترفع نظرها عن بطاقةها البريدية.

«من هو سياستيان؟»

أخذ يمد يده إلى المجلات وجوانا تنظر إليه على نحو زاجر لأن صاحب المتجر يراقبها بعين شريرة.

«صديق.»

«لماذا تكتئين له؟»

حاولت استئناف الكتابة في أثناء الرد عليه.

«لقد وعدته بأن أكتب له من كل مكانٍ نذهب إليه.»

انحنى إميل فوق كتفها محاولاً قراءة كلماتها.

«إليك البطاقة.» قالت وهي تعطيها إيها.

«ألا تريد وضع توقيعك في الأسفل؟»

نظر إليها بغرابة.

«لماذا أوقع؟ أنا لا أعرفه...»

«لا بأس. إنه يعلم أنني أسافر معك.»

«ألهذا أخبرته عني في الرسالة؟»

«نعم، لهذا السبب.»

وضعت القلم بين يديه.

«هنا، ضع توقيعك في الأسفل. سيكون ذلك لطيفاً منك.»

امتثل بطيب خاطر. إميل هذا، لطيف، مثل إميل الآخر.

رنت مجموعة أجراس معلقة عندما دفعا باب متجر التبغ الصغير.

«وداعاً يا سيدي.» قالت جوانا.

«وداعاً. طاب يومكما.»

خرجوا إلى الرصيف، وكانت عربة التخييم متوقفة أمامهما مباشرةً.

«جوانا؟» سأل إميل.

«نعم!»

فتحت الأبواب واستدارت نحوه وبيدها المفاتيح.

«أعتقد أنني أتعرض الآن لفجوة في الذاكرة.»

حاولت أن تظهر الخفة والمرح. يتعين عليها أن تبقى خفيفة مرحة دائماً. تلك

هي القاعدة. هكذا يتغلب إميل على مرضه دون الكثير من القلق.

«أوه حقاً؟»

«نعم.»

«ولماذا تعتقد ذلك؟»

«بسبب سياستيان هذا...»

نظر إليها بعينٍ ممتلئة بالاستفهام.

«من المفترض أن أعرفه، أليس كذلك؟»

هزت كتفها.

«أتظن ذلك؟»

«نعم، أظن ذلك. وأنتِ أيضًا، من المفترض أنني أعرفكِ، أليس كذلك؟»
نظر إليها نظرة طفلٍ صغير، نظرة ممتلئة بالتوقعات والأسئلة، وعبثت بشعره
في مودة.

«ربما، ولكن ليس للأمر أي أهمية.»
شجعته على ركوب عربة التخميم لكنه ظل جامدًا.
«هل أنت واثقة؟» سأل.

أومات برأسها في لطفٍ أيضًا. إنها تحب هذه النسخة الجديدة من إميل، هذا
الصبي الصغير الذي أصبح عليه. تحبه قدر حبها لنسخته الأخرى، العالقة هناك.
هل هما في العمق نسختان مختلفتان من إميل؟
«أنا واثقة. أؤكد لك. هيا، اصعد. لدينا طريق طويل لنقطعه.»
امتثل بطيب خاطر، وقد بدا عليه الاطمئنان.

«إلى أين نحن ذاهبان يا جوانا؟»
استأنفا الطريق، وخريطة طرقات البيرنيه والأتلانتيك ممدودة على لوحة
القيادة، وكانت جوانا تنظر إليها بانتظام.
«نحن ذاهبان إلى ليسكون. إنها قرية صغيرة تحدث عنها هيبوليت...»
هز كتفيه، فهو لا يتذكر.
«سترى. سنكون بخير هناك.»
«ماذا سنفعل هناك؟»

«سوف نقيم مع مجموعة أشخاص آخرين ونساعدهم على تأمين سبل مستدامة
لعيش المجموعة. يمكننا المشاركة في تنفيذ الزراعة المستدامة أو في مهام أخرى.»
وجّه نحوها نظرة قلقة.
«وبعد ذلك سنعود إلى روان؟»
أومات برأسها.
«نعم. بعد ذلك سنعود إلى روان.»
«متى؟»

ابتلعت ريقها وعادت تنظر إلى الطريق، فهذا يسهّل لها التفكير في ردّ تقدمه له.

«عندما تتعافى وتصبح في حالٍ أفضل.»

«هل جئنا من أجل هواء الجبل النقي؟ من أجل صحة عقلي؟»

أخذ يعيد طرح هذه الأسئلة نفسها عليها بانتظام، وكأنه يريد التأكد من أنه قد فهم بشكل صحيح، ولم ينس. لا بد أن الأشياء قد اختلطت بشدة في رأسه، وكان في حاجةٍ إلى سماع نفسه يكررها.

«هذا هو بالضبط، إميل.»

تمكنت من طمأنته، فغاص في مقعده وترك رأسه يستند إلى النافذة.

«أخبرني هيبوليت عن مكانٍ يمكن أن نتوقف فيه قبل الوصول إلى ليسكون، دعنا نقول لمدة يومين أو ثلاثة أيام. مكان قريب جدًا من هنا.»
«أوه حقًا؟»

«في وادي أوسو الذي نعبه توجد محمية طبيعية وهي من أكبر أوكار النسور. يبدو أننا إذا صعدنا إلى قمة بين دي بيون يمكننا رؤية نسور غريفون السمراء ونسور بركنوبتير المصرية تخلق في السماء.»

استطاعت أن تثير اهتمامه. نظر إليها غير مصدق.

«حقًا؟»

أكدت بإيحاءة.

«إذاً هل أنت مهتم؟»

«نعم، مهتم.»

«عظيم. لنذهب إلى هناك.»

ملأ الصمت المقصورة بضغ ثوانٍ، ثم التفت إميل نحوها مرة أخرى.

«ما الذي أسميته النسور المصري؟»

«بركنوبتير مصري.»

«ماذا؟»

«نسر بركنوبتير. ب.ر.ك.ن.و.»

«ثم بتير.»

وضعا طاولتهما الصغيرة القابلة للطهي وكرسيين أمام عربة التخميم. لم يستغرقا أكثر من ربع ساعة للوصول إلى قرية آستيه بيون، وهي وكر حقيقي للنسور. ثم وجدا طريقًا صغيرًا من التراب والحجارة يؤدي إلى مرج مهجور. في ذلك المكان قررا إيقاف سيارتهما.

«هل أقوم بإعداد الشاي؟» اقترح إميل.

«فكرة جيدة.»

انتهزت جوانا الفرصة لإخراج الملاءات التي لا تزال رطبة كونها غسلتها قبل المغادرة، بواسطة غسالة الملحق في ملكية هيبوليت. مدتها بين كرسيين، بشكل غير مستقر، راجية ألا تطيح بها هبة ريح. لا يزال يفوح منها رائحة صابون مرسيليا مع نفحة من عطر فاكهة. في تلك الأثناء، كان بوك يتجول حول العربة ويتشمم المكان.

«هل تتدبر أمرك جيدًا؟» سأله، وهي تدس رأسها عبر باب العربة.

في المرات الأخيرة التي أراد فيها إميل الطهي في ملكية هيبوليت، أو ببساطة أراد تسخين الماء، انتهى به الأمر بنسيان إطفاء النار، إلى أن وصلت جوانا في الوقت المناسب لتجنب الكارثة. لكن إميل كان هذه المرة يركز انتباهه أمام الغلاية، وتتابع عيناه حركة الفقاعات عبر البلاستيك الأبيض. وقفت جوانا على رؤوس أصابعها كي تمسك بإبريق الشاي الجميل، إضافة إلى فنجانين أصليين من الخزف، اشترتهما في صباح أحد أيام نوفمبر، بالقرب من البحر، في غرويسان. ثم أمسكت الصندوق الحديدي الصغير الذي خزنت فيه الشاي الأخضر باللوز، والذي اشترته أيضًا من غرويسان. كانت منهمكة أمام منضدة العمل، عندما نزل عليها سؤال إميل بشيء من الفظاظ:

«هل كنتِ متزوجة؟»

لم تفهم على الفور كيف خطر له هذا السؤال، ثم لاحظت نظراته المستغربة إلى بنصر يدها.

«تزوجتِ مرتين؟» سأل مرة أخرى قبل أن تتمكن من الإجابة.

«عفوا؟»

«لديك خاتما زواج...»

كانت بالفعل تضع خاتمي زفافهما في بنصر يدها.

في صباح أحد أيام شهر يناير، في الملحق، وجدت خاتم إميل على الأرض. لا بد أنه خلعه متسائلاً عما تفعله هذه الحلقة الفولاذية الشبيهة بخاتم زواج، في إصبعه. لا بد أنه وضعه على طاولة سريره، ثم سقط أرضاً. التقطته عن الأرض ووضعت في إصبعها فوق خاتمها.

«آه... لا...» أجابت، غير قادرة على منع نفسها من أن تبسم من السؤال.

«لا... لم أتزوج مرتين.»

«لماذا لديك خاتما زواج؟»

«لأن...»

صبت الماء في إبريق الشاي وهي تبحث عن إجابة مناسبة.

«لأن زوجي يضيعه طوال الوقت... لذا عليّ أن أضعه في إصبعي نيابةً عنه.»

رأته بزاوية عينها، يومئ برأسه.

«لماذا يضيعه؟» سأل.

«بسبب شرود ذهنه.»

«أوه.»

وضعت الغطاء الخزي الصغير فوق إبريق الشاي ووضعت على صحيفة. كانت على وشك أن تقترح عليه أن يأخذ الفنجانين ويتبعها إلى الخارج، عندما رن صوت إميل مرة أخرى:

«هل يعاني هو أيضًا من فجوات في الذاكرة؟»

أعادت الصحيفة إلى المنضدة وابتسمت له.

«نعم. هو أيضًا.»

«لم ينس أنكما زوجان في الأقل؟»

كانت عيناه الصغيرتان مذهولتين ومرعوبتين.

«نرجو أنه لم ينس ذلك.» أجابت وهي تهز كتفها بخفة.

«حسنًا... هل نشرب هذا الشاي؟»

تطل قمة بين دي بيون على قرية آستي بيون. هذا الجرف هو موطن لمستعمرة من النسور، تم إعلانها من الأنواع المحمية. تحتمي هذه النسور في تجاويف الصخور، وإلى ذلك المكان اتجهنا بعد ظهر هذا اليوم يحملان حقيتي الظهر وزجاجتي مياه. راحت جوانا تعمل بانتظام على إبطاء وتيرة إميل المسرعة:

«لا ترهق نفسك. خفف سرعتك، لدينا الوقت.»

كانت تخشى أن تراه ينهار في الطريق جراء انخفاض مفاجئ آخر في الضغط. تسلقا في ظل طقس معتدل، وتوقفا من وقت لآخر لمشاهدة الوديان في الأسفل، وقطعان الأغنام أو الأبقار التي ترعى، والتعرجات الممتلئة بالحصى التي تتلوى عبر المساحات الخضراء. وعند وصولهما إلى هناك، انتظرا زهاء ساعة قبل أن يتمكننا من مشاهدة أول نسر وهو يقطع. بدا إميل نافذ الصبر وهو يجلس على العشب مُقاطعا ساقه، ويتسلل باقتلاع الأعشاب. علمته جوانا طريقة صنع سوار الأقحوان لكنها رأت أن ذلك قد أضجره. وفي النهاية، سمعا تلك الطقطقة الحادة في الهواء، صوت الجناحين العملاقين وهما يُنثران. لقد شهدا في ذهول، الطيران المهيّب لطير جارح ضخم، على بعد أمتار قليلة منهما. احتاجا إلى عدة دقائق كي يتزعا أنظارهما بعيدا عن السماء حيث لم يبقَ من الطير الجارح سوى نقطة سوداء صغيرة. تكلمت جوانا أولاً.

«هل سنأتي غداً أيضاً؟ سوف أحضر معي أدوات الرسم.»

وافق إميل وسأل بشكلٍ محموم:

«هل كان هذا نسرَ بركنوبير المصري؟»

3 مارس

آستي بيون، شمس ربيعية ناعمة. في عربة التخيم، أجلس على المقعد الطويل.

لم يسبق أن رأيت الطيور الجارحة من هذه المسافة القريبة. عندما طار بجواري مباشرة، كان الأمر أكثر إثارة من أي شيء رأيته على الإطلاق! هذه الطيور ضخمة، يمكنها أن تكسر أعناقنا بنقرة واحدة تقريباً من منقارها. تنفي الفتاة ذلك، لكنني لا أظن أنها خبيرة بالنسور...

أعشق هذه القرية وخصوصًا جرف النسور! تقول الفتاة إن هناك متحفًا عن النسور في المدينة ويمكننا الذهاب إليه في الغد. قالت إنني بعد ذلك، ربما أستطيع أن أميز نسر بركنوتير المصري (أملت علي الاسم عندما لم أتذكر كيفية كتابته). على أي حال، لا أستطيع الانتظار حتى الغد!

استأنفا طريق بين دي بيون بعد الوجبة. وصلا إلى هناك منذ نحو ساعتين. رسمت جوانا السماء والوديان بالأسفل. أخذت استراحة قبل أن تتولى المهمة الأكثر تعقيدًا: رسم نسر غريفون الأسمر. وضعت فرشاتها جانبًا ورفعت وجهها عن لوحها القماشية. كان إميل بجانبها مباشرة، وعلى ركبتيه مجلد كبير من الورق شديد اللمعان. ذهبوا هذا الصباح، كما وعدته، إلى متحف (جُرف النسور). بقي إميل، الذي يعاني من صعوبة في التركيز منذ عيد الميلاد، هادئًا تمامًا لمدة ساعتين ونصف الساعة، وعينه تنظران إلى الصور الضخمة المعروضة. في متجر الهدايا التذكارية، اشترت له مجلدًا جميلًا بصفحات لامعة يضم الأنواع الرئيسية من النسور. ومنذ ذلك الحين لم يعد يتركه. فكرت في أنه عندما ينغمس كحالِه الآن، في صور الطيور الجارحة، يذكُرُها بصغيرها توم. إنه يذكرها بصغيرها توم وهو يرسم أزرقه.

في ذلك المساء، قررت جوانا إخراج لعبة المونوبولي القديمة التي قدمتها لهما ميرتيل. يبدو إميل مندهشًا لرؤية اللعبة التالفة مدببة الخواف ولرؤية الرمز بالفرنكات.

«كيف حصلتِ على هذه؟»

«أعطتني إياها صديقة.»

«لا بد أنها صديقة متقدمة في العمر...»

أومأت بالإيجاب. نظر إليها إميل وهي تُخرج لوح اللعب وتغده على الطاولة أمام المقعد الطويل.

«كانت مارجو تكره هذه اللعبة. ما كانت لتلعب بها معك أبدًا.»

هزت جوانا كتفيها بلا مبالاة وهي تواصل وضع البطاقات التي فرزتها حسب اللون.

«لكنك أنتِ تحب اللعب.»

قطب حاجبيه.

«كيف عرفتِ ذلك؟»

«عرفته.»

«هل أنت من صنف الآلهة؟»

«ربما.»

وافق أخيرًا على أخذ مكانٍ بقربها على المقعد الطويل، في أثناء وضعها بيدَين، أحدهما أصفر والآخر أخضر، على خانة الانطلاق.

«مارجو لا تلعب إلا الدومينو.» أشار وهو يمسك قطعتي النرد.

«حقًا؟»

«أنت تعرفين ذلك ما دمت صديقتها. ألسِ كذلك؟»

نظر إليها متفحصًا. أومأت بالإيجاب.

«نعم، بالطبع.»

«هل أنتما في المدرسة نفسها؟»

«عقوًا؟»

«مارجو في المرحلة الابتدائية الأخيرة، وأنتِ؟»

أشارت له نحو الخانة كي يحرك بيده. تقدم ثلاث نقلات.

«أنا أيضًا في المرحلة الابتدائية الأخيرة.»

قبل بضعة أيام كان يزعم أنه على موعد مع رينو في الكافتيريا. وها هو يرجع هذا المساء إلى المدرسة الابتدائية.

«إميل... همستُ بعد ثوانٍ.»

«نعم!»

«سيتعين علينا غدًا أن نغادر إلى القرية الصغيرة التي حدثنا عنها هيبوليت.»

لقد توقعت بالضبط هذه الحيلة على وجهه، لذلك فضلت أن تجربته منذ هذا المساء.

«هل سيكون هناك نسور؟»

«لا أظن...»

«لا أرغب في الذهاب إلى هناك.»

«يمكننا أن نعقد اتفاقاً إذا.»

«أي اتفاق؟»

«نذهب غداً من جديد إلى جرف النسور، ثم نغادر.»

رأته يومئذ موافقاً ويلقي النرد.

«حسنًا، وبعد ذلك نعود إلى روان.»

فضلت ألا ترد بشيء.

غير العادي يكمن في طريق الناس العاديين. هذه الكلمات القليلة من باولو كويلو هي التي تبادرت إلى ذهن جوانا عندما دخلت ليسكون في ذلك اليوم. المناظر الطبيعية الساحبة في وهج الغسق توحى لها بقصائد ولوحات وأنغام بيانو. لم ترَ قط شيئاً بهذا الجمال. قرَضَ المشهدُ نفسه بوصفه بديهاً وفهمت أنه المكان الذي كان يجب أن تأخذها هذه الرحلة إليه، منذ ذلك اليوم الأول في منطقة الاستراحة على طريق روان السريع.

«هل أنت بخير؟» سأل إميل.

لم تحاول إخفاء الدموع التي تترقق في زاويتي عينيها.

«نعم، أنا بخير.»

لم يخمن بعد أن هذا سيكون هو المكان المقصود، وأنه وصل إلى مأواه الأخير. أوقفت العربة في بطءٍ على جانب الطريق، وأطفأت المحرك. أرادت أن تمنح نفسها الوقت لاكتشاف هذا الجمال النقي.

تسمرت جوانا مذهولة خلف عجلة قيادة العربة، وأمامها أحد أجمل الأحواض الجليدية في جبال البيرينيه. حوض طبيعي شكلته الأنهار الجليدية وحددته قمم من حجر جيري، تحمل أسماء أسطورية: طاولة الملوك، إير أنسابير، وأرغن كامبلون. لم تكن تعلم أن ليسكون تسمى (دولوميت البيرينيه)، وأن هذه القرية، التي تقع على ارتفاع ألف متر فوق مستوى سطح البحر، هي أعلى بلدة في الكتلة الصخرية، وأنها تقع مقابل أعظم قمم جبال البيرينيه - قمة آني، وقمة بيّار، وقمة ليور... وتصل جميعها إلى ارتفاع ألفي متر.

راحت عيناها تجوبان هذا الحوض الطبيعي، هذه المنحدرات الجيرية ذات البياض السريالي، التي تبرز مثل أسنان حادة موجهة إلى السماء. تقع القرية في جوف هذا الحوض شبه المغلق. لا تزال تجهل حالياً، أن ليسكون هي البلدة الأكثر أصالة، وأنها حافظت على أسطحها الحجرية، وشوارعها الضيقة التي تصطف على

جانبها منازل ذات جدران سمكية، منازل حجرية ذات أبواب خشبية بفتحات صغيرة نموذجية للغاية. ولا تزال تجهل أنها إذا سارت في الممر الضيق المؤدي إلى الكنيسة، سيذهلها اكتشاف أحواض تعود لزمان قديم، بعضها يستخدم لغسيل الثياب، والبعض الآخر لسقاية الدواب... وأن القمم والغابات عند طرف القرية، تُجاور مروج قش، وأسيجة وحظائر وأسوارًا أصيلة منخفضة. ومع مرور الأيام، ستكتشف حدائق الزهور الجميلة التي تزين الشوارع الضيقة في فصل الربيع. سوف تكتشف الزهور الأرجوانية التي تغطي بشكل طبيعي منحدرات الطرق الصغيرة المؤدية إلى الحظائر؛ زهور قرنفل، وليمونير، وأوركيديا، مع نظيراتها الصفراء من خشخاش وزهرة الربيع...

سوف تستمع، في مقاهي القرية، إلى القصص الأبدية لمعركة ليسكون، التي تشيد بشجاعة أهالي ليسكون في مواجهة الجيش الإسباني. لا تزال تجهل هذا كله، لكن دموعها أمام جمال المنظر هي بشارة جميلة بكل ما ينتظرها.

«هل أنت جوانا؟»

مدت المرأة يدها القوية لهما. كان لها وجه صبغته الشمس بالسمرة، وكان شعرها وعيناها يشتركان في لونٍ أسود عميق، مع أنفٍ مستقيم.

«تشرفتُ بكم، اسمي إيزادورا. والذي هو بيير آلان، صديق هيبوليت. وقد تلقى رسالته. كنا في انتظاركما.»

كل شيء في جسدها ينضح بالديناميكية: ابتسامتها، ونبرة صوتها النشطة، وإيقاع صوتها، ونظرتها المفعمة بالحياة، ويدها المربعتان الكبيرتان. لا بد أن عمرها لا يزيد عن خمسة وثلاثين عامًا.

«ولا بد أنك إميل؟»

بدا إميل كأنه قد خرج لتوه من كتاب مصور للأطفال. استدارت عيناه بنظرة استفهامية وخائفة قليلًا من شأنها أن تجعل أي شخص يضحك. إلا أنه صافح اليد الممدودة، وبقي صامتًا.

«هل لديكما كرافان؟»

«لدينا عربة تخيم.»

استدارت الشابة وألقت نظرة على قرينهم الصغيرة المكونة من أكواخ رعاة،
والواقعة وسط سهلٍ بعيدٍ عن البلدة.

«سوف نحتاجان إلى قطعة أرضٍ صغيرة.»

استدارت نحوهما.

«كم من الوقت تخططان للبقاء هنا؟»

بدت جوانا غير مرتاحة.

«هل يمكن لأحد أن يصطحب إميل في جولةٍ في القرية؟ سننتهز الفرصة لمناقشة ذلك...»

لم تشأ التحدث عن مرض إميل وموته الوشيك، في حضوره. أو مات إيزادورا برأسها بحيوية، ووضعت في فمها إصبعين لتُطلق صفيراً حقيقياً، التفتت عند سماعه رؤوس ثلاثة رجال.

«ماريكو! تعال هنا من فضلك!»

جاء رجل طويل القامة، ذو سُمرٍ عميقة، وعينين عميقتي السواد أيضاً، ينسدل شعره الطويل على كتفيه ويرتدي خاتماً على حاجبه.

«أقدم لكما شريك حياتي.» أعلنت إيزادورا.

حيّاهما الرجل في حرارة. أضافت إيزادورا:

«ماريكو قادم من البيرو. التقيته خلال إحدى رحلاتي إلى أمريكا اللاتينية.»

لم تمنحهما الوقت للرد، بل التفتت إلى شريكها.

«هل تتولى أخذ إميل في جولةٍ حول القرية؟»

«لا مشكلة.» أجاب بلكنته الإسبانية القوية.

شعرت جوانا بشيءٍ من الحزن وهي ترى إميل يتعد بكل طواعية، وعيناه مملتان بأسئلةٍ صامتة.

أخذتها إيزادورا جانباً نحو الزقاق الذي يحد أكواخ الرعاة الحجرية.

«يبدو كأنه في مكانٍ آخر.» لاحظت.

أو مات جوانا بالإيجاب.

«هل هي المخدرات؟»

فوجئت بسؤال إيزادورا.

«لا. إنه مرض ألزهايمر مبكر.»

ارتسم تعبير أسف على وجه إيزادورا وهي تعلن:

«هذا سيء.»

أشارت إلى جدارٍ حجريٍّ صغيرٍ كي تشجعها على الجلوس. جلسنا هناك، بينما كانت الشمس تغيب تمامًا فوق القرية الصغيرة.

«إذًا، اشرح لي كل شيء. هل أنتما هنا لفترة من الوقت؟»

«نعم. نحن هنا ننتظر...»

ضيقَت إيزادورا عينيها.

«تنتظران؟»

«لم يعد أمامه وقت طويل يعيشه.»

«أوه!»

حاولت إيزادورا التعبير عن أسفها بنظرة تعاطف لكن جوانا أبقت عينيها مثبتتين على منحدرات الحجر الجيري.

«هل يخضع لعلاج؟»

«لا. رفض أن يتابعه الأطباء.»

«حسنًا. هل... هل تعرفين كم من الوقت بقي له؟»

أبعدت جوانا نظرها عن المنحدرات البيضاء لتلتفت أخيرًا نحو إيزادورا.

«لقد أعطاه الأطباء عامين في يونيو الماضي. لكن الأمور تتسارع.»

وسارعت لمواصلة الكلام، كيلا تعطي إيزادورا الوقت لطرح مزيد من

الأسئلة:

«سيكون قادرًا على المساعدة في مهمتين أو ثلاث. كان ماهرًا جدًا في ذلك

الوقت. الآن كل ما في الأمر أنه شارد. سيتعين علينا مراقبته. بالنسبة لي أنا، أعتقد

أنني أستطيع المساعدة في الزراعة المستدامة. لدي مهارات جيدة في البستنة.»

أومأت إيزادورا. لقد اختفت نظرة التعاطف، واستأنفت دورها كمشرِفة

القرية.

«ليس لديك مهارات خاصة في اليوجا أو التاي تشي؟ نحن نبحث عن معلمين.»

رفعت جوانا حاجبها مندهشة.

«أوه حقًا؟»

«نحن نهتم بالتنمية البشرية أيضًا، وليس البيئية فقط. نقيم أنشطة عديدة. ماريكو، على سبيل المثال، يقوم بتعريف الشباب بالكابويرا. ويقول إن ذلك يفيدهم جدًا، جسديًا وعقليًا.»

هزت جوانا رأسها.

«أنا لا أمارس اليوجا أو التاي تشي. لكنني بالمقابل...»

ترددت غير واثقة بأن تدريبها لإميل كان مثمرًا جدًا.

«لنقل إنني أستطيع تدريب الراغبين على التأمل.»

التمعت عينا إيزادورا مثل قطعتين صغيرتين من الهياكيت.

«عظيم! أتعلمين؟ أنا متأكدة أنكما لم تأتيا إلى هنا مصادفة! كثيرًا ما يقولها

ماريكو: لنتنبه إلى الإشارات.»

رفعت جوانا حاجبين صغيرين تعبيرًا عن دهشتها.

«هذه العبارة ليست لـ ماريكو...» قالت في خجل.

بدأت عينا إيزادورا تضحكان صراحةً هذه المرة. هزت رأسها.

«لا، أنت على حق. إنها لباولو كويلو... أليس كذلك؟»

تمتمت جوانا وهي تومئ برأسها:

«الخيميائي.»

تبادلتا نظرة تواطؤ. نظرة اعتراف متبادل. هذه إشارة التقطتها كلتاها.

يتكون الكوخ الصغير من غرفة رئيسية تعد مطبخًا وغرفة طعام. لا تزال الأرضية والجدران مصنوعة من حجر خام. هناك طاولة خشبية طويلة تتسع للضيوف الخمسة، والكراسي مصنوعة من خشب الزان الصلب مع مقعد من قش تالف. في إحدى زوايا الغرفة، يشتعل موقد خشبي قديم ينشر حرارة لطيفة.

مقابل الجدار الخلفي، الخالي من النوافذ، يوجد موقد غاز أبيض، وحوض متصدع من الحديد الزهر، وثلاجة قديمة المظهر، وخزانة خشبية كبيرة يفترض أنها لتخزين الأطعمة. أوضح ماريكو بدقة:

«أردنا الحفاظ على تصميم داخلي من طراز تعمّدنا أن يكون قديمًا. كوحنّا يشكل استثناء في القرية. معظم الأكواخ الأخرى حديثة.»
قال وهو يشير إلى موقد الغاز والثلاجة:

«حصلنا على جميع أجهزتنا المنزلية من مجموعات للنفايات غير خاضعة للرقابة. عملنا على إعادة تصميمها لتلبية المعايير البيئية الحالية.»
أوضحت إيزادورا مخاطبة جوانا:

«كان ماريكو يعمل في مجال إصلاح الأجهزة المنزلية في البيرو. هذا اختصاص مفيد.»

حول الطاولة، تحت الضوء الباهت لمصباح عاري، راح خمسة أشخاص يتشاركون وجبة ترحيب. تمت دعوة إميل وجوانا إلى كوخ ماريكو وإيزادورا بصحبة بير آلان، والد إيزادورا وصديق هيبوليت. كانت إيزادورا قد وفرت لهما جولة كاملة في القرية البيئية الصغيرة وعرفتهما إلى السكان الذين صادفاهم قرب مسكن أو حديقة صغيرة. في هذه القرية التي يبلغ عدد سكانها خمسين نسمة، معظم السكان متقاعدون، كما أوضحت إيزادورا. عمل معظمهم في مجال البيئة والمناظر الطبيعية والأغذية الزراعية. يشكل باقي السكان مجموعة انتقائية: أشخاص نشطون يقسمون وقتهم بين عملهم والقرية، وعائلات لديها أطفال، وأشخاص غير قادرين على العمل بسبب إصابة أو إعاقة، وقرروا استثمار وقتهم في مشروع له معنى. يشارك الأشخاص النشطون في حياة القرية بشكل رئيسي في عطلات نهاية الأسبوع. هذه هي حال إيزادورا وماريكو. لا يزال ماريكو يعمل في مجال إصلاح الأجهزة المنزلية. تُطلب خدماته في المجتمعات المحيطة، فيذهب بسيارته الرينو ترافيك القديمة. تعمل إيزادورا نادلة بدوام جزئي في أحد مقاهي البلدة، يدعى مقهى دولوميت. ليس لديهما أطفال حاليًا ولا يعرفان ما إذا كانا سيختاران إنجاب طفل يومًا ما أم لا. أما بير آلان، فهو متقاعد، أمضى حياته يعمل راعيًا، وقام دائمًا

بحملات من أجل حماية التراث الرعوي في ليسكون وجبال البيرينيه بشكل عام. هو الذي بدأ يخبرهما عن أكواخ هذه القرية البيئية:

«هذا السهل الذي تقع فيه القرية كان منطقة مرعى صيفي تُنقل إليه القطعان خلال الأيام المشمسة حتى بداية الخريف. في مناطق المراعي الصيفية، مثل هذه، كنا نجد دائماً جميع أنواع المباني، ولكل منها استخداماته الخاصة. الأوريس، مثلاً، يتمثل في أكواخ كانت تستخدم لتخزين الحليب والجبن والحبوب. كانت أكواخاً صغيرة تواجه الشمال من أجل البرودة. الكوخ الذي أنتم فيه الليلة هو أوريس. أما أكواخ الكورتال فهي حظائر للأغنام أو مخازن للمعدات والسماد العضوي. إنها مزودة بعمود مركزي ومغطاة عموماً بالقش. هناك واحد منها في القرية البيئية. سأريكما إياه. يسكنه زوجان متقاعدان.»

عندما قادتها إيزادورا عبر القرية الصغيرة في وقت سابق، اكتشفت جوانا، مندهشة، أكواخاً مبنية من أحجار قديمة جافة، تبقى أبوابها مفتوحة بشكل دائم. وأوضحت إيزادورا أن العلاقات كانت تقوم على الثقة المطلقة. تنتج الحدايق الصغيرة الملحقة بالأكواخ نبات الكراث وبعض الخس. وهناك حظيرة دجاج تضم حوالي عشر دجاجات حمراء ممتلئة الأعناق. كان الحقل المخصص للزراعة المستدامة يقع بعيداً عن المساكن المحاطة بسياج خشبي صغير. تم بالفعل وضع صندوق السماد في ركن من الحقل، ويبدو أن سرباً من الذباب يحرسه. أطلعتهما إيزادورا على أكوام التراب المخصب بالسماد، الذي يساعد على تشكيل دبال غني ومستقر وينمي المزروعات. أخبرتهما عن نباتات عطرية تتم زراعتها ضمن رقع صغيرة تشكل نتيجة ترتيب أحجار بشكل لولبي تعلو إلى ارتفاع متر، موفرة لكل نبات أفضل الظروف لنموه.

«النعناع والثوم المعمر، على سبيل المثال، يحبان التربة الرطبة الباردة. تتم زراعتها عند قاعدة اللولب. وتوضع النباتات التي تفضل الظل الجزئي، مثل البقدونس، ولسان الثور، والكزبرة، على السفوح. وفي الأعلى سنجد النباتات التي تحتاج إلى أقصى قدر من ضوء الشمس.»

«مثل الزعتر أو إكليل الجبل أو الخزامى؟» سألت جوانا. وجهت لها إيزادورا ابتسامة تفاهم.

«بالضبط. أرى أنك فهمت كل شيء».

انطلقتا مجددًا نحو القرية بالخطى المطمئنة نفسها، بينما واصلت إيزادورا، بعينين لامعتين، التعبير عن حيويتها:

«الزراعة المستدامة تتعارض مع الزراعة الكلاسيكية. لم نعد نزرع في خطوطٍ مستقيمة. يُسمح للنبات أن ينمو بالسرعة التي تلائمها وأن يختلط بالنباتات الأخرى. في الطبيعة، لا توجد زراعة أحادية. وهذا الاختلاط بين النباتات هو ما يحميها من الأمراض والآفات».

وصلتا إلى القرية. كان إميل وماريكو ينتظرانها أمام كوخ الزوجين، الصغير. أضافت إيزادورا على عجل:

«ستتاح لنا فرصة الحديث عن ذلك مرة أخرى في الأيام المقبلة، ولكن في الختام بشأن فكرة الزراعة المستدامة، هناك ثلاثة مبادئ يجب تذكرها. الاعتناء بالأرض وبجميع أشكال الحياة فيها. الاعتناء بالناس وبناء المجتمع، وإعادة توزيع الفائض. هذا هو ما يقوم عليه مجتمعنا بأكمله».

حول الطاولة، بقي إميل صامتًا نتيجة خوفه من وجود الغرباء. لم يفتح فمه منذ وصولهما إلى القرية.

قبل تناول الوجبة، دلتها إيزادورا على قطعة أرضٍ صغيرة، في طرف القرية، تبلغ مساحتها حوالي مائة متر معدة للزراعة المستدامة، كي ينزلا فيها. كانت عربية التخميم مكرونةً فيها. ستقوم جوانا غدًا بإخراج الطاولة والكرسيين، وربما تجمع بعض الأحجار لصنع ممر صغير يقود إلى باب كوخها الصغير.

«هل يريد أحدكم المزيد من الحساء؟» سألت إيزادورا، وهي تنهض لمغادرة الطاولة.

هز الجميع رؤوسهم. تراخى ماريكو على مسند كرسيه، وأخرج أوراقًا كي يلفها وأخذ يملسها على حافة الطاولة. عقد بير آلان يديه فوق بطنه. لا يزال رجلًا مفعمًا بالحيوية، بجسدٍ نحيل وجاف. شعره رمادي، وحاجباه كثيفان يتجه طرفاهما نحو قمة رأسه، وأنفه شبه معقوف. كان مثل ابنته، ينضح بقدرٍ لا مثيل له من الديناميكية والطاقة.

بينما اتجهت إيزادورا إلى الموقد لإعادة قدر الحساء الكبير، جالت جوانا بنظرها داخل الكوخ. يبدو أنه إضافة إلى الحجرة الرئيسية التي يجلسون فيها، والتي تشبه حجرة طعام، لا توجد سوى حجرة واحدة أخرى يقود إليها باب خشبي إلى يمين مخزن الأطعمة. فكرت جوانا أنها تضم الحمام والمرحاض. وأوضحت إيزادورا أن جميع المنازل في القرية مجهزة بمراحيض لا تستعمل فيها المياه، وأن السيد الذي يترام بهذه الطريقة يشكل نعمةً للزراعة المستدامة. أما مياه الاستحمام، فإن منظومة تمديدات تحت أرضية تقود تلك المياه نحو نباتات الحدائق، وكذلك نحو نباتات الزراعة المستدامة. ولهذا السبب، يُمنع استخدام المواد الكيميائية منعاً باتاً في القرية. وأوضحت إيزادورا: «لا شيء سوى الصابون الحلبي الطبيعي 100%».

استمرت نظرة جوانا في التجول في جميع أنحاء الغرفة. على الحائط إلى يسارها، لاحظت سلماً خشبياً، مطلياً باللون الأحمر، يسمح بالصعود إلى علية صغيرة يمكن أن تُرى فيها حشية بملاءات زرقاء، إضافة إلى مصباح صغير من السيراميك بجانب السرير، تم وضعه على الأرض مباشرة. لا بد أنها غرفة النوم.

جفلت عندما خاطبتها إيزادورا:

«سقفها ليس عاليًا جدًا، أليس كذلك؟ لحسن الحظ أننا لا نعاني من زُهاب الأماكن الضيقة!»

وضعت على الطاولة وعاء سلطة بداخله تفاح كبير كثير العصير وبعض الجوز المتبقي من الشتاء. استفاق بير آلان من قيلولته القصيرة وجلس على كرسيه.

«إذا ما المشاريع التي تريد المشاركة فيها؟» قال ملتفتاً نحو جوانا.

عادة نحو عربة التخيم تحت جناح الليل المرصع بالنجوم. أعارتهما إيزادورا مصباحاً يدوياً. بدت القرية بأكملها نائمة. خيل ل جوانا أنها رأت في البعيد خيال بوك يمر سريعاً بين الأكواخ، وأملت ألا يؤذي الدجاجات الحمر. شعرت بالإرهاق بعد أمسية غنية باللقاءات والمعلومات. أبدى بير آلان حماسه لاقتراح جوانا بإنشاء مجموعة تتدرب على التأمل. وقال إن الموعد الأول يمكن أن يكون

يوم السبت بعد أربعة أيام. وفي الوقت نفسه، قام بتسجيلهما ضمن فريقه من السحرة المبتدئين لتنفيذ الزراعة المستدامة.

«نحن مجموعة صغيرة من عشرة أشخاص، يشارك كلٌّ منهم وفقًا للوقت المتاح له. سترين كم سيكون الأمر شاقًا. يقود المجموعة جيلبير عالم النبات، وزوجته لوسيا منجم حقيقي للمعلومات أيضًا. كانت تمارس العلاج بالأعشاب. شعرت جوانا بالإرهاق والإثارة معًا بسبب الآفاق التي تفتحها لهما هذه القرية. لقد فهمت أن كل فرد هنا يهتم بالآخرين. لن تخشى بعد الآن من ترك إميل دون مراقبة لبضع ساعات. سيتمكنهما دومًا الاعتماد على أحدهما هنا.

كان صامتًا عندما فتحت باب عربة التخميم وشيًا مجددًا رائحة عفونة المكان المغلق، الشهيرة، ورائحة الشاي. مكتبة سُر من قرأ
«إميل؟» سألت في لطف.

«هل أنت بخير؟»

كان وجهه شديد الشحوب، وبدت على ملاحظه علامات عدم الفهم. لا يزال صامتًا لم يقل كلمة واحدة، ولم يفهم ماذا يفعلان هناك. لم يعد يفهم أي شيء. لم يكن بخير. ولم يسبق لها أن رأتَه مشوشًا إلى هذا الحد.

«سيكون الأمر على ما يرام... أعلم أنه مكان جديد وأن الأمر يخيفك، لكننا سنكون بخير هنا... كل هؤلاء الأشخاص الذين رأيتهم الليلة سوف يعتنون بنا. سوف نتعلم كيف تتم الزراعة المستدامة.»

ابتسمت له، وهي تحاول أن تبدو مطمئنة، لكن ذلك لم يحقق الأثر المطلوب، فقد ظل إميل جامدًا وشاحبًا.

«إميل؟» أصرت، في محاولة للحصول على رد فعلٍ منه.

أخذت تراقبه بعناية، ورأت تفاحة آدم ترتفع وتنخفض وهو يتلع ريقه، ويستعد للكلام.

«أريد العودة إلى المنزل.»

في البداية، كان رد فعلها الوحيد ابتسامة مطمئنة.

«ستكون الأمور على ما يرام إميل.»

لقد اعتادت تساؤلاته المستمرة بشأن عودتهما إلى روان. حتى الآن، كانت تنجح دومًا في صرفِ نظره. لكنه أصر بصوتٍ أقسى:

«أريد العودة إلى روان.»

شعرت أن الأمر مختلف هذه المرة، وأن هناك رعوثةً في صوته ولهبًا في عينيه.

«سنعود عندما تصبح صحتك...»

قاطعها في فظاظه:

«لا. أريد - العودة - الآن!»

بالكاد نطق بتلك الكلمات. كان غاضبًا، ضائعًا، مفزوعًا وعيناه تومضان بشدة. أصبح شحوب بشرته أشد من ذي قبل.

«أعيديني إلى منزل والدي.»

بقيت متسمةً مذهولة. كرر:

«أعيديني. لم أعد أريد أن أكون معك هنا. أريد العودة إلى بيتي.»

رأته يشرع في مغادرة العربة فأوقفته في لطف.

«انتظر، إميل... انتظر... لن تغادر في منتصف الليل، اليس كذلك؟»

خشيت أن يكتشف الذعر في صوتها.

«سنغادر في الصباح، حسنًا؟ سنتنظر طلوع النهار...»

أخذ ينظر إليها الآن في ارتياب.

«لم يسبق لي أن رأيتك.»

«بلى يا إميل... كلانا يعرف الآخر.»

ضرب بقبضته فوق منضدة العمل في فظاظه، وبدأ يصرخ بصوتٍ مرتفع جدًا:

«أنا لا أعرفك! لقد سرقَت هاتفي الخلوي وتمنعيني من العودة إلى بيتي!»

فكرت سريعًا في الجيران النائمين، وحاولت أن تكون أكثر لطفًا لتشجيعه على خفض صوته.

«إميل، أنت تعلم أن هذا ليس صحيحًا. لم أسرق هاتفك قط.»

مع ذلك صرخ بصوتٍ أعلى عندما أجاب:

«أين هو إذًا؟»

«إنني...»

«أعطيني إياه!» طالب.

نزلت قبضته من جديد فوق منضدة العمل، وأطلقت عيناه نظرات غضب حيواني. خيل لها أنها تشاهد أسدًا في قفص. فتراجعت بشكلٍ غريزي، وعيناها تمهويان كل أرجاء عربة التخيم بسرعة كبيرة بحثًا عن حل.

«لا... لا أستطيع...»

أخذت تلثثم، وشعرت أنها محاصرة، وعاجزة عن إيجاد مخرج. باتت الآن خائفة. خشيت أن يضربها في ثورة أعصابه. خشيت أن يهرب أيضًا. بدأت تتكلم بسرعة كبيرة بصوتٍ منخفض للغاية، وهي تلهث:

«غذاً يا إميل. سوف نعود غداً. يجب أن تصدقني. لقد فات الأوان الآن...»

إنها العتمة.

انفتح باب عربة التخيم في عنف، مثيرًا ضجة في الليل. وفي الثانية التالية، أصبح خارج العربة.

«إميل!»

اختفى ظلُّه بسرعة كبيرة في الظلام. اندفعت خلفه وهي تقفز من أعلى درج العربة.

«إميل!»

اشتعل ضوء في كوخ قريب. ركض إميل بسرعة. كانت تجد صعوبة في اللحاق به. نادته محاولةً عدم الصراخ وعدم تنبيه الجوار.

«إميل! إميل، عُدْ! أرجوك، سأشرح لك!»

أضاء في الليل كوخ آخر. اضطرت أن تتوقف للحظة، مبهورة الأنفاس. شعرت بالضعف. منذ أسابيع وهي تشعر بالضعف وتخشى من التعرض لدوخة.

«سوف تضيق! إذا ذهبت بمفردك في الليل، سوف تضيق!»

تكلمت بصوتٍ أعلى مما أرادت لأنه كان قد ابتعد. لقد سبقها بسهولة. انفتح باب إلى يمين جوانا. وقف رجل عند العتبة.

«هل كل شيء على ما يرام؟» سأل وهو يسلط عليها مصباحًا يدويًا.

أضيء كوخ ثالث.

«إنه... إنه صديقي.» تلعثمت جوانا.

«إنه... يعاني من حالات فقدان ذاكرة. يحاول الهرب.»

سمعت صوت تحطم الحصى تحت قدمي الرجل الذي انضم إليها.

«إلى أين ينوي الذهاب؟»

هزت جوانا رأسها في عجز.

«لا أعرف.»

وضع الرجل مصباحه اليدوي بين يدي جوانا.

«امسكي هذا، وابقى هنا. سأحاول منعه.»

رأته ينطلق راکضاً. سرعان ما أصبح ما تلمحه منه هو قامة سوداء. اضطرت أن تغمض عينيها حتى يتوقف المنظر من حولها عن التراقص. سمعت صوت الرجل يعلو في العتمة، تلاه صوت إميل الذي كان يصرخ بأعلى ما يستطيع:

«أريد فقط أن أعود إلى المنزل! دعوني أذهب! لا يحق لكم احتجازي عنوة!»

وصلت جوانا بخطوات قصيرة، وهي توجه ضوء المصباح اليدوي أمامها. أصبحت أفضل، وزال شعور الدوخة. ما كان يجب أن ترهق نفسها طوال فصل الشتاء. كان ينبغي لها أن توفر قوتها استعداداً لمثل هذه الاحتمالات. الغضب والشجارات ومحاولات الهرب.

عندما وصلت أمام إميل والرجل، رأت أن هناك أشخاصاً آخرين. رجال. أضيئت أكواخ عديدة وفتحت أبواب. كانت النساء قلقات عند عتبات الأكواخ، وشمر الرجال عن سواعدهم معتقدين أنهم يتعاملون مع قتال. شقت جوانا طريقها بين الرجال المحيطين بإميل ودفعتهم بعيداً عنه.

«اتركوه! لا تؤذوه! إنه مريض فحسب... إنه يفقد ذاكرته.»

تحرك الرجال جانباً. قام اثنان منهم بحمل إميل، كلٌّ منهما بذراع.

«لقد حاول أن يضربنا.» قال الرجل الذي يحمل المصباح اليدوي.

«أنا آسفة... حقاً آسفة... إنه لا يعرف ماذا يفعل، لا يعرف...»

لكن صرخة إميل الغاضبة قاطعتها، ممزقة الليل:

«اتركوني، يا عصابة القتلة!»

راح يركل في الفضاء. جمدت ساقه للحظة في الهواء، وتشنج وجهه، ثم تلاشى كل شيء، مثل صورة رديئة الجودة على الشاشة. أظلم كل شيء، وغام كل شيء. انهار إميل على الأرض مثل دمية من خرق، مثلما انهار جوزيف بين نباتات الطماطم قبل ثلاث سنوات.

راح وميض أضواء سيارة الإسعاف، الحمراء والزرقاء، يتراقص في عيني جوانا الخائفة. بات الحشد مكتظاً أمام إميل وسيارة الإسعاف. لم تكن جوانا ترى شيئاً باستثناء الأضواء الساطعة. عندما انهار إميل، جمدها الرعب ولبت عاجزة عن الحركة. كان الرجل الذي يحمل المصباح هو من اتصل بالإسعاف. لبثت متسمة في مكانها فيما أخذت الأضواء تُنار في الأكواخ واحداً تلو الآخر، ويتوافد السكان، وقد نبهتهم الأصوات المذعورة التي تصرخ:

«سيارة الإسعاف قادمة!»

«أفسحوا المجال!»

«اطلبوا من ماريكو أن يبعد شاحته!»

أمسكوها من ذراعها، ونقلوها جانباً، حيث أُجِلست على الأرض، وأحضرت لها ستره. همس لها صوتٌ، هو حتماً صوت إيزادورا، قائلاً لها ألا تقلق، وأنهم يعتنون به، وأن النجدة وصلت. بقيت صامتة وطبعة، عاجزة عن الحركة.

تفرق الحشد الآن وتمكنت جوانا من رؤية النقالة التي يحملها رجلان ويضعانها داخل سيارة الإسعاف. سوف يأخذونه. لبثت عاجزة عن القيام بأي استجابة. وذلك بسبب صورة جوزيف الذي سقط في حديقته، ثم صورة الرجال الذين أخذوا توم الصغير في السيارة نفسها. فجأة انحنت إيزادورا نفسها أمامها كي تكون في مستواها.

«جوانا، سوف يأخذونه... ربما تريدان مرافقته...»

أومات برأسها، ونهضت في بطءٍ ولحقت بـ إيزادورا إلى السيارة التي أضاءت أضواءها الساطعة كافة. تبادلت إيزادورا بضع كلمات مع أحد المسعفين، الذي قام

في الثانية التالية، بمساعدة جوانا على الصعود من الخلف قبل أن تنغلق الأبواب. كانت آخر صورة تلتقطها هي صورة إيزادورا التي تلوح لها. بدأت السيارة تتحرك. نظرت إلى جسد إميل اللاواعي. كان أحدهم قد وضع قناع أكسجين على وجهه، وراح رجل يلصق أقطابًا كهربائية على صدره. نُزع عنه قميصه.

«سيدتي، اجلسي.»

امتثلت. الطريق مرصوف بالحصى. كان عمود تعليق السيروم يهتز بشكلٍ خطر.

فجأة مثل أمامها رجل يحرك شفتيه. كان يكلمها، وهي تحاول التركيز.

«... قليّة؟»

«عفوًا؟»

كرر بشكلٍ أبطأ:

«هل تعرض لأزمات قلب سابقة؟»

هزت رأسها. سمعت نفسها وهي تتكلم هامسة عن حالات إغماء بسبب انخفاض ضغط. جاءها جواب المسعف من خلال صافرة الإنذار:

«قلبه ينبض بلا انتظام. لا بد أن الأزمة سببها بطن في القلب. شعر على الأرجح بدوخة قبل أن يسقط... أو ضيق في التنفس. هل تحدث عن ذلك؟» هزت رأسها منهكةً ضائعة.

«كان... كان مذعورًا. إنه يتعرض لحالات فقدان ذاكرة، قوية. أراد الرحيل في

منتصف الليل... أردنا منعه...»

وجه إليها المسعف ابتسامة طمأنة.

«لا تخافي يا سيدتي. سنعتني به.»

تم كل شيء بسرعة كبيرة. قفز المسعفون من السيارة. وضعوا النقالة على سرير متحرك. اختفت وسط ضجيج العجلات التي تهتز على الرصيف. راح الرجال يركضون أمامها. شعرت بيدٍ على كتفها، وضغط خفيف يوجهها. جدران بيضاء. معاطف بيضاء. أضواء نيون شاحبة وعدوانية. وجوه. بعض الابتسامات. أنفاس

الرجل الذي يرشدها، نفحات خفيفة من القهوة. كرسي بلاستيكي رمادي أشير إليها أن تجلس عليه.

«اجلسي هنا. سوف نأتي لأخذك.»

نظرت إلى يديها الموضوعتين فوق فخذيها، كما لو أنها ليستا يديها حقًا. الأظافر طويلة وقذرة بعض الشيء. الشقوق والدمامل منتشرة فيهما، نتيجة شهور العمل الطويلة في ورشة هيبوليت. نظرت إلى يديها اللتين بدتا فجأة غريبتين، صغيرتين وباردتين. كان خاتمنا الزواج، أحدهما فوق الآخر، في بنصرها. خاتمنا زواج ليسا في الواقع خاتمي زواج، ولكنهما يسوغان وجودها هناك هذا المساء، يسوغان سعيها بكل السبل لمنع إعادة إميل إلى روان، رغمًا عنه. اتركوني، يا عصابة القتل!

لا بد أنها غفت، لأنها لم تفهم على الفور أين هي، ومن هو هذا الرجل الواقف أمام وجهها، وماذا تفعل يده على كتفها. كانت لديه ساعة طبية تتدلى حول رقبته ويرتدي نظارة ذهبية الإطار. شعرت بتيس في رقبته وكتفها.

«سيدتي، اتبعيني.»

عادت إلى رشدها وهي تتبع الرجل. يبدو أنه يرتدي حذاءً بلاستيكيًا يلسع الأرض بنقرة غريبة. أدخلها إلى أحد المكاتب، وانغلق الباب خلفها. أشار لها إلى كرسي مصنوع من رغوة زرقاء دميمة.

«اجلسي هناك.»

أطاعت. راحت تمدد إلى المقلمة فوق مكتب الطبيب المصنوع من خشب الجوز. مقلمة صفيح طليت باللون الأصفر، وألصقت عليها زخارف خضراء. هي بالتأكيد هدية عيد الأب. لا بد أن لديه طفلًا.

«حسنًا. صديقك بخير.»

توقف الطبيب قليلًا واغتنمت جوانا الفرصة لتغيير جلستها. اتكأت على مسند الظهر، وشعرت أن كتفها لم تعودا متيبستين.

«لقد أجرينا له تخطيط قلب. يبدو أنه يعاني من عدم انتظام ضربات القلب، دون وجود سبب لذلك.»

منحها الوقت كي تستوعب المعلومة. أوامات.

«كي أكون أكثر دقة، إنه يعاني من بطء القلب. ضربات قلبه ليست غير منتظمة وحسب، بل بطيئة جدًا أيضًا. أقل من ستين نبضة في الدقيقة. ما يجعل القلب غير قادر على إمداد الجسم بالقدر الكافي من الدم والأكسجين، خصوصًا في أثناء بذل مجهود بدني.»

مال إلى الأمام محققًا بعينه الخضراوين الصغيرتين، إلى عيني جوانا.
«في أي ظروف حدثت النبوة؟»

«كان يركض.»

«يركض؟»

«كان يركض و... يقاوم ويرفس.»

بدا أن العينين الخضراوين ضاقتا أكثر.

«إنه يعاني من حالات فقدان وعي.» أوضحت جوانا.

«ألزهايمر مبكر. كان يمر بإحدى تلك الأزمات التي لا يعود يعرف فيها أين هو. أراد مغادرة القرية في منتصف الليل، وحاولنا إعاقته.»

رأت يدي الطبيب المربعتين مشبوكتين على مكتبه المصنوع من خشب الجوز.

«لنأخذ كل قضية على حدة. أولًا، بطء القلب...»

استقام على كرسيه.

«القلب ينبض في بطء شديد وهذا يؤكد ما قلته لك... يكون القصور ملموسًا

في أثناء المجهود البدني، مثل هذا المساء.»

استطلع ملاحظها ليحصل على إقرارها، وهو ما فعلته، مضيفًا في خجل:

«الطبيب الذي فحصه عدة مرات تحدث عن هبوط في ضغط الدم...»

«ليس هذا هبوطًا في الضغط، إنه بطء في القلب.»

مال إلى الأمام من جديد، وشبك يديه على المكتب.

«كنت تتكلمين عن حالات فقدان ذاكرة...»

تقلبت بعدم ارتياح في الكرسي الرغوي الأزرق. هل كان عليها أن تتحدث عن ذلك حقًا؟

تذكرت رد فعل الأطباء في مستشفى بانير دو بيغور هذا الصيف، الذين لم يتركوا لها أي خيار، عندما اتصلوا على الفور بمركز التجارب السريرية وبوالديّ إميل. نعم، لكن الأمور مختلفة الآن. هذا ما تحاول جوانا إقناع نفسها به وهي تعبث بخاتمي الزواج في إصبعها، بتوتر.

«إنه يعاني من مرضٍ نادر... شبيه بـ ألزهايمر مبكر، يلحق أضرارًا كبيرة بدماغه.»

شعرت كأنها تتقلص تحت نظرات الطبيب التي بدت فجأة قلقة.

«تقولين إنه مرض نادر؟»

أومات.

«ما هو؟»

«أنا...»

أرخت نظرها تجاه أطراف حذائها.

«لا أعرف الاسم...»

فكرت أنه كان عليها أن تسأل إميل عن اسمه، وهو بكامل وعيه. الآن فات الأوان. مال الطبيب إلى الخلف مستندًا إلى مقعده وحاول إظهار قدرٍ أكبر من اللطف.

«لا تقلقي. سنجد ذلك في ملفه الطبي. أتصور أن بطاء قلبه متصل بهذا

المرض...»

خلع نظارته المستديرة ذات الإطار الذهبي ومسحها في شرود، وبدأ كأنه يفكر.

«أليس هناك متابعة طبية لمرضه؟»

غيرت جوانا من جديد وضعية جلوسها على كرسيها مع شعورٍ متزايد بعدم الارتياح. حاولت أن تكرر لنفسها: كل شيء على ما يرام الآن، نحن متزوجان.

«لا... لقد عرضوا عليه اختبارات سريرية لكنه رفضها. المرض عضال...»

وهو يرفض دخول المستشفى.

نما لديها انطباع بأن الطبيب يراقبها بشك متزايد، ولكن ربما يكون هذا من نسج خيالها. وضع النظارة مجددًا فوق أنفه، في بطاء.

«سنضطر للعودة إلى سجله الطبي.»

أومأت برأسها، ثم سألت في خجل:

«وبعدها تسمحون له بالخروج؟»

قطب الطبيب حاجبيه بهيئة سلطوية.

«هذا كله يتوقف على أمورٍ أخرى.»

«يتوقف على ماذا؟»

حاولت ألا تبدو وقحة للغاية وملحة، لكن الأمر صعب. إنها تشعر بارتفاع منسوب الذعر لديها.

«سنبداً بإبقائه تحت المراقبة لبضعة أيام بسبب بطء القلب الذي يعاني منه.»

أخذ ينقر بأصابعه النحيلة فوق المكتب المصنوع من خشب الجوز.

«سنحتاج إلى الاطلاع على ملفه الطبي. قد يكون مرضه النادر هو سبب

مشاكل قلبه ومشاكل أخرى قادمة. لا يمكننا السماح له بالذهاب حالياً.»

شعرت بقلبها ينقبض. يبدو أن كل ما كانت تحشاه على وشك أن يتحقق.

أدخل إميل إلى المستشفى، وتم وصله بأجهزة طبية، بالكاد بعد ساعة واحدة من

وصولها إلى هذا المكان الصغير الرائع. شعرت أن الذعر يملكها ويسد حلقها.

قالت بصوتٍ مخنوق:

«لقد طلب مني صراحة أن أبعده عن المستشفيات... نحن متزوجان وأنا

الوصية القانونية عليه... ومستعدة للتوقيع على أي وثيقة تُخلي مسؤولية المشفى

كي يتمكن من المغادرة.»

قاطعها الطبيب بإشارةٍ من يده.

«لقد تأخر الوقت يا سيدتي. عانيت من أحداث المساء، ويجدر بك أن تذهبي

وترتاحي، وسنعود للحديث عن ذلك في هدوءٍ في الغد، ما رأيك؟»

وجه إليها ابتسامة أرادها عطوفةً ولكنها مع ذلك لم تخلُ من تسلط. أومأت

جواناً مدعنةً. لم يكن لديها هذه الليلة قدرة على المقاومة. نهض الطبيب من مقعده

الجلدي. تقدم خطوة نحو المخرج واستدار نحوها:

«هل أوصلك إلى الخارج؟ من الأفضل أن تطلبي سيارة أجرة...»

لكنها لم تتحرك. يجب أن تقول ذلك... لا يمكنها المغادرة دون أن تتأكد...

«دكتور...»

«نعم!»

«أنا الوصية القانونية عليه... إذا كان هناك أي شيء... أي قرار ستتخذونه، يجب الاتصال بي... اتفقنا؟»

ابتسم لها في عطف.

«لن نتخذ أي قرار الليلة. اطمئني. وضع زوجك مستقر. سوف يستفيد من الليل كي يرتاح ويتعافى. ستحدث مجددًا عن هذا كله صباح الغد، بذهنٍ صافٍ. اتفقنا؟»

أذعنت ونهضت في بطاء. فتح الطبيب الباب ومد لها يده.

«نلتقي غدًا. أتمنى لك ليلة هائلة.»

شاهدها تختفي في صمت في الممر الأبيض للمستشفى، بهذه المشية الغريبة، الثقيلة والخفيفة، معًا. ثقيلة لأنها تبدو كمن يحمل عبءًا ثقيلًا. وخفيفة لأنها تبدو وكأنها تطفو فوق الأرض.

أسرعت إيزادورا لملاقاة جوانا، وهي تنزل من سيارة الأجرة أمام القرية النائمة. كانت الأضواء مطفأة في أكواخ الرعاة، فقد أوى الناس إلى أسرّتهم، باستثناء إيزادورا التي كان عليها أن تنتظر عودتهما بنفاد صبر.

«هل الأمور بخير يا جوانا؟»

كانت تقف أمامها متعبة وقلقة.

«هل قررنا إبقاءه؟»

أومأت جوانا قائلة:

«لبضعة أيام.»

أخذتها إيزادورا إلى كوخها محيطةً كنفها بذراعتها.

«تعال، لقد صنعت لك نقيعًا سوف يساعدك على النوم.»

ينفتح باب الكوخ وتكتشف جوانا ماريكو مستيقظًا، جالسًا إلى الطاولة الخشبية أمام كتاب. كان المصباح العاري يضيء الكوخ، ريفي الطابع، بوهج خافت.

«هل الأمور بخير؟» سأل ماريكو، وهو يسحب لها كرسيًا داعيًا إياها للجلوس. جلست في بطة، بينما ذهبت إيزادورا لإحضار إبريق شاي قديم عن موقد الغاز. كافحت جوانا لجمع أفكارها والتحدث:

«إنها مشكلة في القلب...»

رأت عيونهما تتسع تمامًا.

«قلبه ينبض في بطة شديد، ولم يعد قادرًا على إمداد الجسد بالأكسجين والدم، خصوصًا في أثناء المجهود البدني.»

وضعت إيزادورا إبريق الشاي الأسود القديم المصنوع من الحديد الزهر وثلاثة فناجين صغيرة، ثم جلست قرب جوانا وسألت في لطف:

«هل هذا مرتبط بمرضه الآخر... مرض الزهايمر؟»

أومات جوانا.

«نعم، مرتبط به... إنه بسبب...»

لا تتذكر أنه أعطاها إيضاحات إضافية. كان الأمر يتعلق فعلًا بتلف جذع الدماغ، ولا تعرف المزيد.

«جزء من دماغه يتعرض للتلف.»

خيم في الكوخ صمت ثقيل. مرت دقيقة قبل أن تقرر إيزادورا ملء الفناجين الصغيرة. يبدو أن صوت الماء المتدفق في الفناجين قد أيقظ جوانا. استقامت فجأة وتململت.

«عندما كانت الأمور لا تزال واضحة في ذهنه، قام بيننا اتفاق، جعلني أتعهد بعدم إعادته إلى منزل أبويه أبدًا. أراد أن يموت بعيدًا عن الأنظار، بعيدًا عن أحبائه. هذا هو سبب رحيله عنهم.»

توقفت فقط ما يكفي لالتقاط أنفاسها.

«هذا هو سبب زواجنا... حتى أصبح الوصية القانونية عليه وأقرر بشأن نهاية حياته. لم يشأ أن يموت في مستشفى. أراد الموت في الطبيعة... في الجبال...»
رفعت نحوهما وجهًا حازمًا. لا يخشى أحدًا. كانت تستعد لمواصلة كلامها والإعلان عن عزمها على الوفاء بوعدهما، لكن ماريكو قاطعها برزانة:
«لقد شاهدت والدتي تموت في بطنٍ في إحدى غرف الموت التي تسمى غرف الرعاية المخففة للألم. لا أتمنى ذلك لأي شخص. لو لم يكن لدي أخ كبير جبان وخائف يضغط على العائلة بأكملها، لا اختطفُها وأحضرُها إلى هنا، وسط الجبال، لمنحها موتًا جديرًا بهذا الاسم. ما زلت ألوم نفسي على ذلك.»
ابتلع ريقه في حزنٍ وأضاف.

«أنا أؤيد مبادرتك وهذا الوعد الذي قطعته له. اعتري أن لديك موافقتنا بخصوص كل ما سيجري في القرية... إنه اتفاق رسمي.»
أومأت إيزادورا موافقةً. استرخت جوانا إلى الخلف متكئةً في ارتياح كبير على ظهر كرسيها. نظرت إلى يديها الموضوعتين على ركبتيها. ولم تدرك إلا في تلك اللحظة أن رجفاتٍ تعترىها. يدان صغيرتان باردتان ومرتعشتان.

مكتبة

t.me/soramnqraa

لبثت جوانا صامته في سيارة ماريكو رينو ترافيك البيضاء، فكّاهها مشدودان ونظراتها مثبتة نحو البعيد على الطريق. وجدت صعوبة كبيرة في النوم. كان بوك قد ذهب للتصيد، الأمر الذي لم يساعد على تهدئتها. وعندما غفت أخيراً في الصباح الباكر، كان نومها مضطرباً وغير شافٍ.

توقفت سيارة ماريكو مطلقاً صوت خردة معدنية غير مطمئن، أمام المدخل الرئيسي للمستشفى. التفت ماريكو نحوها، دون أن تفارقه ابتسامته الدافئة. ولا حتى في ظل هذه الظروف.

«سأنهي جولتي الصباحية عند الظهر.» قال بلكته الإسبانية القوية.

«سأعود لاصطحابك في الثانية عشرة والربع. اتفقنا؟»

أومات برأسها وشكرته قبل أن تقفز من السيارة. اصطفق الباب. اتجهت في ببطء نحو الأبواب الزجاجية.

لم يسعفها الوقت للوصول إلى باب غرفة إميل، الذي أشارت إليه الموظفة في مكتب الاستقبال. اعترضها الطبيب الذي التقته ليلاً. لا بد أنه كان يترقب وصولها. كان هناك، بالمتزر الأبيض نفسه الذي كان يرتديه في اليوم السابق، بنظارته ذهبية الإطار وعينه الخضراوين الصغيرتين.

«اتبعيني من فضلك.»

تبعته وجلست في المكتب نفسه، على الكرسي الأزرق الرغوي نفسه. لا تزال علبة الأقلام بلونيهما الأصفر والأخضر، موجودة على المكتب المصنوع من خشب الجوز. ابتسم لها الطبيب وصمت بضع ثوانٍ قبل أن يتكلم.

«حسنًا، أولاً وقبل كل شيء، كوني مطمئنة. إميل في حالة جيدة هذا الصباح. وقد عاد قلبه إلى إيقاعه الطبيعي.»

منحها الوقت لاستيعاب المعلومة واغتتم الفرصة كي يسترخي في مقعده الجلدي.

«لقد أعطيناه جرعة من الأتروبين واستجاب القلب بشكل جيد.»
ركزت عيناه الخضراوان على جوانا، التي شحب وجهها جدًا هذا الصباح.
أصبحت نبضة الطبيب أكثر جدية:

«وجدتُ وقتًا لإلقاء نظرة على ملفِّه الطبي هذا الصباح. هذا بالضبط ما كنت أخشاه. يرتبط ببطء القلب ارتباطًا مباشرًا بمرض التنكس العصبي النادر.»
منح جوانا بضع ثوانٍ للإيماء أو لقول شيء، لكنها لبثت ثابتة ومستقيمة في مقعدها الأزرق.

«كانت نيتي الأولى عندما وصل زوجك إلى غرفة الطوارئ الليلة الماضية هي التخطيط لزرع جهاز تنظيم ضربات القلب. إنها عملية كبيرة ولكنها أيضًا الحل الأكثر فعالية وجذرية في حالات بطء القلب. يتعلق الأمر بجهاز طبي يتم زرعه في جسم المريض ويوفر نبضات كهربائية تهدف إلى تحفيز القلب عندما يتباطأ كثيرًا.»
التقط أنفاسه واغتتم الفرصة لتنظيف أنفه خفيةً.

«لكنني، بعد مراجعة الملف الطبي، أدركت أن الأمور أكثر تعقيدًا. يحدث بطء القلب بشكل مباشر بسبب إتلاف المرض للدماغ، وبالتحديد أكثر لجذع الدماغ، الذي يدير جميع وظائف الجسم الحيوية. يمكننا علاج بطء القلب ولكنني أخشى أن يؤدي ذلك إلى خرق في مكانٍ آخر، إذا جاز لي القول.»

بقيت جوانا ساكنة تسعى جاهدة للتحديق إلى علبة الأقلام، ذات اللون الأصفر والأخضر.

«سوف تتأثر الوظائف الحيوية الأخرى أيضًا عما قريب. ضغط الدم، وظيفة التنفس، تنظيم حرارة الجسم... ليس اضطراب ضربات القلب سوى أحد المظاهر العديدة لهذا التدهور الوظيفي. أيضًا...»

استقام في جلسته ومال المقعد الجلدي إلى الأمام.

«أيضًا، أتساءل عن جدوى خضوع زوجك لعملية ضخمة مثل زرع جهاز تنظيم ضربات القلب، نظرًا ل...»
تردد للحظة قصيرة، وارتعش أنفه.

«نظرًا للخاتمة الأكيدة لهذا المرض، مهما فعلنا.»

فوجئ بصوت جوانا الضعيف، يرتفع، صوت ناعم ولكنه يتمتع بوضوح تام.
«أنا أرى أن يُترك شأنه. سأوقع على أي ورقة تُخلى مسؤوليتكم.»

توقعت أن يجفل الطبيب ولكن لم يكن هذا هو الحال. أوما الرجل في بطاء.
«أفهم وجهة نظرك. وبالنظر إلى الوضع، يجب أن أقول إنه... على الرغم من التزامي بقسم أبقراط، إلا أنني أتفق معك في هذا الموقف.»

لم يرمش جفناه. راحت عيناه الخضراوان الصغيرتان تحدقان إليها بقوة.
«أريد فقط أن أتأكد، قبل أن أجعلك توقعين على وثائق إخلاء المسؤولية، أنك على دراية تامة بالمخاطر التي يتعرض لها زوجك.»

أومات ويدها فوق ركبتيها، كما في يوم مثولها أمام العمدة. راحت تصغي باهتمام، دون استهتار.

«إن رفض زرع جهاز تنظيم ضربات القلب داخل جسم زوجك يعرضه لخطر الإصابة بمضاعفات خطيرة في القلب. قصور قلب، حالات إغماء متكررة، وسكتة قلبية.»

راقب رد الفعل على وجهها لكنه تفاجأ بأنها لم تزال مسيطرة تمامًا على نفسها وعلى الوضع. أربكه ذلك إلى حد ما وواجه صعوبة في استعادة تسلسل أفكاره.

«أنت... لذا، إذا وضعت في اعتبارك هذه المخاطر و...»

بدأ يبحث في كومة من الأوراق على مكتبه.

«وبقيت على موقفك... إذا... نعم...»

ضاع في أوراقه وأفكاره، رفع رأسه ونظر إليها.

«نعم هذا هو. إخلاء المسؤولية. سأجعلك توقعين على شهادة تؤكد رفضك تلقي الرعاية. سيكون عليك الإقرار بأنني أحطتكم علمًا بالعواقب الواقعة على صحة زوجك، وأنت متمسكة بقرارك.»

أومات جوانا موافقةً. استأنف الطبيب البحث في الأوراق وسحب نموذجًا فارغًا.

«ها هي.. أنا... سوف أقوم بملئه. يُلزمُني القانون بإعطائك ثلاثة أيام للتفكير قبل التوقيع على هذه المصدقة. لذا سأتركها هنا، في مكتبي، وستعودين لتوقيعها في نهاية الأسبوع، عندما يتمكن زوجك من الخروج.»

استعادت جوانا صوتها وسألت:

«هل سيتم إبقاؤه حتى نهاية الأسبوع؟»

بعد كلمات الطبيب المعقولة والمتفهمة، توقعت أن تتمكن من اصطحابه معها هذا الصباح.

«ثلاثة أو أربعة أيام من الأترويين لن تؤذيه. سوف تستعيدينه وهو في حالة أفضل.»

توقف فجأة وألقى نظرة جديدة نحوها:

«بالمقابل يجب نسيان المشي لمسافات طويلة، ودروس الرقص، والعلاقات الحميمة، أو أي نشاط بدني آخر. سيكون لدى زوجك ضعف ملحوظ في القلب بشكل متزايد. يجب أيضًا تجنب التعرض للحرارة والمضايقات بشكل عام. سيحتاج إلى الكثير من الراحة والهدوء إذا أراد الاستمتاع بالحياة بعضًا آخر من الوقت.»

اصطبغ صوته بالتعاطف والحزن حين أضاف:

«مفهوم؟»

«جوانا؟»

كاد يغمر عليها من السعادة عندما لاحظت أنه عرفها. لم يكن هو إميلها بعد، إميل الراشد، بل النسخة الطفولية منه، والعالقة في الماضي، لكن الشيء المهم هو أنه عرفها بوصفها «الفتاة التي ترافقه إلى الجبال كي تعتني بدماعه». كانت خشيتها الأكبر هي من حدوث أزمة جديدة. لكنه بدا هادئًا تمامًا في سريره بالمستشفى. شعرت بالارتياح، وجاءت لتقف مبتسمة قرب السرير.

«مرحبًا، كيف حالك؟»

ابتسم لها إميل، وأشار إلى الأقطاب الكهربائية تحت مئزره الأبيض.

«قالوا إنني أصبت بنوبة قلبية.»

أكدت ذلك بهزة من رأسها وجلست في نهاية السرير، عند مستوى قدميه. من الواضح أنه لا يتذكر شيئًا من المشهد الذي حدث في اليوم السابق في القرية وهي سعيدة بذلك.

«هل الأمر خطر؟» سأل، وقد قطب حاجبيه فجأة. تعمدت أن تبدو مسترخية وهي تهرز رأسها.

«لا، ليس خطرًا. ستخرج في نهاية الأسبوع. سنعود إلى قرية التخيم، في القرية، وسنفعل ما تريد. يمكننا أن نمارس بعض أعمال البستنة أو نلعب المونوبولي... أو نأخذ قيلولة.»

ارتفع حاجباه أكثر.

«في القرية؟»

«نعم.»

مرت لحظة صمت.

«ألا تتذكرها؟» سألت في خجل.

هز رأسه نافيًا.

«حسنًا لا توجد مشكلة. سترى أنها مكان جميل حقًا، محاطة بجبالٍ من حجر جيرّي أبيض.»

رأت شرارةً تشرق في أعماق عينيه.

«هل سنستطيع أن نمشي حاملين حقبتَي الظهر والخيمة؟ عندما كنا عند هيبوليت، قلتُ إننا سنحمل حقبتينا وننطلق...»

تذكرت كلمات الطبيب قبل دقائق. يجب نسيان المشي لمسافات طويلة.

«سوف نرى.»

«لماذا سوف نرى؟»

«قال الطبيب إنك في حاجةٍ إلى الراحة.»

«لن يعلم بالأمر.»

ارتسمت على وجهه هيئة صبي صغير مشاكس. لم تستطع إلا أن تبسم له.

«نعم... أنت على حق... يمكننا أن نفعل ذلك سرًا.»

رأته يجلس فجأة ويلقي نظرات ملحة عبر باب غرفته نصف المفتوح. أخذ يتململ كأنه لا يطيق صبرًا.

«ماذا هناك؟» سألت.

واصل التلملم في سريره، محاولاً رؤية شيء ما عبر فتحة الباب.

«لا شيء. أنا فقط أنتظر عودتها.» قال دون أن ينظر إليها، موجهاً كل انتباهه نحو الردهة.

«هل كان يفترض أن تمر الممرضة؟»

«لا.»

«لا.»

راح يتململ إلى درجة انفصل معها أحد أقطابه الكهربائية.

«إميل، ابق ساكنًا. ستعود الممرضة في الوقت المناسب.»

لكنه هز رأسه ونظر إليها بابتسامة طفلٍ صغير.

«ليست الممرضة، يا جوانا. بل والدتي.»

شعرت أن قلبها ينعصر وتتجمد رثاها.

«ماذا؟»

اتسعت ابتسامة إميل.

«منذ قليل كانت أمي هنا. مع مارجو.»

فتحت فمها ولكن دون أن تُخرج صوتًا. شعرت بذعرٍ يجتاحها، وتسارع نبض قلبها. كانت على وشك الاختناق عندما جاءت التهمة:

«لقد تجولنا على الشاطئ. وذهبتُ لشترى لي الآيس كريم. هل تريدان أن أطلب منها شراء آيس كريم لك أيضًا؟»

وجهت جوانا نظرها في هدوءٍ إلى أرض الزراعة المستدامة. لمحت الهضبات المقامة على شكل لولبي لزراعة الأعشاب العطرية. حل الليل، وقتها المفضل. خلعت طرقات القرية وعاد الجميع إلى أكواعهم. أضيئت المصابيح في أكواع

الرعاة. بات بإمكانها أن تجلس بمفردها، في صمت، وتتخيل نفسها شجرة. راحت تتنفس في هدوء. ولم تعد عيناها تلتقطان شيئاً. باتت رؤيتها ضبابية. تخيلت جذورًا تخرج من قدميها وحوضها وفخذيها. إنها جذور تكبر وتتضخم. جذور تغوص عميقًا في الأرض، وتمعن في الغوص أكثر فأكثر. أخذت تشعر باتصالها بالأرض، بالطاقة التي تمر عائدةً إليها، وتمر من خلالها. لبثت بلا حراك. حل الليل تمامًا، وحط الندى فوق العشب. شعرت أنها أكثر هدوءًا وقوة. لقد تعلمت هذا التمرين من جوزيف. عندما تشعرين أن الحياة تمزقك إلى ألف قطعة، ويختفي كل ما تهتدين به، حولي نفسك إلى شجرة. لقد مر وقت طويل منذ أن أخذت وقتًا للجلوس والشعور. كانت هناك حالات فقدان الوعي، وعمل في موقع البناء، وظهور النسخة الجديدة من إميل، إميل الذي يبدو، أكثر قليلًا كل يوم، مثل طفل... كانت سعيدة بالانفراد بنفسها هذا المساء.

بقيت ساكنة ساعة أخرى. غمرها سلام داخلي. شعرت تقريبًا أنها مستعدة لمواجهة ما سيأتي. لا تزال تستمد من هذا الاتصال مع الأرض بعض الاهتزازات، ثم تأخذ نفسًا عميقًا. اقترب بوك من صاحبه بخطوات صغيرة وحك نفسه بظهرها. لطالما أحبَّ الأشجار. إنها كبيرة وقوية ومهيبة، هادئة ومحاطة بالأسرار وغير مرئية لمعظم الكائنات، رغم أنها تصمد أمام كل العواصف.

«هل سيعود إميل غدًا؟»

أومأت جوانا. وقفت إيزادورا أمام قطعة الأرض الصغيرة التي خصصت لها، مستظلةً بيدها المرفوعة أمام عينيها.
«سيكون سعيدًا برؤية ما فعلته.»

جلست جوانا في وضعية القرفصاء لإعادة حجر صغير من الأحجار التي تشكل المسار الرئيسي لعملها، إلى مكانه. كان أمامها أربعة أيام لتحويل قطعة الأرض الصغيرة الفارغة إلى فناء منزل صغير حقيقي. رسمت مسارًا جميلًا مرصوفًا بالحصى يؤدي إلى باب كوخها، ومربعًا صغيرًا من الحصى أيضًا بمثابة شرفة. وضعت هناك الطاولة والكرسيين القابلين للطي، إضافة إلى مظلة ابيضت من الشمس، وكرسي استلقاء قديمين صدئين للشمس، أراد ماريكو التخلص

منها. وخلف عربة التخيم، تحت شجرة بلوط كبيرة، قامت جوانا بتركيب أربعة ألواح خشبية حول قطعة صغيرة من الأرض. وقررت أن تزرع فيها بعض الأعشاب العطرية. لم تكن في الوقت الحالي، سوى مربع من تراب، لكنها تأمل في القريب العاجل أن ترى النعناع والريحان وإكليل الجبل ينمو فيها.

قامت بتنظيف عربة التخيم من أعلى إلى أسفل وركبت على نوافذها ستائر جديدة لم يعد الجار - الرجل صاحب المصباح - يريدها. كانت صفراء وبرتقالية أضفت لمسة من الحيوية على الداخل.

بدأ ل جوانا أن القرية بأكملها على علم بقرب عودة إميل، لأنها كلما قابلت شخصاً، طرح السؤال:

«هل سيعود صديقك قريباً؟ غداً؟»

عرف الكثير منهم أخباره وعرضوا على جوانا اصطحابها إلى المستشفى والعودة بها. أمام كل هذا الاهتمام لم تكن تعرف كيف تتصرف. ستكون دروس التدريب على التأمل، المقرر إجراؤها يوم السبت، بمثابة شكر جماعي. قد يرغب إميل في الحضور أيضاً؟

«يستحسن أن ترتاحي الآن.» أعلنت إيزادورا.

«انتهيت تقريباً.»

«خذني قسطاً من الراحة. ستحتاجين إلى طاقة عندما يكون هنا... سأتصل بك لأجل العشاء.»

بدأ الطبيب حزيناً هذا الصباح، رغم أنه صباح ربيعي دافئ ومشمس بشكل مميز مع اقتراب الصيف. في القرية، أشعل ماريكو موقد شواء للاحتفال بعودة إميل.

«حسنًا، سأدعك تعيدين قراءة هذه الوثيقة قبل التوقيع على نسختين منها. سأحتاج أيضًا إلى بطاقة هويتك وشهادة زواجك.»

أومات جوانا. لقد أعدت الأوراق سابقًا. وضعتها على المكتب قبل أن تتناول النماذج التي سلمها إياها الطبيب. مرت سريعًا بين السطور. كانت بعض الجمل تنطبع أكثر من غيرها.

أنا الموقعة أدناه، السيدة جوانا ماري ترونييه، زوجة فيرجيه، الوصية القانونية على المريض إميل مارسيل فيرجيه، الذي أسعف إلى مستشفى باستور إثنوية قلبية، أقرُّ بأنه تم إبلاغي بوضوح بالمخاطر الناجمة عن رفض الرعاية المقترحة، وأني فهمتها، وهي تشمل على سبيل المثال لا الحصر: ضيق تنفس، إغماء، قصور قلب، سكتة قلبية ووفاة المريض.

مع ذلك، أعلن أنني أريد إخراج إميل مارسيل فيرجيه من المستشفى ولا أريد الرعاية أو التدخل الذي اقترحه الدكتور مارغريون، ومن ثم أعلن إعفاء الدكتور مارغريون ومستشفى باستور من المسؤوليات والعواقب كافة، بما في ذلك المصرية، التي قد تنجم عن قراري.

أدرك أنني حتى لو وقعتُ على هذه الوثيقة، فلن يمنعني ذلك من تغيير رأيي ولن يمنع المريض من العودة إلى المستشفى إذا طرأت مشكلة، أو ببساطة إذا رغب في ذلك، وكان لديه أسئلة.

يتبع ذلك حقل (توقيع المريض أو الوصي القانوني عليه) وحقل (توقيع الطبيب) إضافة إلى الحقل المعتاد (قراءة وموافقة).

خربشتُ جوانا على عجل، ووقعت النسختين. كانت هيئة الطبيب لا تزال مكفهرة. شعر أن عليه أن يضيف:

«إذا كان هناك أي شيء، إذا أصابك شك بشأن قرارك...»

لكنها قاطعته:

«شكراً دكتور.»

استعادت وثيقة الزواج وبطاقة الهوية منتظرةً بنفاد صبر أن يضع الطبيب توقيعه على الأوراق. عادت الوثيقة إليها أخيراً. نهض الطبيب لمرافقتها إلى باب مكتبه.

«اعتني به يا سيدة فيرجيه.»

نظرت إلى عينيه الخضراوين الثابتين للمرة الأخيرة خلف نظارته ذهبية الإطار. كانت تدرك حجم الإنسانية التي أظهرها وصعوبة ذلك بالنسبة له. وهذا ما حاولت إيصاله له من خلال هذه النظرة الطويلة الأخيرة: كل امتنانها.

«شكرًا لك على كل شيء...»

راقبها وهي تغادر في صمت، بمشيتها الغربية، بكتلتها السوداء الصغيرة في الممرات البيضاء للمستشفى.

«هل هذا هو المكان الذي نعيش فيه؟»

«نعم... هذا هو. هل أحببته؟»

كان قد تجول حول عربة التخميم، ومنعت نفسها من تحذيره قائلة له:

«لا تركض، الطبيب أوصى ألا تركض.»

سمعته يهتف فرحًا:

«لدينا حديقة؟»

انضمت إليه من الجانب الآخر للعربة، في ظل شجرة البلوط الكبيرة، حيث جلس القرفصاء أمام حديقة الأعشاب العطرية الصغيرة وشعر بسعادة غامرة عند رؤية أول غصن نعناع ينبت للتو من الأرض.

«ليس بالشيء الكثير... بضعة نباتات عطرية فقط.»

«هل هذا نعناع؟»

«نعم. حالمًا ينمو، يمكننا أن نصنع منه النقيع المثلج.»

كان صغيرها توم يعشقه ويضع حوالي عشرة مكعبات ثلج في كأسه، بحيث لا يبقى تقريبًا أي نعناع في كأسه، بل ثلج ذائب فقط.

كان ماريكو ينتظرهما على الجانب الآخر من عربة التخميم. لقد كان هو من ذهب بشاحته البيضاء لاصطحابهما من المستشفى. لاقته أمام الممر الصغير المرصوف بالحصى ونادت إميل:

«إنهم ينتظروننا لتناول الطعام. لقد أعد ماريكو وجبة شواء.»

أشار لها ماريكو أن لديها الوقت. توارى بسر والة البني. سوف ينضمان إليه عندما يكونان جاهزين. ظهر إميل من جديد وقد بدا سعيدًا.

«أعجبني حقًا هذا المكان.»

«كما قلت لك.»

«هل نحن مضطرون أن نذهب كي نأكل مع هؤلاء الناس؟»
«أوه...»

قامت بتحريك كتفيها إلى الأعلى.
«لا... إذا كنت لا تريد الذهاب، سنبقى هنا. لكنهم أعدوا كل هذا من أجلك...»

قطب حاجبيه. لاحظت أن لحيته نمت مجددًا. تساءلت عما إن كانت ستمكن من حلقتها له، وإن كان سيسمح بذلك أم لا. ستمكن من اغتنام الفرصة لقص شعره الذي يتساقط بكثافة. سيتمنحه هذا مظهرًا أكثر شبابًا. سيجعله يبدو جديدًا.
«أنا لا أعرفهم...»

«أعلم... ولكننا سنعيش معهم لفترة من الوقت، لذا علينا أن نكون مهذبين.»
«كم من الوقت؟»

«الوقت اللازم كي ترتاح.»
ارتسم على وجهه تعبير انزعاج لكنه أذعن.
«حسنًا، لا بأس.»

استعد للصعود إلى عربة التخيم، لكنها أوقفته.
«انتظر إميل. ما قولك إذا قمت بقص شعرك قبل أن نذهب؟»

وضعت حوضًا أمام الكرسي القابل للطي، فوق الطاولة الصغيرة، ووضعت منشفة حول رقبة إميل، حتى لا يشعر بحكة في الرقبة. وُضع على الطاولة مشط ومقص وآلة حلاقة كهربائية ومجموعة من شفرات الحلاقة. لم تكن متأكدة أنها تعرف كيفية استخدام كل هذه الأدوات ولكنها ستبذل قصارى جهدها.
«ثم يأتي دوري لأفعل شيئًا ما بشعرك.» أعلن إميل وهي تنهياً لفك تشابك شعره.

توقفت متفاجئة.

«أوه حقًا؟»

«نعم.»

«وماذا تريد أن تفعل به؟»

«لا أعرف...»

رأت نظرة مأكرة وساخرة قليلاً تعبرُ وجهه، شبح إميل القديم، وقالت.
«تمشطه مثلاً.»

أجبرته، مع ابتسامة، أن يُبقي رأسه مائلاً للخلف.
«ها ها، طريف جداً!»

حاول رفع رأسه كي ينظر إليها.

«لا، ولكنني أستطيع غسله وفك تشابكه وربما تصفيفه لك.»

لبث يرقب رد فعل على وجهها. لكنها أرجعت رأسه مرة أخرى إلى الخلف.
«توقف عن الحركة، سأقطع أذنك.»

«هل ستكون تلك فكرة جيدة؟»

«فكرة قطع أذنك؟»

«لا، فكرة تصفيف شعرك.»

«مم... لا أدري. هل أنت ماهر في تصفيف الشعر؟»
أوماً بجدية.

«ربما يمكنني عمل جديلة.»

لم تستطع منع نفسها من الابتسام مع شيء من الكآبة. كانت قد أعجبت به الجديلة
التي صنعتها لها ميرتيل، لأجل مراسم زواجهما الشكلي.
«إذا؟» سأل في لهفة.

«حسنًا، موافقة.»

فاحت في الجو رائحة شامبو الأوكالبتوس، ورائحة حطب الشواء، والزهور
المتفتحة. إنه يوم ربيعي جميل. صدح غناء طائر شحرور في شجرة قريبة. من
وقتٍ لآخر، كان يمر أحد السكان قرب قطعة أرضهما الصغيرة، ويلقي التحية
عليهما. كان إميل مبلى الشعر، وحالته المزاجية تميل إلى الدعابة. يضحك كثيرًا
بشأن شعرة في رقبته تدغدغه، أو شتيمة هربت من فم جوانا عندما تحركت يدها

الممسكة بالقص، برعونة. أرادت الاستمتاع بلحظة الراحة هذه، وقالت لنفسها إنها اتخذت القرار الصحيح بإحضاره إلى هنا، بقلبه المريض.

نظر كلُّ منهما إلى الآخر في مرآة الشمس التي اشتراها إميل من سوق السلع المستعملة في غرويسان، منذ عدة شهور. تم قص شعر إميل قصيرًا جدًا واختفت لحيته. بهذه الطريقة بدا أشبه بالطفل الذي كان بصدد التحوّل إليه. وازدانت جوانا بصفيرة ناجحة. فوجئت عندما لاحظت ذلك.

«أين تعلمت أن تفعل ذلك؟»

«مارجوري تطلب مني ذلك من وقتٍ لآخر.»

«تطلب صفائر؟»

«نعم. قبل ذهابها إلى المدرسة.»

«أوه.»

لم تعرف ما إذا كان يُفترض أن تكون مارجوري حاضرة في هذه القرية أم لا. فقد أكد قبل حين أنها ستكون حاضرة في حفل الشواء... أصبحت تمثل دومًا لقواعده وتتوافق مع واقعه. لذلك ربما ستلتقي مارجوري بعد قليل.

لم يكن إميل خجولاً أو صموتاً في ذلك اليوم، في أثناء حفل الشواء في القرية. كان يتسم كثيراً ويتكلم مع ماريكو وبيير آلان وغيرهما من السكان الذين لمحتهم جوانا في أيامها الأولى هناك. لم يكن هذا هو إميل نفسه الذي وصل إلى القرية قبل أسبوع، والذي كان شاحباً وصامتاً ومشوشاً، ولكن جوانا رفضت الإقرار لنفسها بأن إميل هذا، الضاحك والسعيد، يعود بالضبط إلى استغراقه في منعرجات ماضيه بشكلٍ أعمق، لأن الماضي والحاضر أصبحا من الآن فصاعدًا متشابكين ومتمازجين خارج أي منطق. من الآن فصاعدًا أصبح بيير آلان يبدو تارةً هو والد إميل، وتارةً أخرى أحد مدرسيه في المرحلة الثانوية، وأطلق على أحد أطفال القرية اسم (تيفان) دون أن تعرف بمن يتعلق الأمر مع اعتقادها بأنه أحد أطفال مارجوري.

لقد ساءت حالته ولكن الشيء الوحيد الذي تريد جوانا أن تتذكره، أنه يبدو سعيدًا ومرتاحًا.

اصطحب ماريكو إميل معه لجمع ألواح الخشب من القرية وعمل مراحيض جافة لعربة الكارافانات. شعرت جوانا أن إميل يقدر حضور ماريكو. ربما يرتاح بحضور رجل معه، لا معها فقط طوال الوقت. لن يجرؤ على قول ذلك لأنه مهذب للغاية، لكنها تشعر بذلك. عليها أن تعقد هذا الصباح جلسة التأمل المنتظرة. أخذت إيزادورا على عاتقها نشر الخبر، وعندما وصلتتا معاً إلى هذا الوادي، وسط حوض ليسكون الجليدي، المحاط بجبال الحجر الجيري، كان هناك حوالي خمسة عشر شخصاً. لم تستطع جوانا أن تخفي مفاجأتها. لقد توقعت أن ترى هناك ثلاثة أشخاص، لا أكثر. ولكن مجموعة حقيقية تشكلت لحضور جلسة التأمل.

«الكادر رائع.» أعلنت إيزادورا، وهو ما أكدته الرجال والنساء بالإجماع.

«كانت فكرة غنية حقاً.»

حاولت جوانا ألا تتأثر بالعالم. لم تقم قط بتدريب أحد على التأمل، إلا مع إميل. وكانت مسألة مختلفة تماماً.

«كيف يجب أن نجلس؟»

تبين لها أن المرأة التي سألت السؤال قد جاءت مع ابنها، وهو صبي صغير في الرابعة أو الخامسة، العمر الذي كان يفترض أن يكون عمر توم. حاولت عدم التفكير في الأمر. لحسن الحظ أن للطفل شعراً أحمر صارخ ووجهاً مغطى بالنمش. ومن ثم، وقفت المقارنة عند هذا الحد.

«اجلسوا حيث تريدون، كيفما تشاؤون. اتخذوا الوضعية الأكثر راحة لكم.»

ومن الغريب رؤية حوالي خمسة عشر شخصاً يطيعون بلا تردد. أخذت في هدوء مكاناً على العشب، محاولة إبقاء إبر أنسابير ضمن نطاق خط نظرها. من بين كل هذه المنحدرات من الحجر الجيري، التي كل واحد منها أعلى من الآخر، كانت تفضّل قمتي الإبر، الأكثر استدياقاً، والمنتصبتين مثل شفرتين حادتين عاليتين ومتعالتين. يقول سكان القرية إنها أكثر قمم جبال البيرينيه عمودية، وأكثرها تعذراً في الوصول إليها. لقد بقيتا لفترة طويلة عصيَّتين على الهزيمة، وكانتا آخر قمتين في جميع جبال البيرينيه، لم يتم غزوهما... حتى نجحت رحلة استكشافية مكونة من رجلين في تسلقهما، على حساب حياتهما... لكن قمتي إبر أنسابير، على الرغم من هزيمتهما، بقيتا طويلًا ملعونتين ومرهوبتين.

التمرين الذي اختارته جوانا لجلستها هو التأمل الجبلي. وهو تمرين يقظة ذهنية تامة، يُستخدم لتهذبة النفس وإدراك نقاط القوة الداخلية. طلبت منهم التركيز على تنفسهم بضع ثواني كي يدخلوا في حالة من الهدوء، ثم طلبت منهم اختيار جبل من بين تلك الجبال المحيطة بهم. جبل يحبونه بوجه خاص، يجعلهم يشعرون بنوع من الصفاء أو على العكس من ذلك، بنوع من القوة. اختارت، من جانبها، تركيز نظرها على الإبر الملعونة، الإبر التي تعذر الوصول إليها لفترة طويلة. دعّتهم إلى التمعن في كل مظاهر هذا الجبل. أشكالها، حدودها، ألوانها، تبايناتها، خشونتها، أشجار تنوبها، أخاديدها... منحتهم فترة من الصمت كي تنطبع هذه التفاصيل بالكامل في نفوسهم. تلاشى كل شيء حول جوانا، ولم يبق غير السماء وإبر أنسابير.

راحت همس بصوت واضح:

«جسدك هو هذا الجبل... متشبث بقوة بالأرض... مستقر... متمحور. أنت ذلك الجبل. أنت لا تحشى شيئاً، لا العواصف ولا الرياح التي تلعفك، ولا المطر ولا الانهيارات الثلجية. أنت باقي هنا، لا شيء يزغزغك، أنت متصل بالأرض برباط متين. كن واعياً بقدرتك على المواجهة.. واعياً بقوتك.. العواصف لا تقتلعك. أنت تنتظر عبورها، وعودة السماء الزرقاء، بصبر. اشعر... اشعر بهذا الهدوء بداخلك... هذا اليقين التام... أنت هذا الجبل. أنت لا تقهر.»

نسيت جوانا إبر أنسابير للمحطات. عادت بضع ثواني إلى ذكرياتها، إلى وقت لم تكن فيه جبلاً، بل كانت فيه سويقة عشب تذروها الرياح، وتتقاذفها التيارات، لا تدري بما تتمسك لمواصلة الحياة. كانت حيصة أربعة جدران صفراء، في دار رعاية. كان قد تم وضع قضبان على النوافذ وإزالة جميع المرايا من الغرف. وهو إجراء احترازي لمنع حالات الانتحار بين النزلاء. اعتقدت أنه شيء يدعو للأسف أن تقطع القضبان السماء إلى شرائح رمادية ضيقة.

كان ليون يأتي كل يوم ولم تكن تتعرف إليه دائماً. كانت ترى أشياء غير موجودة ولا ترى الأشياء الموجودة من حولها. بقيت متمسكة بصمتها في عناد. كانت قد توقفت عن الكلام بعد دفن توم. دفنه ليون تحت الأرض. دفنه الزوجان أندريه تحت الأرض بينما كان يجدر به أن يطير بعيداً للانضمام إلى أعجوبيته، البحر والسماء.

لم يستطع أحد أن يجعلها تتكلم. في أحد الأيام، أعطتها ممرضةً انضمت لتوها إلى القسم، وكانت تراقبها بعطف، دفترًا صغيرًا. دفتر صغير مماثل للدفتري الذي تكتب فيه اليوم، إلا أنه كان أحمر اللون، وأصغر حجمًا. قالت الممرضة:

«عيد ميلاد مجيد يا جوانا.»

كان لها صوت دافئ وصادق وعينان زرقاوان كبيرتان. لم تفهم لماذا بدأت جوانا بالبكاء.

«ما من داعٍ لذلك. إنها فقط هدية.»

كانت قد وضعت في المزهريّة الموجودة على طاولة السرير، زهرات الليلك التي أحضرها ليون في اليوم السابق، وهمست كأنها تسرُّ لها بشيء حميمي:

«بما أنك ما عدتِ تريدين الكلام، فكرتُ أنك قد ترغين في الكتابة.»

كانت الممرضة تدعى أوبال. لقد كان اسمًا غريبًا أحبته جوانا على الفور. ذكَّرها بأسطورة متعلقة بهذا الحجر الثمين، كان يرونها والدها. لقد أخبرها أن له خاصية التفرح اللوني، أي أن له لمعانًا متلألئًا متعدد الألوان.

فكرت جوانا في ذلك وهي تكتب سطرها الأول في الدفتر الذي أهدتها إياه أوبال. كان تركيب غلافه يشبه جلد الغزال، وهناك شريط مطاطي صغير يسهِّل إغلاقه. كان ليون سيصل في أي لحظة، برفقة الزوجين أندريه بلا شك، في يوم عيد الميلاد ذاك. وافقا أن يقوموا مرةً كل ثلاثة أشهر، بزيارة زوجة ابنهما التي جعلها الحزن مجنونة وخرساء. كان وصولهم محتملًا في أي لحظة، لكنها مع ذلك خصصت وقتًا لكتابة السطور الأولى في دفترها. رسالة إلى جوزيف. تتذكر جيدًا الكلمات التي كتبتها في ذلك اليوم، أولى الكلمات التي خطها قلمُها. كلمات كارهة. كلمات مخمَّصة. أبي، هذه العائلة ملعونة. كان من شأن الزوجين أن يقتلوكما، فيقتلاني من خلالكما. أغلقت دفتر الملاحظات عندما وصل آل أندريه، وأخفته تحت وسادتها. وفي صباح اليوم التالي، كتبت رسالة إلى توم. رسالة حب. كان الربيع قد حلَّ بعد فترةٍ وجيزة من ذلك، وعادت تتكلم من جديد، ولكن فقط مع أوبال. كانت قد اتخذت قرارًا، بعد فترة وجيزة، بالرحيل وشراء سيارة ومغادرة بريتاني. لم يعد هناك ما يربطها بسان سولياك، القرية التي فقدت فيها كل أفراد أسرتها الصغيرة. لم يعد ليون جزءًا منها. لم تعد ترغب أن تطأها قدماها مرة أخرى.

كان جوزيف قد أرسل إليها الإشارة التي طال انتظارها في يونيو، عند مغادرتها دار الرعاية. لقد كتبت عبارة (إعلانات مبوبة) على الإنترنت، فقط بهدف شراء سيارة لأجل الرحيل. وكان إعلان إميل هناك. لقد أوفى والدُ جوانا بوعده.

حل شهر مايو في قرية ليسكون البيئية. طعم الصيف يحوم في الأجواء. درجات الحرارة مرتفعة. والشمس هناك، في موعدها كل يوم. تشهد الأرض المخصصة للزراعة المستدامة تفتُّح أولى نباتات الخس والفجل، وبعض الخيار، وعشرات من الباذنجان، وصف كامل من الفرامبواز. تألقت الهضبة اللولبية المخصصة للأعشاب العطرية، بأوراقها النضرة. كانت جوانا تساعد فريق الزراعة المستدامة لمدة ثلاث إلى أربع ساعات في الأسبوع، وتمضي بقية الوقت في الراحة وتخصيص وقت لنفسها ولإميل. كانت حديقتيها العشبية، الصغيرة، خلف عربة التخيم، تثير حسد الكثيرين. وأحبَّ إميل الاعتناء بها. علَّمته كيف يقطع أوراق النعناع ويصنع بنفسه المنقوع المثلج الذي يعشقه، مثل توم. في الأيام التي يكون فيها في حالة جيدة، ولا يزال يذكر بشخص راشد، يأخذه ماريكو معه للقيام بأعمال إصلاح أجهزة منزلية، ولا تتمكن جوانا من إيقافه. كانت سعيدة جدًا برؤيته يستعيد حياة شخص راشد، تذكره بأن قلبه يحتاج إلى راحة تامة. وفي الأيام التي يكون فيها شديد الاستغراق في الماضي، لا تستطيع تركه دون رقابة، لأنه لشدة تشته وانعدام تركيزه على أي مهمة، لا يعود قادرًا على فعل شيء بمفرده، ولا حتى إعداد الشاي دون أن يجعل الماء يفيض من الغلاية. حتى مباريات المونوبولي تصبح مستحيلة، إذ أنه لا يكف عن الحركة، وينسى التعليمات ويكرر الأسئلة نفسها مرارًا وتكرارًا:

«لماذا نحن هنا؟»

«من أنت؟»

«متى نعود إلى روان؟»

إنه أمر مرهق لكنها صامدة. في الأيام الجيدة، يقضيان أوقاتًا ممتعة معًا. يعدان الحلوى، يلعبان الـ سكرابل، يتجولان في هدوء في القرية عند انخفاض الحرارة، حريصين على البقاء في الظل. يخطط إميل بضع كلمات في دفتر ملاحظاته، رسائل

إلى والديه في أغلب الأحيان، يروي فيها كيف يمضي أيامه واعدًا بالعودة مع بدء العام الدراسي. يبدو سعيدًا. الشيء الوحيد الذي لا تستطيع جوانا أن تقدمه له هو ذلك المسير إلى الجبال مع خيمة وحقيبة ظهر. هو لا يكف عن إثارة الموضوع وهي تُقابله بالتجاهل، مؤجلة السؤال إلى الغد. من حسن حظها أنه صبور ومتعاون. لم تصبه أزمات حادة أخرى ولكن جوانا لاحظت المزيد والمزيد من حالات فقدان توازن، هي بالتأكيد أعراض أخرى للمرض.

تكررت جلسات التأمل في الهواء الطلق بناءً على طلب عام، إثر نجاح الجلسة الأولى. قامت إيزادورا، التي تدير أنشطة القرية بقبضة من حديد، بتقديم برنامج للجميع بأن الجلسات ستعقد صباح السبت الأول كل أسبوعين. حضر إميل الجلسة الثانية وقال إنه أحبها، وتعتقد جوانا أنه لم يحبها كثيرًا لكنه لم يجرؤ أن يقول ذلك. كان يجد صعوبة في التركيز على نشاط ما لمدة طويلة، فماذا عن جلسة تأمل صامتة؟

كبر بوك جدًا ولم يعد ينام بجوارهما. أصبح الوقت الذي يمضيه في التصيد خارج المنزل، يطول أكثر فأكثر. لمحتة جوانا مرارًا بصحبة قطة مرقطة صهباء، من القطط الشاردة حتمًا. وكانت مقتنعة بأنها شريكته. لا شك أنه كبر بسرعة. عزت نفسها بفكرة أنه قد يحضر لها فوجًا من قطط صغيرة مرقطة صهباء، لا تدري ما الذي ستفعله بها، ولكن المؤكد أنه شيء لطيف حقًا أن يكون لديك كل هذه القطط الصغيرة التي تطلب الحنان.

كانت فترة بعد ظهر اليوم حارة بشكل خاص، وجوانا جالسة إلى طاولة في شرفة مقهى دولوميت، تكتب بطاقة بريدية إلى سياستيان. بطاقة جميلة تمثل الحوض الجليدي ومنحدراته المهيبة.

عزيزي سياستيان،

لقد وصلنا إلى الجنة الحقيقية على الأرض. ليسكون وحوضها الجليدي. أعتقد أنك ستحب العيش في هذه القرية حتى لو لم يكن فيها بحر وقوارب صيد. المنظر الطبيعي هائل - منحدرات مهيبة من حجر جيري تنتصب على كامل محيط هذا

الحوض - ومع ذلك فهو حميمي، لأننا موجودون داخل هذا الحوض، في الوادي، كأننا محميون بهذه الجروف المحيطة بنا. شرنقة حقيقية. لن أقول لك المزيد. لا أريد أن أفسد عليك المفاجأة في حالة مجيئك يوماً ما بعرة تخييم خاصة بك مصطحباً معك لأكي...

أفترض أن الصيف يحل في بطء في بيرياك دو مير وأن السياح يعودون. هنا الحرارة شديدة حتى لو كانت الليالي باردة للغاية. نشارك في نشاطات قرية بيئية نزلنا فيها. نخوض المجموعة تجربة الزراعة المستدامة، إنها مثيرة حقاً للاهتمام. أنا متأكدة أنك سوف تحب ذلك. خصوصاً أن العمل يؤتي ثماره.

يعيش (بوك) قصة حبه الأولى مع قطعة برية. لم يعرفني إليها بعد... كيف حال لأكي؟

الآن يجب أن أتركك، وقد وصلت إلى آخر البطاقة. لا أعتقد أنك ستتسلم مني بطاقات أخرى، لأننا قد نتوقف عن الأسفار. حالة إميل تتفاقم. وتزداد صعوبة الحياة اليومية عليه. لقد نسي كل شيء تقريباً عن حياته، باستثناء سنواته الأولى. لم يعد يعرف من أنا ويصاب قلبه بالإنهاك. سوف نبقى في ليسكون. أقبلك وأتمنى لك صيفاً رائعاً (سنكون هناك قريباً جداً).

ملاحظة 1: ستجد عنوان القرية البيئية على ظهر المغلف، إذا أردت أن ترسل إلينا خطاباً.

ملاحظة 2: امسح على رأس لأكي من أجلي.

جوانا

عندما نهضت كي تغادر المقهى، جعلها الحر الشديد ترى نجوماً أمامها. مشت في الظل ملاصقة للجدران، حتى وجدت صندوق البريد الأصفر يعلن عن جمع البريد في صباح اليوم التالي قبل الساعة العاشرة. أدخلت المظروف وعادت إلى القرية دون استعجال. كان لديها متسع من الوقت. وإميل يخضع لمراقبة دقيقة من لوسيا، أخصائية الأعشاب المتقاعدة، التي تشارك بنشاط في الزراعة المستدامة. كان عليها إطعام الدجاج وطلبت من إميل أن يرافقها. «بعدها سنذهب لري نباتات الطماطم.» أضافت وهي تشير لجوانا بالابتعاد.

كثيرون يفعلون ذلك، يعتنون بإميل حتى تتمكن جوانا من الحصول على وقت فراغ أو تكريس نفسها للزراعة المستدامة. هناك دائماً شخصٌ ما يتولى مراقبته. لم يكن بإمكانها أن تحلم بشيء أفضل.

عند وصولها إلى القرية، تحت قبعتها السوداء الكبيرة، لاحظت جلباً على الفور. ستة أشخاص مجتمعين ويتحدثون بحيوية. واثنان آخران يبدو أنهما يبحثان عن أحدٍ ما، وهما يجوبان الطريق الرئيسي للقرية ويصرخان بشيء ما. تحول شعورها السيئ إلى رعبٍ حقيقي عندما رأت إيزادورا تجري نحوها فتلفت كل الرؤوس ناحيتها. حاولت أن تبقى هادئة قدر إمكانها. وصلت إيزادورا إليها والتقطت أنفاسها.

«كنا نبحث عنك!»

سألت جوانا دون مراوغة:

«ماذا حدث؟»

كانت مقتنعة أن الأمر متعلق بإميل، أن شيئاً ما قد جرى له. كان وجه إيزادورا الممتقع يحدثها بذلك.

«اضطربنا لاستدعاء سيارة إسعاف... لقد ذهب إلى المستشفى.»

«ما الذي حدث؟» كررت بنبرة لم ترغب أن تكون بهذه القسوة.

«سقط أرضاً. غاب عن الوعي. قالت إن...»

ترددت وألقت نظرة على مجموعة السكان الذين يراقبونهما على بعد بضعة أمتار. وبينهم لوسيا.

«قالت لوسيا إنه توقف عن التنفس.»

من جديد تراءت لـ جوانا نجوم تراقص أمام عينيها لكنها أجبرت نفسها على التحديق إلى عيني إيزادورا عميقتي السواد لإيقاف التراقص.

«هل بإمكان ماريكو أن يأخذني إلى المستشفى؟» سألت مبهورة الأنفاس.

«إنه في جولة...»

حين استعدت جوانا لقول إنها ستصل بسيارة أجرة، قاطعتها إيزادورا قائلة:

«سيأخذك والدي إلى هناك.»

كان بير آلان من الكياسة بحيث لم يسعَ بأي ثمن للكلام في الطريق إلى المستشفى. قدر صمتها وأغلق الراديو حتى لا يزعجها. تقاطرت الدروب الجبلية الصغيرة ولم يكن لدى جوانا سوى فكرة واحدة في ذهنها. سؤال مؤلم. هل هذه حالة فقدان وعي أخرى أم أنها النهاية؟

كانت تأمل ألا تكون النهاية. ليس بعد. يجب ألا ينتهي الأمر بهذه الطريقة...

كان إميل يسبح في فقاعة قطنية بيضاء، لم تكن حقاً هي الواقع، بل كانت انطباعه عنه. كان في مكانٍ أبيض، محاطاً ببقع بيضاء، وكان الجو حاراً لكنه لم يكن حاراً جداً. كان يسمع أصواتاً ناعمة وأنثوية. إنها مارجوري والدتها. ربما يرقد في سرير الصغير، هو ومارجوري في الغرفة نفسها. سرير مارجوري أكبر حجماً، يعلو سريرَه الذي لا يزال محاطاً بقضبان حماية، لكن والديه وعدا بإزالتها ومنحه سريرًا حقيقياً. كان عمره أربع سنوات. لقد ميز صوت مارجوري والدته. وكان متأكدًا أنها تتكلمان عنه. في اليوم السابق، أرادت مارجوري أخذه في جولة على الدراجة. كان الطقس لطيفاً، وقد حل الصيف وتوقفت الدراسة منذ أسبوع. طلبت الإذن من والدتها.

«عمري الآن ثمانية أعوام يا أمي.» قالت في فخرٍ وهي تقف في منتصف المطبخ بفستانها ذي المربعات الزرقاء والبيضاء.

«أستطيع الإشراف عليه. لن نذهب بعيداً.»

استدارت والدتها بابتسامة غريبة، كأنها ساخرة أو سعيدة فقط. بقي هو إلى الوراء، خلف ظهر مارجوري التي كانت قد أمرته قائلةً:

«أنا من سأتولى الكلام. أنت صغير جداً.»

لم يرمش. مارجوري كبيرة، تعرف دائماً كيف تتصرف. قالت والدتها:

«نعم.»

لكنها فرضت شروطاً. البقاء في القسم الفرعي على الطريق الترابي الصغير خلف المنزل. وعدم التفكير في الانتقال إلى الطريق الرئيسي. أو مات مارجوري برأسها بالموافقة ثم قالت:

«تعال!»

أخذته إلى غرفتهما وأحكمت وضع قبعة حماية على رأسه وسكبت على وجهه أنبوب الواقي الشمسي. أراد التراجع هرباً من يديها المملطختين، لكن مارجوري وبخته في لطف.

«ميمي، يجب ألا تصاب بحروق شمس وإلا فلن تسمح لنا أمي بالخروج مرة أخرى.»

كانت تدعوه دائماً ميمي. وقد أخذت دورها كأُم صغيرة على محمل الجد. ثم أعدت حقيبة ظهر فيها زجاجة ماء وبعض كعك الحليب.

«ستناول وجبة خفيفة على العشب. موافق يا ميمي؟»

لقد وافق. كان يذعن دوماً لأنه يعلم أن مارجو مثل الأم، لا تنسى شيئاً وتفكر في كل شيء. غادرا بعد ذلك، هو على دراجته ثلاثية العجلات، وهي على دراجتها الصفراء الكبيرة. كانت مارجو تقود دراجتها بسرعة كبيرة...

سارا في الطريق الترابي لأن مارجو قالت إنه مسلٌ أكثر. سألته:

«ما رأيك يا ميمي؟ هل تريد الذهاب إلى الطريق الرئيسي أم الطريق الترابي؟»

قال: «مثلك.»

«مثلك لا تعني أي شيء. أنا أجد أن الطريق الترابي أكثر متعة، فيه محدّبات وفيه

حُفَر، ونستطيع المناورة لتجاوز العقبات. ما رأيك؟»

«نعم.»

«ماذا تقصد بـ نعم؟»

نظرت إليه بعينين ضاحكتين وداعبت شعره.

«لا تتصرف بخجل يا ميمي. قل لي ماذا تفضل؟»

نفخ صدره محاولاً أن يبدو مثل شخص بالغ.

«الطريق الترابي أكثر متعة... أعتقد ذلك أيضًا.»

ابتسمت له ومسحت على شعره مرة أخرى.

«عظيم. هيا بنا.»

بعد حين، بينما كانا يقودان دراجتيهما، وجدت مارجو شجرة جميلة جدًا. كانت جميلة حقًا، تنتشر على أغصانها زهور بيضاء جميلة. قالت إنها حتمًا شجرة كرز. سألتها عما إذا كان يريد تناول الوجبة الخفيفة هنا، عند سفح شجرة الكرز أم لا. أو ما برأسه موافقًا وجلسا. أخرجت مارجو كعك الحليب وزجاجة الماء. حملت له الزجاجة وهو يشرب، كأنه طفل صغير، لكنه لم يجرؤ على الاعتراض. ثم جاءت نحلة وحطت على كعكة مارجو، مما أخافها بشدة فبدأت بالصراخ والركض في كل اتجاه. كانت كعكتها على الأرض. لم يفهم لماذا كانت تصرخ هكذا، وقام في لطفٍ بأمساك النحلة من جناح واحد.

«اتركها يا ميمي! ستلدغك!» صاحت مارجوري.

تركها وطارَت بعيدًا وسط أحد الحقول. عادت مارجو إلى كعكة الحليب التي نفضت عنها الغبار قبل أن تحملها إلى فمها. أكلتها بسرعة كبيرة، وكأنها تخشى أن تعود النحلة وتلدغها مرة أخرى. ثم رفعت إميل بين ذراعيها وأعلنت: «لقد أخففتها يا ميمي! لقد ابتعدت!»

أخذت تضحك واستمتعت بتدويره، وتطايير شعره البني الطويل الأجدد أمام عينيه وفمه، لكنه هو أيضًا كان يضحك كثيرًا حتى لا يشعر بالإهانة. ثم أعادته إلى الأرض.

«عِذْني يا ميمي ألا تفعل ذلك مرة أخرى.. إنه أمر خطر للغاية.»
أو ما برأسه فقالت:
«جيد.»

في طريق العودة، قادا بأقصى سرعة على المطبات والحفر، وهما يتناوبان على الصراخ:

«ميمي مروّض النحل! ميمي المنقذا!»
لم يكن يعرف معنى (الإنقاذ) ولكن كان الأمر مسليًا حقًا.

بدأ إميل يميز البقع البيضاء من حوله بشكل أفضل قليلاً. إنها أشعة الشمس التي تدخل عبر النوافذ. لا تزال ابتسامة طفيفة ترسم على وجهه. ذكرى تلك النزهة بالدراجة، كانت رائعة حقاً. سيتعين عليه أن يسأل مارجوري عما إذا كان بإمكانها تكرار الأمر غداً أم لا. المدرسة لن تبدأ على الفور. لديهما الوقت.

«إميل؟ إميل... إميل؟»

إنهما هناك، قريبتان جداً. مارجوري ووالدته. بذل جهداً للخروج من أحلام اليقظة. رمش بعينه. انفتح جفناه. إنها واقفتان بجانب السرير. قامة سوداء وقامة بيضاء. انحنت البيضاء فوقه. هي التي كانت تناديه طوال الوقت. وسألت في لطف:

«هل أنت مستيقظ يا إميل؟»

إنها مارجوري. لديها نمش. أوما. وضعت شيئاً فوق رأسه. كان متأكدًا أنها تعبت بشعره من جديد. التفت نحو القامة الأخرى. قرر أنه كبير بما يكفي ليسأل بنفسه. لقد قام أساساً، بطرد نحلة أمس!

«أمي...»

ارتعدت المرأة التي ترتدي السواد. تلقى كهزة رأس.

«هل يمكننا القيام بنزهة على الدراجة مرة أخرى غداً؟»

على الجانب الآخر من السرير، لبثت جوانا صامتة، عاجزة عن الكلام. التفت إليها الممرضة وهمس في لطف:

«لقد عملتُ في طب الشيخوخة لفترة طويلة، ورأيت الكثير من مرضى ألزهايمر... لا تخافي من مسابرتي والدخول في لعبتي.»

كان إميل ينتظر بسكون في سرير، وابتسامة خفيفة تطفو على شفثيه. ابتلعت جوانا ريقها بصعوبة. لم تحف قط من دخول عالم إميل، ولا من التظاهر بأنها الشخص الذي يظنه فيها. ليس هذا ما كان يجعلها تتسمر في مكانها، ويجمد أحشاءها، ويشعل النار في صدرها. بل نداء أمي تشبث بقضبان السرير الرمادية. قائلة لنفسها إنها إذا انتظرت لفترة كافية، فسيقولها مرة أخرى. أمي.. دفعتها الممرضة بمرفقها بخفة لتشجيعها على الاستجابة، فقالت بصوت أجش:

«سوف نرى...»

لم تعرف ما يجب أن تقول. سأل إميل:

«سنرى ماذا؟»

«س... سنرى كيف يكون الطقس... وربما... ربما سننطلق بحقيبتَي الظهر والخيمة. سيكون الأمر مسلياً، اليس كذلك؟»

صعد صوتها إلى الطبقات الحادة مبتعداً عن الصدق. ولم يُظهر إميل ما يدل على أنه لاحظ ذلك.

«بصحة ما رجو؟»

«نعم... إذا... إذا أرادت ذلك...»

شعرت بحركة داخل الغرفة. لقد حضر الطبيب، طيبب المرة الماضية نفسه، وعلى شفثيه ابتسامة حزينة. أشار خفيةً إلى جوانا أن تخرج كي يتناقش معها. توجهت إلى إميل هامسة:

«سأخرج لبضع دقائق وأعود. اتفقنا؟»

انتظرت جوابه في لهفة لكنها لم تتلق سوى هزة رأس. لم يقل /مي ثانيةً. اخترع نوم لغة العيون والأيدي، فكانا يتواصلان بتلك الطريقة. لم تسمع منه هذه الكلمة قط. لم ينطق بها قط. /مي

أغلق الطبيب الباب خلفها. عادت للجلوس في المقعد الرغوي الأزرق، وتهاوى بتثاقل في مقعده الجلدي.

«حسنًا. ها قد عدنا إلى نقطة الانطلاق.»

أومات موافقة. وجدت المقلمة الصفراء، المزينة بملصقات خضراء، وهي علامة مألوفة أخرى. انتظر الطبيب حتى ترفع وجهها نحوه قبل أن يبدأ بالكلام:

«لقد أصيب زوجك بنوبة قلبية أكثر خطورة من نوبته السابقة. توقفت الدورة الدموية نحو جزء من عضلة القلب فجأة. بسبب الإرهاق حتمًا. لولا التدليك القلبي الذي قامت به هذه السيدة في القرية، لأصبحت فرصته في التعافي ضئيلة.»
اتسعت عينا جوانا. أوضح الطبيب:

«لاحظ أطباء الطوارئ في تقريرهم أن سيدة كانت تقوم بتدليك قلب زوجك. استطاع دماغه أن يبقى مؤكسجًا طوال المدة التي استغرقها وصول الإسعاف.»

بالكاد أدركت أنها تنفست الصعداء. إنها لا تعرف من فعل هذا. ربما لوسيا أو إيزادورا. إنها ممتنة لهما خالص الامتنان.

«هل سيتعافى؟» سألت في قلق.

«سوف يتعافى ولكن حالته سوف تتدهور أكثر. أوصي أكثر من أي وقت مضى بتجنب أي نشاطٍ بدني».

ترددت بضع ثوانٍ في طرح السؤال الذي يحرق شفيتها.

«بناءً على حالته الحالية، هل يمكنك أن تعطيني توقعاتك؟»

باعد الطبيب بين يديه دلالة عجزه.

«كان من الممكن أن تكون هذه النبوة القلبية قاتلة. كان من الممكن أن تكون الأخيرة. لا أستطيع التكهّن بالمدة المتبقية له على قيد الحياة... يُظهر مخطط صدى القلب عدم انتظام ضربات وضيق التنفس. يُحتمل أن يتوقف من جديد. كما أن ضغط دمه يرتفع وينخفض. قد تنقضي بضعة أسابيع قبل أن يصاب بنوبة قلبية أخرى. أو بضعة أيام إذا لم يراع نفسه...»

تلقّت الضربة دون أن ترمش. واحتاجت إلى بضع ثوانٍ كي تستعيد القدرة على الكلام.

«هل بقيت له بضعة أسابيع على الأكثر؟»

بدا الطبيب حزيناً للغاية. كانت ترى كل التعاطف الذي يظهره في أعماق عينيه الخضراوين.

«على الأكثر يا مدام فيرجيه».

لم تضيف شيئاً. لقد اتخذت قرارها للتو. كانت تسمع الطبيب يتكلم غير أن ما يشبه الحجاب كان يفصل بينهما. إنها لم تعد هناك.

«سأبقيه هنا لمدة خمسة أيام، للتأكد أن قلبه يتعافى من جديد. ثم أجعلك توقعين على ورقة الخروج».

أجبرت نفسها أن توافق.

«هل لديك أسئلة أخرى؟»

هزت رأسها ونهضت. لم يعد لديها ما تفعله هناك. أرادت مغادرة هذا المكتب بأسرع ما يمكن.
(لا.)

عرض عليها الطبيب أن يوصلها إلى المنزل ويقدم لها كوبًا من الماء لأنها شاحبة، لكنها رفضت بأدب.
«حسنًا... في هذه الحالة، نلتقي خلال خمسة أيام، مدام فيرجيه.»
«إلى اللقاء.»
كانت قد اختفت.

يدوي في القرية صدى ضحكات وصرخات أطفال. الصبي الصغير ذو الشعر الأحمر، الذي رآته جوانا في أثناء جلسة التأمل، يحتفل اليوم بعيد ميلاده الخامس. هناك خمسة أولاد آخرين جاءوا بعد ظهر هذا اليوم لتناول وجبة خفيفة في عيد ميلاد جدير بهذا الاسم. ويبدو من صراخ الأطفال أن الوجبة الخفيفة تحولت إلى معركة مياه.

داخل عربة التخيم، أغلقت جوانا الستائر الصفراء والبرتقالية لحماية نفسها من الحرارة. ببجهدٍ خاص وبطريقةٍ جدية غريبة، قامت بترتيب الأشياء بعناية في حقيبة ظهرها الحمراء الكبيرة. دفتران أسودان. هاتفها الخلوي. حافظتها وكذلك حافظة إميل مع أوراق هويتهما. آخر لوحاتها القماشية الفارغة، والتي شغلت نصف الحقيبة. ملون وفرشاة وأربعة أنابيب طلاء. كتاب مصفّر بصفحاتٍ مثنية الأطراف. مجموعة إسعافات أولية. منشقة، مجموعة من قطع الصابون. طقم ملابس احتياطية لها، وآخر لـ إميل. حوالي عشرة أكياس من الأطعمة المجففة. بذور وفواكه مجففة. زجاجة ماء. أقراص لتنقية المياه.

نهضت ومسحت قطرة عرق على جبينها. كانت الحرارة شديدة. بدأ شهر يونيو لدى عودة إميل إلى القرية. تحولت أيام الاستشفاء الخمسة إلى أسبوعين بعد ارتفاع حاد في ضغط الدم، ثم انخفاض مفاجئ فيه. إنه جذع الدماغ، أشار الدكتور مارغرون.

في أثناء غياب إميل، أمضت ساعات طويلة في حديقة الخضروات المستدامة. لقد خرجت البطيخات الأولى من الأرض. وكانت أول من تذوقها بصحبة لوسيا، منقذة إميل. لقد عرفت أخيرًا تفاصيل القصة. كانت لوسيا هي من قامت بتدليك القلب وأطالت حياة إميل لبضعة أسابيع أخرى.

في أثناء غيابه، وصل زوجان جديدان إلى القرية. يبلغان من العمر خمسة وعشرين عامًا وقد حصلوا على إجازة تفرغ علمي لمدة عام. كانا ينمان في خيمة بانتظار تجديد الكوخ الخاص بهما. كانا يعملان عليه طوال اليوم تحت أشعة شمس حارقة.

في أثناء غيابه أخيرًا، بحثت جوانا في دليل جبال اليرينيه مرة أخرى. لقد اشترت خريطة جديدة أكثر دقة، تُركز على جبال اليرينيه الأطلسية.

عاد بوك إلى عربة التخيم ذات ليلة، بصحبة القطة المرقطة، وابتسمت جوانا في الصباح الباكر عندما رأت حلقات رفيقة بوك متفتحة ووردية اللون.

عاد إميل قبل أربعة أيام، ومنذ ذلك الحين أمضى معظم فترات بعد الظهر نائمًا. كانت تعد له منقوع النعناع المثلج وتعرض عليه مباريات مونوبولي عندما يكون في حالة مناسبة بما يكفي. قال الطبيب إنه سيحتاج إلى بضعة أيام كي يتعافى تمامًا. بُثِّتَ الحقيبة الحمراء، المملوءة تمامًا، على مقعد العربة، وأصبحت جاهزة. سيكون بمقدورهما المغادرة عما قريب.

انجهت إلى منضدة العمل وسكبت لنفسها كوبًا كبيرًا من الماء. بجوار الخوض هناك مغلف أبيض يحمل عنوان: ليون أندريه، منزل السيد والسيدة أندريه، 12، شارع دو بورغ، 35430 سان سولياك. بداخله مفتاح بني كبير مغطى بالصدأ. مفتاح منزل حجري صغير محاط بحديقة خضروات مهجورة. نباتات الطماطم قد ماتت منذ وقتٍ طويل. الممر الصغير المؤدي إلى الباب الأمامي ممتلئ حتمًا بأعشاب ضارة. لقد مر عام تقريبًا منذ أن هجرته جوانا، ولم تطأه قدم ليون بعد رحيل توم. كانت جوانا في مركز الرعاية ذاك، وعاد هو للعيش مع والديه. كان هذا المنزل الصغير بلا شك ممتلئًا بذكريات أليمة للغاية بالنسبة له. عندما تفقدته جوانا في مرورٍ عابر، عند خروجها من مركز الرعاية، وقبل مغادرتها إلى روان حيث كان ينتظرها شخص يدعى إميل 26، كانت تفوح منه رائحة الرطوبة والعفونة.

أغلقت جميع مصاريعه بحرصٍ عندما غادرت، ووضعت المفتاح البني الكبير في حقيبة ظهرها الحمراء. المفتاح اليوم موجود في هذا المغلف الأبيض المرسل إلى ليون. وفي المغلف وَضَعْتَ شيئًا آخر. جملة فوق بطاقة جميلة.

عندما لا نستطيع العودة إلى الوراء، يجب علينا أن نفكر فقط في أفضل طريقة للمضي قدمًا.

إلى ليون.

بمشابة وداع.

جوانا.

على الجانب الخلفي من البطاقة، جملة أخرى مقتبسة من باولو كويلو. أيضًا من الخيميائي؛ وهو من أوائل الكتب التي قرأها لها جوزيف. بضع كلمات تبدو وكأنها تشجيع لهذا الرجل الذي أحبته ثم كرهته من أعماق كيائها. رغم كل شيء.

«في العالم، هناك دائماً شخص ينتظر شخصاً آخر.»

باولو كويلو، الخيميائي

«هل يمكنك الانتباه إلى بوك ورفيقته؟ لقد تركت لك كيس الطعام ووعاء الماء أمام عربة التخيم. إنه عادةً يعود لتناول الطعام في الصباح الباكر. كل ما عليك فعله هو ملء الوعاء قبل الذهاب إلى السرير.»

أومأت إيزادورا موافقة. كانت تتكى على مجرفة كبيرة وسط حديقة الخضروات. «عَلِمَ.»

«قد تلد القطة قريبًا. أنا لا أعرف حقًا متى. في حال ظهر الصغار...»
«أنت لن تغيبي طويلًا، أليس كذلك؟» أجابت إيزادورا مبتهجة.

«لا أظن. ولكن...»

«لا تقلقي. سوف أهتم بالأمر.»

«حسنًا.»

نظرت إيزادورا إلى جوانا، المحملة مثل بغل بحقيبة ظهرها الحمراء الممتلئة حتى الحافة، وقد انتعلت حذاء المشي لمسافات طويلة. في الخلفية، يمشو إميل بجانب بوك، متصبرًا في انتظار المغادرة.

«هذه مفاتيح عربة التخيم. أتركها لك.»

وضعت المفاتيح الصغيرة في يدي إيزادورا الخشتين والمتسختين بالتراب.

«هل لديك هاتف محمول؟» سألت إيزادورا.

«في حال الطوارئ...»

أنت على ذكر حالة إميل الصحية والمخاطر التي ينطوي عليها الذهاب معه إلى الجبال.

«نعم. لدي هاتف، والبطارية ممتلئة. سأتركه مغلقًا طوال الوقت حتى لا

أستخدمه.»

أومات إيزادورا. حاولت إبعاد بدايات القلق عن وجهها. تساءلت عما إن كانت سترى إميل على قيد الحياة مرة أخرى أم لا. لكنها لا تستطيع ترك هذه الفكرة تنطبع في ذهنها. وجهت لهما ابتسامة عريضة.

«اعتنيا بنفسيكما. استمتعا!»

تبادل الثلاثة تلويحات واسعة بالأيدي لبعضهم البعض. راقبتها وهما يتعدان وسط حرارة لا تزال مقبولة في هذا الصباح من يونيو. لحق بوك بهما لبضعة أمتار قبل أن يجلس ويراقبهما وهما يختفیان..

اليوم، يمضي إميل ووالدته في إجازة إلى الجبال. لم يفهم إميل حقًا ظروف هذه الرحلة المرتجلة. ما يعرفه هو أن والده بقي في القرية وأن مارجوري ليست هنا، لكنه ووالدته ينطلقان في مغامرة. يتذكر على نحو غامض محادثة خاطبته فيها مارجوري كشخص راشد حقيقي، كي توضح له:

«سأذهب إلى منزل صديقتي ماريا، لألعب معها. قالت والدتها إن بإمكانني أن أنام عندها. سأكون هنا غدًا، اتفقنا؟»

وافق. وأضافت:

«كُن عاقلًا الليلة يا ميمي، حتى لو لم أكن معك. لن تخاف من النوم بمفردك، أليس كذلك؟ أنت فتى كبير.»

بالطبع لا يخاف. فكر أن مارجوري اليوم هي حتمًا عند صديقتها ماريا، وأن والدته ستأخذه إلى الجبال، وسوف ينأمان تحت الخيمة. حتى أنها بشرته بأنه سيرى هناك نسورًا.

بدأ الطريق الجبلي بجسرٍ صغير فوق ساقية مياه، ثم دخلا بين شجيرات تفوح منها الرائحة الجميلة للأرض الطرية والإشنيات. نظر أمامه إلى حقبة الظهر الحمراء المهترئة على وقع خطوات أمه. فكَّر أنها ثقيلة عليها. هو لم يكن يحمل شيئًا. لم تشأ أن تجعله يحمل شيئًا، لأن والدته قوية. تذكر اليوم الذي كُسرت فيه قدمُ والده وأصبح يمشي على عكازين. سُمح له ولـ مارجو بعمل رسومات على الجص. رسمت مارجو تلك الشمس الوردية اللون ورسمَ هو سيارة. اضطرت والدته إلى إعادة ترتيب الطابق السفلي من المنزل بالكامل لأن والده لم يعد قادرًا

على صعود الدرج. كان هو ومارجوري قد أطلا من دربين السلم وشاهداها وهي تقوم بمفردها بإنزال الحشية وقاعدة السرير، وجهاز التلفزيون. قال والده: «عزيزتي توقفي، هذا جنون، إنك تعرضين نفسك للأذى. سأصل بزميل أو اثنين. سيقومان بذلك خلال دقيقتين.»

أجاب والدته:

«لقد انتهيت تقريباً.»

ثم قامت بتحريك أثاث الصالون بالكامل لإيجاد مكانٍ لغرفة نومهما في الطابق السفلي طوال فترة نقاهة زوجها. أرادت مارجوري وإميل مساعدتها في تحريك الأرائك، كما أراد والدهما، لكنها أجابت: «اذهبا للعب في الخارج، انصرفا!»

أخذوا استراحة وسط مرج. كان أمامهما جبال بيضاء كبيرة حادة، وأبقار ثقيل في الظل في كل مكانٍ تقريباً. أخرجت والدته شطيرتين من حقيبة الظهر الحمراء. وقالت:

«هناك واحدة فقط لكل منا. إذا جعتَ بعد الظهر، ستتناول وجبات خفيفة.»
«وجبات خفيفة؟»

«فواكه مجففة، وأشياء من هذا القبيل.»

لقد راقبها أمس وهي تصنع تارت الفراولة. كانا في المطبخ والنافذة مفتوحة. كان والده يجز العشب في الحديقة ومارجوري تساعد والدتها، وتغسل الفراولة في الحوض. قامت الوالدة بمدّ عجينة الفطيرة باستخدام شوبك.
«هل أستطيع القيام بذلك؟» سأل إميل.

كانت تخفق شيئاً ما بسرعة كبيرة في قدرٍ على الموقد. نظر مذهولاً إلى يديها اللتين تتحركان بسرعة كبيرة حتى بدا أنهما تحتفیان. فكرت دون أن تتوقف عن الحركة.

«تستطيع نزع أوراق الفراولة.» قالت.

كانت مارجوري قد وضعت أمامه وعاء السلطة الصغير الذي يحتوي على الفراولة المغسولة. وأشارت له إلى الأوراق.

«إنها الأطراف الخضراء، ميمي.»

دفعت كرسيه للأمام لأنه كان بعيدًا جدًا عن الطاولة.

«كان يجدر بك أن تأخذ قيلولة يا إميل.»

التفت وعلى وجهه ملامح الظلم واضحة.

«ماذا؟ ولكن لا...»

في فرجة الغابة لم يعد هناك قدر أو أداة خفي بين يدي أمه الجالسة فوق صخرة كبيرة.

«لقد مشينا ساعة تقريبًا، والأفضل أن تراح لبعض الوقت. أنا أيضًا سأذهب للراحة.»

نظر حوله بحثًا عن الطاولة، ووعاء الفراولة، والكرسي، ومارجو. قال متلعثمًا:

«لكن... ماذا عن الفراولة؟»

وضعت قبعتها السوداء على الأرض واستلقت فوق العشب.

«سوف نهتم بها بعد القيلولة.»

امثل وهو مشوش قليلًا. لم يعد يفهم حقًا أين هو. كانوا يصنعون تارت الفراولة في المطبخ.

«أين مارجو؟»

رآها جيدًا كيف تتظاهر بالنوم كيلا تجيب. نظر حوله وسلى نفسه برؤية بقرة تتبول على بعد خطوات قليلة. أخذ يضحك بمفرده.

كانت جوانا تراقبه من خلال جفنيها نصف المغمضين. شعرت بالارتياح حين وجدت أن الأبقار شكلت تسلياً له لبعض الوقت.

غابت الشمس في بطء فوق المروج التي تتناثر فيها صخور بيضاء. كانت الصخور الجيرية تشع بانعكاسات ذهبية. نام إميل بعد الظهر. بالكاد قطعاً كيلومترين منذ هذا الصباح ولكن لا بأس. لديهما كل الوقت لأجل هذه الرحلة النهائية. كل لحظة من هذه اللحظات، ثمينة، حتى تلك التي لا يفعلان فيها شيئاً. لا يزال إميل نائماً واغتنمت جوانا الفرصة لاستكشاف أي وجود محتمل لفراولة أو توت أسود بري بين الشجيرات. كان الحصاد هزياً ولكنه يفي بالغرض لمرافقة وجبتها المسائية. لم تشأ إحضار موقد الغاز، فقد كانت حقيقتها أساساً ممتلئة حتى تكاد تتمزق. ولذلك اختارت، من بين أكياس الأطعمة المجمدة، المتبقية من رحلة الصيف الماضي، أكياس أطعمة يمكن ترطيبها بالماء البارد.

أدى صوت الحاوية الحديدية الصغيرة التي استخدمتها جوانا، إلى إيقاظ إميل. بدا متفاجئاً بوجوده وسط مرج جبلي. رأت في عينيه أنه على وشك طرح أطنان من الأسئلة، لكنها لم تتح له الوقت لذلك:

«هل سبق لك أن قمت بطهي شيء مماثل؟»

احتار، لكن فضوله دفعه لإلقاء نظرة في الوعاء حيث تتلاطم عصيدة لا يمكن تحديدها وسط الماء.

«ما هذا؟»

«وجبتنا المسائية.»

أضاء وجهه.

«هل سنشعل ناراً؟»

خشيت أن توهن حماسه، لكن في جعبتها لحسن الحظ سلاحاً آخر.

«لا. لدينا ما هو أفضل.. خيمة نمضي فيها الليل. هل تريد البدء بتركيبها؟»

نهض في قفزة واحدة.

«هل أستطيع؟»

«بالطبع. نادني إذا احتجت إلى مساعدة.»

أخذ يفتش الحقيبة الحمراء.

استغرق منه الأمر ساعة لتفكيك الكتلة الثقيلة من الأوتاد والقماش، التي بناها إميل في فخر. ضحك لصراخها عندما انهار وتدّ وانطبق القماش فوقها، مؤدياً إلى محاصرتها تماماً.

«انتظري يا أمي، سأساعدك.»

بقيت جامدة، مدفونة بالخيمة، غير قادرة على القيام بأدنى حركة.

أخيراً تناولوا الطعام بينما حُجبت السماء بعتمة داكنة، والتمعت فيها النجوم الأولى. كانت بخنّة الأرز والكاراي لذيدة، وهو ما فاجأ جوانا. وفي أثناء تناولهما حبات الفراولة البرية القليلة، غير الناضجة تماماً، أعلن إميل:

«أخبرتني مارجوري بقصةٍ مخيفة.

«أوه، حقاً؟»

«لا تُروى إلا في الظلام.»

«أعتقد أن الوقت قد حان، إذًا، أليس كذلك؟»

«لا، انتظري... في الخيمة.»

«يجب أن نكون في الخيمة؟»

«نعم. ستكون أقلّ إخافة.»

في وقتٍ لاحقٍ التفت بكيس النوم، وراحت تستمع إليه وهو يروي الحكاية وعيناه تلمعان بالإثارة والخوف، حول أسطورة المستذئب الذي يتجول بين الشجيرات بحثاً عن أطفال يأكلهم. تنتهي الحكاية بهذه الكلمات:

«وسياخذ المستذئب شكل آخر طفلٍ قضمه... من يدري، ربما يكون مختبئاً

بيننا؟»

تظاهرت بأنها ترتجف من الخوف، عندما التفت إليها راضياً.

دُهمشت عندما تبين لها أنه يعرف هذه القصة عن ظهر قلب، وأن هذا الجزء من ذاكرته بقي سليماً، في مأمن من مرضه الرهيب.

كان اليوم التالي لطيفاً. نسيم منعش يجعل أوراق الشجيرات تتراقص. أكلا المكسرات والزبيب قبل استئناف المسير تحت شمس خجولة. وبعد نصف ساعة باغتهما المطر، وكان شديداً بقدر كونه غير متوقع نظراً لأن السماء زرقاء. لذا بالأشجار ليكتشف إميل قنفذاً صغيراً سقط في حفرة بين جذرين كبيرين. راقبته وهو يتناول قطعتي خشب لإخراج الحيوان المسكين من حفرة. أعلن:

«أمس أنقذتُ مارجوري من نحلة.»

«حقاً؟»

«نعم. كانت ترغب في التهام وجبتها الخفيفة.»

بحركاتٍ بطيئة ودقيقة ركَّزَ على إخراج القنفذ إلى وسط العشب.

«هل يمكن أن يتعرض القنفذ للهجوم؟» سأل ملتفتاً إلى جوانا.

«نعم. هناك حيوانات تفتسه.»

«من؟»

«البومة السمراء، الخنزير البري...»

بدا أنه يفكر في شيء ما وهو يرفع رأسه تجاه أوراق الشجر.

«هل يمكننا أن نبني له مأوى؟»

كان المطر قد منعهما على أي حال من متابعة المسير، ولديهما متسع من الوقت لبناء ملجأً للقنفذ الصغير. جمع إميل أغصاناً من المكان، وقامت جوانا بتكديسها مستخدمةً أكبر الفروع لتشكيل هياكل المأوى.

كان بعض المتزهين الذين يمرون بالمكان، يتوقفون مستمتعين بتأمل موقع البناء الصغير هذا. وضعوا القنفذ بعناية في الوعاء الحديدي الذي يستخدمه للطحى، في انتظار أن يتمكن من الالتحاق بملجئه.

توقف المطر منذ بعض الوقت، عندما استأنفا الطريق، راضيين لترك الحيوان الصغير في منزله الجديد.

في المدرسة الابتدائية هناك صبي خجول يلزم مكانه. إنه سمين بعض الشيء وتصيبه نوبات غريبة حالما يبدأ بالركض خلف كرة. يتساءل الأولاد الآخرون وإميل عن السبب الذي يجعله يمضي أوقات الاستراحة بين الدروس، على مقعد، بدلاً من الاشتراك في لعبة (الذئب المتجمد). حتى البنات يلعبن. في أحد الأيام، رأى إميل الصبي على الأرض، بمفرده كالمعتاد، منهمكاً في جمع أغصان وأوراق شجر. تخلى إميل عن لعبة (الذئب المتجمد) ليقترّب في بطاء. لقد صنع الصبي السمين نوعاً من طريق محدد بالأغصان. لم يفهم إميل السبب. في الزاوية، وضع أوراق دلب مجوّفة، تبدو بمثابة مشرب صغير لسقاية حيوان ما. وفي جوف الأوراق قطرات ماء وكذلك أغصان نبات النفل.

«ماذا تفعل؟» سأله إميل.

رفع الصبي السمين رأسه وعينه في حذر.

«سوف تسحقها!» أجاب بقسوة.

«انصرف!»

لم يفهم إميل عن أي شيء يتحدث، فهو لا يرى شيئاً. بقي في مكانه.

«هل سمعت ما قلته؟» أصر الآخر.

انحنى إميل كي ينظر من كتب إلى هذا المسار الصغير المحفور في الأرض.

«هل هذه قرية للحيوانات؟»

بدا أن سؤاله الممتلئ بالفضول قد جعل ملامح الصبي الصغير السمين أقل

قسوة.

«إنها نمال. ألا تراها؟ سوف تسحقها!»

لاحظ إميل عندئذ أن مائة نقطة سوداء صغيرة تحمل أغصاناً وفتاتاً وسط

التراب. اتسعت عيناه من شدة الإثارة.

«هل تصنع لها قرية؟»

هز الصبي الصغير السمين رأسه.

«بُنيت لها مرافق لمساعدتها في العمل. يقول والدي إن النمل هو أكثر الكائنات

الحية ميلاً إلى العمل. إنه يعمل طوال اليوم، بل طوال حياته.»

«لا بد أن هذه الأشياء حمل ثقيل للغاية.» لاحظ إميل وهو يرى الأغصان التي يبلغ حجمها عشرة أضعاف حجم النمل.

«نعم. لهذا السبب... أساعدها من خلال تحديد مسارات.»

يشير إلى أوراق الدلب المملوءة بالماء والنفل.

«هنا، تستطيع النملة أخذ قسطٍ من الراحة لتناول الطعام والشراب.»

يهوي إميل على الأرض ويجلس متريعا.

«أليس لديها مكان تنام فيه؟»

بدا أن الصبي الصغير قد أربك. لكنه استعاد رباطة جأشه خلال ثوانٍ.

«لا أعتقد أن النمل ينام.»

«حقًا؟»

«نعم.»

فكر إميل بدوره بشكل مكثف. تفحصت عيناه الأرض من حولهما، والخصي الصغيرة المدفونة هناك، وهذا الشريط المطاطي القديم الذي تغير لونه، وغلاف العلكة الذي تركه هناك أحد الأطفال، وقوقعة الحلزون هذه.

«يمكننا إذاً أن نبني لها ساحة لعب!» أعلن متحمسًا.

تردد الصبي الممتلئ الجسم. كان يميل إلى الرد بأن لدى النمل الكثير من العمل وليس لديه وقت للعب، ولكنها المرة الأولى التي يكون لديه هو زميل للعب، لذلك لم يشأ تفويت هذه الفرصة. قال:

«حسنًا، موافق.»

أخذًا يحفران الأرض بجهد، وقد ارتسم على وجهيهما الابتهاج والتركيز. بعد لحظة رفع إميل رأسه نحو الصبي، وسأله:

«ما اسمك؟»

لم يكونا في الفصل نفسه. هناك عدد كبير جدًا من تلاميذ السنة الابتدائية الأولى، الذين تم دمجُ قسم منهم - بينهم إميل - في السنة الابتدائية الثانية. كان الصبي السمين من تلاميذ القسم الآخر.

«اسمي رينو. وأنت؟»

«إميل.»

«إميل! إميل؟»

كانت تبحث عنه، وقد بدأ الليل يخيم. كان جالسًا خلف الخيمة يتفحص الأرض.

«ظننت أنك ضعت. لبتك في المرة القادمة تجيب عندما أناذك.»

أوما. ركعت بجانبه.

«ماذا تفعل؟»

رفع نحوها نظرة طفولية وصرح في فخر:

«أنا ورينو نصنع مسارًا للنمل.»

في اليوم التالي كان الجزء الأكبر من المسار يقع في أطراف الغابة، ويتجه في صعودٍ طفيف، لكنهما بالمقابل يستفيدان من برودة المكان. في مراتٍ عديدة، صادفا جداول صغيرة، وفي منتصف النهار تقريبًا، انتهزا الفرصة لاغتسالٍ إجمالي. بدأت جوانا تفقد مفهوم الزمن إلى حدٍّ ما، وتشعر كأنها قد مضى أسبوعان بالفعل على انطلاقهما. صادفا القليل من المتزهين.

طالت القيلولة فوق طحالب الغابة الخضراء الطرية. كان إميل يصدر صفييرًا وفضلت جوانا ألا تبتعد، وأن تبقى جالسة بجانبه تراقب التحركات بين الأشجار. لمحت بشكلٍ خاطف، طائرٍ قيقٍ أخضر، وقاومت بشدة إغراء إيقاظ إميل كي تريه إياه.

بعد وجبتها المسائية، التي تتمثل في ريزوتو غريب من الطماطم والريحان، مع مذاق خفيف من الفطر، أدركت جوانا أنه لن تكون هناك فسحة كافية، بين هذه الشجيرات، لنصب خيمتهما. عرضت على إميل فكرة النوم تحت النجوم وارتاحت لسروره بها. اتخذًا مكانًا في مساحةٍ ضيقة مفتوحة، حيث يمكنهما رؤية جزء من السماء.

«هل تعرفين النجوم؟» قال إميل سائلًا جوانا.

«نعم. أعرف بعضها.»

«أسأليني عنها كي أحزر.»

«حسنًا.»

لم يحزر سوى نجمة الراعي وأعلن أنها جميعها متشابهة مثلما يتشابه القِدْرُ مع المقلادة، ما أثار ضحكهما. ناما على هدهدة صوت الريح بين أوراق الشجر. كانت ليلة هائلة سطع فيها نجمُ الراعي على نحوٍ خاص.

«سأرسم لوحتي الأخيرة، ما رأيك؟»

أوماً إميل. وضعت أمُّه لوحة قماش بيضاء فوق صخرة كبيرة مسطحة، في العشب، إضافة إلى ملون عليه أربعة ألوان - الأبيض والأزرق والأخضر والأحمر - وفرشاة دقيقة.

«أقترح أن نرسمها معًا. ما رأيك؟»

أوماً موافقًا. كانا في فرجة جميلة. قالت إنها اقتربا من أكواخ أنسابير. سيصلان إلى هناك خلال يومين أو ثلاثة.

«ولكن علينا أن نجتهد.» قالت.

«أنا أجتهد دومًا.»

ابتسمت له.

«عظيم إذا. ما الذي تريد رسمه على هذه اللوحة؟»

هز كتفيه. أشارت له نحو الفرجة الخضراء والجبال البيضاء والسماء الزرقاء الجميلة.

«انظر حولك. هناك شيء ترغب في رسمه، أليس كذلك؟»

مد إصبعه نحوها مباشرةً نحو صدرها.

«أنا؟» سألت متفاجئة.

أوماً بابتسامة ضاحكة.

«ارسمني إذا وسأضيف المنظر الطبيعي بعد ذلك. موافق؟»

«حسنًا.»

أشار إلى صخرة كبيرة. هذا هو المكان الذي يتعين أن تجلس فيه كموديل للرسم. راقبته وهو يلتقط الفرشاة ويفكر ملياً في كيفية القيام بذلك. في النهاية، غمس الفرشاة باللون الأول. من مكانها، لا تستطيع أن ترى أي لون هو، لكنها كانت تسمع بالمقابل، صوت تنفسه المتقطع والعسير. لقد أصبح الأمر أكثر وضوحاً يوماً بعد يوم.

«هل انتهيت؟»

لا بد أن ساعة مرت وهو منحني فوق لوحته، وشعرت جوانا بسخونة في كتفها. إنها بصدد التقاط ضربة شمس.

«تقريباً.» قال.

قام بضربة فرشاة أخيرة هنا، وأخرى هناك، وطلب منها الانضمام إليه. نظرت باستطراف مخفية ابتسامتها عندما اكتشفت الخطوط الخشنة وغير المنتظمة للرسم، ولكن سرعان ما تلاشى استطرافها أمام أمر آخر. لأن المرأة في اللوحة، الجالسة على الصخرة، رغم أن شكلها عجيب، لكنها تبدو وكأنها شخص آخر له شعر بني، أعمق بكثير من شعرها، ومقصوص إلى ما فوق كتفها. ولكن هذا ليس كل شيء. إنها ترتدي فستاناً صيفياً أبيض مع نقاط حمراء وقبعة بيضاء.

انتظر إميل رد فعلها، بابتسامة على شفثيه. قطبت جوانا حاجبيها.

«هل هذا أنا؟» سألت بأكبر قدرٍ من الطبيعية.

«طبعاً!»

لا يبدو أنه يرى المشكلة. قالت:

«فستاني جميل...»

اكتفى بأنه نهض وقال:

«جاء دورك لإضافة المنظر الطبيعي.»

كان إميل في العاشرة من عمره، يجلس متربعاً فوق العشب، مستنداً إلى شجرة، يحضر حفل زفاف عمته. الفصل صيف، وهو في إيكس أون بروفانس. رن جرس الكنيسة. كان صدى كعبِ حذاء العروس يتردد على أحجار الزقاق. راح المدعوون يسرون خلف الزوجين الشابين وصولاً إلى السيارة. كانت مارجوري

في الصفوف الخلفية، وقد بلغت لتوها الرابعة عشرة من عمرها. لم يعودا يتبادلان الكلام كثيرًا. فقد سئم من التصاقها به. ثم إنها أصبحت غريبة الشكل، لديها بثور على وجهها وجهاز تقويم فوق أسنانها. إنها تضع ملصقات سخيفة في غرفتها، وكل واحدة من صديقاتها تقاقي مثل الدجاج بدلاً من أن يضحكن بصورة طبيعية. أعلنت اليوم أنها لن تحضر حفل الزفاف لأنها تشعر أن فستانها ضيق. أصر الوالدان، وانتهى بها الأمر بالانضمام إليهما مزجرة. بقيت في الصفوف الخلفية مكتوفة اليدين. انضم إليها إميل عندما ركب العروسان السيارة وسط التصفيق. لم يقولوا كلمة، بل راحا يراقبان الحاضرين الذين يتفرون ويتبادلون الأحاديث في مجموعات صغيرة. بعد لحظة سمع مارجوري تبكي فالتفت نحوها.

«ما الأمر؟»

«لا شيء.»

«أخبريني...»

«قلت لك لا شيء!»

هز كتفيه متظاهراً بعدم الاكتراث. كان هذا كافياً كي تبوح مارجوري أخيراً بها يضايقها.

«لن أكون يوماً جميلة مثلها.» أعلنت في حزن.

ارتسم الذهول على وجه إميل.

«إنها ليست بتلك العروس الجميلة. إنها في الأربعين من العمر، ولديها أنف معقوف.»

أخذت مارجوري تضحك من بين دموعها.

«لا، لم أكن أتحدث عنها.»

«لم تكوني تتحدثين عن العمة هيلين؟»

هزت مارجوري رأسها.

«لا... كنت أتحدث عن أمي.»

تابع إميل نظرتها. كانت تراقب أمهما المنهمكة في نقاشٍ مع ضيوف آخرين، على بعد أمتار قليلة. لم ينتبه لهذا قط. هل أمه جميلة؟

عندما تكون صغارًا نرى أمهاتنا جميلات بالضرورة. لم يشكك في ذلك قط. لكنها اليوم متألفة حقًا، وسط المجموعة التي تتناقش أمام الكنيسة. إنها الوحيدة التي تلفت الأنظار وسط كل هؤلاء الضيوف. ربما بسبب قبعتها البيضاء الكبيرة... لكن هذا ليس كل شيء. كانت لديها طريقة لطيفة وهادئة في الوقوف، وترتدي فستانًا صيفيًا جميلًا. وحده إميل من لاحظ ذلك. فستان أبيض بنقاط حمراء، تبدو فيه مثل فتاة صغيرة، أو أميرة من أميرات الرسوم المتحركة. إنها مميزة ووسيمة. راح ينظر إليها مليًا وهي واقفة بين الضيوف بفستانها الأبيض المرقط بالأحمر، يريد أن يحفر صورة أمه، هذه، في ذاكرته.

تمتت مارجوري بجواره، وهي تشهق:
«تستطيع القول إنني قبيحة بالمقارنة معها!» لكنه لم يسمعها.

انتظرت جوانا حتى صباح اليوم التالي كي يحف الطلاء قبل أن تضع لوحة القماش في حقيبة ظهرها. وقبل وضعها في حقيبتها، غلفتها بعناية بقطعة من الملابس، فهي لا تريد أن تتضرر... خلف السيدة ذات القبعة البيضاء والفستان الأبيض المرقط باللون الأحمر كانت قد رسمت الفرجة التي يوجدان فيها من الغابة. العشب الأخضر. الصخور. الدرب المفروش بالحصى في البعيد. أشجار اللاريكس. تبرز قمة جبل أسنان أنساير أمام السماء الزرقاء الممتلئة بالغيوم الصغيرة المستديرة. ينتج عن هذا لوحة غريبة ومتنافرة بحيث قد يتساءل الناظر إليها: ما الذي تفعله السيدة وسط الجبال، بزي راقصة الباليه، هذا؟!

استغرقا ثلاثة أيام أخرى للوصول إلى أكواخ أنساير. أجبرهما إرهاق إميل وصعوبة تنفسه المتزايدة، على التوقف ليوم كامل. تركته ينام في الخيمة واغتنمت الفرصة لتنظيف ملابسه في جدول صغير وتجفيفها في الشمس.

عندما وصلا أخيرًا، بدا إميل مبهورًا بالمنظر وواجه صعوبة في التقاط أنفاسه والإحاطة بكل شيء بعينه في وقت واحد. وقفًا على فسحة خضراء محدبة الشكل، تشكّل واديًا تحيط به وتحرسه أجمل قمم جبال البيرينيه: قمة إير أنساير الشاهقة، وقمة بيتراجيم، وقمة أنساير... وسط هذا الوادي الهادئ، هناك ثلاثة أكواخ

جبلية أصيلة للرعاة، من حجارة قديمة، جرى ترقيع سقفوها الصفيح عدة مرات مع الوقت، فوضعت طبقات مختلفة فوق هيكلها. وكل هذه الأكواخ تحميها كتل صخرية ضخمة. الهدوء هنا تام. حتى تخليق النسور في السماء يتم في صمت، كأنها لتقدير حميمة المكان. مشت جوانا بضع خطوات ووضعت حقيبتها أسفل صخرة كبيرة.

«هناك راع لا يزال يسكن في أصغر كوخ. أما الكوخان الآخران، فهما مخصصان للمتزهين، ولكنهما دون حراسة. من خلال ما قرأته، الكوخ يتمثل في بناء موجز، فقط جدران وأرضية وسقف.»

بالكاد استمع إليها إميل، فقد استدار على نفسه للإحاطة بالبانوراما الماثلة أمامهما. الوادي الأخضر والأملس، المهجور وسط الجبال، ملاذ الهدوء الذي يحرسه عمالقة الحجر الجيري.

«شيء جميل...» صرخ إميل وهو يرمي بجانبها. رفض زجاجة الماء التي مدتها إليه. وكرر:

«جميل حقًا. كأنها الجنة على الأرض.»

ابتسمت جوانا.

«لو كانت الجنة هنا لناسبتني الأمر. ماذا عنك؟»

أوما. بحثت جوانا في حقيبتها وأخرجت كتابًا أصفر اللون.

«ماذا تفعلين؟» سأل إميل.

«أحاول العثور على عبارة اقتباس.»

«اقتباس؟»

«نعم. عبارة تتعلق بالجمال. وبما قلته عن المنظر الطبيعي.»

راح ينظر إليها، دون أن يفهم حقًا، وهي تقلب صفحات كتابها الأصفر وتتوقف بين الحين والآخر لقراءة سطر قبل أن تستأنف بحثها. وأخيرًا وضعت الكتاب على الأرض وقالت:

«لقد وجدتها.»

نظرت إلى الأمام مباشرة، نحو المشهد الطبيعي كي تُلقي العبارة:

«الجمال ليس في الشيء الذي ننظر إليه، بل في صيونا.»

بعد مرور ثوانٍ، سأل إميل:

«ما معنى هذا؟»

«ماذا تعتقد أن يكون المعنى؟»

لقد سأله سؤالاً صعباً. فكر وهو ينظر إلى الأعلى عاضاً على شفته.

«لا أعرف.» قال معترفاً بالهزيمة.

«ليس هناك إجابة محددة. كل شخص يفهم الأشياء بطريقته الخاصة. هذا

سبب أن عبارة ما، قد تعني شيئاً لشخص معين، لا لغيره.»

«أوه...»

«تقول العبارة كما أعتقد أنه ليس كل الأشخاص قادرين على رؤية الجمال من

حولهم... يجب أن تكون روح الشخص جميلة كي يراه.»

لبث إميل صامتاً بفم نصف مفتوح. سوف تقترح عليه أن ينسخ الاقتباس في

دفتر ملاحظاته هذا المساء... إذا أراد.

فُتح باب الكوخ الصغير، مما جعلهما يحفلان. فوجئا بأن الرجل الذي خرج

منه، في عمر الشباب. لقد اعتادا أن تكون نماذج الرعاة رجالاً أكبر سنًا. مثل

هيوليت، وبيير آلان. لكن الرجل الذي يواجههما في الأربعينيات من عمره، ذا

شعر بني خشن. كان يرتدي بنطالاً بنيًا فاتحاً وقميصاً أبيض اتسخ مع الوقت،

وظروف معيشته القاسية.

«أنتم آخر المغادرين.» قال وهو يتقدم لملاقاتها.

نهضت جوانا، وفعل إميل مثلها.

«عفوًا؟» سألت.

«المتزهون الآخرون غادروا جميعاً في وقت مبكر من الصباح. لم أكن أعلم

أنكم لا تزالان هنا.»

فهمت جوانا الموضوع.

«أوه لا، نحن... لقد وصلنا للتو إلى هنا.»

نظر إليها الراعي غير مصدق.

«تريدان قضاء الليلة هنا؟»

أومات برأسها دون أن تفهم سبب اندهاشه. أشار إلى السماء الزرقاء حيث تتسابق سحب قطنية دائرية.

«من المتوقع أن تهب هذا المساء أكبر عاصفة حرارية لهذا الموسم. ألا تستمعان إلى نشرات الأخبار أبدًا؟»

فهم من توتر جوانا وتشتت إميل أنها لا يفعلان.

«غالبية المتزهين يفعلون ذلك. ولهذا السبب نزلوا جميعًا في وقت مبكر من الصباح. الآن لن يسعفكما الوقت...»

«نستطيع النوم هنا، أليس كذلك؟» سألت جوانا.

كان الراعي يفكر وينظر نحو الأكواخ.

«هذا، سقفه ممتلئ بالمسام. سوف تغرقان خلال ساعة بالكاد.»

نظر نحو الكوخ الآخر، الأبعد.

«تستطيعان النزول في الكوخ الآخر. يفترض أن يحميكما من المطر. لكن هناك احتمال أن تحدث رعود. وإذا كان الجو عاصفًا جدًّا، فلا أضمن باب الدخول. المزلج غير محكم الثبيت.»

هزت جوانا كتفيها. في جميع الأحوال، ليس أمامهما خيار.

«أرضية الكوخ ترابية... أتمنى أن يكون لديكما في الأقل بسط أرضية مريحة...» من خلال ملامح الحرج والخيبة على وجهيهما، فهم الجواب. نظر إلى الأعلى بعينين يائستين.

«سأعيركما بعض الشموع وأعواد الثقاب. أراهن أنه ليس لديكما مصباح يدوي أيضًا.»

لم يحتاجا حتى إلى الرد، فقد استدار الراعي الشاب بالفعل لجمع كل هذا من كوخه.

الكوخ ريفي، أرضيته الترابية متسخة وغير مستوية، ونوافذه قذرة. فوجئا بالعثور على طاولة خشبية ومقعد طويل ومدفأة يبدو للوهلة الأولى أنها لا تعمل.

تركت جوانا حقيبتها وشموعها وأعواد الثقاب هناك قبل أن تنضم إلى إميل في الخارج. حتى بعد أن علما بأن هناك عاصفة قادمة، فإنهما يجدان صعوبة في تصديق توقعات الراعي، لأن الغيوم تسرع في السماء التي لا تزال زرقاء وهادئة تمامًا. استلقيا وسط الوادي للاستمتاع بأشعة الشمس الأخيرة قبل العاصفة.

كانت العاصفة تتجهز. أظلمت السماء وازدادت السحب المتقاطرة قتامة. هبت رياح باردة. سدت جوانا باب الكوخ الأمامي المتهالك بالطاولة الخشبية. تناولوا الطعام بينما كانا جالسين على المقعد، والقصعة الحديدية على ركبتيهما. الأصح أن جوانا هي التي تناولت الطعام. أما إميل، فلم يلمس الوجبة الشبيهة بـ سباجيتي بولونيز، جرت تطريثها بالماء البارد.

«لست جائعًا.»

«حاول. لقد مشينا طوال اليوم.»

«أرغب في التقيؤ. أنا متعب.»

استقامت في قلبي:

«ترغب في التقيؤ؟»

«نعم... ونظري مشوش.»

توقفت، والشوكة على بعد بضعة سنتيمترات من فمها.

«نظرك مشوش؟»

«أريد النوم فقط يا أمي.»

تركت الوعاء الحديدي والشوكة ونهضت.

«حسنًا. سأضع كيس نومك في تلك الزاوية... الأرض أكثر طراوة.»

نظرت إليه وهو يترنح في سيره. وانتابها إحساس غريب. العاصفة تتجهز. قصفُ الرعد الأول مزقَ السماء وتسربت زوبعة عبر فتحة إحدى النوافذ. انطفأت الشمعة وغرقت الحجرة في شبه ظلام.

«الشمعة.» تمتم إميل.

ساعدته على اجتياز الأمطار القليلة الأخيرة إلى كيس نومه.

«لا عليك، سأشعلها من جديد.»

استلقى. أحضرت له المغلف البلاستيكي الذي كان يضم وجبة المساء، نظرًا لعدم توفر شيء أفضل بمتناول يدها.

«خذ هذا، في حال أردت التقيؤ...»

تجلس بجانبه وتنتظر أن يغمض عينيه. كان تنفسه متقطعًا هذا المساء أيضًا. حاولت أن تتجاهل قصف الرعد الثاني الذي مزق صمت الوادي. حاولت إسكات الخوف الذي تولد في جوفها من فكرة هذه العاصفة القادمة.

أشعلت الشمعة الكبيرة على حافة إحدى النوافذ، بواسطة عود ثقاب، وهيات هذه المرة شموعًا أخرى، في حال انطفأت هذه من جديد. هيات شموعًا في جميع أنحاء الحجرة. ثم جلست على المقعد وحاولت إنهاء وجبتها. كانت السماء تهدر بشدة. هناك قصف رعد آخر يختمر. ركزت كل انتباهها في أثناء تثبيت الشمعة على النافذة، كيلا تهتز يدها فتنتطفئ.

شعرت به وهو يرتجف داخل كيس نومه في الزاوية المظلمة من الحجرة. حاولت القراءة لوضع دقائق على ضوء الشمعة. هدأت السماء، وتوقعت أنه هدوء مؤقت.

«هل أنت بخير؟» سألت وهي تلتفت نحوه.

كان الصوت الذي أجابها ضعيفًا ومخنوقًا.

«عندي صداع.»

نهضت لتنتقل مع شمعتها إلى جانبه، وجلست على الأرض الترابية.

«هل ما زلت ترغب في التقيؤ؟»

هز رأسه نافيًا.

«وماذا عن بصرك؟ كيف ترى الأشياء يا إميل؟»

«أحيانًا يصبح كل شيء معتمًا.»

«كيف؟»

خرج صوتها مخنوقًا.

«أحيانًا لا أرى شيئًا. كل شيء يصبح أسود.»

«وبعد ذلك، هل يعود كما كان؟»

«نعم. أحيانًا.»

استمدت من أعماق نفسها ما يجعلها تبدو هادئة.

«لا عليك يا عزيزي. عندما تحصل على القليل من النوم، ستتحسن الأمور.»

عادت غريزتها الأمومية إلى السطح. لم تجد كي تبقى واقفة على قدميها في مواجهة العاصفة، سوى تمرير يدها فوق جبينه، كأنها تتوقع أن تجده محمومًا. لكنها لن تجده كذلك بطبيعة الحال. فإصابته ليست فيروسية. المشكلة تكمن في جذع دماغه. وظائفه الداخلية كلها تتعرض للاضطراب.

«هل تريد أن أحكي لك حكاية تساعد على النوم؟»

رأته يومئ برأسه.

«حسنًا. إذا... هل تعرف حكاية نوم الإبهام؟»

«لا.»

«سأحكىها لك. لكن أغمض عينيك. سيساعدك ذلك على النوم.»

امتل.

لقد نام. عاودت العاصفة نشاطها في الخارج. هبت الريح وارتج الباب الأمامي على مفصلات. اهتز زجاج النوافذ. تمكنت هبات عنيفة من الرياح، بين وقت وآخر، من النفاذ إلى الغرفة، مما أدى إلى إطفاء نصف الشموع. كان البرق يشق السماء، ويضيء الحجرة بوهج مخيف. ثم نزلت فوق الجبل صاعقة أصدرت ضجيجًا يصم الأذان. مع ذلك نام إميل، وكانت جوانا تتأكد بانتظام من ذلك، بشعور متزايد من التوتر. أخذ المطر يهطل بغزارة على سطح الصفيح. شعرت بالبرد، وانتهى بها الأمر بأن قامت هي أيضًا بالتدثر بكيس نومها قرب إميل. إلا أنها لم تستطع النوم.

«أمي.»

كان ضجيج المطر والرياح والرعد قويًا حتى أنها احتاجت إلى عدة ثوانٍ كي تسمع صوت إميل، رغم وجوده بجوارها.

«أمي...»

«نعم. ماذا هناك؟»

«أنا... أنا... لا أستطيع التنفس.»

كان يتكلم بصورة متقطعة. لكنها لم تسمع كيف بات يتنفس بصعوبة بسبب كل ضجيج الخارج. لا تزال تعتمد على مواردها الذاتية كي تحافظ على هدوئها. «يجب أن تسترخي يا إميل. سيكون الأمر أفضل عندما تكون هادئًا.»
«لم أعد أستطيع... التنفس...»

شعرت بيد إميل تمسك بيدها وتطحنها. لقد بدأ الذعر يتتبعه. رفعت صوتها في محاولة لإسكات قلقها.

«إميل، اسمعني. يجب أن تهدأ. ركّز على...»

راحت تبحث عن شيء في ظلام الحجرة عندما شقَّ برقٌ صفحة السماء.

«انظر إلى البرق في السماء. انظر إلى هذه العاصفة على الجبل. إنه منظر رائع.»

ضرب البرق مكانًا ما، بين منحدرات الجروف الجيرية. لمع برق جديد.

«انظر يا إميل، إنه مشهد مخيف ولكنه جميل أيضًا.»

كان البرق ينير الحجرة. رأت وجهه الذي شوهه الذعر، وعينيهِ البنيتين اللتين

تحاولان بعناد، النظر إلى النافذة، إلى السماء، إلى البرق.

«هذا جيد يا عزيزي. استمر في مشاهدة هذا العرض.»

كانت يد إميل تطحن يدها، وفمه يفتح محاولاً على نحوٍ محموم امتصاص

الهواء، فتخرج منه حشرة خشنة، ولا يمر الهواء. أو بالكاد. صدق إحساسها، والعاصفة تختمر في الخارج والداخل، كي تحدث هذه الليلة.

أحست جوانا بالدموع على خديها، لكن لهبتها الهادئة والمطمئنة لم تفارقها.

راحت تكلمه مرارًا وتكرارًا.

«يمكنك أن تحسب الثواني التي تفصل بين البرق والرعد لتقدير كم كيلومتراً يبعد المكان الذي ضربته الصاعقة. كنت أمارس هذه اللعبة في صغري، عندما أشعر بالخوف من الرعد.»

ينفتح الفم وينغلق بحركاتٍ فجائية. الرقبة متصلبة، ترتفع بهزاتٍ مباغته لتسهيل مرور الهواء إلى القصبة الهوائية.

«كان والدي يقول... كان والدي يقول إن الثانية تعادل كيلومتراً. هل تريد أن تحسب معي؟»

إنها النهاية هذه المرة. لقد انقلبت عينا إميل. راحت تصلي من أجل انتهاء المحنة كيلا يعاني طويلاً من هذا الرعب، وهذا الاختناق البطيء.

إنها أنفاسه الأخيرة، بالهواء القليل المتبقي له، نادى إميل أمّه. تشبث بيدها. إنه يحتاجها أكثر من أي وقتٍ مضى. إلا أن جوانا هي من توجد هنا، وليست أمه.

بقوة تعادل قوة عاصفةٍ مباغته، عادت إليها ذكرى أليمة.

غابة في الصيف. بحيرة برية، زُرقتها عميقة مخيفة تميل إلى السواد. بحيرة محاطة بالعوسج والعشب الطويل. سطح ممتد من الماء الساكن. تطفو فوقه أغصان شجر وبقع من الطمي وبعض الأوراق، وجسد صغير. رأس أشقر. قميص أبيض.

عاصفة داخل صدرها، شيء يدمر كل شيء، يدمر عالمها. رجال في الماء، رجال يلتقطون صغيرها. يداها تخمشان، تضربان الهواء للإمساك بطفلها الصغير، وضمه إليها للمرة الأخيرة، وإعادته إلى المنزل. رجال بملابس سوداء يسدون طريقها، يأخذون توم بعيداً عن هناك.

لقد ارتكبت خطأ فادحاً وما كان ينبغي أن تفعل. هي ليست رفيقة سفر في رحلةٍ أخيرة فقط. وليست فقط زوجة إميل.

هي أم. الليلة، وأكثر من أي وقتٍ مضى، هي أم وتذكر أنها أخطأت، منعت أمّاً من احتضان صغيرها، مرة أخيرة.

كانت جوانا جالسة على صخرة كبيرة، تراقب بزوغ الفجر. لقد مرت العاصفة، وعاد الهدوء إلى الوادي وسط الجبال. راح أول خيوط النهار ينعكس على قمم الجبال، بتدرجات جميلة من اللون البرتقالي والوردي والأحمر. واصطبغت السماء بتوهجات زرقاء صدفية.

بحركات بطيئة، فتحت جوانا الدفتر الأسود على ركبتيها. أخرجت الورقة المطوية المثبتة تحت الشريط المطاطي للغلاف. فتحتها بعناية وبدأت بقراءتها.

تعليماتي لما بعد الوفاة:

جوانا، إذا سارت الأمور كما أتمنى، سأموت بعيداً عن المستشفيات، في مكان هادئ ومسالم، في الجبال. دعي عنك كل الإجراءات الشكلية المربكة التي ستتع. فقط اتصلي بأول طبيب تجدينه على الإنترنت أو في الدليل، واطلبي منه أن يأتي ويعلم وفاتي. سأجنبك الباقي. سأأخذني إلى أقرب حجرة دفن ويتولى الاتصال بعائلتي. سوف يتسلمون جثتي ويقومون بباقي الإجراءات الشكلية. لقد قمت بما يكفي. أود أن ترسلي دفتر ملاحظاتي إلى والدي، كما قلنا. وهذا عنوان منزلهما:

السيد والسيدة فيرجيه

112، زقاق دي لينز

43200 روان

أرسله بالبريد المسجل من فضلك، لا أريد أن يضيع.

لقد نقلت إلى والدي تعليمات إحراق جثمانني. أعلم أنهما سيقدران كلمتي وأعتقد أنهما سيقيمان احتفالاً دينياً. سوف تجدان العنوان والموقع من خلال استشارة قسم النعي في صحيفة روان اليومية. اسم الصحيفة «Le Roanne Info» وهي متاحة عبر الإنترنت.

عدا ذلك، سلتقي هناك في الأعلى... سأعتني بتوم. سنرسل إليك من وقتٍ لآخر
أجمل سماءات الصيف، فقط لتمكنني من تأملها من هنا في الأسفل، وأنت جالسة
وسط حفل.

شكرًا لوعدك. شكرًا على كل شيء.

زوجك.

إميل

ملاحظة: لم أخبرك قط بأنك كنت باهرة في يوم 31 أغسطس، ذاك، في شوارع
أيوس المرسوفة بالحصى.

تركت الدموع تندرج على خديها. أشرقت الشمس الآن بالكامل، لتبر
المنحدرات بضوء مبهر. لا شيء يشير إلى العاصفة التي هبت في الليل.
أخرجت جوانا الهاتف الخليوي من جيبتها وبدأت بالنقر على محرك البحث.
ظهرت قائمة النتائج، مسحت خديها في شروذ وضغطت على زر الاتصال المرتبط
بالنتيجة الأولى.

أجابها صوت أنثوي. صوت امرأة استيقظت للتو. أخذت جوانا نفسًا عميقًا
لمنح نفسها دفعة من الشجاعة.

«آلو، مرحبًا. أنا... اسمي جوانا.»

وعلى الطرف الآخر من الهاتف، أجابتها شهقة مخنوقة. سمعت صوتًا من
الخلف، صوت رجل يسأل:

«ماذا يحدث؟»

همس صوت المرأة، المرتجف، اللاهث، همس للرجل:

«إنها هي.»

سمعت من خلال جهاز الاستقبال ضجيجًا أصم، كما لو أن شخصًا ما قد
أسقط شيئًا ما. تمكنت المرأة من أن تسأل وسط الدموع:

«هل... هو... هل انتهى الأمر؟»

احتاجت جوانا إلى ثانيتين كي تدرك تمامًا ما تفعله. إنها تريد أن تفعل ذلك بوعي كامل.
«لا»

تلقت من الطرف الآخر للخط، إجابةً على شكل علامتي تعجب مخنوقتين،
عدم يقين متلعثم، أمل لا يصدّق ولا جرأة على الإيمان به.
«عفوا؟ هو... لم... هل لا يزال على قيد الحياة؟»
لم ترفع جوانا عينها لثانية واحدة، عن إير أنسابير. كانت تستمد قواها الأخيرة
من تأملها.

«لقد أمضى الليل... أعتقد أنه لم يعد أمامه وقت طويل. يوم أو يومان على
الأكثر. أنا...»

مسحت دموعًا جديدة لا تزال تتدفق على خديها.
«هل لديك ورقة وقلم؟ سأعطيك موقعه. نحن... نحن في كوخ في الجبال...
بالقرب من ليسكون، في جبال البيرينيه.»

«انتظري، انتظري، ذهب زوجي لإحضار ورقة وقلم.»
سمعت حركة مضطربة وهمسات محمومة. وأخيرًا صوت الرجل يعلن:
«ها هو. لدي ما يلزم للتدوين.»

«إحداثيات نظام GPS خط عرض 42.898568، خط طول -
0.716594.»

«انتظري... انتظري، هل يمكنك تكرار ذلك... للتأكد؟»
«بالطبع. خط عرض 42.898568، خط طول 0.716594»
كان الانفعال واضحًا على الجانب الآخر من الخط. سمعتها جوانا يهمسان
على عجل. لكنها أضافت:

«لقد تمنى أن يموت في مكانٍ مثل هذا. تلك كانت أعز أمنياته. وياتصالي بك
أكون قد خرقتُ الاتفاق الذي قام بيني وبينه... من فضلك عِدني أنك لن تأخذه
إلى المستشفى.»

انخرطت والددة إميل في البكاء في جهاز الاستقبال. راحت جوانا تتخيل وجهها الممزق بالدموع والانفعالات الجياشة. لكن الصوت أجاب مع ذلك: «أعدك.»

انتظرت جوانا مرور دفق المشاعر على الجانب الآخر من الخط. انتظرت أن يهدأ النحيب، ويعود الصمت.

«شيء أخير.» همست، ونظرتها مثبتة على الإبر الملعونة.

«تفضلي...»

«أريد أن تعلمي يا سيدة فيرجيه أنك كنتِ معه في هذه الرحلة الأخيرة.

أنت...»

اضطرت أن تقطع كلامها لمنع انهيار دموعها.

«لقد كنتِ معه في كل ثانية من هذه الرحلة الأخيرة. هناك... هناك لوحة في

الكوخ الذي يوجد فيه إميل... سوف ترينها... سأضعها بطريقة يسهل عليك

رؤيتها. وسوف تفهمين. لقد كنتِ معه في كل خطوة على الطريق.»

لم يعد بإمكانها الاستمرار. كان التأثير أقوى مما يجب. اضطرت أن تنهي المكالمة

دون كلمة أخرى.

استيقظ إميل في الكوخ الصغير الذي تفوح منه رائحة الرطوبة. بقي مستلقيًا

لأنه مرهق، لكنها تمكنت هذا الصباح من جعله يتناول بعض الفاكهة المجففة.

تركت له كيس نومها، فلن يحتاج إليه بعد الآن. أما هو فيحتاج إليه، يحتاج أن يبقى

دافئًا حتى وصول والديه. لقد شرحت له عدة مرات:

«سيكون والدك هنا، وعليك أن ترتاح قبل وصوله، اتفقنا؟»

أوماً. لم يعد يتكلم كثيرًا، فكل كلمة تجعله يلهث. إنه شاحب. لم يعد لديه

وقت طويل. بدأت فترة بعد الظهر. كانت جوانا متأكدة أن السيد والسيدة فيرجيه

سيصلان قبل حلول الظلام. لقد نسقت كل شيء مع الراعي الذي لم يفهم الكثير

من قصتها.

«أناس سيأتون؟»

«نعم. والدا إميل، سيأتيان للانضمام إليه. سيكون عليك فقط إرشادهما إلى
كوخه عند وصولهما. اتفقنا؟»

لم يفهم كل شيء.

«وأنت، لن تكوني هنا؟»

«لا.»

«كيف ذلك؟»

«يجب أن أغادر.»

لم يبدُ سعيدًا. كان ساخطًا.

«لنتك تستطيع الاطمئنان عليه من وقتٍ لآخر...»

هذه المرة، بدا الراعي غاضبًا بشكلٍ واضح.

«لدي عمل أقوم به!»

لم تصر، فهي لم تستطع على أي حال أن تحسم أمرها وتنصرف تاركةً إميل
بمفرده. بقيت معه، وسقته رشقات صغيرة من الماء، ساحبةً كيس النوم حتى
ذقته، فقد بدا أنه يشعر بالبرد. وضعت اللوحة التي رسماها معًا فوق الطاولة
الخشبية على نحوٍ مرئي، وبجوارها مباشرةً، دفتر إميل الأسود. ألقت جوانا نظرة
من النافذة. كانت السماء زرقاء وبدأت الشمس تهبط في ببطء. تمنَّت لو أنها تحمل
إميل وتضعه فوق العشب الأخضر، حتى يتمكن من الاستمتاع بغروب الشمس
للمرة الأخيرة، لكنها تعلم أنها لن تقوى على ذلك. اقترحت عليه ببساطة أن ينظر
إلى السماء الزرقاء، هذه السماء الزرقاء الجميلة، من خلال النافذة.

سمعت صوت محرك من بعيد، صوت مركبة تقترب. كشف لها الراعي، قبل
برهة، أن هناك طريقًا شديد الانحدار، يمكن من الوصول إلى مسافة بضع مئات
من الأمتار من الوادي والأكواخ، في حالة الطوارئ. كانت تعرف أنها والدا إميل.
«لا أحد يسلك هذا الطريق أبدًا.» قال الراعي.

«إلا إذا كانت لديه سيارة دفع رباعي أو تصريح خاص.»

تكفلت جوانا بالحصول على إذن من الراعي. كان لديه مفاتيح البوابة الثقيلة التي تمنع الوصول إلى المكان. هذا الطريق ملكٌ له. اتصله منه المؤن مرة في الشهر، مع أدويته الخاصة بضغط الدم. بدا غاضبًا لكنه وافق على فتح الطريق. الزوجان فيرجيه يقتربان. وفي غضون دقائق قليلة، سينزلان من سيارتهما، عند مسافة مائة متر إلى الأسفل، ليباشرا الصعود سيرًا وربما ركضًا. لقد حان الوقت كي تنصرف جوانا، متسللةً بين الصخور، ثم تختفي بين الشجيرات.

«حسنًا.» همست متوترة.

«يجب أن أتركك. والدك قادم. سأذهب لإحضاره، اتفقنا؟»

رأت وجهه الشاحب يومئذ.

«أراك بعد حين يا عزيزي. سنلتقي قريبًا جدًا.»

قبلت جبهته وشعره الرطب. عبرت الحجرة كأنها في وضعية الصورة البطيئة. وعند عتبة الباب المتهالك، ألقت نظرة أخيرة عليه. ثم لا شيء آخر. اختفت مع حقبة ظهرها الحمراء الكبيرة.

«الرحيل الحقيقي لا تسبقه أي كلمة.»

إدموند جاييس، كتاب التشابهات

خاتمة

إنه يوم صيفي عاصف ورمادي. السماء منخفضة. الهواء ثقيل. المطر يهدد بالهطول، والحشد كثيف في الساحة أمام كنيسة نوتردام دي فيكتور. حشد كثيف استمر في الاتساع. كان جوزيف يقول لجوانا دائمًا:

«لعرفة عمر المتوفى، أحصي عدد الأشخاص الذين حضروا جنازته. كلما زاد عدد الأشخاص، كان أصغر سنًا.»

سألته جوانا عن تفسير هذه النظرية العبثية وأجاب جوزيف وهو يهز كتفيه: «جنازة شخص مسنّ لا تحرك مشاعر الكثير من الناس، فلا يذهبون لحضورها.»

أجابت جوانا التي كانت في التاسعة من عمرها:

«هذا غير صحيح!»

مز جوزيف كتفيه مرة أخرى.

«سأعطيك إذًا سببًا آخر. أصدقاء الأشخاص المسنين، متقدمون في العمر... أو في عداد الأموات.»

في صباح يوم 20 يونيو/ حزيران، الحشد لا يكذب. الميْتُ شاب. هناك عائلات تصطحب الأطفال حديثي الولادة في الساحة، ولكن هناك أيضًا الكثير من الشباب الذين يبدو أنهم بالكاد خرجوا من الجامعة. أصدقاء.

وصلت جوانا إلى روان بالقطار في الصباح الباكر. كان عليها أن تستيقظ في الرابعة فجرًا. لم تتمكن من النوم في أثناء الرحلة، وفور وصولها إلى المحطة، كان عليها أن تواجه الخراطم المعقدة لشبكة حافلات روان، قبل أن تسلك مسارًا خاطئًا مرتين. فكرت أنها لم تكن تعتاد المدينة قط، لكن هذه الشهور الاثني عشر التي قضتها على هامش الحضارة، في قلب جبال البيرينيه، جعلتها في النهاية بعيدة عن التأقلم مع حياة المدينة.

دقت الأجراس معلنة عن قرب بدء الجنازة. اندفع الحشد إلى الداخل، وبقيت جوانا في الخلف، على الرصيف المقابل، على مسافة مئة متر من الكنيسة. سوف تدخل بعد أن يأخذ الجميع أماكنهم في الداخل. كانت تشعر أنها غريبة في هذه الأماكن. جاء أكثر من مائة شخص لوداع إميل. أكثر من مائة شخص عرفوه، عملوا معه، أحبه. ومع ذلك، فقد اختار من بين الجميع أن يموت معها هي، الفتاة المجهولة.

دخل الحشد إلى الكنيسة وتسلمت هي قبل لحظة من إغلاق الباب الخشبي الثقيل. بقي هناك مكان واحد في الصف الأخير، جلست فيه وهي تسمع حركة في الصف الأمامي. رجل وامرأة، برفتيهما طفل صغير، نهضا للتو لتحية امرأة شابة وصلت متأخرة. والدة الطفل ذات شعر أشقر مجعد ومظهر جدي، والأب يبدو حزينًا بعينه الحمراءين وكتفيه المتدليتين. لا بد أنه كان صديقًا مقربًا لإميل. ربما رينو. تبادلوا بضع كلمات مع السمرات الشابة التي وصلت للتو. إنها ذات شعر بني طويل وأملس تمامًا يصل إلى منتصف ظهرها، وشفتين مستديرتين، وتدل من أذنيها لؤلؤتان صغيرتان. إنها جميلة جدًا واثقا، يكاد يكون وقعًا. ومع ذلك فإن وجهها فارغ قليلًا هذا الصباح ويبدو أن عينيها تائهتان.

تعلن نحنة عميقة عن وصول الكاهن الذي يرأس الجنازة. أسرع الأشخاص الثلاثة للجلوس، وساد صمت أكثر شمولًا في الكنيسة.

لم تكن جوانا تستمع حقًا إلى الكلمات المنطوقة، بل تنظر إلى وعاء الرفات الفضي على المذبح، إلى الأشخاص الذين يقفون، الواحد تلو الآخر، لقراءة مقطع من الكتاب المقدس أو لذكر المذائح لإميل. ومن بينهم الصديق الحزين الذي اشتبهت جوانا بأنه رينو، ولم تخطئ. جالت بنظراتها بين الحشد من جديد. استطاعت أن تميز مارجوري، خلف الوجه الشاحب والشعر البني المتموج. ميزت الأب والأم من خلال ظهريهما الثقيلين المنحنيين في الصف الأمامي. كان الأطفال يجلسون صامتين في عرباتهم.

سرت همهمة بين الحشد عندما اقتربت الأم من المذبح ومعها دفتر ملاحظات ذو غلاف جلدي أسود. استقامت جوانا والتقطت بضع كلمات من الكاهن عن الرحلة الجبلية التي قام بها إميل قبل رحيله الكبير، رحلة تقربه من الرب. قطبت جوانا حاجبيها. ارتفع صوت والدته إميل الممزق. قرأت مقطعاً قصيراً ترك الجمهور ممتلئاً بالأسئلة حول هذه الرحلة التي لا أحد يعرف عنها شيئاً. انكمشت جوانا بشكلٍ غريزي في مقعدها محاولة الاختباء.

سأموت قريباً ولم أشعر قط بهذا القدر من السلام مع نفسي. أنظر بعين جديدة إلى نفسي، إلى الشاب الغبي إلى حدٍّ ما، الذي كنته، لكن هذه العين تنظر بعطف. بفضل هذه الأشهر القليلة، أشعر أنني كبرت، أنني ارتقيت.

يموت الصوت في الكنيسة وسط الشهقات وحفيف المناديل. حين يعود الكاهن للكلام، تخرج المرأة الشقراء ذات الشعر المجعد، رفيقة رينو، من الكنيسة، لإسكات الصبي الصغير الذي بدأ بالبكاء. تسللت جوانا خلفها عبر الباب الخشبي الثقيل، إلى ساحة الكنيسة. أصبح الهواء أكثر ثقلًا. عبرت الطريق إلى الرصيف المقابل، وجلست فوق درج صغير يقود إلى شقة. من هناك، يمكنها رؤية مخرج الكنيسة، ومتابعة الموكب من بعيد، حتى المقبرة. إنها لا تعرف ما يعتزم والدا إميل أن يفعلاه برماده، لكنها تفترض أنها سيضعانه فوق قبره.

رفعت نظرها إلى السماء الرمادية الكامدة، الخالية من أي حركة، فلا ترى فيها الغيوم الواضحة، ولا الخطوط، ولا التجاعيد. فكرت أن ترم وإميل تكاسلا اليوم ولم ينجزا عملهما. ربما بسبب انشغالهما الشديد بالتعرف إلى بعضهما البعض. هذا الحفل المبتذل الخالي من أي بعدٍ شخصي، لا يعنيهما. ربما يلقي عليه إميل نظرات مشتهة وهو ينهي مباراة سكرابل، ردًا على مباراة خسرها قبل ستة أشهر...

تركت نظراتها تجول في هذه السماء القطنية المنخفضة، وهي تفكر أنها كانت تتمنى لو كان الحفل مختلفًا. بضع كلمات تُلقى في الغابة، عند سفح الجبال، بحضور آني، هيبوليت، سياستيان، الشابتين الكنديتين، إيزادورا، ماريكو، لوسيا، بوك... وياقات من زهور يقطفونها. كتاب أصفر يحتوي على مقاطع من كتبٍ يقرؤونها

بصوتٍ مسموع. مكان محمي مصنوع من الأغصان، كانوا سيقومون ببنائه وإخفائه تحت طحالب الغابة الكثيفة، لوضع جرة الرفات، الفضية. تركت ابتسامة مرتجفة ترتسم على وجهها. تركت صورَ هذه الغابة وهذا الحفل تنطبع في بطءٍ داخل ذهنها.

لم يبقَ سوى عشرين شخصًا يتبعون الموكب الذي يحمل رماد إميل إلى مأواه الأخير. العائلة وبعض الأصدقاء، بينهم رينو. بقيت زوجته في الخلف، مع طفلها الذي لا يزال يبكي. لا تشعر جوانا، البعيدة إلى الوراء، بالانتماء إلى هذا الموكب، لكن واجبها الأخلاقي يفرض عليها أن ترافق إميل حتى النهاية. وضعت جرة الرفات الفضية في مدفن صغير مغطى بلوح أبيض. رأت جوانا السيدة فيرجيه ترفع منديلًا إلى فمها لخلق تنهيدة. ويلف زوجها ذراعه حول كتفها.

ضغطت جوانا في راحة يدها فوق خاتم إميل، خاتم الزواج المزيف الذي اشتريته له. لقد أسعفها الوقت كي تنقش في الجهة الداخلية للخاتم الفولاذي مثلًا كورسيكيًا قصيرًا كان جوزيف يحب أن يردده على سماعها: كي تغيّر النجوم تحتاج إلى تغيير السماء. يشكّل النقش ثلثًا رقيقًا داخل الخاتم.

بعد تفرق الحشد، ستأتي جوانا وتضع الخاتم فوق اللوح الأبيض الصغير. أو ربما ستدفنه بجانبه خوفًا من أن تطيح به قطعة ضالة. ستنتظر من هنا، مختبئة بين الأشجار، إلى أن يختفي الجميع.

استغرق تفرق الحشد ما يقارب الساعة. وكان المطر هو الذي وضع حدًا للعناقات وتبادل التعازي أمام اللوح الصغير. كان والدا إميل وأخته وزوجها آخر من غادر المقبرة تحت مظلة سوداء كبيرة.

ظهرت جوانا أخيرًا، وكأنها خارجة من بين أوراق الشجر. عبرت الممر المركزي تحت المطر. لقد احتاطت بإحضار شالها الأسود للمناسبة ووضعت فوق رأسها لاتقاء المطر. كانت يدها المتعركة تمسك بالخاتم. عند وصولها أمام اللوحة البيضاء، المغطاة بالورد واللوحات التذكارية، ركعت فوق العشب الطازج

والتقطت أنفاسها في بطن. لم يتلاش التعب قط، ولا تزال، بين حين وآخر، ترى نجومًا بيضاء تراقص أمام عينيها. استغرقت بضع ثوانٍ للتعافي وبدأت تحفر الأرض المحيطة باللوح الأبيض، بيديها العاريتين. لطّخ التراب أصابعها، وتسرب تحت أظافرها، فأصبحت سوداء أكثر فأكثر. انساب المطر فوق ذراعيها. حملت الخاتم بين شفتيها لفترة وجيزة، قبل أن تضعه في الأرض وتدفنه.

عندما استدارت، توقف قلبها توقّفًا عابرًا وخنقت في جوفها شهقة مفاجأة. مارجوري هناك، على بعد أمتارٍ قليلة منها، تحت مظلة سوداء. وجهها مبلى بدموع لم تجف، لكن نظرة عينيها تبدو حانية وهي تسأل:

«هل أنت جوانا؟»

بقينا صامتتين في أثناء انتظار عودة النادل بطلباتهما. تناولت مارجوري القهوة وتناولت جوانا نقيعًا عشبيًا. قبل قليل، عندما تواجهتا في المقبرة، وسألت مارجوري:

«هل أنت جوانا؟»

اشتدّ هطول المطر، أتيج لـ جوانا وقت يكفي فقط كي تومئ برأسها، قبل أن تحميها مارجوري تحت مظلتها وتقول:

«تعالى معي، لا تبقي تحت المطر. يوجد مقهى في الجهة المقابلة.»

تبعتهما جوانا دون كلمة، مثل إنسانٍ آلي أخذ على حين غرة. دفعت مارجوري باب المقهى الصغير وأسرعت جوانا إلى الداخل. انزلقتا بين الطاولات وجلستا إلى إحداها، قرب النافذة. شكل المطر قطرات جميلة على الزجاج. فور جلوسهما انقضّ عليهما النادل لتلقي طلباتهما قبل أن يمنحهما الوقت لخلع معطفيهما. بدأت مارجوري تفعل ذلك، بينما تحاول جوانا خفية مسح يديها الممتلئتين بالتراب فوق فستانها الأسود. كانت إحداها تلقي على الأخرى نظرة فضول، من وقتٍ لآخر، وليس في وقتٍ واحد، ويبدو أنهما تعتقدان أن بضع ثوانٍ من الصمت ضرورية لهما لجمع أفكارهما. طال انتظار النادل. وضعت مارجوري سترتها بعناية على مسند كرسيها، ومسدتها بظاهريها. حين وجدت أن الصمت قد طال، بدأت:

«أنا مارجوري. شقيقة إميل.»

أومات جوانا برأسها، مخبئة يديها السوداءين تحت الطاولة.

«أخبرني أخي بأنك قد تكونين متحفظة... وربما تتوارين قبل الجميع.»

لم تستطع جوانا أن تخفي مفاجأتها. شعرت بحاجيتها يرتفعان وحاولت استعادة برودة أعصابها.

«لقد أرسل إلينا رسالة في ديسمبر/ كانون الأول تحتوي على العديد من التعليمات... وهذه المعلومة.»

تذكرت جوانا تلك الرسالة. لقد اختفى في صباح أحد الأيام لإرسالها، وظنت أنه رحل إلى الأبد، وتركها في آس.

«أعطانا في تلك الرسالة بعض التوجيهات حول كيفية تمييزك. تحدث عن قبعة سوداء ولكني أرى أنها ليست معك اليوم...»

أومات جوانا برأسها، بهيئة لا تزال مرهقة. ابتسمت لها مارجوري كي تشعرها بالارتياح. في هذه اللحظة اختار النادل العودة حاملاً طلباتها. وضع قهوة إسبرسو أمام مارجوري وفنجاناً كبيراً يتصاعد منه البخار أمام جوانا. تناولت مارجوري من وسط الطاولة إصبعاً ورقياً صغيراً من السكر أفرغته بعناية في قهوتها قبل تحريكها. ثم رفعت وجهها نحو جوانا.

«لقد قرأت دفتر ملاحظاته في ليلة واحدة. فتحته ولم أتمكن من تركه قبل الفجر. هل تعلمين أنه...»

توقفت لتناول رشفة من قهوة الإسبريسو ثم نظرت من جديد إلى جوانا. «هل تعلمين أنه لا يوجد مقطع واحد، أو يوم واحد في سجله، لا يتحدث فيه عنك؟»

تلوّت جوانا، غير مرتاحة، ولم تعرف كيف تجيب. إلا أن مارجوري واصلت كلامها، كأنها لا تنتظر جواباً.

«المقطع الذي قرأناه في الكنيسة كان استثناءً على نحوٍ متعمد. لم نشأ أن نشعرك بعدم الارتياح. كنا نعلم أن هذه ستكون لحظة صعبة بالنسبة لك... ومع ذلك، أردنا أن نشعرك على هذه اللقطة التي قمت بها... الاتصال بوالدي... واللوحة... لن تشعرك أُمي بما يكفي. لقد تركت فيها قدرًا عظيمًا من الأثر الطيب بكلماتك. أردت أن تعلمي ذلك.»

سالت بضع دمعات على وجه مارجوري، فالتقطت منديلًا ورقيًا من وسط الطاولة لمسحها. فتحت جوانا فمها للمرة الأولى وسألت بصوتٍ مخنوق:

«هل تمكنتِ من رؤيته... للمرة الأخيرة؟»

شهقت مارجوري ووضعت المنديل المجدد في جيبيها.

«لا. لكن والديّ تمكنا من قضاء ليلة معه في ذلك الكوخ.»

ابتلعت جوانا الغصة التي تسد حلقها، لتتمكن من السؤال:

«هل فارق الحياة في صباح اليوم التالي؟»

أومأت مارجوري.

«لقد غادر عند الفجر في سلام. ويبدو أنه كان يتسم.»

خرجت من فم جوانا، كلماتٌ في نفسٍ واحد:

«قال إن ذلك المكان هو الجنة.»

احتاجتا إلى بضع ثواني لابتلاع تأثرهما ومسح الدموع التي أخذت تتلألأ في زوايا عيونهما. لمساعدة نفسها، ابتلعت مارجوري ما تبقى من قهوتها في جرعة واحدة.

«لقد جعلته سعيدًا حقًا.» أعلنت.

بعد مرور ثواني في المقهى الصاخب، والمطر لا يزال يضرب النوافذ، حملت جوانا مشروبها الذي برد إلى شفتيها. مسحت مارجوري خديها بطرف كنزتها السوداء. عندما رفعت رأسها، كان هناك بريق غريب في نظرتها.

«لدي غرفة في المنزل، غرفة فسيحة بها يكفي...»

لم تحب جوانا بشيء، ولا تدري ما الذي يفترض بها أن تقوله. تركت مارجوري تواصل الكلام.

«لقد أعدتُ ترتيبها مؤخرًا وفق تعليمات محددة جدًا أعطيت لي. ملأتُ رفًا بكتبٍ قديمة اشتريتها من سوق للسلع المستعملة، ووضعت طاولة قهوة صغيرة مع بعض الكراسي من الخوص، وضعت عليها إبريق شاي عتيقًا جميلًا به مجموعة رائعة من أنواع الشاي الشرقي، من الهند والصين...»

غمر عدمُ الفهم وجهَ جوانا، لكن مارجوري استمرت.

«صندوق فضلات للقطط إضافة إلى خزانة كاملة لطعام القطط... بالقرب من النافذة، طُلب مني وضع حامل لوحات. في الخزانة القريبة منه، وضعتُ سلسلة من لوحات قماش فارغة طُلب مني شراؤها، إضافة إلى خمسة عشر أنبوبًا من الألوان وما يلزم من قُرَش.»

رأت جوانا تزمَ فمها. واصلت تعدادها:

«راديو قديم على طاولة السرير. لقد طُلب مني أن أضع فوقها المجموعة الكاملة لمايلز ديفيس ولويس أرمسترونج وإيلا فيتزجيرالد وجميع كبار عازفي الجاز الذين يمكنني العثور عليهم في متجر التسجيلات. لقد وجدت عشرة منهم. بعد ذلك، ذهبت لشراء أصيص للنافذة وكيس من التربة العضوية... وأخذني الرجل عبر قسم مستلزمات الحدائق للعثور على بذور الفوشيا والبغونيا والريحان وإكليل الجبل.»

فهمت جوانا. لبثت مذهولة بفمٍ مفتوح وانهمرت الدموع من جديد على وجهها.

«هو من طلب؟» همست.

أومات مارجوري بابتسامةٍ مملّنة بالحنان.

«نعم، هو. وكان هذا أيضًا موضوع رسالته الأخيرة. ثلاث صفحات من التعليمات.»

ابتسمت الفتاتان من بين حجاب دموعهما. عندما تلاشت ابتسامتهما، في بطءٍ، بدت مارجوري أكثر جدية.

«لم يشأ أن تكوني وحيدة. كان يعلم أن لدي هذه الغرفة الفارغة وغير المستخدمة... كان يعلم أنني سأرحب بك.»

أرادت جوانا أن تقول شيئًا لكن مارجوري أوقفتها لتواصل كلامها بسرعة كبيرة:

«لقد حذرني من أنك قد ترفضين. طلب مني أن أخبرك بأنك لست مضطرة للاستقرار هناك بشكلٍ نهائي، وأنه يمكنك فقط أن تمضي فيها بضعة أيام... كأنها بيت للعطلة.»

لم تستطع جوانا أن تبتسم. وراحت تتلعثم بعدم ارتياح:

«أنا آسفة حقًا لكل هذه المشقة التي تحملتها...»

ابتسمت مارجوري وتألفت عيناها العسليتان.

«لأقول لك الحقيقة، لقد أمتعني الأمر للغاية.»

ومع ذلك بقي شعور الحرج مسيطرًا على جوانا.

«أنا... لدي قطعة أرض صغيرة في ليسكون، في هذه القرية البيئية الصغيرة...»

أنا منخرطة في مشروع الزراعة المستدامة... ومن ثم سيصبح بوك أبا... أعني...

قطي سيكون له أبناء عما قريب. أنا... أعتقد أنني لا أستطيع قبول اقتراحك...

أنا... أنا لست فتاة يمكنها العيش في المدن، كما تعلمين.»

لم تبدُ مارجوري مستاءة على الإطلاق. بدا أنها كانت تتوقع هذا النوع من رد

الفعل بالضبط.

«أفهمك يا جوانا. ولكن كوني مطمئنة، لا يزال لديك خيار الإقامة خلال

الإجازات. أنا والداي نود أن نلتقيك يومًا ما بشكلٍ رسمي أكثر...»

أخذ فم مارجوري يتحرك ولكن دون خروج صوت من شفثيها. على الجانب

الآخر من الطاولة، نرعت جوانا أخيرًا الشال الذي كان يلف رقبتها وكتفها

وجذعها بالكامل، ووضعت في بطءٍ على الطاولة بجانب فنجانها الذي يتصاعد

منه البخار. لم تعد مارجوري قادرة على إبعاد نظرها عما تراه. وضعت يدها على

فمها، واستندت إلى ظهر كرسيها. في المقابل، بقي وجه جوانا ساكنًا.

«هذا...»

لم تتمكن مارجوري من الكلام. حاولت من جديد تكوين جملة.

«إميل...؟»

أومأت جوانا. رأت دموعًا جديدة تغمر وجه مارجوري، وقد أطبقت يدها

على فمها.

«هل... هل كان يعلم؟»

ارتسمت ظلال من الحزن في عيني جوانا.

«لا. لقد كان في مكانٍ آخر منذ بعض الوقت.»

عبر الطاولة، راحت مارجوري تبكي بدموع حارة. دموع سعادة هذه المرة، دموع عدم التصديق.

«هكذا إذا... يا إلهي... سوف تجعلين العائلة كلها تبكي!»

استقرت يدا جوانا في لطف فوق التواء المتنامي تحت فستانها الأسود، فوق هذا الكائن الصغير الذي تشعر أنه يتحرك، والذي تم زرعها في أحشائها في يوم ثلجي جميل، في وادي آس، عشية عيد الميلاد. هذا الشيء الصغير الذي جعلها ضعيفة خلال الأشهر القليلة الماضية ويجعلها قوية جدًا الآن.

بكت مارجوري، وبكت جوانا بدورها، في المقهى الصاخب. فكرت أن الأمر قد انتهى، وأن اللعنة قد زالت الآن. لم تعد تطيق موت الأولاد.

«هل تعرفين جنس الجنين؟» سألت مارجوري وهي تلتقط منديلًا ورقيًا جديدًا لتجفيف دموعها.

أومات جوانا.

«بنت.»

ابتسمت مارجوري من خلال الدموع. كررت في تأثر:

«بنت؟»

«أوبال صغيرة. أغلى حجر ثمين.»

توقف المطر في بطءٍ عن الهطول في الخارج. اكتست النافذة بغشاء ضبابي، قام طفلٌ برسم شمس فوقه، في الشارع. لم ترَ جوانا ومارجوري، الفرجة السماوية التي تشكلت في الخارج. هذا اللون الأزرق الكهرماني الجميل الذي تأخذه السماء. سوف تريانها لاحقًا، عند خروجهما من المقهى. سوف تتنفس مارجوري الصعداء مغمضةً عينيها نصف إغماضة. وجوانا سوف تبسم، سوف تهمس ببضع كلمات. كنت قد بدأت أفقد الصبر..

لكنهما حاليًا، لا تزالان في هذا المقهى وأعلنت مارجوري، وهي تضع المنديل في جيبتها:

«أعتقد... أعتقد أنني سأحتاج إلى تنظيف منزل إجازاتك... وتهويته جيدًا.»

بقيت جوانا ساكنة، على الجانب الآخر من الطاولة، ويدها فوق بطنها.

«ألا تبقيين معنا الليلة؟»

فكرت لبضع ثوانٍ. إيزادورا تهتم بـ بوك وبالقطة البرية المرقطة في ليسكون. ولقد توقعت ألا تتم الولادة قبل شهر، لذلك ليس هناك ما يدعوها للإسراع في العودة اليوم.

«حسنًا.» وافقت جوانا.

«ولكن علي أن أخبرك سابقًا...»

قطبت مارجوري حاجبيها في قلق.

«... حول ماذا؟»

«بخصوص العشاء....»

انتظرت مارجوري التهمة وهي منحنية إلى الأمام. شرعت جوانا في ابتسامة محرّجة.

«أنا لا أكل اللحوم.»

مكتبة

t.me/soramnqraa

«كل يوم يحمل الأبدية.»

باولو كويلو، الخيميائي

ميليسا دا كوستا

كلّ أزرق السماء

إميل شاب بلغ 26 عامًا تم تشخيصه بمرض الزهايمر المبكر. قدّر الأطباء أن ذاكرته لن تصمد أكثر من سنتين، فيقرر إميل الإبحار في رحلة أخيرة، فرارًا من المستشفى، ومن شفقة عائلته وأصدقائه.

نشر إعلانًا عن البحث عن رفيق لمشاركة هذه الرحلة الأخيرة. ولدهشته، تلقى ردًا من فتاة اسمها جوان، أمتعته الوحيدة هي حقيبة ظهر، وقبعة سوداء كبيرة، ولا يوجد تفسير لوجودها.

وهكذا تبدأ رحلة مذهلة من الجمال. في كل منعطف من هذه الرحلة، من خلال لقاء الآخرين واكتشاف الذات، يولد الفرح والخوف والصداقة والحب الذي يحترق قشرة الألم لدى إميل شيئًا فشيئًا.

كتابة مفعمة بالحياة واليقظة، وحوارات لا تشوبها شائبة، وشخصيات صادقة ومحبوبة، تحملنا إلى نهاية غير متوقعة، مليئة بالمشاعر. لا نخرج كما كنّا من هذه القصة الرائعة المؤثرة، التي كتبتها ميليسا داكوستا ببراعة.

telegram @soramnqraa

مكتبة
t.me/soramnqraa



منشورات وسم